تفسير القرآن الكريم بوضوح وبيان

د. مجيد الخليفة

الجزء الثالث

تفسير القرآن الكريم

بوضوح وبيان

منشورات

الالكترونية

١٤٤٦هـ/٢٠٢٥

تفسير القرآن الكريم بوضوح وبيان

د. مجيد الخليفة

الجزء الثالث

بسم الله الرحمن الرحيم

سُورَةُ التَّوْبَةِ

[٨٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ﴾ يَعْنِي: النِّسَاءَ، وَالْخَوَالِفُ: جَمْعُ خَالِفَةٍ وَهِيَ الْمَرْأَةُ الَّتِي تَتَخَلَّفُ فِي الْبَيْتِ بَعْدَ سَفَرِ زَوْجِهَا فَإِنْ سَافَرَتْ مَعَهُ فَهِيَ الظَّعِينَةُ، وَقِيلَ: مَعَ أَدْنِيَاءِ النَّاسِ وَسَفَلَتِهِمْ، يُقَالُ: فَلَانٌ خَالِفَةُ قَوْمِهِ إِذَا كَانَ دُونَهُمْ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أَيْ بِسَبَبِ نُكُولِهِمْ عَنِ الْجِهَادِ وَالْخُرُوجِ مَعَ الرَّسُولِ فِي سَبِيلِ اللهِ، وقَالَ النسفي: ختم عليها لاختيارهم الكفر والنفاق ﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ أَيْ لَا يَفْهَمُونَ مَا فِيهِ صَلَاحٌ لَهُمْ فَيَفْعَلُوهُ، وَلَا مَا فِيهِ مَضَرَّةٌ لَهُمْ فَيَجْتَنِبُوهُ.

[٨٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾ لَمَّا ذكر تعالىٰ ذنب المنافقين، بيّن ثناءه علىٰ الْمُؤْمِنِينَ وَمَا لَهُمْ فِي آخِرَتِهِمْ ، وهو في موضع ذم، بالإشارة، إلىٰ المنافقين ﴿وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ﴾ يَعْنِي الْحَسَنَاتِ، وَقِيلَ: الْجَوَارِي الْحِسَانُ فِي الْجَنَّةِ، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ﴾ جمع خيرة ، وَقِيلَ: جَمْعُ خَيْرٍ. فَالْمَعْنَىٰ لَهُمْ مَنَافِعُ الدَّارَيْنِ ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ ، وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: « **إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ، أَعَدَّهَا اللهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِهِ، بَيْنَ كُلِّ دَرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، فَإِذَا سَأَلْتُمُ**

اللهَ فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أَعْلَىٰ الْجَنَّةِ وَأَوْسَطُ الْجَنَّةِ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ، وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ »(١).

[٨٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ الْإِعْدَادُ: التَّهْيِئَةُ، وَفِيهِ إِشْعَارٌ بِالْعِنَايَةِ وَالتَّهَمُّمِ بِشَأْنِهِمْ ﴿خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: « **يَا أَبَا سَعِيدٍ مَنْ رَضِيَ بِاللهِ رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَبِيًّا، وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ**، فَعَجِبَ لَهَا أَبُو سَعِيدٍ، فَقَالَ: أَعِدْهَا عَلَيَّ، يَا رَسُولَ اللهِ! فَفَعَلَ، ثُمَّ قَالَ: **وَأُخْرَىٰ يُرْفَعُ بِهَا الْعَبْدُ مِائَةَ دَرَجَةٍ فِي الْجَنَّةِ، مَا بَيْنَ كُلِّ دَرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ** ، قَالَ: وَمَا هِيَ؟ يَا رَسُولَ اللهِ! قَالَ: **الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ، الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ** »(٢).

[٩٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ﴾ أَيِ الْمُقَصِّرُونَ، يُقَالُ: عَذَّرَ، أَيْ: قَصَّرَ، وَقَالَ الضَّحَّاكُ: الْمُعَذِّرُونَ هُمْ رَهْطُ عَامِرِ ابْنِ الطُّفَيْلِ جَاءُوا رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دِفَاعًا عَنْ أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا: يَا نَبِيَّ اللهِ إِنْ نَحْنُ غزونا معك تغير أعراب طيء عَلَىٰ حَلَائِلِنَا وَأَوْلَادِنَا وَمَوَاشِينَا، فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، « **قَدْ أَنْبَأَنِي اللهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيُغْنِي اللهُ عَنْكُمْ** » ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هُمُ الَّذِينَ تَخَلَّفُوا بِعُذْرٍ بِإِذْنِ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ

---

(١) البخاري (٢٧٩٠) .

(٢) مسلم (١٨٨٤) .

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ﴿وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللهَ وَرَسُولَهُ﴾ يعني المنافقين، قال ابْنُ الْعَلَاءِ: كِلَا الْفَرِيقَيْنِ كَانَ مُسِيئًا قَوْمٌ تَكَلَّفُوا عُذْرًا بِالْبَاطِلِ، وَهُمُ الَّذِينَ عَنَاهُمُ اللهُ تَعَالَىٰ بِقَوْلِهِ ﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ﴾، وَقَوْمٌ تَخَلَّفُوا عَنْ غَيْرِ تَكَلُّفِ عُذْرٍ، فَقَعَدُوا جُرْأَةً عَلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ، وَهُمْ الْمُنَافِقُونَ، فَأَوْعَدَهُمُ اللهُ بِقَوْلِهِ: ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ثُمَّ ذَكَرَ أَهْلَ الْعُذْرِ.

[٩١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَيْسَ عَلَىٰ الضُّعَفَاءِ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَعْنِي المعاقين وَالْمَشَايِخَ وَالْعَجَزَةَ، وَقِيلَ: هُمُ الصِّبْيَانُ وَقِيلَ: النِّسْوَانُ، وَالضُّعَفَاءُ: جَمْعُ ضَعِيفٍ وَهُوَ الَّذِي بِهِ الضَّعْفُ وَهُوَ وَهْنُ الْقُوَّةِ الْبَدَنِيَّةِ مِنْ غَيْرِ مَرَضٍ. ﴿وَلَا عَلَىٰ الْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَىٰ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ﴾ يعني الفقراء ﴿حَرَجٌ﴾ مَأْثَمٌ، وَقِيلَ: ضِيقٌ فِي الْقُعُودِ عَنِ الْغَزْوِ، وَالْحَرَجُ: الضِّيقُ وَيُرَادُ بِهِ ضِيقُ التَّكْلِيفِ، أَيِ النَّهْيِ. ﴿إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ فِي مَغِيبِهِمْ وَأَخْلَصُوا الْإِيمَانَ وَالْعَمَلَ لِلَّهِ، وَبَايَعُوا الرَّسُولَ، وَالنُّصْحُ هُوَ إِخْلَاصُ الْعَمَلِ مِنَ الْغِشِّ، قَالَ الرَّازِيُّ: وَالنَّاصِحُ: الْخَالِصُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ. قَالَ: وَرَجُلٌ نَاصِحُ الْجَيْبِ أَيْ نَقِيُّ الثَّوْبِ. وَمِنْهُ التَّوْبَةُ النَّصُوحُ وَهِيَ الصَّادِقَةُ، وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: فَلَيْسَ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ حَرَجٌ إِذَا قَعَدُوا وَنَصَحُوا فِي حَالِ قُعُودِهِمْ، وَلَمْ يُرْجِفُوا بِالنَّاسِ، وَلَمْ يُثَبِّطُوهُمْ، وَهُمْ مُحْسِنُونَ فِي حَالِهِمْ هَذَا، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿مَا عَلَىٰ الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ﴾ أَيْ: مِنْ طَرِيقٍ بِالْعُقُوبَةِ، وَالسَّبِيلُ: أَصْلُهُ الطَّرِيقُ وَيُطْلَقُ عَلَىٰ وَسَائِلِ وَأَسْبَابِ الْمُؤَاخَذَةِ بِاللَّوْمِ وَالْعِقَابِ لِأَنَّ تِلْكَ الْوَسَائِلَ تُشْبِهُ الطَّرِيقَ الَّذِي يَصِلُ مِنْهُ طَالِبُ

الْحَقِّ إِلَىٰ مَكَانِ الْمَحْقُوقِ، قال القرطبي: وهذه الآية أصل في رفع العقاب عن كل محسن، ﴿وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ قال قتادة: نزلت في زيد بن عمر وَأَصْحَابِهِ، وَقَالَ الضَّحَّاكُ: نَزَلَتْ فِي عبد الله بن أَمِّ مَكْتُومٍ وَكَانَ ضَرِيرَ الْبَصَرِ، وجاء من حديث أنس رضي الله عنه: أن النبي صلىٰ الله عليه وسلم كان في غَزاةٍ، فقال: «**إِنَّ أَقْوَامًا بِالْمَدِينَةِ خَلْفَنَا، مَا سَلَكْنَا شِعْبًا وَلَا وَادِيًا إِلَّا وَهُمْ مَعَنَا فِيهِ، حَبَسَهُمُ الْعُذْرُ**»(١).

[٩٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ﴾ مَعْنَاهُ: أَنَّهُ لَا سَبِيلَ عَلَىٰ الْأَوَّلِينَ، وَلَا عَلَىٰ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَتَوْكَ وَهُمْ سَبْعَةُ رجال سُموا الْبَكَّائِينَ: وقال ابْنِ عَبَّاسٍ: وَذَلِكَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وسلم أمر النَّاسَ أَنْ يَنْبَعِثُوا غَازِينَ مَعَهُ، فَجَاءَتْهُ عِصَابَةٌ مِنْ أَصْحَابِهِ فِيهِمْ عَبْدُ اللهِ بْنُ مُغَفَّلٍ الْمُزَنِيُّ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ احْمِلْنَا، فَقَالَ لَهُمْ: «**وَاللهِ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ**»، فتولوا وهم يبكون، وَعَزَّ عَلَيْهِمْ أَنْ يَجْلِسُوا عَنِ الْجِهَادِ وَلَا يَجِدُونَ نَفَقَةً وَلَا مَحْمَلًا، فَلَمَّا رَأَىٰ اللهُ حِرْصَهُمْ عَلَىٰ مَحَبَّتِهِ وَمَحَبَّةِ رَسُولِهِ أَنْزَلَ عُذْرَهُمْ في كتابه فقال: ﴿لَّيْسَ عَلَىٰ الضعفآء﴾ إلىٰ قوله: ﴿فَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾، وَقِيلَ: سَأَلُوهُ أَنْ يَحْمِلَهُمْ عَلَىٰ الْخِفَافِ الْمَرْفُوعَةِ والنعال المخصوفة، ليغزوا معه، فأجابهم النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما أَخْبَرَ اللهُ عَنْهُ فِي قَوْلِهِ تعالىٰ: ﴿قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا

---

(١) البخاري (٢٨٣٩) ومسلم (١٩٩١).

أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا﴾ وَهُمْ يَبْكُونَ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ﴾ .

[٩٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ﴾ بالعقوبة، ﴿عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ﴾ فِي التَّخَلُّفِ ﴿وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ﴾ مَعَ النِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ، أَيْ مَعَ النِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ وَأَصْحَابِ الْأَعْذَارِ مِنَ الرِّجَالِ، وَقَدْ يُقَالُ لِلرَّجُلِ: خَالِفَةٌ وَخَالِفٌ أَيْضًا إِذَا كَانَ غَيْرَ نَجِيبٍ، وَأَصْلُهُ مِنْ خَلَفَ اللَّبَنُ يَخْلُفُ إِذَا حَمُضَ مِنْ طُولِ مُكْثِهِ ﴿وَطَبَعَ اللهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ قال النسفي: ختم عليها لاختيارهم الكفر والنفاق ﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ ما في الجهاد من الفوز والسعادة، وما في التخلف من الهلاك والشقاوة.

[٩٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾ يُرْوَىٰ أَنَّ الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ تَخَلَّفُوا عَنْ غَزْوَةِ تَبُوكَ كَانُوا بِضْعَةً وَثَمَانِينَ نَفَرًا، فَلَمَّا رَجَعَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَاءُوا يَعْتَذِرُونَ بِالْبَاطِلِ، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ﴾ لَنْ نُصَدِّقَكُمْ،وَالْخِطَابُ لِلْمُسْلِمِينَ ؛ لِأَنَّ الْمُنَافِقِينَ يَقْصِدُونَ بِأَعْذَارِهِمْ إِلَىٰ النَّبِيءِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَيُعِيدُونَهَا مَعَ جَمَاعَاتِ الْمُسْلِمِينَ. ﴿قَدْ نَبَّأَنَا اللهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾ فِيمَا سَلَفَ، وَالْإِنْبَاءُ: الْإِخْبَارُ : ﴿وَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾ فِي الْمُسْتَأْنَفِ، أَتَتُوبُونَ مِنْ نِفَاقِكُمْ، أَمْ تُقِيمُونَ عَلَيْهِ؟ ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ .

[٩٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾ إِذَا انْصَرَفْتُمْ إِلَيْهِمْ مِنْ غَزْوِكُمْ، ﴿لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾ لِتَصْفَحُوا عَنْهُمْ وَلَا تُؤَنِّبُوهُمْ، ﴿فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾ فَدَعَوْهُمْ، وَمَا اخْتَارُوا لِأَنْفُسِهِمْ مِنَ النفاق، ﴿إِنَّهُمْ رِجْسٌ﴾] نَجِسٌ وَالتَّقْدِيرُ: إِنَّهُمْ ذَوُو رِجْسٍ، أَيْ عَمَلُهُمْ قَبِيحٌ ،﴿وَمَأْوَاهُمْ﴾ يْ مَنْزِلُهُمْ وَمَكَانُهُمْ. قَالَ الْجَوْهَرِيُّ: الْمَأْوَىٰ كُلُّ مكان يأوي إليه شي لَيْلًا أَوْ نَهَارًا. ﴿جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: «نَزَلَتْ فِي جَدِّ بْنِ قَيْسٍ، وَمُعَتِّبِ بْنِ قُشَيْرٍ وَأَصْحَابِهِمَا، وَكَانُوا ثَمَانِينَ رَجُلًا مِنَ الْمُنَافِقِينَ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ قَدِمَ الْمَدِينَةَ: «لَا تُجَالِسُوهُمْ وَلَا تُكَلِّمُوهُمْ» وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ كَعْبٍ قَالَ: سَمِعْتُ كَعْبَ بْنَ مَالِكٍ يَقُولُ: لَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللهِ - صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مِنْ تَبُوكَ جَلَسَ لِلنَّاسِ، فَلَمَّا فَعَلَ ذَلِكَ جَاءَهُ الْمُخَلَّفُونَ، فَطَفِقُوا يَعْتَذِرُونَ إِلَيْهِ وَيَحْلِفُونَ لَهُ، وَكَانُوا بِضْعَةً وَثَمَانِينَ رَجُلًا، فَقَبِلَ مِنْهُمْ رَسُولُ اللهِ - صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عَلَانِيَتَهُمْ وَبَايَعَهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمْ وَوَكَلَ سَرَائِرَهُمْ إِلَىٰ اللهِ، وَصَدَقْتُهُ حَدِيثِي ، فَقَالَ كَعْبٌ: وَاللهِ مَا أَنْعَمَ اللهُ عَلَيَّ مِنْ نِعْمَةٍ قَطُّ بَعْدَ أَنْ هَدَانِي لِلْإِسْلَامِ أَعْظَمَ فِي نَفْسِي مِنْ صِدْقِي رَسُولَ اللهِ - صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَلَّا أَكُونَ كَذَبْتُهُ فَأَهْلَكَ كَمَا هَلَكَ الَّذِينَ كَذَبُوا، إِنَّ اللهَ قَالَ لِلَّذِينَ كَذَبُوا حِينَ أَنْزَلَ الْوَحْيَ شَرَّ مَا قَالَ لِأَحَدٍ :﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ

فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾. إلىٰ قوله: ﴿فَإِنَّ اللهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾(١).

[٩٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ ﴾ حَلَفَ عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيٍّ أَلَّا يَتَخَلَّفَ عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد ذلك وطلب أن يرضي عنه، قال ابن عاشور: لِأَنَّ ذَلِكَ كَانَ قَبْلَ الْخُرُوجِ إِلَىٰ الْغَزْوِ فَلَمَّا فَاتَ الْأَمْرُ وَعَلِمُوا أَنَّ حَلِفَهُمْ لَمْ يُصَدِّقْهُ الْمُسْلِمُونَ صَارُوا يَحْلِفُونَ لِقَصْدِ أَنْ يُعْرِضَ الْمُسْلِمُونَ عَنْهُمْ. ﴿فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ وَقَدْ فَرَّعَ اللهُ عَلَىٰ ذَلِكَ أَنَّهُ إِنْ رَضِيَ الْمُسْلِمُونَ عَنْهُمْ وَأَعْرَضُوا عَنْ لَوْمِهِمْ فَإِنَّ اللهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْمُنَافِقِينَ، وَهَذَا تَحْذِيرٌ لِلْمُسْلِمِينَ مِنَ الرِّضَىٰ عَنِ الْمُنَافِقِينَ بِطَرِيقِ الْكِنَايَةِ إِذْ قَدْ عَلِمَ الْمُسْلِمُونَ أَنَّ مَا لَا يُرْضِي اللهَ لَا يَكُونُ لِلْمُسْلِمِينَ أَنْ يَرْضَوْا بِهِ.

[٩٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿الْأَعْرَابُ﴾ أَيْ: أَهْلُ الْبَدْوِ، وَلَمَّا كَانَتِ الْغِلْظَةُ وَالْجَفَاءُ فِي أَهْلِ الْبَوَادِي لَمْ يَبْعَثِ اللهُ مِنْهُمْ رَسُولًا، وَإِنَّمَا كَانَتِ البعثة مِّنْ أَهْلِ القرىٰ، لأن هؤلاء كانوا يسكنون المدن، فَهُمْ أَلْطَفُ أَخْلَاقًا مِنَ الْأَعْرَابِ لِمَا فِي طباع الأعراب من الجفاء، وفي صحيح مسلم عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: قَدِمَ نَاسٌ مِنَ الْأَعْرَابِ علىٰ رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم فقالوا: أتقبلون صبيانكم؟ قالوا: نعم، قالوا: لكنا وَاللهِ مَا نُقَبِّلُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

---

(١) البخاري (٤٤١٨) ومسلم (٢٧٦٩) .

«**وأملك لك إنْ كَانَ اللهُ نَزَعَ مِنْكُمُ الرَّحْمَةَ**»[1]؟ ، قال الاعمش: جَلَسَ أَعْرَابِيٌّ إِلَىٰ زَيْدِ ابْنِ صُوحَانَ وَهُوَ يُحَدِّثُ أَصْحَابَهُ، وَكَانَتْ يَدُهُ قَدْ أُصِيبَتْ يَوْمَ نَهَاوَنْدَ فَقَالَ الْأَعْرَابِيُّ: وَاللهِ إِنَّ حَدِيثَكَ لَيُعْجِبُنِي، وَإِنَّ يَدَكَ لَتُرِيبُنِي، فَقَالَ زَيْدٌ: مَا يُرِيبُكَ مِنْ يَدِي إِنَّهَا الشِّمَالُ؟ فَقَالَ الْأَعْرَابِيُّ: وَاللهِ مَا أَدْرِي الْيَمِينَ يَقْطَعُونَ أَوِ الشِّمَالَ! فَقَالَ زيد صَدَقَ اللهُ: ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْراً وَنِفَاقاً وَأَجْدَرُ أَلاَّ يَعْلَمُواْ حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ﴾، قوْلُهُ :﴿أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾ من أهل الحضر، وَازْدِيَادُهُمْ فِي الْكُفْرِ وَالنِّفَاقِ هُوَ بِالنِّسْبَةِ لِكُفَّارِ وَمُنَافِقِي الْمَدِينَةِ ، وَمُنَافِقُوهُمْ أَشَدُّ نِفَاقًا مِنْ مُنَافِقِي الْمَدِينَةِ ، وَهَذَا الِازْدِيَادُ رَاجِعٌ إِلَىٰ تَمَكُّنِ الْوَصْفَيْنِ مِنْ نُفُوسِهِمْ، أَيْ كُفْرُهُمْ أَمْكَنُ فِي النُّفُوسِ مِنْ كُفْرِ كُفَّارِ الْمَدِينَةِ، وَنِفَاقُهُمْ أَمْكَنُ مِنْ نُفُوسِهِمْ كَذَلِكَ، أَيْ أَمْكَنُ فِي جَانِبِ الْكُفْرِ مِنْهُ وَالْبُعْدِ عَنِ الْإِقْلَاعِ عَنْهُ وَظُهُورِ بَوَادِرِ الشَّرِّ مِنْهُمْ، وَذَلِكَ أَنَّ غِلَظَ الْقُلُوبِ وَجَلَافَةَ الطَّبْعِ تَزِيدُ النُّفُوسَ السَّيِّئَةَ وَحْشَةً وَنُفُورًا. أَلَا تَعْلَمُ أَنَّ ذَا الْخُوَيْصِرَةِ التَّمِيمِيَّ، وَكَانَ يَدَّعِي الْإِسْلَامَ، لَمَّا رَأَىٰ النَّبِيءَ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَعْطَىٰ الْأَقْرَعَ بْنَ حَابِسٍ وَمَنْ مَعَهُ مِنْ صَنَادِيدِ الْعَرَبِ مِنْ ذَهَبٍ قَسَمَهُ قَالَ ذُو الْخُوَيْصِرَةِ مُوَاجِهًا النَّبِيءَ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «اعْدِلْ» فَقَالَ لَهُ النَّبِيءُ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «**وَيْحَكَ وَمَنْ يَعْدِلُ إِنْ لَمْ أَعْدِلْ**»[2] ﴿وَأَجْدَرُ﴾ أي: أَخْلَقُ وَأَحْرَىٰ، وَالْأَجْدَرُ: الْأَحَقُّ ، وَالْجَدَارَةُ:

(١) البخاري (٥٩٩٨) ومسلم (٢٣١٧) .

(٢) البخاري (٤٣٥١) ومسلم (١٠٦٤) .

الْأَوْلَوِيَّةُ ، وَإِنَّمَا كَانُوا أَجْدَرَ بِعَدَمِ الْعِلْمِ بِالشَّرِيعَةِ لِأَنَّهُمْ يَبْعُدُونَ عَنْ مَجَالِسِ التَّذْكِيرِ وَمَنَازِلِ الْوَحْيِ، وَلِقِلَّةِ مُخَالَطَتِهِمْ أَهْلَ الْعِلْمِ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ﴿أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ﴾ وَذَلِكَ لِبُعْدِهِمْ عَنْ سَمَاعِ الْقُرْآنِ ومعرفة السنن، وَالْحُدُودُ: الْمَقَادِيرُ وَالْفَوَاصِلُ بَيْنَ الْأَشْيَاءِ ، وَالْمَعْنَىٰ أَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ فَوَاصِلَ الْأَحْكَامِ وَضَوَابِطَ تَمْيِيزِ مُتَشَابِهِهَا، ﴿وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أَيْ عَلِيمٌ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ أَنْ يُعَلِّمَهُ الْإِيمَانَ والعلم، ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما قسم بين عباده، لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ لِعَلْمِهِ وَحِكْمَتِهِ.

[٩٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا﴾ أَيْ غَرَامَةً وَخَسَارَةً، قال عطاء: لا يرجون علىٰ إعطائه ثوابًا ولا يخافون عَلَىٰ إِمْسَاكِهِ عِقَابًا إِنَّمَا يُنْفِقُ خوفًا ورياء، وَالْمَغْرَمُ: مَا يُدْفَعُ مِنَ الْمَالِ قَهْرًا وَظُلْمًا، فَهَؤُلَاءِ الْأَعْرَابُ يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُنْفِقُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ ويعدون ذَلِك كالأوتاوات الْمَالِيَّةِ وَالرَّزَايَا يَدْفَعُونَهَا تَقِيَّةً. وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنِ امْتَنَعُوا مِنْ إِعْطَاءِ الزَّكَاةِ بَعْدَ وَفَاةِ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ،﴿وَيَتَرَبَّصُ﴾ وينتظر، ﴿بِكُمُ الدَّوَائِرَ﴾ يَعْنِي: تقلبات الزَّمَانِ الَّتِي تَأْتِي مَرَّةً بِالْخَيْرِ وَمَرَّةً بِالشَّرِّ، وَقَالَ يمان بن رباب: يَعْنِي يَنْقَلِبُ الزَّمَانُ عَلَيْكُمْ فَيَمُوتُ الرَّسُولُ وَيَظْهَرُ الْمُشْرِكُونَ، وَالتَّرَبُّصُ: الِانْتِظَارُ، وَالدَّوَائِرُ: جَمْعُ دَائِرَةٍ وَهِيَ تَغَيُّرُ الْحَالَةِ مِنِ اسْتِقَامَةٍ إِلَىٰ اخْتِلَالٍ ، أَيْ يَجْمَعُونَ إِلَىٰ الْجَهْلِ بِالْإِنْفَاقِ سُوءَ الدَّخْلَةِ وَخُبْثَ الْقَلْبِ ، ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ عَلَيْهِمْ يَدُورُ الْبَلَاءُ وَالْحَزَنُ، وَلَا يَرَوْنَ فِي محمد ودينه إلا ما يكرهون وما يسوؤهم،

مَعْنَاهُ: الضُّرُّ وَالْبَلَاءُ وَالْمَكْرُوهُ، ﴿وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي: سميع لدعاء عباده، عليم بمن يستحق النصر ممن يستحق الخذلان، نَزَلَتْ فِي أَعْرَابِ أَسَدٍ وغَطَفَانَ وَتَمِيمٍ، ثُمَّ اسْتَثْنَىٰ فَقَالَ:

[٩٩] : ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: هُمْ بَنُو مُقَرِّنٍ مِنْ مُزَيْنَةَ، وَقَالَ الْكَلْبِيُّ: أَسْلَمُ وغفار وجهينة ﴿وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرُبَاتٍ عِنْدَ اللهِ﴾ الْقُرُبَاتُ جَمْعُ الْقُرْبَةِ، ﴿وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ﴾ أَيْ: دُعَاءَهُ وَاسْتِغْفَارَهُ، قَالَ عَطَاءٌ: يَرْغَبُونَ فِي دُعَاءِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَالصَّلَاةُ تَقَعُ عَلَىٰ أنواع، فالصلاة من الله عز وجل الرَّحْمَةُ وَالْخَيْرُ وَالْبَرَكَةُ، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ﴾ [الأحزاب: ٤٣] وَالصَّلَاةُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ الدُّعَاءُ، وَكَذَلِكَ هِيَ مِنَ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كَمَا قَالَ: ﴿ وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾ [التوبة: ١٠٣] أَيْ دُعَاؤُكَ تَثْبِيتٌ لَهُمْ وَطُمَأْنِينَةٌ ، ﴿أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ﴾ أَيْ تُقَرِّبُهُمْ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ، يعني نفقاتهم، ﴿سَيُدْخِلُهُمُ اللهُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ فِي جَنَّتِهِ، ﴿إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أَيْ تُقَرِّبُهُمْ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ، يعني نفقاتهم.

[١٠٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ﴾ ، قَالَ الحسن وَقَتَادَةُ: هُمُ الَّذِينَ صَلَّوْا إِلَىٰ الْقِبْلَتَيْنِ مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَدْ أَخْبَرَ اللهُ الْعَظِيمُ أَنَّهُ قَدْ رَضِيَ عَنِ السَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ، فَيَا وَيْلُ مَنْ أَبْغَضَهُمْ أَوْ سَبَّهُمْ أَوْ أَبْغَضَ

أَوْ سَبَّ بَعْضَهُمْ، وَلَا سِيَّمَا سَيِّدُ الصَّحَابَةِ بَعْدَ الرَّسُولِ وَخَيْرُهُمْ وَأَفْضَلُهُمْ أَعْنِي الصِّدِّيقَ الْأَكْبَرَ، وَالْخَلِيفَةَ الْأَعْظَمَ (أَبَا بَكْرٍ) رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال ابن عاشور: وَالْمَقْصُودُ بِالسَّبْقِ السَّبْقُ فِي الْإِيمَانِ، لِأَنَّ سِيَاقَ الْآيَاتِ قَبْلَهَا فِي تَمْيِيزِ أَحْوَالِ الْمُؤْمِنِينَ الْخَالِصِينَ، وَالْكُفَّارِ الصُّرَحَاءِ، وَالْكُفَّارِ الْمُنَافِقِينَ فَتَعَيَّنَ أَنْ يُرَادَ الَّذِينَ سَبَقُوا غَيْرَهُمْ مِنْ صِنْفِهِمْ، فَالسَّابِقُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ هُمُ الَّذِينَ سَبَقُوا بِالْإِيمَانِ قَبْلَ أَنْ يُهَاجِرَ النَّبِيءُ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَىٰ الْمَدِينَةِ، وَالسَّابِقُونَ مِنَ الْأَنْصَارِ هُمُ الَّذِينَ سَبَقُوا قَوْمَهُمْ بِالْإِيمَانِ، وَهُمْ أَهْلُ الْعَقَبَتَيْنِ الْأُولَىٰ وَالثَّانِيَةِ، قَوْلُهُ: ﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ﴾ قيل: بَقِيَّةُ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ سِوَىٰ السَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ، وَقِيلَ: هُمُ الَّذِينَ سَلَكُوا سَبِيلَهُمْ فِي الْإِيمَانِ وَالْهِجْرَةِ أَوِ النُّصْرَةِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَقَالَ عَطَاءٌ: هُمُ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ الْمُهَاجِرِينَ والأنصار بالترحم والدعاء، ثُمَّ جَمَعَهُمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي الثَّوَابِ فَقَالَ: ﴿رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ قال النسفي: ﴿رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ﴾ بأعمالهم الحسنة، ﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾ بما أفاض عليهم من نعمته الدينية والدنيوية: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ تَتْوِيجُ الرِّضَا مِنَ اللهِ سُبْحَانَهُ بِالْخُلُودِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي بَسَاتِينِ النَّعِيمِ الْعَظِيمِ، وَالْأَمْنِ الْمُقِيمِ، وَالْفَوْزِ الْكَرِيمِ.

[١٠١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ﴾ إِخْبَارٌ مِنَ اللهِ تَعَالَىٰ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ عَنْ قَوْمٍ مُنَافِقِينَ يَتَخَلَّلُونَ الصُّفُوفَ فِي الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهَا مِنْ أَعْرَابِ الْبَادِيَةِ، ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ﴾ أَيْ: وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مِنَ

الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ قَوْمٌ مُنَافِقُونَ، ﴿مَرَدُوا عَلَىٰ النِّفَاقِ﴾ أَيْ: مُرِّنُوا عَلَىٰ النِّفَاقِ، يُقَالُ: تَمَرَّدَ فَلَانٌ عَلَىٰ رَبِّهِ أَيْ: عَتَا، وَمَرَدَ عَلَىٰ مَعْصِيَتِهِ أَيْ: مُرِّنَ، وَثَبَتَ عَلَيْهَا وَاعْتَادَهَا، وَمَعْنَىٰ مَرَدَ عَلَىٰ الْأَمْرِ مَرِنَ عَلَيْهِ وَدَرِبَ بِهِ، وَمِنْهُ الشَّيْطَانُ الْمَارِدُ، أَيْ فِي الشَّيْطَنَةِ. قَالَ ابْنُ زَيْدٍ: أَقَامُوا عَلَيْهِ وَلَمْ يَتُوبُوا، ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ﴾ أَنْتَ يَا مُحَمَّدُ، ﴿نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ﴾ اخْتَلَفُوا فِي هَذَيْنَ الْعَذَابَيْنِ، قَالَ مُجَاهِدٌ: الْأَوَّلُ الْقَتْلُ وَالسَّبْيُ، وَالثَّانِي عذاب القبر، وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: الْأُولَىٰ الْمَصَائِبُ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ فِي الدُّنْيَا، وَالْأُخْرَىٰ عَذَابُ الْآخِرَةِ، وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: الْأُولَىٰ إِقَامَةُ الْحُدُودِ عَلَيْهِمْ، وَالْأُخْرَىٰ عَذَابُ الْقَبْرِ، وَقَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: هُوَ مَا يَدْخُلُ عَلَيْهِمْ مِنْ غَيْظِ الْإِسْلَامِ، وَدُخُولِهِمْ فِيهِ مِنْ غَيْرِ حِسْبَةٍ ثم عذاب القبر، وقيل: أحدهما ضَرْبُ الْمَلَائِكَةِ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ عِنْدَ قبض أرواحهم، والآخر عَذَابُ الْقَبْرِ، وَقِيلَ: الْأُولَىٰ إِحْرَاقُ مَسْجِدِ الضِّرَارِ، وَالْأُخْرَىٰ إِحْرَاقِهِمْ بِنَارِ جَهَنَّمَ، ﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ أي: عَذَابِ جَهَنَّمَ يَخْلُدُونَ فِيهِ.

[١٠٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَآخَرُونَ﴾ أَيْ: وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ أَوْ مِنَ الْأَعْرَابِ آخَرُونَ، وَلَا يَرْجِعُ هذا إلىٰ المنافقين، لَمَّا بَيَّنَ تَعَالَىٰ حَالَ المنافقين المتخلفين عن الغزو تكذيباً وشكاً، شرع في بيان حال المكذبين الذين تأخروا عن الجهاد كسلاً مَعَ إِيمَانِهِمْ وَتَصْدِيقِهِمْ بِالْحَقِّ، فَقَالَ: ﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ﴾ أَيْ أَقَرُّوا بِهَا وَاعْتَرَفُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ رَبِّهِمْ، وَلَهُمْ أَعْمَالٌ أُخَرُ صَالِحَةٌ خَلَطُوا هَذِهِ بِتِلْكَ، فَهَؤُلَاءِ تَحْتَ عَفْوِ اللهِ وَغُفْرَانِهِ، وَهَذِهِ الْآيَةُ وَإِنْ كَانَتْ نَزَلَتْ فِي أُنَاسٍ

مُعَيَّنِينَ، إِلَّا أَنَّهَا عَامَّةٌ فِي كُلِّ الْمُذْنِبِينَ الخطائين، وقد قال ابن عباس: نَزَلَتْ فِي أَبِي لُبَابَةَ وَجَمَاعَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ تَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في غزوة تبوك، فَلَمَّا رَجَعَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من غزوته، ربطوا أنفسهم بسواري المسجد، وحلفوا ألا يَحُلُّهُمْ إِلَّا رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَلَمَّا أَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿وَآخَرُونَ اعترفوا بِذُنُوبِهِمْ﴾ أطلقهم رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم وعفا عنهم، وروىٰ البخاري عَنْ سَمُرَةَ بْنِ جُنْدُبٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَنَا: « **أَتَانِي الليلة آتيان فابتعثاني فانتهيا بي إِلَىٰ مَدِينَةٍ مَبْنِيَّةٍ بِلَبِنِ ذَهَبٍ وَلَبِنِ فِضَّةٍ، فَتَلَقَّانَا رِجَالٌ شَطْرٌ مِنْ خَلْقِهِمْ كَأَحْسَنِ مَا أَنْتَ رَاءٍ، وَشَطْرٌ كَأَقْبَحِ مَا أَنْتَ رَاءٍ، قَالَا لَهُمْ: اذْهَبُوا فَقَعُوا فِي ذَلِكَ النَّهْرِ، فَوَقَعُوا فِيهِ ثُمَّ رَجَعُوا إِلَيْنَا قَدْ ذَهَبَ ذَلِكَ السُّوءُ عَنْهُمْ، فَصَارُوا فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ، قَالَا لِي هَذِهِ جَنَّةُ عَدْنٍ وَهَذَا مَنْزِلُكَ، قالا: وأما الْقَوْمُ الَّذِينَ كَانُواْ شَطْرٌ مِنْهُمْ حَسَنٌ وَشَطْرٌ مِنْهُمْ قَبِيحٌ فَإِنَّهُمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سيئاً تجاوز الله عنهم** »[1]، ﴿عَسَىٰ اللهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ ، وعسىٰ من الله تعالىٰ حق ،وَمَعْنَىٰ: أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَيْ يَقْبَلَ تَوْبَتَهُمْ، وقوله: ﴿إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي: ذو صفح عن ذنوب عباده وعفو لها إذا تابوا منها، وهو رحيم بهم يتجاوز تعذيبهم إذا أنابوا إليه.

---

(١) البخاري (٧٠٤٧) من حديث سمرة بن جندب .

[١٠٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ﴾ بِهَا مِنْ ذُنُوبِهِمْ، ﴿وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ أَيْ: تَرْفَعُهُمْ مِنْ مَنَازِلِ الْمُنَافِقِينَ إِلَىٰ مَنَازِلِ الْمُخْلِصِينَ، وَقِيلَ: تُنَمِّي أموالهم ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ أَيِ: ادْعُ لَهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ، وَقِيلَ: هُوَ قَوْلُ السَّاعِي لِلْمُصَدِّقِ إِذَا أَخَذَ الصَّدَقَةَ مِنْهُ: آجَرَكَ اللهُ فِيمَا أَعْطَيْتَ، وَبَارَكَ لَكَ فِيمَا أَبْقَيْتَ، وَالصَّلَاةُ فِي اللُّغَةِ: الدُّعَاءُ، ﴿إِنَّ صَلَاتَكَ﴾ وَقَدْ كَانَ النَّبِيءُ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعْدَ نُزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ إِذَا جَاءَهُ أَحَدٌ بِصَدَقَتِهِ يَقُولُ: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَىٰ آلِ فُلَانٍ، الصَّلَاةُ مِنَ اللهِ الرَّحْمَةُ، وَمِنَ النَّبِيءِ الدُّعَاءُ، ﴿سَكَنٌ لَهُمْ﴾ أَيْ: إِنَّ دُعَاءَكَ رَحْمَةٌ لَهُمْ، وَالسَّكَنُ: بِفَتْحَتَيْنِ مَا يُسْكَنُ إِلَيْهِ، أَيْ يُطْمَأَنُّ إِلَيْهِ وَيُرْتَاحُ بِهِ، وَهُوَ سُكُونُ النَّفْسِ، أَيْ سَلَامَتُهَا مِنَ الْخَوْفِ وَنَحْوِهِ، لِأَنَّ الْخَوْفَ يُوجِبُ كَثْرَةَ الْحَذَرِ وَاضْطِرَابَ الرَّأْيِ فَتَكُونُ النَّفْسُ كَأَنَّهَا غَيْرُ مُسْتَقِرَّةٍ، وَلِذَلِكَ سُمِّيَ ذَلِكَ قَلَقًا لِأَنَّ الْقَلَقَ كَثْرَةُ التَّحَرُّكِ، وَقِيلَ: طُمَأْنِينَةٌ لَهُمْ وَسُكُونٌ لَهُمْ أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ قَبِلَ مِنْهُمْ، وَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: تَثْبِيتٌ لِقُلُوبِهِمْ، ﴿وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ وَاخْتَلَفُوا فِي وُجُوبِ الدُّعَاءِ عَلَىٰ الْإِمَامِ عِنْدَ أَخْذِ الصَّدَقَةِ، قَالَ بَعْضُهُمْ: يَجِبُ: وَقَالَ بَعْضُهُمْ: يُسْتَحَبُّ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: يَجِبُ فِي صَدَقَةِ الْفَرْضِ، وَيَسْتَحِبُّ فِي صَدَقَةِ التَّطَوُّعِ، وَقِيلَ: يَجِبُ عَلَىٰ الْإِمَامِ وَيُسْتَحَبُّ لِلْفَقِيرِ أن يدعو للمعطي.

[١٠٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ﴾ أَيْ: يَقْبَلُهَا، ﴿وَأَنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا الْقَاسِمِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا مِنْ عَبْدٍ**

يَتَصَدَّقُ بِصَدَقَةٍ مع كَسْبٍ طَيِّبٍ، وَلَا يَقْبَلُ اللهُ إِلَّا طِيبًا وَلَا يَصْعَدُ إِلَىٰ السَّمَاءِ إِلَّا طِيبٌ إِلَّا كَأَنَّمَا يَضَعُهَا فِي يَدِ الرَّحْمَنِ عَزَّ وَجَلَّ فَيُرَبِّيهَا لَهُ كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فَلُوَّهُ، حَتَّىٰ إِنَّ اللُّقْمَةَ لِتَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَإِنَّهَا لِمِثْلُ الْجَبَلِ الْعَظِيمِ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿أَنَّ اللهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ﴾ »[1] .

[١٠٥] قَوْلُهُ تَعالَىٰ: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَىٰ اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: هَذَا وَعِيدٌ لَهُمْ، وقيل: رؤية لِلنَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِإِعْلَامِ اللهِ تَعَالَىٰ إِيَّاهُ، وَرُؤْيَةُ الْمُؤْمِنِينَ بِإِيقَاعِ الْمَحَبَّةِ فِي قُلُوبِهِمْ لأهل الصلاح، والبغض لِأَهْلِ الْفَسَادِ، وَقَالَ الْبُخَارِيُّ: قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: إذا أعجبك حسن عمل امرئ مسلم فَقُلْ: ﴿اعْمَلُوا فَسَيَرَىٰ اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾، وفي الحديث الصحيح: «**إذا أراد الله بعبده خَيْرًا اسْتَعْمَلَهُ قَبْلَ مَوْتِهِ**»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ وَكَيْفَ يَسْتَعْمِلُهُ؟ قَالَ: «**يُوَفِّقُهُ لِعَمَلٍ صَالِحٍ ثم يقبضه عليه**»[2].

[١٠٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللهِ﴾ قالَ ابْنُ عباس ومجاهد: هُمُ الثَّلَاثَةُ الَّذِينَ خُلِّفُوا، أَيْ عَنِ التَّوْبَةِ، وهم (مرارة بن الربيع) و (كعب بن مالك) و (هلال بْنُ أُمَيَّةَ)، قَعَدُوا عَنْ غَزْوَةِ تَبُوكَ فِي جُمْلَةِ مَنْ قَعَدَ كَسَلًا وَمَيْلًا إِلَىٰ الدَّعَةِ والحفظ وطيب الثمار والظلال، لا شكـًا ولا نفاقـًا، فَكَانَتْ مِنْهُمْ

(١) البخاري (١٤١٠) ومسلم (١٠١٤) .

(٢) الترمذي (٢١٤٤) .

طَائِفَةٌ رَبَطُوا أَنْفُسَهُمْ بِالسَّوَارِي كَمَا فَعَلَ أَبُو لُبَابَةَ وَأَصْحَابُهُ، وَطَائِفَةٌ لَمْ يَفْعَلُوا ذلك، وهم الثَّلَاثَةُ الْمَذْكُورُونَ، فَنَزَلَتْ تَوْبَةُ أُولَئِكَ قَبْلَ هَؤُلَاءِ، وَأَرْجَىٰ هَؤُلَاءِ عَنِ التَّوْبَةِ، حَتَّىٰ نَزَلَتِ الْآيَةُ الْآتِيَةُ وَهِيَ قَوْلُهُ: ﴿لَقَدْ تَابَ اللهُ عَلَىٰ النبي والمهاجرين والأنصار﴾ الآية، ﴿وَعَلَىٰ الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأرض بما رحبت﴾ الآية، كَمَا سَيَأْتِي بَيَانُهُ فِي حَدِيثِ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ، وَقَوْلُهُ: ﴿إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ أَيْ هُمْ تَحْتَ عَفْوِ اللهِ إِنْ شَاءَ فَعَلَ بِهِمْ هَذَا، وَإِنْ شَاءَ فَعَلَ بِهِمْ ذاك، ولكن رحمته تغلب غضبه، ﴿وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أَيْ عَلِيمٌ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ الْعُقُوبَةَ مِمَّنْ يَسْتَحِقُّ الْعَفْوَ، ﴿حَكِيمٌ﴾ فِي أَفْعَالِهِ وَأَقْوَالِهِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَلَا رَبَّ سِوَاهُ.

[١٠٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا﴾ نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي جَمَاعَةٍ مِنَ الْمُنَافِقِينَ بَنَوْا مَسْجِدًا يُضَارُّونَ به مسجد قباء ضِرَارًا يَعْنِي مُضَارَّةً لِلْمُؤْمِنِينَ، ﴿وَكُفْرًا﴾ بِاللهِ وَرَسُولِهِ، ﴿وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا جَمِيعًا يُصَلُّونَ فِي مَسْجِدِ قُبَاءٍ فَبَنَوْا مَسْجِدَ الضِّرَارِ بجوار مسجد قُبَاء ، لِيُصَلِّيَ فِيهِ بَعْضُهُمْ فَيُؤَدِّيَ ذَلِكَ إلىٰ الاختلاف وافتراق الكلمة، ﴿وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ﴾ أَيِ: انْتِظَارًا وَإِعْدَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللهَ وَرَسُولَهُ يُقَالُ: أَرْصَدْتُ لَهُ إِذَا أَعْدَدْتُ لَهُ، وَالْإِرْصَادُ: التَّهْيِئَةُ وَهُوَ أَبُو عامر الفاسق أرسل إِلَىٰ الْمُنَافِقِينَ أَنِ اسْتَعَدُّوا بِمَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ سِلَاحٍ، وَابْنُوا لِي مَسْجِدًا فَإِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ قَيْصَرَ مَلِكِ الرُّومِ فَآتٍ بِجُنْدٍ مِنَ الرُّومِ، فَأُخْرِجُ مُحَمَّدًا وأصحابه من

المدينة، فَبَنَوْا مَسْجِدَ الضِّرَارِ إِلَىٰ جَنْبِ مَسْجِدِ قُبَاءٍ، وفَرَغُوا منه قبل خُرُوجِ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَىٰ تَبُوكَ، وَجَاءُوا فَسَأَلُوا رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَأْتِيَ إِلَيْهِمْ فَيُصَلِّي في مسجدهم ليحتجوا بصلاته فيه علىٰ تقريره وإثباته، وذكروا أنهم بَنَوْهُ لِلضُّعَفَاءِ مِنْهُمْ وَأَهْلِ الْعِلَّةِ فِي اللَّيْلَةِ الشَّاتِيَةِ، فَعَصَمَهُ اللهُ مِنَ الصَّلَاةِ فِيهِ فَقَالَ: «**إِنَّا عَلَىٰ سَفَرٍ، وَلَكِنْ إِذَا رَجَعْنَا إِنْ شَاءَ اللهُ**»، فَلَمَّا قَفَلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ رَاجِعًا إِلَىٰ الْمَدِينَةِ مِنْ تَبُوكَ وَلَمْ يَبْقَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا يَوْمٌ أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ، نَزَلَ عليه جبريل بِخَبَرِ مَسْجِدِ الضِّرَارِ، وَمَا اعْتَمَدَهُ بَانُوهُ مِنَ الْكُفْرِ وَالتَّفْرِيقِ بَيْنَ جَمَاعَةِ الْمُؤْمِنِينَ فِي مَسْجِدِهِمْ (مسجد قباء) الذي أسس من أول يوم عَلَىٰ التَّقْوَىٰ، فَبَعَثَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَىٰ ذَلِكَ الْمَسْجِدِ مَنْ هَدَمَهُ قبل مقدمه المدينة؛ فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ﴾ وَهُوَ أَبُو عَامِرٍ الْفَاسِقُ لِيُصَلِّيَ فِيهِ إِذَا رَجَعَ مِنَ الشَّامِ، قوله: ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ يَرْجِعُ إِلَىٰ أَبِي عَامِرٍ يَعْنِي حَارَبَ اللهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ أَيْ: مِنْ قَبْلِ بِنَاءِ مَسْجِدِ الضرار، ﴿وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا﴾ مَا أَرَدْنَا بِبِنَائِهِ، ﴿إِلَّا الْحُسْنَىٰ﴾ إِلَّا الْفِعْلَةَ الْحُسْنَىٰ وَهُوَ الرِّفْقُ بِالْمُسْلِمِينَ وَالتَّوْسِعَةُ عَلَىٰ أَهْلِ الضَّعْفِ والعجز عن السير إِلَىٰ مَسْجِدِ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ﴿وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ في قولهم وحلفهم.

[١٠٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لَا تُصَلِّ فِيهِ ، مَنَعَ اللهُ تَعَالَىٰ نَبِيَّهُ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّ يُصَلِّيَ فِي مَسْجِدِ الضِّرَارِ، قَوْلُهُ ﴿لَمَسْجِدٌ

أُسِّسَ عَلَىٰ التَّقْوَىٰ﴾ اللَّامُ لَامُ الِابْتِدَاءِ، وَقِيلَ: لَامُ القسم، تَقْدِيرُهُ، وَاللهِ لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ أَيْ: بُنِيَ أَصْلُهُ عَلَىٰ التَّقْوَىٰ، ﴿مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾ أَيْ: مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ بُنِيَ وَوُضِعَ أَسَاسُهُ، ﴿أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ﴾ مُصَلِّيًا، وَاخْتَلَفُوا فِي الْمَسْجِدِ الَّذِي أُسِّسَ عَلَىٰ التَّقْوَىٰ، فَقَالَ ابْنُ عُمَرَ وَزَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ وَأَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ: هُوَ مَسْجِدُ الْمَدِينَةِ مَسْجِدِ الرَّسُولِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وسلم، والدليل عليه قول الرَّسُولِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَا بَيْنَ بَيْتِي وَمِنْبَرِي رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ، وَمِنْبَرِي عَلَىٰ حَوْضِي» وَذَهَبَ قَوْمٌ إِلَىٰ أَنَّهُ مَسْجِدُ قُبَاءٍ وَهُوَ رِوَايَةُ عَطِيَّةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَهُوَ قَوْلُ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ، وَسَعِيدِ بن جبير وقتادة، ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا﴾ مِنَ الْأَحْدَاثِ وَالْجُنَابَاتِ وَالنَّجَاسَاتِ: وَقَالَ عَطَاءٌ: كَانُوا يَسْتَنْجُونَ بِالْمَاءِ وَلَا ينامون بالليل علىٰ الجنابة ﴿وَاللهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ أَيِ الْمُتَطَهِّرِينَ.

[١٠٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ﴾ وَالتَّأْسِيسُ: بِنَاءُ الْأَسَاسِ، وَهُوَ قَاعِدَةُ الْجِدَارِ الْمَبْنِيِّ مِنْ حَجَرٍ وَطِينٍ أَوْ جَصٍّ، قال ابن عاشور: وَلَمَّا كَانَ مِنْ شَأْنِ الْأَسَاسِ أَنْ تُطْلَبَ لَهُ صَلَابَةُ الْأَرْضِ لِدَوَامِهِ جُعِلَتِ التَّقْوَىٰ فِي الْقَصْدِ الَّذِي بُنِيَ لَهُ أَحَدُ الْمَسْجِدَيْنِ، فَشُبِّهَتِ التَّقْوَىٰ بِمَا يَرْتَكِزُ عَلَيْهِ الْأَسَاسُ ﴿عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ﴾ أَيْ: عَلَىٰ طَلَبِ التَّقْوَىٰ وَرِضَا اللهِ تَعَالَىٰ خَيْرٌ، قال القرطبي: أَيْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ الْإِسْلَامِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ الشِّرْكِ وَالنِّفَاقِ. وَبَيَّنَ أَنَّ بِنَاءَ الْكَافِرِ كَبِنَاءٍ عَلَىٰ جُرُفِ جَهَنَّمَ يَتَهَوَّرُ بِأَهْلِهِ فِيهَا، ﴿أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا﴾ وَالشَّفَا- بِفَتْحِ الشِّينِ وَبِالْقَصْرِ-: حَرْفُ الْبِئْرِ وَحَرْفُ

الْحُفْرَةِ، وَالْجُرُفُ- بِضَمَّتَيْنِ-: جَانِبُ الْوَادِي وَجَانِبُ الْهُوَّةِ ، قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: هُوَ الْهُوَّةُ، وَمَا يَجْرُفُهُ السَّيْلُ مِنَ الْأَوْدِيَةِ فيتجرف بالماء فيبقىٰ واهيًا، ﴿هَارٍ﴾ أَيْ: هَائِرٌ وَهُوَ السَّاقِطُ يُقَالُ: هَارَ يَهُورُ فَهُوَ هَائِرٌ، ثُمَّ يُقْلَبُ فَيُقَالُ: هَارٍ مِثْلُ شَاكٍ وشائك وعاق عائق، وقيل: هو من هار بها إِذَا انْهَدَمَ، وَمَعْنَاهُ السَّاقِطُ الَّذِي يَتَدَاعَىٰ بَعْضُهُ فِي إِثْرِ بَعْضٍ كَمَا يَنْهَارُ الرَّمْلُ وَالشَّيْءُ الرَّخْوُ، ﴿فَانْهَارَ بِهِ﴾ أي: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: يُرِيدُ صَيَّرَهُمُ النِّفَاقُ إِلَىٰ النَّارِ، ﴿وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ .

[١١٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أَيْ شَكًّا وَنِفَاقًا بِسَبَبِ إِقْدَامِهِمْ عَلَىٰ هَذَا الصَّنِيعِ الشَّنِيعِ، أَوْرَثَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ كَمَا أُشرِب عَابِدُو العجلِ حبَّه، وَقَالَ الْكَلْبِيُّ: حَسْرَةٌ وَنَدَامَةٌ؛ لِأَنَّهُمْ نَدِمُوا عَلَىٰ بِنَائِهِ، وَقَالَ السُّدِّيُّ: لَا يَزَالُ هدم بنيانهم رِيبَةً وَحَزَازَةً، وَغَيْظًا فِي قُلُوبِهِمْ، ﴿إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ أَيْ: تَتَقَطَّعُ، فحذفت إحدىٰ التاءين تخفيفا، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَيْ تَنْصَدِعُ قُلُوبُهُمْ فَيَمُوتُوا، كقوله: ﴿لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾ [الحاقة:٤٦] ؛ لِأَنَّ الْحَيَاةَ تَنْقَطِعُ بِانْقِطَاعِ الْوَتِينِ ، وهو الشريان الذي يغذي الكبد كذا قال الراغب؛ وقال الضَّحَّاكِ وَقَتَادَةَ: لَا يَزَالُونَ فِي شك منه وندامة إلىٰ أن يموتوا فحينئذ يستيقنون، ﴿وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ .

[١١١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ اللهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ﴾ قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ الْقُرَظِيُّ: لَمَّا بَايَعَتِ الْأَنْصَارُ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

لَيْلَةَ الْعَقَبَةِ بِمَكَّةَ، وَهْم سَبْعُونَ نَفْسًا، قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ رَوَاحَةَ: يَا رَسُولَ اللهِ اشْتَرِطْ لِرَبِّكَ وَلِنَفْسِكَ مَا شِئْتَ، فَقَالَ: أَشْتَرِطُ لِرَبِّي عَزَّ وَجَلَّ أَنْ تَعْبُدُوهُ، وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَأَشْتَرِطُ لِنَفْسِي أَنْ تَمْنَعُونِي مِمَّا تَمْنَعُونَ مِنْهُ أَنْفُسَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ، قَالُوا: فَإِذَا فَعَلْنَا ذَلِكَ فَمَا لَنَا؟ قَالَ: الْجَنَّةُ، قَالُوا: رَبِحَ الْبَيْعُ لَا نُقِيلُ وَلَا نَسْتَقِيلُ فَنَزَلَتْ: ﴿إِنَّ اللهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ ، قَالَ شَمِرُ بْنُ عَطِيَّةَ: مَا مِنْ مُسْلِمٍ إِلَّا وَلِلَّهِ عزَّ وجلَّ فِي عُنُقِهِ بَيْعَةٌ وَفَّىٰ بِهَا أَوْ مَاتَ عَلَيْهَا، ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ، ﴿يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ أَيْ سَوَاءٌ قَتَلوا أَوْ قُتلوا، أَوِ اجْتَمَعَ لَهُمْ هَذَا وَهَذَا، فَقَدْ وَجَبَتْ لَهُمُ الجنة، ولهذا جاء في الصحيحين: «**تكفل اللهُ لِمَنْ خَرَجَ فِي سَبِيلِهِ لَا يُخْرِجُهُ إلا جِهَاداً فِي سَبِيلِي وَتَصْدِيقٌ بِرُسُلِي بِأَنْ تَوَفَّاهُ أَنْ يدخله الجنة، أو يرجعه إلىٰ منزله الَّذِي خَرَجَ مِنْهُ نَائِلًا مَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ**»(١)، قَوْلُهُ : ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ أَيْ: ثَوَابُ الْجَنَّةِ لَهُمْ وَعْدٌ وحقٌ ﴿فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ﴾ يَعْنِي أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ وَعَدَهُمْ هَذَا الْوَعْدَ وَبَيَّنَهُ فِي هذه الكتب، وفيه إِخْبَارٌ بِأَنَّهُ قَدْ كَتَبَهُ عَلَىٰ نَفْسِهِ الْكَرِيمَةِ وأنزله علىٰ رسله في كتبه العظيمة وهي ﴿التوراة﴾ المنزلة علىٰ موسىٰ، و ﴿الإنجيل﴾ المنزل علىٰ عيسىٰ، و ﴿القرآن﴾ الْمُنَزَّلُ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ، فَقَالَ: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ﴾ أَي لا أحد أو في

---

(١) البخاري (٣٦) ومسلم (١٨٧٦) .

بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ ، وَهُوَ يَتَضَمَّنُ الْوَفَاءَ بِالْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ، وَلَا يَتَضَمَّنُ وَفَاءَ الْبَارِئِ بِالْكُلِّ، فَأَمَّا وَعْدُهُ فَلِلْجَمِيعِ، وَأَمَّا وَعِيدُهُ فَمَخْصُوصٌ بِبَعْضِ الْمُذْنِبِينَ وَبِبَعْضِ الذُّنُوبِ وَفِي بَعْضِ الْأَحْوَالِ، ﴿فَاسْتَبْشِرُوا﴾ فَافْرَحُوا أَيْ أَظْهِرُوا السُّرُورَ بِذَلِكَ. وَالْبِشَارَةُ إِظْهَارُ السُّرُورِ فِي الْبَشَرَةِ، وَقَالَ الْحَسَنُ: وَاللهِ مَا عَلَىٰ الْأَرْضِ مُؤْمِنٌ إِلَّا يَدْخُلُ فِي هَذِهِ الْبَيْعَةِ. ﴿بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ قَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ بَايَعَكَ وَجَعَلَ الصَّفْقَتَيْنِ لَكَ، وَقَالَ قَتَادَةُ: ثَامَنَهُمُ الله عَزَّ وَجَلَّ فَأَغْلَىٰ لهم، وقال الحسن البصري: اسعوا إِلَىٰ بَيْعَةٍ رَبِيحَةٍ بَايَعَ اللهُ بِهَا كُلَّ مُؤْمِنٍ، وَعَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: إِنَّ اللهَ أَعْطَاكَ الدُّنْيَا فَاشْتَرِ الْجَنَّةَ بِبَعْضِهَا.

[١١٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ﴾ ، وفي هذه الآية نَعْتُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ اشْتَرَىٰ اللهُ مِنْهُمْ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ الْجَمِيلَةِ وَالْخِلَالِ الْجَلِيلَةِ، قوله تعالىٰ: ﴿التَّائِبُونَ﴾ أَي: الَّذِينَ تَابُوا مِنَ الشِّرْكِ وبرؤوا من النفاق ، فَالتَّائِبُونَ مُرَادٌ مِنْهُ أَنَّهُمْ مُفَارِقُونَ لِلذُّنُوبِ سَوَاءً كَانَ ذَلِكَ مِنْ غَيْرِ اقْتِرَافِ ذَنْبٍ يَقْتَضِي التَّوْبَةَ ﴿الْعَابِدُونَ﴾ الْمُطِيعُونَ الَّذِينَ أَخْلَصُوا الْعِبَادَةَ لِلَّهِ عز وجل ، الْمُؤَدُّونَ لِمَا أَوْجَبَ اللهُ عَلَيْهِمْ. ﴿الْحَامِدُونَ﴾ الَّذِينَ يَحْمَدُونَ اللهَ عَلَىٰ كُلِّ حال في السراء والضراء ، الْمُعْتَرِفُونَ لِلَّهِ تَعَالَىٰ بِنِعَمِهِ عَلَيْهِمُ الشَّاكِرُونَ لَهُ، ﴿السَّائِحُونَ﴾ مُشْتَقٌّ مِنَ السِّيَاحَةِ ، وَهِيَ السَّيْرُ فِي الْأَرْضِ ، قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ وَابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: هُمُ

الصَّائِمُونَ، وَقَالَ عَطَاءٌ: السَّائِحُونَ الْغُزَاةُ الْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَقَالَ عِكْرِمَةُ: السَّائِحُونَ هُمْ طَلَبَةُ الْعِلْمِ، قال ابن عاشور : وَهُوَ السَّفَرُ الَّذِي فِيهِ قُرْبَةٌ لِلَّهِ وَامْتِثَالٌ لِأَمْرِهِ، مِثْلُ سَفَرِ الْهِجْرَةِ مِنْ دَارِ الْكُفْرِ أَوِ السَّفَرِ لِلْحَجِّ أَوِ السَّفَرِ لِلْجِهَادِ ، وَحَمْلُهُ هُنَا عَلَىٰ السَّفَرِ لِلْجِهَادِ أَنْسَبُ بِالْمَقَامِ وَأَشْمَلُ لِلْمُؤْمِنِينَ الْمَأْمُورِينَ بِالْجِهَادِ بِخِلَافِ الْهِجْرَةِ وَالْحَجِّ ، ﴿الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ﴾ يعني المصلين، ولما ذُكِرَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ عُلِمَ أَنَّ الْمُرَادَ الْجَامِعُونَ بَيْنَهُمَا، أَيِ الْمُصَلُّونَ بِالنِّسْبَةِ إِلَىٰ الْمُسْلِمِينَ ؛ وَلِأَنَّ الْمَوْصُوفِينَ بِالرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ مِمَّنْ وَعَدَهُمُ اللهُ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ كَانَتْ صَلَاةُ بَعْضِهِمْ رُكُوعًا فَقَطْ، قَالَ تَعَالَىٰ فِي شَأْنِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: وَخَرَّ راكِعـًا وَأَنابَ ﴿الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ بالإيمان ﴿وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ عَنِ الشِّرْكِ، وَقِيلَ: الْمَعْرُوفُ السَّنَةُ وَالْمُنْكَرُ الْبِدْعَةُ، ﴿وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللهِ﴾ الْقَائِمُونَ بِأَوَامِرِ اللهِ، وَقَالَ الْحَسَنُ البصري : أَهْلُ الْوَفَاءِ بِبَيْعَةِ اللهِ، والْحافِظُونَ لِحُدُودِ اللهِ: صِفَةٌ جامِعَةٌ لِلْعَمَلِ بِالتَّكَالِيفِ الشَّرْعِيَّةِ عِنْدَ تَوَجُّهِها. وَحَقِيقَةُ الْحِفْظِ تَوَخِّي بَقَاءِ الشَّيْءِ فِي الْمَكَانِ الَّذِي يُرَادُ كَوْنُهُ فِيهِ رَغْبَةُ صَاحِبِهِ فِي بَقَائِهِ وَرِعَايَتِهِ عَنْ أَنْ يَضِيعَ. ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ .

[١١٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾ لَمَّا حَضَرَتْ أَبَا طَالِبٍ الْوَفَاةُ دَخَلَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعِنْدَهُ أَبُو جهل وعبد الله ابن أَبِي أُمَيَّةَ فَقَالَ: « **أَيْ عَمِّ! قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، كَلِمَةٌ أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللهِ عزَّ وجلَّ**، فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ وَعَبْدُ اللهِ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ: يَا أَبَا طَالِبٍ أَتَرْغَبُ

عَنْ مِلَّةِ عبد المطلب؟ فقال: أنا عَلَىٰ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ! فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْكَ»، فَنَزَلَتْ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُوْلِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾، قَالَ: وَنَزَلَتْ فِيهِ: ﴿إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَن يشاء﴾[1]، وَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ وَبرَيْدَةُ: «لَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَكَّةَ أَتَىٰ قَبْرَ أُمِّهِ آمِنَةَ فَوَقَفَ عَلَيْهِ حَتَّىٰ حَمِيَتِ الشَّمْسُ، رَجَاءَ أَنْ يُؤْذَنَ لَهُ فَيَسْتَغْفِرَ لَهَا فَنَزَلَتْ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾» الآية قَالَ قَتَادَةُ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «لَأَسْتَغْفِرَنَّ لِأَبِي، كَمَا اسْتَغْفَرَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَىٰ هَذِهِ الْآيَةَ، وَقَالَ عَلِيٌّ بْن أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ الله عنه: «سَمِعْتُ رَجُلًا يَسْتَغْفِرُ لِوَالِدَيْهِ وَهُمَا مُشْرِكَانِ، فَقُلْتُ لَهُ: تَسْتَغْفِرُ لَهُمَا وَهُمَا مُشْرِكَانِ؟ فَقَالَ: أَوَلَمْ يَسْتَغْفِرْ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ؟ فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لَهُ، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ﴾ [الممتحنة: ٤] إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾.

[١١٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ﴾ وَالْوَعْدُ كَانَ مِنْ أَبِيهِ، وَذَلِكَ أَنَّ أَبَاهُ كَانَ وَعَدَهُ أَنْ يُسْلِمَ، فَقَالَ لَهُ إِبْرَاهِيمُ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي يَعْنِي إِذَا أَسْلَمْتَ، وَالْمَوْعِدَةُ: اسْمٌ لِلْوَعْدِ، وَالْوَعْدُ صَدَرَ مِنْ

---

(١) البخاري (٣٨٨٤)، النسائي (٢٠٣٥).

أَبِي إِبْرَاهِيمَ لَا مَحَالَةَ، كَمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ الِاعْتِذَارُ لِإِبْرَاهِيمَ ، فَكَانَ بِمَنْزِلَةِ الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ بِالِاسْتِغْفَارِ لَهُ لِأَنَّهُ ظَنَّهُ مُتَرَدِّدًا فِي عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ لَمَّا قَالَ لَهُ: ﴿وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴾ [مَرْيَم: ٤٦] فَسَأَلَ اللهَ لَهُ الْمَغْفِرَةَ لَعَلَّهُ يَرْفُضُ عِبَادَةَ الْأَصْنَامِ كَمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ﴾، أي: يتبرأ منه، وقوله: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾، قال ابن مسعود: الأواه الدعَّاء ، وقال ابن جرير: قَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ مَا الْأَوَّاهُ؟ قال: «المتضرع»، وقال الثوري: سئل ابْنَ مَسْعُودٍ عَنِ الْأَوَّاهِ، فَقَالَ: هُوَ الرَّحِيمُ أي بعباد الله، وقال ابن عباس: الأواه الموقن، بلسان الحبشة، وعنه: الأواه المؤمن، وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَالشَّعْبِيُّ: الْأَوَّاهُ الْمُسَبِّحُ، وعن أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: لَا يحافظ علىٰ سبحة الضحىٰ إلا الأواه، وعن مجاهد: الأواه الحفيظ، الرجل يُذْنِبُ الذَّنْبَ سِرًّا ثُمَّ يَتُوبُ مِنْهُ سِرًّا ، وقال الطبري: أَنَّ رَجُلًا كَانَ يُكْثِرُ ذِكْرَ اللهِ وَيُسَبِّحُ، فَذَكَرَ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: «إنه أواه»، وقال أيضـًا عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دَفَنَ مَيِّتًا فَقَالَ: «**رَحِمَكَ اللهُ إن كنت لأواهـًا**» يعني تلاءً للقرآن[1]، قال ابن جَرِيرٍ: وَأَوْلَىٰ الْأَقْوَالِ قَوْلُ مَنْ قَالَ إِنَّهُ الدَّعَّاءُ وَهُوَ الْمُنَاسِبُ لِلسِّيَاقِ، وَذَلِكَ أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ لَمَّا ذَكَرَ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ إِنَّمَا اسْتَغْفَرَ لأبيه مع شدة أذاه له فِي قَوْلِهِ: ﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَّمْ تَنْتَهِ لأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيّـًا

---

(١) الترمذي (١٠٥٧) .

* قَالَ سَلاَمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حفيا﴾ [مريم : ٤٦-٤٧] فَحَلُمَ عَنْهُ مَعَ أَذَاهُ لَهُ وَدَعَا لَهُ وَاسْتَغْفَرَ، وَلِهَذَا قَالَ تَعالَىٰ: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾.

[١١٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ﴾ مَعْنَاهُ: مَا كَانَ اللهُ لِيَحْكُمَ عَلَيْكُمْ بِالضَّلاَلَةِ بِتَرْكِ الْأَوَامِرِ بِاسْتِغْفَارِكُمْ للمشركين، يخبر عزوجل عَنْ نَفْسِهِ الْكَرِيمَةِ وَحُكْمِهِ العادل، إنه لا يضل قوماً إلا بعد إبلاغ الرِّسَالَةِ إِلَيْهِمْ، حَتَّىٰ يَكُونُوا قَدْ قَامَتْ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةُ، ﴿حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ﴾ يُرِيدُ حَتَّىٰ يَتَقَدَّمَ إِلَيْكُمْ بِالنَّهْيِ، فإذا بين وَلَمْ تَأْخُذُوا بِهِ فَعِنْدَ ذَلِكَ تستحقون الضلال، وَقَالَ مُقَاتِلٌ وَالْكَلْبِيُّ: هَذَا فِي الْمَنْسُوخِ، وَذَلِكَ أَنَّ قَوْمًا قَدِمُوا عَلَىٰ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَسْلَمُوا، وَلَمْ تَكُنِ الْخَمْرُ حَرَامًا وَلَا الْقِبْلَةُ مَصْرُوفَةً إِلَىٰ الْكَعْبَةِ، فَرَجَعُوا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ، وَهُمْ عَلَىٰ ذَلِكَ ثُمَّ حُرِّمَتِ الْخَمْرُ وَصُرِفَتِ الْقِبْلَةُ، وَلَا عِلْمَ لَهُمْ بِذَلِكَ، ثُمَّ قَدِمُوا بَعْدَ ذَلِكَ الْمَدِينَةَ فَوَجَدُوا الْخَمْرَ قَدْ حُرِّمَتْ وَالْقِبْلَةَ قَدْ صُرِفَتْ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ قَدْ كُنْتَ عَلَىٰ دِينٍ وَنَحْنُ عَلَىٰ غَيْرِهِ فَنَحْنُ ضُلَّالٌ؟ فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ﴾ يَعْنِي مَا كَانَ اللهُ لِيُبْطِلَ عَمَلَ قَوْمٍ قَدْ عَلِمُوا بِالْمَنْسُوخِ حتىٰ يبين لَهُمُ النَّاسِخُ، ﴿إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ ثُمَّ عَظَّمَ نَفْسَهُ فَقَالَ:

[١١٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ اللهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يَحْكُمُ بِمَا يَشَاءُ، ﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ قَالَ الطبري:

هَذَا تَحْرِيضٌ مِنَ اللهِ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ فِي قِتَالِ المشركين وملوك الكفر، وأنهم يثقوا بنصر الله مالك السموات والأرض، ولا يَرْهَبُوا مِنْ أَعْدَائِهِ، فَإِنَّهُ لَا وَلِيَّ لَهُمْ مِّن دُونِ اللهِ، وَلَا نَصِيرَ لَهُمْ سِوَاهُ.

[١١٧] قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَقَدْ تَابَ اللهُ عَلَىٰ النَّبِيِّ﴾ تَابَ اللهُ أَيْ: تَجَاوَزَ وَصَفَحَ، وَمَعْنَىٰ تَوْبَتِهِ عَلَىٰ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِإِذْنِهِ لِلْمُنَافِقِينَ بِالتَّخَلُّفِ عَنْهُ، وَقِيلَ: افْتَتَحَ الْكَلَامَ بِهِ ؛ لِأَنَّهُ كَانَ سَبَبَ تَوْبَتِهِمْ، فَذَكَرَهُ مَعَهُمْ، كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ﴾ وَنَحْوِهِ، ﴿وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ﴾ أَيْ: فِي وَقْتِ الْعُسْرَةِ، وَلَمْ يُرِدْ سَاعَةً بِعَيْنِهَا، وَكَانَتْ غَزْوَةُ تَبُوكَ تُسَمَّىٰ غَزْوَةَ الْعُسْرَةِ، وَالْجَيْشُ يُسَمَّىٰ جَيْشَ الْعُسْرَةِ، وَالْعُسْرَةُ الشِّدَّةُ، وكانت عليهم عُسْرَةٍ فِي الظَّهْرِ وَالزَّادِ وَالْمَاءِ، قَالَ الْحَسَنُ البصري: كَانَ الْعَشَرَةُ مِنْهُمْ يخرجون علىٰ بعير واحد يتعقبونه يَرْكَبُ الرَّجُلُ سَاعَةً ثُمَّ يَنْزِلُ فَيَرْكَبُ صَاحِبُهُ كَذَلِكَ، وَكَانَ زَادُهُمُ التمر المسوس والشعير المتغير ﴿مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ﴾ الزَّيْغُ: الْمَيْلُ، أي: من بعد كادت تميل، ﴿قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ﴾ أَيْ: قُلُوبُ بَعْضِهِمْ، وَلَمْ يُرِدَ الْمَيْلَ عَنِ الدِّينِ بَلْ أَرَادَ الْمَيْلَ إِلَىٰ التَّخَلُّفِ وَالِانْصِرَافِ لِلشِّدَّةِ الَّتِي عَلَيْهِمْ، قَالَ الْكَلْبِيُّ: هَمَّ نَاسٌ بِالتَّخَلُّفِ ثُمَّ لَحِقُوهُ ، ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ فَإِنْ قِيلَ: كَيْفَ أَعَادَ ذِكْرَ التَّوْبَةِ، وَقَدْ قَالَ فِي أَوَّلِ الْآيَةِ ﴿لَقَدْ تَابَ اللهُ عَلَىٰ النَّبِيِّ﴾ قِيلَ: ذَكَرَ التَّوْبَةَ فِي أَوَّلِ الْآيَةِ قَبْلَ ذِكْرِ الذَّنْبِ، وَهُوَ مَحْضُ الْفَضْلِ

مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَلَمَّا ذَكَرَ الذَّنْبَ أَعَادَ ذِكْرَ التَّوْبَةِ، وَالْمُرَادُ مِنْهُ قَبُولُهَا، ﴿إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: مَنْ تَابَ اللهُ عَلَيْهِ لَمْ يُعَذِّبْهُ أَبَدًا.

[١١٨] قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا﴾ أي: خلفوا من غزوة تبوك، وقيل: ﴿خُلِّفُوا﴾ أَيْ: أُرْجِئَ أَمْرُهُمْ عَنْ تَوْبَةِ أَبِي لُبَابَةَ وَأَصْحَابِهِ، أَيْ تَرَكَهَمْ وَرَاءَهُ وَهُمْ لَمْ يُخَلِّفْهُمْ أَحَدٌ وَإِنَّمَا تَخَلَّفُوا بِفِعْلِ أَنْفُسِهِمْ، وَهَؤُلَاءِ الثَّلَاثَةُ هُمْ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ الشَّاعِرُ ومرارة بن الرَّبِيعِ وَهِلَالُ بْنُ أُمَيَّةَ كُلُّهُمْ مِنَ الْأَنْصَارِ تَخَلَّفُوا عَنْ غَزْوَةِ تَبُوكَ بِدُونِ عُذْرٍ، وَلَمَّا رَجَعَ النَّبِيءُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ غَزْوَةِ تَبُوكَ سَأَلَهُمْ عَنْ تَخَلُّفِهِمْ فَلَمْ يَكْذِبُوهُ بالعذر وَلَكنهُمْ اعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ وَحَزِنُوا،وَنَهَى رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ النَّاسَ عَنْ كَلَامِهِمْ، وَأَمَرَهُمْ بِأَنْ يَعْتَزِلُوا نِسَاءَهُمْ، ثُمَّ عَفَا اللهُ عَنْهُمْ بَعْدَ خَمْسِينَ لَيْلَةً، قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ وَضِيقُ الْأَرْضِ: اسْتِعَارَةٌ، أَيْ حَتَّى كَانَتِ الْأَرْضُ كَالضَّيِّقَةِ عَلَيْهِمْ، أَيْ عِنْدَهُمْ، وَذَلِكَ التَّشْبِيهُ كِنَايَةٌ عَنْ غَمِّهِمْ وَتَنَكُّرِ الْمُسْلِمِينَ لَهُمْ، فَالْمَعْنَى أَنَّهُمْ تَخَيَّلُوا الْأَرْضَ فِي أَعْيُنِهِمْ كَالضَّيِّقَةِ ورَحُبَتْ اتَّسَعَتْ، أَيْ تَخَيَّلُوا الْأَرْضَ ضَيِّقَةً وَهِيَ الْأَرْضُ الْمَوْصُوفَةُ بِسِعَتِهَا الْمَعْرُوفَةِ، ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ﴾ غمًّا وهمًّا، وَضِيقُ أَنْفُسِهِمْ: اسْتِعَارَةٌ لِلْغَمِّ وَالْحَزَنِ لِأَنَّ الْغَمَّ يَكُونُ فِي النَّفْسِ بِمَنْزِلَةِ الضِّيقِ، ﴿وَظَنُّوا﴾ أَيْ: تيَقَّنُوا، ﴿أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللهِ إِلَّا إِلَيْهِ﴾ لَا مفْزَعَ مِنَ اللهِ، أَيْ تَيَقَّنُوا أَنْ لَا مَلْجَأَ يلجئون إِلَيْهِ فِي الصَّفْحِ عَنْهُمْ وَقَبُولِ التَّوْبَةِ مِنْهُمْ إِلَّا إِلَيْهِ، قَالَ أَبُو بَكْرٍ الْوَرَّاقُ، التَّوْبَةُ النَّصُوحُ أَنْ تَضِيقَ

عَلَىٰ التَّائِبِ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ، وَتَضِيقُ عَلَيْهِ نَفْسُهُ، كَتَوْبَةِ كَعْبٍ وَصَاحِبَيْهِ، قَوْلُهُ : ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾ أَيْ: لِيَسْتَقِيمُوا عَلَىٰ التَّوْبَةِ، فَإِنَّ تَوْبَتَهُمْ قَدْ سَبَقَتْ، فَبَدَأَ بِالتَّوْبَةِ مِنْهُ ، قَالَ أَبُو زَيْدٍ: غَلِطْتُ فِي أَرْبَعَةِ أَشْيَاءَ: فِي الِابْتِدَاءِ مَعَ اللهِ تَعَالَىٰ، ظَنَنْتُ أَنِّي أُحِبُّهُ فَإِذَا هُوَ أَحَبَّنِي، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤] ، وَظَنَنْتُ أَنِّي أَرْضَىٰ عَنْهُ فَإِذَا هُوَ قَدْ رَضِيَ عَنِّي، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [المائدة: ١١٩] ، وَظَنَنْتُ أَنِّي أَذْكُرُهُ فَإِذَا هُوَ يَذْكُرُنِي، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ﴾ ، وَظَنَنْتُ أَنِّي أَتُوبُ فَإِذَا هُوَ قَدْ تَابَ عَلَيَّ، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿ ثُمَّ تابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾ ، ﴿إِنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ .

[١١٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ قَالَ نَافِعٌ: مَعَ مُحَمَّدٍ وَأَصْحَابِهِ، وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: مَعَ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: مَعَ الْمُهَاجِرِينَ، لِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ﴾ إِلَىٰ قَوْلِهِ ﴿أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْهُمَا: مَعَ الَّذِينَ صَدَقَتْ نِيَّاتُهُمْ وَاسْتَقَامَتْ قُلُوبُهُمْ وَأَعْمَالُهُمْ، وَخَرَجُوا مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَىٰ تَبُوكَ بِإِخْلَاصِ نِيَّةٍ، وَقِيلَ: مَعَ الَّذِينَ صَدَقُوا فِي الِاعْتِرَافِ بِالذَّنْبِ، وَلَمْ يَعْتَذِرُوا بِالْأَعْذَارِ الْكَاذِبَةِ، وَكَانَ ابْنُ مَسْعُودٍ يَقْرَأُ: ﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ ، وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: إِنَّ الْكَذِبَ لَا يَصْلُحُ فِي جِدٍّ وَلَا هَزْلٍ، وَلَا أَنْ يَعِدَ أَحَدُكُمْ صَبِيَّهُ شَيْئًا ثُمَّ لَا يُنْجِزُ له، اقرؤوا إن شئتم هَذِهِ

الْآيَةَ، وقال الإمام مَالِكَ: قَلَّمَا كَانَ رَجُلٌ صَادِقًا لَا يَكْذِبُ إِلَّا مُتِّعَ بِعَقْلِهِ وَلَمْ يُصِبْهُ مَا يُصِيبُ غَيْرَهُ مِنَ الْهَرَمِ وَالْخَرَفِ.

[١٢٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ﴾ ظاهره خبر معناه نَهْيٌ، كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللهِ﴾ ﴿وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ﴾ سُكَّانُ الْبَوَادِي من الأعراب الذي تخلفوا عن غزوة تبوك، وَالتَّخَلُّفُ: الْبَقَاءُ فِي الْمَكَانِ بَعْدَ الْغَيْرِ مِمَّنْ كَانَ مَعَهُ فِيهِ ﴿أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللهِ﴾ إذا غزا، ﴿وَلَا يَرْغَبُوا﴾ أَيْ: وَلَا أَنْ يَرْغَبُوا، ﴿بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ﴾ فِي مُصَاحَبَتِهِ وَمُعَاوَنَتِهِ وَالْجِهَادِ مَعَهُ، قَالَ الْحَسَنُ: لَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عن أَنْ يُصِيبَهُمْ مِنَ الشَّدَائِدِ فَيَخْتَارُوا الْخَفْضَ وَالدَّعَةَ، وَرَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي مَشَقَّةِ السَّفَرِ، وَمُقَاسَاةِ التَّعَبِ، قال الزمخشري: «أُمِرُوا أَنْ يُلَقُّوا أَنْفُسَهُمْ مِنَ الشَّدَائِدِ مَا تَلْقَاهُ نَفْسُهُ عِلْمًا بِأَنَّهَا أَعَزُّ نَفْسٍ عِنْدَ اللهِ وَأَكْرَمُهَا عَلَيْهِ فَإِذَا تَعَرَّضَتْ مَعَ كَرَامَتِهَا وَعِزَّتِهَا لِلْخَوْضِ فِي شِدَّةٍ وَهَوْلٍ وَجَبَ عَلَىٰ سَائِرِ الْأَنْفُسِ أَنْ تَتَهَافَتَ فِيمَا تَعَرَّضَتْ لَهُ ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ﴾ في سفرهم، ﴿ظَمَأٌ﴾ عطش، ﴿وَلَا نَصَبٌ﴾ تعب، ﴿وَلَا مَخْمَصَةٌ﴾ مَجَاعَةٌ، ﴿فِي سَبِيلِ اللهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا﴾ أرضًا، وَالْوَطْءُ: الدَّوْسُ بِالْأَرْجُلِ، وَالْوَطْءُ فِي سَبِيلِ اللهِ هُوَ الدَّوْسُ بِحَوَافِرِ الْخَيْلِ وَأَخْفَافِ الْإِبِلِ وَأَرْجُلِ الْغُزَاةِ فِي أَرْضِ الْعَدُوِّ، فَإِنَّهُ الَّذِي يَغِيظُ الْعَدُوَّ وَيُغْضِبُهُ لِأَنَّهُ يَأْنَفُ مِنْ وَطْءِ أَرْضِهِ بِالْجَيْشِ ﴿يَغِيظُ الْكُفَّارَ﴾ وَطْؤُهُمْ إِيَّاهُ ﴿وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا﴾ أَيْ: لَا يُصِيبُونَ مِنْ عَدُوِّهِمْ قَتْلًا أَوْ أَسْرًا أَوْ غَنِيمَةً أَوْ

هَزِيمَةً، ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [التوبة: ١٢٠]، وقد كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «**مَنِ اغْبَرَّتْ قَدَمَاهُ فِي سَبِيلِ اللهِ حَرَّمَهُمَا اللهُ عَلَىٰ النَّارِ**»(١)، وَاخْتَلَفُوا فِي حُكْمِ هَذِهِ الْآيَةِ، قَالَ قَتَادَةُ: هَذِهِ خَاصَّةٌ لِرَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا غَزَا بِنَفْسِهِ لَمْ يَكُنْ لِأَحَدٍ أَنْ يَتَخَلَّفَ عَنْهُ إِلَّا بِعُذْرٍ، فَأَمَّا غَيْرُهُ مِنَ الْأَئِمَّةِ وَالْوُلَاةِ فَيَجُوزُ لِمَنْ شَاءَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَتَخَلَّفَ عَنْهُ إِذَا لَمْ يَكُنْ بالمسلمين إليه ضرورة، وقيل فِي هَذِهِ الْآيَةِ: إِنَّهَا لأَوَّلِ هَذِهِ الْأُمَّةِ وَآخِرِهَا، وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: هَذَا حِينَ كَانَ أَهْلُ الْإِسْلَامِ قَلِيلًا، فَلَمَّا كَثُرُوا نَسَخَهَا اللهُ تَعَالَىٰ، وَأَبَاحَ التَّخَلُّفَ لِمَنْ يَشَاءُ، فَقَالَ: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً﴾.

[١٢١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً﴾ أَيْ: فِي سَبِيلِ اللهِ، ﴿صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾ وَلَوْ عِلَاقَةَ سَوْطٍ ﴿وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا﴾ لَا يُجَاوِزُونَ وَادِيًا فِي مَسِيرِهِمْ مُقْبِلِينَ أَوْ مُدْبِرِينَ، ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ﴾ يَعْنِي: آثَارَهُمْ وَخُطَاهُمْ، ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، وَقَدْ حَصَلَ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ حَظٌّ وَافِرٌ ونصيب عظيم؛ وذلك أنه أنفق فِي هَذِهِ الْغَزْوَةِ النَّفَقَاتِ الْجَلِيلَةَ وَالْأَمْوَالَ الْجَزِيلَةَ، كما رُوِيَ عن عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ سَمُرَةَ قَالَ: جَاءَ عُثْمَانُ رضي الله عنه إِلَىٰ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأَلْفِ دِينَارٍ فِي

---

(١) البخاري (٩٠٧) من حديث عبد الرحمن بن جبر.

ثَوْبِهِ حِينَ جَهَّزَ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَيْشَ الْعُسْرَةِ، قَالَ: فَصَبَّهَا فِي حِجْرِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فرأيت النَّبِيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُقَلِّبُهَا بِيَدِهِ، وَيَقُولُ: «**مَا ضَرَّ ابْنَ عَفَّانَ مَا عَمِلَ بَعْدَ الْيَوْمِ**» يُرَدِّدُهَا مِرَارًا[١].

[١٢٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لَمَّا أَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عُيُوبَ الْمُنَافِقِينَ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ كَانَ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَبْعَثُ السَّرَايَا فَكَانَ الْمُسْلِمُونَ يَنْفِرُونَ جَمِيعًا إِلَىٰ الْغَزْوِ، وَيَتْرُكُونَ النَّبِيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَحْدَهُ، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ هَذِهِ الْآيَةَ، وَهَذَا نَفِيٌ بِمَعْنَىٰ النَّهْيِ. قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾ أَيْ: فَهَلَّا خَرَجَ إِلَىٰ الْغَزْوِ مِنْ كُلِّ قَبِيلَةٍ جَمَاعَةٌ، وَيَبْقَىٰ مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَمَاعَةٌ، ﴿لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾ يعني: فرقة الْقَاعِدِينَ يَتَعَلَّمُونَ الْقُرْآنَ وَالسُّنَنَ وَالْفَرَائِضَ وَالْأَحْكَامَ، فَإِذَا رَجَعَتِ السَّرَايَا أَخْبَرُوهُمْ بِمَا أُنْزِلُ بَعْدَهُمْ فَتَمْكُثُ السَّرَايَا يَتَعَلَّمُونَ مَا نَزَلَ بَعْدَهُمْ وَتُبْعَثُ سَرَايَا أُخَرُ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ﴾ وَلِيُعْلِمُوهُمْ بِالْقُرْآنِ وَيُخَوِّفُوهُمْ بِهِ، وَالْإِنْذَارُ: الْإِخْبَارُ بِمَا يُتَوَقَّعُ مِنْهُ شَرٌّ، وَالْمُرَادُ هُنَا الْإِنْذَارُ مِنَ الْمُهْلِكَاتِ فِي الْآخِرَةِ. عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ**»[٢]، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَفْضَلُ الْجِهَادِ مَنْ بَنَىٰ مَسْجِدًا يُعَلِّمُ فِيهِ الْقُرْآنَ وَالْفِقْهَ وَالسُّنَّةَ، ﴿إِذَا

---

(١) الترمذي (٣٧٠١).

(٢) البخاري (٧١) ومسلم (١٠٣٧).

رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ أن يجهلوا فلا يَعْمَلُونَ بِخِلَافِهِ، أَيْ يَحْذَرُونَ مَا يُحْذَرُ، وَهُوَ فِعْلُ الْمُحَرَّمَاتِ وَتَرْكُ الْوَاجِبَاتِ وَقَالَ الْحَسَنُ البصري: هَذَا التَّفَقُّهُ وَالْإِنْذَارُ رَاجِعٌ إِلَىٰ الْفِرْقَةِ النَّافِرَةِ، وَمَعْنَاهُ: هَلَّا نَفَرَ فِرْقَةٌ ليتفقهوا، أي: لينصروا بِمَا يُرِيهِمُ اللهُ مِنَ الظُّهُورِ عَلَىٰ الْمُشْرِكِينَ وَنُصْرَةِ الدِّينِ، وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ مِنَ الْكُفَّارِ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ مِنَ الْجِهَادِ فَيُخْبِرُوهُمْ بِنَصْرِ الله ورسوله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْمُؤْمِنِينَ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ أَنْ يُعَادُوا النَّبِيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَيَنْزِلُ بِهِمْ مَا نَزَلَ بِأَصْحَابِهِمْ مِنَ الْكُفَّارِ.

[١٢٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ﴾ الْآيَةَ أُمِرُوا بِقِتَالِ الْأَقْرَبِ فَالْأَقْرَبِ إِلَيْهِمْ فِي الدَّارِ وَالنَّسَبِ، قَالَ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: مِثْلُ بَنِي قُرَيْظَةَ وَالنَّضِيرِ وَخَيْبَرَ وَنَحْوِهَا، وَقِيلَ: أَرَادَ بِهِمُ الرُّومَ؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا سُكَّانَ الشَّامِ، وَكَانَ الشَّامُ أَقْرَبَ إِلَىٰ الْمَدِينَةِ مِنَ العراق، وَقَالَ قَتَادَةُ: الْآيَةُ عَلَىٰ الْعُمُومِ فِي قِتَالِ الْأَقْرَبِ فالأقرب، والأدنىٰ فالأدنىٰ ، قال ابن كثير : أَمَرَ اللهُ تَعَالَىٰ الْمُؤْمِنِينَ أن يقاتلوا الكفار الْأَقْرَبُ فَالْأَقْرَبُ إِلَىٰ حَوْزَةِ الْإِسْلَامِ، وَلِهَذَا بَدَأَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِقِتَالِ الْمُشْرِكِينَ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ، فَلَمَّا فَرَغَ مِنْهُمْ وفتح الله عليه مكة والمدينة والطائف وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنْ أَقَالِيمِ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَدَخَلَ النَّاسُ مِنْ سَائِرِ أَحْيَاءِ الْعَرَبِ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجًا شَرَعَ فِي قِتَالِ أَهْلِ الْكِتَابِ، فتجهز لغزو الروم لأنهم أَهْلَ الْكِتَابِ، فَبَلَغَ تَبُوكَ، ثُمَّ رَجَعَ لِأَجْلِ جهد الناس وجدب البلاد وضيق الحال، وذلك سَنَةَ تِسْعٍ

مِنْ هِجْرَتِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ. ثُمَّ اشتغل في السنة العاشرة بحجة الْوَدَاعِ، ثُمَّ عَاجَلَتْهُ الْمَنِيَّةُ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عليه بعد حجته بِأَحَدٍ وَثَمَانِينَ يَوْمًا، فَاخْتَارَهُ اللهُ لِمَا عِنْدَهُ، وقام بالأمر بعده وزيره وخليفته أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه، فأدىٰ عَنِ الرَّسُولِ مَا حَمَلَهُ، ثُمَّ شَرَعَ فِي تَجْهِيزِ الْجُيُوشِ الْإِسْلَامِيَّةِ إِلَىٰ الرُّومِ عَبَدَةِ الصُّلْبَانِ، وَإِلَىٰ الفُرس عَبَدَةِ النِّيرَانِ، فَفَتَحَ اللهُ بِبَرَكَةِ سفارته البلاد، وأرغم أنف كِسْرَىٰ وَقَيْصَرَ وَمَنْ أَطَاعَهُمَا مِنَ الْعِبَادِ، وَأَنْفَقَ كُنُوزَهُمَا فِي سَبِيلِ اللهِ، كَمَا أَخْبَرَ بِذَلِكَ رسول الله، وَكَانَ تَمَامُ الْأَمْرِ عَلَىٰ يَدِي وَصِيِّهِ مِنْ بعده، وولي عهده الفاروق عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، فأرغم الله به أنوف الكفرة الملحدين، واستولىٰ علىٰ الممالك شرقـًا وغربـًا، ثم لما مات أَجْمَعَ الصَّحَابَةُ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ عَلَىٰ خِلَافَةِ عثمان بن عفان رضي الله عنه شهيد الدار، فكسىٰ الإسلام حُلَّةٍ سَابِغَةً، وَأُمِدَّتْ فِي سَائِرِ الْأَقَالِيمِ عَلَىٰ رقاب العباد حجة الله البالغة فظهر الْإِسْلَامُ فِي مَشَارِقِ الْأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا ، وَعَلَتْ كَلِمَةُ الله وظهر دينه، وبلغت الملة الحنيفة من أعداء الله غاية مآربها، وكلما عَلَوْا أُمَّةً انْتَقَلُوا إِلَىٰ مِن بَعْدِهِمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ مِنَ الْعُتَاةِ الْفُجَّارِ امْتِثَالًا لِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ قَاتِلُواْ الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِّنَ الكفَّار﴾ ، قَوْلُهُ: ﴿وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ شِدَّةً وَحَمِيَّةً، أَيْ وَلِيَجِدَ الْكُفَّارُ مِنْكُمْ غِلْظَةً عَلَيْهِمْ فِي قِتَالِكُمْ لَهُمْ، فَإِنَّ الْمُؤْمِنَ الْكَامِلَ هُوَ الذي يكون رفيقـًا بأخيه المؤمن، غليظـًا علىٰ عدوه الكافر، والغلظة بِكَسْرِ الْغَيْنِ: الشِّدَّةُ الْحِسِّيَّةُ وَالْخُشُونَةُ، وَهِيَ مُسْتَعَارَةٌ هُنَا لِلْمُعَامَلَةِ الضَّارَّةِ،

كَقَوْلِهِ: ﴿وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ﴾[التَّوْبَة: ٧٣] ، قَالَ فِي «الْكَشَّافِ» : وَذَلِكَ يَجْمَعُ الْجُرْأَةَ وَالصَّبْرَ عَلَىٰ الْقِتَالِ وَالْعُنْفَ فِي الْقَتْلِ وَالْأَسْرِ، قَالَ الْحَسَنُ البصري: صَبْرًا علىٰ جهادكم، ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ بالعون والنصرة، وَالْمَعِيَّةُ هُنَا مَعِيَّةُ النَّصْرِ وَالتَّأْيِيدِ.

[١٢٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾ فَمِنَ الْمُنَافِقِينَ ﴿مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هذه إِيمَانـًا﴾ أي يقول بعضهم لبعض، وفي الآية الدَّلَائِلِ عَلَىٰ أَنَّ الْإِيمَانَ يَزِيدُ وَيَنْقُصُ كَمَا هُوَ مَذْهَبُ أَكْثَرِ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ مِنْ أَئِمَّةِ العلماء،وَكَتَبَ الْحَسَنُ إِلَىٰ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ : إِنَّ لِلْإِيمَانِ سُنَنًا وَفَرَائِضَ مَنِ اسْتَكْمَلَهَا فَقَدِ اسْتَكْمَلَ الْإِيمَانَ ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَكْمِلْهَا لَمْ يَسْتَكْمِلِ الْإِيمَانَ .

[١٢٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ شَكٌّ وَنِفَاقٌ ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ أي: كُفْرِهِمْ، فَعِنْدَ نُزُولِ كُلِّ سُورَةٍ يُنْكِرُونَهَا يَزْدَادُ كُفْرُهُمْ بِهَا، وَالرِّجْسُ: هُنَا الْكُفْرُ، وَأَصْلُهُ الشَّيْءُ الْخَبِيثُ، قَالَ مُجَاهِدٌ: هَذِهِ الْآيَةُ إِشَارَةٌ إِلَىٰ الْإِيمَانِ يَزِيدُ وَيَنْقُصُ، وَكَانَ عُمَرُ رضي الله عنه : يَأْخُذُ بِيَدِ الرَّجُلِ وَالرَّجُلَيْنِ مِنْ أَصْحَابِهِ فَيَقُولُ: تَعَالَوْا حَتَّىٰ نَزْدَادَ إِيمَانًا، وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طالب رضي الله عنه : إن الإيمان يبدو لمعة بَيْضَاءَ فِي الْقَلْبِ، فَكُلَّمَا ازْدَادَ الْإِيمَانُ عِظَمًا ازْدَادَ ذَلِكَ الْبَيَاضُ حَتَّىٰ يَبْيَضَّ الْقَلْبُ كُلُّهُ، وَإِنَّ النفاق يبدو لمعة سَوْدَاءَ فِي الْقَلْبِ فَكُلَّمَا ازْدَادَ النفاق ازداد السَّوَادُ حَتَّىٰ يَسْوَدَّ الْقَلْبُ كُلُّهُ: ﴿وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾.

[١٢٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ﴾ خَبَرٌ عَنِ المنافقين المذكورين ﴿أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ﴾ ويبتلون ﴿فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ﴾ بِالْأَمْرَاضِ وَالشَّدَائِدِ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: بِالْقَحْطِ وَالشِّدَّةِ، وَقَالَ قَتَادَةُ: بِالْغَزْوِ وَالْجِهَادِ، وَقَالَ مُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانَ: يُفْضَحُونَ بِإِظْهَارِ نِفَاقِهِمْ، وَقَالَ عِكْرِمَةُ: يُنَافِقُونَ ثُمَّ يُؤْمِنُونَ ثُمَّ يُنَافِقُونَ، وَقَالَ يَمَانٌ: يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي السَّنَةِ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ، وَالْفِتْنَةُ: اخْتِلَالُ نِظَامِ الْحَالَةِ الْمُعْتَادَةِ لِلنَّاسِ وَاضْطِرَابُ أَمْرِهِمْ، مِثْلُ الْأَمْرَاضِ الْمُنْتَشِرَةِ، وَالتَّقَاتُلِ، وَاسْتِمْرَارِ الْخَوْفِ. ﴿ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ﴾ مِنْ نَقْضِ الْعَهْدِ، وَلَا يَرْجِعُونَ إِلَىٰ اللهِ مِنَ النِّفَاقِ، ﴿وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ أَيْ: لَا يَتَّعِظُونَ بِمَا يَرَوْنَ مِنْ تَصْدِيقِ وَعْدِ اللهِ بِالنَّصْرِ وَالظَّفَرِ لِلْمُسْلِمِينَ.

[١٢٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ﴾ فِيهَا عَيْبُ الْمُنَافِقِينَ وَتَوْبِيخُهُمْ، ﴿نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ يُرِيدُونَ الْهَرَبَ، يَقُولُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ إِشَارَةً ﴿هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ﴾ أَيْ: أَحَدٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ إِنْ قُمْتُمْ، فَإِنْ لَمْ يَرَهُمْ أَحَدٌ خَرَجُوا مِنَ الْمَسْجِدِ، وَإِنْ عَلِمُوا أَنَّ أَحَدًا يَرَاهُمْ أَقَامُوا وَثَبَتُوا، ﴿ثُمَّ انْصَرَفُوا﴾ عَنِ الْإِيمَانِ بِهَا، وَقِيلَ: انْصَرَفُوا عَنْ مَوَاضِعِهِمُ الَّتِي يَسْمَعُونَ فِيهَا، ﴿صَرَفَ اللهُ قُلُوبَهُمْ﴾ عن الإيمان، وقال أَبُو إِسْحَاقَ الزَّجَّاجُ: أَضَلَّهُمُ اللهُ مُجَازَاةً عَلَىٰ فِعْلِهِمْ ذَلِكَ، ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ عن الله دينه.

[١٢٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ تَعْرِفُونَ نَسَبَهُ وَحَسَبَهُ، قَالَ السُّدِّيُّ: مِنَ الْعَرَبِ مِنْ بَنِي إِسْمَاعِيلَ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لَيْسَ مِنَ

العرب قبيلة إِلَّا وَقَدْ وَلَدَتِ النَّبِيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلَهُ فِيهِمْ نَسَبٌ، وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ وَاثِلَةَ بْنِ الْأَسْقَعِ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: « **إِنَّ اللهَ اصْطَفَىٰ كِنَانَةَ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ ، وَاصْطَفَىٰ قُرَيْشًا مِنْ كِنَانَةَ ، وَاصْطَفَىٰ مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ ، وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ**»[1] ، وَقَالَ جَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ الصَّادِقُ: لَمْ يُصِبْهُ شَيْءٌ مِنْ ولادة الْجَاهِلِيَّةِ مِنْ زَمَانِ آدَمَ عَلَيْهِ السلام، ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ﴾ شديد عليه، ﴿مَا عَنِتُّمْ﴾ أَيْ يَعِزُّ عَلَيْهِ مَشَقَّتُكُمْ. وَالْعَنَتُ: الْمَشَقَّةُ، وَهُوَ دُخُولُ الْمَشَقَّةِ وَالْمَضَرَّةِ عَلَيْكُمْ، وَقَالَ الْقُتَيْبِيُّ: مَا أَعْنَتَكُمْ وَضَرَّكُمْ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: مَا ضَلَلْتُمْ، وَقَالَ الضَّحَّاكُ وَالْكَلْبِيُّ: مَا أَثِمْتُمْ، ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ﴾ أَيْ: عَلَىٰ إِيمَانِكُمْ وَصَلَاحِكُمْ، وَقَالَ قَتَادَةُ: حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ أَيْ عَلَىٰ ضَالِّكُمْ أَنْ يَهْدِيَهُ اللهُ، ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ قيل: رؤوف بِالْمُطِيعِينَ رَحِيمٌ بِالْمُذْنِبِينَ، وَقَالَ الْحُسَيْنُ بْنُ الْفَضْلِ: لَمْ يَجْمَعِ اللهُ لِأَحَدٍ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ اسْمَيْنِ مِنْ أَسْمَائِهِ إِلَّا لِلنَّبِيِّ مُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَإِنَّهُ قَالَ: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ﴾، وَقَالَ عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ يَحْيَىٰ: نَظْمُ الْآيَةِ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ حَرِيصٌ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ، عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ لَا يَهُمُّهُ إِلَّا شَأْنُكُمْ، وَهُوَ الْقَائِمُ بِالشَّفَاعَةِ لَكُمْ فَلَا تَهْتَمُّوا بِمَا عَنِتُّمْ مَا أَقَمْتُمْ عَلَىٰ سُنَّتِهِ، فَإِنَّهُ لَا يُرْضِيهِ إِلَّا دُخُولُكُمُ الْجَنَّةَ.

---

(١) مسلم (٢٢٧٦) .

[١٢٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أَيْ إِنْ أَعْرَضَ الْكُفَّارُ يَا مُحَمَّدُ بَعْدَ هَذِهِ النِّعَمِ الَّتِي مَنَّ اللهُ عَلَيْهِمْ بِهَا ﴿فَقُلْ حَسْبِيَ اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ أَيْ هُوَ مَالِكُ كُلِّ شَيْءٍ وَخَالِقِهِ، لِأَنَّهُ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ وَجَمِيعُ الْخَلَائِقِ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِينَ وَمَا فِيهِمَا وَمَا بَيْنَهُمَا تَحْتَ الْعَرْشِ، مَقْهُورُونَ بِقُدْرَةِ اللهِ تَعَالَىٰ، وَعِلْمُهُ مُحِيطٌ بِكُلِّ شَيْءٍ، وَقَدَرُهُ نَافِذٌ فِي كُلِّ شَيْءٍ، وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ.

تَمَّ تَفْسِيرُ سُورَةِ التَّوْبَة بِعَوْنِ اللهِ وَتَوْفِيقِهِ، وَوَاسِعِ مَنِّهِ وَكَرَمِهِ

سُورَةُ يُونُسَ

وَهِيَ سُورَةٌ مَكِّيَّةٌ، وَعَدَدُ آيَاتِهَا (١٠٩)، أَمَّا مَوْضُوعُهَا: فَهِيَ دَعْوَةُ الْخَلْقِ وَالتَّذْكِيرُ بِآيَاتِ اللهِ وَنِعَمِهِ وَتَحْقِيرُ الدُّنْيَا وَتَأْكِيدُ عَذَابِ الْمُشْرِكِينَ فِي الْآخِرَةِ، تَكْذِيبُ الْأُمَمِ الرُّسُلَ وَنُزُولُ عَذَابِ الدُّنْيَا، وَتَدَارُكُ قَوْمِ يُونُسَ أَمْرَهُمْ بِالْجَأْرِ إِلَىٰ اللهِ وَالِاسْتِغْفَارِ، قَبْلَ نُزُولِ الْهَلَاكِ وَالدَّمَارِ.

[١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: (الر) تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَىٰ مَفْهُومِ الْحُرُوفِ الْمُقَطَّعَةِ فِي أَوَائِلِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ وَآلِ عِمْرَانَ ، وَخُلَاصَةُ الْقَوْلِ: هَذَا الْقُرْآنُ هُوَ مِنْ جِنْسِ هَذِهِ الْأَحْرُفِ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ الْكَلَامُ الْمُعْجِزُ الَّذِي لَا يُمْكِنُ لِبَشَرٍ أَنْ يَأْتِيَ بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ ، قَوْلُهُ: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ﴾ تِلْكَ إِشَارَةٌ إِلَىٰ غَائِبٍ مُؤَنَّثٍ، وَالْحَكِيمُ الْمُحْكَمُ بِالْحَلَالِ وَالْحَرَامِ وَالْحُدُودِ وَالْأَحْكَامِ، قَالَ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ: أَرَادَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَالْكُتُبَ الْمُتَقَدِّمَةَ، فَإِنَّ (تِلْكَ) إِشَارَةٌ إِلَىٰ غَائِبٍ مُؤَنَّثٍ ، وقال القرطبي : الْمُرَادُ الْقُرْآنُ وَهُوَ أَوْلَىٰ بِالصَّوَابِ، لِأَنَّهُ لَمْ يَجْرِ لِلْكُتُبِ الْمُتَقَدِّمَةِ ذِكْرٌ، وَلِأَنَّ ﴿الْحَكِيمِ﴾ مِنْ نَعْتِ الْقُرْآنِ ، وَالْحَكِيمُ: الْمُحْكَمُ بِالْحَلَالِ وَالْحَرَامِ وَالْحُدُودِ وَالْأَحْكَامِ، قَالَ الْحَسَنُ البصري: حُكِمَ فِيهِ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ

ذِي الْقُرْبَىٰ، وَبِالنَّهْيِ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ، وَحُكِمَ فِيهِ بِالْجَنَّةِ لِمَنْ أطاعه، وبالنار لمن عصاه.

[٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا﴾ الْعَجَبُ حَالَةٌ تَعْتَرِي الْإِنْسَانَ مِنْ رُؤْيَةِ شَيْءٍ عَلَىٰ خِلَافِ الْعَادَةِ، وَسَبَبُ نُزُولِ الْآيَةِ أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ لَمَّا بَعَثَ مُحَمَّدًا صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَسُولًا، قَالَ الْمُشْرِكُونَ: اللهُ أَعْظَمُ مِنْ أَنْ يَكُونَ رَسُولُهُ بَشَرًا، فَقَالَ تعالىٰ: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ﴾ يَعْنِي: أَهْلَ مَكَّةَ، الْأَلِفُ فِيهِ لِلتَّوْبِيخِ، ﴿عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِنْهُمْ﴾ يَعْنِي مُحَمَّدًا صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وسلم، ﴿أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ﴾ أَيْ أَعْلِمْهُمْ مَعَ التَّخْوِيفِ، ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ وَاخْتَلَفُوا فِيهِ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَجْرًا حَسَنًا بِمَا قَدَّمُوا مِنْ أعمالهم، قال أعمالهم ثَوَابُ صِدْقٍ، وَقَالَ الْحَسَنُ البصري: عَمَلٌ صَالِحٌ أَسْلَفُوهُ يَقْدِمُونَ عَلَيْهِ، وَرَوَىٰ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ: هُوَ السَّعَادَةُ فِي الذِّكْرِ الْأَوَّلِ، وَقَالَ زَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ هُوَ شَفَاعَةُ الرَّسُولِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَقَالَ عَطَاءٌ: مَقَامُ صِدْقٍ لَا زوال وَلَا بُؤْسَ فِيهِ، وَقِيلَ: مَنْزِلَةٌ رَفِيعَةٌ، وَأُضِيفَ الْقَدَمُ إِلَىٰ الصِّدْقِ وَهُوَ نَعْتُهُ، كَقَوْلِهِمْ مَسْجِدُ الْجَامِعِ، وَحَبُّ الْحَصِيدِ، وَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: كُلُّ سَابِقٍ فِي خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ فَهُوَ عِنْدَ الْعَرَبِ قَدَمٌ، يُقَالُ لِفُلَانٍ قَدَمٌ فِي الْإِسْلَامِ، وَلَهُ عِنْدِي قَدَمُ صِدْقٍ وَقَدَمُ سُوءٍ، وَهُوَ يُؤَنَّثُ فَيُقَالُ: قَدَمٌ صَالِحَةٌ، ﴿قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ﴾ يَعْنُونَ مُحَمَّدًا صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

[٣] قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ﴾ يُخْبِرُ تَعَالَىٰ أَنَّهُ رَبُّ الْعَالَمِ جَمِيعِهِ، وأنه خالق السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ، قِيلَ: كَهَذِهِ الْأَيَّامِ، وَقِيلَ: كُلُّ يَوْمٍ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تعدون، كما سيأتي بيانه، ﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ ، وَالْعَرْشُ أَعْظَمُ الْمَخْلُوقَاتِ وسقفها، وهو ياقوتة حمراء، وقوله: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾ يَقْضِيهِ وَحْدَهُ ولا يشغله شأن عن شأن، وَلَا يَتَبَرَّمُ بِإِلْحَاحِ الْمُلِحِّينَ، وَلَا يُلْهِيهِ تَدْبِيرُ الْكَبِيرِ عَنِ الصَّغِيرِ، فِي الْجِبَالِ وَالْبِحَارِ وَالْعِمْرَانِ وَالْقِفَارِ ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللهِ رِزْقُهَا﴾ ، قوله تعالىٰ : ﴿مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾ مَعْنَاهُ أَنَّ الشُّفَعَاءَ لَا يَشْفَعُونَ إِلَّا بِإِذْنِهِ، وَهَذَا رَدٌّ عَلَى النَّضرِ بْنِ الْحَارِثِ فَإِنَّهُ كَانَ يَقُولُ: إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ تُشَفِّعُنِي اللَّاتُ وَالْعُزَّىٰ. وفي صحيح البخاري عن أن أنس ابن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدٌ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: « **إِذَا كَانَ يَوْمُ القِيَامَةِ مَاجَ النَّاسُ بَعْضُهُمْ فِي بَعْضٍ، فَيَأْتُونَ آدَمَ، فَيَقُولُونَ: اشْفَعْ لَنَا إِلَىٰ رَبِّكَ، فَيَقُولُ: لَسْتُ لَهَا، وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِإِبْرَاهِيمَ فَإِنَّهُ خَلِيلُ الرَّحْمَنِ، فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ، فَيَقُولُ: لَسْتُ لَهَا، وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِمُوسَىٰ فَإِنَّهُ كَلِيمُ اللهِ، فَيَأْتُونَ مُوسَىٰ فَيَقُولُ: لَسْتُ لَهَا، وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِعِيسَىٰ فَإِنَّهُ رُوحُ اللهِ، وَكَلِمَتُهُ، فَيَأْتُونَ عِيسَىٰ، فَيَقُولُ: لَسْتُ لَهَا، وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِمُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَيَأْتُونِي، فَأَقُولُ: أَنَا لَهَا، فَأَسْتَأْذِنُ عَلَىٰ رَبِّي، فَيُؤْذَنُ لِي، وَيُلْهِمُنِي مَحَامِدَ أَحْمَدُهُ بِهَا لاَ تَحْضُرُنِي الآنَ، فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ المَحَامِدِ، وَأَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا، فَيَقُولُ: يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ،**

وَقُلْ يُسْمَعْ لَكَ، وَسَلْ تُعْطَ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ، أُمَّتِي أُمَّتِي، فَيَقُولُ: انْطَلِقْ فَأَخْرِجْ مِنْهَا مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ شَعِيرَةٍ مِنْ إِيمَانٍ، فَأَنْطَلِقُ فَأَفْعَلُ » .. الحديث بتمامه(١) ، قَوْلُهُ: ﴿ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ﴾ يَعْنِي: الَّذِي فَعَلَ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ ربكم لا رب لكم سواه، ﴿فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ تَتَّعِظُونَ، والمعنىٰ : أَيُّهَا الْمُشْرِكُونَ فِي أَمْرِكُمْ تَعْبُدُونَ مَعَ اللهِ إلها غَيْرَهُ، وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْمُتَفَرِّدُ بِالْخَلْقِ.

[٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللهِ حَقًّا﴾ صِدْقًا لَا خِلْفَ فِيهِ، نُصِبَ عَلَىٰ الْمَصْدَرِ، أَيْ: وَعَدَكُمْ وَعْدًا حَقًّا ، وَالْمَعْنَىٰ: أَيْ: إِنَّ مَآلَكُمْ وَمَعَادَكُمْ -أَيُّهَا النَّاسُ- فِي نِهَايَةِ الْمَطَافِ إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ، فَهُوَ الَّذِي بَدَأَ إِنْشَاءَ الْخَلْقِ وَإِحْدَاثَهُ، ثُمَّ هُوَ يُعِيدُهُ بَعْدَ فَنَائِهِ وَبَلَائِهِ، لِيَقُومَ الْجَمِيعُ بَيْنَ يَدَيْ رَبِّ الْعَالَمِينَ، فَيُقَابَلَ الْمُحْسِنُ بِإِحْسَانِهِ وَالْمُسِيءُ بِإِسَاءَتِهِ، فَالْمُؤْمِنُونَ فِي غِبْطَةٍ وَسُرُورٍ، وَالْكَافِرُونَ فِي جَحِيمٍ وَسَعِيرٍ، فَتَبَارَكَ اللهُ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ، قَوْلُهُ : ﴿إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ أَيْ: يُحْيِيهِمُ ابْتِدَاءً ثُمَّ يُمِيتُهُمْ ثُمَّ يُحْيِيهِمْ ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ﴾ بِالْعَدْلِ، وقال الطبري: (﴿بِالْقِسْطِ﴾، يقول: ليجزيهم علىٰ الحسن من أعمالهم التي عملوها في الدنيا الحسنَ من الثواب، والصالحَ من الجزاء في الآخرة وذلك هو (القسط)، و(القسط) العدلُ

---

(١) البخاري (٧٥١٠) ومسلم (١٩٣) .

والإنصاف ، قَوْلُهُ : ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ﴾ مَاءٌ حَارٌّ انْتَهَىٰ حَرُّهُ، ﴿وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ .

[٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً﴾ بالنهار ﴿وَالْقَمَرَ نُورًا﴾ بِاللَّيْلِ، وَقِيلَ: جَعَلَ الشَّمْسَ ذَاتَ ضِيَاءٍ، وَالْقَمَرَ ذَا نُورٍ، فَالضِّيَاءُ ما يضيء الْأَشْيَاءَ، وَالنُّورُ مَا يَبِينُ فَيَخْفَىٰ لِأَنَّهُ مِنَ النَّارِ مِنْ أَصْلٍ وَاحِدٍ ، وَالضِّيَاءُ: النُّورُ السَّاطِعُ الْقَوِيُّ، لِأَنَّهُ يُضِيءُ لِلرَّائِي ، وَالنُّورُ: الشُّعَاعُ، وَهُوَ مُشْتَقٌّ مِنِ اسْمِ النَّارِ، وَهُوَ أَعَمُّ مِنَ الضِّيَاءِ، يَصْدُقُ عَلَىٰ الشُّعَاعِ الضَّعِيفِ وَالشُّعَاعِ الْقَوِيِّ، فَضِيَاءُ الشَّمْسِ نُورٌ، وَنُورُ الْقَمَرِ لَيْسَ بِضِيَاءٍ. فَجَعْلُ الشَّمْسِ ضِيَاءً لِانْتِفَاعِ النَّاسِ بِضِيَائِهَا فِي مُشَاهَدَةِ مَا تُهِمُّهُمْ مُشَاهَدَتُهُ بِمَا بِهِ قِوَامُ أَعْمَالِ حَيَاتِهِمْ فِي أَوْقَاتِ أَشْغَالِهِمْ. وَجَعْلُ الْقَمَرِ نُورًا لِلِانْتِفَاعِ بِنُورِهِ انْتِفَاعًا مُنَاسِبًا لِلْحَاجَةِ الَّتِي قَدْ تُعَرِّضُ إِلَىٰ طَلَبِ رُؤْيَةِ الْأَشْيَاءِ فِي وَقْتِ الظُّلْمَةِ وَهُوَ اللَّيْلُ ، ﴿وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ﴾ أَيْ: قَدَّرَ لَهُ يَعْنِي هَيَّأَ لَهُ مَنَازِلَ لَا يُجَاوِزُهَا وَلَا يقصر دونها، ولم يقاد قَدَّرَهُمَا، وَالْمَنَازِلُ: جَمْعُ مَنْزِلٍ وَهُوَ مَكَانُ النُّزُولِ ، وَالْمُرَادُ بِهَا هُنَا الْمَوَاقِعُ الَّتِي يَظْهَرُ الْقَمَرُ فِي جِهَتِهَا كُلَّ لَيْلَةٍ مِنَ الشَّهْرِ. وَهِيَ ثَمَانٌ وَعِشْرُونَ مَنْزِلَةً عَلَىٰ عَدَدِ لَيَالِي الشَّهْرِ الْقَمَرِيِّ.، قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ﴾ أَيْ: قَدْرَ الْمَنَازِلِ ﴿لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ﴾ دخولها وانقضاءها، ﴿وَالْحِسَابَ﴾ يَعْنِي: حِسَابَ الشُّهُورِ وَالْأَيَّامِ وَالسَّاعَاتِ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لَوْ جَعَلَ شَمْسَيْنِ، شَمْسًا بِالنَّهَارِ وَشَمْسًا بِاللَّيْلِ لَيْسَ فِيهِمَا ظُلْمَةٌ وَلَا لَيْلٌ، لَمْ يُعْلَمْ عَدَدُ السِّنِينَ وَحِسَابُ الشُّهُورِ

﴿مَا خَلَقَ اللهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ أَيْ مَا أَرَادَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِخَلْقِ ذَلِكَ إِلَّا الْحِكْمَةَ وَالصَّوَابَ، وَإِظْهَارًا لِصَنْعَتِهِ وَحِكْمَتِهِ، وَدَلَالَةً عَلَىٰ قُدْرَتِهِ وَعِلْمِهِ، وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ، فَهَذَا هُوَ الْحَقُّ ﴿يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ تَفْصِيلُ الْآيَاتِ تَبْيِينُهَا لِيُسْتَدَلَّ بِهَا عَلَىٰ قُدْرَتِهِ تَعَالَىٰ، لِاخْتِصَاصِ اللَّيْلِ بِظَلَامِهِ وَالنَّهَارِ بِضِيَائِهِ مِنْ غَيْرِ اسْتِحْقَاقٍ لهما ولا إيجاب، فَيَكُونُ هَذَا لَهُمْ دَلِيلًا عَلَىٰ أَنَّ ذَلِكَ بِإِرَادَةِ مُرِيدٍ.

[٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ أَيْ تَعَاقُبُهُمَا إِذَا جَاءَ هَذَا ذَهَبَ هَذَا، وَإِذَا ذَهَبَ هَذَا جَاءَ هَذَا، لَا يتأخر عنه شيئًا ، وَقِيلَ: اخْتِلَافُهُمَا فِي النُّورِ وَالظُّلْمَةِ. وَقِيلَ: تَكَرُّرُهُمَا يَوْمًا بَعْدَ لَيْلَةٍ وَلَيْلَةً بَعْدَ يَوْمٍ ، ﴿وَمَا خَلَقَ اللهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ أَيْ عِقَابَ اللهِ وَسَخَطَهُ وعذابه.

[٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ أَيْ: لَا يَخَافُونَ عِقَابَنَا وَلَا يَرْجُونَ ثَوَابَنَا، وَالرَّجَاءُ يَكُونُ بِمَعْنَىٰ الْخَوْفِ وَالطَّمَعِ، والرَّجَاءُ يَكُونُ بِمَعْنَىٰ الْخَوْفِ وَالطَّمَعِ، أَيْ لَا يَخَافُونَ عِقَابًا وَلَا يَرْجُونَ ثَوَابًا، وَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: لَا يَقَعُ الرَّجَاءُ بِمَعْنَىٰ الْخَوْفِ إِلَّا مَعَ الْجَحْدِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً﴾ [نوح : ١٣] ، قَوْلُهُ : ﴿وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أَيْ رَضُوا بِهَا عِوَضًا مِنَ الْآخِرَةِ فَعَمِلُوا لَهَا ، ﴿وَاطْمَأَنُّوا بِهَا﴾ سَكَنُوا إِلَيْهَا، وَالِاطْمِئْنَانُ: السُّكُونُ يَكُونُ فِي الْجَسَدِ وَفِي النَّفْسِ وَهُوَ الْأَكْثَرُ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ [الفجر : ٢٧] ، قَالَ الْحَسَنُ البصري: وَاللهِ مَا زَيَّنُوهَا وَلَا رَفَعُوهَا

حَتَّىٰ رَضُوا بِهَا، وَهُمْ غَافِلُونَ عَنْ آيَاتِ اللهِ الْكَوْنِيَّةِ، فَلَا يَتَفَكَّرُونَ فِيهَا، وَالشَّرْعِيَّةِ فَلَا يَأْتَمِرُونَ بِهَا بِأَنَّ مَأْوَاهُمْ يَوْمَ مَعَادِهِمُ النَّارُ جزاء مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ في دنياهم مِنَ الْآثَامِ وَالْخَطَايَا وَالْإِجْرَامِ، مَعَ مَا هُمْ فِيهِ مِنَ الْكُفْرِ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ﴾ أَيْ: عَنْ أَدِلَّتِنَا غَافِلُونَ لَا يَعْتَبِرُونَ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: عَنْ آيَاتِنَا: عَنْ مُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْقُرْآنِ غَافِلُونَ مُعْرِضُونَ، قال: إذا شئت رأيتَ صاحب دُنْيا، لها يفرح، ولها يحزن، ولها يسخط، ولها يرضىٰ، قال ابن عاشور: وَفِي الْآيَةِ إِشَارَةٌ إِلَىٰ أَنَّ الْبَهْجَةَ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالرِّضَىٰ بِهَا يَكُونُ مِقْدَارُ التَّوَغُّلِ فِيهِمَا بِمِقْدَارِ مَا يَصْرِفُ عَنِ الِاسْتِعْدَادِ إِلَىٰ الْحَيَاةِ الْآخِرَةِ.

[٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ﴾ أَيْ مَثْوَاهُمْ وَمُقَامُهُمْ، وَالْمَأْوَىٰ: اسْمُ مَكَانِ الْإِيوَاءِ، أَيِ الرُّجُوعُ إِلَىٰ مَصِيرِهِمْ وَمَرْجِعِهِمْ، ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ مِنَ الْكُفْرِ وَالتَّكْذِيبِ.

[٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾ فِيهِ إِضْمَارٌ، أَيْ: يُرْشِدُهُمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ إِلَىٰ جَنَّةٍ، وَالْبَاءُ فِي بِإِيمانِهِمْ لِلسَّبَبِيَّةِ، بِحَيْثُ إِنَّ الْإِيمَانَ يَكُونُ سَبَبًا فِي مَضْمُونِ الْخَبَرِ بِأَنْ يَجْعَلَ اللهُ لِلْإِيمَانِ نُورًا يُوضَعُ فِي عَقْلِ الْمُؤْمِنِ وَفِي الْحَدِيثِ: «**قَدْ يَكُونُ فِي الْأُمَمِ مُحَدَّثُونَ فَإِنْ**

يَكُ فِي أُمَّتِي أَحَدٌ فَعُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ»[1] ، قَالَ ابْنُ وَهْبٍ: تَفْسِيرُ مُحَدَّثُونَ مُلْهَمُونَ الصَّوَابَ، وقال ابن جريج: في الآية يمثل له عمله في صورة حسنة إذا قام من قبره يبشره بِكُلِّ خَيْرٍ، فَيَقُولُ لَهُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ، فَيُجْعَلُ له نوره مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ حَتَّىٰ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾ وَالْكَافِرُ يَمْثُلُ لَهُ عَمَلُهُ فِي صُورَةٍ سَيِّئَةٍ وَرِيحٍ مُنْتِنَةٍ، فليزم صاحبه حتىٰ يقذفه في النار، ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: يَهْدِيهِمْ عَلَىٰ الصِّرَاطِ إِلَىٰ الْجَنَّةِ يَجْعَلُ لَهُمْ نُورًا يَمْشُونَ بِهِ، وَقِيلَ: يَهْدِيهِمْ مَعْنَاهُ يُثِيبُهُمْ وَيَجْزِيهِمْ، وَقِيلَ: مَعْنَاهُ بِإِيمَانِهِمْ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ لِدِينِهِ، أَيْ: بِتَصْدِيقِهِمْ هَدَاهُمْ، تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ أَيْ: بَيْنَ أَيْدِيهِمْ، كَقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ [مَرْيَمَ: ٢٤] لَمْ يُرِدْ بِهِ أَنَّهُ تَحْتَهَا وَهِيَ قَاعِدَةٌ عَلَيْهِ، بَلْ أَرَادَ بَيْنَ يَدَيْهَا، وَقِيلَ: مِنْ تَحْتِ أَسِرَّتِهِمْ، وَهَذَا أَحْسَنُ فِي النُّزْهَةِ والفرجة، ﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ .

[١٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿دَعْوَاهُمْ فيها﴾ أَيْ: قَوْلُهُمْ وَكَلَامُهُمْ، وَقِيلَ: دُعَاؤُهُمْ، فِي الْجَنَّةِ أَنْ يَقُولُوا﴿ سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾ وَهِيَ كَلِمَةُ تَنْزِيهٍ، تُنَزِّهُ اللهَ مِنْ كُلِّ سُوءٍ، وفي صحيح مسلم: «أَنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ يُلْهَمُونَ الْحَمْدَ وَالتَّسْبِيحَ، كَمَا يُلْهَمُونَ النَّفَسَ» قِيلَ: إِذَا أَرَادُوا أَنْ يَسْأَلُوا شَيْئًا أَخْرَجُوا السُّؤَالَ بِلَفْظِ التَّسْبِيحِ وَيَخْتِمُونَ

---

(١) البخاري (٣٤٦٩) ومسلم (٢٣٩٨) .

بِالْحَمْدِ. وَقِيلَ: نِدَاؤُهُمُ الْخَدَمَ لِيَأْتُوهُمْ بِمَا شَاءُوا ثُمَّ سَبَّحُوا. وَقِيلَ: إِنَّ الدُّعَاءَ هُنَا بِمَعْنَىٰ التَّمَنِّي قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا ما تَدَّعُونَ﴾ [فصلت : ٣١] أَيْ مَا تَتَمَنَّوْنَ، وَاللهُ أَعْلَمُ ، قَوْلُهُ: ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ أَيْ: يُحَيِّي بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِالسَّلَامِ، وَقِيلَ: تَحِيَّةُ الْمَلَائِكَةِ لَهُمْ بِالسَّلَامِ، وَقِيلَ: تَأْتِيهِمُ الْمَلَائِكَةُ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِمْ بِالسَّلَامِ، والتَّسْبِيحُ وَالْحَمْدُ وَالتَّهْلِيلُ قَدْ يُسَمَّىٰ دُعَاءً، رَوَىٰ مُسْلِمٌ وَالْبُخَارِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ : أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يَقُولُ عِنْدَ الْكَرْبِ: «**لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ الْعَظِيمُ الْحَلِيمُ ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ رَبُّ السموات وَرَبُّ الْأَرْضِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ**»(١) ، قَالَ الطَّبَرِيُّ: كَانَ السَّلَفُ يَدْعُونَ بِهَذَا الدُّعَاءِ وَيُسَمُّونَهُ دُعَاءَ الْكَرْبِ، وَقَالَ ابْنُ عُيَيْنَةَ وَقَدْ سُئِلَ عَنْ هَذَا فَقَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ يَقُولُ : إِذَا شَغَلَ عَبْدِي ثَنَاؤُهُ عَنْ مَسْأَلَتِي أَعْطَيْتُهُ أَفْضَلَ مَا أُعْطِيَ السَّائِلِينَ ، وَالَّذِي يَقْطَعُ النِّزَاعَ وَأَنَّ هَذَا يُسَمَّىٰ دُعَاءً وَإِنْ لَمْ يكن فيه من معنىٰ الدعاء شي ، وَإِنَّمَا هُوَ تَعْظِيمٌ لِلَّهِ تَعَالَىٰ وَثَنَاءٌ عَلَيْهِ ما رواه النسائي عن سعد ابن أَبِي وَقَّاصٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « **دَعْوَةُ ذِي النُّونِ إِذَا دَعَا بِهَا فِي بَطْنِ الْحُوتِ: لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ فإنه لن يدعو بها مسلم في شي إِلَّا اسْتُجِيبَ لَهُ**»(٢) ، قَوْلُهُ : ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ يُرِيدُ يَفْتَتِحُونَ

---

(١) البخاري (٦٣٤٦) ومسلم (٢٧٣٠) .

(٢) النسائي (الكبرى ، رقم ١٠٤٩٢) .

كَلَامَهُمْ بِالتَّسْبِيحِ وَيَخْتِمُونَهُ بِالتَّحْمِيدِ، فيه دلالة علىٰ أنه تَعَالَىٰ هُوَ الْمَحْمُودُ أَبَدًا، الْمَعْبُودُ عَلَىٰ طُولِ الْمَدَىٰ، وَلِهَذَا حَمِدَ نَفْسَهُ عِنْدَ ابْتِدَاءِ خَلْقِهِ، وَفِي ابْتِدَاءِ كِتَابِهِ، وَعِنْدَ ابْتِدَاءِ تَنْزِيلِهِ، حَيْثُ يَقُولُ تَعَالَىٰ: ﴿الْحَمْدُ للهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الكتاب﴾.

[١١] قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ﴾ قَالَ الْعُلَمَاءُ: التَّعْجِيلُ مِنَ اللهِ، وَالِاسْتِعْجَالُ مِنَ الْعَبْدِ، وقِيلَ: مَعْنَاهُ وَلَوْ عَجَّلَ اللهُ لِلنَّاسِ الْعُقُوبَةَ كَمَا يَسْتَعْجِلُونَ الثَّوَابَ وَالْخَيْرَ لَمَاتُوا، لِأَنَّهُمْ خُلِقُوا فِي الدُّنْيَا خَلْقًا ضَعِيفًا، وَلَيْسَ هُمْ كَذَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لِأَنَّهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْلَقُونَ لِلْبَقَاءِ. وَقِيلَ: الْمَعْنَىٰ لَوْ فَعَلَ اللهُ مَعَ النَّاسِ فِي إِجَابَتِهِ إِلَىٰ الْمَكْرُوهِ مِثْلَ مَا يُرِيدُونَ فِعْلَهُ مَعَهُمْ فِي إِجَابَتِهِ إِلَىٰ الْخَيْرِ لَأَهْلَكَهُمْ، وَهُوَ مَعْنَىٰ ﴿لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾، وقيل: إنه خاص بالكافر، أي ولو يجعل اللهُ لِلْكَافِرِ الْعَذَابَ عَلَىٰ كُفْرِهِ كَمَا عَجَّلَ لَهُ خَيْرَ الدُّنْيَا مِنَ الْمَالِ وَالْوَلَدِ لَعَجَّلَ له قضاء أجله ليتعجل عذاب الآخرة، وقال شهر ابن حَوْشَبٍ: قَرَأْتُ فِي بَعْضِ الْكُتُبِ أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ الْمُوَكَّلِينَ بِالْعَبْدِ: لَا تَكْتُبُوا عَلَىٰ عَبْدِي فِي حَالِ ضَجَرِهِ شَيْئًا، لُطْفًا مِنَ اللهِ تَعَالَىٰ عَلَيْهِ ، ﴿لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾ أَيْ: لَفَرَغَ مِنْ هَلَاكِهِمْ وَمَاتُوا جَمِيعًا، قال ابن كثير: أَيْ لَوِ اسْتَجَابَ لَهُمْ كُلَّ مَا دَعَوْهُ بِهِ فِي ذَلِكَ لَأَهْلَكَهُمْ، وَلَكِنْ لَا يَنْبَغِي الْإِكْثَارُ مِنْ ذَلِكَ؛ كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الذي رواه جَابِرٍ قَالَ، قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَا تَدْعُوَا عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ، لَا تَدْعُوا عَلَىٰ أَوْلَادِكُمْ، لَا**

تَدْعُوا عَلَىٰ أَمْوَالِكُمْ، لَا تُوَافِقُوا مِنَ اللهِ سَاعَةً فِيهَا إِجَابَةٌ فيستحجيب لكم»[1] ، وَقِيلَ: إِنَّهَا نَزَلَتْ فِي النَّضْرِ بْنِ الْحَارِثِ حِينَ قَالَ: اللَّهُمَّ إِنَّ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ علينا حجارة من السماء، يَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ لَا يَخَافُونَ الْبَعْثَ وَالْحِسَابَ، ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ أَيْ يَتَحَيَّرُونَ، وَالطُّغْيَانُ: الْعُلُوُّ وَالِارْتِفَاعُ.

[١٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ﴾ الجهد والشدة، ﴿دَعَانَا لِجَنْبِهِ﴾ أَيْ: عَلَىٰ جَنْبِهِ مُضْطَجِعًا، ﴿أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا﴾ يُرِيدُ فِي جَمِيعِ حَالَاتِهِ؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَعْدُو إِحْدَىٰ هَذِهِ الحالات، ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا﴾ دَفَعْنَا، ﴿عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَسَّهُ﴾ أَيِ اسْتَمَرَّ عَلَىٰ طَرِيقَتِهِ الْأُولَىٰ قَبْلَ أَنْ يُصِيبَهُ الضُّرُّ، وَنَسِيَ مَا كَانَ فِيهِ مِنَ الْجَهْدِ وَالْبَلَاءِ، كَأَنَّهُ لَمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَسَّهُ أَيْ: لَمْ يَطْلُبْ مِنَّا كَشْفَ ضُرٍّ مَسَّهُ، ﴿كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ الْمُجَاوِزِينَ الْحَدَّ فِي الْكُفْرِ وَالْمَعْصِيَةِ ﴿مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ مِنَ الْعِصْيَانِ، قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: ﴿كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ مِنَ الدُّعَاءِ عِنْدَ الْبَلَاءِ وَتَرْكِ الشُّكْرِ عِنْدَ الرَّخَاءِ، وَقِيلَ: مَعْنَاهُ كما زين لكم أعمالكم، كذلك زَيَّنَ لِلْمُسْرِفِينَ الَّذِينَ كَانُوا مَنْ قبلكم أعمالهم، وفي الْحَدِيثِ: «**عَجَبًا لِلْمُؤْمِنِ لَا يَقْضِي اللهُ لَهُ قَضَاءً إِلَّا كَانَ**

---

(١) مسلم (٣٠٠٩).

خَيْرًا لَهُ، إِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ فصبر كان خيراً له، وإن أصابته سراء فشكر كان خَيْرًا لَهُ؛ وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ»[1].

[١٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا﴾ لما أشركوا، ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ﴾ أَيْ: كَمَا أَهْلَكْنَاهُمْ بِكُفْرِهِمْ، ﴿نَجْزِي﴾ نعاقب ونهلك، ﴿الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ الْكَافِرِينَ بِتَكْذِيبِهِمْ مُحَمَّدًا صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يُخَوِّفُ كَفَّارَ مَكَّةَ بِعَذَابِ الْأُمَمِ الْخَالِيَةِ الْمُكَذِّبَةِ.

[١٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ﴾ أي جعلنا كم سُكَّانًا فِي الْأَرْضِ يخلف بعضكم بعضاً ﴿فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ أَيْ: مِنْ بَعْدِ الْقُرُونِ الَّتِي أهلكناهم، ﴿لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ وَهُوَ أَعْلَمُ بِهِمْ، وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «**أَلَا إِنَّ هَذِهِ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ وَإِنَّ اللهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا، فَنَاظِرٌ كَيْفَ تَعْمَلُونَ**»[2].

[١٥] قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ (تُتْلىٰ) تقرأ، و (بَيِّنَاتٍ) وَاضِحَاتٍ لَا لَبْسَ فِيهَا وَلَا إِشْكَالَ ،﴿قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ وهم مشركو مكة حيث لَا يَخَافُونَ يَوْمَ الْبَعْثِ وَالْحِسَابِ وَلَا يَرْجُونَ الثَّوَابَ ، قَالُوا لِلنَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ كُنْتَ تُرِيدُ أَنْ نُؤْمِنَ بِكَ ﴿ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ

---

(١) مسلم (٢٩٩٩) .

(٢) مسلم (٢٧٤٢) .

هَذَا﴾ لَيْسَ فِيهِ تَرْكُ عِبَادَةِ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ وَمَنَاةَ وَلَيْسَ فِيهِ عَيْبُهَا، وَإِنْ لَمْ يُنْزِلْهَا اللهُ فَقُلْ أَنْتَ مِنْ عِنْدِ نَفْسِكَ، ﴿أَوْ بَدِّلْهُ﴾ فَاجْعَلْ مَكَانَ آيَةِ عَذَابٍ آيَةَ رَحْمَةٍ، أَوْ مَكَانَ حَرَامٍ حَلَالًا أَوْ مَكَانَ حَلَالٍ حَرَامًا، وَالتَّبْدِيلُ: التَّغْيِيرُ، وَقَدْ يَكُونُ فِي الذَّوَاتِ، كَمَا تَقُولُ: بَدَّلْتُ الدَّنَانِيرَ دَرَاهِمَ، وَيَكُونُ فِي الْأَوْصَافِ، كَمَا تَقُولُ: بَدَّلْتُ الْحَلَقَةَ خَاتَمًا. فَهُمْ يَتَوَهَّمُونَ أَنَّ الْقُرْآنَ وَضَعَهُ النَّبِيءُ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِهِ، وَلِذَلِكَ جَعَلُوا مِنْ تَكْذِيبِهِمْ أَنْ يَقُولُوا لَهُ ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ إِطْمَاعًا لَهُ بِأَنْ يُؤْمِنُوا بِهِ مُغَايِرًا أَوْ مُبَدَّلًا إِذَا وَافَقَ هَوَاهُمْ، ﴿قُلْ﴾ لَهُمْ يَا مُحَمَّدُ، ﴿مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي﴾ مِنْ قِبَلِ نَفْسِي ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ أَيْ: مَا أَتْبَعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ فِيمَا آمُرُكُمْ بِهِ وَأَنْهَاكُمْ عَنْهُ، قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾ أَيْ إِنْ خَالَفْتُ فِي تَبْدِيلِهِ وَتَغْيِيرِهِ أَوْ فِي تَرْكِ الْعَمَلِ بِهِ، ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ يعني يوم القيامة.

[١٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ﴾ يَعْنِي: لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَنْزَلَ الْقُرْآنَ عَلَيَّ. ﴿وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ﴾ أَيْ: وَلَا أَعْلَمَكُمُ اللهُ، يُقَالُ: دَرَيْتُ الشَّيْءَ وَأَدْرَانِي اللهُ بِهِ، وَدَرَيْتُهُ وَدَرَيْتُ بِهِ، ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا﴾ حِينًا، وَهُوَ أَرْبَعُونَ سَنَةً، ﴿مِنْ قَبْلِهِ﴾ مِنْ قَبْلِ نُزُولِ الْقُرْآنِ وَلَمْ آتكم بشيء، ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ قِبَلِي، وَلَبِثَ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيهِمْ قَبْلَ الْوَحْيِ أَرْبَعِينَ سَنَةً، ثُمَّ أَوْحَىٰ اللهُ إِلَيْهِ فَأَقَامَ بِمَكَّةَ بَعْدَ الْوَحْيِ ثَلَاثَ عَشْرَةَ سَنَةً ثُمَّ هَاجَرَ فَأَقَامَ بِالْمَدِينَةِ عَشْرَ سِنِينَ، وَتُوُفِّيَ وَهُوَ ابْنُ ثلاث وستين سنة، وَلِهَذَا لَمَّا سَأَلَ هِرَقْلُ

ملك الروم (أبا سفيان) قال له: هَلْ كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَهُ بِالْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ؟ قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: فَقُلْتُ: لَا، وكان أَبُو سُفْيَانَ إِذْ ذَاكَ رَأْسَ الْكَفَرَةِ وَزَعِيمَ الْمُشْرِكِينَ، وَمَعَ هَذَا اعْتَرَفَ بِالْحَقِّ (وَالْفَضْلُ مَا شَهِدَتْ بِهِ الْأَعْدَاءُ) فَقَالَ لَهُ هِرَقْلُ: فَقَدْ أَعْرِفُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِيَدَعَ الْكَذِبَ عَلَىٰ النَاس ثم يذهب ليكذب عَلَىٰ اللهِ. وَقَالَ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ لِلنَّجَاشِيِّ مَلِكِ الْحَبَشَةِ: بَعَثَ اللهُ فِينَا رَسُولًا نعرف صدقه ونسبه وَأَمَانَتَهُ، وَقَدْ كَانَتْ مُدَّةَ مَقَامِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ بين أظهرنا قبل النبوة أربعين سنة.

[١٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَىٰ اللهِ كَذِبًا﴾ فَزَعَمَ أَنَّ لَهُ شَرِيكًا أَوْ ولدا هَذَا اسْتِفْهَامٌ بِمَعْنَىٰ الْجَحْدِ، أَيْ لَا أَحَدَ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَىٰ اللهِ الْكَذِبَ، وَبَدَّلَ كَلَامَهُ وَأَضَافَ شَيْئًا إِلَيْهِ مِمَّا لَمْ يُنَزِّلْهُ. وَكَذَلِكَ لَا أَحَدَ أَظْلَمُ مِنْكُمْ إِذَا أَنْكَرْتُمُ الْقُرْآنَ وَافْتَرَيْتُمْ عَلَىٰ اللهِ الْكَذِبَ، وَقُلْتُمْ لَيْسَ هَذَا كَلَامَهُ، ﴿أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ بِمُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَبِالْقُرْآنِ، قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ سَلَامٍ: لَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمَدِينَةَ انْجَفَلَ الناس أي ذهبوا مسرعين نحوه - يعني قومه اليهود -وأما العرب وهم الأنصار فكانوا في أشد الغبطة والسرور، فَكُنْتُ فِيمَنِ انْجَفَلَ، فَلَمَّا رَأَيْتُهُ عَرَفَتْ أَنَّ وَجْهَهُ لَيْسَ بِوَجْهِ رَجُلٍ كَذَّابٍ، قال: فَكَانَ أَوَّلَ مَا سَمِعْتُهُ يَقُولُ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَفْشُوا السَّلَامَ، وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ، وَصِلُوا الْأَرْحَامَ، وَصَلُّوا بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ، تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِسَلَامٍ»، ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ﴾ لَا يَنْجُو الْمُشْرِكُونَ.

[١٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ﴾ إِنْ عَصَوْهُ وَتَرَكُوا عِبَادَتَهُ، ﴿وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾ إِنْ عَبَدُوهُ، يَعْنِي: الْأَصْنَامَ، ﴿وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللهَ﴾ أَتُخَبِّرُونَ اللهَ ﴿بِمَا لَا يَعْلَمُ﴾ اللهُ صِحَّتَهُ، وَمَعْنَىٰ الْآيَةِ: أَتُخَبِّرُونَ الله أن له شريكا وعنده شَفِيعًا بِغَيْرِ إِذْنِهِ، وَلَا يَعْلَمُ اللهُ لِنَفْسِهِ شَرِيكًا؟! ﴿فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ وقد كان المشركون إِذَا أَنْذَرَهُمُ النَّبِيءُ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِعَذَابِ اللهِ قَالُوا: تَشْفَعُ لَنَا آلِهَتُنَا عِنْدَ اللهِ، وَقَدْ رُوِيَ أَنَّهُ قَالَهُ النَّضْرُ بْنُ الْحَارِثِ «إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ شَفَعَتْ لِيَ اللَّاتُ وَالْعُزَّىٰ» ، وَهَذَا كَقَوْلِ الْعَاصِ بْنِ وَائِلٍ، وَكَانَ مُشْرِكًا، لِخَبَّابِ بْنِ الْأَرَتِّ، وَهُوَ مُسْلِمٌ، وَقَدْ تَقَاضَاهُ أَجْرًا لَهُ عَلَىٰ سَيْفٍ صَنَعَهُ «إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ الَّذِي يُخْبِرُ بِهِ صَاحِبُكَ - يَعْنِي النَّبِي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَسَيَكُونُ لِي مَالٌ فَأَقْضِيكَ مِنْهُ» .

[١٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أَيْ: عَلَىٰ الْإِسْلَامِ، الَ الزَّجَّاجُ: هُمُ الْعَرَبُ كَانُوا عَلَىٰ الشِّرْكِ. وَقِيلَ: كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَىٰ الفطرة، ﴿فَاخْتَلَفُوا﴾ وَتَفَرَّقُوا إِلَىٰ مُؤْمِنٍ وَكَافِرٍ، ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾ بِأَنْ جَعَلَ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلًا، وقال الْكَلْبِيُّ: هِيَ إِمْهَالُ هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَأَنَّهُ لَا يُهْلِكُهُمْ بِالْعَذَابِ فِي الدنيا، ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ بنزول العذاب تعجيل الْعُقُوبَةِ لِلْمُكَذِّبِينَ، وَكَانَ ذَلِكَ فَصْلًا بينهم، أَيْ لَوْلَا مَا تَقَدَّمَ مِنَ اللهِ تَعَالَىٰ أَنَّهُ لَا يُعَذِّبُ أَحَدًا إِلَّا بَعْدَ قِيَامِ الْحُجَّةِ عليه، وأنه أَجَّلَ الْخَلْقَ إِلَىٰ أَجَلٍ مَعْدُودٍ، لَقَضَىٰ بَيْنَهُمْ فيما

اختلفوا فيه، فَأَسْعَدَ الْمُؤْمِنِينَ وَأَعْنَتَ الْكَافِرِينَ، ﴿فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ وَقَالَ الْحَسَنُ البصري: وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ مَضَتْ فِي حُكْمِهِ أَنَّهُ لَا يَقْضِي بَيْنَهُمْ فِيمَا اختلفوا بِالثَّوَابِ وَالْعِقَابِ دُونَ الْقِيَامَةِ، لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا فَأَدْخَلَ الْمُؤْمِنَ الْجَنَّةَ وَالْكَافِرَ النَّارَ، وَلَكِنَّهُ سَبَقَ مِنَ اللهِ الْأَجَلُ فَجَعَلَ مَوْعِدَهُمْ يوم القيامة.

[٢٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَيَقُولُونَ﴾ يَعْنِي: أَهْلَ مَكَّةَ، ﴿لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ﴾ أَيْ: عَلَىٰ مُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ﴿آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ عَلَىٰ مَا نَقْتَرِحُهُ أَيْ هَلَّا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ، أَيْ مُعْجِزَةٌ غَيْرُ هَذِهِ الْمُعْجِزَةِ، فَيَجْعَلُ لَنَا الْجِبَالَ ذَهَبًا وَيَكُونُ لَهُ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ، وَيُحْيِي لَنَا مَنْ مَاتَ مِنْ آبَائِنَا ، وَقَالَ الضَّحَّاكُ: عَصًا كَعَصَا مُوسَىٰ. ﴿فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ يَعْنِي: قُلْ إِنَّمَا سَأَلْتُمُونِي الْغَيْبَ وَإِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ، لَا يَعْلَمُ أَحَدٌ لِمَ لَمْ يَفْعَلْ ذَلِكَ، وَلَا يَعْلَمُهُ إِلَّا هُوَ، وَقِيلَ: الْغَيْبُ نُزُولُ الْآيَةِ لَا يَعْلَمُ مَتَىٰ يَنْزِلُ أَحَدٌ غَيْرُهُ، وَالْغَيْبُ: مَا غَابَ عَنْ حَوَاسِّ النَّاسِ مِنَ الْأَشْيَاءِ، وَالْمُرَادُ بِهِ هُنَا مَا يَتَكَوَّنُ مِنْ مَخْلُوقَاتٍ غَيْرِ مُعْتَادَةٍ فِي الْعَالَمِ الدُّنْيَوِيِّ مِنَ الْمُعْجِزَاتِ ، ﴿فَانْتَظِرُوا﴾ نُزُولَهَا ﴿إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ وَقِيلَ: فَانْتَظِرُوا قَضَاءَ اللهِ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ بِإِظْهَارِ الْمُحِقِّ عَلَىٰ الْمُبْطِلِ.

[٢١] قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ﴾ يُرِيدُ كُفَّارَ مَكَّةَ، رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ، أَيْ: رَاحَةً وَرَخَاءً مِنْ بَعْدِ شِدَّةٍ وَبَلَاءٍ، وَقِيلَ: المطرُ بعد القحط، أي: أصابتهم، وَفِيهِ تَعْرِيضٌ بِتَذْكِيرِ الْكُفَّارِ بِحَالِ حُلُولِ الْمَصَائِبِ بِهِمْ لَعَلَّهُمْ

يَتَذَكَّرُونَ، فَيُعِدُّوا عُدَّةَ الْخَوْفِ مِنْ حُلُولِ النِّقْمَةِ الَّتِي أَنْذَرَهُمْ بِهَا كَمَا فِي الْحَدِيثِ: «**تَعَرَّفْ إِلَىٰ اللهِ فِي الرَّخَاءِ يَعْرِفْكَ فِي الشِّدَّةِ**»(١)، قِيلَ: إِنَّ الْآيَةَ تُشِيرُ إِلَىٰ مَا أَصَابَ قُرَيْشًا مِنَ الْقَحْطِ سَبْعَ سِنِينَ بِدُعَاءِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثُمَّ كَشَفَ اللهُ عَنْهُمُ الْقَحْطَ وَأَنْزَلَ عَلَيْهِمُ الْمَطَرَ، فَلَمَّا حَيُوا طَفِقُوا يَطْعَنُونَ فِي آيَاتِ اللهِ وَيُعَادُونَ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَيَكِيدُونَ لَهُ. وَالْقَحْطُ الَّذِي أَصَابَ قُرَيْشًا هُوَ الْمَذْكُورُ فِي سُورَةِ الدُّخَانِ، وَقَدْ أُنْذِرُوا فِيهَا بِالْبَطْشَةِ الْكُبْرَىٰ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هِيَ بَطْشَةُ يَوْمِ بَدْرٍ، فَتَكُونُ هَذِهِ الْآيَةُ قَدْ نَزَلَتْ بَعْدَ انْقِرَاضِ السَّبْعِ السِّنِينَ الَّتِي هِيَ كَسِنِيِّ يُوسُفَ وَبَعْدَ أَنْ حَيُوا، فَتَكُونُ قَدْ نَزَلَتْ بَعْدَ سَنَةِ عَشْرٍ مِنَ الْبَعْثَةِ أَوْ سَنَةِ إِحْدَىٰ عَشْرَةَ. ﴿مَسَّتْهُمْ﴾ أَيْ: أَصَابَتْهُمْ ﴿إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: تَكْذِيبٌ وَاسْتِهْزَاءٌ، وَقَالَ مُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانَ: لَا يَقُولُونَ هَذَا مِنْ رِزْقِ اللهِ إِنَّمَا يَقُولُونَ سُقِينَا بِنَوْءِ كَذَا، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ ﴿قُلِ اللهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾ أَعْجَلُ عُقُوبَةً وَأَشَدُّ أَخْذًا وَأَقْدَرُ عَلَىٰ الْجَزَاءِ، يُرِيدُ عَذَابُهُ فِي إِهْلَاكِكُمْ أَسْرَعُ إِلَيْكُمْ مِمَّا يَأْتِي مِنْكُمْ فِي دَفْعِ الْحَقِّ، عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**إِذَا رَأَيْتَ اللهَ يُعْطِي الْعَبْدَ مِنَ الدُّنْيَا عَلَىٰ مَعَاصِيهِ مَا يُحِبُّ فَإِنَّمَا هُوَ اسْتِدْرَاجٌ**»(٢)، قال أبو سليمان الداراني: ينبغي للقلب أن يكون الغالب عليه الخوف، فإذا غلب الرجاء الخوف فَسَد

---

(١) أحمد (٢٨٠٣) من حديث ابن عباس .

(٢) أحمد (١٧٣١١) منم حديث ابن عباس .

القلب ، ﴿إِنَّ رُسُلَنَا﴾ حفظتنا، ﴿يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ يَعْنِي بِالرُّسُلِ الْحَفَظَةَ، قال النسفي: إعلام بأن ما تظنونه خافيًا لا يخفىٰ علىٰ الله وهو منتقم منكم.

[٢٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ﴾ يجزيكم ويحملكم ، ﴿فِي الْبَرِّ﴾ علىٰ ظهور الدواب، (وَ) في (الْبَحْرِ) ، عَلَىٰ السفن وَالْآيَةُ تَتَضَمَّنُ تَعْدِيدَ النِّعَمِ فِيمَا هِيَ الْحَالُ بِسَبِيلِهِ مِنْ رُكُوبِ النَّاسِ الدَّوَابَّ وَالْبَحْرَ ، ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ﴾ أَيْ: فِي السُّفُنِ، تَكُونُ وَاحِدًا وجمعًا، ﴿وَجَرَيْنَ بِهِمْ﴾ يَعْنِي: جَرَتِ السُّفُنُ بِالنَّاسِ، رَجَعَ من الخطاب إلىٰ الغيبة، ﴿بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ لينة ﴿وَفَرِحُوا بِهَا﴾ أي: بالريح، ﴿جَاءَتْهَا رِيحٌ﴾ أَيْ: جَاءَتِ الْفُلْكَ رِيحٌ، ﴿عَاصِفٌ﴾ شَدِيدَةُ الْهُبُوبِ، وَلَمْ يَقُلْ رِيحٌ عَاصِفَةٌ، لِاخْتِصَاصِ الرِّيحِ بِالْعُصُوفِ، وَقِيلَ: الريح يذكر ويؤنث، ﴿وَجَاءَهُمُ﴾ يعني: ركبان السفينة، ﴿الْمَوْجُ﴾ وَهُوَ حَرَكَةُ الْمَاءِ وَاخْتِلَاطُهُ، ﴿مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا﴾ أيقنوا ﴿أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾ دَنَوْا مِنَ الْهَلَكَةِ، أَيْ: أَحَاطَ بِهِمُ الْهَلَاكُ، قَالُ لِمَنْ وَقَعَ فِي بَلِيَّةٍ: قَدْ أُحِيطَ بِهِ، كَأَنَّ الْبَلَاءَ قَدْ أَحَاطَ بِهِ، وَأَصْلُ هَذَا أَنَّ الْعَدُوَّ إِذَا أَحَاطَ بِمَوْضِعٍ فَقَدْ هَلَكَ أَهْلُهُ، ﴿دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أَيْ: أَخْلَصُوا فِي الدُّعَاءِ لِلَّهِ، وَلَمْ يَدْعُوا أَحَدًا سِوَىٰ اللهِ، قال القرطبي: وَفِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَىٰ أَنَّ الْخَلْقَ جُبِلُوا عَلَىٰ الرُّجُوعِ إِلَىٰ اللهِ فِي الشَّدَائِدِ، وَأَنَّ الْمُضْطَرَّ يُجَابُ دُعَاؤُهُ، وَإِنْ كَانَ كَافِرًا، لِانْقِطَاعِ الْأَسْبَابِ وَرُجُوعِهِ إِلَىٰ الْوَاحِدِ رَبِّ الْأَرْبَابِ، قال ابن عاشور : وَمَعْنَىٰ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ مُمْحِضِينَ لَهُ الْعِبَادَةَ فِي دُعَائِهِمْ، أَيْ دَعَوْهُ وَلَمْ يَدْعُوا مَعَهُ أَصْنَامَهُمْ ، وَلَيْسَ الْمُرَادَ أَنَّهُمْ

أَقْلَعُوا عَنِ الْإِشْرَاكِ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِمْ بَلْ تِلْكَ حَالَتُهُمْ فِي الدُّعَاءِ عِنْدَ الشَّدَائِدِ، وَهَذَا إِقَامَةُ حُجَّةٍ عَلَيْهِمْ بِبَعْضِ أَحْوَالِهِمْ، مِثْلَ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: أَغَيْرَ اللهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ وقالوا: ﴿لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا﴾ يا ربنا، ﴿مِنْ هَذِهِ﴾ الرِّيحِ الْعَاصِفِ، أَيْ من هَذِهِ الشَّدَائِدِ وَالْأَهْوَالِ، وَقَالَ الْكَلْبِيُّ: مِنْ هَذِهِ الرِّيحِ ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ أَيْ مِنَ الْعَامِلِينَ بِطَاعَتِكَ عَلَىٰ نِعْمَةِ الْخَلَاصِ.

[٢٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ يَظْلِمُونَ وَيَتَجَاوَزُونَ إِلَىٰ غَيْرِ أَمْرِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي الْأَرْضِ، وَالْبَغْيُ: الْفَسَادُ وَالشِّرْكُ، مِنْ بَغَىٰ الْجُرْحُ إِذَا فَسَدَ، وَأَصْلُهُ الطَّلَبُ، أَيْ يَطْلُبُونَ الِاسْتِعْلَاءَ بِالْفَسَادِ ، ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ أَيْ: بِالْفَسَادِ، أَيْ بِالتَّكْذِيبِ، وَمِنْهُ بَغَتِ الْمَرْأَةُ طَلَبَتْ غَيْرَ زَوْجِهَا، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ﴾ لِأَنَّ وَبَالَهُ رَاجِعٌ عَلَيْهَا، ثُمَّ ابْتَدَأَ فَقَالَ: ﴿مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أَيْ: هَذَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، أَيْ مَا يُتَمَتَّعُ بِهِ فِيهَا ثُمَّ يَذْهَبُ وَلَا يَبْقَىٰ، وَهَذَا مِنْهُ تَزْهِيدٌ فِي الدُّنْيَا وَتَرْغِيبٌ فِي الْآخِرَةِ. وَالْمَتَاعُ مُؤْذِنٌ بِالْقِلَّةِ وَهُوَ مَا يُسْتَمْتَعُ بِهِ مُدَّةً ، وَقِيلَ مَعْنَاهُ: إِنَّمَا بَغْيُكُمْ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لَا يصلح زاد لِمَعَادٍ؛ لِأَنَّكُمْ تَسْتَوْجِبُونَ بِهِ غَضَبَ اللهِ، رُوِيَ عَنْ سُفْيَانَ بْنِ عُيَيْنَةَ أَنَّهُ قَالَ: أَرَادَ أَنَّ الْبَغْيَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، أَيْ عُقُوبَتُهُ تُعَجَّلُ لِصَاحِبِهِ فِي الدُّنْيَا، كَمَا يُقَالُ: الْبَغْيُ مَصْرَعَةٌ. ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ﴾ أَيْ مَصِيرُكُمْ وَمَآلُكُمْ، ﴿فَنُنَبِّئُكُمْ﴾ أَيْ فَنُخْبِرُكُمْ بِجَمِيعِ أَعْمَالِكُمْ وَنُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللهَ، وَمَنْ وجد غير ذلك فلا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ.

[٢٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ فِي فَنَائِهَا وَزَوَالِهَا، ﴿كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ﴾ أي: بالمطر، أَيْ صِفَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي فَنَائِهَا وَزَوَالِهَا وقلة خطر ها وَالْمَلَاذِّ بِهَا كَمَاءٍ، أَيْ مِثْلُ مَاءٍ ﴿نَبَاتُ الْأَرْضِ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: نَبَتَ بِالْمَاءِ مِنْ كُلِّ لَوْنٍ، ﴿مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ﴾ من الحبوب والثمار، ﴿وَالْأَنْعَامُ﴾ مِنَ الْكَلَإِ وَالتِّبْنِ وَالشَّعِيرِ ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا﴾ حُسْنَهَا وَبَهْجَتَهَا وَظَهَرَ الزَّهْرُ أَخْضَرَ أَيْ حُسْنَهَا وَزِينَتَهَا، وَالزُّخْرُفُ كَمَالُ حُسْنِ الشَّيْءِ، وَمِنْهُ قِيلَ لِلذَّهَبِ: زُخْرُفٌ، ﴿وَازَّيَّنَتْ﴾ أَيْ: تَزَيَّنَتْ، بِالْحُبُوبِ وَالثِّمَارِ وَالْأَزْهَارِ، ﴿وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا﴾ عَلَىٰ قِطَافِهَا وَحَصَادِهَا، رَدَّ الْكِنَايَةَ إِلَىٰ الْأَرْضِ، وَالْمُرَادُ: النَّبَاتُ إِذْ كَانَ مَفْهُومًا، وَقِيلَ: رَدَّهَا إِلَىٰ الْغَلَّةِ. وَقِيلَ: إِلَىٰ الزِّينَةِ، قال ابن عاشور: شُبِّهَتْ حَالَةُ الْحَيَاةِ فِي سُرْعَةِ تَقَضِّيهَا وَزَوَالِ نَعِيمِهَا بَعْدَ الْبَهْجَةِ بِهِ وَتَزَايُدِ نَضَارَتِهَا بِحَالِ نَبَاتِ الْأَرْضِ فِي ذَهَابِهِ حُطَامًا وَمَصِيرِهِ حَصِيدًا. ﴿أَتَاهَا أَمْرُنَا﴾ قَضَاؤُنَا بِإِهْلَاكِهَا، ﴿لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا﴾ أَيْ: مَحْصُودَةً مَقْطُوعَةً، وَالْحَصِيدُ: الْمَحْصُودُ، وَهُوَ الزَّرْعُ الْمَقْطُوعُ مِنْ مَنَابِتِهِ ﴿كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ﴾ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بِالْأَمْسِ، وَأَصْلُهُ مِنْ غَنِيَ بِالْمَكَانِ إِذَا أَقَامَ بِهِ، وَقَالَ قَتَادَةُ: مَعْنَاهُ أَنَّ الْمُتَشَبِّثَ بِالدُّنْيَا يَأْتِيهِ أَمْرُ اللهِ وَعَذَابُهُ أَغْفَلَ مَا يَكُونُ، وَمَعْنَىٰ لَمْ تَغْنَ لَمْ تَعْمُرْ، أَيْ لَمْ تَعْمُرْ بِالزَّرْعِ ﴿كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فَيَعْتَبِرُونَ بِهَذَا المثل في زوال الدنيا عن أهلها سريعًا، مع اغترارهم بها وتفلتها عنهم.

[٢٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَاللهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ﴾ قَالَ قَتَادَةُ: السَّلَامُ هُوَ اللهُ، وَدَارُهُ الْجَنَّةُ، وَقِيلَ: السَّلَامُ بِمَعْنَىٰ السَّلَامَةِ سُمِّيَتِ الْجَنَّةُ دَارَ السَّلَامِ؛ لِأَنَّ مَنْ دَخَلَهَا سَلِمَ مِنَ الْآفَاتِ؛ وَقِيلَ: الْمُرَادُ بِالسَّلَامِ التَّحِيَّةُ سُمِّيَتِ الْجَنَّةُ دَارَ السَّلَامِ؛ لِأَنَّ أَهْلَهَا يُحَيِّي بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِالسَّلَامِ وَالْمَلَائِكَةُ تُسَلِّمُ عَلَيْهِمْ، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ . سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ [الرعد : ٢٣-٢٤] ، قالَ الْحَسَنُ البصري: إِنَّ السَّلَامَ لَا يَنْقَطِعُ عَنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَهُوَ تَحِيَّتُهُمْ، ولما ذكر تعالىٰ الدنيا وسرعة زَوَالِهَا، رغَّب فِي الْجَنَّةِ وَدَعَا إِلَيْهَا وَسَمَّاهَا دَارَ السَّلَامِ، أَيْ مِنَ الْآفَاتِ وَالنَّقَائِصِ وَالنَّكَبَاتِ فَقَالَ: ﴿وَاللهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ ، روي عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عنه، أنه قَالَ: خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمًا فَقَالَ: « **إِنِّي رَأَيْتُ فِي الْمَنَامِ كَأَنَّ جِبْرِيلَ عِنْدَ رَأْسِي، وَمِيكَائِيلَ عِنْدَ رِجْلِي، يَقُولُ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: اضْرِبْ لَهُ مَثَلًا، فقال: إِنَّمَا مَثَلُكَ وَمَثَلُ أُمَّتِكَ كَمَثَلِ مَلِكٍ اتَّخَذَ دَارًا، ثُمَّ بَنَىٰ فِيهَا بَيْتًا ثُمَّ جَعَلَ فِيهَا مَأْدُبَةً، ثُمَّ بَعَثَ رَسُولًا يَدْعُو النَّاسَ إِلَىٰ طَعَامِهِ، فَمِنْهُمْ مَنْ أَجَابَ الرَّسُولَ، وَمِنْهُمْ مَنْ تَرَكَهُ؛ فَاللهُ الْمَلِكُ، وَالدَّارُ الْإِسْلَامُ، وَالْبَيْتُ الْجَنَّةُ، وَأَنْتَ يَا مُحَمَّدُ الرَّسُولُ؛ فَمَنْ أَجَابَكَ دَخَلَ الْإِسْلَامَ، وَمَنْ دَخَلَ الْإِسْلَامَ دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ دَخَلَ الْجَنَّةَ أَكَلَ مَا فِيهَا** »(١) ، قَوْلُهُ ﴿وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ

(١) أحمد (١٨٦١٢) .

إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ فَالصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ هُوَ الْإِسْلَامُ عَمَّ بالدعوة لإظهار الحجةا وخص بالهداية اسْتِغْنَاءً عَنِ الْخَلْقِ، وعن أمير المؤمنين علي رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: « **الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ كِتَابُ اللهِ تَعَالَىٰ** »(١).

[٢٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ أَيْ: لِلَّذِينِ أَحْسَنُوا الْعَمَلَ فِي الدُّنْيَا الْحُسْنَىٰ وَهِيَ الْجَنَّةُ وَزِيَادَةٌ وَهِيَ النَّظَرُ إِلَىٰ وَجْهِ اللهِ الْكَرِيمِ جاء في صحيح مسلم من حديث صهيب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾، وَقَالَ: « **إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ وَأَهْلُ النَّارِ النَّارَ، نَادَىٰ منادٍ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ إِنَّ لَكُمْ عِنْدَ اللهِ مَوْعِدًا يُرِيدُ أَنْ يُنْجِزَكُمُوهُ، فَيَقُولُونَ: وَمَا هُوَ ألم يثقل موازيننا؟ ألم يبيض وجوهنا؟ ويدخلنا الجنة ويجرنا مِنَ النَّارِ؟ - قَالَ: فَيَكْشِفُ لَهُمُ الْحِجَابَ فَيَنْظُرُونَ إِلَيْهِ، فَوَاللهِ مَا أَعْطَاهُمُ اللهُ شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَيْهِ وَلَا أَقَرَّ لِأَعْيُنِهِمْ** »(٢)، قَوْلُهُ: ﴿وَلَا يَرْهَقُ﴾ لا يغشىٰ وَالرَّهَقُ: الْغَشَيَانُ ﴿وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ﴾ غُبَارٌ جَمْعُ قَتَرَةٍ والقتر: لوْن هُوَ غُبْرَةٌ إِلَىٰ السَّوَادِ، قَالَ ابْنُ عباس وقتادة: سواد الوجه، ، وقيل هو لون يَغْشَىٰ جِلْدَةَ الْوَجْهِ مِنْ شِدَّةِ الْبُؤْسِ وَالشَّقَاءِ وَالْخَوْفِ، فيقيهم الله تعالىٰ بمنه وفضله كل ذل وهوان، كَمَا قَالَ: ﴿فَوَقَاهُمُ اللهُ شَرَّ ذَلِكَ

(١) الترمذي (٢٩٠٦).

(٢) مسلم (١٨١).

الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ أَيْ نَضْرَةً فِي وُجُوهِهِمْ وَسُرُوراً فِي قُلُوبِهِمْ، جَعَلَنَا اللهُ مِنْهُمْ بِفَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ آمِينَ ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

[٢٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا﴾ أَيْ: لَهُمْ مَثْلُهَا، كَمَا قَالَ: ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ ولَمَّا أَخْبَرَ تَعَالَىٰ عَنْ حَالِ السُّعَدَاءِ الَّذِينَ يُضَاعِفُ لهم الحسنات عطف بذكر حال الأشقياء، فذكر تعالىٰ عدله فِيهِمْ وَأَنَّهُ يُجَازِيهِمْ عَلَىٰ السَّيِّئَةِ بِمِثْلِهَا لَا يَزِيدُهُمْ عَلَىٰ ذَلِكَ، ﴿وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ أَيْ تَعْتَرِيهِمْ وَتَعْلُوهُمْ ذِلَّةٌ مِنْ مَعَاصِيهِمْ وَخَوْفِهِمْ مِنْهَا مَّا لَهُم مِّنَ اللهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ أي مانع ولا واقٍ يقيهم العذاب وَالْعَاصِمُ: الْمَانِعُ وَالْحَافِظُ. وَمَعْنَىٰ مِنَ اللهِ مِن انْتِقَامِهِ وَجَزَائِهِ. ﴿كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ﴾ ألبست ﴿وُجُوهُهُمْ قِطَعًا﴾ جَمْعُ قِطْعَةٍ، وَالْقِطْعُ اسْمُ مَا قُطِعَ فَسَقَطَ ، وَقَالَ ابْنُ السِّكِّيتِ: الْقِطْعُ طَائِفَةٌ مِنَ اللَّيْلِ ﴿مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا﴾ أَيْ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ فِي حَالِ ظُلْمَتِهِ، فَالْمُرَادُ مِنَ اللَّيْلِ الشَّدِيدِ الْإِظْلَامِ بِاحْتِجَابِ نُجُومِهِ وَتَمَكُّنِ ظُلْمَتِهِ. وشبهت قَتَرَةُ وُجُوهِهِمْ بِظَلَامِ اللَّيْلِ ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أي: هؤلاء الموصوفون بما سبق، هم أهل النار الذين هم ماكثون فيها والعياذ بالله.

[٢٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ﴾ أي: نجمعهم في أرض المحشر، إنسهم وجنهم، وبرّهم وفاجرهم، وَالْحَشْرُ الْجَمْعَ ﴿جَمِيعًا﴾ أي: فلا نغادر

منهم أحدًا ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ أَيِ اتَّخَذُوا مَعَ اللهِ شَرِيكًا ﴿مَكَانَكُمْ﴾ أَيِ: الْزَمُوا مَكَانَكُمْ، وَقِفُوا مَوَاضِعَكُمْ.﴿أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ﴾ يَعْنِي: الْأَوْثَانَ، مَعْنَاهُ، ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينِ أَشْرَكُوا الْزَمُوا أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ مكانكم، ولا تبرحوا، ﴿فَزَيَّلْنَا﴾ ميزنا وفرقنا ﴿بَيْنَهُمْ﴾ أَيْ: بَيْنَ الْمُشْرِكِينَ وَشُرَكَائِهِمْ وَقَطَعْنَا مَا كَانَ بَيْنَهُمْ مِنَ التَّوَاصُلِ فِي الدُّنْيَا وَذَلِكَ حِينَ يَتَبَرَّأُ كُلُّ مَعْبُودٍ مِنْ دُونِ اللهِ ممن عبده، أَيْ فَرَّقْنَا وَقَطَّعْنَا مَا كَانَ بَيْنَهُمْ مِنَ التَّوَاصُلِ فِي الدُّنْيَا، يُقَالُ: زَيَّلْتُهُ فَتَزَيَّلَ، أَيْ فَرَّقْتُهُ فَتَفَرَّقَ، ﴿وَقَالَ شُرَكَاؤُهُمْ﴾ يَعْنِي: الْأَصْنَامَ، فَيُنْطِقُهَا اللهُ تَعَالَىٰ فَتَكُونُ بَيْنَهُمْ هَذِهِ الْمُحَاوَرَةُ. وَذَلِكَ أَنَّهُمُ ادَّعَوْا عَلَىٰ الشَّيَاطِينِ الذين أطاعوهم والأصنام التي عبد وها أَنَّهُمْ أَمَرُوهُمْ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَقُولُونَ مَا عَبَدْنَاكُمْ حَتَّىٰ أَمَرْتُمُونَا. ﴿مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: يُنْطِقُ اللهُ الْأَوْثَانَ فَتَقُولُ مَا كُنَّا نَشْعُرُ بِأَنَّكُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ، وَمَا أَمَرْنَاكُمْ بِعِبَادَتِنَا. فَتَقُولُ الْأَصْنَامُ:

[٢٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَكَفَىٰ بِاللهِ شَهِيداً بَيْنَنا وَبَيْنَكُمْ﴾ أَيْ كَفَىٰ اللهُ شَهِيدًا، أَيِ اكْتَفِ بِهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا أَمَرْنَاكُمْ بِهَذَا أَوْ رَضِينَاهُ مِنْكُمْ ، ﴿إِنْ كُنَّا﴾ أَيْ مَا كُنَّا ﴿عَنْ عِبادَتِكُمْ لَغافِلِينَ﴾ أي لَا نَسْمَعُ وَلَا نُبْصِرُ وَلَا نَعْقِلُ، لِأَنَّا كُنَّا جَمَادًا لَا رُوحَ فينا، قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: وَفِي هَذَا تَبْكِيتٌ عَظِيمٌ لِلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ عَبَدُوا مَعَ اللهِ غَيْرَهُ، مِمَّنْ لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ، وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ شَيْئًا، وَلَمْ يَأْمُرْهُمْ بِذَلِكَ وَلَا رَضِيَ بِهِ وَلَا أَرَادَهُ، بَلْ تَبَرَّأَ مِنْهُمْ فِي وَقْتٍ أَحْوَجَ مَا يَكُونُونَ إِلَيْهِ، وَقَدْ تَرَكُوا عِبَادَةَ الْحَيِّ الْقَيُّومِ، السَّمِيعِ الْبَصِيرِ، الْقَادِرِ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ، الْعَلِيمِ

بِكُلِّ شَيْءٍ، وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّهُ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: « **يَجْمَعُ اللهُ النَّاسَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُقَالُ: مَنْ كَانَ يَعْبُدُ شَيْئًا فَلْيَتَّبِعْهُ، فَيَتْبَعُ مَنْ يَعْبُدُ الشَّمْسَ الشَّمْسَ، وَيَتْبَعُ مَنْ يَعْبُدُ الْقَمَرَ الْقَمَرَ، وَيَتْبَعُ مَنْ يَعْبُدُ الطَّوَاغِيتَ الطَّوَاغِيتَ، وَتَبْقَىٰ هَذِهِ الْأُمَّةُ** »[1].

[٣٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿هُنَالِكَ تَبْلُوا ﴾ أَيْ تُخْتَبَرُ، وَقِيلَ: مَعْنَاهُ تَعْلَمُ وَتَقِفُ عَلَيْهِ ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ أَيْ تَقْرَأُ، كُلُّ نَفْسٍ، صَحِيفَتَهَا ، وَقِيلَ: مَعْنَاهُ تَتْبَعُ كُلُّ نفس، ﴿مَا أَسْلَفَتْ﴾ مَا قَدَّمَتْ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ، وَقِيلَ: مَعْنَاهُ تُعَايِنُ، وَقِيلَ: تُسَلِّمُ، أَيْ تُسَلِّمُ مَا عَلَيْهَا مِنَ الْحُقُوقِ إِلَىٰ أَرْبَابِهَا بِغَيْرِ اخْتِيَارِهَا ، ﴿وَرُدُّوا إِلَىٰ اللهِ﴾ إِلَىٰ حُكْمِهِ فَيَتَفَرَّدُ فِيهِمْ بِالْحُكْمِ، ﴿مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ﴾ الذي يتولىٰ ويملك أمرهم: فَإِنْ قِيلَ: أَلَيْسَ قَدْ قَالَ: ﴿وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ قيل: المولىٰ هناك هو الناصر، وههنا بمعنىٰ المالك، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ﴾ أي الذي يجازيهم بالحق ، ﴿ وَضَلَّ عَنْهُمْ﴾ أَيْ ذَهَبَ عَنِ الْمُشْرِكِينَ، ﴿مَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ أَيْ مَا كَانُواْ يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ افْتِرَاءً عَلَيْهِ.

[٣١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُم مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أَيْ: مِنَ السَّمَاءِ بِالْمَطَرِ وَمِنَ الْأَرْضِ بِالنَّبَاتِ، ﴿أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ﴾ أَيْ: مِنْ إِعْطَائِكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ، أو مَنْ جَعَلَهُمَا وَخَلَقَهُمَا لَكُمْ ﴿وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ

---

(١) البخاري (٧٤٣٧)، ومسلم (١٨٢) .

وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ أَيِ النَّبَاتَ مِنَ الْأَرْضِ، وَالْإِنْسَانَ مِنَ النُّطْفَةِ، وَالسُّنْبُلَةَ مِنَ الْحَبَّةِ، وَالطَّيْرَ مِنَ الْبَيْضَةِ، وَالْمُؤْمِنَ مِنَ الْكَافِرِ. ﴿وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾ أَيْ: يَقْضِي الْأَمْرَ، ﴿فَسَيَقُولُونَ اللهُ﴾ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَعْتَقِدُونَ أَنَّ الْخَالِقَ هُوَ اللهُ، أَوْ فَسَيَقُولُونَ هُوَ اللهُ إِنْ فَكَّرُوا وَأَنْصَفُوا ﴿فَقُلْ﴾ لَهُمْ يَا مُحَمَّدُ، ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ أَيْ أَفَلَا تَخَافُونَ عِقَابَهُ وَنِقْمَتَهُ فِي الدنيا والآخرة.

[٣٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمُ﴾ الَّذِي يَفْعَلُ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ هُوَ رَبُّكُمُ، أَيِ الَّذِي تَحِقُّ لَهُ الْأُلُوهِيَّةُ وَيَسْتَوْجِبُ الْعِبَادَةَ، وَإِذَا كَانَ ذَلِكَ فَتَشْرِيكُ غَيْرُهُ ضَلَالٌ وَغَيْرُ حَقٍّ، ﴿الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ أَيِ الَّذِي تَحِقُّ لَهُ الْأُلُوهِيَّةُ وَيَسْتَوْجِبُ الْعِبَادَةَ، وَإِذَا كَانَ ذَلِكَ فَتَشْرِيكُ غَيْرُهُ ضَلَالٌ وَغَيْرُ حَقٍّ.

[٣٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾ أَيْ حُكْمُهُ وَقَضَاؤُهُ وَعِلْمُهُ السَّابِقُ. ﴿عَلَىٰ الَّذِينَ فَسَقُوا﴾ أَيْ خَرَجُوا عَنِ الطَّاعَةِ وَكَفَرُوا وَكَذَّبُوا، قال ابن كثير: أَيْ كَمَا كَفَرَ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ وَاسْتَمَرُّوا عَلَىٰ شِرْكِهِمْ، وَعِبَادَتِهِمْ مَعَ اللهِ غَيْرَهُ مَعَ أَنَّهُمْ يَعْتَرِفُونَ بِأَنَّهُ الْخَالِقُ الرَّازِقُ الْمُتَصَرِّفُ فِي الْمُلْكِ وَحْدَهُ، الَّذِي بَعَثَ رُسُلَهُ بِتَوْحِيدِهِ، فَلِهَذَا حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ اللهِ أَنَّهُمْ أَشْقِيَاءُ مِنْ سَاكِنِي النَّارِ، ﴿أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أَيْ لَا يُصَدِّقُونَ.

[٣٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ﴾ أوثانكم ﴿مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ﴾ يُنْشِئُ الْخَلْقَ مِنْ غَيْرِ أَصْلٍ ولا مثال، ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ ثم يحييه من الْمَوْتِ كَهَيْئَتِهِ،

أي: ينشئه من العدم، فيبدؤه من غير أصل ، ثم يعيده فَإِنْ أَجَابُوكَ وَإِلَّا فـ ﴿قُلْ﴾ أَنْتَ، ﴿اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ أَيْ: تُصْرَفُونَ عَنْ قَصْدِ السَّبِيلِ، وَأَفَكَهُ: قَلَبَهُ ، وَالْمَعْنَىٰ: فَإِلَىٰ أَيِّ مَكَانٍ تُقْلَبُونَ.

[٣٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي﴾ يرشد، يُقَالُ: هَدَاهُ لِلطَّرِيقِ وَإِلَىٰ الطَّرِيقِ بِمَعْنًىٰ وَاحِدٍ، أَيْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يُرْشِدُ إِلَىٰ دِينِ الْإِسْلَامِ ﴿إِلَىٰ الْحَقِّ﴾ فَإِذَا قَالُوا لَا، وَلَا بُدَّ لَهُمْ مِنْ ذَلِكَ، ﴿قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ﴾ أَيْ: إِلَىٰ الْحَقِّ، وَالْمُرَادُ بِالْحَقِّ الدِّينُ، وَهُوَ الْأَعْمَالُ الصَّالِحَةُ، وَأُصُولُهُ وَهِيَ الِاعْتِقَادُ الصَّحِيحُ ، ﴿أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَىٰ الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهِدِّي إِلا أَنْ يُهْدَىٰ﴾ وَمَعْنَاهُ: يَهْتَدِي فِي جَمِيعِهَا، وَالْمُرَادُ بِـ ﴿مَنْ لَا يَهِدِّي﴾ الْأَصْنَامُ فَإِنَّهَا لَا تَهْتَدِي إِلَىٰ شَيْءٍ، كَمَا قَالَ إِبْرَاهِيمُ : ﴿ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾ ، قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِلَّا أَنْ يُهْدَىٰ﴾ مَعْنَىٰ الْآيَةِ: اللَّهُ الَّذِي يَهْدِي إِلَىٰ الْحَقِّ أَحَقُّ بِالِاتِّبَاعِ أَمِ الصَّنَمُ الَّذِي لَا يَهْتَدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَىٰ، فَإِنْ قِيلَ: كَيْفَ قال: ﴿إِلَّا أَنْ يُهْدَىٰ﴾ وَالصَّنَمُ لَا يُتَصَوَّرُ أَنْ يَهْتَدِيَ، وَلَا أَنْ يُهْدَىٰ؟ قِيلَ: مَعْنَىٰ الْهِدَايَةِ فِي حَقِّ الْأَصْنَامِ الِانْتِقَالُ، أَيْ: أَنَّهَا لَا تَنْتَقِلُ مِنْ مَكَانٍ إِلَىٰ مَكَانٍ إِلَّا أَنْ تحمل وتنقل، بين بِهِ عَجْزُ الْأَصْنَامِ، وَجَوَابٌ آخَرُ وَهُوَ: أَنَّ ذِكْرَ الْهِدَايَةِ عَلَىٰ وَجْهِ الْمَجَازِ، وَذَلِكَ أَنَّ الْمُشْرِكِينَ لَمَّا اتَّخَذُوا الْأَصْنَامَ آلِهَةً، وَأَنْزَلُوهَا مَنْزِلَةَ مَنْ يَسْمَعُ وَيَعْقِلُ عَبَّرَ عنهما بِمَا يُعَبَّرُ عَمَّنْ يَعْلَمُ وَيَعْقِلُ، وَوُصِفَتْ بِصِفَةِ مَنْ يَعْقِلُ. ﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ أَيْ فَمَا بَالُكُمْ يُذْهَبُ

بِعُقُولِكُمْ، كَيْفَ سَوَّيْتُمْ بَيْنَ اللهِ وَبَيْنَ خَلْقِهِ، وَعَدَلْتُمْ هَذَا بِهَذَا وَعَبَدْتُمْ هَذَا وَهَذَا؟ وهلا أفردتم الرب جل جلاله بِالْعِبَادَةِ وَحْدَهُ، وَأَخْلَصْتُمْ إِلَيْهِ الدَّعْوَةَ وَالْإِنَابَةَ؟ ثُمَّ بَيَّنَ تَعَالَىٰ أَنَّهُمْ لَا يَتَّبِعُونَ فِي دِينِهِمْ هَذَا دَلِيلًا وَلَا بُرْهَانًا، وَإِنَّمَا هُوَ ظنٌّ مِنْهُمْ أَيْ تَوَهُّمٌ وَتَخَيُّلٌ، وَذَلِكَ لاَ يُغْنِي عَنْهُمْ شَيْئًا.

[٣٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا﴾ مِنْهُمْ يَقُولُونَ: إِنَّ الْأَصْنَامَ آلِهَةٌ، وَإِنَّهَا تَشْفَعُ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ ظَنًّا مِنْهُمْ، لَمْ يَرِدْ بِهِ كِتَابٌ وَلَا رَسُولٌ، وَأَرَادَ بِالْأَكْثَرِ جَمِيعَ مَنْ يَقُولُ ذَلِكَ، وَقِيلَ: الْمُرَادُ الرُّؤَسَاءُ وَالْمُضِلُّونَ الَّذِينَ لَا يُرْشِدُونَ أَنْفُسَهُمْ إِلَىٰ هُدًى إِلَّا أَنْ يُرْشَدُوا ، ﴿إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ أَيْ: لَا يَدْفَعُ عَنْهُمْ مِنْ عذاب الله شيئًا، وقيل: يَقُومُ مَقَامَ الْعِلْمِ، وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ**» ، ﴿إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ من الكفر والتكذيب، خرجت مخرج التهديد.

[٣٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ قَالَ الْفَرَّاءُ: مَعْنَاهُ: وَمَا يَنْبَغِي لِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِنْ دُونِ اللهِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ﴾ وَقِيلَ: (أَنْ) بِمَعْنَىٰ اللَّامِ، أَيْ: وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ لِيُفْتَرَىٰ مِنْ دُونِ اللهِ ، قَوْلُهُ: ﴿وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أَيْ: بَيْنَ يَدَيِ الْقُرْآنِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ، وَقِيلَ: تَصْدِيقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيِ الْقُرْآنِ مِنَ الْقِيَامَةِ والبعث، وَقِيلَ: الْمَعْنَىٰ وَلَكِنْ تَصْدِيقُ النَّبِيِّ بَيْنَ يَدَيِ الْقُرْآنِ وَهُوَ مُحَمَّدٌ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ

وَسَلَّمَ، لِأَنَّهُمْ شَاهَدُوهُ قَبْلَ أَنْ سَمِعُوا مِنْهُ الْقُرْآنَ. ﴿وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ﴾ تَبْيِينَ مَا فِي الْكِتَابِ مِنَ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ وَالْفَرَائِضِ وَالْأَحْكَامِ، وَالتَّفْصِيلُ التَّبْيِينُ، أَيْ يُبَيِّنُ مَا فِي كُتُبِ اللهِ الْمُتَقَدِّمَةِ، وَالْكِتَابُ اسْمُ الْجِنْسِ، وَقِيلَ: أَرَادَ بِتَفْصِيلِ الْكِتَابِ مَا بُيِّنَ فِي الْقُرْآنِ مِنَ الْأَحْكَامِ، قال ابن عاشور : وَمَعْنَىٰ كَوْنِ الْقُرْآنِ تَفْصِيلًا لَهَا أَنَّهُ مُبَيِّنٌ لِمَا جَاءَ مُجْمَلًا فِي الْكُتُبِ السَّالِفَةِ، وَنَاسِخٌ لِمَا لَا مَصْلَحَةَ لِلنَّاسِ فِي دَوَامِ حُكْمِهِ، وَدَافِعٌ لِلْمُتَشَابِهَاتِ الَّتِي ضَلَّ بِهَا أَهْلُ الْكِتَابِ، فَكُلُّ ذَلِكَ دَاخِلٌ فِي مَعْنَىٰ التَّفْصِيلِ، وَهُوَ مَعْنَىٰ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: وَمُهَيْمِنـًا عَلَيْهِ فِي سُورَةِ المائدة ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ الْهَاءُ عَائِدَةٌ لِلْقُرْآنِ، أَيْ لَا شَكَّ فِيهِ أَيْ فِي نُزُولِهِ مِنْ قِبَلِ اللهِ تَعَالَىٰ.

[٣٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: (أَمْ) بِمَعْنَىٰ الواو أي: ويقولون، ﴿افْتَرَاهُ﴾ اخْتَلَقَ مُحَمَّدٌ الْقُرْآنَ مِنْ قِبَلِ نَفْسِهِ، ﴿قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾ شِبْهِ الْقُرْآنِ أي إن كان الأمر كما تزعمون، فأتوا علىٰ وجه الافتراء، بسورة مثله في البلاغة، وحسن الصياغة، وقوة المعنىٰ، فأنتم مثل في العربية والفصاحة، وأشد تمرنًا في النظم ﴿وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ﴾ مِمَّنْ تَعْبُدُونَ، ﴿مِنْ دُونِ اللهِ﴾ لِيُعِينُوكُمْ عَلَىٰ ذَلِكَ، ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أَنَّ مُحَمَّدًا افْتَرَاهُ، وَمَعْنَىٰ الْكَلَامِ الِاحْتِجَاجُ علىٰ المشركين ، فَإِنَّ الْآيَةَ الْأُولَىٰ دَلَّتْ عَلَىٰ كَوْنِ الْقُرْآنِ مِنْ عِنْدِ اللهِ، لِأَنَّهُ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكُتُبِ وَمُوَافِقٌ لَهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَتَعَلَّمَ مُحَمَّدٌ

عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنْ أَحَدٍ. وَهَذِهِ الْآيَةُ إِلْزَامٌ بِأَنْ يَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانَ مُفْتَرًىٰ، ثُمَّ قَالَ:

[٣٩] ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ﴾ يَعْنِي: الْقُرْآنَ، كَذَّبُوا بِهِ، وَلَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ،وَالْإِحَاطَةُ بِالشَّيْءِ: الْكَوْنُ حَوْلَهُ كَالْحَائِطِ، وَيُعنىٰ به عَنِ التَّمَكُّنِ مِنَ الشَّيْءِ بِحَيْثُ لَا يَفُوتُ مِنْهُ، وَقَدْ كَانَتِ الْفَصَاحَةُ مِنْ سَجَايَاهُمْ وَأَشْعَارِهِمْ وَمُعَلَّقَاتِهِمْ إليها المنتهىٰ من هَذَا الْبَابِ، وَلَكِنْ، جَاءَهُمْ مِنَ اللهِ مَا لَا قِبَلَ لِأَحَدٍ بِهِ؛ وَلِهَذَا آمَنَ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِمَا عَرَفَ مِنْ بَلَاغَةِ هَذَا الْكَلَامِ، وَحَلَاوَتِهِ وَجَزَالَتِهِ وَطَلَاوَتِهِ وَإِفَادَتِهِ وَبَرَاعَتِهِ، فَكَانُوا أَعْلَمَ النَّاسِ به وأفهمهم له وأشدهم له انقياداً.لهذا جَاءَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «مَا مِنْ نَبِيٍّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ إِلَّا وَقَدْ أُوتِيَ مِنَ الْآيَاتِ مَا آمَنَ عَلَىٰ مِثْلِهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُهُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللهُ إليَّ فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا» ﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾ أَيْ: عَاقِبَةُ مَا وَعَدَ اللهُ فِي القرآن، أنه يؤول إِلَيْهِ أَمْرُهُمْ مِنَ الْعُقُوبَةِ، يُرِيدُ أنهم لم يعلموا ما يؤول إِلَيْهِ عَاقِبَةُ أَمْرِهِمْ، بل كذب هؤلاء بالقرآن وَلَمْ يَفْهَمُوهُ وَلَا عَرَفُوهُ وَلَمْ يُحَصِّلُوا مَا فِيهِ مِنَ الْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ إِلَىٰ حِينِ تَكْذِيبِهِمْ بِهِ جَهْلًا وَسَفَهًا، ﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أَيْ: كَمَا كَذَّبَ هَؤُلَاءِ الْكُفَّارُ بِالْقُرْآنِ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ كُفَّارِ الْأُمَمِ الْخَالِيَةِ، ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ آخِرُ أَمْرِ الْمُشْرِكِينَ بِالْهَلَاكِ.

[٤٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِ﴾ أَيْ: مِنْ قَوْمِكَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْقُرْآنِ، قِيلَ: الْمُرَادُ أَهْلُ مَكَّةَ، أَيْ وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ فِي الْمُسْتَقْبَلِ وَإِنْ طَالَ تَكْذِيبُهُ، لِعِلْمِهِ تَعَالَىٰ السَّابِقِ فيهم أنهم من السعادة ﴿وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِ﴾ لِعِلْمِ اللهِ السَّابِقِ فِيهِمْ، وَالْمَعْنَىٰ وَمِنْهُمْ مَنْ يُصِرُّ عَلَىٰ كُفْرِهِ حَتَّىٰ يَمُوتَ، كَأَبِي طَالِبٍ وَأَبِي لَهَبٍ وَنَحْوِهِمَا. وَقِيلَ: الْمُرَادُ أَهْلُ الْكِتَابِ. وَقِيلَ: هُوَ عَامٌّ فِي جَمِيعِ الْكُفَّارِ، وَهُوَ الصَّحِيحُ ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ، أَيْ مَنْ يُصِرُّ عَلَىٰ كُفْرِهِ، وَهَذَا تهديد لهم.

[٤١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ﴾ يَا مُحَمَّدُ، ﴿فَقُل لِّي عَمَلِي﴾ وجزاؤه، وَالْمَعْنَىٰ: لِي ثَوَابُ عَمَلِي فِي التَّبْلِيغِ وَالْإِنْذَارِ وَالطَّاعَةِ لِلَّهِ تَعَالَىٰ. ﴿وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾ أَيْ جَزَاؤُهُ مِنَ الشِّرْكِ، ﴿أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ هَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾ [الْقَصَصِ: ٥٥] ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الْكَافِرُونَ: ٦] قَالَ الْكَلْبِيُّ وَمُقَاتِلٌ: هَذِهِ الْآيَةُ مَنْسُوخَةٌ بِآيَةِ الْجِهَادِ، ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّ التَّوْفِيقَ للإيمان به لا بغيره.

[٤٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ بِأَسْمَاعِهِمُ الظَّاهِرَةِ فَلَا يَنْفَعُهُمْ، يُرِيدُ بِظَوَاهِرِهِمْ، وَقُلُوبُهُمْ لَا تَعِي شَيْئًا مِمَّا يقوله من الحق ويتلوه من القرآن، ولهذا قال ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ﴾ يريد صمم الْقَلْبِ وَجَعَلَهُمْ كَالصُّمِّ لِلْخَتْمِ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَالطَّبْعِ عَلَيْهَا، أَيْ لَا تَقْدِرُ عَلَىٰ هِدَايَةِ مَنْ أَصَمَّهُ اللهُ عَنْ سَمَاعِ الْهُدَىٰ، ﴿وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ﴾ وَالْمُرَادُ تَسْلِيَةُ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ

وَسَلَّمَ، أَيْ كَمَا لَا تَقْدِرُ أَنْ تُسْمِعَ مَنْ سُلِبَ السَّمْعَ وَلَا تَقْدِرَ أَنْ تَخْلُقَ لِلْأَعْمَىٰ بَصَرًا يَهْتَدِي بِهِ، فَكَذَلِكَ لَا تَقْدِرُ أَنْ تُوَفِّقَ هَؤُلَاءِ لِلْإِيمَانِ وَقَدْ حَكَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ أَلَّا يُؤْمِنُوا.

[٤٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ﴾ يُرِيدُ بِظَوَاهِرِهِمْ، وَقُلُوبُهُمْ لَا تَعِي شَيْئًا مِمَّا يقوله من الحق ويتلوه من القرآن، ﴿أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ﴾ يُرِيدُ عَمَىٰ الْقَلْبِ، أَيْ لَا تُسْمِعُ، فَظَاهِرُهُ الِاسْتِفْهَامُ وَمَعْنَاهُ النَّفْيُ، وَجَعَلَهُمْ كَالصُّمِّ لِلْخَتْمِ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَالطَّبْعِ عَلَيْهَا، أَيْ لَا تَقْدِرُ عَلَىٰ هِدَايَةِ مَنْ أَصَمَّهُ اللهُ عَنْ سَمَاعِ الْهُدَىٰ، ﴿وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ﴾ وَهَذَا تَسْلِيَةٌ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لِنَبِيِّهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ: إِنَّكَ لَا تَقْدِرُ أَنْ تُسْمِعَ مَنْ سَلَبْتُهُ السَّمْعَ وَلَا أَنْ تَهْدِيَ مَنْ سَلَبْتُهُ الْبَصَرَ وَلَا أَنْ تُوَفِّقَ لِلْإِيمَانِ من حكمت عليه ألا يُؤْمِنُ.

[٤٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا﴾ لِأَنَّهُ فِي جَمِيعِ أَفْعَالِهِ مُتَفَضِّلٌ عَادِلٌ، ﴿وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بِالْكُفْرِ وَالْمَعْصِيَةِ وَمُخَالَفَةِ أَمْرِ خَالِقِهِمْ. أَخْبَرَ تَعَالَىٰ أَنَّهُ لَا يَظْلِمُ أَحَدًا شَيْئًا، وَإِنْ كَانَ قَدْ هَدَىٰ بِهِ مَنْ هَدَىٰ وَبَصَّرَ بِهِ مِنَ الْعَمَىٰ، وَفَتَحَ بِهِ أَعْيُنًا عُمْيًا، وَآذَانًا صُمًّا، وَقُلُوبًا غُلْفًا، وَأَضَلَّ بِهِ عَنِ الْإِيمَانِ آخَرِينَ، فَهُوَ الْحَاكِمُ الْمُتَصَرِّفُ فِي مُلْكِهِ بِمَا يَشَاءُ، الَّذِي لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ، لِعِلْمِهِ وَحِكْمَتِهِ وَعَدْلِهِ، وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ مِنْ حَدِيثِ أَبِي ذَرٍّ عَنِ النَّبِيِّ - صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِيمَا يَرْوِيهِ عَنْ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ: « **يَا عِبَادِي، إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَىٰ نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلَا تَظَالَمُوا** - إِلَىٰ

أَنْ قَالَ - **يَا عِبَادِي، إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوفِيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ** »(١) .

[٤٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾ الْحَشْرُ: جَمْعُ النَّاسِ فِي مَكَانٍ ﴿كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ﴾ قَالَ الضَّحَّاكُ: كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا فِي الدُّنْيَا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا فِي قُبُورِهِمْ إِلَّا قَدْرَ سَاعَةٍ مِنَ النَّهَارِ، قال الطبري : يقول تعالىٰ ذكره: ويوم نحشر هؤلاء المشركين فنجمعهم في موقف الحساب، كأنهم كانوا قبل ذلك لم يلبثوا إلا ساعة من نهار يتعارفون فيما بينهم، ثم انقطعت المعرفة، وانقضت تلك الساعة ، قوله : ﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ يَعْرِفُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا حِينَ بُعِثُوا مِنَ الْقُبُورِ كَمَعْرِفَتِهِمْ فِي الدُّنْيَا، ثُمَّ تَنْقَطِعُ الْمَعْرِفَةُ إِذَا عَايَنُوا أَهْوَالَ الْقِيَامَةِ، وَقِيلَ: مَعْنَىٰ ﴿يَتَعَارَفُونَ﴾ يَتَسَاءَلُونَ، أَيْ يَتَسَاءَلُونَ كَمْ لَبِثْتُمْ، وَفِي بَعْضِ الْآثَارِ: أَنَّ الْإِنْسَانَ يَعْرِفُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ بِجَنْبِهِ وَلَا يُكَلِّمُهُ هَيْبَةً وَخَشْيَةً، قال القرطبي : وَهَذَا التَّعَارُفُ تَعَارُفُ تَوْبِيخٍ وَافْتِضَاحٍ، يَقُولُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: أَنْتَ أَضْلَلْتَنِي وَأَغْوَيْتَنِي وَحَمَلْتَنِي علىٰ الكفر، وليس تَعَارُفُ شَفَقَةٍ وَرَأْفَةٍ وَعَطْفٍ. ثُمَّ تَنْقَطِعُ الْمَعْرِفَةُ إِذَا عَايَنُوا أَهْوَالَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ كَمَا قَالَ: ﴿وَلا يَسْئَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً﴾ [المعارج : ١٠] ، قوله : ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ وَالْمُرَادُ مِنَ الْخُسْرَانِ: خُسْرَانُ

---

(١) مسلم (٢٥٧٧) .

النَّفْسِ، ولا شَيْءَ أَعْظَمُ مِنْهُ، وقِيلَ: يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ هَذَا إِخْبَارًا مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بَعْدَ أَنْ دَلَّ عَلَىٰ الْبَعْثِ وَالنُّشُورِ، أَيْ خَسِرُوا ثَوَابَ الْجَنَّةِ ، وَقِيلَ: خَسِرُوا فِي حَالِ لِقَاءِ اللهِ، لِأَنَّ الْخُسْرَانَ إِنَّمَا هُوَ فِي تِلْكَ الْحَالَةِ الَّتِي لَا يُرْجَىٰ فِيهَا إِقَالَةٌ وَلَا تَنْفَعُ تَوْبَةٌ.

[٤٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ﴾ يا محمد فِي حَيَاتِكَ مِنَ الْعَذَابِ، وَقَالَ الْمُفَسِّرُونَ: كَانَ الْبَعْضُ الَّذِي وَعَدَهُمْ قَتْلُ مَنْ قُتِلَ وَأَسْرُ مَنْ أُسِرَ بِبَدْرٍ، ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ قبل تعذيبهم، ﴿فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ فِي الْآخِرَةِ، وَالْمَقْصُودُ إِنْ لَمْ نَنْتَقِمْ مِنْهُمْ عَاجِلًا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ آجِلًا. ﴿ثُمَّ اللهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾ فَيَجْزِيهِمْ بِهِ، (ثُمَّ) بِمَعْنَىٰ الْوَاوِ، تَقْدِيرُهُ: وَاللهُ شَهِيدٌ، قَالَ مُجَاهِدٌ: فَكَانَ الْبَعْضُ الَّذِي أَرَاهُ قَتْلَهُمْ بِبَدْرٍ، وَسَائِرُ أَنْوَاعِ الْعَذَابِ بَعْدَ مَوْتِهِمْ.

[٤٧] قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ خلت ﴿رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ﴾ وكذبوه، ﴿قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ﴾ أَيْ عُذِّبُوا فِي الدُّنْيَا وَأُهْلِكُوا بِالْعَذَابِ، يَعْنِي قَبْلَ مَجِيءِ الرَّسُولِ، لَا ثَوَابَ وَلَا عِقَابَ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَمُقَاتِلٌ: فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ قُضِيَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ، وعن أبي سعيد رضي الله عنه، عن النبي صلىٰ الله عليه وسلم قال: « **يجيء النبي يوم القيامة ومعه الرجل، والنبيّ ومعه الرجلان، والنبيّ ومعه الثلاثة، وأكثر من ذلك، فيُقال له: هل بلغت قومك؟ فيقول: نعم، فيُدعىٰ قومه، فيقال لهم: هل بَلَّغَكُم هذا؟ فيقولون: لا، فيقال له: من يشهدُ لك، فيقول: محمدٌ وأمته، فيُدعىٰ**

محمدٌ وأمتُه، فيقالُ لهم: هل بَلَّغَ هذا قومه؟ فيقولون: نعم، فيُقال: وما عِلْمُكُم بذلك؟ فيقولون: جاءَنا نبيُّنا، فأخبرنا أن الرسل قد بَلّغوا فصدَّقناه، فذلك قوله: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة : ١٤٣] [(١)]، قوله ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ لَا يُعَذَّبُونَ بِغَيْرِ ذَنْبٍ، وَلَا يُؤَاخَذُونَ بِغَيْرِ حُجَّةٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ حَسَنَاتِهِمْ، وَلَا يُزَادُ عَلَىٰ سيئاتهم.

[٤٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَيَقُولُونَ﴾ أي: المشركون، ﴿مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ﴾ الَّذِي تَعِدُنَا يَا مُحَمَّدُ مِنَ العذاب، وقيل: قيام الساعة، ﴿مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ﴾ أَنْتَ يَا مُحَمَّدُ وَأَتْبَاعُكَ، قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي﴾ لَا أَقْدِرُ لَهَا عَلَىٰ شَيْءٍ ﴿ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ أَيْ دَفْعَ ضُرٍّ وَلَا جَلْبَ نَفْعٍ، لَمَّا اسْتَعْجَلُوا النَّبِيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْعَذَابِ قَالَ اللهُ لَهُ: قُلْ لَهُمْ يَا مُحَمَّدُ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا، أَيْ لَيْسَ ذَلِكَ لِي وَلَا لِغَيْرِي. وَإِنَّمَا خُصَّ الرَّسُولُ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - بِالْأَمْرِ بِجَوَابِهِمْ لِأَنَّهُ الَّذِي أَخْبَرَهُمْ بِالْوَعِيدِ وَأَمَّا الْمُؤْمِنُونَ فَتَابِعُونَ لَهُ فِي ذَلِكَ، ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ﴾ أَنْ أَمْلِكَهُ ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ مُدَّةٌ مَضْرُوبَةٌ ﴿إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ﴾ وَقْتُ فَنَاءِ أَعْمَارِهِمْ ﴿فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ أَيْ لَا يُمْكِنُهُمْ أَنْ يَسْتَأْخِرُوا سَاعَةً بَاقِينَ فِي الدُّنْيَا ولا يتقدمون فيؤخرون.

---

(١) البخاري (٧٣٤٩) .

[٥٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا﴾ لَيْلًا ﴿أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ﴾ أَيْ: مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنَ اللهِ الْمُشْرِكُونَ، وَقِيلَ: مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنَ الْعَذَابِ الْمُجْرِمُونَ وَقَدْ وَقَعُوا فِيهِ، وَحَقِيقَةُ الْمَعْنَىٰ: أَنَّهُمْ كَانُوا يَسْتَعْجِلُونَ الْعَذَابَ ، فَيَقُولُونَ: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الْأَنْفَالِ: ٣٢] فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿مَاذَا يَسْتَعْجِلُ﴾ يعني: ليس يَعْلَمُ الْمُجْرِمُونَ مَاذَا يَسْتَعْجِلُونَ وَيَطْلُبُونَ كَالرَّجُلِ يَقُولُ لِغَيْرِهِ وَقَدْ فَعَلَ قَبِيحًا: مَاذَا جَنَيْتَ عَلَىٰ نَفْسِكَ؟.

[٥١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ﴾ قِيلَ: مَعْنَاهُ أَهُنَالِكَ، وَحِينَئِذٍ، وَلَيْسَ بِحَرْفِ عَطْفٍ، ﴿إِذَا مَا وَقَعَ﴾ نزل العذاب، ﴿آمَنْتُمْ بِهِ﴾ أَيْ بِاللهِ فِي وَقْتِ الْيَأْسِ، وَقِيلَ: آمَنْتُمْ بِهِ أَيْ صَدَّقْتُمْ بالعذاب وقت نزوله، ﴿آلْآنَ﴾ فِيهِ إِضْمَارٌ، أَيْ: يُقَالُ لَكُمْ: آلْآنَ تُؤْمِنُونَ حِينَ وَقَعَ الْعَذَابُ؟ ﴿وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ [يونس: ٥١] تكذيبًا واستهزاءً.

[٥٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أَشْرَكُوا، ﴿ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ فِي الدنيا.

[٥٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ﴾ أَيْ: يَسْتَخْبِرُونَكَ يَا مُحَمَّدُ، ﴿أَحَقٌّ هُوَ﴾ أَيْ مَا تَعِدُنَا مِنَ الْعَذَابِ وَقِيَامِ السَّاعَةِ، ﴿قُلْ إِي وَرَبِّي﴾ أَيْ: نَعَمْ وَرَبِّي، ﴿إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ لَا شَكَّ فِيهِ، ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ أَيْ: بِفَائِتِينَ مِنَ الْعَذَابِ؛ لِأَنَّ مَنْ عَجَزَ عَنْ شَيْءٍ فَقَدْ فاته.

[٥٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ﴾ أَيْ: أَشْرَكَتْ، وَكَفَرَتْ. ﴿مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ﴾ يوم القيامة، والافتداء ههنا: بَذْلُ مَا يَنْجُو بِهِ مِنَ العذاب، ﴿وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ﴾ قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: مَعْنَاهُ أَظْهَرُوا النَّدَامَةَ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ ذَلِكَ الْيَوْمُ يَوْمَ تَصَبُّرٍ وَتَصَنُّعٍ، وَقِيلَ: مَعْنَاهُ أَخْفَوْا، أَيْ: أَخْفَىٰ الرُّؤَسَاءُ النَّدَامَةَ مِنَ الضُّعَفَاءِ خَوْفًا مِنْ مَلَامَتِهِمْ وَتَعْيِيرِهِمْ، وَالنَّدَامَةُ: النَّدَمُ، وَهُوَ أَسَفٌ يَحْصُلُ فِي النَّفْسِ عَلَىٰ تَفْوِيتِ شَيْءٍ مُمْكِنٍ عَمَلُهُ فِي الْمَاضِي، وَأَصْلُهَا اللُّزُومُ، وَمِنْهُ النَّدِيمُ لِأَنَّهُ يُلَازِمُ الْمَجَالِسَ. فَإِذَا تَجَلَّدَ صَاحِبُ النَّدَمِ فَلَمْ يُظْهِرْ قَوْلًا وَلَا فِعْلًا فَقَدْ أَسَرَّ النَّدَامَةَ، أَيْ قَصَرَهَا عَلَىٰ سِرِّهِ، فَلَمْ يُظْهِرْهَا بِإِظْهَارِ بَعْضِ آثَارِهَا، وَإِنَّمَا يَكُونُ ذَلِكَ مِنْ شِدَّةِ الْهَوْلِ فَإِنَّمَا أَسَرُّوا النَّدَامَةَ لِأَنَّهُمْ دُهِشُوا لِرُؤْيَةِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ فَلَمْ يُطِيقُوا صُرَاخًا وَلَا عَوِيلًا، وفي الحديث الصحيح عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**يُقَالُ لِلرَّجُلِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: أَرَأَيْتَ لَوْ كَانَ لَكَ مَا عَلَىٰ الْأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ أَكُنْتَ مُفْتَدِيًا بِهِ؟ قَالَ: فَيَقُولُ: نَعَمْ، قَالَ: فَيَقُولُ: قَدْ أَرَدْتُ مِنْكَ أَهْوَنَ مِنْ ذَلِكَ، قَدْ أَخَذْتُ عَلَيْكَ فِي ظَهْرِ آدَمَ أَنْ لَا تُشْرِكَ بِي شَيْئًا، فَأَبَيْتَ إِلَّا أَنْ تُشْرِكَ**»(١)، ﴿لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ﴾ فَرَغَ مِنْ عَذَابِهِمْ،قال الطبري: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ﴾ يقول: وقضىٰ الله يومئذ بين الأتباع والرؤساء منهم بالعدل، ﴿وَهُمْ لَا

---

(١) البخاري (٣٣٣٤).

يُظْلَمُونَ﴾، وذلك أنه لا يعاقب أحدًا منهم إلا بجريرته، ولا يأخذه بذنب أحد، ولا يعذِّب إلا من قد أعذر إليه في الدنيا وتابع عليه الحجج.

[٥٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ، (أَلَا) كَلِمَةُ تَنْبِيهٍ لِلسَّامِعِ تُزَادُ فِي أَوَّلِ الْكَلَامِ، أَيِ انْتَبِهُوا لِمَا أَقُولُ لَكُمْ : ﴿إِنَّ لله مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ﴾ فَلَا مَانِعَ يَمْنَعُهُ مِنْ إِنْفَاذِ مَا وَعَدَهُ : ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: إن العذاب الذي أوعده الله المشركين علىٰ كفرهم واقع بهم لا محالة، ولكن أكثر هؤلاء المشركين لا يعلمون حقيقة وقوع ذلك بهم، فهم في جهلهم يترددون، ولأجل ذلك يُكذبون.

[٥٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾، قال النسفي: هو القادر علىٰ الإحياء والإماتة لا يقدر عليهما غيره ، ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ وإلىٰ حسابه وجزائه المرجع فيخاف ويرجىٰ.

[٥٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ﴾ تَذْكِرَةٌ، وَالْمَوْعِظَةُ: الْوَعْظُ، وَهُوَ كَلَامٌ فِيهِ نُصْحٌ وَتَحْذِيرٌ مِمَّا يَضُرُّ ، ﴿مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ﴾ أي: دواء لما في الصدور من داء الجهل، وقيل: لِمَا فِي الصُّدُورِ أَيْ شِفَاءٌ لِعَمَىٰ الْقُلُوبِ، وَالصَّدْرُ مَوْضِعُ الْقَلْبِ، وَهُوَ أَعَزُّ مَوْضِعٍ فِي الْإِنْسَانِ لجوار القلب، وَالشِّفَاءُ وَحَقِيقَتُهُ: زَوَالُ الْمَرَضِ وَالْأَلَمِ، وَمَجَازُهُ: زَوَالُ النَّقَائِصِ وَالضَّلَالَاتِ وَمَا فِيهِ حَرَجٌ عَلَىٰ النَّفْسِ، وَهَذَا هُوَ الْمُرَادُ هُنَا، ﴿وَهُدًىٰ﴾ من الضلالة ﴿وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ وَالرَّحْمَةُ هِيَ النِّعْمَةُ عَلَىٰ

الْمُحْتَاجِ؛ فَإِنَّهُ لَوْ أَهْدَىٰ مَلِكٌ إِلَىٰ مَلِكٍ شَيْئًا لَا يُقَالُ قَدْ رَحِمَهُ، وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ نِعْمَةً؛ فإنه لَمْ يَضَعْهَا فِي مُحْتَاجٍ. قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ: «الْقُرْآنُ حَيَاةُ الْقُلُوبِ، وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ، فَبِالْجُمْلَةِ فَلَا شَيْءَ أَنْفَعُ لِلْقَلْبِ مِنْ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ بِالتَّدَبُّرِ، وَالتَّفَكُّرِ وَهَذَا الَّذِي يُورِثُ الْمَحَبَّةَ وَالشَّوْقَ، وَالْخَوْفَ، وَالرَّجَاءَ، وَالْإِنَابَةَ، وَالتَّوَكُّلَ، وَالرِّضَىٰ، وَالتَّفْوِيضَ، وَالشُّكْرَ، وَالصَّبْرَ، وَسَائِرَ الْأَحْوَالِ الَّتِي بِهَا حَيَاةُ الْقَلْبِ، وَكَمَالُهُ، وَكَذَلِكَ يَزْجُرُ عَنْ جَمِيعِ الصِّفَاتِ وَالْأَفْعَالِ الْمَذْمُومَةِ الَّتِي بِهَا فَسَادُ الْقَلْبِ، وَهَلَاكُهُ فَلَوْ عَلِمَ النَّاسُ مَا فِي قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ بِالتَّدَبُّرِ لَاشْتَغَلُوا بِهَا عَنْ كُلِّ مَا سِوَاهَا.

[٥٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ: فَضْلُ اللهِ: الْإِيمَانُ، وَرَحْمَتُهُ: الْقُرْآنُ، وَقَالَ أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ: فَضْلُ اللهِ الْقُرْآنُ، وَرَحْمَتُهُ أَنْ جَعَلَنَا مِنْ أَهْلِهِ، وَقَالَ ابْنُ عمر: فضل الله: الإسلام، رحمته: تَزْيِينُهُ فِي الْقَلْبِ، وَقَالَ خَالِدُ بْنُ مَعْدَانَ: فَضْلُ اللهِ: الْإِسْلَامُ، وَرَحْمَتُهُ: السُّنَنُ، وَقِيلَ: فَضْلُ اللهِ: الْإِيمَانُ، وَرَحْمَتُهُ: الْجَنَّةُ. ﴿فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ أَيْ: لِيَفْرَحَ الْمُؤْمِنُونَ أَنْ جَعَلَهُمُ اللهُ مِنْ أَهْلِهِ، . وَالْفَرَحُ لَذَّةٌ فِي الْقَلْبِ بِإِدْرَاكِ الْمَحْبُوبِ، ﴿هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ أَيْ مِنْ حُطَامِ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا مِنَ الزَّهْرَةِ الفانية الذاهبة لا محالة، قال ابن عاشور : وَالْمَعْنَىٰ أَنَّ ذَلِكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُهُ الْمُشْرِكُونَ مَعَ اتِّصَافِهِمْ بِالشِّرْكِ لِأَنَّهُمْ وَإِنْ حَصَّلُوا مَا بِهِ بَعْضُ الرَّاحَةِ فِي الدُّنْيَا فَهُمْ شِرَارُ النُّفُوسِ خِسَاسُ الْمَدَارِكِ.

[٥٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ﴾ يَا مُحَمَّدُ لِكَفَّارِ مَكَّةَ، ﴿أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ﴾ وَعَبَّرَ عَنْ إِعْطَاءِ الرِّزْقِ بِالْإِنْزَالِ لِأَنَّ مُعْظَمَ أَمْوَالِهِمْ كَانَتِ الثِّمَارَ وَالْأَعْنَابَ وَالْحُبُوبَ، وَكُلُّهَا مِنْ آثَارِ الْمَطَرِ الَّذِي هُوَ نَازِلٌ مِنَ السَّحَابِ بِتَكْوِينِ اللهِ، فَأُسْنِدَ إِنْزَالُهُ إِلَىٰ اللهِ بِهَذَا الِاعْتِبَارِ، وَمُعْظَمُ أَمْوَالِهِمُ الْأَنْعَامُ، وَحَيَاتُهَا مِنَ الْعُشْبِ وَالْكَلَأِ وَهِيَ مِنْ أَثَرِ الْمَطَرِ، ﴿فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا﴾ هُوَ مَا حَرَّمُوا مِنَ الْحَرْثِ وَمِنَ الْأَنْعَامِ كَالْبَحِيرَةِ وَالسَّائِبَةِ وَالْوَصِيلَةِ وَالْحَامِ، قَالَ الضَّحَّاكُ: هُوَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا﴾ [الأنعام : ١٣٦] ، ﴿قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ﴾ فِي هَذَا التَّحْرِيمِ وَالتَّحْلِيلِ، ﴿أَمْ﴾ بل، ﴿عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ هو قولهم: ﴿وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ .

[٦٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أَيَحْسَبُونَ أَنَّ اللهَ لَا يُؤَاخِذُهُمْ بِهِ وَلَا يُعَاقِبُهُمْ عَلَيْهِ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ أَيْ فِي التَّأْخِيرِ وَالْإِمْهَالِ ، وَقِيلَ: أَرَادَ أَهْلَ مَكَّةَ حِينَ جَعَلَهُمْ فِي حَرَمٍ آمِنٍ، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ﴾ يَعْنِي الْكُفَّارَ ، ﴿لَا يَشْكُرُونَ﴾ اللهَ عَلَىٰ نِعَمِهِ وَلَا فِي تَأْخِيرِ الْعَذَابِ عَنْهُمْ. وَقِيلَ: ﴿لَا يَشْكُرُونَ﴾ لَا يوحدون، قال ابن عاشور : وَفِيهِ قَطْعٌ لِعُذْرِ الْمُشْرِكِينَ، وَتَسْجِيلٌ عَلَيْهِمْ بِالتَّمَرُّدِ بِأَنَّ اللهَ تَفَضَّلَ عَلَيْهِمْ بِالرِّزْقِ وَالْمَوْعِظَةِ وَالْإِرْشَادِ فَقَابَلُوا ذَلِكَ بِالْكُفْرِ دُونَ الشُّكْرِ وَجَعَلُوا رِزْقَهُمْ أَنَّهُمْ يُكَذِّبُونَ فِي حِينِ قَابَلَهُ الْمُؤْمِنُونَ بِالْفَرَحِ وَالشُّكْرِ فَانْتَفَعُوا بِهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

[٦١] قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَا تَكُونُ﴾ يا محمد، ﴿فِي شَأْنٍ﴾ عمل من الأعمال، وجمعه شؤون، ﴿وَمَا تَتْلُو مِنْهُ﴾ من الله، ﴿مِنْ قُرْآنٍ﴾ وَقِيلَ: مِنْهُ أَيْ مِنَ الشَّأْنِ مِنْ قُرْآنٍ، نَزَلَ فِيهِ ثُمَّ خَاطَبَهُ وَأُمَّتَهُ فَقَالَ: ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ أَيْ: تَدْخُلُونَ وَتَخُوضُونَ فِيهِ، الْهَاءُ عَائِدَةٌ إِلَىٰ الْعَمَلِ، وَالْإِفَاضَةُ: الدُّخُولُ فِي الْعَمَلِ، وَقَالَ ابْنُ الْأَنْبَارِيِّ: تندفعون فيه، وقيل: تكثرون، وَالْإِفَاضَةُ: الدَّفْعُ بِكَثْرَةٍ، قال ابن كثير: أَيْ إِذْ تَأْخُذُونَ فِي ذَلِكَ الشَّيْءِ نَحْنُ مُشَاهِدُونَ لَكُمْ رَاءُونَ سامعون، ولهذا قال صلىٰ الله عليه وسلم لما سأله جبريل عَنِ الْإِحْسَانُ: «**أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ**»، ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ﴾ يَغِيبُ عَنْ رَبِّكَ، ﴿مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ، أَيْ: مِثْقَالِ ذَرَّةٍ، و (مِنْ) صِلَةٌ وَالذَّرَّةُ هِيَ النملة الحمراء الصَّغِيرَةُ، ﴿فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ﴾ أَيْ: مِنَ الذَّرَّةِ، ﴿وَلَا أَكْبَرَ﴾ عَطْفٌ عَلَىٰ لَفْظِ مِثْقَالِ، وَإِنْ شِئْتَ عَلَىٰ ذَرَّةٍ، ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ وَهُوَ اللَّوْحُ الْمَحْفُوظُ.

[٦٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ الْخَوْفُ: تَوَقُّعُ حُصُولِ الْمَكْرُوهِ لِلْمُتَوَقِّعِ، فَيَتَعَدَّىٰ بِنَفْسِهِ إِلَىٰ الشَّيْءِ الْمُتَوَقَّعِ حُصُولُهُ، فَيُقَالُ: خَافَ الشَّيْءَ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَلا تَخافُوهُمْ وَخافُونِ﴾ [آل عمران: ١٧٥] وَإِذَا كَانَ تَوَقُّعُ حُصُولِ الْمَكْرُوهِ لِغَيْرِ الْمُتَوَقِّعِ يُقَالُ لِلْمُتَوَقِّعِ: خَافَ عَلَيْهِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ، عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ، الْحُزْنَ هُوَ انْكِسَارُ النَّفْسِ مِنْ إِثْرِ حُصُولِ الْمَكْرُوهِ عِنْدَهَا فَهُوَ لَا تُوجَدُ حَقِيقَتُهُ إِلَّا بَعْدَ

حُصُولِهِ، وَالْخَوْفُ يَكُونُ قَبْلَ حُصُولِهِ، ثُمَّ هُمْ وَإِنْ كَانُوا يَحْزَنُونَ لِمَا يُصِيبُهُمْ مِنْ أُمُورٍ فِي الدُّنْيَا كَقَوْلِ النَّبِيءِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَإِنَّا لِفِرَاقِكَ يَا إِبْرَاهِيمُ لَمَحْزُنُونَ**»[1] ، اختلفوا فِيمَنْ يَسْتَحِقُّ هَذَا الِاسْمَ، وقال عبد الله بن مسعود: أولياء الله الذين إذا رأوا ذكر الله ، وعن عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ مِنْ عِبَادِ اللهِ لَأُنَاسًا مَا هُمْ بِأَنْبِيَاءَ، وَلَا شُهَدَاءَ يَغْبِطُهُمُ الْأَنْبِيَاءُ وَالشُّهَدَاءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، بِمَكَانِهِمْ مِنَ اللهِ تَعَالَىٰ**» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، تُخْبِرُنَا مَنْ هُمْ، قَالَ: «**هُمْ قَوْمٌ تَحَابُّوا بِرُوحِ اللهِ عَلَىٰ غَيْرِ أَرْحَامٍ بَيْنَهُمْ، وَلَا أَمْوَالٍ يَتَعَاطَوْنَهَا، فَوَاللهِ إِنَّ وُجُوهَهُمْ لَنُورٌ، وَإِنَّهُمْ عَلَىٰ نُورٍ لَا يَخَافُونَ إِذَا خَافَ النَّاسُ، وَلَا يَحْزَنُونَ إِذَا حَزِنَ النَّاسُ**» وَقَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[2] .

[٦٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ وَقَالَ قَوْمٌ: هُمُ الْمُتَحَابُّونَ فِي الله ، وفي صحيح البخاري من حديث أبي هُريرةَ قال: قال رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم:إنَّ اللهَ قال: « **مَنْ عادَىٰ لي وليًّا فقدْ آذَنْتُهُ بالحَرْبِ، وما تقرَّبَ إليَّ عَبْدي بِشيءٍ أحبَّ إليَّ مِمَّا افْترضتُ عليْه، وما يزالُ عَبْدي يَتَقَرَّبُ إليَّ بالنَّوافِلِ حتَّىٰ أُحبَّه، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ، كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذي يَسْمَعُ بِهِ، وبَصَرَهُ الَّذي يبْصِرُ**

(١) البخاري (١٣٠٣) ومسلم (٢٣١٥) .

(٢) أبو داود (٣٥٢٧) .

بِهِ، ويَدَهُ الَّتي يَبْطِشُ بِهَا، ورِجْلَهُ التي يَمْشي بِهَا، وإنْ سَأَلَني لأعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لأعيذَنَّهُ»[1].

[٦٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ اخْتَلَفُوا فِي هَذِهِ الْبُشْرَىٰ، فعَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ قَالَ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ قَالَ: «**هِيَ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ يَرَاهَا المسلم أو ترىٰ له**»[2]، وَقَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «**لَمْ يبقَ مِنَ النُّبُوَّةِ إِلَّا الْمُبَشِّرَاتِ**»[3]، قَالُوا: وَمَا الْمُبَشِّرَاتُ؟ قَالَ: «**الرُّؤْيَا الصالحة**»، وقيل: البشرىٰ في الدُّنْيَا هِيَ الثَّنَاءُ الْحَسَنُ، وَفِي الآخرة: الجنة، وَقَالَ الزُّهْرِيُّ وَقَتَادَةُ: هِيَ نُزُولُ الملائكة بالبشارة مع اللهِ تَعَالَىٰ عِنْدَ الْمَوْتِ، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فُصِّلَتْ: ٣٠] وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: البشرىٰ في الدنيا عِنْدَ الْمَوْتِ تَأْتِيهِمُ الْمَلَائِكَةُ بِالْبِشَارَةِ، وَفِي الْآخِرَةِ عِنْدَ خُرُوجِ نَفْسِ المؤمن من يُعْرَجُ بِهَا إِلَىٰ اللهِ، وَيُبَشَّرُ بِرِضْوَانِ اللهِ، وَقَالَ الْحَسَنُ البصري: هِيَ مَا بَشَّرَ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ فِي كِتَابِهِ مِنْ جَنَّتِهِ وَكَرِيمِ ثَوَابِهِ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ وَقِيلَ: بَشَّرَهُمْ في الدنيا بالكتاب والرسول أنهما أَوْلِيَاءُ اللهِ،

---

(١) البخاري (٦٥٠٢).

(٢) الترمذي (٢٢٧٣).

(٣) البخاري (٦٩٩٠).

وَيُبَشِّرُهُمْ فِي الْقُبُورِ وَفِي كُتُبِ أَعْمَالِهِمْ بِالْجَنَّةِ، ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ﴾ لا تغير لقول، وَلَا خُلْفَ لِوَعْدِهِ، عن أبي بَكْرٍ مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ اللهِ الْجَوْزَقِيَّ (نسبة لبلدة جوزق بنيسابور) يَقُولُ: رَأَيْتُ أَبَا عَبْدِ اللهِ الْحَافِظَ فِي الْمَنَامِ رَاكِبًا بِرْذَوْنًا عَلَيْهِ طَيْلَسَانٌ وَعِمَامَةٌ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ وَقُلْتُ لَهُ: أَهْلًا بِكَ، إِنَّا لَا نَزَالُ نَذْكُرُكَ وَنَذْكُرُ مَحَاسِنَكَ، فَقَالَ: وَنَحْنُ لَا نَزَالُ نَذْكُرُكَ ونذكر محاسنك، قال الله تعالىٰ: ﴿ لهُمُ الْبُشْرىٰ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَفِي الْآخِرَةِ ﴾ الثَّنَاءُ الحسن: وأشار بيده :﴿ لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِماتِ اللهِ﴾ ، أَيْ لَا خُلْفَ لِوَعْدِهِ ، وَقِيلَ: لَا تَبْدِيلَ لِأَخْبَارِهِ، أَيْ لَا يَنْسَخُهَا بشيء، ولا تكون إلا كما قال ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ .

[٦٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ﴾ يعني: قول المشركين، أَيْ لَا يَحْزُنْكَ افْتِرَاؤُهُمْ وَتَكْذِيبُهُمْ لَكَ، ﴿إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ﴾ يَعْنِي: الْغَلَبَةَ وَالْقُدْرَةَ لِلَّهِ ﴿جَمِيعًا﴾ هُوَ نَاصِرُكَ وَنَاصِرُ دِينِكَ وَالْمُنْتَقِمُ مِنْهُمْ، قَالَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ، إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا يَعْنِي أَنَّ اللهَ يُعِزُّ مَنْ يَشَاءُ، كَمَا قَالَ فِي آيَةٍ أُخْرَىٰ: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ وَعِزَّةُ الرَّسُولِ وَالْمُؤْمِنِينَ بِاللهِ فَهِيَ كُلُّهَا لِلَّهِ، قال الطبري: فإن الله هو المنفرد بعزة الدنيا والآخرة، لا شريك له فيها، وهو المنتقم من هؤلاء المشركين القائلين فيه من القول الباطل ما يقولون، فلا ينصرهم عند انتقامه منهم أحد، لأنه لا يُعَازُّه شيء، قوله : ﴿هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ السَّمِيعُ لِأَقْوَالِهِمْ وَأَصْوَاتِهِمْ، الْعَلِيمُ بأعمالهم وأفعالهم وجميع حركاتهم.

[٦٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَلا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّماواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ أَيْ يَحْكُمُ فِيهِمْ بِمَا يُرِيدُ وَيَفْعَلُ فيهم ما يشاء سبحانه، ﴿وَما يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ شُرَكاءَ﴾ (مَا) لِلنَّفْيِ، أَيْ لَا يَتَّبِعُونَ شُرَكَاءَ عَلَىٰ الْحَقِيقَةِ، بَلْ يَظُنُّونَ أَنَّهَا تَشْفَعُ أَوْ تنفع. وقيل:(ما) استفهام، أي أي شي يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ شُرَكَاءَ تَقْبِيحًا لِفِعْلِهِمْ، ثُمَّ أَجَابَ فَقَالَ: ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ يَكْذِبُونَ، فِيمَا ادَّعَوْا أَنَّ مَا اتَّبَعُوهُ يَقِينٌ، وَقِيلَ: الظَّنُّ ظَنُّهُمْ أَنَّ آبَاءَهُمْ عَلَىٰ الْحَقِّ، وَمِنْهُ الْخَرْصُ، وَأَصْلُهُ الْقَطْعُ، وَمِنْهُ خَرَصَ يَخْرُصُ النَّخْلَ خَرْصًا إِذَا حَزَرَهُ لِيَأْخُذَ الْخَرَاجَ مِنْهُ. فَالْخَارِصُ يَقْطَعُ بِمَا لَا يَجُوزُ الْقَطْعُ بِهِ، إِذْ لَا يَقِينَ مَعَهُ.

[٦٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ بَيَّنَ أَنَّ الْوَاجِبَ عِبَادَةُ مَنْ يَقْدِرُ عَلَىٰ خَلْقِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَا عبادة من لا يقدر علىٰ شي ﴿لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ أي مع أزواجكم وأولاد كم لِيَزُولَ التَّعَبُ وَالْكَلَالُ بِكُمْ. وَالسُّكُونُ: الْهُدُوءُ عَنِ الِاضْطِرَابِ ، قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَالنَّهارَ مُبْصِراً﴾ أَيْ مُضِيئًا لِتَهْتَدُوا بِهِ فِي حَوَائِجِكُمْ ، وَالْمُبْصِرُ: الَّذِي يُبْصِرُ، وَالنَّهَارُ يُبْصَرُ فِيهِ، قَالَ قُطْرُبٌ: تَقُولُ الْعَرَبُ: أَظْلَمَ اللَّيْلُ وَأَضَاءَ النَّهَارُ وَأَبْصَرَ، أَيْ: صَارَ ذَا ظُلْمَةٍ وَضِيَاءٍ وَبَصَرٍ، قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ﴾ أَيْ عَلَامَاتٍ وَدَلَالَاتٍ ، ﴿لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ أَيْ سَمَاعَ اعْتِبَارٍ.

[٦٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالُوا﴾ يَعْنِي الْمُشْرِكِينَ ﴿اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا﴾ وَهُوَ قَوْلُهُمُ الْمَلَائِكَةُ بَنَاتُ اللهِ ﴿سُبْحَانَهُ﴾ نزه نفسه عن الصحابة وَالْأَوْلَادِ وَعَنِ الشُّرَكَاءِ وَالْأَنْدَادِ ، ﴿هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ﴾ ثُمَّ أَخْبَرَ بِغِنَاهُ الْمُطْلَقِ، وَأَنَّ لَهُ مَا فِي السموات والأرض ملكـًا وخلقـًا وعبيداً، ﴿ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمنِ عَبْداً ﴾ [مريم : ٩٣] ، ﴿إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطانٍ بِهذا﴾أَيْ مَا عِنْدَكُمْ مِنْ حُجَّةٍ بِهَذَا ، ﴿أَتَقُولُونَ عَلَىٰ اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ مِنْ إِثْبَاتِ الْوَلَدِ لَهُ.

[٦٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: (قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ) أَيْ يَخْتَلِقُونَ ، ﴿عَلَىٰ اللهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ أَيْ لَا يَفُوزُونَ وَلَا يَأْمَنُونَ، وَتَمَّ الْكَلَامُ.

[٧٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿مَتاعٌ فِي الدُّنْيا﴾ أَيْ ذَلِكَ مَتَاعٌ أَوْ هُوَ مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا، وَقَالَ الْأَخْفَشُ: لَهُمْ مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ، ﴿ثُمَّ إِلَيْنا مَرْجِعُهُمْ﴾ أَيْ رُجُوعُهُمْ ، ﴿ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذابَ الشَّدِيدَ﴾ أَيْ الْمُوجعَ الْمُؤْلِمَ ﴿بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ أَيْ بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ وَافْتِرَائِهِمْ وَكَذِبِهِمْ عَلَىٰ اللهِ فِيمَا ادَّعَوْهُ مِنَ الْإِفْكِ وَالزُّورِ.

[٧١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ﴾ أَيِ: اقْرَأْ يَا مُحَمَّدُ عَلَىٰ أَهْلِ مَكَّةَ خَبَرَ نُوحٍ ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾ وَهُمْ وَلَدُ قَابِيلَ، ﴿يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: شَقَّ عَلَيْكُمْ وَأَحْرَجَكُمْ، وَيُسْتَعَارُ الْكِبَرُ لِلْمَشَقَّةِ وَالْحَرَجِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: وَإِنْ كان كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ وَكَذَلِكَ هُنَا. ﴿مَقَامِي﴾ طول عمري ومكثي فيكم ، الْمَقَامُ (بِفَتْحِ الْمِيمِ): الْمَوْضِعُ الَّذِي يَقُومُ فِيهِ ، وَالْمُقَامُ (بِالضَّمِّ) الْإِقَامَةُ ،

﴿وَتَذْكِيرِي﴾ ووعظي إياكم ﴿بِآيَاتِ اللهِ﴾ بِحُجَجِهِ وَبَيِّنَاتِهِ فَعَزَمْتُمْ عَلَىٰ قَتْلِي وَطَرْدِي ﴿فَعَلَىٰ اللهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ﴾ أَيْ: أَحْكِمُوا أَمْرَكُمْ واعْزِمُوا عَلَيْهِ، وَإِجْمَاعُ الْأَمْرِ: الْعَزْمُ عَلَىٰ الْفِعْلِ بَعْدَ التَّرَدُّدِ بَيْنَ فِعْلِهِ وَفِعْلِ ضِدِّهُ. وَهُوَ مَأْخُوذٌ مِنَ الْجَمْعِ الَّذِي هُوَ ضِدُّ التَّفْرِيقِ، لِأَنَّ الْمُتَرَدِّدَ فِي مَاذَا يَعْمَلُهُ تَكُونُ عِنْدَهُ أَشْيَاءُ مُتَفَرِّقَةٌ فَهُوَ يَتَدَبَّرُ وَيَتَأَمَّلُ فَإِذَا اسْتَقَرَّ رَأْيُهُ عَلَىٰ شَيْءٍ مِنْهَا فَقَدْ جَمَعَ مَا كَانَ مُتَفَرِّقًا. ﴿وَشُرَكَاءَكُمْ﴾ أَيْ: وَادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ، أَيْ: آلِهَتَكُمْ؛ فَاسْتَعِينُوا بِهَا لِتَجْتَمِعَ مَعَكُمْ، قال ابن عاشور : وفِي ذِكْرِ عَاقِبَةِ قَوْمِ نُوحٍعَلَيْهِ السَّلَامُ تَعْرِيضٌ لِلْمُشْرِكِينَ بِأَنَّ عَاقِبَتَهُمْ كَعَاقِبَةِ أُولَئِكَ أَوْ أَنَّهُمْ إِنَّمَا يُمَتَّعُونَ قَلِيلًا ثُمَّ يُؤْخَذُونَ أَخْذَةً رَابِيَةً،كَمَا مُتِّعَ قَوْمُ نُوحٍ زَمَنًا طَوِيلًا ثُمَّ لَمْ يُفْلِتُوا مِنَ الْعَذَابِ فِي الدُّنْيَا، فَذِكْرُ قِصَّةِ نُوحٍ مَعَ قَوْمِهِ عِظَةٌ لِلْمُشْرِكِينَ وَمُلْقِيًا بِالْوَجَلِ وَالذُّعْرِ فِي قُلُوبِهِمْ، وَفِي ذَلِكَ تَأْنِيسٌ لِلرَّسُولِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلِلْمُسْلِمِينَ بِأَنَّهُمْ أُسْوَةٌ بِالْأَنْبِيَاءِ، وَالصَّالِحِينَ مِنْ أَقْوَامِهِمْ، ﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾ أَيْ: خَفِيًّا مُبْهَمًا مِنْ قَوْلِهِمْ: غَمَّ الْهِلَالُ عَلَىٰ النَّاسِ، أَيْ: أشكل عليهم وخفي، وغمة وَغَمٌّ سَوَاءٌ، وَمَعْنَاهُ التَّغْطِيَةُ، مِنْ قَوْلِهِمْ: غُمَّ الْهِلَالُ إِذَا اسْتَتَرَ، أَيْ لِيَكُنْ أَمْرُكُمْ ظَاهِرًا مُنْكَشِفًا تَتَمَكَّنُونَ فِيهِ مِمَّا شِئْتُمْ، لَا كَمَنْ يَخْفَىٰ أَمْرُهُ فَلَا يَقْدِرُ عَلَىٰ مَا يُرِيدُ.﴿ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ﴾ أَيِ: أَمْضُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ وَافْرَغُوا مِنْهُ، يُقَالُ: قَضَىٰ فُلَانٌ إِذَا مَاتَ وَمَضَىٰ، وَقَضَىٰ دَيْنَهُ إِذَا فَرَغَ مِنْهُ، وَقِيلَ: مَعْنَاهُ تَوَجَّهُوا إِلَيَّ بِالْقَتْلِ وَالْمَكْرُوهِ وَقِيلَ: فَاقْضُوا مَا أَنْتُمْ قَاضُونَ، وَهَذَا مِثْلُ قَوْلِ السَّحَرَةِ لِفِرْعَوْنَ:

﴿فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ﴾ أَيِ اعْمَلْ مَا أَنْتَ عَامِلٌ، ﴿وَلَا تُنْظِرُونِ﴾ وَلَا تُؤَخِّرُونَ، وَرُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ : ﴿ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلا تُنْظِرُونِ﴾ قَالَ: امْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُؤَخِّرُونَ ، وَهَذَا عَلَىٰ طَرِيقِ التَّعْجِيزِ، أَخْبَرَ اللهُ عَنْ نُوحٍ أَنَّهُ كَانَ وَاثِقًا بِنَصْرِ اللهِ تَعَالَىٰ غَيْرَ خَائِفٍ مِنْ كَيْدِ قَوْمِهِ، عِلْمًا مِنْهُ بِأَنَّهُمْ وَآلِهَتَهُمْ لَيْسَ إِلَيْهِمْ نَفْعٌ وَلَا ضُرٌّ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ.

[٧٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَما سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ﴾ أَيْ فَإِنْ أَعْرَضْتُمْ عَمَّا جِئْتُكُمْ بِهِ فَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَنِّي سَأَلْتُكُمْ أَجْرًا فَيَثْقُلُ عَلَيْكُمْ مُكَافَأَتِي ، وَالْأَجْرُ: الْعِوَضُ الَّذِي يُعْطَىٰ لِأَجْلِ عَمَلٍ يَعْمَلُهُ آخِذُ الْعِوَضِ ، ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ اللهِ﴾ فِي تَبْلِيغِ رِسَالَتِهِ ، أي ما ثوابي علىٰ التذكير إلا عليه تعالىٰ، يثيبني به، آمنتم أو توليتم، ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ أَيِ الْمُوَحِّدِينَ لِلَّهِ تَعَالَىٰ.أَيْ: مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَقِيلَ: مِنَ المستسلمين لأمر الله، وَقَدْ سُمِّيَ التَّوْحِيدُ وَدِينُ الْحَقِّ الْخَالِصُ إِسْلَامًا فِي مُخْتَلِفِ الْعُصُورِ وَسَمَّىٰ اللهُ بِهِ سُنَنَ الرُّسُلِ فَحَكَاهُ عَنْ نُوحٍ- عَلَيْهِ السَّلَامُ- هُنَا وَعَنْ إِبْرَاهِيمَ بِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: إِذْ قالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعالَمِينَ ، وَعَنْ إِسْمَاعِيلَ رَبَّنا وَاجْعَلْنا مُسْلِمَيْنِ لَكَ ، وَيَعْقُوبَ وَبَنِيهِ إِذْ حَكَىٰ عَنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ، وَعَنْ يُوسُفَ تَوَفَّنِي مُسْلِماً ، وَعَنْ مُوسَىٰ وَقالَ مُوسىٰ يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ ، وَعَنْ سُلَيْمَانَ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ، وَعَنْ عِيسَىٰ وَالْحَوَارِيِّينَ قالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنا مُسْلِمُونَ .

[٧٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ يَعْنِي نُوحًا، ﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ﴾ أَيِ السَّفِينَةِ، ﴿وَجَعَلْناهُمْ خلائِفَ﴾ أَيْ سُكَّانَ الْأَرْضِ وَخَلَفًا مِمَّنْ غَرِقَ، وَالْخَلَائِفُ: جَمْعُ خَلِيفَةٍ وَهُوَ اسْمٌ لِلَّذِي يَخْلُفُ غَيْرَهُ، ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ﴾ أيِ الْمُنْذَرِينَ بِالْعَذَابِ الْمُكَذِّبِينَ بِالْإِنْذَارِ، والخطاب لمحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَخُصَّ بِالْخِطَابِ تَعْظِيمًا لِشَأْنِهِ بِأَنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوهُ يُوشِكُ أَنْ يُصِيبَهُمْ مِنَ الْعَذَابِ نَحْوٌ مِمَّا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَفِي ذَلِكَ تَسْلِيَةٌ لَهُ عَلَىٰ مَا يُلَاقِيهِ مِنْ أَذَاهُمْ وَإِظْهَارٌ لِعِنَايَةِ الله بِهِ.

[٧٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلًا﴾ أَيْ: مِنْ بَعْدِ نُوحٍ رُسُلًا. كَهُودٍ وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب وغير هم، ﴿إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بِالدَّلَالَاتِ الْوَاضِحَاتِ، وَالْبَيِّنَاتُ: هِيَ الْحُجَجُ الْوَاضِحَةُ الدَّلَالَةِ عَلَىٰ الصِّدْقِ. ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ﴾ أَيْ: بِمَا كَذَّبَ بِهِ قَوْمُ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ، ﴿كَذَلِكَ نَطْبَعُ﴾ أَيْ: نَخْتِمُ. ﴿عَلَىٰ قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾ أَيِ الْمُجَاوِزِينَ الْحَدَّ فِي الْكُفْرِ وَالتَّكْذِيبِ فَلَا يُؤْمِنُوا، قال ابن كثير: أَيْ كَمَا طَبَعَ اللهُ عَلَىٰ قُلُوبِ هَؤُلَاءِ، فَمَا آمَنُوا بِسَبَبِ تَكْذِيبِهِمُ الْمُتَقَدِّمِ، هَكَذَا يَطْبَعُ اللهُ عَلَىٰ قُلُوبِ مَنْ أَشْبَهَهُمْ مِمَّنْ بَعْدَهُمْ، وَيَخْتِمُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ؛ وَالْمُرَادُ أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ أَهْلَكَ الْأُمَمَ المكذبة وَأَنْجَىٰ مَنْ آمَنَ بِهِمْ وَذَلِكَ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَإِنَّ النَّاسَ كَانُوا مِن قَبْلِهِ مِنَ زَمَانِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَىٰ الْإِسْلَامِ، إِلَىٰ أَنْ أَحْدَثَ النَّاسُ عِبَادَةَ الْأَصْنَامِ، فَبَعَثَ اللهُ إِلَيْهِمْ نُوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ، قَالَ ابْنُ

عَبَّاسٍ: كَانَ بَيْنَ آدَمَ وَنُوحٍ عَشَرَةُ قُرُونٍ كُلُّهُمْ عَلَىٰ الْإِسْلَامِ، وَقَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نوح﴾ الآية، وَفِي هَذَا إِنْذَارٌ عَظِيمٌ لِمُشْرِكِي الْعَرَبِ الَّذِينَ كذبوا سيد الرُّسُلِ وَخَاتَمِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ، فَإِنَّهُ إِذَا كَانَ قَدْ أَصَابَ مَنْ كَذَّبَ بِتِلْكَ الرُّسُلِ مَا ذكره الله تعالىٰ من العذاب وَالنَّكَالِ، فَمَاذَا ظَنَّ هَؤُلَاءِ وَقَدِ ارْتَكَبُوا أَكْبَرَ من أولئك؟.

[٧٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَىٰ وَهَارُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ يَعْنِي: أَشْرَافَ قَوْمِهِ، ﴿بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾ ، قال ابن كثير : وَكَثِيرًا مَا يَذْكُرُ اللهُ تَعَالَىٰ قِصَّةَ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَعَ فِرْعَوْنَ فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ، لِأَنَّهَا مِنْ أَعْجَبِ الْقِصَصِ، فَإِنَّ فِرْعَوْنَ حُذِّرَ مِنْ مُوسَىٰ كُلَّ الْحَذَرِ، فَسَخَّرَهُ الْقَدَرُ: إِنَّ رُبّي علىٰ فراشه بِمَنْزِلَةِ الْوَلَدِ ثُمَّ تَرَعْرَعَ وَعَقَدَ اللهُ لَهُ سَبَبًا أَخْرَجَهُ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِهِمْ، وَرَزَقَهُ النُّبُوَّةَ والرسالة والتكليم، ولم تزل الآيات تَقُومُ عَلَىٰ يَدَيْ مُوسَىٰ شَيْئًا بَعْدَ شَيْءٍ، وَمَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ، مِمَّا يُبْهِرُ الْعُقُولَ، وَيُدْهِشُ الألباب.

[٧٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ﴾ يَعْنِي: جَاءَ فِرْعَوْنَ وَقَوْمَهُ، ﴿الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ﴾ قال ابن كثير : كَأَنَّهُمْ قَبَّحَهُمُ اللهُ أَقْسَمُوا عَلَىٰ ذَلِكَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّ مَا قَالُوهُ كَذِبٌ وَبُهْتَانٌ.

[٧٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ مُوسَىٰ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا﴾، تَقْدِيرُ الْكَلَامِ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ سِحْرٌ أَسِحْرٌ هَذَا؟ فَحَذَفَ السِّحْرَ الْأَوَّلَ

اكْتِفَاءً بِدَلَالَةِ الْكَلَامِ عليه ، ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ﴾ أي: ولا يظفر الساحرون ولا فلاح لهم ولا بقاء.

[٧٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالُوا﴾ يَعْنِي: فِرْعَوْنَ وَقَوْمَهُ لِمُوسَىٰ، ﴿أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا﴾ لِتَصْرِفَنَا، أَيْ تَصْرِفَنَا وَتَلْوِيَنَا، يُقَالُ: لَفَتَهُ يَلْفِتُهُ لَفْتًا إِذَا لَوَاهُ وَصَرَفَهُ. وَقَالَ قَتَادَةُ: لِتَلْوِيَنَا، ﴿عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ﴾ الْمُلْكُ وَالسُّلْطَانُ، يَعْنِي السُّلْطَانَ وَالْمُلْكَ وَالْعَظَمَةَ، قَالَ مُجَاهِدٌ: السُّلْطَانُ فِي الْأَرْضِ ، ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ أَرْضِ مِصْرَ ﴿وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ بمصدقين.

[٧٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي﴾ إِنَّمَا قَالَهُ لَمَّا رَأَىٰ الْعَصَا وَالْيَدَ الْبَيْضَاءَ وَاعْتَقَدَ أَنَّهُمَا سِحْرٌ، ﴿بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾ ، أَيْ بِكُلِّ سَاحِرٍ تَعْلَمُونَهُ وَتَظْفَرُونَ بِهِ، أَوْ أُرِيدَ بِكُلِّ مَعْنَىٰ الْكَثْرَةَ.

[٨٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ﴾ أَيِ اطْرَحُوا عَلَىٰ الْأَرْضِ مَا مَعَكُمْ مِنْ حِبَالِكُمْ وَعِصِيِّكُمْ ، والْإِلْقَاءُ: رَمْيُ شَيْءٍ فِي الْيَدِ إِلَىٰ الْأَرْضِ ، وَإِطْلَاقُ الْإِلْقَاءِ عَلَىٰ عَمَلِ السِّحْرِ لِأَنَّ أَكْثَرَ تَصَارِيفِ السَّحَرَةِ فِي أَعْمَالِهِمُ السِّحْرِيَّةِ يَكُونُ بِرَمْيِ أَشْيَاءَ إِلَىٰ الْأَرْضِ، وَقَدْ وَرَدَ فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ أَنَّهُمْ أَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ، وَأَنَّهَا يُخَيَّلُ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ، وَكَانَ مُنْتَهَىٰ أَعْمَالِ السَّاحِرِ أَنْ يُخَيِّلَ الْجَمَادَ حَيًّا.

[٨١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ﴾ وَإِنَّمَا قَالَ لَهُمْ ذَلِكَ ؛ لِأَنَّهُمُ لما اصْطُفُوا وَقَدْ وُعِدُوا مِنْ فِرْعَوْنَ بِالتَّقْرِيبِ وَالْعَطَاءِ الجزيل

﴿إِنَّ اللهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ يَعْنِي السِّحْرَ ، وَإِبْطَالُهُ: إِظْهَارُ أَنَّهُ تَخْيِيلٌ لَيْسَ بِحَقِيقَةٍ، لِأَنَّ إِظْهَارَ ذَلِكَ إِبْطَالٌ لِمَا أُرِيدَ مِنْهُ، أَيْ إِنَّ اللهَ سَيُبْطِلُ تَأْثِيرَهُ عَلَىٰ النَّاسِ بِفَضْحِ سَرِّهِ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: مَنْ أَخَذَ مَضْجَعَهُ مِنَ اللَّيْلِ ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿ مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ لَمْ يَضُرَّهُ كَيْدُ سَاحِرٍ ، وَلَا تُكْتَبُ عَلَىٰ مَسْحُورٍ إِلَّا دَفَعَ اللهُ عنه السحر.

[٨٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَيُحِقُّ اللهُ الْحَقَّ﴾ أَيْ يُبَيِّنُهُ وَيُوَضِّحُهُ ، ﴿بِكَلِماتِهِ﴾ أَيْ بِكَلَامِهِ وَحُجَجِهِ وَبَرَاهِينِهِ ، وَقِيلَ: بوعده بِالنَّصْرِ ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ مِنْ آلِ فرعون.

[٨٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ﴾ لَمْ يُصَدِّقْ مُوسَىٰ مَعَ مَا آتَاهُمْ بِهِ مِنَ الْآيَاتِ، ﴿إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ﴾ اخْتَلَفُوا فِي الْهَاءِ الَّتِي فِي ﴿قَوْمِهِ﴾ ، قِيلَ: هِيَ رَاجِعَةٌ إِلَىٰ مُوسَىٰ، وَأَرَادَ بِهِمْ مُؤْمِنِي بَنِي إِسْرَائِيلَ الَّذِينَ كَانُوا بِمِصْرَ وَخَرَجُوا مَعَهُ، قَالَ مُجَاهِدٌ: كَانُوا أَوْلَادَ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ مُوسَىٰ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ هَلَكَ الْآبَاءُ، وَبَقِيَ الْأَبْنَاءُ، وَقَالَ الْآخَرُونَ، الْهَاءُ رَاجِعَةٌ إِلَىٰ فرعون، وَرَوَىٰ عَطِيَّةُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: هُمْ نَاسٌ يَسِيرٌ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ آمَنُوا، مِنْهُمُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ، وَمُؤْمِنُ آلِ فِرْعَوْنَ، وَخَازِنُ فِرْعَوْنَ، وَامْرَأَةُ خازنه، وماشطة ابنته، وَقِيلَ: هُمْ قَوْمٌ نَجَوْا مِنْ قَتْلِ فِرْعَوْنَ، وَذَلِكَ أَنَّ فِرْعَوْنَ لِمَا أَمَرَ بِقَتْلِ أَبْنَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتِ الْمَرْأَةُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذَا وَلَدَتِ ابْنًا وَهَبَتْهُ لِقِبْطِيَّةٍ خَوْفًا مِنَ

الْقَتْلِ، فَنَشَئُوا عِنْدَ الْقِبْطِ، وَأَسْلَمُوا فِي الْيَوْمِ الَّذِي غلبت السحرة، ﴿عَلَىٰ خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ﴾ قِيلَ: أَرَادَ بِفِرْعَوْنَ آلَ فِرْعَوْنَ، أَيْ: عَلَىٰ خَوْفٍ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ، كَمَا قَالَ: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ﴾ أَيْ: أَهْلَ الْقَرْيَةِ، وقيل: إنما قال: ﴿وَمَلَئِهِمْ﴾ وَفِرْعَوْنُ وَاحِدٌ؛ لِأَنَّ الْمَلِكَ إِذَا ذُكِرَ يُفْهَمُ مِنْهُ هُوَ وَأَصْحَابُهُ، كَمَا يُقَالُ: قَدِمَ الْخَلِيفَةُ يُرَادُ هُوَ وَمَنْ مَعَهُ، وَقِيلَ: أَرَادَ ملأ الفرية، فَإِنَّ مَلَأَهُمْ كَانُوا مِنْ قَوْمِ فرعون. ﴿أَنْ يَفْتِنَهُمْ﴾ أَيْ: يَصْرِفَهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، وَلَمْ يَقُلْ يَفْتِنُوهُمْ؛ لِأَنَّهُ أَخْبَرَ عَنْ فِرْعَوْنَ، وَكَانَ قَوْمُهُ عَلَىٰ مِثْلِ مَا كَانَ عَلَيْهِ فِرْعَوْنُ، قَوْلُهُ: ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ﴾ لَمُتَكَبِّرٌ، وَالْعُلُوُّ: مُسْتَعَارٌ لِلْغَلَبَةِ وَالِاسْتِبْدَادِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الْأَرْضِ﴾ [القصص: ٤] وَقَوْلِهِ: ﴿أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٣١]، قَوْلُهُ: ﴿فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ الْمُجَاوِزِينَ الْحَدَّ وَالْإِسْرَافُ: تَجَاوُزُ حَدِّ الِاعْتِدَالِ الْمَعْرُوفِ فِي فِعْلٍ، فَهُوَ تَجَاوُزٌ مَذْمُومٌ؛ لِأَنَّهُ كَانَ عَبْدًا فادعىٰ الربوبية.

[٨٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ﴾ أَيْ صَدَّقْتُمْ، ﴿بِاللهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا﴾ أَيِ اعْتَمِدُوا، ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ﴾ كَرَّرَ الشَّرْطَ تَأْكِيدًا، وَبَيَّنَ أَنَّ كَمَالَ الْإِيمَانِ بِتَفْوِيضِ الْأَمْرِ إِلَىٰ اللهِ وَالْمَعْنَىٰ: إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللهِ حَقًّا كَمَا أَظْهَرَتْهُ أَقْوَالُكُمْ فَعَلَيْهِ اعْتَمِدُوا فِي نَصْرِكُمْ وَدَفْعِ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَعْتَمِدُوا فِي ذَلِكَ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ بِمُصَانَعَةِ فِرْعَوْنَ وَلَا عَلَىٰ فِرْعَوْنَ بِإِظْهَارِ الْوَلَاءِ لَهُ، قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ: وَحَقِيقَةُ الْأَمْرِ أَنَّ التَّوَكُّلَ حَالٌ مُرَكَّبَةٌ مِنْ مَجْمُوعَةِ أُمُورٍ لَا تَتِمُّ حَقِيقَةُ

التَّوَكُّلِ إِلَّا بِهَا، فَأَوَّلُ ذَلِكَ مَعْرِفَةٌ بِاللهِ وَصِفَاتِهِ: مِنْ قُدْرَتِهِ وَكِفَايَتِهِ وَقَيُّومِيَّتِهِ وَانْتِهَاءِ الْأُمُورِ إِلَىٰ عِلْمِهِ وَصُدُورِهَا عَنْ مَشِيئَتِهِ وَقُدْرَتِهِ، وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ :حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، قَالَهَا إِبْرَاهِيمُ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَقَالَهَا مُحَمَّدٌ - صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - حِينَ قَالُوا: إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا: حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ[1].

[٨٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَقالُوا عَلَىٰ اللهِ تَوَكَّلْنا﴾ أَيْ أَسْلَمْنَا أُمُورَنَا إِلَيْهِ، وَرَضِينَا بِقَضَائِهِ وَقَدَرِهِ، وَانْتَهَيْنَا إِلَىٰ أَمْرِهِ ، ﴿رَبَّنا لَا تَجْعَلْنا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أَيْ لَا تَنْصُرْهُمْ عَلَيْنَا، فَيَكُونُ ذَلِكَ فِتْنَةً لَنَا عَنِ الدِّينِ، أَوْ لَا تَمْتَحِنَّا بِأَنْ تُعَذِّبَنَا عَلَىٰ أَيْدِيهِمْ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: الْمَعْنَىٰ لَا تُهْلِكْنَا بِأَيْدِي أَعْدَائِنَا، وَلَا تُعَذِّبْنَا بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِكَ، فَيَقُولُ أَعْدَاؤُنَا لَوْ كَانُوا عَلَىٰ حَقٍّ لَمْ نُسَلَّطْ عَلَيْهِمْ، فَيُفْتَنُوا ، وقال أبو مجلز وأبو الضحا: يَعْنِي لَا تُظْهِرْهُمْ عَلَيْنَا فَيَرَوْا أَنَّهُمْ خَيْرٌ منا فيزدادوا طغيانا وقيل المعنىٰ : لَا تُظْهِرْهُمْ عَلَيْنَا، وَلَا تُهْلِكْنَا بِأَيْدِيهِمْ، فَيَظُنُّوا أَنَّا لَمْ نَكُنْ عَلَىٰ الْحَقِّ فَيَزْدَادُوا طُغْيَانًا.

[٨٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَنَجِّنا بِرَحْمَتِكَ﴾ أَيْ خَلِّصْنَا ، ﴿مِنَ الْقَوْمِ الْكافِرِينَ﴾ أَيْ مِنْ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَأْخُذُونَهُمْ بالأعمال الشاقة.

---

(١) البخاري (٤٥٦٣) .

[٨٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ﴾ هَارُونَ، ﴿أَنْ تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا﴾ يقال: بوأ فَلَانٌ لِنَفْسِهِ بَيْتًا وَمَضْجَعًا إِذَا اتَّخَذَهُ، وَبَوَّأْتُهُ أَنَا إِذَا اتَّخَذْتُهُ له، ﴿وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ قَالَ أَكْثَرُ الْمُفَسِّرِينَ: كَانَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ لَا يُصَلُّونَ إِلَّا فِي كَنَائِسِهِمْ وبِيَعِهِمْ، وَكَانَتْ ظَاهِرَةً، فَلَمَّا أُرْسِلَ مُوسَىٰ أَمَرَ فِرْعَوْنُ بِتَخْرِيبِهَا، وَمَنَعَهُمْ مِنَ الصَّلَاةِ فَأُمِرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا مَسَاجِدَ فِي بُيُوتِهِمْ، وَيُصَلُّوا فِيهَا خَوْفًا مِنْ فِرْعَوْنَ، هَذَا قَوْلُ إِبْرَاهِيمَ وَعِكْرِمَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: خَافَ مُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ مِنْ فِرْعَوْنَ أَنْ يُصَلُّوا فِي الْكَنَائِسِ الْجَامِعَةِ، فَأُمِرُوا بِأَنْ يَجْعَلُوا فِي بُيُوتِهِمْ مَسَاجِدَ مُسْتَقْبِلَةً الْكَعْبَةَ، يُصَلُّونَ فِيهَا سِرًّا، معناه: واجعلوا وجوه بُيُوتَكُمْ إِلَىٰ الْقِبْلَةِ، وَرَوَىٰ ابْنُ جُرَيْجٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: كَانَتِ الْكَعْبَةُ قِبْلَةَ مُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ، ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يَا مُحَمَّدُ، وَفِي الْحَدِيثِ: «كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا حَزَبَهُ - يعني أقلقه -أَمْرٌ صَلَّىٰ»(١).

[٨٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً﴾ مِنْ مَتَاعِ الدُّنْيَا، ﴿وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ﴾ أَيْ لِيَفْتَتِنَ بِمَا أَعْطَيْتَهُمْ مَنْ شِئْتَ مِنْ خلقك، وليظن من أغويته أنك إنما أعطيتهم هَذَا لِحُبِّكَ إِيَّاهُمْ وَاعْتِنَائِكَ بِهِمْ واخْتُلِفَ فِي هَذِهِ اللَّامِ، وَأَصَحُّ مَا قِيلَ فِيهَا- وَهُوَ قَوْلُ

---

(١) أبو داود (١٣١٩).

الْخَلِيلِ وَسِيبَوَيْهِ- أَنَّهَا لَامُ الْعَاقِبَةِ وَالصَّيْرُورَةِ، وَفِي الأثر : إِنَّ لِلَّهِ تَعَالَىٰ مَلَكًا يُنَادِي كُلَّ يَوْمٍ لِدُوا لِلْمَوْتِ وَابْنُوا لِلْخَرَابِ ، أَيْ لَمَّا كَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهِمْ إِلَىٰ الضَّلَالِ صَارَ كَأَنَّهُ أَعْطَاهُمْ لِيُضِلُّوا، قَوْلُهُ : ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ﴾ أيْ عاقبهم عل كُفْرِهِمْ بِإِهْلَاكِ أَمْوَالِهِمْ ، قَالَ الزَّجَّاجُ: طَمْسُ الشَّيْءِ إِذْهَابُهُ عَنْ صُورَتِهِ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ: صَارَتْ أَمْوَالُهُمْ وَدَرَاهِمُهُمْ حِجَارَةً مَنْقُوشَةً كَهَيْئَتِهَا صِحَاحًا وَأَثْلَاثًا وَأَنْصَافًا، وَلَمْ يَبْقَ لَهُمْ مَعْدِنٌ إِلَّا طَمَسَ اللهُ عَلَيْهِ فَلَمْ يَنْتَفِعْ بِهِ أَحَدٌ بَعْدُ. ﴿وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أَيْ: قسها وَاطْبَعْ عَلَيْهَا حَتَّىٰ لَا تَلِينَ، وَلَا تَنْشَرِحَ لِلْإِيمَانِ، ﴿فَلَا يُؤْمِنُوا﴾ قِيلَ: هُوَ عَطْفٌ عَلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿لِيُضِلُّوا﴾ أَيْ آتَيْتَهُمُ النِّعَمَ لِيُضِلُّوا وَلَا يُؤْمِنُوا، وَعَلَىٰ هَذَا لَا يكون فيه من معنىٰ الدعاء شي. ﴿حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ وَهُوَ الْغَرَقُ، قَالَ السُّدِّيُّ: مَعْنَاهُ أمتهم علىٰ الكفر.

[٨٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ﴾ اللهُ تَعَالَىٰ لِمُوسَىٰ وَهَارُونَ، قَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ: دَعَا مُوسَىٰ وَأَمَّنَ هَارُونُ، وَقَدْ أَمَّنَ عَلَىٰ الدُّعَاءِ دَاعِيًا ، وَالتَّأْمِينُ عَلَىٰ الدُّعَاءِ أَنْ يقول آمين، فقولك آمين دُعَاءٌ، أَيْ يَا رَبِّ اسْتَجِبْ لِي ، ﴿قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا﴾ إِنَّمَا نُسِبَ إِلَيْهِمَا وَالدُّعَاءُ كَانَ مِنْ مُوسَىٰ؛ لِأَنَّهُ رُوِيَ أَنَّ مُوسَىٰ كَانَ يَدْعُو وَهَارُونُ يُؤَمِّنُ، والتأمين دعاء ﴿فَاسْتَقِيمَا﴾ عَلَىٰ الرِّسَالَةِ وَالدَّعْوَةِ، وَامْضِيَا لِأَمْرِي إِلَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ وَالِاسْتِقَامَةُ: حَقِيقَتُهَا الِاعْتِدَالُ، وَهِيَ ضِدُّ الِاعْوِجَاجِ، وَهِيَ مُسْتَعْمَلَةٌ كَثِيرًا فِي مَعْنَىٰ مُلَازِمَةِ الْحَقِّ وَالرُّشْدِ، لِأَنَّهُ شَاعَ تَشْبِيهُ الضَّلَالِ وَالْفَسَادِ

بِالِاعْوِجَاجِ وَالِالْتِوَاءِ. وَقِيلَ لِلْحَقِّ: طَرِيقٌ مُسْتَقِيمٌ ، وَفِي حَدِيثِ أَبِي عَمْرَةَ الثَّقَفِيِّ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ قُلْ لِي فِي الْإِسْلَامِ قَوْلًا لَا أَسْأَلُ عَنْهُ أَحَدًا غَيْرَكَ. قَالَ: قُلْ: « **آمَنْتُ بِاللهِ ثُمَّ اسْتَقِمْ** »(١) ، قَوْلُهُ : ﴿وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يعني: ولا تسلكا سبيل الَّذِينَ يَجْهَلُونَ حَقِيقَةَ وَعْدِي، فَإِنَّ وَعْدِي لَا خُلْفَ فِيهِ، وَوَعِيدِي نَازِلٌ بِفِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ.

[٩٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ﴾ عبرنا بهم وَجَاوَزْنَا، أَيْ قَطَعْنَا بِهِمُ الْبَحْرَ، ﴿فَأَتْبَعَهُمْ﴾ لحقهم وأدركهم، يُقَالُ: تَبِعَهُ فَأَتْبَعَهُ إِذَا سَارَ خَلْفَهُ فَأَدْرَكَهُ ، وَمِنْهُ : ﴿ فَأَتْبَعَهُ شِهابٌ ثاقِبٌ﴾ [الصافات : ١٠] ، قَوْلُهُ : ﴿فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ﴾ يُقَالُ: أَتْبَعَهُ وَتَبِعَهُ إِذَا أَدْرَكَهُ ولحقه، واتبعه بِالتَّشْدِيدِ إِذَا سَارَ خَلْفَهُ وَاقْتَدَىٰ بِهِ، وَقِيلَ: هُمَا وَاحِدٌ. فَخَرَجَ مُوسَىٰ بِبَنِي إِسْرَائِيلَ وَهُمْ سِتُّمِائَةِ أَلْفٍ وَعِشْرُونَ أَلْفًا، وَتَبِعَهُ فِرْعَوْنُ مُصْبِحًا فِي أَلْفَيْ أَلْفٍ وَسِتِّمِائَةِ أَلْفٍ ، ﴿بَغْيًا وَعَدْوًا﴾ أَيْ: ظُلْمًا وَاعْتِدَاءً، وَقِيلَ: بَغْيًا فِي الْقَوْلِ وَعَدْوًا فِي الْفِعْلِ، وَكَانَ الْبَحْرُ قَدِ انْفَلَقَ لِمُوسَىٰ وَقَوْمِهِ، فَلَمَّا وَصَلَ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ إِلىٰ البحر فَلَمَّا دَخَلَ آخِرُهُمْ وَهَمَّ أَوَّلُهُمْ أَنْ يَخْرُجَ انْطَبَقَ عَلَيْهِمُ الْمَاءُ ، ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ﴾ أَيْ: غَمَرَهُ الْمَاءُ وَقَرُبَ هَلَاكُهُ، ﴿قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ فدس جبريل فِي فِيهِ مِنْ حَمْأَةِ الْبَحْرِ ، رَوَىٰ التِّرْمِذِيُّ عَنِ

(١) الترمذي (٢٤١٠)، وابن ماجه (رقم ٣٩٧٢) .

ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: « **لمَّا أَغْرَقَ اللهُ فِرْعَوْنَ قَالَ** : ﴿آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ﴾ **قَالَ جِبْرِيلُ : يَا مُحَمَّدُ فَلَوْ رَأَيْتَنِي وَأَنَا آخُذُ مِنْ حَالِ الْبَحْرِ ، فَأَدُسُّهُ فِي فِيهِ مَخَافَةَ أَنْ تُدْرِكَهُ الرَّحْمَةُ، وحَالُ الْبَحْرِ: الطِّينُ الْأَسْوَدُ الَّذِي يَكُونُ فِي أَرْضِهِ** »(١) .

[٩٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ فَلَمَّا أَخْبَرَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ بِهَلَاكِ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ ، قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ : مَا مَاتَ فِرْعَوْنُ، فَأَمَرَ اللهُ الْبَحْرَ فَأَلْقَىٰ فِرْعَوْنَ عَلَىٰ السَّاحِلِ فرآه بنو إسرائيل فذلك قوله:

[٩١] ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ مِنَ السَّلَفِ: إِنَّ بَعْضَ بَنِي إِسْرَائِيلَ شَكُّوا فِي مَوْتِ فِرْعَوْنَ، فأمر الله البحر أن يلقيه بجسده سوياً بلا روح، ليتحققوا من مَوْتَهُ وَهَلَاكَهُ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ﴾ أَيْ نَرْفَعُكَ عَلَىٰ نَشَزٍ مِنَ الْأَرْضِ ﴿بِبَدَنِكَ﴾، قَالَ مُجَاهِدٌ: بِجَسَدِكَ، وَقَالَ الْحَسَنُ: بِجِسْمٍ لَا روح فيه، وَقَوْلُهُ: ﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً﴾ أَيْ لِتَكُونَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ دَلِيلًا عَلَىٰ مَوْتِكَ وَهَلَاكِكَ، وَأَنَّ اللهَ هُوَ الْقَادِرُ الَّذِي نَاصِيَةُ كُلِّ دَابَّةٍ بيده، وأنه لا يقوم لغضبه شيء، ﴿وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾ أي لا يتعظون بها ولا يعتبرون بها، وقد كان إهلاكهم يوم عاشوراء كما قال ابن عباس: قَدِمَ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمَدِينَةَ واليهود تصوم يَوْمَ عَاشُورَاءَ فَقَالَ: «**مَا هَذَا الْيَوْمُ**

---

(١) أحمد (٣١٠٧) .

الَّذِي تصومونه؟» فَقَالُوا: هَذَا يَوْمٌ ظَهَرَ فِيهِ مُوسَىٰ عَلَىٰ فِرْعَوْنَ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأَصْحَابِهِ: «**أَنْتُمْ أَحَقُّ بِمُوسَىٰ مِنْهُمْ فَصُومُوهُ**»(١).

[٩١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أَنْزَلْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ بَعْدَ هَلَاكِ فرعون، ﴿مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾ مَنْزِلَ صِدْقٍ، وَالْمُبَوَّأُ: مَكَانُ الْبَوْءِ، أَيِ الرُّجُوعِ، وَالْمُرَادُ الْمَسْكَنُ كَمَا تَقَدَّمَ، وَإِضَافَتُهُ إِلَىٰ (صِدْقٍ) مِنْ إِضَافَةِ الْمَوْصُوفِ إِلَىٰ الصِّفَةِ، وَالْمُرَادُ بِمُبَوَّأِ الصِّدْقِ مَا فَتَحَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بِلَادِ فِلَسْطِين وَمَا فِيهَا مِنْ خِصْبٍ وَثَرَاءٍ ﴿وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ الحلالات، ﴿فَمَا اخْتَلَفُوا﴾ يَعْنِي الْيَهُودَ الَّذِينَ كَانُوا فِي عَهْدِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي تَصْدِيقِهِ، وَأَنَّهُ نَبِيٌّ، ﴿حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ يَعْنِي، الْقُرْآنَ وَالْبَيَانَ بِأَنَّهُ رَسُولُ اللهِ صِدْقٌ وَدِينُهُ حَقٌّ، وَقِيلَ: حَتَّىٰ جَاءَهُمْ مَعْلُومُهُمْ وَهُوَ مُحَمَّدٌ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَعْلَمُونَهُ قَبْلَ خُرُوجِهِ، فَالْعِلْمُ بِمَعْنَىٰ الْمَعْلُومِ كَمَا يُقَالُ لِلْمَخْلُوقِ: خَلْقٌ، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿هَذَا خَلْقُ اللهِ﴾ [لُقْمَانَ: ١١] وَيُقَالُ: هَذَا الدِّرْهَمُ ضَرْبُ الْأَمِيرِ، أَيْ: مَضْرُوبُهُ، ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ من الدين.

[٩٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ﴾ يَعْنِي: الْقُرْآنَ ﴿فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ فيخبرونك أنك مَكْتُوبٌ عِنْدَهُمْ فِي

---

(١) البخاري (رقم ٣٩٤٣)؛ ومسلم (رقم ١١٣٠).

التَّوْرَاةِ، قِيلَ: هَذَا خِطَابٌ لِلرَّسُولِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَالْمُرَادُ بِهِ غَيْرَهُ عَلَىٰ عَادَةِ الْعَرَبِ فَإِنَّهُمْ يُخَاطِبُونَ الرَّجُلَ وَيُرِيدُونَ بِهِ غَيْرَهُ، كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللهَ﴾ [الأحزاب: ١] خِطَابٌ لِلنَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَالْمُرَادُ بِهِ الْمُؤْمِنُونَ بِدَلِيلِ أَنَّهُ قَالَ: ﴿إِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢] وَلَمْ يَقُلْ بِمَا تَعْمَلُ، وَقَالَ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾ [الطَّلَاقِ: ١] وَقِيلَ: كَانَ النَّاسُ عَلَىٰ عَهْدِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَ مُصَدِّقٍ وَمُكَذِّبٍ وَشَاكٍّ، فَهَذَا الْخِطَابُ مَعَ أَهْلِ الشَّكِّ مَعْنَاهُ: إِنْ كُنْتَ أَيُّهَا الْإِنْسَانُ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْهُدَىٰ عَلَىٰ لِسَانِ رسولنا محمد، فاسئل الذين يقرؤون الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَالضَّحَّاكُ: يَعْنِي مَنْ آمَنُ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ كَعَبْدِ الله بن سلام وأصحابه فسيشهدون عَلَىٰ صِدْقِ مُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَيُخْبِرُونَكَ بِنُبُوَّتِهِ، قَالَ الْفَرَّاءُ: عَلِمَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أَنَّ رَسُولَهُ غَيْرُ شَاكٍّ، لَكِنَّهُ ذَكَرَهُ عَلَىٰ عَادَةِ الْعَرَبِ يَقُولُ الْوَاحِدُ مِنْهُمْ لِعَبْدِهِ: إِنْ كُنْتَ عَبْدِي فَأَطِعْنِي، وَيَقُولُ لِوَلَدِهِ: افْعَلْ كَذَا وَكَذَا إِنْ كُنْتَ ابْنِي، وَلَا يَكُونُ بِذَلِكَ عَلَىٰ وَجْهِ الشَّكِّ. ﴿لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ مِنَ الشَّاكِّينَ، وَالِامْتِرَاءُ: الشَّكُّ فِيمَا لَا شُبْهَةَ لِلشَّكِّ فِيهِ ، فَهُوَ أَخَصُّ مِنَ الشَّكِّ، والْمَعْنَىٰ: فَإِنْ كُنْتُمْ شَاكِّينَ فِي صِدْقِ مَا أَنْزَلْنَا عَلَىٰ مُحَمَّدٍ مِمَّا أَصَابَ الْمُكَذِّبِينَ قَبْلَكُمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ يُخْبِرُوكُمْ بِأَنَّ ذَلِكَ صِدْقٌ، لَقَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّ مُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَا تَكُونُوا شَاكِّينَ وَلَا تُكَذِّبُوا بِآيَاتِ اللهِ فتكونوا خاسرين.

[٩٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ وَهَذَا كُلُّهُ خِطَابٌ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْمُرَادُ منه غيره.

[٩٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ﴾ وجبت عليهم، قَالَ قَتَادَةُ: أَيِ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمْ غَضَبُ اللهِ وَسَخَطُهُ بِمَعْصِيَتِهِمْ لَا يُؤْمِنُونَ، ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ قيل: لعنته، وقال قتادة: سخطه، وَقِيلَ: الْكَلِمَةُ هِيَ قَوْلُهُ: هَؤُلَاءِ فِي النَّارِ وَلَا أُبَالِي، ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

[٩٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ﴾ دَلَالَةٍ، ﴿حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ قَالَ الْأَخْفَشُ: أَنَّثَ فِعْلَ كَلٍّ؛ لِأَنَّهُ مُضَافٌ إِلَىٰ الْمُؤَنَّثِ، وَهِيَ قَوْلُهُ: آيَةٍ، وَلَفْظُ كُلٍّ لِلْمُذَكَّرِ وَالْمُؤَنَّثِ سَوَاءٌ، وَالْمَعْنَىٰ: أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا حِينَ لَا يَنْفَعُهُمُ الْإِيمَانُ، لِأَنَّ نُزُولَ الْعَذَابِ هُوَ ابْتِدَاءُ مُجَازَاتِهِمْ عَلَىٰ كُفْرِهِمْ، وَلَيْسَ بَعْدَ الشُّرُوعِ فِي الْمُجَازَاةِ عَفْوٌ، وَمِنْ بَرَكَةِ هَذَا الدِّينِ أَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِهِ قَدْ هَدَاهُمُ اللهُ قَبْلَ أَنْ يُنْزِلَ بهم عذابا.

[٩٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ﴾ فهلا كانت، ﴿قَرْيَةٌ﴾ وَمَعْنَاهُ: فَلَمْ تَكُنْ قَرْيَةٌ؛ لِأَنَّ فِي الِاسْتِفْهَامِ ضَرْبًا مِنَ الْجَحْدِ، أي: أهل قرية، ﴿آمَنَتْ﴾ عِنْدَ مُعَايَنَةِ الْعَذَابِ، ﴿فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا﴾ في حال اليأس، ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ﴾ فإنهم نَفَعَهُمْ إِيمَانُهُمْ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ، يَقُولُ تَعَالَىٰ: فَهَلَّا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ بِكَمَالِهَا من الأمم السالفة بَلْ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ يَا مُحَمَّدُ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَذَّبَهُ قَوْمُهُ أَوْ أَكْثَرُهُمْ، كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿يا حَسْرَةً عَلَىٰ الْعِبَادِ مَا يأيتهم من رسول إلا كَانُواْ بِهِ

يَسْتَهْزِئُونَ﴾، وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مجنون﴾، وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «**عُرِضَ عليَّ الْأَنْبِيَاءُ فَجَعَلَ النبي يمر ومعه الفئام من الناس، والبني يمر مَعَهُ الرَّجُلُ، وَالنَّبِيُّ مَعَهُ الرَّجُلَانِ، وَالنَّبِيُّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ**»[1] ثُمَّ ذَكَرَ كَثْرَةَ أَتْبَاعِ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثُمَّ ذَكَرَ كَثْرَةَ أُمَّتِهِ صَلَوَاتُ الله وسلامه عليه كثرةً سدَّت الخافقين، وَالْغَرَضُ أَنَّهُ لَمْ تُوجَدْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ بِكَمَالِهَا بِنَبِيِّهِمْ مِمَّنْ سَلَفَ مِنَ الْقُرَىٰ إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ، وَهُمْ (أَهْلُ نِينَوَىٰ) وَمَا كَانَ إِيمَانُهُمْ إلا تخوفًا مِنْ وُصُولِ الْعَذَابِ الَّذِي أَنْذَرَهُمْ بِهِ رَسُولُهُمْ، بَعْدَ مَا عَايَنُوا أَسْبَابَهُ، وَخَرَجَ رَسُولُهُمْ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِهِمْ فَعِنْدَهَا جَأَرُوا إِلَىٰ اللهِ وَاسْتَغَاثُوا به وتضرعوا له، وَاسْتَكَانُوا، وَأَحْضَرُوا أَطْفَالَهُمْ وَدَوَابَّهُمْ وَمَوَاشِيَهُمْ، وَسَأَلُوا اللهَ تَعَالَىٰ أَنْ يَرْفَعَ عَنْهُمُ الْعَذَابَ الَّذِي أَنْذَرَهُمْ بِهِ نَبِيُّهُمْ؛ فَعِنْدَهَا رَحِمَهُمُ اللهُ، وَكَشَفَ عَنْهُمُ الْعَذَابَ وَأُخِّرُوا: كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ وَهُوَ وَقْتُ انْقِضَاءِ آجَالِهِمْ، وَاخْتَلَفُوا فِي أَنَّهُمْ هَلْ رَأَوُا الْعَذَابَ عِيَانًا أَمْ لَا؟ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: رَأَوْا دَلِيلَ الْعَذَابِ؟ وَالْأَكْثَرُونَ عَلَىٰ أَنَّهُمْ رَأَوُا الْعَذَابَ عيَانًا بِدَلِيلِ قَوْلِهِ: ﴿كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ وَالْكَشْفُ يَكُونُ بَعْدَ الْوُقُوعِ أَوْ إذا قرب.

---

(١) البخاري (رقم ٥٧٠٥) ومسلم (رقم ٢٢٠).

[٩٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ﴾ يَا مُحَمَّدُ، ﴿لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ الْإِكْرَاهُ: الإلجاء والقسر، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: كَانَ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَرِيصًا عَلَىٰ إِيمَانِ جَمِيعِ النَّاسِ، فَأَخْبَرَهُ اللهُ تَعَالَىٰ أَنَّهُ لَا يُؤْمِنُ إِلَّا مَنْ سَبَقَتْ لَهُ السَّعَادَةُ فِي الذِّكْرِ الْأَوَّلِ، وَلَا يَضِلُّ إِلَّا مَنْ سَبَقَتْ لَهُ الشَّقَاوَةُ فِي الذِّكْرِ الْأَوَّلِ.

[١٠٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ﴾ وَمَا يَنْبَغِي لِنَفْسٍ، وَقِيلَ: مَا كَانَتْ نَفْسٌ، ﴿أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: بِأَمْرِ اللهِ، أَيْ مَا يَنْبَغِي أَنْ تُؤْمِنَ نَفْسٌ إِلَّا بِقَضَائِهِ وَقَدَرِهِ وَمَشِيئَتِهِ وَإِرَادَتِهِ. ﴿وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ﴾ أَيْ: وَيَجْعَلُ اللهُ الرِّجْسَ أَيِ: الْعَذَابَ وَهُوَ الرِّجْزُ، ﴿عَلَىٰ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ وَالْمَعْنَىٰ: وَيُوقِعُ الْكُفْرَ عَلَىٰ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ، وَالْمُرَادُ نَفْيُ الْعَقْلِ الْمُسْتَقِيمِ، أَيِ الَّذِينَ لَا تَهْتَدِي عُقُولُهُمْ إِلَىٰ إِدْرَاكِ الْحَقِّ وَلَا يَسْتَعْمِلُونَ عُقُولَهُمْ بِالنَّظَرِ فِي الْأَدِلَّةِ.

[١٠١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُلِ انْظُرُوا﴾ أَيْ: قُلْ لِلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ يَسْأَلُونَكَ الْآيَاتِ: انْظُرُوا، وهذا أَمْرٌ لِلْكُفَّارِ بِالِاعْتِبَارِ وَالنَّظَرِ فِي الْمَصْنُوعَاتِ الدَّالَّةِ عَلَىٰ الخالق وَالْقَادِرِ عَلَىٰ الْكَمَالِ. ﴿مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ مِنَ الْآيَاتِ وَالدَّلَائِلِ وَالْعِبَرِ، فَفِي السموات الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَغَيْرُهَا، وَفِي الْأَرْضِ الْجِبَالُ وَالْبِحَارُ وَالْأَنْهَارُ وَالْأَشْجَارُ وَغَيْرُهَا، ﴿وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ﴾ أَيِ الرُّسُلُ، جَمْعُ نَذِيرٍ، وَهُوَ الرَّسُولُ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ﴿عَنْ قَوْمٍ

لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: وأي شيء تغني الْآيَاتُ السَّمَاوِيَّةُ وَالْأَرْضِيَّةُ، وَالرُّسُلُ بِآيَاتِهَا وَحُجَجِهَا وَبَرَاهِينِهَا الدَّالَّةِ عَلَىٰ صِدْقِهَا، عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ؟!.

[١٠٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ﴾ يَعْنِي: مُشْرِكِي مَكَّةَ، ﴿إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا﴾ مضوا، ﴿مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ مِنْ مُكَذِّبِي الْأُمَمِ، يُقَالُ: فُلَانٌ عَالِمٌ بِأَيَّامِ الْعَرَبِ أَيْ بِوَقَائِعِهِمْ. قَالَ قَتَادَةُ: يَعْنِي وَقَائِعَ اللهِ فِي قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ، وَالْعَرَبُ تُسَمِّىٰ العذاب أيامًا والنعم أَيَّامًا، كَقَوْلِهِ: ﴿وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللهِ﴾ وَكُلُّ مَا مَضَىٰ عَلَيْكَ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ فَهُوَ أَيَّامٌ، ﴿قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾، قال الربيع بن أنس: خوَّفهم عذابه ونقمتهُ وعقوبته، ثم أخبرهم أنه إذا وقع من ذلكَ أمرٌ، أنجىٰ الله رسله والذين آمنوا معهُ، فقال الله: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾، وفي الصحيحين: عن أبي هريرةَ رضي اللهُ عَنْهُ قال: قال النبي – صلىٰ الله عليه وسلم –: «**إِنَّ اللهَ كَتَبَ كِتَابًا فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ، إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي**»(١).

[١٠٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ أَيْ مِنْ سُنَّتِنَا إِذَا أَنْزَلْنَا بِقَوْمٍ عَذَابًا أَخْرَجْنَا مِنْ بَيْنِهِمُ الرُّسُلَ والمؤمنين، و (ثُمَّ) مَعْنَاهُ ثُمَّ اعْلَمُوا أَنَّا نُنَجِّي رُسُلَنَا: ﴿كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا﴾ أَيْ وَاجِبًا عَلَيْنَا، لِأَنَّهُ أَخْبَرَ وَلَا خُلْفَ فِي خَبَرِهِ.

---

(١) البخاري (رقم ٣١٩٤)، ومسلم (رقم ٢٧٥١).

[١٠٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي﴾ الَّذِي أَدْعُوكُمْ إِلَيْهِ، قال ابن عاشور : وَالْمُرَادُ بِـ «النَّاسِ» فِي هَذَا الْخِطَابِ الْمُشْرِكُونَ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ، أَوْ جَمِيعِ أُمَّةِ الدَّعْوَةِ الَّذِينَ لَمَّا يَسْتَجِيبُوا لِلدَّعْوَةِ ، ﴿إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي﴾ أَيْ فِي رَيْبٍ مِنْ دِينِ الْإِسْلَامِ الَّذِي أَدْعُوكُمْ إِلَيْهِ : ﴿فَلا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ مِنَ الْأَوْثَانِ الَّتِي لَا تَعْقِلُ:﴿وَلكِنْ أَعْبُدُ اللهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ﴾ أَيْ يُمِيتُكُمْ وَيَقْبِضُ أَرْوَاحَكُمْ ، ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي المصدقين بآيات ربهم.

[١٠٥] قَوْلُهُ تعالىٰ: ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: عَمَلُكَ، وَقِيلَ: اسْتَقِمْ عَلَىٰ الدِّينِ حَنِيفًا، قال القرطبي : أَيِ اسْتَقِمْ بإقبالك علىٰ مَا أُمِرْتَ بِهِ مِنَ الدِّينِ، ﴿حَنِيفًا﴾ أَيْ قَوِيمًا بِهِ مَائِلًا عَنْ كُلِّ دِينٍ ،﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ أَيْ وَقِيلَ لِي وَلَا تُشْرِكْ، وَالْخِطَابُ لَهُ وَالْمُرَادُ غَيْرُهُ.

[١٠٦] قَوْلُهُ تعالىٰ: ﴿وَلَا تَدْعُ﴾ وَلَا تَعْبُدْ، ﴿مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ﴾ إن أطعته، ﴿وَلَا يَضُرُّكَ﴾ إن عصيته، ﴿فَإِنْ فَعَلْتَ﴾ فَعَبَدْتَ غَيْرَ اللهِ، ﴿فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ الضارين لأنفسهم الواضعين العبادة في غير موضعها، عَنْ **أَبِي تَمِيمَةَ** عَنْ رَجُلٍ مِنْ قَوْمِهِ، أَنَّهُ أَتَىٰ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، أَوْ قَالَ شَهِدْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَتَاهُ رَجُلٌ فَقَالَ: أَنْتَ رَسُولُ اللهِ؟ أَوْ قَالَ: أَنْتَ مُحَمَّدٌ؟ فَقَالَ :**نَعَمْ**، قَالَ: فَإِلَامَ تَدْعُو؟ قَالَ:« **أَدْعُو إِلَىٰ رَبِّكَ الَّذِي إِنْ**

مَسَّكَ ضُرٌّ فَدَعَوْتَهُ كَشَفَ عَنْكَ، وَالَّذِي إِنْ ضَلَلْتَ بِأَرْضٍ قَفْرٍ فَدَعَوْتَهُ رَدَّ عَلَيْكَ، وَالَّذِي إِنْ أَصَابَتْكَ سَنَةٌ فَدَعَوْتَهُ أَنْبَتَ لَكَ»(١).

[١٠٧] قَوْلُهُ تعالىٰ: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ﴾ أَيْ: يُصِبْكَ بِشِدَّةٍ وَبَلَاءٍ، ﴿فَلَا كَاشِفَ﴾ فلا دافع له، ﴿لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ﴾ رَخَاءٍ وَنِعْمَةٍ وَسِعَةٍ، ﴿فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ فَلَا مَانِعَ لِرِزْقِهِ، ﴿يُصِيبُ بِهِ﴾ بِكُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الضُّرِّ وَالْخَيْرِ، ﴿مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ .

[١٠٨] قَوْلُهُ تعالىٰ: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ يَعْنِي الْقُرْآنَ وَالْإِسْلَامَ، ﴿فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ أي: علىٰ نفسه وباله عَلَيْهِ، ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ بِكَفِيلٍ أَحْفَظُ أَعْمَالَكُمْ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: نَسَخَتْهَا آيَةُ الْقِتَالِ.

[١٠٩] قَوْلُهُ تعالىٰ: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللهُ﴾ بِنَصْرِكَ وَقَهْرِ عَدُوِّكَ وَإِظْهَارِ دِينِهِ ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ فَحَكَمَ بِقِتَالِ الْمُشْرِكِينَ وَبِالْجِزْيَةِ عَلَىٰ أَهْلِ الْكِتَابِ يُعْطُونَهَا عَنْ يَدٍ وهم صاغرون، قَالَ الطَّبَرِيُّ: وَهُوَ خَيْرُ الْقَاضِينَ وَأَعْدَلُ الْفَاصِلِينَ، فَحَكَمَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ يَوْمَ بَدْرٍ، قَتَلَهُمْ بِالسَّيْفِ، وَأَمَرَ نَبِيَّهُ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فِيمَنْ بَقِيَ مِنْهُمْ أَنْ يَسْلُكَ بِهِمْ سَبِيلَ مَنْ أَهْلَكَ مِنْهُمْ أَوْ يَتُوبُوا وَيُنِيبُوا إِلَىٰ طَاعَتِهِ.

---

(١) أحمد (رقم ٢٠٦٥١) وأبو داود (رقم ٤٠٨٤).

تَمَّ تَفْسِيرُ سُورَةِ يُونُسَ بِعَوْنِ اللهِ وَتَوْفِيقِهِ، وَوَاسِعِ مَنِّهِ وَكَرَمِهِ

سُورَةُ هُودٍ

سُمِّيَتُ هذه السورة بَاسِمِ هُودٍ لِتَكَرُّرِ اسْمِ نبي الله هود فِيهَا خَمْسَ مَرَّاتٍ، وَلِأَنَّ مَا حُكِيَ عَنْهُ فِيهَا أَطْوَلُ مِمَّا حُكِيَ عَنْهُ فِي غَيْرِهَا، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ أَبُو بَكْرٍ: يَا رَسُولَ اللهِ قَدْ شِبْتَ ، قَالَ: « **شَيَّبَتْنِي هُودٌ وَالْوَاقِعَةُ وَالْمُرْسَلَاتُ** ﴿وَعَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ [النبأ: ١] ﴿وَإِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ [التكوير : ١] »(١) ، قَالَ القرطبي: فَالْفَزَعُ يُورِثُ الشَّيْبَ وَذَلِكَ أَنَّ الْفَزَعَ يُذْهِلُ النَّفْسَ فَيُنَشِّفُ رُطُوبَةَ الْجَسَدِ، وَتَحْتَ كُلِّ شَعْرَةٍ مَنْبَعٌ، وَمِنْهُ يَعْرَقُ، فَإِذَا انْتَشَفَ الْفَزَعُ رُطُوبَتَهُ يَبِسَتِ الْمَنَابِعُ فَيَبِسَ الشَّعْرُ وَابْيَضَّ، كَمَا تَرَىٰ الزَّرْعَ الْأَخْضَرَ بسقاية، فَإِذَا ذَهَبَ سِقَاؤُهُ يَبِسَ فَابْيَضَّ، وَإِنَّمَا يَبْيَضُّ شَعْرُ الشَّيْخِ لِذَهَابِ رُطُوبَتِهِ وَيُبْسِ جِلْدِهِ، فَالنَّفْسُ تَذْهَلُ بِوَعِيدِ اللهِ، وَأَهْوَالِ مَا جَاءَ بِهِ الْخَبَرُ عَنِ اللهِ، فَتَذْبُلُ، وَيُنَشِّفُ مَاءَهَا ذَلِكَ الْوَعِيدُ وَالْهَوْلُ الَّذِي جَاءَ بِهِ، فَمِنْهُ تَشِيبُ ، وَقَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾ [المزمل: ١٧] فَإِنَّمَا شَابُوا مِنَ الْفَزَعِ ، وَأَمَّا سُورَةُ (هُودٍ) فَلَمَّا ذَكَرَ الْأُمَمَ، وَمَا حَلَّ بِهِمْ مِنْ عَاجِلِ بَأْسِ اللهِ تَعَالَىٰ، فَأَهْلُ الْيَقِينِ إِذَا تَلَوْهَا تَرَاءَىٰ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ مِنْ مُلْكِهِ وَسُلْطَانِهِ وَلَحَظَاتِهِ الْبَطْشُ بِأَعْدَائِهِ، فَلَوْ مَاتُوا مِنَ الْفَزَعِ لَحَقَّ لَهُمْ، وَلَكِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ اسْمُهُ يَلْطُفُ بِهِمْ فِي تِلْكَ الْأَحَايِينِ حَتَّىٰ

---

(١) أبو داود (٣٢٩٧) .

يَقْرَءُوا كَلَامَهُ ، وَقَالَ ابْنُ عَطِيَّةَ: هِيَ مَكِّيَّةٌ إِلَّا ثَلَاثَ آيَاتٍ نَزَلَتْ بِالْمَدِينَةِ ، وَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: فَلَعَلَّكَ تارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحىٰ إِلَيْكَ ، وَقَوْلُهُ: أَفَمَنْ كانَ عَلىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ إِلَىٰ قَوْلِهِ أُولئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ قِيلَ نَزَلَتْ فِي عَبْدِ اللهِ بْنِ سَلَامٍ، وَقَوْلُهُ: وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهارِ الْآيَةَ، وَأَمَّا أَخَوَاتُهَا فَمَا أَشْبَهَهَا مِنَ السُّوَرِ، مثل: (الحاقة) و﴿ سَأَلَ سائِلٌ﴾ [المعارج: ١] و ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ [التكوير: ١] و (القارعة) فَفِي تِلَاوَةِ هَذِهِ السُّوَرِ مَا يَكْشِفُ لِقُلُوبِ الْعَارِفِينَ سُلْطَانَهُ وَبَطْشَهُ فَتَذْهَلُ مِنْهُ النُّفُوسُ، وتشيب منه الرؤوس، وَقَالَ يَزِيدُ بْنُ أَبَانَ: رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي مَنَامِي فَقَرَأْتُ عَلَيْهِ سُورَةَ (هُودٍ) فَلَمَّا خَتَمْتُهَا قَالَ: يَا يَزِيدُ هَذِهِ الْقِرَاءَةُ فَأَيْنَ الْبُكَاءُ.

[١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿الر﴾ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَىٰ هَذِهِ الْحُرُوفِ الْمُقَطَّعَةِ وَمَفَادُهُ التَّحَدِّي وَالْإِعْجَازُ - أَيْ: إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ مُؤَلَّفٌ مِنْ جِنْسِ هَذِهِ الْأَحْرُفِ الَّتِي تَتَخَاطَبُونَ بِهَا مَعْشَرَ الْعَرَبِ، وَهُوَ يَتَحَدَّاكُمْ أَنْ تَأْتُوا بِمِثْلِهِ أَوْ بِسُورَةٍ نَحْوَهُ ، ﴿كِتَابٌ﴾ أَيْ: هَذَا كِتَابٌ، ﴿أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ﴾ قال قتادة: أَيْ جُعِلَتْ مُحْكَمَةً كُلَّهَا لَا خَلَلَ فِيهَا وَلَا بَاطِلَ ، وَالْإِحْكَامُ مَنْعُ الْقَوْلِ مِنَ الْفَسَادِ، أَيْ نُظِمَتْ نَظْمًا مُحْكَمًا لَا يَلْحَقُهَا تَنَاقُضٌ وَلَا خَلَلٌ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَيْ لَمْ يَنْسَخْهَا كِتَابٌ، بِخِلَافِ التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ ، وعلىٰ هذا المعنىٰ، أَحْكَمَ بَعْضَ آيَاتِهِ بِأَنْ جُعِلَ نَاسِخًا غَيْرَ منسوخ. ﴿ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ بُيِّنَتْ بِالْأَحْكَامِ وَالْحَلَالِ وَالْحَرَامِ، وَقَالَ الْحَسَنُ البصري : أُحْكِمَتْ بِالْأَمْرِ وَالنَّهْيِ ثُمَّ فُصِّلَتْ بِالْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ، ، وَقَالَ

مُجَاهِدٌ: فُصِّلَتْ أَيْ: فُسِّرَتْ، وَقِيلَ: فُصِّلَتْ أي: أنزلت شيئًا فشيئًا فَشَيْئًا، وَالتَّفْصِيلُ: التَّوْضِيحُ وَالْبَيَانُ. وَهُوَ مُشْتَقٌّ مِنَ الْفَصْلِ بِمَعْنَىٰ التَّفْرِيقِ بَيْنَ الشَّيْءِ وَغَيْرِهِ بِمَا يُمَيِّزُهُ، فَصَارَ كِنَايَةً مَشْهُورَةً عَنِ الْبَيَانِ لِمَا فِيهِ مِنْ فَصْلِ الْمَعَانِي، ﴿مِنْ لَدُنْ) أَيْ مِنْ عِنْدِ ﴿حَكِيمٍ﴾ أَيْ مُحْكِمٌ لِلْأُمُور، ﴿خَبِيرٍ﴾ بِكُلِّ كَائِنٍ وَغَيْرِ كائن.

[٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللهَ﴾ أي: في ذلك الكتاب ألا تَعْبُدُوا إِلَّا اللهَ، قِيلَ: أَمَرَ رَسُولَهُ أَنْ يَقُولَ لِلنَّاسِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا الله ﴿إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ﴾ أي: من الله ﴿نَذِيرٌ﴾ للعاصين أَيْ مُخَوِّفٌ مِنْ عَذَابِهِ وَسَطْوَتِهِ لِمَنْ عَصَاهُ﴿وَبَشِيرٌ﴾ للمطيعين، قال القرطبي بشير بِالرِّضْوَانِ وَالْجَنَّةِ لِمَنْ أَطَاعَهُ، وَقِيلَ: هُوَ مِنْ قَوْلِ اللهِ أَوَّلًا وَآخِرًا، أَيْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللهَ إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ، أَيِ اللهُ نَذِيرٌ لَكُمْ مِنْ عِبَادَةِ غَيْرِهِ، كَمَا قَالَ: ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ﴾ [آل عمران: ١٨].

[٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ أَيِ: ارْجِعُوا إِلَيْهِ بِالطَّاعَةِ، وَالتَّوْبَةُ الِانْسِلَاخُ مِنَ الْمَعَاصِي، وَالنَّدَمُ عَلَىٰ مَا سَلَفَ مِنْهَا، وَالْعَزْمُ عَلَىٰ عَدَمِ الْعَوْدِ إِلَيْهَا، قَالَ الْفَرَّاءُ: (ثُمَّ) هُنَا بِمَعْنَىٰ الْوَاوِ، أَيْ: وَتُوبُوا إِلَيْهِ، لِأَنَّ الِاسْتِغْفَارَ هُوَ التَّوْبَةُ وَالتَّوْبَةُ هِيَ الِاسْتِغْفَارُ، وَقِيلَ: أَنِ اسْتَغْفِرُوا إليه في المستأنف يمنعكم منعا حَسَنًا، يُعَيِّشْكُمْ عَيْشًا حَسَنًا فِي خَفْضٍ وَدَعَةٍ وَأَمْنٍ وَسَعَةٍ، قَالَ بعضهم: العيش الحسن هو الرضىٰ بِالْمَيْسُورِ وَالصَّبْرُ عَلَىٰ الْمَقْدُورِ، وقال القرطبي: إِنَّمَا قَدَّمَ ذِكْرَ الِاسْتِغْفَارِ لِأَنَّ الْمَغْفِرَةَ هِيَ الْغَرَضُ

الْمَطْلُوبُ، وَالتَّوْبَةَ هِيَ السَّبَبُ إِلَيْهَا، فَالْمَغْفِرَةُ أَوَّلٌ فِي الْمَطْلُوبِ وَآخِرٌ فِي السَّبَبِ ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَىٰ اسْتَغْفِرُوهُ مِنَ الصَّغَائِرِ، وَتُوبُوا إِلَيْهِ مِنَ الْكَبَائِرِ، ﴿يُمَتِّعْكُمْ مَتاعًا حَسَنًا﴾ هَذِهِ ثَمَرَةُ الِاسْتِغْفَارِ وَالتَّوْبَةِ، أَيْ يُمَتِّعُكُمْ بِالْمَنَافِعِ من سَعَةِ الرِّزْقِ وَرَغَدِ الْعَيْشِ، وَلَا يَسْتَأْصِلُكُمْ بِالْعَذَابِ كَمَا فَعَلَ بِمَنْ أَهْلَكَ قَبْلَكُمْ. وَقِيلَ: يُمَتِّعُكُمْ يُعَمِّرُكُمْ، وَأَصْلُ الْإِمْتَاعِ الْإِطَالَةُ، وَمِنْهُ أَمْتَعَ اللهُ بِكَ وَمَتَّعَ. وَقَالَ سَهْلُ بْنُ عَبْدِ اللهِ: الْمَتَاعُ الْحَسَنُ تَرْكُ الْخَلْقِ وَالْإِقْبَالِ عَلَىٰ الْحَقِّ ، وَقِيلَ: هُوَ الْقَنَاعَةُ بِالْمَوْجُودِ، وَتَرْكُ الْحُزْنِ عَلَىٰ الْمَفْقُودِ ، ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّىٰ﴾ إِلَىٰ حِينِ الْمَوْتِ، الْمَتَاعُ الْحَسَنُ عَلَىٰ هَذَا وِقَايَةُ كُلِّ مَكْرُوهٍ وَأَمْرٍ مَخُوفٍ، مِمَّا يَكُونُ فِي الْقَبْرِ وَغَيْرِهِ مِنْ أَهْوَالِ الْقِيَامَةِ وَكَرْبِهَا، قالَ مُقَاتِلٌ: فَأَبَوْا فَدَعَا عَلَيْهِمْ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَابْتُلُوا بِالْقَحْطِ سَبْعَ سِنِينَ حَتَّىٰ أَكَلُوا الْعِظَامَ الْمُحْرِقَةَ وَالْقَذَرَ وَالْجِيَفَ وَالْكِلَابَ ، ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ أَيْ: وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي عَمَلٍ صَالِحٍ فِي الدُّنْيَا أَجْرَهُ وَثَوَابَهُ فِي الآخرة ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: هُوَ مَا يَحْتَسِبُهُ الْإِنْسَانُ مِنْ كَلَامٍ يَقُولُهُ بِلِسَانِهِ، أَوْ عَمَلٍ يَعْمَلُهُ بِيَدِهِ أَوْ رِجْلِهِ، أَوْ مَا تَطَوَّعَ بِهِ مِنْ مَالِهِ فَهُوَ فَضْلُ اللهِ، يُؤْتِيهِ ذَلِكَ إِذَا آمَنَ، وَلَا يَتَقَبَّلُهُ مِنْهُ إِنْ كَانَ كَافِرًا ، ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أَعْرَضُوا، ﴿فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، وَهُوَ كَبِيرٌ لِمَا فِيهِ مِنَ الْأَهْوَالِ.

[٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِلَىٰ اللهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ أَيْ بَعْدَ الْمَوْتِ، ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ مِنْ ثَوَابٍ وَعِقَابٍ.

[٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: نَزَلَتْ فِي الأخنس بْنِ شُرَيْقٍ، وَكَانَ رَجُلًا حُلْوَ الْكَلَامِ حُلْوَ الْمَنْظَرِ، يَلْقَىٰ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَا يُحِبُّ وَيَنْطَوِي بِقَلْبِهِ عَلَىٰ مَا يَكْرَهُ. قَوْلُهُ: ﴿يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ﴾ يُخْفُونَ مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنَ الشحناء والعداوة، وَقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ شَدَّادٍ: نزلت هذه الآية فِي بَعْضِ الْمُنَافِقِينَ كَانَ إِذَا مَرَّ بِرَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عليه وسلم ثنىٰ صدره وحنىٰ ظهره وَطَأْطَأَ رَأْسَهُ وَغَطَّىٰ وَجْهَهُ؛ كَيْ لَا يَرَاهُ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَقَالَ قَتَادَةُ: كَانُوا يَحْنُونَ صُدُورَهُمْ كَيْ لَا يَسْمَعُوا كِتَابَ اللهِ تَعَالَىٰ وَلَا ذِكْرَهُ، وَقِيلَ: كَانَ الرَّجُلُ مِنَ الْكَفَّارِ يَدْخُلُ بَيْتَهُ، وَيُرْخِي سِتْرَهُ، وَيَحْنِي ظَهْرَهُ، وَيَتَغَشَّىٰ بِثَوْبِهِ، وَيَقُولُ: هَلْ يَعْلَمُ اللهُ مَا فِي قَلْبِي، وَقَالَ السُّدِّيُّ: يَثْنُونَ أَيْ: يُعْرِضُونَ بِقُلُوبِهِمْ، مِنْ قَوْلِهِمْ: ثَنَيْتُ عِنَانِي. وَقِيلَ: يَعْطِفُونَ، وَمِنْهُ ثَنِيُّ الثَّوْبِ، ﴿لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ﴾ أي: من رسول الله. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: لِيَسْتَخْفُوا مِنَ اللهِ إِنِ اسْتَطَاعُوا، ﴿أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ﴾ يُغَطُّونَ رُؤُوسَهُمْ بِثِيَابِهِمْ، ﴿يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ قَالَ الْأَزْهَرِيُّ: مَعْنَىٰ الْآيَةِ مِنْ أَوَّلِهَا إِلَىٰ آخِرِهَا: إِنَّ الَّذِينَ أَضْمَرُوا عَدَاوَةَ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا يَخْفَىٰ علينا حالهم.

[٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ﴾ أَيْ: لَيْسَ دَابَّةٌ، وَالدَّابَّةُ: كُلُّ حَيَوَانٍ يَدِبُّ عَلَىٰ وَجْهِ الْأَرْضِ، وَقَوْلُهُ: ﴿إِلَّا عَلَىٰ اللهِ رِزْقُهَا﴾ أَيْ هُوَ الْمُتَكَفِّلُ بِذَلِكَ فَضْلًا، وَهُوَ إِلَىٰ مَشِيئَتِهِ إِنْ شَاءَ رَزَقَ، وَإِنْ شَاءَ لَمْ يَرْزُقْ، وَقِيلَ: عَلَىٰ

بِمَعْنَىٰ مِنْ أَيْ: مِنَ اللهِ رِزْقُهَا، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: مَا جَاءَهَا مِنْ رِزْقٍ فَمِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَرُبَّمَا لَمْ يَرْزُقْهَا حَتَّىٰ تَمُوتَ جُوعًا. ﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: مُسْتَقَرَّهَا الْمَكَانُ الَّذِي تَأْوِي إِلَيْهِ، وَتَسْتَقِرُّ فِيهِ لَيْلًا وَنَهَارًا، وَمُسْتَوْدَعَهَا: الْمَوْضِعُ الَّذِي تُدْفَنُ فِيهِ إِذَا مَاتَتْ، وَقَالَ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: الْمُسْتَقَرُّ: أَرْحَامُ الْأُمَّهَاتِ وَالْمُسْتَوْدَعُ الْمَكَانُ الَّذِي تَمُوتُ فِيهِ، أما في اللغة فإن الْمُسْتَقَرُّ: مَحَلُّ اسْتِقْرَارِهَا. وَالْمُسْتَوْدَعُ: مَحَلُّ الْإِيدَاعِ، وَقَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ: الْمُسْتَقَرُّ مَكَانُهُ مِنَ الْأَرْضِ وَمَسْكَنُهُ، وَالْمُسْتَوْدَعُ حَيْثُ كَانَ مَوْجُودًا قَبْلَ الِاسْتِقْرَارِ مِنْ صُلْبٍ أَوْ رَحِمٍ أَوْ بَيْضَةٍ، ﴿كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ أَيْ: كُلٌّ مُثْبَتٌ فِي اللَّوْحِ المحفوظ قبل أن خلقها.

[٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَىٰ الْمَاءِ﴾ قَبْلَ أَنْ خَلْقَ السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ، وجاء في الحديث عَنْ عِمْرَانَ ابْنِ الْحُصَيْنِ قَالَ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَعَقَلْتُ نَاقَتِي بِالْبَابِ ثُمَّ دَخَلْتُ، فَأَتَاهُ نَاسٌ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ فَقَالَ: «**اقْبَلُوا الْبُشْرَىٰ يَا بَنِي تَمِيمٍ**» قَالُوا: قَدْ بَشَّرْتَنَا فَأَعْطِنَا، فَجَاءَهُ نَفَرٌ مِنْ أَهْلِ الْيَمَنِ فَقَالَ: «**اقْبَلُوا الْبُشْرَىٰ يَا أَهْلَ الْيَمَنِ إِذْ لَمْ يَقْبَلْهَا بَنُو تَمِيمٍ**» فَقَالُوا: لِنَتَفَقَّهُ فِي الدِّينِ، وَنَسْأَلُكَ عَنْ أَوَّلِ هَذَا الْأَمْرِ، كَيْفَ كَانَ؟ فَقَالَ: «**كَانَ اللهُ تَعَالَىٰ لَمْ يَكُ شَيْءٌ غَيْرُهُ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَىٰ الْمَاءِ، وَكَتَبَ**

فِي الذِّكْرِ كُلَّ شَيْءٍ، ثُمَّ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ»(١) ، وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ قَالَ، قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ اللهَ قَدَّر مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَىٰ الماء**»(٢) ، قال مُجَاهِدٌ: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَىٰ الْمَاءِ﴾ قَبْلَ أَنْ يخلق شيئًا، وقال قتادة: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَىٰ الْمَاءِ﴾ يُنْبِئُكُمْ كَيْفَ كَانَ بدء خلقه قبل أن يخلق السماوات والأرض، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: إِنَّمَا سُمِّيَ الْعَرْشُ عَرْشًا لارتفاعه، ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾ لِيَخْتَبِرَكُمْ وَهُوَ أَعْلَمُ، ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ عمل بِطَاعَةِ اللهِ، وَأَوْرَعُ عَنْ مَحَارِمِ الله تعالىٰ وَقَالَ قَتَادَةُ: مَعْنَىٰ ﴿ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أَيُّكُمْ أَتَمُّ عَقْلًا. وَقَالَ الْحَسَنُ البصري: أَيُّكُمْ أَزْهَدُ فِي الدُّنْيَا ، وَذُكِرَ أَنَّ عِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَرَّ بِرَجُلٍ نَائِمٍ فَقَالَ: يَا نَائِمُ قُمْ فتَعَبَّدْ، فَقَالَ: يَا رُوحَ اللهِ قَدْ تَعَبَّدْتُ، فَقَالَ: وَبِمَ تَعَبَّدْتَ؟ قَالَ: قَدْ تَرَكْتُ الدُّنْيَا لِأَهْلِهَا، قَالَ: نَمْ فَقَدْ فُقْتَ الْعَابِدِينَ ، ﴿وَلَئِنْ قُلْتَ﴾ يا محمد، ﴿إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ يَعْنُونَ الْقُرْآنَ، وَقَرَأَ حَمْزَةُ وَالْكِسَائِيُّ: (سَاحِرٌ) يَعْنُونَ مُحَمَّدًا صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

[٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ﴾ إِلَىٰ أَجَلٍ مَحْدُودٍ، وَمَعْنَىٰ ﴿ إِلَىٰ أُمَّةٍ ﴾ إِلَىٰ أَجَلٍ مَعْدُودٍ وَحِينٍ مَعْلُومٍ، فَالْأُمَّةُ هُنَا الْمُدَّةُ،

---

(١) البخاري (٤٣٨٦) .

(٢) مسلم (٢٦٥٣) .

وَأَصْلُ الْأُمَّةِ الْجَمَاعَةُ، فَكَأَنَّهُ قَالَ: إِلَىٰ انْقِرَاضِ أُمَّةٍ وَمَجِيءِ أُمَّةٍ أُخْرَىٰ ﴿لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ﴾ يَعْنِي الْعَذَابَ، وَقَالُوا هَذَا إِمَّا تَكْذِيبًا لِلْعَذَابِ لِتَأَخُّرِهِ عَنْهُمْ، أَوِ اسْتِعْجَالًا وَاسْتِهْزَاءً، أَيْ مَا الَّذِي يَحْبِسُهُ عَنَّا. قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ﴾ يَعْنِي الْعَذَابَ، ﴿لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ﴾ لَا يَكُونُ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ،وَالصَّرْفُ: الدَّفْعُ وَالْإِقْصَاءُ. قِيلَ: هُوَ قَتْلُ الْمُشْرِكِينَ بِبَدْرٍ، ﴿وَحَاقَ بِهِمْ﴾ نَزَلَ بِهِمْ، وَالْمَعْنَىٰ: أَنَّهُ حَالٌّ بِهِمْ حُلُولًا لَا مُخَلِّصَ مِنْهُ بِحَالٍ. وَبَاءُ بِهِ سَبَبِيَّةٌ أَيْ ذِكْرَ الْعَذَابِ كَانَ سَبَبًا لِاسْتِهْزَائِهِمْ حِينَ تَوَعَّدَهُمْ بِهِ النَّبِيءُ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ،﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أَيْ: وَبَالُ اسْتِهْزَائِهِمْ.

[٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً﴾ نِعْمَةً وَسَعَةً،الْإِنْسَانُ اسْمٌ شَائِعٌ لِلْجِنْسِ فِي جَمِيعِ الْكُفَّارِ، وَيُقَالُ: إِنَّ الْإِنْسَانَ هُنَا الْوَلِيدُ بْنُ الْمُغِيرَةِ وَفِيهِ نَزَلَتْ. وَاخْتِيرَتْ مَادَّةُ الْإِذَاقَةِ لِمَا تُشْعِرُ بِهِ مِنْ إِدْرَاكِ أَمْرٍ مَحْبُوبٍ لِأَنَّ الْمَرْءَ لَا يَذُوقُ إِلَّا مَا يَشْتَهِيهِ ﴿ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ﴾ [هود: ٩] أَيْ: سَلَبْنَاهَا مِنْهُ، والنزع حَقِيقَته: خلق الثَّوْبِ عَنِ الْجَسَدِ ، وَاسْتُعْمِلَ هُنَا فِي سَلْبِ النِّعْمَةِ عَلَىٰ طَرِيقَةِ الِاسْتِعَارَةِ، ﴿إِنَّهُ لَيَئُوسٌ﴾ قنوط في الشدة، وَ(يَئُوسٌ) عَلَىٰ التَّكْثِيرِ كَفَخُورٍ لِلْمُبَالَغَةِ. ﴿كَفُورٌ﴾ النِّعْمَةِ.

[١٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ﴾ بَعْدَ بَلَاءٍ أَصَابَهُ، ﴿لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي﴾ زَالَتِ الشَّدَائِدُ عَنِّي، ﴿إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ أَشِرٌ بَطِرٌ، وَالْفَرَحُ لَذَّةٌ فِي الْقَلْبِ بِنَيْلِ الْمُشْتَهَىٰ،وَشِدَّةُ الْفَرَحِ: تَجَاوُزُهُ الْحَدَّ وَهُوَ

الْبَطَرُ وَالْأَشَرُ، كَمَا فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ [القصص : ٧٦] ، وَالْفَخْرُ: تَبَاهِي الْمَرْءِ عَلَىٰ غَيْرِهِ بِمَا لَهُ مِنَ الْأَشْيَاءِ الْمَحْبُوبَةِ لِلنَّاسِ، وَالْمَعْنَىٰ أَنَّهُ لَا يَشْكُرُ اللهَ عَلَىٰ النِّعْمَةِ بَعْدَ الْبَأْسَاءِ وَمَا كَانَ فِيهِ مِنَ الضَّرَّاءِ فَلَا يَتَفَكَّرُ فِي وُجُودِ خَالِقِ السموات والأرض ، المستحق وحده للعبادة والانابة.

[١١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ والمعنىٰ : لَكِنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا ، وَمِنْ مَعَانِي الصَّبْرِ انْتِظَارُ الْفَرَجِ وَلِذَلِكَ أُوثِرَ هُنَا وَصْفُ (صَبَرُوا) دُونَ (آمَنُوا) لِأَنَّ الْمُرَادَ مُقَابَلَةُ حَالِهِمْ بِحَالِ الْكُفَّارِ فِي قَوْله: إِنَّهُ لَيَؤُسٌ كَفُورٌ ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ فَإِنَّهُمْ إِنْ نَالَتْهُمْ شِدَّةٌ صَبَرُوا، وَإِنْ نَالُوا نِعْمَةً شَكَرُوا، ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ لذنوبهم ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [وهو الجنة. كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يُصِيبُ الْمُؤْمِنَ هَمٌّ وَلَا غَمٌّ وَلَا نَصَبٌ وَلَا وَصَبٌ وَلَا حَزَنٌ حتىٰ الشوكة يشاكها إلا غفر اللهُ عَنْهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ**»(١)، وَفِي الصَّحِيحَيْنِ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَقْضِي اللهُ لِلْمُؤْمِنِ قَضَاءً إِلَّا كَانَ خَيْرًا لَهُ ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ فَشَكَرَ كَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ فَصَبَرَ كَانَ خَيْرًا لَهُ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لأحد غير المؤمن**»(٢).

[١٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَعَلَّكَ﴾ يَا مُحَمَّدُ، ﴿تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ﴾ فَلَا تُبَلِّغُهُ إِيَّاهُمْ، وَذَلِكَ أَنَّ كُفَّارَ مَكَّةَ لَمَّا قَالُوا. ﴿ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا﴾ لَيْسَ فِيهِ سَبُّ

---

(١) أحمد (٢٥٢٠٤) .

(٢) مسلم (٢٣٦٩) ، والترمذي (٣٣٥٢).

آلِهَتِنَا هَمَّ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّ يَدَعَ آلِهَتُهُمْ ظَاهِرًا،قَالَ ابْنُ عَطِيَّةَ: سَبَبُ نُزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّ كُفَّارِ قُرَيْشٍ قَالُوا: يَا مُحَمَّدُ لَوْ تَرَكْتَ سَبَّ آلِهَتِنَا وَتَسْفِيهَ آبَائِنَا لَجَالَسْنَاكَ وَاتَّبَعْنَاكَ، وَقَالُوا: ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ، وَنَحْوَ هَذَا مِنَ الْأَقْوَالِ، فَخَاطَبَ اللهُ تَعَالَىٰ نَبِيَّهُ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وسلم علىٰ هَذِهِ الصُّورَةِ مِنَ الْمُخَاطَبَةِ ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ﴾ يَعْنِي: سَبَّ الْآلِهَةِ،وَلَيْسَ الْمَعْنَىٰ أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ هَمَّ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ ثُمَّ خَرَجَ عَنْهُ، فَإِنَّهُ لَمْ يُرِدْ قَطُّ تَرْكَ شَيْءٍ مِمَّا أُوحِيَ إِلَيْهِ، وَلَا ضَاقَ صَدْرُهُ بِهِ، وَإِنَّمَا كَانَ يَضِيقُ صَدْرُهُ بِأَقْوَالِهِمْ وَأَفْعَالِهِمْ وَبُعْدِهِمْ عَنِ الْإِيمَانِ ، ﴿وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ﴾ أَيْ: فَلَعَلَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ، وَقَالَ: (ضائِقٌ) وَلَمْ يَقُلْ ضَيِّقٌ ؛ لِأَنَّ الضَّائِقَ عَارِضٌ، وَالضَّيِّقَ أَلْزَمُ مِنْهُ، وَالضِّيقُ مُسْتَعْمَلٌ مَجَازًا فِي الْغَمِّ وَالْأَسَفِ، كَمَا اسْتُعْمِلَ ضِدُّهُ وَهُوَ الِانْشِرَاحُ فِي الْفَرَحِ وَالْمَسَرَّةِ ، ﴿أَنْ يَقُولُوا﴾ أَيْ: لِأَنْ يَقُولُوا ﴿لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ﴾ يُنْفِقُهُ ﴿أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ﴾ يُصَدِّقُهُ، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ﴾ إِنَّمَا عَلَيْكَ أَنْ تُنْذِرَهُمْ، لَا بِأَنْ تَأْتِيَهُمْ بِمَا يَقْتَرِحُونَهُ مِنَ الْآيَاتِ ﴿وَاللهُ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ أي حافظ وشهيد.

[١٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ بَلْ يَقُولُونَ اخْتَلَقَهُ، ﴿قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ﴾ فَإِنْ قِيلَ: قَدْ قَالَ فِي سُورَةِ يُونُسَ: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾ وَقَدْ عَجَزُوا عَنْهُ فَكَيْفَ قَالَ: ﴿فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ﴾ فَهُوَ كَرَجُلٍ يَقُولُ لِآخَرَ: أَعْطِنِي دِرْهَمًا فَيَعْجَزُ فَيَقُولُ: أَعْطِنِي عَشَرَةً دراهم؟ الْجَوَابُ: قَدْ قِيلَ سُورَةُ هُودٍ

نَزَلَتْ أَوَّلًا، وَأَنْكَرَ الْمُبَرِّدُ هَذَا ، وَقَالَ بَلْ نَزَلَتْ سُورَةُ يُونُسَ أَوَّلًا، وَقَالَ مَعْنَىٰ قَوْلِهِ فِي سُورَةِ يُونُسَ: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾ أي: مثله في الخير عَنِ الْغَيْبِ وَالْأَحْكَامِ وَالْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ فَعَجَزُوا فَقَالَ لَهُمْ فِي سُورَةِ هُودٍ: إِنْ عَجَزْتُمْ عَنِ الْإِتْيَانِ بِسُورَةٍ مِثْلِهُ فِي الْأَخْبَارِ وَالْأَحْكَامِ وَالْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مِنْ غَيْرِ خَبَرٍ وَلَا وَعْدٍ وَلَا وَعِيدٍ وَإِنَّمَا هِيَ مُجَرَّدُ الْبَلَاغَةِ ﴿وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ﴾ وَاسْتَعِينُوا بِمَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنَ الكهنة والأعوان ، ﴿مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

[١٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ﴾ يَا أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ، وَقِيلَ: لَفْظُهُ جَمْعٌ، وَالْمُرَادُ بِهِ الرَّسُولُ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وحده، وقيل: لم يستجيبوا لكم فِي الْمُعَارَضَةِ وَلَمْ تَتَهَيَّأْ لَهُمْ فَقَدْ قَامَتْ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةُ، إِذْ هُمُ اللُّسْنُ الْبُلَغَاءُ، وَأَصْحَابُ الْأَلْسُنِ الْفُصَحَاءُ. ﴿فَاعْلَمُوا﴾ قِيلَ: هَذَا خِطَابٌ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ، وَقِيلَ: مَعَ الْمُشْرِكِينَ، ﴿أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللهِ﴾ يَعْنِي: الْقُرْآنَ، وَقِيلَ: أَنْزَلَهُ، وَفِيهِ عِلْمُهُ، ﴿وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أَيْ: فَاعْلَمُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ لَفْظُهُ اسْتِفْهَامٌ وَمَعْنَاهُ أَمْرٌ، أَيْ: أَسْلِمُوا، قال القرطبي : وَالْمَعْنَىٰ: فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِبْ لَكُمْ مَنْ تَدْعُونَهُ إِلَىٰ الْمُعَاوَنَةِ، وَلَا تَهَيَّأَتْ لَكُمُ الْمُعَارَضَة ﴿ فَاعْلَمُوا أَنَّما أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللهِ﴾ ، وَقِيلَ: الضَّمِيرُ فِي (لَكُمْ) لِلنَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ، وَفِي (فَاعْلَمُوا) للمشركين ، وقال ابن كثير : أي فإن لم يأتوا بمعارضة ما دعوتموهم إليه، فاعلموا أنهم عاجزون عن ذلك، وأن هذا الكلام

منزَّلٌ من عند الله، متضمِّنٌ عِلمَهُ وأمرَه ونَهْيَه، ﴿وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾.

[١٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ أَيْ: مَنْ كَانَ يُرِيدُ بِعَمَلِهِ الحياة الدنيا ، قِيلَ: الْآيَةُ عَامَّةٌ فِي كُلِّ مَنْ يَنْوِي بِعَمَلِهِ غَيْرَ اللهِ تَعَالَىٰ، كَانَ معه أصل إيمان أو لم يكن، وَقَالَ مَيْمُونُ بْنُ مِهْرَانَ: لَيْسَ أَحَدٌ يَعْمَلُ حَسَنَةً إِلَّا وُفِّيَ ثَوَابَهَا، فَإِنْ كَانَ مُسْلِمًا مُخْلِصًا وُفِّيَ فِي الدُّنْيَا والآخرة، وإن كان كافرا وفي الدُّنْيَا. قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: مَعْنَىٰ هَذِهِ الْآيَةِ قَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: « **إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ** » ، وَتَدُلُّكَ هَذِهِ الْآيَةُ عَلَىٰ أَنَّ مَنْ صَامَ فِي رَمَضَانَ لَا عَنْ رَمَضَانَ لَا يَقَعُ عَنْ رَمَضَانَ، وَتَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ مَنْ تَوَضَّأَ لِلتَّبَرُّدِ وَالتَّنَظُّفِ لَا يَقَعُ قُرْبَةً عَنْ جِهَةِ الصَّلَاةِ، وَهَكَذَا كُلُّ مَا كَانَ فِي مَعْنَاهُ ، ﴿وَزِينَتَهَا﴾ نَزَلَتْ فِي كُلِّ مَنْ عَمِلَ عَمَلًا يُرِيدُ بِهِ غَيْرَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ ، و مِنْ مَعَانِي الْحَيَاةِ وَزِينَتِهَا وَهُوَ تَرَفُ الْعَيْشِ وَزِينَةُ اللِّبَاسِ، خِلَافًا لِمَا يَقْتَضِيه إِعْرَاضُ الرَّسُولِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ كَثِيرٍ مِنْ ذَلِكَ التَّرَفِ وَتِلْكَ الزِّينَةِ.﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا﴾ أَيْ: نُوفِّ لَهُمْ أُجُورَ أَعْمَالِهِمْ فِي الدُّنْيَا بِسَعَةِ الرِّزْقِ وَدَفْعِ الْمَكَارِهِ وَمَا أَشْبَهَهَا ، وَالتَّوْفِيَةُ: إِعْطَاءُ الشَّيْءِ وَافِيًا، أَيْ كَامِلًا غَيْرَ مَنْقُوصٍ، أَيْ نَجْعَلُ أَعْمَالَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَافِيَةً﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ أَيْ: فِي الدُّنْيَا لَا يُنْقَصُ حَظُّهُمْ، والْبَخْسُ هُوَ الْحَظُّ مِنَ الشَّيْءِ وَالنَّقْصُ مِنْهُ عَلَىٰ مَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ عَلَيْهِ ظُلْمًا.

[١٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ﴾ إِشَارَةٌ إِلَىٰ التَّخْلِيدِ، وَالْمُؤْمِنُ لَا يُخَلَّدُ، في النار ﴿وَبَاطِلٌ﴾ أَيْ وَبَاطِلٌ عَمَلُهُ، ﴿مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ اختلفوا في المعنىٰ بهذه الآية، فقال مجاهد: أَهْلُ الرِّيَاءِ، وجاء في الحديث أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ الشِّرْكَ الْأَصْغَرَ**، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ وَمَا الشِّرْكُ الْأَصْغَرُ؟ قَالَ: **الرياء**»(١)، وقيل: هَذَا فِي الْكُفَّارِ، وَأَمَّا الْمُؤْمِنُ فَيُرِيدُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ، وَإِرَادَتُهُ الْآخِرَةَ غَالِبَةٌ فَيُجَازَىٰ بِحَسَنَاتِهِ فِي الدُّنْيَا ويثاب عليها في الآخرة.

[١٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ بيان، أَيْ أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ فِي اتِّبَاعِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَعَهُ مِنَ الْفَضْلِ مَا يَتَبَيَّنُ بِهِ كَغَيْرِهِ مِمَّنْ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا؟! ﴿مِنْ رَبِّهِ﴾ قِيلَ: فِي الْآيَةِ حَذْفٌ وَمَعْنَاهُ: أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا، أَوْ مَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ هُوَ فِي الضَّلَالَةِ وَالْجَهَالَةِ، وَالْمُرَادُ بِالَّذِي هُوَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ﴾ أي: يتبعه من يشهد له بِصِدْقِهِ، وَاخْتَلَفُوا فِي هَذَا الشَّاهِدِ، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَأَكْثَرُ أَهْلِ التَّفْسِيرِ: إِنَّهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَقَالَ الْحُسَيْنُ بْنُ الْفَضْلِ: هُوَ الْقُرْآنُ وَنَظْمُهُ وَإِعْجَازُهُ، وَقِيلَ: شَاهِدٌ مِنْهُ هُوَ الْإِنْجِيلُ. قال محمد بن علي بن الْحَنَفِيَّةِ: قُلْتُ لِأَبِي أَنْتَ الشَّاهِدُ؟ فَقَالَ: وَدِدْتُ

---

(١) أحمد (٢٣٦٣٠).

أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ، وَلَكِنَّهُ لِسَانِ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ﴿وَمِنْ قَبْلِهِ﴾ أَيْ: وَمِنْ قَبْلِ مَجِيءِ مُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَقِيلَ: مِنْ قَبْلِ نُزُولِ الْقُرْآنِ. ﴿كِتَابُ مُوسَىٰ﴾ أَيْ: كَانَ كِتَابُ مُوسَىٰ، وَالْمَعْنَىٰ وَيَتْلُوهُ مِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ، لِأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَوْصُوفٌ فِي كِتَابِ مُوسَىٰ" يَجِدُونَهُ مَكْتُوبـًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْراةِ وَالْإِنْجِيلِ ﴿إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ لِمَنِ اتَّبَعَهَا، يَعْنِي التَّوْرَاةَ، وَهِيَ مُصَدِّقَةٌ لِلْقُرْآنِ شَاهِدَةٌ لِلنَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ﴿أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ يَعْنِي أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَقِيلَ: أَرَادَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ﴾ أَيْ: بِمُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وَقِيلَ: بِالْقُرْآنِ، ﴿مِنَ الْأَحْزَابِ﴾ من كفار الأديان كلها، ﴿فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ ، أَيْ هُوَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ مِنْ حَدِيثِ أَبِي يُونُسَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:" وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٌّ وَلَا نَصْرَانِيٌّ ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ، قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ﴾ أَيْ فِي شَكٍّ مِنْهُ، ﴿إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾أَيِ الْقُرْآنُ مِنَ اللهِ، قَالَهُ مُقَاتِلٌ. وَقَالَ الْكَلْبِيُّ: الْمَعْنَىٰ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ فِي أَنَّ الْكَافِرَ فِي النَّارِ ﴿ إِنَّهُ الْحَقُّ﴾ أَيِ الْقَوْلُ الْحَقُّ الْكَائِنُ، وَالْخِطَابُ لِلنَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْمُرَادُ جميع المكلفين، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ .

[١٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَىٰ اللهِ كَذِبًا﴾ أَيْ لَا أَحَدَ أَظْلَمُ مِنْهُمْ لِأَنْفُسِهِمْ لِأَنَّهُمُ افْتَرَوْا عَلَىٰ اللهِ كَذِبًا، فَأَضَافُوا كَلَامَهُ إِلَىٰ غَيْرِهِ، وَزَعَمُوا أَنَّ

لَهُ شَرِيكًا وَوَلَدًا، وَقَالُوا لِلْأَصْنَامِ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ ، ﴿أُولَئِكَ﴾ يَعْنِي: الْكَاذِبِينَ وَالْمُكَذِّبِينَ، ﴿يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ فَيَسْأَلُهُمْ عَنْ أَعْمَالِهِمْ، ﴿وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ﴾ يَعْنِي: الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ كَانُوا يَحْفَظُونَ أَعْمَالَهُمْ، قَالَهُ مُجَاهِدٌ، وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: إِنَّهُمُ الْأَنْبِيَاءُ وَالرُّسُلُ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَهُوَ قَوْلُ الضَّحَّاكِ، وَقَالَ قَتَادَةُ: الخلائق كلهم، قال ابن حيان : وَالْأَشْهَادُ: جَمْعُ شَاهِدٍ، كَصَاحِبٍ وَأَصْحَابٍ، أَوْ جَمْعُ شَهِيدٍ كَشَرِيفٍ وَأَشْرَافٍ، وَالْأَشْهَادُ الْمَلَائِكَةُ الَّذِينَ يَحْفَظُونَ عَلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِي الدُّنْيَا، أَوِ الْأَنْبِيَاءُ، أَوْ هما والمؤمنون، أَوْ مَا يَشْهَدُ عَلَيْهِمْ مِنْ أَعْضَائِهِمْ أَقْوَالٌ ، ﴿هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ وفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ مِنْ حَدِيثِ صَفْوَانَ بْنِ مُحْرِزٍ عَنِ ابْنِ عُمَرَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَفِيهِ قَالَ: « **وَأَمَّا الْكُفَّارُ وَالْمُنَافِقُونَ فَيُنَادَىٰ بِهِمْ عَلَىٰ رُءُوسِ الْخَلَائِقِ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ الله** »(١) ، ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللهِ عَلَىٰ الظَّالِمِينَ﴾ أَيْ بُعْدُهُ وَسَخَطُهُ وَإِبْعَادُهُ مِنْ رَحْمَتِهِ عَلَىٰ الذين وضعوا العبادة في غير موضعها.

[١٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ﴾ أَيْ هُمُ الَّذِينَ يَصُدُّونَ أَنْفُسَهُمْ وَغَيْرَهُمْ عَنِ الْإِيمَانِ وَالطَّاعَةِ ، ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أَيْ يَعْدِلُونَ بِالنَّاسِ عَنْهَا إِلَىٰ الْمَعَاصِي وَالشِّرْكِ ، ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ ما ورد عَنْ رَسُولِ

---

(١) البخاري (٤٦٨٥) ومسلم (٢٧٦٨) .

اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إِنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يُدْنِي الْمُؤْمِنَ، فَيَضَعُ عَلَيْهِ كَنَفَهُ وَيَسْتُرُهُ مِنَ النَّاسِ، وَيُقَرِّرُهُ بِذُنُوبِهِ، وَيَقُولُ لَهُ: أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ حَتَّىٰ إِذَا قَرَّرَهُ بِذُنُوبِهِ، وَرَأَىٰ فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ قَدْ هَلَكَ، قَالَ: فَإِنِّي قَدْ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَإِنِّي أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ، ثُمَّ يُعْطَىٰ كِتَابَ حَسَنَاتِهِ، وَأَمَّا الْكُفَّارُ وَالْمُنَافِقُونَ فَيَقُولُ**: ﴿الْأَشْهَادِ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَاَ لَعْنَةُ اللهِ عَلَىٰ الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ١٨]»(١) .

[٢٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ﴾ أَيْ فَائِتِينَ مِنْ عَذَابِ اللهِ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لَمْ يُعْجِزُونِي أَنْ آمُرَ الْأَرْضَ فَتَنْخَسِفَ بِهِمْ، ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ الْأَرْضُ: الدُّنْيَا، وَفَائِدَةُ ذِكْرِهِ أَنَّهُمْ لَا مَلْجَأَ لَهُمْ مِنَ اللهِ لَوْ أَرَادَ الِانْتِقَامَ مِنْهُمْ فَلَا يَجِدُونَ مَوْضِعًا مِنَ الْأَرْضِ يَسْتَعْصِمُونَ بِهِ. فَهَذَا نفي للملاجيء وَالْمَعَاقِلِ الَّتِي يَسْتَعْصِمُ فِيهَا الْهَارِبُ ﴿وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ يَعْنِي أَنْصَارًا وَأَعْوَانًا يَحْفَظُونَهُمْ مِنْ عذابنا، ﴿يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ﴾ أَيْ: يُزَادُ فِي عَذَابِهِمْ، قِيلَ: يُضَاعَفُ الْعَذَابُ عَلَيْهِمْ لِإِضْلَالِهِمُ الْغَيْرَ، واقتداء الأتباع بهم، ﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾ الهدىٰ، قَالَ قَتَادَةُ، صُمٌّ عَنْ سَمَاعِ الْحَقِّ فَلَا يَسْمَعُونَهُ، وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ الْهُدَىٰ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: أَخْبَرَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّهُ حَالَ بَيْنَ أَهْلِ الشِّرْكِ وَبَيْنَ طَاعَتِهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، أَمَّا فِي

---

(١) البخاري (٦٠٧٠) ومسلم (٢٧٦٨).

الدُّنْيَا قَالَ: ﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ﴾ وَهُوَ طَاعَتُهُ، وَفِي الْآخِرَةِ قَالَ: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ . خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ﴾، وقَالَ الْفَرَّاءُ: مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ، لِأَنَّ اللهَ أَضَلَّهُمْ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ ، وَقَالَ الزَّجَّاجُ: لِبُغْضِهِمُ النَّبِيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعَدَاوَتِهِمْ لَهُ لَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَسْمَعُوا مِنْهُ وَلَا يَفْقَهُوا عَنْهُ.

[٢١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾ أي خسروا أنفسهم لأنهم أدخلوا نَارًا حَامِيَةً، فَهُمْ مُعَذَّبُونَ فِيهَا لاَ يُفَتَّرُ عَنْهُمْ مِّنْ عَذَابِهَا، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيراً﴾ [الإسراء ٩٧] ، قَوْلُهُ ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ﴾ أَيْ ذَهَبَ عَنْهُمْ، ﴿مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾، مِنْ دُونِ اللهِ مِنَ الْأَنْدَادِ وَالْأَصْنَامِ فَلَمْ تُجْدِ عَنْهُمْ شَيْئًا بَلْ ضَرَّتْهُمْ كُلَّ الضَّرَرِ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَىٰ خُسْرِهِمْ وَدَمَارِهِمْ.

[٢٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَا جَرَمَ﴾ أَيْ: حَقًّا، وَقِيلَ: بَلَىٰ، وَقَالَ الْفَرَّاءُ: لَا مَحَالَةَ، و (لَا جَرَمَ) كَلِمَةُ جَزْمٍ وَيَقِينٍ جَرَتْ مَجْرَىٰ الْمَثَلِ والمعنىٰ : أي: حقًا ولا محالة أن هؤلاء يوم القيامة هم أصحاب الخسران المبين، وأهل التجارة الفاشلة الخاسرة، إذ ضيّعوا الآخرة بدنيا وشهوات فانية ،﴿أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ﴾ يَعْنِي: مِنْ غَيْرِهِمْ، وَإِنْ كَانَ الْكُلُّ فِي الْخَسَارِ، وَإِنَّمَا كَانُوا أَخْسَرِينَ، أَيْ شَدِيدِي الْخَسَارَةِ لِأَنَّهُمْ قَدْ اجْتَمَعَ لَهُمْ مِنْ أَسْبَابِ الشَّقَاءِ وَالْعَذَابِ مَا افْتَرَقَ بَيْنَ الْأُمَمِ الضَّالَّةِ.

[٢٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا﴾ قال ابن عباس: خافوا ، وقال قَتَادَةُ: أَنَابُوا ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: اطْمَأَنُّوا ، قال الْحَسَنُ البصري: الْإِخْبَاتُ الْخُشُوعُ لِلْمَخَافَةِ الثَّابِتَةِ فِي الْقَلْبِ، وَأَصْلُ الْإِخْبَاتِ الِاسْتِوَاءُ، مِنَ الْخَبْتِ وَهُوَ الْأَرْضُ الْمُسْتَوِيَةُ الْوَاسِعَةُ: فَالْإِخْبَاتُ الْخُشُوعُ وَالِاطْمِئْنَانُ، أَوِ الْإِنَابَةُ إِلَىٰ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ الْمُسْتَمِرَّةُ ذَلِكَ عَلَىٰ اسْتِوَاءٍ، ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ .

[٢٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ﴾ الْمُؤْمِنِ وَالْكَافِرِ، وَالْفَرِيقُ: الْجَمَاعَةُ الَّتِي تُفَارِقُ، أَيْ يُخَالِفُ حَالُهَا حَالَ جَمَاعَةٍ أُخْرَىٰ فِي عَمَلٍ أَوْ نِحْلَةٍ ﴿كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ قَالَ الْفَرَّاءُ، لَمْ يَقُلْ هَلْ يَسْتَوُونَ؛ لِأَنَّ الْأَعْمَىٰ وَالْأَصَمَّ فِي حَيِّزٍ كَأَنَّهُمَا وَاحِدٌ؛ لِأَنَّهُمَا مِنْ وَصْفِ الْكَافِرِ، وَالْبَصِيرَ وَالسَّمِيعَ فِي حَيِّزٍ كَأَنَّهُمَا وَاحِدٌ؛ لِأَنَّهُمَا مِنْ وصف المؤمن، قَالَ الضَّحَّاكُ: الْأَعْمَىٰ وَالْأَصَمُّ مَثَلٌ لِلْكَافِرِ، وَالسَّمِيعُ وَالْبَصِيرُ مَثَلٌ لِلْمُؤْمِنِ، ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أَيْ: تَتَّعِظُونَ.

[٢٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾ ذَكَرَ سُبْحَانَهُ قَصَصَ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ لِلنَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَنْبِيهًا لَهُ عَلَىٰ مُلَازَمَةِ الصَّبْرِ عَلَىٰ أَذَىٰ الْكُفَّارِ إِلَىٰ أَنْ يَكْفِيَهُ الله أمرهم، وَفِي ذَلِكَ تَسْلِيَةٌ لِلنَّبِيءِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَا لَاقَاهُ الرُّسُلُ عَلَيْهِمُ السَّلَام قَبْلَهُ مِنْ أَقْوَامِهِمْ، ﴿إِنِّي﴾ أَيْ فَقَالَ: إِنِّي، لِأَنَّ فِي الْإِرْسَالِ مَعْنَىٰ الْقَوْلِ ، ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ وَالنَّذِيرُ الْمُحَذِّرُ مِنْ شَيْءٍ

يَضُرُّ، وَأَصْلُهُ الَّذِي يُخْبِرُ الْقَوْمَ بِقُدُومِ عَدُوِّهِمْ، وَمِنْهُ الْمَثَلُ «**أَنَا النَّذِيرُ الْعُرْيَانُ**»(١)، يُقَالُ أَنْذَرَ نِذَارَةً بِكَسْرِ النُّونِ مِثْلَ بِشَارَةٍ فَهُوَ مُنْذِرٌ وَنَذِيرٌ، والْغَرَضُ مِنْ إِتْبَاعِ «النَّذِيرِ» بِوَصْفِ «الْمُبِينِ» التَّعْرِيضُ بِالَّذِينَ لَمْ يَنْصَاعُوا لِنِذَارَتِهِ، وَلَمْ يَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ مِنْ شَرٍّ مَا حَذَّرَهُمْ مِنْهُ، وَذَلِكَ يَقْطَعُ عُذْرَهُمْ.

[٢٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللهَ﴾ أَيِ اتْرُكُوا الْأَصْنَامَ فَلَا تَعْبُدُوهَا، وَأَطِيعُوا اللهَ وَحْدَهُ ﴿إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ أي: مؤلم.

[٢٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾ والملأ هم الأشراف والرؤساء، ﴿مَا نَرَاكَ﴾ يا نوح، ﴿إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا﴾ آدميًّا، ﴿وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾ وَالرَّذِيلُ: الْمُحْتَقَرُ، وَأَرَادُوا أَنَّهُمْ مِنْ لَفِيفِ الْقَوْمِ غَيْرُ سَادَةٍ وَلَا أَثْرِيَاءَ، وَكَانَ أَتْبَاعُ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ ضُعَفَاءِ الْقَوْمِ وَلَكِنَّهُمْ مِنْ أَزْكِيَاءِ النُّفُوسِ مِمَّنْ سَبَقَ لَهُمُ الْهُدَىٰ، كَانَ هَذَا جَهْلًا مِنْهُمْ، لِأَنَّهُمْ عَابُوا نَبِيَّ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَا لَا عَيْبَ فِيهِ، لِأَنَّ الْأَنْبِيَاءَ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ، إِنَّمَا عَلَيْهِمْ أَنْ يَأْتُوا بِالْبَرَاهِينِ وَالْآيَاتِ، وَلَيْسَ عَلَيْهِمْ تَغْيِيرُ الصُّوَرِ وَالْهَيْئَاتِ، وَهُمْ يُرْسَلُونَ إِلَىٰ النَّاسِ جَمِيعًا، فَإِذَا أَسْلَمَ مِنْهُمُ الدَّنِيءُ لَمْ يَلْحَقْهُمْ مِنْ ذَلِكَ نُقْصَانٌ، لِأَنَّ عَلَيْهِمْ أَنْ يَقْبَلُوا إِسْلَامَ كُلِّ مَنْ أَسْلَمَ مِنْهُمْ. قُلْتُ: الْأَرَاذِلُ هُنَا هُمُ الْفُقَرَاءُ وَالضُّعَفَاءُ، كَمَا قَالَ هِرَقْلُ لِأَبِي سُفْيَانَ: أَشْرَافُ النَّاسِ اتَّبَعُوهُ أَمْ

---

(١) البخاري (٦٤٨٢) ومسلم (٢٢٨٣).

ضُعَفَاؤُهُمْ؟ فَقَالَ: بَلْ ضُعَفَاؤُهُمْ، فَقَالَ: هُمْ أَتْبَاعُ الرُّسُلِ، قَالَ القرطبي: إِنَّمَا كَانَ ذَلِكَ لِاسْتِيلَاءِ الرِّيَاسَةِ عَلَىٰ الْأَشْرَافِ، وَصُعُوبَةِ الِانْفِكَاكِ عَنْهَا، وَالْأَنَفَةِ مِنَ الِانْقِيَادِ لِلْغَيْرِ، وَالْفَقِيرُ خَلِيٌّ عَنْ تِلْكَ الْمَوَانِعِ، فَهُوَ سَرِيعٌ إِلَىٰ الْإِجَابَةِ وَالِانْقِيَادِ. وَهَذَا غَالِبُ أَحْوَالِ أَهْلِ الدُّنْيَا، ﴿بَادِيَ الرَّأْيِ﴾ أَيْ ظَاهِرَ الرَّأْيِ مِنْ قَوْلِهِمْ: بَدَا الشَّيْءُ إِذَا ظَهَرَ مَعْنَاهُ اتَّبَعُوكَ ظَاهِرًا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَتَدَبَّرُوا وَيَتَفَكَّرُوا بَاطِنًا، قَالَ مُجَاهِدٌ: رَأْيَ الْعَيْنِ، ﴿وَما نَرىٰ لَكُمْ عَلَيْنا مِنْ فَضْلٍ﴾ أَيْ فِي اتِّبَاعِهِ، وَهَذَا جَحْدٌ مِنْهُمْ لِنُبُوَّتِهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. ﴿بَلْ نَظُنُّكُمْ كاذِبِينَ﴾ الْخِطَابُ لنوح ومن آمن معه.

[٢٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ﴾ نُوحٌ ﴿يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ بَيَانٍ، ﴿مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً﴾ أَيْ: هُدًىٰ وَمَعْرِفَةً، وَقِيلَ: الْهِدَايَةُ إِلَىٰ اللهِ بِالْبَرَاهِينِ. وَقِيلَ: بِالْإِيمَانِ وَالْإِسْلَامِ ، ﴿مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ﴾ أَيْ: شبهت ولبست عليكم، أو عُمِّيَتْ عَلَيْكُمُ الرِّسَالَةُ وَالْهِدَايَةُ فَلَمْ تَفْهَمُوهَا، يُقَالُ: عَمِيتُ عَنْ كَذَا، وَعَمِيَ عَلَيَّ كَذَا أَيْ لَمْ أَفْهَمْهُ، وَالْمَعْنَىٰ: فَعَمِيَتِ الرَّحْمَةُ، فَقِيلَ: هُوَ مَقْلُوبٌ، لِأَنَّ الرَّحْمَةَ لَا تَعْمَىٰ إِنَّمَا يُعْمَىٰ عَنْهَا، فَهُوَ كَقَوْلِكَ: أَدْخَلْتُ فِي الْقَلَنْسُوَةِ رَأْسِي، وَدَخَلَ الْخُفُّ فِي رِجْلِي ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا﴾ أَيْ: أَنُلْزِمُكُمُ الْبَيِّنَةَ وَالرَّحْمَةَ، وَالِاسْتِفْهَامُ فِي أَنُلْزِمُكُمُوهَا إِنْكَارِيٌّ، أَيْ لَا نُكْرِهُكُمْ عَلَىٰ قَبُولِهَا، فَعُلِّقَ الْإِلْزَامُ بِضَمِيرِ الْبَيِّنَةِ أَوِ الرَّحْمَةِ ، قال ابن حيان : يَعْنِي: أَنُكْرِهُكُمْ عَلَىٰ قَبُولِهَا وَنَقْسِرُكُمْ عَلَىٰ الِاهْتِدَاءِ بِهَا وَأَنْتُمْ تَكْرَهُونَهَا وَلَا تَخْتَارُونَهَا، وَلَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ، ﴿وَأَنْتُمْ

لَهَا كَارِهُونَ﴾ أَيْ لَا يَصِحُّ قَبُولُكُمْ لَهَا مَعَ الْكَرَاهَةِ عَلَيْهَا. قَالَ قَتَادَةُ: وَاللهِ لَوِ اسْتَطَاعَ نَبِيُّ اللهِ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَأَلْزَمَهَا قَوْمَهُ وَلَكِنَّهُ لم يملك ذلك.

[٢٩] قَوْلُهُ تعالىٰ: ﴿وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا﴾ أَيْ: عَلَىٰ الْوَحْيِ وَتَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ، كِنَايَةً عَنْ غَيْرِ مَذْكُورٍ، ﴿إِنْ أَجْرِيَ﴾ مَا ثَوَابِي، ﴿إِلَّا عَلَىٰ اللهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ سَأَلُوهُ أَنْ يَطْرُدَ الْأَرَاذِلَ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ، كَمَا سَأَلَتْ قُرَيْشٌ النَّبِيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَطْرُدَ الْمَوَالِيَ وَالْفُقَرَاءَ، قال ابن جريج: قالوا له: يا نوح، إن أحببت أن نتبعك فاطردهم، وإلا فلن نرضىٰ أن نكون نحن وهم في الأمر سواء، عَنْ سَعْدٍ، قَالَ: «كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سِتَّةَ نَفَرٍ، فَقَالَ الْمُشْرِكُونَ لِلنَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: اطْرُدْ هَؤُلَاءِ لَا يَجْتَرِئُونَ عَلَيْنَا، قَالَ وَكُنْتُ أَنَا وَابْنُ مَسْعُودٍ، وَرَجُلٌ مِنْ هُذَيْلٍ، وَبِلَالٌ، وَرَجُلَانِ لَسْتُ أُسَمِّيهِمَا، فَوَقَعَ فِي نَفْسِ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَقَعَ فَحَدَّثَ نَفْسَهُ فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾»[١]، ﴿أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ﴾ أَيْ: صَائِرُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمْ فِي الْمَعَادِ فَيَجْزِي مَنْ طَرَدَهُمْ، ﴿وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾.

---

(١) مسلم (٢٤١٣).

[٣٠] قَوْلُهُ تعالىٰ: ﴿وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللهِ﴾ مَنْ يَمْنَعُنِي مِنْ عَذَابِ اللهِ، ﴿إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ تَتَّعِظُونَ، أَيْ يُنْجِينِي مِنَ اللهِ، أَيْ مِنْ عِقَابِهِ، لِأَنَّ طَرْدَهُمْ إِهَانَةٌ تُؤْذِيهِمْ بِلَا مُوجِبٍ مُعْتَبَرٍ عِنْدَ اللهِ، وَاللهُ لَا يُحِبُّ إِهَانَةَ أَوْلِيَائِهِ.

[٣١] قَوْلُهُ تعالىٰ: ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللهِ﴾ فَآتِي مِنْهَا مَا تَطْلُبُونَ، ﴿وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ فَأُخْبِرُكُمْ بِمَا تُرِيدُونَ، وَقِيلَ: إِنَّهُمْ لَمَّا قَالُوا لِنُوحٍ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا بِكَ إِنَّمَا اتَّبَعُوكَ فِي ظَاهِرِ مَا تَرىٰ مِنْهُمْ، قَالَ نوح مجيبًا لَهُمْ: لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ غُيُوبِ اللهِ الَّتِي يَعْلَمُ مِنْهَا مَا يُضْمِرُ النَّاسُ، وَلَا أعلم الغيب فأعلم ما يسرونه فِي نُفُوسِهِمْ، فَسَبِيلِي قَبُولُ مَا ظَهَرَ مِنْ إِيمَانِهِمْ، ﴿وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾ هذا جواب قولهم: ﴿مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا﴾ أَيْ لَا أَقُولُ إِنَّ مَنْزِلَتِي عِنْدَ النَّاسِ مَنْزِلَةُ الْمَلَائِكَةِ، ﴿وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ﴾ أي: تحتقرهم وتستصغرهم أَعْيُنُكُمْ، يَعْنِي الْمُؤْمِنِينَ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ قَالُوا: هُمْ أَرَاذِلُنَا، وَالْأَصْلُ تَزْدَرِيهِمْ حُذِفَتِ الْهَاءُ وَالْمِيمُ لِطُولِ الِاسْمِ، يُقَالُ: أَزْرَيْتُ عَلَيْهِ إِذَا عِبْتُهُ. وَزَرَيْتُ عَلَيْهِ إِذَا حَقَّرْتُهُ. ﴿لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللهُ خَيْرًا﴾ أَيْ لَا أَقُولُ إِنَّ مَنْزِلَتِي عِنْدَ النَّاسِ مَنْزِلَةُ الْمَلَائِكَةِ.قال ابن كثير : يُخْبِرُهُمْ أَنَّهُ رَسُولٌ مِّنَ الله يدعو إلىٰ عبادة الله وحده، ولا يسألهم علىٰ ذلك أجراً، ثم هو يدعو الشريف والوضيع، فَمَنِ اسْتَجَابَ لَهُ فَقَدْ نَجَا، وَيُخْبِرُهُمْ أَنَّهُ لا قدرة له عَلَىٰ التَّصَرُّفِ فِي خَزَائِنِ اللهِ، وَلَا يَعْلَمُ مِنَ الْغَيْبِ إِلَّا مَا أَطْلَعَهُ اللهُ عَلَيْهِ، وليس هو بملك من الملائكة، بل هو بشرٌ مُرْسَلٌ مُؤَيَّدٌ بِالْمُعْجِزَاتِ، وَلَا أَقُولُ عَنْ هؤلاء الذين تحتقرونهم

وتزدرونهم، إنهم ليس لهم عند الله ثواب علىٰ أعمالهم ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ مِنَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ مِنِّي، ﴿إِنِّي إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ لَوْ قُلْتُ هَذَا.

[٣٢] قَوْلُهُ تعالىٰ: ﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا﴾ خَاصَمْتَنَا، فَأَكْثَرْتَ خُصُومَتَنَا وَبَالَغْتَ فِيهَا، وَالْجَدَلُ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ المبالغة في الخصومة، مشتق من الجدل وَهُوَ شِدَّةُ الفتل للحبل وغيره ﴿فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ مِنَ الْعَذَابِ ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ قال القرطبي : وَالْجَدَلُ فِي الدِّينِ مَحْمُودٌ، وَلِهَذَا جَادَلَ نُوحٌ وَالْأَنْبِيَاءُ قَوْمَهُمْ حَتَّىٰ يَظْهَرَ الْحَقُّ، فَمَنْ قَبِلَهُ أَنْجَحَ وَأَفْلَحَ، وَمَنْ رَدَّهُ خَابَ وَخَسِرَ. وَأَمَّا الْجِدَالُ لِغَيْرِ الْحَقِّ حَتَّىٰ يَظْهَرَ الْبَاطِلُ فِي صُورَةِ الْحَقِّ فَمَذْمُومٌ، وَصَاحِبُهُ فِي الدَّارَيْنِ مَلُومٌ.

[٣٣] قَوْلُهُ تعالىٰ: ﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ﴾ يَعْنِي: بِالْعَذَابِ، أَيْ إِنْ أَرَادَ إِهْلَاكَكُمْ عَذَّبَكُمْ، ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ أَيْ بِفَائِتِينَ، وَقِيلَ: بِغَالِبِينَ بِكَثْرَتِكُمْ، لِأَنَّهُمْ أُعْجِبُوا بِذَلِكَ، كَانُوا مَلَئُوا الْأَرْضَ سَهْلًا وَجَبَلًا.

[٣٤] قَوْلُهُ تعالىٰ: ﴿وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي﴾ أَيْ إِبْلَاغِي وَاجْتِهَادِي فِي إِيمَانِكُمْ. ﴿إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ﴾ أَيْ لِأَنَّكُمْ لَا تَقْبَلُونَ نُصْحًا، وَالنُّصْحُ: قَوْلٌ أَوْ عَمَلٌ يُرِيدُ صَاحِبُهُ صَلَاحَ الْمَعْمُولِ لِأَجْلِهِ ، وفي الحديث عَنْ تَمِيمٍ الدَّارِيِّ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: « **إِنَّمَا الدِّينُ النَّصِيحَةُ إِنَّمَا الدِّينُ النَّصِيحَة،**

قِيلَ: لِمَنْ؟ قَالَ: **لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ**»[1] ، قَوْلُهُ: ﴿إِنْ كَانَ اللهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ﴾ يضلكم، مِنْ قَوْلِهِ: غَوَىٰ الرَّجُلُ يَغْوِي وَهُوَ الضَّلَالُ، وَالْإِغْوَاءُ: جَعْلُ الشَّخْصِ ذَا غِوَايَةٍ، وَهِيَ الضَّلَالُ عَنِ الْحَقِّ وَالرُّشْدِ، قَوْلُهُ: ﴿هُوَ رَبُّكُمْ﴾ لَهُ الْحُكْمُ وَالْأَمْرُ ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أَيْ هو مالك أزمة الأمور، المتصرف الحاكم العادل الذي لا يجوز، لَهُ الْخَلْقُ وَلَهُ الْأَمْرُ وَهُوَ الْمُبْدِئُ الْمُعِيدُ.

[٣٤] قَوْلُهُ تعالىٰ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنه: يَعْنِي نُوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَقَالَ مُقَاتِلٌ: يَعْنِي مُحَمَّدًا صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَيِ اخْتَلَقَ الْقُرْآنَ مِنْ قِبَلِ نَفْسِهِ، وَمَا أَخْبَرَ بِهِ عَنْ نُوحٍ وَقَوْمِهِ ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هُوَ مِنْ مُحَاوَرَةِ نُوحٍ لِقَوْمِهِ وَهُوَ أَظْهَرُ، لِأَنَّهُ لَيْسَ قَبْلَهُ وَلَا بَعْدَهُ إِلَّا ذِكْرُ نُوحٍ وَقَوْمِهِ، فَالْخِطَابُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ ﴿وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ﴾ أَيْ لَيْسَ ذَلِكَ مُفْتَعَلًا وَلَا مُفْتَرَىٰ، لِأَنِّي أَعْلَمُ مَا عِنْدَ اللهِ مِنَ الْعُقُوبَةِ لِمَنْ كَذَبَ عليه.

[٣٦] قَوْلُهُ تعالىٰ: ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ﴾ فَلَا تَحْزَنْ، ﴿بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ فإني مهلكهم، ولا منقذ منهما، وَقِيلَ: إِنَّ رَجُلًا مِنْ قَوْمِ نُوحٍ حَمَلَ ابْنَهُ عَلَىٰ كَتِفِهِ، فَلَمَّا رَأَىٰ الصَّبِيُّ نُوحًا قَالَ لِأَبِيهِ: اعْطِنِي حَجَرًا، فَأَعْطَاهُ حَجَرًا، وَرَمَىٰ بِهِ نُوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ فَأَدْمَاهُ، فَأَوْحَىٰ

---

(١) أحمد (١٦٩٤١).

الله تعالىٰ إليه : ﴿أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلا تَبْتَئِسْ بِما كانُوا يَفْعَلُونَ﴾ أَيْ فَلَا تَغْتَمَّ بِهَلَاكِهِمْ حَتَّىٰ تَكُونَ بَائِسًا، أَيْ حَزِينًا، وَالْبُؤْسُ الْحُزْنُ، يُقَالُ: ابْتَأَسَ الرَّجُلُ إذا بلغه شي يَكْرَهُهُ. وَالِابْتِئَاسُ حُزْنٌ فِي اسْتِكَانَةٍ، فحينئذ دعا نوح عليهم: فقال ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَىٰ الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ .

[٣٧] قَوْلُهُ تعالىٰ: ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنا وَوَحْيِنا﴾ أَيِ اعْمَلِ السَّفِينَةَ لِتَرْكَبَهَا أَنْتَ وَمَنْ آمَنَ مَعَكَ (بِأَعْيُنِنا) أَيْ بِمَرْأًىٰ مِنَّا وَحَيْثُ نَرَاكَ، وَقَالَ الرَّبِيعُ ابْنُ أَنَسٍ: بِحِفْظِنَا إِيَّاكَ حِفْظَ مَنْ يَرَاكَ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: (بِحِرَاسَتِنَا)، وَالْمَعْنَىٰ وَاحِدٌ، ﴿وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾ بِالطُّوفَانِ، قِيلَ مَعْنَاهُ لَا تُخَاطِبْنِي فِي إمهال الكفار، فإني حَكَمْتُ بِإِغْرَاقِهِمْ، وَقِيلَ: لَا تُخَاطِبْنِي فِي ابْنِكَ كَنْعَانَ، وَامْرَأَتِكَ وَاعِلَةَ؛ فإنهما هالكان مع القوم.

[٣٨] قَوْلُهُ تعالىٰ: ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ﴾ فَلَمَّا أَمَرَهُ اللهُ تَعَالَىٰ أَنْ يَصْنَعَ الْفُلْكَ أَقْبَلَ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَىٰ عَمَلِ الْفُلْكِ، وَلَهَا عَنْ قَوْمِهِ، وَجَعَلَ يَقْطَعُ الْخَشَبَ، وَيَضْرِبُ الْحَدِيدَ، وَيُهَيِّئُ عِدَّةَ الْفُلْكِ مِنَ الْقَارِ وَغَيْرِهِ، وَجَعَلَ قَوْمُهُ يَمُرُّونَ بِهِ -وَهُوَ فِي عَمَلِهِ- وَيَسْخَرُونَ مِنْهُ، وَيَقُولُونَ: يَا نُوحُ قَدْ صِرْتَ نَجَّارًا بَعْدَ النُّبُوَّةِ، قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ﴾، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا يَقُولُونَ: إِنَّ هَذَا الَّذِي يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ قَدْ صَارَ نَجَّارًا، وَرُوِيَ أَنَّهُمْ كَانُوا يَقُولُونَ لَهُ: يَا نُوحُ مَاذَا تَصْنَعُ؟ فَيَقُولُ أَصْنَعُ بَيْتًا يَمْشِي عَلَىٰ الْمَاءِ، فَيَضْحَكُونَ مِنْهُ، وَالسُّخْرِيَةُ: الِاسْتِهْزَاءُ، وَهُوَ تَعَجُّبٌ بِاحْتِقَارٍ وَاسْتِحْمَاقٍ ، ﴿قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا

فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ﴾ إِذَا عَايَنْتُمْ عَذَابَ اللهِ، ﴿كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ فَإِنْ قِيلَ: كَيْفَ تَجُوزُ السُّخْرِيَةُ مِنَ النَّبِيِّ؟ قِيلَ: هَذَا عَلَىٰ ازْدِوَاجِ الْكَلَامِ، يَعْنِي إِنْ تَسْتَجْهِلُونِي فَإِنِّي أَسْتَجْهِلُكُمْ إِذَا نَزَلَ الْعَذَابُ بِكُمْ، وَقِيلَ: مَعْنَاهُ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَسَتَرَوْنَ عَاقِبَةَ سُخْرِيَتِكُمْ، قال ابن عاشور: وَسُخْرِيَةُ نُوحٍ- عَلَيْهِ السَّلَامُ- وَالْمُؤْمِنِينَ، مِنَ الْكَافِرِينَ مِنْ سَفَهِ عُقُولِهِمْ وَجَهْلِهِمْ بِاللهِ وَصِفَاتِهِ.

[٣٩] قَوْلُهُ تعالىٰ: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ يهينه، وَالْخِزْيُ: الْإِهَانَةُ، ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ﴾ أَيْ يَجِبُ عَلَيْهِ وَيَنْزِلُ بِهِ، ﴿عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ أَيْ دَائِمٌ، يُرِيدُ عَذَابَ الْآخِرَةِ.

[٤٠] قَوْلُهُ تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ عذابنا، ﴿وَفَارَ التَّنُّورُ﴾ الْفَوَرَانُ: غَلَيَانُ الْقِدْرِ، وَيُطْلَقُ عَلَىٰ نَبْعِ الْمَاءِ بِشِدَّةٍ، تَشْبِيهًا بِفَوَرَانِ مَاءٍ فِي الْقِدْرِ إِذَا غَلِيَ، وَحَمَلُوهُ عَلَىٰ مَا جَاءَ فِي آيَاتٍ أُخْرَىٰ مِنْ قِصَّةِ نُوحٍ- عَلَيْهِ السَّلَامُ- مِثْلَ قَوْلِهِ: وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا اخْتَلَفُوا فِي التَّنُّورِ، قَالَ عِكْرِمَةُ وَالزُّهْرِيُّ: هُوَ وَجْهُ الْأَرْضِ، وَذَلِكَ أَنَّهُ قِيلَ لِنُوحٍ: إِذَا رَأَيْتَ الْمَاءَ فَارَ عَلَىٰ وَجْهِ الْأَرْضِ فَارْكَبِ السَّفِينَةَ، وَرُوِيَ عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: فَارَ التَّنُّورُ أَيْ: طَلَعَ الْفَجْرُ وَنُورُ الصُّبْحِ، وَقَالَ الْحَسَنُ وَمُجَاهِدٌ وَالشَّعْبِيُّ: إِنَّهُ التَّنُّورُ الَّذِي يُخْبَزُ فِيهِ، وَهُوَ قَوْلُ أَكْثَرِ الْمُفَسِّرِينَ، وَالْفَوَرَانُ: الْغَلَيَانُ، وقال ابن عاشور: وَالَّذِي يَظْهَرُ لِي أَنَّ قَوْلَهُ: وَفارَ التَّنُّورُ مَثَلٌ لِبُلُوغِ الشَّيْءِ إِلَىٰ أَقْصَىٰ مَا يُتَحَمَّلُ مِثْلُهُ، كَمَا يُقَالُ: بَلَغَ السَّيْلُ الزُّبَىٰ، وَامْتَلَأَ الصَّاعُ، وَفَاضَتِ الْكَأْسُ وَتَفَاقَمَ. وَالتَّنُّورُ: ضفة الْوَادِي، فَيَكُونُ

مِثْلَ طَمَا الْوَادِي مِنْ قَبِيلِ بَلَغَ السَّيْلُ الزُّبَىٰ، وَالْمَعْنَىٰ: بِأَنَّ نَفَاذَ أَمْرِنَا فِيهِمْ وَبَلَغُوا مِنْ طُولِ مُدَّةِ الْكُفْرِ مَبْلَغًا لَا يُغْتَفَرُ لَهُمْ بَعْدُ كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: فَلَمَّا آسَفُونا انْتَقَمْنا مِنْهُمْ ، وَالتَّنُّورُ: اسْمٌ لِمَوْقِدِ النَّارِ لِلْخُبْزِ ، قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا﴾ أَيْ: فِي السَّفِينَةِ، ﴿مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ الزَّوْجَانِ: كُلُّ اثْنَيْنِ لَا يَسْتَغْنِي أَحَدُهُمَا عَنِ الْآخَرِ، يُقَالُ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا زَوْجٌ، يُقَالُ: زَوْجُ خُفٍّ وَزَوْجُ نَعْلٍ، وَالْمُرَادُ بِالزَّوْجَيْنِ هنا: الذكر والأنثىٰ، ﴿وَأَهْلَكَ﴾ أَيْ: وَاحْمِلْ أَهْلَكَ، أَيْ: وَلَدَكَ وَعِيَالَكَ، وَأَهْلُ الرَّجُلِ قَرَابَتُهُ وَأَهْلُ بَيْتِهِ وَهُوَ اسْمُ جَمْعٍ لَا وَاحِدَ لَهُ، وَزَوْجُهُ أَوَّلُ مَنْ يُبَادَرُ مِنَ اللَّفْظِ، وَيُطْلَقُ لَفْظُ الْأَهْلِ عَلَىٰ امْرَأَةِ الرَّجُلِ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَمَّا قَضىٰ مُوسَىٰ الْأَجَلَ وَسارَ بِأَهْلِهِ﴾ [الْقَصَص: ٢٩] ، وَقَالَ: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ [آل عمرَان: ١٢١] أَيْ مِنْ عِنْدِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، ﴿إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ بِالْهَلَاكِ يَعْنِي امْرَأَتَهُ وَاعِلَةَ، وَابْنَهُ كنعان، يَعْنِي إِلَّا مَنْ كَانَ مِنْ أهلك كَافِرًا، وَمَا صدق هَذَا إِحْدَىٰ امْرَأَتَيْهِ الْمَذْكُورَةِ فِي سُورَةِ التَّحْرِيمِ وَابْنُهُ مِنْهَا الْمَذْكُورُ فِي آخِرِ هَذِهِ الْقِصَّةِ. وَكَانَ لِنُوحٍ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - امْرَأَتَانِ، ﴿وَمَنْ آمَنَ﴾ يَعْنِي: وَاحْمِلْ مَنْ آمَنَ بِكَ، كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ وَاخْتَلَفُوا فِي عَدَدِهِمْ، قَالَ قَتَادَةُ وَابْنُ جُرَيْجٍ وَمُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ الْقُرَظِيُّ: لَمْ يَكُنْ فِي السَّفِينَةِ إلا ثمانية، نُوحٌ وَامْرَأَتُهُ وَثَلَاثَةُ بَنِينَ لَهُ سَامٌ وَحَامٌ ويافثُ، وَنِسَاؤُهُمْ، وَقَالَ الْأَعْمَشُ: كَانُوا سَبْعَةً: نُوحٌ وَثَلَاثَةُ بَنِينَ لَهُ وَثَلَاثُ كَنَائِنَ لَهُ، وَقَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: كَانُوا عَشَرَةً سِوَىٰ نِسَائِهِمْ، نُوحٌ وَبَنُوهُ سَامٌ وَحَامٌ ويافثُ وَسِتَّةُ أُنَاسٍ

مِمَّنْ كَانَ آمَنَ بِهِ وَأَزْوَاجُهُمْ جَمِيعًا، وَقَالَ مُقَاتِلٌ: كَانُوا اثْنَيْنِ وَسَبْعِينَ نَفَرًا رَجُلًا وَامْرَأَةً وَبَنِيهِ الثَّلَاثَةَ وَنِسَاءَهُمْ، فَجَمِيعُهُمْ ثَمَانِيَةٌ وَسَبْعُونَ نِصْفُهُمْ رجال ونصفهم نساء.

[٤١] قَوْلُهُ تعالىٰ: ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا﴾ أي: قال لَهُمْ نُوحٌ ارْكَبُوا فِيهَا، أَيْ فِي السَّفِينَةِ، أَيْ بِسْمِ اللهِ يَكُونُ جَرْيُهَا عَلَىٰ وَجْهِ الْمَاءِ، وَبِسْمِ اللهِ يَكُونُ مُنْتَهَىٰ سَيْرِهَا وَهُوَ رُسُوُّهَا. ﴿بِسْمِ اللهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا﴾ أَيْ: بِسْمِ اللهِ جَرْيُهَا وَرُسُوُّهَا، وَالْمُرَادُ مِنْهَا الْإِنْزَالُ وَالْإِدْخَالُ وَالْإِخْرَاجُ، أَجْرَىٰ السَّفِينَةَ إِذَا جَعَلَهَا جَارِيَةً، أَيْ سَيَّرَهَا بِسُرْعَةٍ، وَأَرْسَاهَا إِذَا جَعَلَهَا رَاسِيَةً، أَيْ وَاقِفَةً عَلَىٰ الشاطئ، وفي الحديث عن عَبْدَ اللهِ بْنَ عُمَرَ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ إِذَا اسْتَوَىٰ عَلَىٰ بَعِيرِهِ خَارِجًا إِلَىٰ سَفَرٍ كَبَّرَ ثَلَاثًا، وَقَالَ: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ [الزخرف: ١٣]، «**اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ فِي سَفَرِنَا هَذَا الْبِرَّ وَالتَّقْوَىٰ، وَمِنَ الْعَمَلِ مَا تَرْضَىٰ، اللَّهُمَّ هَوِّنْ عَلَيْنَا سَفَرَنَا هَذَا، وَاطْوِ عَنَّا بُعْدَهُ، اللَّهُمَّ أَنْتَ الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ، وَالْخَلِيفَةُ فِي الْأَهْلِ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ وَعْثَاءِ السَّفَرِ، وَكَآبَةِ الْمَنْظَرِ، وَسُوءِ الْمُنْقَلَبِ فِي الْأَهْلِ وَالْمَالِ وَالْوَلَدِ**»، فَإِذَا رَجَعَ قَالَهُنَّ، وَزَادَ فِيهِنَّ: «**آيِبُونَ تَائِبُونَ عَابِدُونَ لِرَبِّنَا حَامِدُونَ**»[١]، ﴿إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

---

(١) مسلم (١٣٤٢).

نَاسِبٌ عِنْدَ ذِكْرِ الِانْتِقَامِ من الكافرين بإغراقهم أجمعين فذكر أنه غفور رحيم كقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ * وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأعراف : ١٦٧] .

[٤٢] قَوْلُهُ تعالىٰ: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾ وَالْمَوْجُ مَا ارْتَفَعَ مِنَ الْمَاءِ إِذَا اشْتَدَّتْ عَلَيْهِ الرِّيحُ، شَبَّهَهُ بِالْجِبَالِ فِي عِظَمِهِ وَارْتِفَاعِهِ عَلَىٰ الماء، الْمَوْجُ جَمْعُ مَوْجَةٍ، وَهِيَ مَا ارْتَفَعَ مِنْ جُمْلَةِ الْمَاءِ الْكَثِيرِ عِنْدَ اشْتِدَادِ الرِّيحِ. وَجَاءَ فِي التَّفْسِيرِ أَنَّ الْمَاءَ جَاوَزَ كل شي بِخَمْسَةَ عَشَرَ ذِرَاعًا (الذراع الشرعي ٥٢سم) ، ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ﴾ كَنْعَانَ، وَقَالَ عُبَيْدُ بْنُ عُمَيْرٍ: سَامٌ وَكَانَ كَافِرًا، ﴿وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ﴾ أَيْ مِنْ دِينِ أَبِيهِ، وَقِيلَ: عَنِ السَّفِينَةِ، وَقِيلَ: إِنَّ نُوحًا لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ابْنَهُ كَانَ كافرا، وأنه ظَنَّ أَنَّهُ مُؤْمِنٌ، وَلِذَلِكَ قَالَ لَهُ: ﴿وَلا تَكُنْ مَعَ الْكافِرِينَ﴾، قال ابن عاشور : وَالْمَعْزِلُ: مَكَانُ الْعُزْلَةِ أَيِ الِانْفِرَادِ، أَيْ فِي مَعْزِلٍ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِمَّا لِأَنَّهُ كَانَ لَمْ يُؤْمِنْ بِنُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَلَمْ يُصَدِّقْ بِوُقُوعِ الطُّوفَانِ، وَإِمَّا لِأَنَّهُ ارْتَدَّ فَأَنْكَرَ وُقُوعَ الطُّوفَانِ فَكَفَرَ بِذَلِكَ لِتَكْذِيبِهِ الرَّسُولَ ، ﴿يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا﴾ ﴿وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾ فتهلك.

[٤٣] قَوْلُهُ تعالىٰ: ﴿قَالَ﴾ له ابنه ﴿سَآوِي﴾ سَأَصِيرُ وَأَلْتَجِئُ، ﴿إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾ يمنعني من الغرق، ﴿قَالَ﴾ لَهُ نُوحٌ ﴿لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللهِ﴾ أي: مِنْ عَذَابِ اللهِ، ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ﴾ مَعْنَاهُ لَا مَعْصُومَ إِلَّا مَنْ رَحِمَهُ اللهُ ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ﴾ فصار، ﴿مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾ ويروىٰ أن الماء علا علىٰ رؤوس الْجِبَالِ قَدْرَ أَرْبَعِينَ ذِرَاعًا، وَقِيلَ: خمسة عشر ذراعًا.

[٤٤] قَوْلُهُ تعالىٰ: ﴿وَقِيلَ﴾ يَعْنِي بَعْدَمَا تَنَاهَىٰ أَمْرُ الطُّوفَانِ، ﴿يا أَرْضُ ابْلَعِي﴾ اشربي، ﴿مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي﴾ أمسكي، ﴿وَغِيضَ الْمَاءُ﴾ نَقَصَ وَنَضَبَ، يُقَالُ: غَاضَ الْمَاءُ يَغِيضُ غَيْضًا إِذَا نَقَصَ، وَغَاضَهُ اللهُ أَيْ أَنْقَصَهُ، ﴿وَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ وفرغ من الأمر وهلاك القوم ﴿وَاسْتَوَتْ﴾ يَعْنِي السَّفِينَةُ اسْتَقَرَّتْ، ﴿عَلَىٰ الْجُودِيِّ﴾ وهو جَبَلٌ بِالْجَزِيرَةِ بِقُرْبِ الْمَوْصِلِ، ﴿وَقِيلَ بُعْدًا﴾ هلاكا، ﴿لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ .

[٤٥] قَوْلُهُ تعالىٰ: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾ وَقَدْ وَعَدْتَنِي أَنْ تُنْجِيَنِي وَأَهْلِي؟ ﴿وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ﴾ لَا خُلْفَ فِيهِ، ﴿وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ حَكَمْتَ عَلَىٰ قَوْمٍ بِالنَّجَاةِ وَعَلَىٰ قوم بالهلاك.

[٤٦] قَوْلُهُ تعالىٰ: ﴿قالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ قَالَ الْجُمْهُورُ: لَيْسَ مِنْ أَهْلِ دِينِكَ وَلَا وِلَايَتِكَ، فَهُوَ عَلَىٰ حَذْفِ مُضَافٍ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ حُكْمَ الِاتِّفَاقِ فِي الدِّينِ أَقْوَىٰ مِنْ حُكْمِ النَّسَبِ. وقال سعيد بن جبير : أَيْ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَالَّذِينَ وَعَدْتُهُمْ أَنْ أُنَجِّيَهُمْ (غَيْرُ) قراءة حفص بِرَفْعِ الرَّاءِ مَعْنَاهُ: أَنَّ سُؤَالَكَ إِيَّايَ أَنْ أُنْجِيَهُ عَمَلٌ غير صالح، قال ابن عباس: هُوَ ابْنُهُ غَيْرَ أَنَّهُ خَالَفَهُ فِي الْعَمَلِ والنية﴿فَلَا تَسْأَلْنِي﴾ يا نُوحُ، ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ أَيْ إِذْ وَعَدْتُك فَاعْلَمْ يَقِينًا أَنَّهُ لَا خُلْفَ فِي الْوَعْدِ، فَإِذَا رَأَيْتَ وَلَدَكَ لَمْ يُحْمَلْ فَكَانَ الْوَاجِبُ عَلَيْكَ أَنْ تَقِفَ وَتَعْلَمَ أَنَّ ذَلِكَ لِحَقٍّ وَاجِبٍ عِنْدَ اللهِ، وَلَكِنَّ نُوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ حَمَلَتْهُ شَفَقَةُ الْبُنُوَّةِ وَسَجِيَّةُ الْبَشَرِ عَلَىٰ التَّعَرُّضِ لِنَفَحَاتِ الرَّحْمَةِ وَالتَّذْكِيرِ، وَعَلَىٰ هَذَا الْقَدْرِ

وَقَعَ عِقَابُهُ، وَلِذَلِكَ جَاءَ بِتَلَطُّفٍ وَتَرَجٍّ فِي قَوْلِهِ: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجاهِلِينَ﴾ أَيْ أَنْهَاكَ عَنْ هَذَا السُّؤَالِ، وَأُحَذِّرُكَ لِئَلَّا تَكُونَ، أَوْ كَرَاهِيَةَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ، أَيِ الْآثِمِينَ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَعِظُكُمُ اللهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَداً﴾ [النور: ١٧] أَيْ يُحَذِّرُكُمُ اللهُ وَيَنْهَاكُمْ، وَقِيلَ: الْمَعْنَىٰ أَرْفَعُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ، قَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ: وَهَذِهِ زِيَادَةٌ مِنَ اللهِ وَمَوْعِظَةٌ يَرْفَعُ بِهَا نُوحًا عَنْ مَقَامِ الْجَاهِلِينَ، وَيُعْلِيهِ بِهَا إِلَىٰ مَقَامِ الْعُلَمَاءِ وَالْعَارِفِينَ.

[٤٦] قَوْلُهُ تعالىٰ: ﴿قَالَ﴾ نُوحٌ: ﴿رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْئَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ﴾ ، وَهَذِهِ ذُنُوبُ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، فَشُكْرُ اللهِ تَذَلُّلُهُ وَتَوَاضُعُهُ، ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي﴾ مَا فَرَطَ مِنَ السُّؤَالِ، ﴿وَتَرْحَمْنِي﴾ أَيْ بِالتَّوْبَةِ ، ﴿أَكُنْ مِنَ الْخاسِرِينَ﴾ أَيْ أَعْمَالًا، فَقَالَ:﴿يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِنَّا﴾ ، قَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ: وَهَذِهِ زِيَادَةٌ مِنَ اللهِ وَمَوْعِظَةٌ يَرْفَعُ بِهَا نُوحًا عَنْ مَقَامِ الْجَاهِلِينَ، وَيُعْلِيهِ بِهَا إِلَىٰ مَقَامِ الْعُلَمَاءِ وَالْعَارِفِينَ.

[٤٨] قَوْلُهُ تعالىٰ: ﴿قِيلَ يا نُوحُ اهْبِطْ﴾ انْزِلْ مِنَ السَّفِينَةِ، قال محمد بن إسحاق: لما أراد الله أَنْ يَكُفَّ الطُّوفَانُ أَرْسَلَ رِيحًا عَلَىٰ وَجْهِ الارض فسكن الماء، وانسدت ينابيع الأرض وَأَبْوَابُ السَّمَاءِ، يَقُولُ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ﴾ الآية، فَجَعَلَ الْمَاءُ يَنْقُصُ وَيَغِيضُ وَيُدْبِرُ، ﴿بِسَلَامٍ مِنَّا﴾ أَيْ بِأَمْنٍ وَسَلَامَةٍ مِنَّا، ﴿وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ﴾ الْبَرَكَةُ هِيَ ثُبُوتُ الْخَيْرِ، وَمِنْهُ بروك البعير، وقيل: البركة ههنا هِيَ أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ جَعَلَ ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ،

وَالْبَرَكَاتُ: الْخَيْرَاتُ النَّامِيَةُ، وَاحِدَتُهَا بَرَكَةٌ، وَهِيَ مِنْ كَلِمَاتِ التَّحِيَّةِ مُسْتَعْمَلَةٌ فِي الدُّعَاءِ. ﴿وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ﴾ أَيْ: عَلَىٰ ذُرِّيَّةِ أُمَمٍ مِمَّنْ كَانَ مَعَكَ فِي السَّفِينَةِ، يَعْنِي علىٰ قرون تجيء بَعْدِكَ مِنْ ذُرِّيَّةِ مَنْ مَعَكَ فِي السفينة، يعني: مِنْ وَلَدِكَ وَهُمُ الْمُؤْمِنُونَ، قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ الْقُرَظِيُّ: دَخَلَ فيه كل مؤمن إلىٰ يوم القيامة ، وَالْأُمَمُ: جَمْعُ أُمَّةٍ، وَالْأُمَّةُ: الْجَمَاعَةُ الْكَثِيرَةُ مِنَ النَّاسِ الَّتِي يَجْمَعُهَا نَسَبٌ إِلَىٰ جَدٍّ وَاحِدٍ. يُقَالُ: أُمَّةُ الْعَرَبِ، أَوْ لُغَةٌ مِثْلَ أُمَّةِ التُّرْكِ، أَوْ مَوْطِنٌ مِثْلَ أُمَّةِ أَمْرِيكَا، أَوْ دِينٌ مِثْلَ الْأُمَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، ﴿وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ﴾ أَيْ: أُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ فِي الدُّنْيَا، ﴿ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وَهُمُ الْكَافِرُونَ وَأَهْلُ الشَّقَاوَةِ، قال ابن عاشور : وَالْمَقْصُودُ: تَحْذِيرُ قَوْمِ نُوحٍ مِنَ اتِّبَاعِ سَبِيلِ الَّذِينَ أُغْرِقُوا، وَالْمَقْصُودُ مِنْ حِكَايَةِ ذَلِكَ فِي الْقُرْآنِ التَّعْرِيضُ بِالْمُشْرِكِينَ مِنَ الْعَرَبِ فَإِنَّهُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ نُوحٍ وَلَمْ يَتَّبِعُوا سَبِيلَ جَدِّهِمْ، فَأُشْعِرُوا بِأَنَّهُمْ مِنَ الْأُمَمِ الَّتِي أَنْبَأَ اللهُ نُوحًا بِأَنَّهُ سَيُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ، وقال الحسن البصري: فأنجىٰ الله نوحًا والذين آمنوا، وهلك المتمتعون! حتىٰ ذكر الأنبياء، كل ذلك يقول: أنجاه الله وهلك المتمتعون.

[٤٩] قَوْلُهُ تعالىٰ: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ﴾ من أَخْبَارِ الْغَيْبِ، وَالْأَنْبَاءُ: جَمْعُ نَبَأٍ، وَهُوَ الْخَبَرُ. وَأَنْبَاءُ الْغَيْبِ الْأَخْبَارُ الْمُغَيَّبَةُ عَنِ النَّاسِ أَوْ عَنْ فَرِيقٍ مِنْهُمْ، ﴿نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾ مِنْ قَبْلِ نُزُولِ الْقُرْآنِ، قال ابن كثير : أَيْ لَمْ يَكُنْ عِنْدَكَ وَلَا عِنْدَ أَحَدٍ مِنْ قَوْمِكَ عِلْمٌ بِهَا

حَتَّىٰ يَقُولَ مَنْ يُكَذِّبُكَ إِنَّكَ تَعَلَّمْتَهَا مِنْهُ، بَلْ أَخْبَرَكَ اللهُ بِهَا مُطَابِقَةً لِمَا كَانَ عَلَيْهِ الْأَمْرُ الصَّحِيحُ، كَمَا تَشْهَدُ بِهِ كُتُبُ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلَكَ، فَاصْبِرْ عَلَىٰ تَكْذِيبِ مَنْ كَذَّبَكَ مِنْ قَوْمِكَ وَأَذَاهُمْ لَكَ فَإِنَّا سَنَنْصُرُكَ وَنَحُوطُكَ بِعِنَايَتِنَا، وَنَجْعَلُ الْعَاقِبَةَ لَكَ وَلِأَتْبَاعِكَ فِي الدنيا والآخرة، كما فعلنا بِالْمُرْسَلِينَ حَيْثُ نَصَرْنَاهُمْ عَلَىٰ أَعْدَائِهِمْ : ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر : ٥١] ، ﴿فَاصْبِرْ﴾ عَلَىٰ الْقِيَامِ بِأَمْرِ اللهِ، وَتَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ، وَمَا تَلْقَىٰ مِنْ أَذَىٰ الْكُفَّارِ كَمَا صَبَرَ نُوحٌ، ﴿إِنَّ الْعَاقِبَةَ﴾ آخِرَ الْأَمْرِ بِالسَّعَادَةِ وَالنُّصْرَةِ وَالْعَاقِبَةُ: الْحَالَةُ الَّتِي تَعْقُبُ حَالَةً أُخْرَىٰ ، وَقَدْ شَاعَتْ عِنْدَ الْإِطْلَاقِ فِي حَالَةِ الْخَيْرِ كَقَوْلِهِ: ﴿وَالْعاقِبَةُ لِلتَّقْوىٰ﴾.

[٥٠] قَوْلُهُ تعالىٰ: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ﴾ أَيْ: وَأَرْسَلْنَا إِلَىٰ عَادٍ، ﴿أَخَاهُمْ هُودًا﴾ فِي النَّسَبِ لَا فِي الدِّينِ، قال القرطبي : وَقِيلَ لَهُ أَخُوهُمْ لِأَنَّهُ مِنْهُمْ، وَكَانَتِ الْقَبِيلَةُ تَجْمَعُهُمْ، كَمَا تَقُولُ: يَا أَخَا تَمِيمٍ. وَقِيلَ: إِنَّمَا قِيلَ لَهُ أَخُوهُمْ لِأَنَّهُ مِنْ بَنِي آدَمَ كَمَا أَنَّهُمْ مِنْ بَنِي آدَمَ، ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ﴾ وَحِّدُوا اللهَ ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ مَا أَنْتُمْ فِي إِشْرَاكِكُمْ إِلَّا كَاذِبُونَ، وقيل المعنىٰ : مَا أَنْتُمْ فِي اتِّخَاذِكُمْ إِلَهًا غَيْرَهُ إِلَّا كَاذِبُونَ عَلَيْهِ جَلَّ وَعَزَّ، وَكَانُ عاد من عَبَدَةَ الْأَوْثَانِ. وَقِيلَ: هُمْ عَادَانِ، عَادٌ الْأُولَىٰ وَعَادٌ الْأُخْرَىٰ، فَهَؤُلَاءِ هُمُ الْأُولَىٰ، وَأَمَّا الْأُخْرَىٰ فَهُوَ شَدَّادٌ وَلُقْمَانُ الْمَذْكُورَانِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ:﴿إِرَمَ ذاتِ الْعِمادِ﴾ وعاد اسم رَجُلٍ ثُمَّ اسْتَمَرَّ عَلَىٰ قَوْمٍ انْتَسَبُوا إِلَيْهِ.

[٥١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ أَيْ: عَلَىٰ تَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ، ﴿أَجْرًا﴾ قال ابن كثير: أخبرهم أنه لا يريد منهم أجرة علىٰ هذا النصح والبلاغ من الله، إنما يبغي ثوابه من الله الذي فطره ، ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ من يدعوكم إلىٰ ما يُصْلِحُكم في الدنيا والآخرة من غير أجرة، قَوْلُهُ : ﴿إِنْ أَجْرِيَ﴾ مَا ثَوَابِيَ، ﴿إِلَّا عَلَىٰ الَّذِي فَطَرَنِي﴾ خلقني، قَالَ ابْنُ عَطِيَّةَ: ثُمَّ وَصَفَهُ بِقَوْلِهِ :﴿الَّذِي فَطَرَنِي﴾، فَجَعَلَهَا صِفَةً رَادَّةً عَلَيْهِمْ فِي عِبَادَتِهِمُ الْأَصْنَامَ وَاعْتِقَادِهِمْ أَنَّهَا تَفْعَلُ، فَجَعَلَ الْوَصْفَ بِذَلِكَ فِي دَرَجِ كَلَامِهِ، مُنَبِّهًا عَلَىٰ أَفْعَالِ اللهِ تَعَالَىٰ، وَأَنَّهُ هُوَ الَّذِي يَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ، وَ(فَطَرَ) مَعْنَاهُ اخْتَرَعَ وَأَنْشَأَ ، وَقَالَ ابْنُ حَيَّانَ: وَنَبَّهَ بِقَوْلِهِ: ﴿الَّذِي فَطَرَنِي﴾ ، عَلَىٰ الرَّدِّ عَلَيْهِمْ فِي عِبَادَتِهِمُ الْأَصْنَامَ، وَاعْتِقَادِهِمْ أَنَّهَا تَفْعَلُ، وَكَوْنِهِ تَعَالَىٰ هُوَ الْفَاطِرُ لِلْمَوْجُودَاتِ يَسْتَحِقُّ إِفْرَادَهُ بِالْعِبَادَةِ ،﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ مَا جَرَىٰ عَلَىٰ قَوْمِ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ.

[٥٢] قَوْلُهُ تعالىٰ: ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾ أي: آمنوا به، فالاستغفار ههنا بِمَعْنَىٰ الْإِيمَانِ،وَفِي الْحَدِيثِ: «**مَنْ لَزِمَ الِاسْتِغْفَارَ جَعَلَ اللهُ لَهُ مَنْ كُلِّ هَمٍّ فَرَجًا وَمَنْ كُلِّ ضِيقٍ مَخْرَجًا وَرَزَقَهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ**»(١) ، ﴿ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ مِنْ عِبَادَةِ غَيْرِهِ، وَمِنْ سَالِفِ ذُنُوبِكُمْ، ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا﴾ أَيْ: يُرْسِلِ الْمَطَرَ عَلَيْكُمْ مُتَتَابِعًا مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَىٰ فِي أَوْقَاتِ الْحَاجَةِ، وَالْمِدْرَارُ صِيغَةُ

---

(١) أبو داود (رقم ١٥١٧)، وابن ماجه (رقم ٣٨١٩) .

مُبَالَغَةٍ: دَرَّتِ النَّاقَةُ وَدَرَّ الضَّرْعُ إِذَا سَمَحَ ضَرْعُهَا بِاللَّبَنِ، وَلِذَلِكَ سُمِّيَ اللَّبَنُ الدَّرَّ، وَوَصْفُ الْمَطَرِ بِالْمِدْرَارِ مَجَازٌ عَقْلِيٌّ، وَإِنَّمَا الْمِدْرَارُ سَحَابَةٌ ، ﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾ أَيْ: شِدَّةً مَعَ شِدَّتِكُمْ، وَذَلِكَ أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ حَبَسَ عنهم المطر ثَلَاثَ سِنِينَ وَأَعْقَمَ أَرْحَامَ نِسَائِهِمْ فَلَمْ يَلِدْنَ، فَقَالَ لَهُمْ هُودٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ: إِنْ آمَنْتُمْ أَرْسَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ الْمَطَرَ فَتَزْدَادُونَ مَالًا وَيُعِيدُ أَرْحَامَ الْأُمَّهَاتِ إِلَىٰ مَا كَانَتْ فَيَلِدْنَ، فَتَزْدَادُونَ قُوَّةً بِالْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ، وَقِيلَ: تَزْدَادُونَ قُوَّةً فِي الدين إلىٰ قوة في البدن. ﴿وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾ أَيْ: لَا تُدْبِرُوا مُشْرِكِينَ.

[٥٣] قَوْلُهُ تعالىٰ: ﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ أي: ببيان وَحُجَّةٍ وَاضِحَةٍ عَلَىٰ مَا تَقُولُ، ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ﴾ أَيْ: بِقَوْلِكَ، ﴿وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ بمصدقين.

[٥٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ﴾ أَيْ أَصَابَكَ ، يُقَالُ: عَرَاهُ الْأَمْرُ وَاعْتَرَاهُ إِذَا أَلَمَّ بِهِ ، ﴿بَعْضُ آلِهَتِنا﴾ أَيْ أَصْنَامِنَا، ﴿بِسُوءٍ﴾ قال ابن عباس : أي بِجُنُونٍ لِسَبِّكَ إِيَّاهَا، وَذَلِكَ أَنَّكَ سَبَبْتَ آلِهَتَنَا فَانْتَقَمُوا مِنْكَ بِالتَّخْبِيلِ، لَا نَحْمِلُ أَمْرَكَ إِلَّا علىٰ هذا، ﴿قَالَ﴾ لَهُمْ هُودٌ، ﴿إِنِّي أُشْهِدُ اللهَ﴾ علىٰ نفسي، ﴿وَاشْهَدُوا﴾ يَا قَوْمِ، ﴿أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ يَقُولُ: إِنِّي بَرِيءٌ مِنْ جَمِيعِ الْأَنْدَادِ وَالْأَصْنَامِ.

[٥٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿مِنْ دُونِهِ﴾ يعني الأوثان، ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا﴾ فَاحْتَالُوا فِي مَكْرِكُمْ وَضُرِّي أَنْتُمْ وأوثانكم، ﴿ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ﴾ لَا تُؤَخِّرُونَ وَلَا تُمْهِلُونَ.

[٥٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ﴾ أَي: اعْتَمَدْتُ، قال القرطبي : أَيْ رَضِيتُ بِحُكْمِهِ، وَوَثِقْتُ بِنَصْرِهِ ، ﴿عَلَىٰ اللهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾ أَيْ يُصَرِّفُهَا كَيْفَ يَشَاءُ، وَيَمْنَعُهَا مِمَّا يَشَاءُ، أَيْ فَلَا تَصِلُونَ إِلَىٰ ضُرِّي. وَكُلُّ مَا فِيهِ رُوحٌ يُقَالُ لَهُ دَابٌّ وَدَابَّةٌ، وقال الضحاك: محييها ومميتها، قَالَ الْفَرَّاءُ: مَالِكُهَا وَالْقَادِرُ عَلَيْهَا، وقال بعض العلماء: آخذ بناصيتها لا تتوجه إلا حيث يلهمها، وَقَالَ الْقُتَيْبِيُّ: يَقْهَرُهَا؛ لِأَنَّ مَنْ أَخَذْتَ بِنَاصِيَتِهِ فَقَدْ قَهَرْتَهُ، وَقِيلَ إِنَّمَا خَصَّ النَّاصِيَةَ بِالذِّكْرِ؛ لِأَنَّ الْعَرَبَ تَسْتَعْمِلُ ذَلِكَ إِذَا وَصَفَتْ إِنْسَانًا بِالذِّلَّةِ، فَتَقُولُ: نَاصِيَةُ فُلَانٍ بِيَدِ فُلَانٍ، وَكَانُوا إِذَا أَسَرُوا إِنْسَانًا وَأَرَادُوا إِطْلَاقَهُ وَالْمَنَّ عَلَيْهِ جزوا ناصته لِيَعْتَدُّوا بِذَلِكَ فَخْرًا عَلَيْهِ، فَخَاطَبَهُمُ اللهُ بِمَا يَعْرِفُونَ ، ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ يَعْنِي: إِنَّ رَبِّي - وَإِنْ كَانَ قَادِرًا عَلَيْهِمْ - فَإِنَّهُ لَا يَظْلِمُهُمْ وَلَا يَعْمَلُ إِلَّا بِالْإِحْسَانِ وَالْعَدْلِ، فَيُجَازِي الْمُحْسِنَ بِإِحْسَانِهِ وَالْمُسِيءَ بِعِصْيَانِهِ، وَقِيلَ: مَعْنَاهُ أَنَّ دِينَ رَبِّي صراط مستقيم، وقيل: شبه إِضْمَارٌ، أَيْ: إِنَّ رَبِّي يُحِثُّكُمْ وَيَحْمِلُكُمْ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ.

[٥٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أَيْ: تَتَوَلَّوْا، يَعْنِي: تُعْرِضُوا عَمَّا دَعَوْتُكُمْ إِلَيْهِ، قال ابن كثير : يقول لهم هُودٌ: فَإِنْ تَوَلَّوْا عَمَّا جِئْتُكُمْ بِهِ مِنْ عِبَادَةِ اللهِ رَبِّكُمْ

وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، فَقَدْ قَامَتْ عَلَيْكُمُ الْحُجَّةُ بِإِبْلَاغِي إِيَّاكُمْ رِسَالَةَ اللهِ الَّتِي بَعَثَنِي بِهَا، ﴿فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ أَيْ: إِنْ أَعْرَضْتُمْ يُهْلِكْكُمُ اللهُ عز وجل، ويستبدل قَوْمًا غَيْرَكُمْ أَطْوَعَ مِنْكُمْ يُوَحِّدُونَهُ ويعبدونه، ولا يشركون به وَلَا يُبَالِي بِكُمْ فَإِنَّكُمْ لَا تَضُرُّونَهُ بِكُفْرِكُمْ بَلْ يَعُودُ وَبَالُ ذَلِكَ عَلَيْكُمْ، ﴿وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا﴾ بِتَوَلِّيكُمْ وَإِعْرَاضِكُمْ إِنَّمَا تَضُرُّونَ أَنْفُسَكُمْ، وَقِيلَ: لَا تُنْقِصُونَهُ شَيْئًا إِذَا أَهْلَكَكُمْ؛ لِأَنَّ وُجُودَكُمْ وَعَدَمَكُمْ عِنْدَهُ سَوَاءٌ، ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ أَيْ: لِكُلِّ شَيْءٍ حَافِظٌ، يَحْفَظُنِي مِنْ أَنْ تَنَالُونِي بِسُوءٍ، وفي صحيح مسلم من حديث أبي ذر مرفوعًا: « **يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضُرِّي فَتَضُرُّونِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي** »(١) .

[٥٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ عَذَابُنَا، ﴿نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ وكانوا أربعة آلاف ، ﴿بِرَحْمَةٍ﴾ بِنِعْمَةٍ قال النسفي: أي بفضل منا لا بعملهم، أو بالإيمان الذي أنعمنا عليهم ﴿مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ وَهُوَ الرِّيحُ الَّتِي أَهْلَكَ بِهَا عَادًا، وَقِيلَ: الْعَذَابُ الْغَلِيظُ: عَذَابُ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، أَيْ: كَمَا نَجَّيْنَاهُمْ فِي الدُّنْيَا مِنَ الْعَذَابِ كَذَلِكَ نَجَّيْنَاهُمْ فِي الْآخِرَةِ، وَالْغَلِيظُ حَقِيقَتُهُ: الْخَشِنُ ضِدُّ الرَّقِيقِ، وَهُوَ مُسْتَعَارٌ لِلشَّدِيدِ، قَالَ الْقُشَيْرِيُّ أَبُو نَصْرٍ: وَالْعَذَابُ الَّذِي يَتَوَعَّدُ بِهِ النَّبِيَّ أُمَّتُهُ إِذَا حَضَرَ يُنَجِّي اللهُ مِنْهُ النَّبِيَّ وَالْمُؤْمِنِينَ مَعَهُ، نَعَمْ! لَا

---

(١) مسلم (٢٥٧٧) .

يَبْعُدُ أَنْ يَبْتَلِيَ اللهُ نَبِيًّا وَقَوْمَهُ فَيَعُمُّهُمْ بِبَلَاءٍ فَيَكُونُ ذَلِكَ عُقُوبَةً لِلْكَافِرِينَ، وَتَمْحِيصًا لِلْمُؤْمِنِينَ إِذَا لَمْ يَكُنْ مِمَّا تَوَعَّدَهُمُ النَّبِيُّ بِهِ.

[٥٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ﴾ رَدَّهُ إِلَىٰ الْقَبِيلَةِ، ﴿جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ﴾ يَعْنِي: هُودًا وَحدَهُ، ذَكَرَهُ بِلَفْظِ الْجَمْعِ؛ لِأَنَّ مَنْ كَذَّبَ رَسُولًا واحدًا كَانَ كَمَنْ كَذَّبَ جَمِيعَ الرُّسُلِ، وَالْجَحْدُ: الْإِنْكَارُ الشَّدِيدُ، مِثْلَ إِنْكَارِ الْوَاقِعَاتِ وَالْمُشَاهَدَاتِ. ﴿وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ وَاتَّبَعَ السَّفَلَةُ وَالسُّقَّاطُ أَهْلَ التَّكَبُّرِ وَالْعِنَادِ، وَالْجَبَّارُ: الْمُتَكَبِّرُ، وَالْعَنِيدُ: الَّذِي لَا يَقْبَلُ الْحَقَّ، يُقَالُ: عَنَدَ الرَّجُلُ يَعْنِدُ عُنُودًا إِذَا أَبَىٰ أَنْ يَقْبَلَ الشَّيْءَ وَإِنْ عَرَفَهُ، وقال أَبُو عُبَيْدَةَ: الْعَنِيدُ وَالْعَانِدُ وَالْعَنُودُ وَالْمُعَانِدُ: الْمُعَارِضُ لَكَ بِالْخِلَافِ.

[٦٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ أَيْ أُرْدِفُوا لَعْنَةً تَلْحَقُهُمْ وَتَنْصَرِفُ مَعَهُمْ، وَاللَّعْنَةُ: هِيَ الْإِبْعَادُ وَالطَّرْدُ عن الرحمة، ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أَيْ وَفِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَيْضًا لُعِنُوا كَمَا لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، ﴿أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾ أَيْ بِرَبِّهِمْ، قَالَ الْفَرَّاءُ: أَيْ كَفَرُوا نِعْمَةَ رَبِّهِمْ، قَالَ: وَيُقَالُ كَفَرْتُهُ وَكَفَرْتُ بِهِ، كما يقال: شكره وَشَكَرْتُ لَهُ، وَنَصَحْتُهُ، وَنَصَحْتُ لَهُ، ﴿أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ أَيْ لَا زَالُوا مُبْعَدِينَ عَنْ رَحْمَةِ اللهِ. وَالْبُعْدُ الْهَلَاكُ ، وَالْبُعْدُ التَّبَاعُدُ مِنَ الْخَيْرِ.

[٦١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾ أي: وأرسلنا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا فِي النَّسَبِ لَا فِي الدِّينِ، ﴿قَالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ﴾ وَحِّدُوا اللهَ عَزَّ

وَجَلَّ، ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ﴾ ابتدأ خلقكم، وَالْإِنْشَاءُ: الْإِيجَادُ وَالْإِحْدَاثُ، وَالْإِنْشَاءُ مِنَ الْأَرْضِ خَلْقُ آدَمَ مِنَ الْأَرْضِ لِأَنَّ إِنْشَاءَهُ إِنْشَاءٌ لِنَسْلِهِ، وَإِنَّمَا ذُكِرَ تَعَلُّقُ خَلْقِهِمْ بِالْأَرْضِ لِأَنَّهُمْ كَانُوا أَهْلَ غَرْسٍ وَزَرْعٍ، ﴿مِنَ الْأَرْضِ﴾ وذلك أنهم مِنْ آدَمَ، وَآدَمُ خُلِقَ مِنْ الأرض، ﴿وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ أَيْ: جَعَلَكُمْ عُمَّارَهَا وَسُكَّانَهَا، وَقَالَ الضَّحَّاكُ: أَطَالَ عُمْرَكُمْ فِيهَا حَتَّىٰ كَانَ الْوَاحِدُ مِنْهُمْ يَعِيشُ ثَلَاثَمِائَةِ سَنَةٍ إِلَىٰ أَلْفِ سَنَةٍ، وَكَذَلِكَ قوم عاد، وقال مجاهد: أعمركم من العمر، أَيْ: جَعَلَهَا لَكُمْ مَا عِشْتُمْ، وَقَالَ قَتَادَةُ: أَسْكَنَكُمْ فِيهَا. ﴿فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ﴾ من المؤمنين، ﴿مُجِيبٌ﴾ لدعائهم.

[٦٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالُوا﴾ يعني ثمودًا، ﴿يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا﴾ الْقَوْلُ أَيْ: كُنَّا نَرْجُو أَنْ تَكُونَ سَيِّدًا فِينَا، وَقِيلَ: كُنَّا نَرْجُو أَنْ تَعُودَ إِلَىٰ دِينِنَا، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا يَرْجُونَ رُجُوعَهُ إِلَىٰ دِينِ عَشِيرَتِهِ، فَلَمَّا أَظْهَرَ دُعَاءَهُمْ إِلَىٰ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَتَرَكَ الْأَصْنَامَ زَعَمُوا أَنَّ رَجَاءَهُمُ انْقَطَعَ عَنْهُ، فَقَالُوا: ﴿أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ مِنَ الْآلِهَةِ ﴿وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ مُوْقِعٌ لِلرِّيبَةِ وَالتُّهْمَةِ، يُقَالُ: أَرَبْتُهُ إِرَابَةً إِذَا فَعَلْتَ بِهِ فِعْلًا يوجب له الريبة.

[٦٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قال يا قوم أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ فِيمَا أَرْسَلَنِي بِهِ إِلَيْكُمْ عَلَىٰ يَقِينٍ وَبُرْهَانٍ، ﴿وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ اللهِ إِنْ عَصَيْتُهُ﴾، وَتَرَكْتُ دَعْوَتَكُمْ إِلَىٰ الْحَقِّ وَعِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ، فَلَوْ تَرَكْتُهُ لَمَا نَفَعْتُمُونِي وَلَمَا زِدْتُمُونِي ﴿غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ أَيْ خَسَارَةٍ ، قال ابن عباس: معناه ما

تزيدونني غَيْرُ بِصَارَةٍ فِي خَسَارَتِكُمْ، وَالتَّخْسِيرُ لَهُمْ لصَالِحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ الْحُسَيْنُ بْنُ الْفَضْلِ: لَمْ يَكُنْ صَالِحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي خَسَارَةٍ حَتَّىٰ قَالَ: فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ، وَإِنَّمَا الْمَعْنَىٰ مَا تَزِيدُونَنِي بما تقولون من الفحش إِلَّا نِسْبَتِي إِيَّاكُمْ إِلَىٰ الْخَسَارَةِ، وَالتَّفْسِيقُ وَالتَّفْجِيرُ فِي اللُّغَةِ هُوَ: النِّسْبَةُ إِلَىٰ الْفِسْقِ وَالْفُجُورِ، وَكَذَلِكَ التَّخْسِيرُ هُوَ: النِّسْبَةُ إِلَىٰ الْخُسْرَانِ.

[٦٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللهِ لَكُمْ آيَةً﴾ وَذَلِكَ أن قومًا طَلَبُوا مِنْهُ أَنْ يُخْرِجَ نَاقَةً مِنْ هَذِهِ الصَّخْرَةِ، وَأَشَارُوا إِلَىٰ صَخْرَةٍ فَدَعَا صَالِحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَخَرَجَتْ مِنْهَا نَاقَةٌ وَوَلَدَتْ في الحال ولدا مثلها، فَهَذَا مَعْنَىٰ قَوْلِهِ: ﴿هَذِهِ نَاقَةُ اللهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللهِ﴾ مِنَ الْعُشْبِ وَالنَّبَاتِ فَلَيْسَتْ عَلَيْكُمْ مؤنتها، وَإِضَافَةُ النَّاقَةِ إِلَىٰ اسْمِ الْجَلَالَةِ لِأَنَّهَا خُلِقَتْ بِقُدْرَةِ اللهِ تعالىٰ الذي لا يعجزه شيء ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ﴾ ولا تصيبوها بعقر، ﴿فَيَأْخُذَكُمْ﴾ إن قتلتموها، ﴿عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ .

[٦٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ﴾ لهم صالح، ﴿تَمَتَّعُوا﴾ عيشوا، قال القرطبي : وَعَبَّرَ عَنِ التَّمَتُّعِ بِالْحَيَاةِ لِأَنَّ الْمَيِّتَ لَا يَتَلَذَّذُ وَلَا يَتَمَتَّعُ بِشَيْءٍ، ﴿فِي دَارِكُمْ﴾ أَيْ: فِي دِيَارِكُمْ، ﴿ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾ [هود: ٦٥] ثُمَّ تُهْلَكُونَ، ﴿ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ وَالْمَكْذُوبُ: الَّذِي يتكلم بِهِ الْكَاذِبُ ، يُقَالُ: كَذَبَ الْخَبَرَ، إِذَا اخْتَلَقَهُ أَيْ: غَيْرُ كَذِبٍ، رُوِيَ أَنَّهُ قَالَ لَهُمْ: يَأْتِيكُمُ الْعَذَابُ بَعْدَ ثلاثة أيام

فتصبحون الْيَوْمِ الْأَوَّلِ وَوُجُوهُكُمْ مُصْفَرَّةٌ، وَفِي الْيَوْمِ الثَّانِي مُحْمَرَّةٌ، وَفِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ مُسْوَدَّةٌ، فَكَانَ كَمَا قَالَ، وأتاهم العذاب اليوم الرابع.

[٦٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾ بِنِعْمَةٍ مِنَّا، ﴿وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ﴾ [هود: ٦٦] أي: من عذابه، وهو أنه قَرَأَ أَبُو جَعْفَرٍ وَنَافِعٌ وَالْكِسَائِيُّ خزي يومئذ، وعذاب يَوْمَئِذٍ بِفَتْحِ الْمِيمِ. وَقَرَأَ الْبَاقُونَ بِالْكَسْرِ، ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾.

[٦٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ﴾ وَذَلِكَ أَنَّ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ صَاحَ عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَهَلَكُوا جَمِيعًا، وَقِيلَ: أَتَتْهُمْ صَيْحَةٌ مِنَ السَّمَاءِ فِيهَا صَوْتُ كُلِّ صَاعِقَةٍ وَصَوْتُ كُلِّ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ، فَتَقَطَّعَتْ قُلُوبُهُمْ فِي صُدُورِهِمْ، وَإِنَّمَا قال: أخذ والصيحة مُؤَنَّثَةٌ؛ لِأَنَّ الصَّيْحَةَ بِمَعْنَىٰ الصِّيَاحِ. ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ صَرْعَىٰ هَلْكَىٰ، أَيْ سَاقِطِينَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ، قَدْ لَصِقُوا بالتراب كالطير إذ جَثَمَتْ. وَالْجَاثِمُ: الْمُكِبُّ عَلَىٰ صَدْرِهِ فِي الْأَرْضِ مَعَ قَبْضِ سَاقَيْهِ كَمَا يَجْثُو الْأَرْنَبُ، كِنَايَةً عَنْ هُمُودِ الْجُثَّةِ بِالْمَوْتِ، وَالْمَعْنَىٰ أَنَّهُمْ أَصْبَحُوا جُثَثًا هَامِدَةً مَيِّتَةً عَلَىٰ أَبْشَعِ مَنْظَرٍ لِمَيِّتٍ.

[٦٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾ يقيموا ويكونوا، أَيْ كَأَنَّهُمْ لَمَّا أَصَابَتْهُمُ النِّقْمَةُ لَمْ يُقِيمُوا بِدِيَارِهِمُ الَّتِي أَرَادُوا إجلاء الرسول وصحبه منها. قَالَ ابْنُ عَطِيَّةَ: «الَّذِي اسْتَقْرَيْتُ مِنْ أَشْعَارِ الْعَرَبِ أَنَّ غَنِيَ مَعْنَاهُ: أَقَامَ إِقَامَةً مُقْتَرِنَةً بِتَنَعُّمِ عَيْشٍ وَيُشْبِهُ أَنْ تَكُونَ مَأْخُوذَةً مِنَ الِاسْتِغْنَاءِ» أَيْ كَأَنْ لم تكن لَهُم إِقَامَةٌ،

وَهَذَا إِنَّمَا يُعْنَىٰ بِهِ انْمِحاءُ آثَارِهِمْ كَمَا قَالَ: فَجَعَلْناها حَصِيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ ﴿أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾، يقول: ألا إن ثمود كفروا بآيات ربهم فجحدوها، ﴿أَلَا بُعْدًا لِثَمُودَ﴾، يقول: ألا أبعد الله ثمود! لنزول العذاب بهم.

[٦٩] قوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ جاءَتْ رُسُلُنا إِبْراهِيمَ بِالْبُشْرىٰ﴾ هَذِهِ قِصَّةُ لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَهُوَ ابْنُ عَمِّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَكَانَتْ قُرَىٰ لوط بنواحي الشام، وإبراهيم بِبِلَادِ فِلَسْطِينَ، فَلَمَّا أَنْزَلَ اللهُ الْمَلَائِكَةَ بِعَذَابِ قوم لوط ومروا بِإِبْرَاهِيمَ وَنَزَلُوا عِنْدَهُ، وَكَانَ كُلُّ مَنْ نَزَلَ عِنْدَهُ يُحْسِنُ قِرَاهُ، وَكَانُوا مَرُّوا بِبِشَارَةِ إِبْرَاهِيمَ، فظنهم أضيافا ، وهم جبريل وميكائيل وإسرافيل عليم السَّلَامُ، عَلَىٰ صُورَةِ الْغِلْمَانِ الحسان الوجوه، ذوو وَضَاءَةٍ وَجَمَالٍ بَارِعٍ ، ﴿ بِالْبُشْرىٰ ﴾ قِيلَ: بِالْوَلَدِ. وَقِيلَ: بِإِهْلَاكِ قَوْمِ لُوطٍ ، وَقِيلَ: بَشَّرُوهُ بِأَنَّهُمْ رُسُلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَأَنَّهُ لَا خَوْفَ عَلَيْهِ ، ﴿قَالُوا سَلَامًا﴾ أي: سلموا سلامًا، وَقِيلَ: ﴿ قالُوا سَلاماً﴾ أَيْ فَاتَحُوهُ بِصَوَابٍ مِنَ الْقَوْلِ، كَمَا قَالَ: ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴾ [الفرقان : ٦٣] ﴿قَالَ﴾ إبراهيم ﴿سَلَامٌ﴾ أَيْ: عَلَيْكُمْ سَلَامٌ: وَقِيلَ: هُوَ رَفْعٌ عَلَىٰ الْحِكَايَةِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ قِيلَ: هُوَ بِمَعْنَىٰ السَّلَامِ، كَمَا يُقَالُ: حِلٌّ وَحَلَالٌ وَحِرْمٌ وَحَرَامٌ، وَقِيلَ: هُوَ بِمَعْنَىٰ الصُّلْحِ، أَيْ: نَحْنُ سِلْمٌ أَيْ صُلْحٌ لَكُمْ غَيْرُ حَرْبٍ ، ﴿فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ والحنيذ المحنوذ وهو الْمَشْوِيُّ عَلَىٰ الْحِجَارَةِ فِي خَدٍّ مِنَ الْأَرْضِ،وَجَعَلْتُ فَوْقَهَا حِجَارَةً مُحْمَاةً لِتُنْضِجَهَا فَهِيَ حَنِيذٌ. وَكَانَ سَمِينًا يَسِيلُ دَسَمًا، كَمَا قَالَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ: ﴿فَجَاءَ

بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ قَالَ قَتَادَةُ: كَانَ عَامَّةُ مَالِ إِبْرَاهِيمَ الْبَقَرُ، وفي الحديث أنه صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ جَارَهُ وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ**»(١).

[٧٠] قوْلُهُ تعَالَىٰ: ﴿فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ﴾ أي: إلىٰ العجل، ﴿نَكِرَهُمْ﴾ أنكرهم، ﴿وَأَوْجَسَ﴾ أضمر، ﴿مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ خوْفًا، قَالَ مُقَاتِلٌ: وَقَعَ فِي قَلْبِهِ، وَأَصْلُ الْوُجُوسِ: الدُّخُولُ، كَانَ الْخَوْفُ دَخَلَ قَلْبَهُ، وَقَالَ قَتَادَةُ: وَذَلِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا نَزَلَ بِهِمْ ضَيْفٌ فَلَمْ يَأْكُلْ مِنْ طَعَامِهِمْ ظَنُّوا أَنَّهُ لَمْ يَأْتِ بِخَيْرٍ، وَإِنَّمَا جَاءَ بَشَرّ، ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ﴾ يا إبراهيم، ﴿إِنَّا﴾ مَلَائِكَةُ اللهِ ﴿أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾.

[٧١] قوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَامْرَأَتُهُ﴾ سارة بنت هارون بنِ أَحْوَرَ وَهِيَ ابْنَةُ عَمِّ إبراهيم، ﴿قَائِمَةٌ﴾ مِنْ وَرَاءِ السِّتْرِ تَسْمَعُ كَلَامَهُمْ، وَقِيلَ: كَانَتْ قَائِمَةً تَخْدِمُ الرُّسُلَ وإبراهيم جالس معهم، ﴿فَضَحِكَتْ﴾ الْأَكْثَرُونَ عَلَىٰ أَنَّ الْمُرَادَ مِنْهُ الضَّحِكُ الْمَعْرُوفُ، وَاخْتَلَفُوا فِي سَبَبِ ضَحِكِهَا، فقيل: ضَحِكَتْ لِزَوَالِ الْخَوْفِ عَنْهَا وَعَنْ إِبْرَاهِيمَ حِينَ قَالُوا لَا تَخَفْ، وَقَالَ السُّدِّيُّ: لَمَّا قَرَّبَ إِبْرَاهِيمُ الطَّعَامَ إِلَيْهِمْ فَلَمْ يَأْكُلُوا خَافَ إِبْرَاهِيمُ، وَظَنَّهُمْ لُصُوصًا فَقَالَ لَهُمْ: أَلَا تَأْكُلُونَ؟ قَالُوا: إِنَّا لَا نأكل طعامًا إلا بثمن، قال إِبْرَاهِيمُ: فَإِنَّ لَهُ ثَمَنًا، قَالُوا وَمَا ثَمَنُهُ؟ قَالَ

---

(١) البخاري (٦٠١٩) من حديث أبي هريرة.

تَذْكُرُونَ اسْمَ اللهِ عَلَىٰ أَوَّلِهِ وَتَحْمَدُونَهُ عَلَىٰ آخِرِهِ، فَنَظَرَ جِبْرِيلُ إِلَىٰ مِيكَائِيلَ عليهم الصلاة والسلام، وَقَالَ: حُقَّ لِهَذَا أَنْ يَتَّخِذَهُ رَبُّهُ خَلِيلًا، فَلَمَّا رَأَىٰ إِبْرَاهِيمُ وَسَارَّةُ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ ضَحِكَتْ سَارَّةُ، وَقَالَتْ: يَا عَجَبًا لِأَضْيَافِنَا إِنَّا نَخْدِمُهُمْ بِأَنْفُسِنَا تَكْرِمَةً لَهُمْ، وَهُمْ لَا يَأْكُلُونَ طَعَامَنَا، وَقَالَ قَتَادَةُ: ضَحِكَتْ مِنْ غَفْلَةِ قَوْمِ لُوطٍ وَقُرْبِ الْعَذَابِ مِنْهُمْ، وَقَالَ مُقَاتِلٌ وَالْكَلْبِيُّ: ضَحِكَتْ مِنْ خَوْفِ إِبْرَاهِيمَ مِنْ ثَلَاثَةٍ فِي بَيْتِهِ وَهُوَ فِيمَا بَيْنَ خَدَمِهِ وحشمه، وقيل: ضَحِكَتْ سُرُورًا بِالْبِشَارَةِ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَوَهْبٌ: ضَحِكَتْ تَعَجُّبًا مِنْ أَنْ يَكُونَ لَهَا وَلَدٌ عَلَىٰ كِبَرِ سِنِّهَا وَسِنِّ زَوْجِهَا، وَعَلَىٰ هَذَا الْقَوْلِ تَكُونُ الْآيَةُ عَلَىٰ التَّقْدِيمِ وَالتَّأْخِيرِ، تَقْدِيرُهُ : وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ، وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ، فَضَحِكَتْ، وَقَالَتْ: يا ويلتي أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ؟ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ﴾ أَيْ: مِنْ بَعْدِ إِسْحَاقَ، ﴿يَعْقُوبَ﴾ أراد به والدًا لولد فَبُشِّرَتْ أَنَّهَا تَعِيشُ حَتَّىٰ تَرَىٰ وَلَدَ وَلَدِهَا.

[٧٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَتْ يا وَيْلَتَىٰ﴾ نِدَاءُ نُدْبَةٍ وَهِيَ كَلِمَةٌ يَقُولُهَا الْإِنْسَانُ عِنْدَ رُؤْيَةِ مَا يُتَعَجَّبُ مِنْهُ، أَيْ: يَا عَجَبًا، وَالْأَصْلُ يَا وَيْلَتَاهُ ، ﴿أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ﴾ وَكَانَتِ ابْنَةَ تِسْعِينَ سَنَةً فِي قَوْلِ ابْنِ إِسْحَاقَ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: تِسْعًا وَتِسْعِينَ سَنَةً. ﴿وَهَذَا بَعْلِي﴾ أي: زَوْجِي، سُمِّيَ بِذَلِكَ؛ لِأَنَّهُ قَيِّمُ أمرها، وَأَصْلُ الْبَعْلِ فِي كَلَامِهِمْ: السَّيِّدُ ، وَهُوَ كَلِمَةٌ سَامِيَّةٌ قَدِيمَةٌ، فَقَدْ سَمَّىٰ الْكَنْعَانِيُّونَ (الْفِينِيقِيُّونَ) مَعْبُودَهُمْ بَعْلًا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ﴾ وَسُمِّيَ بِهِ

الزَّوْجُ لِأَنَّهُ مَلَكَ أَمْرَ عِصْمَةِ زَوْجِهِ، وَلِأَنَّ الزَّوْجَ كَانَ يُعْتَبَرُ مَالِكًا لِلْمَرْأَةِ وَسَيِّدًا لَهَا، ﴿شَيْخًا﴾ وَكَانَ سِنُّ إِبْرَاهِيمَ مِائَةً وَعِشْرِينَ سَنَةً فِي قَوْلِ ابْنِ إِسْحَاقَ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: مِائَةُ سَنَةٍ، وَكَانَ بَيْنَ الْبِشَارَةِ وَالْوِلَادَةِ سَنَةٌ، ﴿إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ .

[٧٣] قوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالُوا﴾ يَعْنِي الْمَلَائِكَةَ، ﴿أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللهِ﴾ مَعْنَاهُ: لَا تَعْجَبِي مِنْ أَمْرِ اللهِ، فَإِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ إذا أراد شيئًا كان ، ﴿رَحْمَتُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ أَيْ: بَيْتِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، قِيلَ: هَذَا عَلَىٰ مَعْنَىٰ الدُّعَاءِ مَعْنَىٰ الْخَيْرِ وَالرَّحْمَةِ وَالنِّعْمَةِ، وَالْبَرَكَاتُ جَمْعُ الْبَرَكَةِ، وَهِيَ ثُبُوتُ الْخَيْرِ، وَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَىٰ أَنَّ الْأَزْوَاجَ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ ، ﴿إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ﴾ فَالْحَمِيدُ: الْمَحْمُودُ فِي أَفْعَالِهِ، وَالْمَجِيدُ: الْكَرِيمُ، وَأَصْلُ الْمَجْدِ الرِّفْعَةُ.

[٧٤] قوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ﴾ الخوف، ﴿وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ﴾ بِإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ، ﴿يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾ أَيْ: أَخَذَ وَظَلَّ يُجَادِلُنَا، قِيلَ: مَعْنَاهُ يُكَلِّمُنَا؛ لِأَنَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَا يُجَادِلُ رَبَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، إِنَّمَا يَسْأَلُهُ وَيَطْلُبُ إِلَيْهِ، وَقَالَ عَامَّةُ أَهْلِ التَّفْسِيرِ: مَعْنَاهُ يُجَادِلُ رُسُلَنَا، وَكَانَتْ مُجَادَلَتُهُ أَنَّهُ قَالَ لِلْمَلَائِكَةِ: أَرَأَيْتُمْ لَوْ كَانَ فِي مَدَائِنِ لُوطٍ خَمْسُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَتُهْلِكُونَهُمْ؟ قَالُوا: لَا، قَالَ: أَوْ أَرْبَعُونَ؟ قَالُوا: لَا، قَالَ: أَوْ ثَلَاثُونَ؟ قَالُوا: لَا، حَتَّىٰ بَلَغَ خَمْسَةً، قَالُوا: لَا، قَالَ: أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ فِيهَا رَجُلٌ وَاحِدٌ مُسْلِمٌ أَتُهْلِكُونَهَا؟ قالوا: لا، قال لهم إبراهيم عِنْدَ ذَلِكَ: إِنَّ فِيهَا لُوطًا، قَالُوا، نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا، لَنُنْجِيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ من الغابرين، فذلك قول إخبار عن إبراهيم عليه السلام:

﴿يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾، قال ابن عاشور: وَالْمُجَادَلَةُ هُنَا: دُعَاءٌ وَمُنَاجَاةٌ سَأَلَ بِهَا إِبْرَاهِيمُ- عَلَيْهِ السَّلَامُ- رَبَّهُ الْعَفْوَ عَنْ قَوْمِ لُوطٍ خَشْيَةَ إِهْلَاكِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُمْ.

[٧٥] قوْلُهُ تَعالَىٰ: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾ وَالْمُنِيبُ الرَّاجِعُ، يُقَالُ: أَنَابَ إِذَا رَجَعَ، وَإِبْرَاهِيمُ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ رَاجِعًا إِلَىٰ اللهِ فِي أُمُورِهِ كُلِّهَا وَقِيلَ: الْأَوَّاهُ الْمُتَأَوِّهُ أَسَفًا عَلَىٰ مَا قَدْ فَاتَ قَوْمَ لُوطٍ مِنَ الْإِيمَانِ.

[٧٦] قوْلُهُ تَعالَىٰ: ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾ أَيْ: أَعْرِضْ عَنْ هَذَا الْمَقَالِ وَدَعْ عَنْكَ الْجِدَالَ، ﴿إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ أَيْ: عَذَابُ رَبِّكَ وَحُكْمُ رَبِّكَ، ﴿وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ﴾ نَازِلٌ بِهِمْ، ﴿عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ أَيْ غَيْرُ مَصْرُوفٍ عَنْهُمْ.

[٧٧] قَوْلُهُ تعالىٰ: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا﴾ يعني: هؤلاء الملائكة، ﴿لُوطًا﴾ عَلَىٰ صُورَةِ غِلْمَانٍ مُرْدٍ حِسَانِ الوجوه، ﴿سِيءَ بِهِمْ﴾ أَيْ: حَزِنَ لُوطٌ بِمَجِيئِهِمْ، يُقَالُ: سُؤْتُهُ فَسِيءَ، كَمَا يُقَالُ: سَرَرْتُهُ فسر، ﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ أَيْ: قَلْبًا، يُقَالُ: ضَاقَ ذَرْعُ فُلَانٍ بِكَذَا إِذَا وَقَعَ فِي مَكْرُوهٍ لَا يُطِيقُ الْخُرُوجَ مِنْهُ، وَذَلِكَ أَنَّ لُوطًا عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا نَظَرَ إِلَىٰ حُسْنِ وُجُوهِهِمْ وَطِيبِ رَوَائِحِهِمْ أَشْفَقَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَوْمِهِ أَنْ يَقْصِدُوهُمْ بِالْفَاحِشَةِ، وَعَلِمَ أَنَّهُ سَيَحْتَاجُ إِلَىٰ الْمُدَافَعَةِ عَنْهُمْ، ﴿وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ أَيْ: شَدِيدٌ كَأَنَّهُ عُصِبَ بِهِ الشَّرُّ وَالْبَلَاءُ، أَيْ: شُدَّ، قَالَ قَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ: خَرَجَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ عِنْدِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ نَحْوَ قَرْيَةِ قوم لُوطٍ فَأَتَوْا لُوطًا نِصْفَ النَّهَارِ، وَهُوَ فِي أَرْضٍ لَهُ يَعْمَلُ فِيهَا، وَقِيلَ: إِنَّهُ كَانَ يَحْتَطِبُ،

وَرُوِيَ أَنَّهُ حَمَلَ الْحَطَبَ وَتَبِعَتْهُ الْمَلَائِكَةُ فَمَرَّ عَلَىٰ جَمَاعَةٍ مِنْ قَوْمِهِ فَغَمَزُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ، فَقَالَ لُوطٌ: إِنَّ قَوْمِي شَرُّ خَلْقِ اللهِ، ثُمَّ مَرَّ عَلَىٰ قَوْمٍ آخَرِينَ: فَغَمَزُوا فَقَالَ لوط مثله، ثم مر بقوم فَقَالَ مِثْلَهُ، ثُمَّ مَرَّ بِقَوْمٍ آخَرِينَ، فَقَالَ مَثَلَهُ، فَكَانَ كُلَّمَا قال لوط هذا القوال قَالَ جِبْرِيلُ لِلْمَلَائِكَةِ: اشْهَدُوا حَتَّىٰ أَتَىٰ مَنْزِلَهُ، وَرُوِيَ: أَنَّ الْمَلَائِكَةَ جاؤوا إِلَىٰ بَيْتِ لُوطٍ فَوَجَدُوهُ فِي دَارِهِ وَلَمْ يَعْلَمْ بِذَلِكَ أَحَدٌ إِلَّا أَهْلَ بَيْتِ لُوطٍ، فَخَرَجَتِ امْرَأَتُهُ فَأَخْبَرَتْ قَوْمَهَا، وَقَالَتْ: إِنَّ فِي بَيْتِ لُوطٍ رِجَالًا مَا رَأَيْتُ مِثْلَ وُجُوهِهِمْ قَطُّ، ﴿وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ أَيْ شَدِيدٌ فِي الشَّرِّ، وَيُقَالُ: عَصِيبٌ عَلَىٰ التَّكْثِيرِ، وَمِنْهُ قيل: عصبة وعصابة أي مجتمعوا الْكَلِمَةِ، قال ابن عباس: شَدِيدٌ بَلَاؤُهُ، وَذَلِكَ أَنَّهُ عَلِمَ أَنَّهُ سَيُدَافِعُ عَنْهُمْ وَيَشُقُّ عَلَيْهِ ذَلِكَ.

[٧٨] قَوْلُهُ تعالىٰ: ﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يُسْرِعُونَ إِلَيْهِ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: يُهَرْوِلُونَ وَقَالَ الْحَسَنُ البصري: مَشْيٌ بَيْنَ مِشْيَتَيْنِ، قال أَهْلُ اللُّغَةِ: لَا يَكُونُ الْإِهْرَاعُ إِلَّا إِسْرَاعًا مَعَ رِعْدَةٍ، يُقَالُ: أَهْرَعَ الرَّجُلُ إِهْرَاعًا أَيْ أَسْرَعَ فِي رِعْدَةٍ مِنْ بَرْدٍ أَوْ غَضَبٍ أَوْ حُمَّىٰ، وَهُوَ مهرع، ﴿وَمِنْ قَبْلُ﴾ أَيْ: مِنْ قَبْلِ مَجِيئِهِمْ إِلَىٰ لوط، ﴿كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ كَانُوا يَأْتُونَ الرِّجَالَ فِي أَدْبَارِهِمْ ، ﴿قَالَ﴾ لَهُمْ لُوطٌ حِينَ قَصَدُوا أَضْيَافَهُ، وَظَنُّوا أَنَّهُمْ غِلْمَانٌ، ﴿يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ يَعْنِي: بِالتَّزْوِيجِ، وَفِي أَضْيَافِهِ بِبَنَاتِهِ، وَكَانَ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ، تَزْوِيجُ الْمُسْلِمَةِ مِنَ الْكَافِرِ جَائِزًا كَمَا زَوجِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ابْنَتَهُ مِنْ عُتْبَةَ بْنِ أَبِي لَهَبٍ وَأَبِي العاصِ بْنِ الرَّبِيعِ قَبْلَ الْوَحْيِ، وَكَانَا كَافِرَيْنِ،

وَقَالَ الْحُسَيْنُ بْنُ الْفَضْلِ: عَرَضَ بَنَاتَهُ عَلَيْهِمْ بِشَرْطِ الْإِسْلَامِ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: قَوْلُهُ ﴿بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ أَرَادَ نِسَاءَهُمْ وَأَضَافَ إِلَىٰ نَفْسِهِ؛ لِأَنَّ كُلَّ نَبِيٍّ أَبُو أُمَّتِهِ، ﴿فَاتَّقُوا اللهَ وَلَا تُخْزُونِي فِي ضَيْفِي﴾ أَيْ: خَافُوا اللهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضيفي، أي: لا تسوؤني وَلَا تَفْضَحُونِي فِي أَضْيَافِي ، ﴿أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾ صالح سديد، وقال عِكْرِمَةُ: رَجُلٌ يَقُولُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَقَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: رَجُلٌ يَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰ عَنِ المنكر.

[٧٩] قَوْلُهُ تعالىٰ: ﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ﴾ يا لُوطُ، ﴿مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ أَيْ: لَسْنَ أَزْوَاجًا لَنَا فَنَسْتَحِقُّهُنَّ بِالنِّكَاحِ، وَقِيلَ: مَعْنَاهُ مَا لَنَا فِيهِنَّ مِنْ حَاجَةٍ وَشَهْوَةٍ. ﴿وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ من إتيان الرجال.

[٨٠] قَوْلُهُ تعالىٰ: ﴿قَالَ﴾ لَهُمْ لُوطٌ عِنْدَ ذَلِكَ ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً﴾ أراد قوة البدن والقوة بِالْأَتْبَاعِ، ﴿أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ أَيْ: أَنْضَمُّ إِلَىٰ عَشِيرَةٍ مَانِعَةٍ، قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: مَا بَعَثَ اللهُ بَعْدَهُ نَبِيًّا إِلَّا فِي مَنَعَةٍ مِنْ عشيرته، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَأَهْلُ التَّفْسِيرِ: أَغْلَقَ لُوطٌ بَابَهُ وَالْمَلَائِكَةُ مَعَهُ فِي الدَّارِ، وَهُوَ يُنَاظِرُهُمْ وَيُنَاشِدُهُمْ مِنْ وَرَاءِ الْبَابِ، وَهُمْ يُعَالِجُونَ تَسَوُّرَ الْجِدَارِ، فَلَمَّا رَأَتِ الْمَلَائِكَةُ مَا يَلْقَىٰ لُوطٌ بِسَبَبِهِمْ.

[٨١] قَوْلُهُ تعالىٰ: ﴿قَالُوا يا لُوطُ﴾ إِنَّ رُكْنَكَ لَشَدِيدٌ، ﴿إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾ فَافْتَحِ الْبَابَ وَدَعْنَا وَإِيَّاهُمْ فَفَتَحَ الْبَابَ فَدَخَلُوا فَاسْتَأْذَنَ جِبْرِيلُ رَبَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي عُقُوبَتِهِمْ، فَأَذِنَ له، فقام، فَضَرَبَ بِجَنَاحِهِ وُجُوهَهُمْ فَطَمَسَ

أَعْيُنَهُمْ، وأعمىٰ أبصارهم، فَصَارُوا لَا يَعْرِفُونَ الطَّرِيقَ، وَلَا يَهْتَدُونَ إِلَىٰ بُيُوتِهِمْ فَانْصَرَفُوا وَهُمْ يَقُولُونَ: النَّجَاءَ النَّجَاءَ، فَإِنَّ فِي بَيْتِ لُوطٍ أَسْحَرَ قَوْمٍ فِي الْأَرْضِ سَحَرُونَا، وَجَعَلُوا يَقُولُونَ: يَا لُوطُ كَمَا أَنْتَ حَتَّىٰ تُصْبِحَ فَسَتَرَىٰ مَا تَلْقَىٰ مِنَّا غَدًا؛ يوعدونه، فقالت الملائكة: لا تخف إنا أرسلنا لإهلاكهم، فَقَالَ لُوطٌ لِلْمَلَائِكَةِ: مَتَىٰ مَوْعِدُ إهلاكهم؟ فقالوا: الصبح، قال: أُرِيدُ أَسْرَعَ مِنْ ذَلِكَ فَلَوْ أَهْلَكْتُمُوهُمُ الْآنَ، فَقَالُوا: ﴿أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ ثم قالوا، ﴿فَأَسْرِ﴾ يا لوط، ﴿بِأَهْلِكَ﴾ وَهُوَ الْمَسِيرُ بِاللَّيْلِ، ﴿بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: بِطَائِفَةٍ مِنَ اللَّيْلِ، وَقَالَ الضَّحَّاكُ: بِبَقِيَّةٍ، وَقَالَ قَتَادَةُ: بَعْدَ مُضِيِّ أَوَّلِهِ، وَقِيلَ: إِنَّهُ السَّحَرُ الْأَوَّلُ. ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ﴾ أَيْ: لَا يَلْتَفِتُ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتُكَ فَإِنَّهَا تَلْتَفِتُ فَتَهْلِكُ، وَكَانَ لُوطٌ قَدْ أخرجها معه، ونهىٰ من معه مِمَّنْ أَسْرَىٰ بِهِمْ أَنْ يَلْتَفِتَ سِوَىٰ زَوْجَتِهِ، فَإِنَّهَا لَمَّا سَمِعَتْ هَدَّةَ الْعَذَابِ الْتَفَتَتْ، وَقَالَتْ: يَا قَوْمَاهُ، فَأَدْرَكَهَا حَجَرٌ فَقَتَلَهَا، ﴿إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ﴾ مِنَ الْعَذَابِ، ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ﴾ أَيْ: مَوْعِدُ هَلَاكِهِمْ وَقْتُ الصُّبْحِ، فَقَالَ لُوطٌ: أُرِيدُ أَسْرَعَ مِنْ ذَلِكَ، فَقَالُوا: ﴿أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ .

[٨٢] قَوْلُهُ تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ عذابنا، وَكَانَ ذَلِكَ عِندَ طلوع الشمس ﴿جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا﴾ أَيْ عَلَىٰ شُذَّاذِهَا وَمُسَافِرِيهَا. وَقِيلَ: بَعْدَمَا قَلَبَهَا أَمْطَرَ عَلَيْهَا، ﴿حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ أي حِجَارَةً مِّن طِينٍ، قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ. وقد قاله في الآية الأخرىٰ: ﴿حِجَارَةً مِّن طِينٍ﴾ أَيْ مُسْتَحْجَرَةً

قَوِيَّةً شَدِيدَةً، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: مَشْوِيَّةٌ، وَقَالَ الْبُخَارِيُّ: ﴿سِجِّيلٍ﴾ الشَّدِيدُ الْكَبِيرُ، سِجِّيلٌ وَسِجِّينٌ اللام والنون أختان، وَقَوْلُهُ: ﴿مَّنْضُودٍ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: مَنْضُودَةٌ فِي السَّمَاءِ أَيْ مُعَدَّةٌ لِذَلِكَ. وَقَالَ آخَرُونَ: ﴿مَّنْضُودٍ﴾ أَيْ يتبع بعضهم بَعْضًا فِي نُزُولِهَا عَلَيْهِمْ، وَقَوْلُهُ: ﴿مُّسَوَّمَةً﴾ أَيْ معلمة كُلُّ حَجَرٍ مَكْتُوبٌ عَلَيْهِ اسْمُ الَّذِي يَنْزِلُ عليه، فَبَيْنَا أَحَدُهُمْ يَكُونُ عِنْدَ النَّاسِ يَتَحَدَّثُ، إِذْ جَاءَهُ حَجَرٌ مِنَ السَّمَاءِ فَسَقَطَ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِ النَّاسِ فَدَمَّرَهُ، فَتَتَبَّعُهُمُ الْحِجَارَةُ مِنْ سَائِرِ الْبِلَادِ حَتَّىٰ أَهْلَكَتْهُمْ عَنْ آخِرِهِمْ، فَلَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ أَحَدٌ، وقال قَتَادَةَ وَغَيْرِهِ: بَلَغَنَا أَنَّ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لما أصبح نشر جناحه فانتسف بها أرضهم بما فيهم مِنْ قُصُورِهَا وَدَوَابِّهَا وَحِجَارَتِهَا وَشَجَرِهَا وَجَمِيعِ مَا فِيهَا، فَضَمَّهَا فِي جَنَاحِهِ، فَحَوَاهَا وَطَوَاهَا فِي جَوْفِ جَنَاحِهِ، ثُمَّ صَعِدَ بِهَا إِلَىٰ السَّمَاءِ الدُّنْيَا حَتَّىٰ سَمِعَ سُكَّانُ السَّمَاءِ أَصْوَاتَ النَّاسِ وَالْكِلَابِ، وَكَانُوا أَرْبَعَةَ آلَافِ أَلْفٍ، ثُمَّ قَلَبَهَا، فَأَرْسَلَهَا إِلَىٰ الْأَرْضِ مَنْكُوسَةً، وَدَمْدَمَ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ، فجعل عليها سافلها، ثم أتبعها حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ، قال تَعَالَىٰ: ﴿جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ فَأَهْلَكَهَا اللهُ وَمَا حَوْلَهَا مِنَ المؤتفكات، ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا﴾ أي في القرىٰ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ، قال القرطبي : قَوْلُهُ تعالىٰ: ﴿وَأَمْطَرْنا عَلَيْهِمْ حِجارَةً مِنْ سِجِّيلٍ﴾ دَلِيلٌ عَلَىٰ أَنَّ مَنْ فَعَلَ فِعْلَهُمْ حُكْمُهُ الرَّجْمُ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ أَيْ وَمَا هَذِهِ النِّقْمَةُ مِمَّنْ تَشَبَّهَ بِهِمْ فِي ظلمهم ببعيد

عنه.وَفِي بَعْضِ الْآثَارِ: مَا مِنْ ظَالِمٍ إِلَّا وَهُوَ بِعُرْضِ حَجَرٍ يُسْقَطُ عَلَيْهِ مِنْ ساعة إلىٰ ساعة.

[٨٤] قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ﴾ أَيْ وَأَرْسَلْنَا إِلَىٰ مَدْيَنَ، وَمَدْيَنُ هُمْ قَوْمُ شُعَيْبٍ، وَفِي تَسْمِيَتِهِمْ بِذَلِكَ قَوْلَانِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّهُمْ بَنُو مَدْيَنَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ، فَقِيلَ: مَدْيَنُ وَالْمُرَادُ بَنُو مَدْيَنَ ، كَمَا يُقَالُ مُضَرُ وَالْمُرَادُ بَنُو مُضَرَ.

الثَّانِي- أَنَّهُ اسْمُ مَدِينَتِهِمْ، فَنُسِبُوا إِلَيْهَا.

قَوْلُهُ : ﴿أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ﴾ تَقَدَّمَ ، ﴿وَلا تَنْقُصُوا الْمِكْيالَ وَالْمِيزانَ﴾ كَانُوا مَعَ كُفْرِهِمْ أَهْلَ بَخْسٍ وَتَطْفِيفٍ، كَانُوا إِذَا جَاءَهُمُ الْبَائِعُ بِالطَّعَامِ أَخَذُوا بِكَيْلٍ زَائِدٍ، وَاسْتَوْفَوْا بِغَايَةِ مَا يَقْدِرُونَ عَلَيْهِ وَظَلَمُوا، وَإِنْ جَاءَهُمْ مشتر للطعام باعوه بكيل ناقص، وشحوا لَهُ بِغَايَةِ مَا يَقْدِرُونَ، فَأُمِرُوا بِالْإِيمَانِ إِقْلَاعًا عَنِ الشِّرْكِ، وَبِالْوَفَاءِ نَهْيًا عَنِ التَّطْفِيفِ ،﴿إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: مُوسِرِينَ فِي نِعْمَةٍ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: فِي خِصْبٍ وَسَعَةٍ، فَحَذَّرَهُمْ زَوَالَ النِّعْمَةِ وَغَلَاءَ السِّعْرِ وَحُلُولَ النِّقْمَةِ، إِنْ لَمْ يتوبوا، وَقَالَ الْحَسَنُ البصري: كَانَ سِعْرُهُمْ رَخِيصًا ، ﴿وَإِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عذابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ﴾ وَصَفَ الْيَوْمَ بِالْإِحَاطَةِ، وَأَرَادَ وَصْفَ ذَلِكَ الْيَوْمِ بِالْإِحَاطَةِ بِهِمْ، فَإِنَّ يَوْمَ الْعَذَابِ إِذَا أَحَاطَ بِهِمْ فَقَدْ أَحَاطَ الْعَذَابُ بِهِمْ، وَهُوَ كَقَوْلِكَ: يَوْمٌ شَدِيدٌ، أَيْ شَدِيدٌ حَرُّهُ ، وَاخْتُلِفَ فِي ذَلِكَ الْعَذَابِ، فَقِيلَ: هُوَ عَذَابُ النَّارِ فِي الآخرة،

وَقِيلَ: عَذَابُ الِاسْتِئْصَالِ فِي الدُّنْيَا ، وَقِيلَ: غَلَاءُ السِّعْرِ، وَفِي الْحَدِيثِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « **مَا أَظْهَرَ قَوْمٌ الْبَخْسَ فِي الْمِكْيَالِ وَالْمِيزَانِ إِلَّا ابْتَلَاهُمُ اللهُ بِالْقَحْطِ وَالْغَلَاءِ**»(١).

[٨٢] قَوْلُهُ تعالىٰ: ﴿وَيا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيالَ وَالْمِيزانَ بِالْقِسْطِ﴾ أَمَرَ بِالْإِيفَاءِ بَعْدَ أَنْ نَهَىٰ عَنِ التَّطْفِيفِ تَأْكِيدًا ، وَالْإِيفَاءُ الْإِتْمَامُ ، ﴿بِالْقِسْطِ﴾ أَيْ بِالْعَدْلِ والحق، والمقصود أن يصل كل ذي كل نَصِيبٍ إِلَىٰ نَصِيبِهِ، وَلَيْسَ يُرِيدُ إِيفاءَ الْمِكْيَالِ وَالْمَوْزُونِ لِأَنَّهُ لَمْ يَقُلْ: أَوْفُوا بِالْمِكْيَالِ وَبِالْمِيزَانِ، بَلْ أَرَادَ أَلَّا تُنْقِصُوا حَجْمَ الْمِكْيَالِ عَنِ الْمَعْهُودِ، وَكَذَا الصَّنَجَاتِ، ﴿وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْياءَهُمْ﴾ أَيْ لَا تُنْقِصُوهُمْ مِمَّا اسْتَحَقُّوهُ شَيْئًا ، ﴿وَلا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ بَيَّنَ أَنَّ الْخِيَانَةَ فِي الْمِكْيَالِ وَالْمِيزَانِ مُبَالَغَةٌ فِي الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ، وَالْعَثْيُ هُوَ: الْفَسَادُ، وَالْمُرَادُ: النَّهْيُ عَنِ الْفَسَادِ كُلِّهِ، قَالَ ابْنُ عَطَاءِ اللهِ: «مَنْ لَمْ يَشْكُرِ النِّعَمَ فَقَدْ تَعَرَّضَ لِزَوَالِهَا وَمَنْ شَكَرَهَا فَقَدْ قَيَّدَهَا بِعِقَالِهَا» .

[٨٦] قَوْلُهُ تعالىٰ: ﴿بَقِيَّتُ اللهِ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: يَعْنِي مَا أَبْقَىٰ اللهُ لَكُمْ مِنَ الْحَلَالِ بَعْدَ إِيفَاءِ الْكَيْلِ وَالْوَزْنِ خَيْرٌ مِمَّا تَأْخُذُونَهُ بالتطفيف، وقال مجاهد: بقيت اللهِ أَيْ: طَاعَةُ اللهِ خَيْرٌ لكم إن كنتم مؤمنين أن مَا عِنْدَكُمْ مِنْ رِزْقِ اللهِ وَعَطَائِهِ ، قال ابن عاشور: وَفِي كَلِمَةِ (الْبَقِيَّةِ) مَعْنًىٰ آخَرُ

---

(١) ابن ماجه (٤٠١٩) والحاكم (٨٦٢٣) .

وَهُوَ الْإِبْقَاءُ عَلَيْهِمْ، وَالْعَرَبُ يَقُولُونَ عِنْدَ طَلَبِ الْكَفِّ عَنِ الْقِتَالِ: ابْقُوا عَلَيْنَا، وَالْمَعْنَىٰ إِبْقَاءُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَنَجَاتُكُمْ مِنْ عَذَابِ الِاسْتِئْصَالِ خَيْرٌ لَكُمْ مِنْ هَذِهِ الْأَعْرَاضِ الْعَاجِلَةِ السَّيِّئَةِ الْعَاقِبَةِ، فَيَكُونُ تَعْرِيضًا بِوَعِيدِ الِاسْتِئْصَالِ، ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ شَرَطَ هَذَا لِأَنَّهُمْ إِنَّمَا يَعْرِفُونَ صِحَّةَ هَذَا إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ، وَقِيلَ: يَحْتَمِلُ أَنَّهُمْ كَانُوا يَعْتَرِفُونَ بِأَنَّ اللهَ خَالِقُهُمْ فَخَاطَبَهُمْ بِهَذَا، ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ أَيْ رَقِيبٍ أَرْقُبُكُمْ عِنْدَ كَيْلِكُمْ وَوَزْنِكُمْ، أَيْ لَا يُمْكِنُنِي شُهُودُ كُلِّ مُعَامَلَةٍ تَصْدُرُ مِنْكُمْ حَتَّىٰ أُؤَاخِذُكُمْ بِإِيفَاءِ الْحَقِّ، وَقِيلَ: أَيْ لَا يَتَهَيَّأُ لِي أَنْ أَحْفَظَكُمْ مِنْ إِزَالَةِ نِعَمِ اللهِ عَلَيْكُمْ بِمَعَاصِيكُمْ.

[٨٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ﴾ كَانَ شُعَيْبٌ - صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ - فِيمَا ذُكِرَ كَثِيرَ الصَّلَاةِ، قَالَ الْقُرْطُبِيُّ: فَلَمَّا أَمَرَهُمْ وَنَهَاهُمْ عَيَّرُوهُ بِمَا رَأَوْهُ يَسْتَمِرُّ عَلَيْهِ مِنْ كَثْرَةِ الصَّلَاةِ، وَاسْتَهْزَؤُوا بِهِ، أَيْ: أَهَلْ صَلَاتُكَ وَقِرَاءَتُكَ تَأْمُرُكَ بِتَرْكِ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ وَالْأَوْثَانِ، وَقَالَ الْحَسَنُ البصري: إِيْ وَاللهِ إِنَّ صَلَاتَهُ لَتَأْمُرُهُمْ أَنْ يَتْرُكُوا مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ، ﴿تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ مِنَ الْأَوْثَانِ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: كَانَ شُعَيْبٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَثِيرَ الصَّلَاةِ، لِذَلِكَ قَالُوا هَذَا، ﴿أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ﴾ أو أن نترك أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نشاء من الزيادة والنقصان. ﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: أَرَادُوا السَّفِيهَ الْغَاوِيَ، وَالْعَرَبُ تَصِفُ الشَّيْءَ بِضِدِّهِ فَتَقُولُ: لِلَّدِيغِ سليم وللفلاة مفازة، وقيل: قالوه عَلَىٰ وَجْهِ الِاسْتِهْزَاءِ،

وَقِيلَ: مَعْنَاهُ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ بِزَعْمِكَ، وَقِيلَ: هُوَ عَلَىٰ الصِّحَّةِ أَيْ: إِنَّكَ يَا شُعَيْبُ فِيْنَا حَلِيمٌ رَشِيدٌ لَا يَجْمُلُ بِكَ شَقُّ عَصَا قَوْمِكَ ومخالفة دينهم، وهذا كَمَا قَالَ قَوْمُ صَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا﴾ [هود: ٦٢].

[٨٩] قَوْلُهُ تَعَالىٰ: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي ﴾ أي: ما ظنكم لو كنت علىٰ بصيرة وبرهان من ربي فيما أدعوكم إليه من إفراد الله تعالىٰ بالعبادة، وحفظ الأموال وترك الغش والخداع ، ﴿ وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ حَلَالًا، وَقِيلَ: كَثِيرًا - وَكَانَ شُعَيْبٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَثِيرَ الْمَالِ - وَقِيلَ: الرِّزْقُ الْحَسَنُ: الْعِلْمُ وَالْمَعْرِفَةُ ، ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ﴾ أَيْ: مَا أُرِيدُ أَنْ أَنْهَاكُمْ عَنْ شَيْءٍ ثُمَّ أَرْتَكِبُهُ ، ﴿إِنْ أُرِيدُ﴾ مَا أُرِيدُ فِيمَا آمُرُكُمْ بِهِ وَأَنْهَاكُمْ عَنْهُ، ﴿إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ ﴾ مَا أُرِيدُ إِلَّا فِعْلَ الصَّلَاحِ، أَيْ أَنْ تُصْلِحُوا دُنْيَاكُمْ بِالْعَدْلِ وَآخِرَتَكُمْ بِالْعِبَادَةِ، ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللهِ﴾ وَالتَّوْفِيقُ: تَسْهِيلُ سَبِيلِ الْخَيْرِ وَالطَّاعَةِ. وَالتَّوْفِيقُ: جَعْلُ الشَّيْءِ وَفْقًا لِآخَرَ، أَيْ طِبْقًا لَهُ، ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ اعتمد عليه في أمري كله،﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ أَيْ أَرْجِعُ فِيمَا يَنْزِلُ بِي مِنْ جَمِيعِ النَّوَائِبِ. وَقِيلَ: إِلَيْهِ أَرْجِعُ فِي الْآخِرَةِ ، وَقِيلَ: إِنَّ الْإِنَابَةَ الدُّعَاءُ.

[٨٩] قَوْلُهُ تَعَالىٰ: ﴿وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي ﴾ أَيْ لَا تَحْمِلَنَّكُمْ عَدَاوَتِي وَبُغْضِي عَلَىٰ الْإِصْرَارِ عَلَىٰ مَآ أَنْتُمْ عليه من الكفر والفساد، فيصيبكم مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمِ نُوحٍ وَقَوْمِ هُودٍ وَقَوْمِ صَالِحٍ وَقَوْمِ لُوطٍ مِنَ النِّقْمَةِ وَالْعَذَابِ،﴿شِقَاقِي﴾ خلافي قال قتادة : لَا يَحْمِلَنَّكُمْ فِرَاقِي، وَقَالَ السُّدِّيُّ:

عَدَاوَتِي، قال ابن عاشور: وَالشِّقَاقُ شِدَّةُ الْمُخَالَفَةِ، مُشْتَقٌّ مِنَ الشَّقِّ بِفَتْحِ الشِّينِ وَهُوَ الْفَلْقُ وَتَفْرِيقُ الْجِسْمِ، ﴿أَنْ يُصِيبَكُمْ﴾ أَيْ: عَلَىٰ فِعْلِ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ، ﴿مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ﴾ مِنَ الْغَرَقِ، ﴿أَوْ قَوْمَ هُودٍ﴾ مِنَ الرِّيحِ، ﴿أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ﴾ مِنَ الصَّيْحَةِ، ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾ وَذَلِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا حَدِيثِي عَهْدٍ بِهَلَاكِ قَوْمِ لُوطٍ، وَقِيلَ: مَعْنَاهُ وَمَا دَارُ قَوْمِ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا جِيرَانَ قَوْمِ لُوطٍ، ولما أحاط الناس بعثمان بن عفان أشرف عليهم مِنْ دَارِهِ فَقَالَ: ﴿وَيَا قَوْمِ لاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ﴾، يا قوم لا تقتلوني، إنكم إن قتلتموني كنتم هكذا، وشبّك بين أصابعه.

[٩٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ والودود له معنيان، أحدهما: أَنَّهُ مُحِبٌّ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَقِيلَ: هُوَ بمعنىٰ الودود أي محبوب للمؤمنين، قَالَ الْجَوْهَرِيُّ: وَدِدْتُ الرَّجُلَ أَوَدُّهُ وُدًّا إِذَا أَحْبَبْتُهُ، وَالْوَدُودُ الْمُحِبُّ، وَالْوَدُّ وَالْوِدُّ وَالْوُدُّ وَالْمَوَدَّةُ الْمَحَبَّةُ ، وَجَاءَ فِي الْخَبَرِ: إِنَّ شُعَيْبًا عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ خَطِيبَ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

[٩١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ﴾ أَيْ مَا نَفْهَمُ، وَالْفِقْه: الْفَهْمُ ؛ لِأَنَّكَ تَحْمِلُنَا عَلَىٰ أُمُورٍ غَائِبَةٍ مِنَ الْبَعْثِ وَالنُّشُورِ وَتَعِظُنَا بِمَا لَا عَهْدَ لَنَا بِمِثْلِهِ ، وَقِيلَ: قَالُوا ذَلِكَ إِعْرَاضًا عَنْ سَمَاعِهِ، وَاحْتِقَارًا لِكَلَامِهِ، يُقَالُ: فَقِهَ يَفْقَهُ إِذَا فَهِمَ فِقْهًا، ﴿ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا ﴾ قِيلَ: كَانَ ضَعِيفَ الْبَصَرِ، وَقِيلَ: قَلِيلُ الْمَعْرِفَةِ بِمَصَالِحِ الدُّنْيَا وَسِيَاسَةِ أَهْلِهَا ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ﴾ عَشِيرَتُكَ

وَكَانَ فِي مَنَعَةٍ مِنْ قومه، وَرَهْطُ الرَّجُلِ عَشِيرَتُهُ الَّذِي يَسْتَنِدُ إِلَيْهِمْ وَيَتَقَوَّىٰ بِهِمْ، وَمِنْهُ الرَّاهِطَاءُ لِجُحْرِ الْيَرْبُوعِ، لِأَنَّهُ يَتَوَثَّقُ بِهِ وَيَخْبَأُ فِيهِ وَلَدَهُ، وَالرَّهْطُ إِذَا أُضِيفَ إِلَىٰ رَجُلٍ أُرِيدَ بِهِ الْقَرَابَةُ الْأَدْنَوْنَ لِأَنَّهُمْ لَا يَكُونُونَ كَثِيرًا، فَأَطْلَقُوا عَلَيْهِمْ لَفْظَ الرَّهْطِ الَّذِي أَصْلُهُ الطَّائِفَةُ الْقَلِيلَةُ مِنَ الثَّلَاثَةِ إِلَىٰ الْعَشَرَةِ، وَلَمْ يَقُولُوا قَوْمَكَ، لِأَنَّ قَوْمَهُ قَدْ نَبَذُوهُ. وَكَانَ رَهْطُ شُعَيْبٍ- عَلَيْهِ السَّلَامُ- مِنْ خَاصَّةِ أَهْلِ دِينِ قَوْمِهِ فَلِذَلِكَ وَقَّرُوهُمْ بِكَفِّ الْأَذَىٰ عَنْ قَرِيبِهِمْ لِأَنَّهُمْ يَكْرَهُونَ مَا يُؤْذِيهِ لِقَرَابَتِهِ. وكان من أوسطهم نسبًا ، وكذلك الرسل تبعث كما في حديث أبي سفيان مع هرقل: إِنِّي سَأَلْتُكَ عَنْ نَسَبِهِ فِيكُمْ فَزَعَمْتَ أَنَّهُ فِيكُمْ ذُو نَسَبٍ، وَكَذَلِكَ الرُّسُلُ تُبْعَثُ فِي نَسَبِ قَوْمِهَا، وَلَوْلَا ذَلِكَ لَمَا نَصَرَهُ رَهْطُهُ لِأَنَّهُمْ لَا يَنْصُرُونَ مَنْ سَخِطَهُ أَهْلُ دِينِهِمْ. عَلَىٰ أَنَّ قَرَابَتَهُ مَا هُمْ إِلَّا عَدَدٌ قَلِيلٌ لَا يُخْشَىٰ بَأْسُهُمْ وَلَكِنَّ الْإِبْقَاءَ عَلَيْهِ مُجَرَّدُ كَرَامَةٍ لِقَرَابَتِهِ لِأَنَّهُمْ مِنَ الْمُخْلِصِينَ لِدِينِهِمْ ، ﴿لَرَجَمْنَاكَ﴾ لَقَتَلْنَاكَ، وَالرَّجْمُ: أَقْبَحُ الْقَتْلِ، كَانُوا إِذَا قَتَلُوا إِنْسَانًا رَجَمُوهُ بِالْحِجَارَةِ، وَكَانَ رَهْطُهُ مِنْ أَهْلِ مِلَّتِهِمْ. وَالرَّجْمُ أَيْضًا اللَّعْنُ، وَمِنْهُ الشَّيْطَانُ الرَّجِيمُ ، ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا﴾ عندنا، ﴿بِعَزِيزٍ﴾ أَيْ مَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِغَالِبٍ وَلَا قَاهِرٍ وَلَا مُمْتَنِعٍ، والعزة: الْقَوْمِ وَالشِّدَّةُ وَالْغَلَبَةُ.

[٩٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللهِ﴾ أم كان رَهْطِي أَهْيَبُ عِنْدَكُمْ مِنَ اللهِ، أَيْ: إِنْ تَرَكْتُمْ قَتْلِي لِمَكَانِ رَهْطِي فَالْأَوْلَىٰ أَنْ تَحْفَظُونِي فِي الله ، والتَّقْدِيرُ: وَلَوْلَا رَهْطُكَ مُكَرَّمُونَ عِنْدَنَا لَرَجَمْنَاكَ ، ﴿وَاتَّخَذْتُمُوهُ

وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا﴾ أَيْ: نَبَذْتُمْ أَمْرَ اللهِ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَتَرَكْتُمُوهُ، قال ابن عباس: وذلك أن قوم شعيب ورهطه كانوا أعز عليهم من الله، وصغر شأن الله عندهم، عزّ ربّنا وجلّ، وَالظِّهْرِيُّ نِسْبَةٌ إِلَىٰ الظَّهْرِ ، وَالْمُرَادُ بِالظِّهْرِيِّ الْكِنَايَةُ عَنِ النِّسْيَانِ، فَهُوَ يُشْبِهُ الشَّيْءَ الْمَجْعُولَ خَلْفَ الظَّهْرِ فِي ذَلِكَ لِأَنَّهُمُ اشْتَغَلُوا بِالْأَصْنَامِ عَنْ مَعْرِفَةِ اللهِ أَوْ عَنْ مُلَاحَظَةِ صِفَاتِهِ ، ﴿إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ قَالَ الطَّبَرِيُّ: يَقُولُ: إِنَّ رَبِّي مُحِيطٌ عِلْمُهُ بِعَمَلِكُمْ فَلَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ مِنْهُ شَيْءٌ، وَهُوَ مُجَازِيكُمْ عَلَىٰ جَمِيعِهِ عَاجِلًا وَآجِلًا.

[٩٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ أَيِ اعْمَلُوا مَا تُحِبُّونَ أَنْ تَعْمَلُوهُ بِي، يُقَالُ: فُلَانٌ يَعْمَلُ عَلَىٰ مَكَانَتِهِ إِذَا عَمِلَ عَلَىٰ تُؤَدَةٍ وَتَمَكُّنٍ، وَالْمَكَانَةُ الطَّرِيقَةُ، وَالْمَعْنَىٰ اثْبُتُوا عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ فَأَنَا أَثْبُتُ عَلَىٰ مَا أَنَا عَلَيْهِ، قَالَ الزَّجَّاجُ: ﴿مَكانَتِكُمْ﴾ تَمَكُّنُكُمْ فِي الدُّنْيَا ، ﴿إِنِّي عَامِلٌ﴾ علىٰ تمكني، ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أَيُّنَا الْجَانِي عَلَىٰ نَفْسِهِ وَالْمُخْطِئُ فِي فِعْلِهِ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ﴾ قِيلَ: (مَنْ) فِي مَحَلِّ النَّصْبِ، أَيْ: فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ الْكَاذِبَ، وَقِيلَ: مَحَلُّهُ رَفْعٌ، تَقْدِيرُهُ: وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ يَعْلَمُ كَذِبَهُ وَيَذُوقُ وَبَالَ أمره، ﴿وَارْتَقِبُوا﴾ وَانْتَظِرُوا الْعَذَابَ ﴿إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ مُنْتَظِرٌ، أي انتظروا العذاب والسخطة، فإني منتظر النصر والرحمة.

[٩٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَمَّا جاءَ أَمْرُنا﴾ قِيلَ: صَاحَ بِهِمْ جِبْرِيلُ صَيْحَةً فَخَرَجَتْ أَرْوَاحُهُمْ مِنْ أَجْسَادِهِمْ : ﴿نَجَّيْنا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا

وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ﴾ أَيْ صَيْحَةُ جِبْرِيلَ، وَقَالَ فِي قِصَّةِ صَالِحٍ: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ﴾ [هود : ٦٧] فَذَكَّرَ عَلَىٰ مَعْنَىٰ الصِّيَاحِ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: مَا أَهْلَكَ اللهُ أُمَّتَيْنِ بِعَذَابٍ وَاحِدٍ إِلَّا قَوْمَ صَالِحٍ وَقَوْمَ شُعَيْبٍ، أَهْلَكَهُمُ اللهُ بِالصَّيْحَةِ، غَيْرَ أَنَّ قَوْمَ صَالِحٍ أَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مِنْ تَحْتِهِمْ، وَقَوْمَ شُعَيْبٍ أَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مِنْ فَوْقِهِمْ ، ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ أَيْ هامدين لا حراك بهم.

[٩٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا ﴾ أَيْ: كَأَنْ لَمْ يُقِيمُوا وَلَمْ يكونوا ﴿أَلَا بُعْدًا﴾ هلاكـًا، ﴿لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ﴾ هلكت ، وَبَعِدَتْ تُسْتَعْمَلُ فِي الشَّرِّ خَاصَّةً، يُقَالُ: بَعِدَ يَبْعَدُ بَعَدًا، فَالْبَعَدُ بجاء هنا بمَعْنَىٰ اللَّعْنَةِ، ﴿ثَمُودُ﴾ وتَشْبِيهُ هنا فِي الْبُعْدِ الَّذِي هُوَ انْقِرَاضُ مَدْيَنَ بِانْقِرَاضِ ثَمُودَ، فقد كَانُوا جِيرَانَهُمْ قَرِيبًا مِنْهُمْ في الدار، وشبيهـًا بهم في الكفر وكانوا عربـًا مثلهم.

[٩٦] قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ حُجَّةٍ بَيِّنَةٍ، وَعُقِّبَتْ قِصَّةُ مَدْيَنَ بِذِكْرِ بَعْثَةِ مُوسَىٰ- عَلَيْهِ السَّلَامُ- لِقُرْبِ مَا بَيْنَ زَمَنَيْهِمَا، وَلِشِدَّةِ الصِّلَةِ بَين النبيئين فَإِنَّ مُوسَىٰ بُعِثَ فِي حَيَاةِ شُعَيْبٍ - عَلَيْهِمَا السَّلَامُ- وَقَدْ تَزَوَّجَ ابْنَةَ شُعَيْبٍ.

[٩٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ﴾ أَيْ شَأْنَهُ وَحَالَهُ، حَتَّىٰ اتَّخَذُوهُ إِلَهًا، وَخَالَفُوا أَمْرَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وما أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ أَيْ بِسَدِيدٍ يُؤَدِّي إِلَىٰ صَوَابٍ قال ابن كثير : لَيْسَ فِيهِ رُشْدٌ وَلَا هُدًىٰ، وَإِنَّمَا هُوَ

جَهْلٌ وَضَلَالٌ وَكُفْرٌ وَعِنَادٌ ؛ وَكَمَا أَنَّهُمْ اتَّبَعُوهُ فِي الدُّنْيَا وَكَانَ مُقَدَّمَهُمْ وَرَئِيسَهُمْ، كَذَلِكَ هُوَ يَقْدُمُهُمْ يَوْمَ القيامة إلىٰ نار جهنم، وَالرَّشِيدُ: فَعِيلٌ مِنْ رَشَدَ مِنْ بَابِ نَصَرَ وَفَرِحَ، إِذَا اتَّصَفَ بِإِصَابَةِ الصَّوَابِ. يُقَالُ: أَرْشَدَكَ اللهُ.

[٩٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ﴾ يتقدمهم ، إِلَىٰ النَّارِ إِذْ هُوَ رَئِيسُهُمْ ، ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ﴾ أَيْ أَدْخَلَهُمْ فِيهَا ، ذُكِرَ بِلَفْظِ الْمَاضِي، وَالْمَعْنَىٰ فَيُورِدُهُمُ النَّارَ، وَمَا تَحَقَّقَ وُجُودُهُ فَكَأَنَّهُ كَائِنٌ، فَلِهَذَا يُعَبَّرُ عَنِ الْمُسْتَقْبَلِ بِالْمَاضِي ، ﴿النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ﴾ آي: بئس المدخل، والمدخول فيه، وَالْإِيرَادُ: جَعْلُ الشَّيْءِ وَارِدًا، أَيْ قَاصِدًا الْمَاءَ، وَالْوِرْدُ- بِكَسْرِ الْوَاوِ: الْمَاءُ الْمَوْرُودُ، وَفِي قَوْلِهِ: ﴿فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ﴾ اسْتِعَارَةُ الْإِيرَادِ إِلَىٰ التَّقَدُّمِ بِالنَّاسِ إِلَىٰ الْعَذَابِ، وَهِيَ تَهَكُّمِيَّةٌ ؛ لِأَنَّ الْإِيرَادَ يَكُونُ لِأَجْلِ الِانْتِفَاعِ بِالسَّقْيِ وَأَمَّا التَّقَدُّمُ بِقَوْمِهِ إِلَىٰ النَّارِ فَهُوَ ضِدُّ ذَلِكَ.

[٩٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأُتْبِعُوا فِي هذِهِ لَعْنَةً﴾ أَيْ فِي الدُّنْيَا، ﴿وَيَوْمَ الْقِيامَةِ﴾ أَيْ وَلَعْنَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَقَدْ تَقَدَّمَ هَذَا الْمَعْنَىٰ، ﴿بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ﴾ قال أَبُو عُبَيْدَةَ: رَفَدْتُهُ أَيْ أَعَنْتُهُ وَأَعْطَيْتُهُ ، وَاسْمُ الْعَطِيَّةِ الرِّفْدُ، أَيْ بِئْسَ الْعَطَاءُ وَالْإِعَانَةُ، وَالتَّقْدِيرُ: بِئْسَ الرِّفْدُ رِفْدُ الْمَرْفُودِ، وَقِيلَ: الْعَطَاءُ الْمُعْطَىٰ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ تَرَادَفَتْ عَلَيْهِمُ اللَّعْنَتَانِ ، قَالَ مُجَاهِدٌ: زِيدُوا لَعْنَةَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ فَتِلْكَ لَعْنَتَانِ، وقال ابن عباس: لَعْنَةُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ

[١٠٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ﴾ الْمَعْنَىٰ: ذَلِكَ النَّبَأُ الْمُتَقَدِّمُ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ ﴿مِنْها قائِمٌ وَحَصِيدٌ﴾ قَالَ قَتَادَةُ: الْقَائِمُ مَا كَانَ خَاوِيًا عَلَىٰ عُرُوشِهِ، وَالْحَصِيدُ مَا لَا أَثَرَ لَهُ ، وَقِيلَ: الْقَائِمُ الْعَامِرُ، وَالْحَصِيدُ الْخَرَابُ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: قَائِمٌ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا، وَحَصِيدٌ مُسْتَأْصَلٌ، يَعْنِي مَحْصُودًا كَالزَّرْعِ إِذَا حُصِدَ، قال ابن عاشور : وَالْمُرَادُ بِالْقَائِمِ مَا كَانَ مِنَ الْقُرَىٰ الَّتِي قَصَّهَا اللهُ فِي الْقُرْآنِ قُرًى قَائِمًا بَعْضُهَا كَآثَارِ بَلَدِ فِرْعَوْنَ كَالْأَهْرَامِ وَمِثْلَ آثَارِ نِينَوَىٰ بَلَدِ قَوْمِ يُونُسَ، وَأَنْطَاكِيَّةَ قَرْيَةِ الْمُرْسَلِينَ الثَّلَاثَةِ، وَصَنْعَاءَ بَلَدِ قَوْمِ تُبَّعٍ، وَقُرًى بَائِدَةٍ مِثْلَ دِيَارِ عَادٍ، وَقُرَىٰ قَوْمِ لُوطٍ، وَقَرْيَةِ مَدْيَنَ. وَالْمَقْصُودُ مِنْ هَذِهِ الْجُمْلَةِ الِاعْتِبَارُ.

[١٠١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ﴾ بِالْعَذَابِ وَالْهَلَاكِ، وأَصْلُ الظُّلْمِ فِي اللُّغَةِ وَضْعُ الشَّيْءِ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ، ﴿وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ بِالْكُفْرِ وَالْمَعْصِيَةِ، ﴿فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ عَذَابُ رَبِّكَ، ﴿وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾ أَيْ: غَيْرَ تَخْسِيرٍ، وَقِيلَ: تَدْمِيرٌ، وَالتَّبَابُ الْهَلَاكُ وَالْخُسْرَانُ، وَفِيهِ إِضْمَارٌ، أَيْ مَا زَادَتْهُمْ عِبَادَةُ الْأَصْنَامِ، فَحُذِفَ الْمُضَافُ، أَيْ كَانَتْ عِبَادَتُهُمْ إِيَّاهَا قَدْ خَسَّرَتْهُمْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ.

[١٠٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهَكَذَا، وَالْمَعْنَىٰ: كَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ مَنْ أَرَادَ إِهْلَاكَهُ مَتَىٰ أَخَذَهُ، فَإِذْ لِمَا مَضَىٰ، أَيْ حِينَ أَخَذَ الْقُرَىٰ، وَإِذَا لِلْمُسْتَقْبَلِ ﴿وَهِيَ ظالِمَةٌ﴾ أَيْ وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ، ﴿إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ أَيِ

عُقُوبَتَهُ لِأَهْلِ الشِّرْكِ مُوجِعَةٌ غَلِيظَةٌ ، وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ وَالتِّرْمِذِيِّ حَدِيثِ أَبِي مُوسَىٰ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: « **إِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ يُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ** ، ثُمَّ قَرَأَ ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ »(١).

[١٠٣] قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾ أَيْ لَعِبْرَةً وَمَوْعِظَةً ، ﴿لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ﴾ قال مجاهد يَعْنِي: يَوْمَ الْقِيَامَةِ، قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ :أَيْ: يَوْمٌ عَظِيمٌ تَحْضُرُهُ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ، وَيَجْتَمِعُ فِيهِ الرُّسُلُ جَمِيعُهُمْ، وَتُحْشَرُ فِيهِ الْخَلَائِقُ بِأَسْرِهِمْ، مِنَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ وَالطَّيْرِ وَالْوُحُوشِ وَالدَّوَابِّ، وَيَحْكُمُ فِيهِ الْعَادِلُ، ﴿وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ أَيْ وَذَلِكَ يَوْمٌ يَشْهَدُهُ الْخَلَائِقُ جَمِيعًا مِنَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ وَالْمَلَائِكَةِ وَغَيْرِهِمْ ، وَفِي الصَّحِيحَيْنِ: مِنْ حَدِيثِ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: « **إِنَّكُمْ تُحْشَرُونَ إِلَىٰ اللهِ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا** »، قَالَتْ عَائِشَةُ: يَا رَسُولَ اللهِ الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ، قَالَ: « **يَا عَائِشَةُ إِنَّ الْأَمْرَ أَشَدُّ مِنْ أَنْ يُهِمَّهُمْ ذَاكَ** »(٢).

[١٠٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُ﴾ أَيْ: وَمَا نُؤَخِّرُ ذَلِكَ الْيَوْمَ، فَلَا نُقِيمُ عَلَيْكُمُ الْقِيَامَةَ ﴿إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ﴾ مَعْلُومٍ عِنْدَ اللهِ قال ابن كثير : أَيْ لِمُدَّةٍ مُؤَقَّتَةٍ لَا يُزَادُ عَلَيْهَا ولا ينقص مِنْهَا.

---

(١) البخاري (٤٦٨٦) ومسلم (٢٥٨٣) .

(٢) البخاري (٦٥٢٧) ومسلم (٢٨٥٩) .

[١٠٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿يَوْمَ يَأْتِ﴾ أي يأتي يوم القيامة ﴿لَا تَكَلَّمُ﴾ أَيْ: لَا تَتَكَلَّمُ ﴿نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ أَيْ: فَمِنْهُمْ مَنْ سَبَقَتْ لَهُ الشَّقَاوَةُ، وَمِنْهُمْ مَنْ سَبَقَتْ لَهُ السعادة، وَالْمَعْنَىٰ: فَمِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ مَنْ هُوَ فِي عَذَابٍ وَشِدَّةٍ وَمِنْهُمْ مَنْ هُوَ فِي نِعْمَةٍ وَرَخَاءٍ.

[١٠٦] قَوْلُهُ تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: الزَّفِيرُ فِي الْحَلْقِ، وَالشَّهِيقِ فِي الصَّدْرِ، أَيْ تَنَفُّسُهُمْ زَفِيرٌ وَأَخْذُهُمُ النَّفَسَ شَهِيقٌ، لِمَا هُمْ فِيهِ مِنَ العذاب، وفي اللغة : وَالزَّفِيرُ: إِخْرَاجُ الْأَنْفَاسِ بِدَفْعٍ وَشِدَّةٍ بِسَبَبِ ضَغْطِ التَّنَفُّسِ، وَالشَّهِيقُ: عَكْسُهُ وَهُوَ اجْتِلَابُ الْهَوَاءِ إِلَىٰ الصَّدْرِ بِشِدَّةٍ لِقُوَّةِ الِاحْتِيَاجِ إِلَىٰ التَّنَفُّسِ.

[١٠٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ لَابِثِينَ مُقِيمِينَ فِيهَا، ﴿مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ قَالَ الضَّحَّاكُ: مَا دَامَتْ سَمَوَاتُ الجنة والنار وأرضها، وَكُلُّ مَا عَلَاكَ وَأَظَلَّكَ فَهُوَ سَمَاءٌ، وَكُلُّ مَا اسْتَقَرَّتْ عَلَيْهِ قَدَمُكَ فَهُوَ أَرْضٌ، وَقَالَ أَهْلُ الْمَعَانِي: هَذَا عِبَارَةٌ عَنِ التَّأْبِيدِ عَلَىٰ عَادَةِ الْعَرَبِ، يَقُولُونَ: لَا آتيك ما دامت السموات وَالْأَرْضُ، وَلَا يَكُونُ كَذَا مَا اخْتَلَفَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، يَعْنُونَ أَبَدًا قوله: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ اختلفوا في هذين الاستثنائين، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: الِاسْتِثْنَاءُ فِي أَهْلِ الشَّقَاءِ يَرْجِعُ إِلَىٰ قَوْمٍ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ يُدْخِلُهُمُ اللهُ النَّارَ بِذُنُوبٍ اقْتَرَفُوهَا، ثُمَّ يُخْرِجُهُمْ مِنْهَا فَيَكُونُ ذَلِكَ اسْتِثْنَاءً مِنْ غَيْرِ الْجِنْسِ؛ لِأَنَّ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنَ النَّارِ سُعَدَاءَ، اسْتَثْنَاهُمُ اللهُ مِنْ جُمْلَةِ الأشقياء، وَأَمَّا الِاسْتِثْنَاءُ فِي أَهْلِ السَّعَادَةِ فَيَرْجِعُ

إِلَىٰ مُدَّةِ لُبْثِهِمْ فِي النَّارِ قَبْلَ دُخُولِ الْجَنَّةِ، وَقِيلَ: إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ مِنْ تَعْمِيرِهِمْ فِي الدُّنْيَا وَاحْتِبَاسِهِمْ فِي الْبَرْزَخِ مَا بَيْنَ الْمَوْتِ وَالْبَعْثِ، قَبْلَ مَصِيرِهِمْ إِلَىٰ الْجَنَّةِ أَوِ النَّارِ يَعْنِي هُمْ خَالِدُونَ فِي الْجَنَّةِ أَوِ النَّارِ إلا هذا المقدار، وقيل: معنىٰ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ: سِوَىٰ مَا شَاءَ رَبُّكَ، مَعْنَاهُ: خَالِدِينَ فيها ما دامت السموات والأرض سِوَىٰ مَا شَاءَ اللهُ مِنْ الزِّيَادَةِ عَلَىٰ قَدْرِ مُدَّةِ بَقَاءِ السموات وَالْأَرْضِ، وَذَلِكَ هُوَ الْخُلُودُ فِيهَا، كَمَا تَقُولُ: لِفُلَانٍ عَلِيَّ أَلْفٌ إِلَّا الْأَلْفَيْنِ، أَيْ: سِوَىٰ الْأَلْفَيْنِ اللَّتَيْنِ تَقَدَّمَتَا، وَقِيلَ: إِلَّا بِمَعْنَىٰ الْوَاوِ، أَيْ. وَقَدْ شَاءَ رَبُّكَ خُلُودَ هَؤُلَاءِ فِي النَّارِ، وَهَؤُلَاءِ فِي الْجَنَّةِ، كَقَوْلِهِ: لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظلموا، أَيْ: وَلَا الَّذِينَ ظَلَمُوا، وَقِيلَ: مَعْنَاهُ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَخْرَجَهُمْ منها، ولكنه لا يشاء؛ لأنه حكم لهم بالخلود، وقال الفراء: هذا استثناء اسْتَثْنَاهُ اللهُ وَلَا يَفْعَلُهُ، كَقَوْلِكَ: وَاللهِ لَأَضْرِبَنَّكَ إِلَّا أَنْ أَرَىٰ غَيْرَ ذَلِكَ وَعَزِيمَتُكَ أَنْ تَضْرِبَهُ، ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾ قال الطبري: يَقُولُ تَعَالَىٰ ذِكْرُهُ: إِنَّ رَبَّكَ يَا مُحَمَّدُ لَا يَمْنَعُهُ مَانِعٌ مِنْ فِعْلِ مَا أَرَادَ فِعْلَهُ بِمَنْ عَصَاهُ وَخَالَفَ أَمْرَهُ مِنِ الانْتِقَامِ مِنْهُ، وَلَكِنَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ، فَيُمْضِي فِعْلَهُ فِيهِمْ وَفِيمَنْ شَاءَ مِنْ خَلْقِهِ فعَلَهُ وَقَضَاءَهُ.

[١٠٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا﴾ أَيْ: رزقوا السعادة ﴿فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ قَالَ الضَّحَّاكُ: إِلَّا مَا مَكَثُوا فِي النَّارِ حَتَّىٰ أُدْخِلُوا الْجَنَّةَ، قَالَ قَتَادَةُ: اللهُ أَعْلَمُ بِثُنْيَاهُ، ﴿عَطَاءً غَيْرَ

مَجْذُوذٍ﴾ أَيْ: غَيْرَ مَقْطُوعٍ، قَالَ ابْنُ زَيْدٍ: أَخْبَرَنَا اللهُ تَعَالَىٰ بِالَّذِي يَشَاءُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ، فَقَالَ: ﴿عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ لم يُخْبِرْنَا بِالَّذِي يَشَاءُ لِأَهْلِ النَّارِ، وقد جاء في الصحيحين: «**يؤتىٰ بالموت في صورة كبش أملح فَيُذْبَحُ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، ثُمَّ يُقَالُ يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ**»[1]، وفي الصحيح أَيْضًا: « **فَيُقَالُ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ إِنْ لَكُمْ أَنْ تَعِيشُوا فَلَا تَمُوتُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أن تشبوا فلا تهرموا أبدا، وإن لَكُمْ أَنْ تَصِحُّوا فَلَا تَسْقَمُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَنْعَمُوا فَلَا تَبَأَّسُوا أَبَدًا**»[2].

[١٠٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ﴾ قوله تعالىٰ: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ﴾ فِي شَكٍّ، وَالْمِرْيَةُ: الشَّكُّ، مِنْ مَرَيْتُ الشَّاةَ إِذَا اسْتَخْرَجْتُ لَبَنَهَا، وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ: لَا يُجَارَىٰ وَلَا يُمَارَىٰ، وَفِي التنزيل : ﴿أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾[النجم : ١٢]، ﴿مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ﴾ أَنَّهُمْ ضُلَّالٌ، ﴿مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ﴾ فِيهِ إِضْمَارٌ، أَيْ: كَمَا كَانَ يَعْبُدُ، ﴿آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ هو حَظَّهُمْ مِنَ الْجَزَاءِ، وَالتَّوْفِيَةُ: إِكْمَالُ الشَّيْءِ قال ابن عاشور : وَالْمُرَادُ نَصِيبُهُمْ مِنْ عَذَابِ الْآخِرَةِ، فَإِنَّ اللهَ لَمْ يَسْتَأْصِلْهُمْ كَمَا اسْتَأْصَلَ الْأُمَمَ السَّابِقَة ببركة النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذْ قَالَ: «لَعَلَّ اللهَ أَنْ يُخْرِجَ مِنْ

---

(١) البخاري (٤٧٣٠) ومسلم (٢٨٤٩) .

(٢) مسلم (٢٨٣٧) .

أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُهُ» ، ﴿غَيْرَ مَنْقُوصٍ﴾، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: ما وعدوا من خير أو شر، وقال ابن أَسْلَمَ: لَمُوَفُّوهُمْ مِنَ الْعَذَابِ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ.

[١١٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ﴾ التوراة، ﴿فَاخْتُلِفَ فِيهِ﴾ فَمِنْ مُصَدِّقٍ بِهِ وَمُكَذِّبٍ كَمَا فَعَلَ قَوْمُكَ بِالْقُرْآنِ، يُعَزِّي نَبِيَّهُ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾ فِي تَأْخِيرِ الْعَذَابِ عَنْهُمْ، ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ أَيْ: لَعُذِّبُوا فِي الْحَالِ وَفُرِغَ مِنْ عَذَابِهِمْ وَإِهْلَاكِهِمْ، ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ﴾ إِنْ حُمِلَتْ عَلَىٰ قَوْمِ مُوسَىٰ، أَيْ لَفِي شَكٍّ مِنْ كِتَابِ مُوسَىٰ فهم في شك من القرآن.

[١١١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِنَّ كُلًّا﴾ وَالْمَعْنَىٰ: وَإِنَّ كُلًّا لَمِنْ جَمَاعَةٍ لَيُوَفِّيَنَّهُمْ، ﴿لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ﴾ أَيْ: جَزَاءَ أَعْمَالِهِمْ، أي وإن كل أولئك المختلفين الذين قصصنا عليك قصصهم ليوفيهم ربك جزاء أعمالهم إن خيرا فخير وإن شرا فشر، إذ لا يخفىٰ عليه شيء منها.﴿إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ .

[١١٢] قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ أَيِ: اسْتَقِمْ عَلَىٰ دِينِ رَبِّكَ وَالْعَمَلِ بِهِ وَالدُّعَاءِ إِلَيْهِ كَمَا أمرت، ﴿وَمَنْ تَابَ مَعَكَ﴾ أي: من آمَنَ مَعَكَ فَلْيَسْتَقِيمُوا، قَالَ عُمَرُ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: الِاسْتِقَامَةُ أَنْ تَسْتَقِيمَ عَلَىٰ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ، وَلَا تَرُوغَ رَوَغَانَ الثَّعْلَبِ، وعن سُفْيَانَ بْنِ عَبْدِ اللهِ الثَّقَفِيِّ قَالَ: «قُلْتُ، يَا رَسُولَ اللهِ قُلْ لِي فِي الْإِسْلَامِ قَوْلًا لَا أَسْأَلُ عَنْهُ أَحَدًا بَعْدَكَ، قَالَ: **قُلْ:**

آمَنْتُ بِاللهِ ثُمَّ استقم»(١) ، وعنْ عُثْمَانَ بْنِ حَاضِرٍ الْأَزْدِيِّ قَالَ: دَخَلْتُ عَلَىٰ ابْنِ عَبَّاسٍ فَقُلْتُ أَوْصِنِي! فَقَالَ: نَعَمْ! عَلَيْكَ بِتَقْوَىٰ اللهِ وَالِاسْتِقَامَةِ، اتَّبِعْ وَلَا تَبْتَدِعْ، ﴿وَلَا تَطْغَوْا﴾ لَا تُجَاوِزُوا أَمْرِي وَلَا تَعْصُونِي، وَقِيلَ: مَعْنَاهُ: وَلَا تَغْلُوا فَتَزِيدُوا عَلَىٰ مَا أَمَرْتُ وَنَهَيْتُ، وَالطُّغْيَانُ مُجَاوَزَةُ الْحَدِّ، وَمِنْهُ ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَىٰ الْماءُ﴾ [الحاقة : ١١] ، وَقِيلَ: أَيْ لَا تَتَجَبَّرُوا عَلَىٰ أَحَدٍ، ﴿إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْءٌ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: مَا نَزَلَتْ عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ آيَةٌ هِيَ أَشَدُّ عَلَيْهِ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ، وَلِذَلِكَ قَالَ: «**شيبتني هود وأخواتها**» ، وَرُوِيَ عَنْ أَبِي عَلِيٍّ السَّرِيَّ قال: رَأَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْمَنَامِ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ! رُوِيَ عَنْكَ أَنَّكَ قُلْتَ: شَيَّبَتْنِي هُودٌ. فَقَالَ: نَعَمْ، فَقُلْتُ لَهُ: مَا الَّذِي شَيَّبَكَ مِنْهَا؟ قَصَصُ الْأَنْبِيَاءِ وَهَلَاكُ الْأُمَمِ! فَقَالَ: لَا وَلَكِنْ قَوْلُهُ: فَاسْتَقِمْ كَما أُمِرْتَ، وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**إِنَّ الدِّينَ يسر ولن يشاد هذا الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ، فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَأَبْشِرُوا، وَاسْتَعِينُوا بِالْغَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ وَشَيْءٍ مِنَ الدُّلْجَةِ، والدلجة السير بالليل** »(٢).

[١١٣] قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَىٰ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: وَلَا تَمِيلُوا، وَالرُّكُونُ: هُوَ الْمَحَبَّةُ وَالْمَيْلُ بِالْقَلْبِ، وَقَالَ أَبُو

---

(١) مسلم (٣٨) .

(٢) البخاري (٣٩) .

الْعَالِيَةِ: لَا تَرْضَوْا بِأَعْمَالِهِمْ، قَالَ السُّدِّيُّ: لَا تُدَاهِنُوا الظَّلَمَةَ، وَعَنْ عِكْرِمَةَ: لَا تُطِيعُوهُمْ، والرُّكُونُ في اللغة: الْمَيْلُ وَالْمُوَافَقَةُ، وَلَعَلَّهُ مُشْتَقٌّ مِنَ الرُّكْنِ- بِضَمٍّ فَسُكُونٍ- وَهُوَ الْجنب، لأنّ المائل يُدْنِي جَنْبَهُ إِلَىٰ الشَّيْءِ الْمُمَالِ إِلَيْهِ. ﴿فَتَمَسَّكُمُ﴾ فَتُصِيبَكُمُ، ﴿النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ أَيْ: أَعْوَانٍ يَمْنَعُونَكُمْ مِنْ عَذَابِهِ، ﴿ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ﴾ أَيْ لَيْسَ لَكُمْ مَنْ دُونِهِ مَنْ وَلِيٍّ يُنْقِذُكُمْ، وَلَا ناصر يخلصكم من عذابه.

[١١٤] قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ﴾ أي: صلاة الفجر والعصر، قَالَ مُجَاهِدٌ: طَرَفَا النَّهَارِ صَلَاةُ الصُّبْحِ وَالظُّهْرِ وَالْعَصْرِ ﴿وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ﴾ صَلَاةُ الْمَغْرِبِ وَالْعِشَاءِ، وَقَالَ مُقَاتِلٌ: صَلَاةُ الْفَجْرِ وَالظُّهْرِ طَرَفٌ، وَصَلَاةُ العصر وَالْمَغْرِبِ طَرَفٌ، وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ يَعْنِي صَلَاةَ الْعِشَاءِ، وَقَالَ الْحَسَنُ البصري : طَرَفَا النَّهَارِ الصُّبْحُ وَالْعَصْرُ، وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ الْمَغْرِبُ وَالْعِشَاءُ، وَقَالَ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: طَرَفَا النَّهَارِ الْغَدَاةُ وَالْعَشِيُّ، يَعْنِي صَلَاةَ الصُّبْحِ وَالْمَغْرِبِ، قَوْلُهُ: ﴿وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ﴾ أي ساعته، وَاحِدَتُهَا: زُلْفَةٌ ، وَالزُّلَفُ السَّاعَاتُ الْقَرِيبَةُ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ، وَمِنْهُ سُمِّيَتِ الْمُزْدَلِفَةُ، لِأَنَّهَا مَنْزِلٌ بَعْدَ عَرَفَةَ بِقُرْبِ مَكَّةَ، قال ابن عاشور : وَالْمَقْصُودُ أَنْ تَكُونَ الصَّلَاةُ أَوَّلَ أَعْمَالِ الْمُسْلِمِ إِذَا أَصْبَحَ وَهِيَ صَلَاةُ الصُّبْحِ وَآخِرَ أَعْمَالِهِ إِذَا أَمْسَىٰ وَهِيَ صَلَاةُ الْعِشَاءِ لِتَكُونَ السَّيِّئَاتُ الْحَاصِلَةُ فِيمَا بَيْنَ ذَلِكَ مَمْحُوَّةً بِالْحَسَنَاتِ الْحَافَّةِ بِهَا، ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ يَعْنِي إِنَّ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ يُذْهِبْنَ الخطيئات، عَنِ

ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ «أَنَّ رَجُلًا أَصَابَ مِنَ امْرَأَةٍ قُبْلَةً فَأَتَىٰ النَّبِيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَخْبَرَهُ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَىٰ ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ قال أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَقُولُ: «**الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ وَالْجُمُعَةُ إِلَىٰ الْجُمُعَةِ وَرَمَضَانُ إِلَىٰ رَمَضَانَ مُكَفِّرَاتٌ لِمَا بَيْنَهُنَّ إِذَا اجْتُنِبَتِ الْكَبَائِرُ**»(١) ، ﴿ذَلِكَ﴾ أَيْ: ذَلِكَ الَّذِي ذَكَرْنَا، وَقِيلَ: هُوَ إِشَارَةٌ إِلَىٰ الْقُرْآنِ، ﴿ذِكْرَىٰ﴾ عظة ﴿لِلذَّاكِرِينَ﴾ أَيِ الْقُرْآنُ مَوْعِظَةٌ وَتَوْبَةٌ لِمَنِ اتَّعَظَ وَتَذَكَّرَ، وَخَصَّ الذَّاكِرِينَ بِالذِّكْرِ لِأَنَّهُمُ الْمُنْتَفِعُونَ بِالذِّكْرَىٰ.

[١١٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَاصْبِرْ﴾ يَا مُحَمَّدُ عَلَىٰ مَا تَلْقَىٰ مِنَ الْأَذَىٰ، وَقِيلَ: عَلَىٰ الصَّلَاةِ، مثل قوله تعالىٰ: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طه: ١٣٢] ، قَوْلُهُ: ﴿فَإِنَّ اللهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ في أعمالهم، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما: يعني: المصلين، وقال القاسمي : أي في أعمالهم فيوفيهم أجورهم من غير بخس.

[١١٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ﴾ أَيْ: فَهَلَّا كَانَ مِنْ تِلْكَ الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ الَّتِي دَكَّهَا اللهُ بِسَبَبِ عُتُوِّهَا وَبَغْيِهَا وَكُفْرِهَا فِئَةٌ مُؤْمِنَةٌ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ وَتَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ!

---

(١) مسلم (٢٣٣) .

إِنَّهُ كَانَ قِلَّةٌ مِنْ أَهْلِ الْخَيْرِ وَالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الشُّرُورِ وَالْمُنْكَرَاتِ فِي كُلِّ قَوْمٍ مِمَّا مَضَىٰ، وَأُولَئِكَ هُمُ الَّذِينَ نَجَّاهُمُ اللهُ بِرَحْمَتِهِ مِنَ الْعَذَابِ الَّذِي نَزَلَ بِقَوْمِهِمْ، ﴿أُولُو بَقِيَّةٍ﴾ أي أولوا تمييز، وقيل أولوا طاعة، وقيل أولوا خَيْرٍ، يُقَالُ: فُلَانٌ ذُو بَقِيَّةٍ إِذَا كَانَ فِيهِ خَيْرٌ، مَعْنَاهُ فَهَلَّا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ مَنْ فِيهِ خَيْرٌ يَنْهَىٰ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ؟ وَقِيلَ: معناه أولوا بَقِيَّةٍ مِنْ خَيْرٍ، يُقَالُ: فُلَانٌ عَلَىٰ بَقِيَّةٍ مِنَ الْخَيْرِ إِذَا كَانَ عَلَىٰ خَصْلَةٍ مَحْمُودَةٍ. ﴿يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ﴾ أَيْ يَقُومُونَ بِالنَّهْيِ عَنِ الْفَسَادِ، ومعناه جحدا، أي: لم يكن فيهم أولوا بقية، ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ هَذَا اسْتِثْنَاءٌ مُنْقَطِعٌ مَعْنَاهُ: لَكِنَّ قليلا، ﴿مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ﴾ وَهُمْ أَتْبَاعُ الْأَنْبِيَاءِ كَانُوا يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ، ﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا﴾ نعموا، ﴿فِيهِ﴾ وَالْمُتْرَفُ: الْمُنَعَّمُ، وَقَالَ مُقَاتِلُ ابْنُ حَيَّانَ: خُوِّلُوا، وَقَالَ الْفَرَّاءُ: عُوِّدُوا مِنَ النَّعِيمِ وَاللَّذَّاتِ وَإِيثَارِ الدُّنْيَا أَيْ: وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا عُوِّدُوا مِنَ النَّعِيمِ وَاللَّذَّاتِ وَإِيثَارِ الدُّنْيَا عَلَىٰ الْآخِرَةِ. ﴿وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ كَافِرِينَ.

[١١٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ﴾ أَيْ: لَا يُهْلِكُهُمْ بِشِرْكِهِمْ، ﴿وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ فِيمَا بَيْنَهُمْ يَتَعَاطَوْنَ الْإِنْصَافَ وَلَا يَظْلِمُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَإِنَّمَا يُهْلِكُهُمْ إِذَا تَظَالَمُوا، وَقِيلَ: لَا يُهْلِكُهُمْ بِظُلْمٍ مِنْهُ وَهُمْ مُصْلِحُونَ فِي أَعْمَالِهِمْ، وَلَكِنْ يُهْلِكُهُمْ بِكُفْرِهِمْ وَرُكُوبِهِمُ السيئات.

[١١٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ﴾ كلهم، ﴿أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: عَلَىٰ مِلَّةِ الْإِسْلَامِ وَحْدَهَا، وَقَالَ الضَّحَّاكُ: أَهْلُ دِينٍ وَاحِدٍ،

أَهْلُ ضَلَالَةٍ أَوْ أَهْلُ هُدًىٰ، وَالْأُمَّةُ: الطَّائِفَةُ مِنَ النَّاسِ الَّذِينَ اتَّحَدُوا فِي أَمْرٍ مِنْ عَظَائِمِ أُمُورِ الْحَيَاةِ كَالْمَوْطِنِ وَاللُّغَةِ وَالنَّسَبِ وَالدِّينِ، ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ عَلَىٰ أَدْيَانٍ شَتَّىٰ مِنْ بَيْنِ يَهُودِيٍّ وَنَصْرَانِيٍّ وَمَجُوسِيٍّ وَمُشْرِكٍ.

[١١٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ﴾ مَعْنَاهُ: لَكِنَّ مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ فَهَدَاهُمْ إِلَىٰ الْحَقِّ، فَهُمْ لَا يختلفون،قَالَ قَتَادَةُ: أَهْلُ رَحْمَةِ اللهِ: أَهْلُ الْجَمَاعَةِ وَإِنْ تَفَرَّقَتْ دِيَارُهُمْ وَأَبْدَانُهُمْ، وَأَهْلُ مَعْصِيَتِهِ أهل الفرقة، وَإِنِ اجْتَمَعَتْ دِيَارُهُمْ وَأَبْدَانُهُمْ، ﴿وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ قَالَ الْحَسَنُ البصري: وَلِلِاخْتِلَافِ خَلَقَهُمْ، وَقَالَ أَشْهَبُ: سَأَلْتُ مَالِكًا عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ، فَقَالَ: خَلَقَهُمْ لِيَكُونَ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ، وَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: الَّذِي أختاره فقول مَنْ قَالَ: خَلَقَ فَرِيقًا لِرَحْمَتِهِ وَفَرِيقًا لِعَذَابِهِ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ وَالضَّحَّاكُ: وَلِلرَّحْمَةِ خَلَقَهُمْ، يَعْنِي الَّذِينَ رَحِمَهُمْ، وَقَالَ الْفَرَّاءُ: خَلَقَ أَهْلَ الرَّحْمَةِ لِلرَّحْمَةِ، وَأَهْلَ الاختلاف للاختلاف، ومحصول الْآيَةِ أَنَّ أَهْلَ الْبَاطِلِ مُخْتَلِفُونَ وَأَهْلَ الْحَقِّ مُتَّفِقُونَ فَخَلَقَ اللهُ أهل الْحَقِّ لِلِاتِّفَاقِ، وَأَهْلَ الْبَاطِلِ لِلِاخْتِلَافِ، ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾ وَتَمَّ حُكْمُ رَبِّكَ، ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ قال بان كثير : يُخْبِرُ تَعَالَىٰ أَنَّهُ قَدْ سَبَقَ فِي قَضَائِهِ وَقَدَرِهُ لِعِلْمِهِ التَّامِّ وَحِكْمَتِهِ النَّافِذَةِ أَنَّ مِمَّنْ خَلَقَهُ مَنْ يَسْتَحِقُّ الْجَنَّةَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَحِقُّ النَّارَ، وَأَنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ يَمْلَأَ جَهَنَّمَ مِنْ هَذَيْنَ الثَّقَلَيْنِ (الْجِنِّ وَالْإِنْسِ) وَلَهُ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ وَالْحِكْمَةُ التَّامَّةُ، وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ، قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

«**اخْتَصَمَتِ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ، فَقَالَتِ الْجَنَّةُ: مَا لِي لَا يَدْخُلُنِي إِلَّا ضُعَفَاءُ النَّاسِ وَسَقْطُهُمْ، وَقَالَتِ النَّارَ: أُوثِرْتُ بِالْمُتَكَبِّرِينَ وَالْمُتَجَبِّرِينَ، فَقَالَ اللهُ عزَّ وجلَّ لِلْجَنَّةِ: أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ، وَقَالَ لِلنَّارِ: أَنْتَ عَذَابِي أَنْتَقِمُ بِكِ مِمَّنْ أَشَاءُ، وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْكُمَا مِلْؤُهَا، فَأَمَّا الْجَنَّةُ فَلَا يَزَالُ فِيهَا فَضْلٌ حَتَّىٰ يُنْشِئَ اللهُ لَهَا خَلْقًا يَسْكُنُ فَضْلَ الْجَنَّةِ، وَأَمَّا النَّارُ فَلَا تَزَالُ تَقُولُ:** ﴿هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ **حتىٰ يضع عليها رَبُّ الْعِزَّةِ قَدَّمَهُ فتَقُولُ: قَطْ قَطْ بِعِزَّتِكَ، وَلَا يَزَالُ فِي الْجَنَّةِ فَضْلٌ، حَتَّىٰ يُنْشِئَ اللهُ لَهَا خَلْقًا آخَرَ فَيُسْكِنَهُ فِي فُضُولِ الْجَنَّةِ**»[(١)]، قَالَ الْبَغَوِيُّ: وَالْقَدَمُ وَالرِّجْلَانِ، كَمَا جَاءَ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ وَمُسْلِمٍ وَغَيْرِهِمَا، مِنْ صِفَاتِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، الْمُنَزَّهِ عَنِ التَّكْيِيفِ وَالتَّشْبِيهِ، وَكَذَلِكَ كُلُّ مَا جَاءَ مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ فِي الْكِتَابِ أَوِ السُّنَّةِ، كَالْيَدِ، وَالْإِصْبَعِ، وَالْعَيْنِ، وَالْمَجِيءِ، وَالْإِتْيَانِ، فَالْإِيمَانُ بِهَا فَرْضٌ، وَالِامْتِنَاعُ عَنِ الْخَوْضِ فِيهَا وَاجِبٌ، فَالْمُهْتَدِي مَنْ سَلَكَ فِيهَا سَبِيلَ التَّسْلِيمِ، وَالْخَائِضُ فِيهَا زَائِغٌ، وَالْمُنْكِرُ مُعَطِّلٌ، وَالْمُكَيِّفُ مُشَبِّهٌ، تَعَالَىٰ اللهُ عَمَّا يَقُولُ الظَّالِمُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ: ١١].

[١٢٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ مَعْنَاهُ: وَكُلُّ الَّذِي تَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ، أَيْ: مِنْ أَخْبَارِهِمْ وَأَخْبَارِ

---

(١) البخاري تعليقاً (٧٣٨٤)، وأحمد (١٢٣٨٠).

أُمَمِهِمْ نَقُصُّهَا عَلَيْكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ، لِنَزِيدَكَ يَقِينًا وَنُقَوِّيَ قَلْبَكَ، وَذَلِكَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا سَمِعَهَا كَانَ فِي ذَلِكَ تَقْوِيَةٌ لقلبه علىٰ الصبر لأذىٰ قَوْمِهِ، القص: تتبع أثر الشيء للإحاطة به كما قال تعالىٰ: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ [القصص : ١١]، والنبأ: الخبر الهام، ونثبت: أي نقوّىٰ ونجعل فؤادك راسخا كالجبل، علىٰ مكانتكم: أي علىٰ تمكنكم واستطاعتكم ، ﴿وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ﴾ قَالَ الْحَسَنُ البصري : فِي هَذِهِ الدُّنْيَا، وَقَالَ غَيْرُهُمَا: فِي هَذِهِ السُّورَةِ، وَهَذَا قَوْلُ الْأَكْثَرِينَ، خَصَّ هَذِهِ السُّورَةَ تَشْرِيفًا، وَإِنْ كَانَ قَدْ جَاءَهُ الْحَقُّ فِي جَمِيعِ السور ، ﴿وَمَوْعِظَةٌ﴾ الْمَوْعِظَةُ مَا يُتَّعَظُ بِهِ مِنْ إِهْلَاكِ الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ، وَالْقُرُونِ الْخَالِيَةِ الْمُكَذِّبَةِ، وَهَذَا تَشْرِيفٌ لِهَذِهِ السُّورَةِ، لِأَنَّ غَيْرَهَا مِنَ السُّوَرِ قَدْ جَاءَ فِيهَا الْحَقُّ وَالْمَوْعِظَةُ وَالذِّكْرَىٰ وَلَمْ يَقُلْ فِيهَا كَمَا قَالَ فِي هَذِهِ عَلَىٰ التَّخْصِيصِ ﴿وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أَيْ يَتَذَكَّرُونَ مَا نَزَلَ بِمَنْ هَلَكَ فَيَتُوبُونَ، وَخَصَّ الْمُؤْمِنِينَ لِأَنَّهُمُ المتعظون إذا سمعوا قصص الأنبياء.

[١٢١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ قُولُ تَعَالَىٰ آمِرًا رَسُولَهُ أَنْ يَقُولَ لِلَّذِينِ لَا يُؤْمِنُونَ بِمَا جَاءَ بِهِ مِنْ رَبِّهِ عَلَىٰ وَجْهِ التَّهْدِيدِ ﴿اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ أَيْ عَلَىٰ طَرِيقَتِكُمْ وَمَنْهَجِكُمْ، ﴿إِنَّا عَامِلُونَ﴾ أَيْ عَلَىٰ طَرِيقَتِنَا وَمَنْهَجِنَا، ﴿وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ أَيْ ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾، وقد أنجز الله لرسوله وعده وَأَيَّدَهُ، وَجَعَلَ كَلِمَتَهُ

هِيَ الْعُلْيَا وَكَلِمَةُ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ، وفي الحديث أن النبي صلىٰ الله عليه وسلم قال «**الكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ المَوْتِ، وَالعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّىٰ عَلَىٰ اللهِ**»[1] .

[١٢٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَانْتَظِرُوا﴾ مَا يَحِلُّ بِنَا مِنْ رَحْمَةِ الله، ﴿إِنَّا مُنْتَظِرُونَ﴾ مَا يَحِلُّ بِكُمْ مِنْ نِقْمَةِ اللهِ، قال المراغي : أي وانتظروا بنا ما تتمنّونه من انتهاء أمرنا إما بموت أو غيره مما تحدّثون به أنفسكم.

[١٢٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: مَا غَابَ عَنِ الْعِبَادِ فِيهِمَا، قَالَ ابْنُ عباس: خزائن السموات وَالْأَرْضِ وَقَالَ الضَّحَّاكُ: جَمِيعُ مَا غَابَ عَنِ العباد فيهما، ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ﴾ فِي الْمَعَادِ، أَيْ يَعُودُ الْأَمْرُ كُلُّهُ إِلَيْهِ حَتَّىٰ لَا يَكُونَ لِلْخَلْقِ أَمْرٌ. ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ أَيِ الْجَأْ إِلَيْهِ وَثِقْ بِهِ قال الطبري : ﴿فَاعْبُدْهُ﴾، يقول: فاعبد ربك، يا محمد، ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾، يقول: وفوِّض أمرك إليه، وثق به وبكفايته، فإنه كافي من توكّل عليه ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ قال ابن كثير : أَيْ لَيْسَ يَخْفَىٰ عَلَيْهِ مَا عَلَيْهِ مُكَذِّبُوكَ يَا مُحَمَّدُ بَلْ هُوَ عَلِيمٌ بِأَحْوَالِهِمْ وَأَقْوَالِهِمْ، وَسَيَجْزِيهِمْ عَلَىٰ ذلك أتم الجزاء في الدنيا والآخرة وسننصرك وحزبك عليهم في الدارين ، قَالَ كَعْبٌ: خَاتِمَةُ التَّوْرَاةِ مثل خَاتِمَةِ سُورَةِ هُودٍ.

---

(١) الترمذي (٢٤٥٩) وابن ماجه (٤٢٦٠) من حديث شداد بن أوس .

تَمَّ تَفْسِيرُ سُورَةِ هُودٍ بِعَوْنِ اللهِ وَتَوْفِيقِهِ، وَوَاسِعِ مَنِّهِ وَكَرَمِهِ

سُورَةُ يُوسُفُ

سُورَةُ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَهِيَ مَكِّيَّةٌ كُلُّهَا، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَقَتَادَةُ: إِلَّا أَرْبَعَ آيَاتٍ مِنْهَا، وَرُوِيَ أَنَّ الْيَهُودَ سَأَلُوا رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ قِصَّةِ يُوسُفَ فنزلت السورة، قال سعد ابن أَبِي وَقَّاصٍ: أُنْزِلَ الْقُرْآنَ عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَتَلَاهُ عَلَيْهِمْ زَمَانًا فَقَالُوا: لَوْ قَصَصْتَ عَلَيْنَا، فَنَزَلَ: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ [يوسف : ٣] فَتَلَاهُ عَلَيْهِمْ زَمَانًا فقَالُوا: لَوْ حَدَّثْتَنَا، فَأَنْزَلَ: ﴿اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾ [الزمر : ٢٣] ، قَالَ الْعُلَمَاءُ: وَذَكَرَ اللهُ أَقَاصِيصَ الْأَنْبِيَاءِ فِي الْقُرْآنِ وَكَرَّرَهَا بِمَعْنًىٰ وَاحِدٍ فِي وُجُوهٍ مُخْتَلِفَةٍ، بِأَلْفَاظٍ مُتَبَايِنَةٍ عَلَىٰ دَرَجَاتِ الْبَلَاغَةِ، وَقَدْ ذَكَرَ قِصَّةَ يُوسُفَ وَلَمْ يُكَرِّرْهَا، فَلَمْ يَقْدِرْ مُخَالِفٌ عَلَىٰ مُعَارَضَةِ مَا تَكَرَّرَ، وَلَا عَلَىٰ مُعَارَضَةِ غير المتكرر، والإعجاز لمن تأمل.

[١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ أَي: الْبَيِّنُ حَلَالُهُ وَحَرَامُهُ وَحُدُودُهُ وَأَحْكَامُهُ، قَالَ قَتَادَةُ: مُبِينٌ وَاللهِ بَرَكَتُهُ وَهُدَاهُ وَرُشْدُهُ، فَهَذَا مِنْ بَانَ أَيْ: ظَهَرَ، وَقَالَ الزَّجَّاجُ: مُبَيِّنٌ الْحَقَّ مِنَ الْبَاطِلِ وَالْحَلَّالَ مِنَ الْحَرَامِ، فَهَذَا مِنْ أَبَانَ بمعنىٰ أظهر، وَقِيلَ: أَيْ هَذِهِ تِلْكَ الْآيَاتُ الَّتِي كُنْتُمْ توعدون بها في التوراة.

[٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ﴾ يَعْنِي الْكِتَابَ، ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ أَيْ يَقْرَأُ بِلُغَتِكُمْ يَا مَعْشَرَ الْعَرَبِ ، أَعْرَبَ بَيَّنَ، وَمِنْهُ الثَّيِّبُ تُعْرِبُ عَنْ نَفْسِهَا ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أَيْ لِكَيْ تَعْلَمُوا مَعَانِيَهُ، وَتَفْهَمُوا مَا فِيهِ، وَقِيلَ: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أَيْ لِتَكُونُوا عَلَىٰ رَجَاءٍ مِنْ تَدَبُّرِهِ، فَيَعُودُ مَعْنَىٰ الشَّكِّ إِلَيْهِمْ لَا إِلَىٰ الْكِتَابِ، وَلَا إِلَىٰ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، قال النحاس: لِأَنَّهُ يُرْوَىٰ أَنَّ الْيَهُودَ قَالُوا: سَلُوهُ لِمَ انْتَقَلَ آلُ يَعْقُوبَ مِنَ الشَّامِ إِلَىٰ مِصْرَ؟ وَعَنْ خَبَرِ يُوسُفَ، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ هَذَا بِمَكَّةَ مُوَافِقًا لِمَا فِي التَّوْرَاةِ، وَفِيهِ زِيَادَةٌ لَيْسَتْ عِنْدَهُمْ، قال ابن كثير : فأرادوا الْقَصَصَ فَدَلَّهُمْ عَلَىٰ أَحْسَنِ الْقَصَصِ، وَمِمَّا يُنَاسِبُ ذِكْرَهُ عِنْدَ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ الْمُشْتَمِلَةِ عَلَىٰ مَدْحِ الْقُرْآنِ، وَأَنَّهُ كَافٍ عَنْ كُلِّ مَا سواه من الكتب ما رواه الإمام أحمد عن عَبْدِ اللهِ بْنِ ثَابِتٍ قَالَ: جَاءَ عُمَرُ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وسلم فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنِّي مَرَرْتُ بِأَخٍ لِي مِنْ قُرَيْظَةَ، فَكَتَبَ لِي جَوَامِعَ مِنَ التَّوْرَاةِ أَلَا أَعْرِضُهَا عَلَيْكَ؟ قَالَ، فَتَغَيَّرَ وَجْهُ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال عَبْدُ اللهِ بْنُ ثَابِتٍ: فَقُلْتُ لَهُ: أَلَا تَرَىٰ مَا بِوَجْهِ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ فَقَالَ عُمَرُ: رَضِينَا بِاللهِ رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا، قَالَ: فَسُرِّيَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَقَالَ: «**وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْ أَصْبَحَ فِيكُمْ مُوسَىٰ**

ثُمَّ اتَّبَعْتُمُوهُ وَتَرَكْتُمُونِي لَضَلَلْتُمْ، إِنَّكُمْ حَظِّي مِنَ الأمم وأنا حظكم من النبيين»[1] .

[٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ أي نقرأ، ﴿أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ أي قَصَصْنَا أَحْسَنَ الْقَصَصِ. وَالْقَاصُّ هُوَ الَّذِي يَتْبَعُ الْآثَارَ، وَيَأْتِي بِالْخَبَرِ عَلَىٰ وَجْهِهِ، مَعْنَاهُ: نُبَيِّنُ لَكَ أَخْبَارَ الْأُمَمِ السَّالِفَةِ وَالْقُرُونِ الْمَاضِيَةِ أَحْسَنَ الْبَيَانِ، وَقِيلَ: الْمُرَادُ مِنْهُ قِصَّةُ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ خَاصَّةً، سَمَّاهَا أَحْسَنَ الْقَصَصِ لِمَا فِيهَا مِنَ الْعِبَرِ وَالْحِكَمِ وَالنُّكَتِ وَالْفَوَائِدِ الَّتِي تَصْلُحُ لِلدِّينِ وَالدُّنْيَا، مِنْ سِيَرِ الْمُلُوكِ وَالْمَمَالِيكِ وَالْعُلَمَاءِ وَمَكْرِ النِّسَاءِ وَالصَّبْرِ عَلَىٰ أَذَى الْأَعْدَاءِ، وَحُسْنِ التَّجَاوُزِ عَنْهُمْ بَعْدَ الِالْتِقَاءِ وَغَيْرِ ذَلِكَ من الفوائد، قال ابن عاشور : وَمَعْنَىٰ نَقُصُّ نُخْبِرُ الْأَخْبَارَ السَّالِفَةَ ، وَهُوَ مَنْقُولٌ مِنْ قَصَّ الْأَثَرَ إِذَا تَتَبَّعَ مَوَاقِعَ الْأَقْدَامِ لِيَتَعَرَّفَ مُنْتَهَىٰ سَيْرِ صَاحِبِهَا، وَجُعِلَ هَذَا الْقَصَصُ أَحْسَنَ الْقَصَصِ لِأَنَّ بَعْضَ الْقَصَصِ لَا يَخْلُو عَنْ حُسْنٍ تَرْتَاحُ لَهُ النُّفُوسُ. ﴿بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ (مَا) الْمَصْدَرُ، أَيْ: بِإِيحَائِنَا إِلَيْكَ، ﴿هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَو قد كنت، ﴿مِنْ قَبْلِهِ﴾ أي: من قبل وحينا، ﴿لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ لَمِنَ السَّاهِينَ عَنْ هَذِهِ الْقِصَّةِ لا تعلمها، وَالْغَفْلَةُ: انْتِفَاءُ الْعِلْمِ لِعَدَمِ تَوَجُّهِ الذِّهْنِ إِلَىٰ الْمَعْلُومِ، وَالْمَعْنَىٰ الْمَقْصُودُ مِنَ الْغَفْلَةِ ظَاهِرٌ، وَمَفْهُومُ مِنْ قَبْلِهِ مَقْصُودٌ مِنْهُ التَّعْرِيضُ بِالْمُشْرِكِينَ الْمُعْرِضِينَ عَنْ

---

(١) أحمد (١٥٨٦٤) .

هُدَىٰ الْقُرْآن، قَالَ النبيء صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «**مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ مِنَ الْهُدَىٰ وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ الْغَيْثِ الْكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضًا فَكَانَ مِنْهَا نَقِيَّةٌ قَبِلَتِ الْمَاءَ فَأَنْبَتَتِ الْكَلَأَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ، وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتِ الْمَاءَ فَنَفَعَ اللهُ بِهَا النَّاسَ فَشَرِبُوا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا، وَأَصَابَ مِنْهَا طَائِفَةً أُخْرَىٰ إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لَا تُمْسِكُ مَاءً وَلَا تُنْبِتُ كَلَأً. فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ فِي دِينِ اللهِ وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ فَعَلِمَ وَعَلَّمَ. وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَىٰ اللهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ**»(١).

فائدة : اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ لِمَ سُمِّيَتْ هَذِهِ السُّورَةُ أَحْسَنَ الْقَصَصِ مِنْ بَيْنِ سَائِرِ الْأَقَاصِيصِ؟ فَقِيلَ: لِأَنَّهُ لَيْسَتْ قِصَّةٌ فِي الْقُرْآنِ تَتَضَمَّنُ مِنَ الْعِبَرِ وَالْحِكَمِ مَا تَتَضَمَّنُ هَذِهِ الْقِصَّةُ، وَبَيَانُهُ قَوْلُهُ فِي آخِرِهَا: ﴿لَقَدْ كانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبابِ﴾ وَقِيلَ: سَمَّاهَا أَحْسَنَ الْقَصَصِ لِحُسْنِ مُجَاوَزَةِ يُوسُفَ عَنْ إِخْوَتِهِ، وَصَبْرِهِ عَلَىٰ أَذَاهُمْ، وَعَفْوِهِ عَنْهُمْ - بَعْدَ الِالْتِقَاءِ بِهِمْ - عَنْ ذِكْرِ مَا تَعَاطَوْهُ، وَكَرَمِهِ فِي الْعَفْوِ عَنْهُمْ، حَتَّىٰ قَالَ: ﴿ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾ ، وَقِيلَ: لِأَنَّ فِيهَا ذِكْرَ الْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَالْمَلَائِكَةِ وَالشَّيَاطِينِ، وَالْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالْأَنْعَامِ وَالطَّيْرِ، وَسِيَرِ الْمُلُوكِ وَالْمَمَالِكِ، وَالتُّجَّارِ وَالْعُلَمَاءِ وَالْجُهَّالِ، وَالرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَحِيَلِهِنَّ وَمَكْرِهِنَّ، وَفِيهَا ذِكْرُ التَّوْحِيدِ وَالْفِقْهِ وَالسِّيَرِ وَتَعْبِيرُ الرُّؤْيَا، وَالسِّيَاسَةُ وَالْمُعَاشَرَةُ وَتَدْبِيرُ الْمَعَاشِ، وَجُمَلُ الْفَوَائِدِ الَّتِي تَصْلُحُ لِلدِّينِ وَالدُّنْيَا ، وَقِيلَ

---

(١) البخاري (٧٩) ومسلم (٢٢٨٢) .

لِأَنَّ فِيهَا ذِكْرَ الْحَبِيبِ وَالْمَحْبُوبِ وَسِيَرِهِمَا، وَقِيلَ: ﴿أَحْسَنَ﴾ هُنَا بِمَعْنَىٰ أَعْجَبَ، وَقَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْمَعَانِي: إِنَّمَا كَانَتْ أَحْسَنَ الْقَصَصِ لِأَنَّ كُلَّ مَنْ ذُكِرَ فِيهَا كَانَ مَآلُهُ السَّعَادَةَ، انْظُرْ إِلَىٰ يُوسُفَ وَأَبِيهِ وَإِخْوَتِهِ، وَامْرَأَةِ الْعَزِيزِ، قِيلَ: وَالْمَلِكُ أَيْضًا أَسْلَمَ بِيُوسُفَ وَحَسُنَ إِسْلَامُهُ، وَمُسْتَعْبِرُ الرُّؤْيَا السَّاقِي، وَالشَّاهِدُ فِيمَا يُقَالُ: فَمَا كَانَ أَمْرُ الْجَمِيعِ إلا إلىٰ خير.

[٤] قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ﴾ أي: اذكر إذا قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ، وَيُوسُفُ: اسْمٌ عبري، ولذلك لا يجري عليه الصرف، وَقِيلَ هُوَ عَرَبِيٌّ، سُئِلَ أَبُو الْحَسَنِ الْأَقْطَعُ عَنْ يُوسُفَ؟ فَقَالَ: الْأَسَفُ فِي اللُّغَةِ: الْحُزْنُ، وَالْأَسِيفُ: الْعَبْدُ، وَاجْتَمَعَا فِي يُوسُفَ عَلَيْهِ السلام فسمي به ، ﴿يا أَبَتِ﴾: يَا أبتاه، وه هو يَعْقُوبُ بْنُ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ - كَمَا قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وسلم: «**الْكَرِيمَ ابْنَ الْكَرِيمِ ابْنِ الْكَرِيمِ ابْنِ الْكَرِيمِ يُوسُفُ بْنُ يَعْقُوبَ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ**»(١) ، وعن أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: سُئِلَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَيُّ النَّاسِ أَكْرَمُ؟ قَالَ: «**أَكْرَمُهُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاهُمْ**»، قَالُوا: لَيْسَ عَنْ هَذَا نَسْأَلُكَ، قَالَ: «**فَأَكْرَمُ النَّاسِ يُوسُفُ نَبِيُّ اللهِ ابْنُ نَبِيِّ اللهِ ابْنِ نَبِيِّ اللهِ ابْنِ خَلِيلِ اللهِ**»، قَالُوا: لَيْسَ عَنْ هَذَا نَسْأَلُكَ، قَالَ: «**فَعَنْ مَعَادِنِ الْعَرَبِ تَسْأَلُونِي؟**» قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: **فيخاركم فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُكُمْ فِي الْإِسْلَامِ إِذَا فَقُهُوا** »(٢)، قَوْلُهُ :

(١) البخاري (٣٣٨٢) ومسلم (٤٦٨٨) .

(٢) البخاري (٣٣٥٣) ومسلم (٢٣٧٣) .

﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا﴾ أَيْ: نَجْمًا مِنْ نُجُومِ السَّمَاءِ وَنَصْبُ الْكَوَاكِبِ عَلَىٰ التَّفْسِيرِ، ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ ولم يقل رأيتها إلي ساجدات، وَالْهَاءُ وَالْمِيمُ وَالْيَاءُ وَالنُّونُ مِنْ كِنَايَاتِ مَنْ يَعْقِلُ؛ لِأَنَّهُ لَمَّا أَخْبَرَ عَنْهَا بِفِعْلِ مَنْ يَعْقِلُ عَبَّرَ عَنْهَا بِكِنَايَةِ مَنْ يَعْقِلُ كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ﴾ [النمل: ١٨] ، وَكَانَ النُّجُومُ فِي التأويل أخواته، كانوا أَحَدَ عَشَرَ رَجُلًا يُسْتَضَاءُ بِهِمْ كَمَا يُسْتَضَاءُ بِالنُّجُومِ، وَالشَّمْسُ أَبُوهُ والقمر أمه، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَقَتَادَةُ: الْكَوَاكِبُ إِخْوَتُهُ، وَالشَّمْسُ أُمُّهُ، وَالْقَمَرُ أَبُوهُ، وَكَانَ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ابْنَ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ سَنَةً حِينَ رَأَىٰ هَذِهِ الرُّؤْيَا، وَقِيلَ: رَآهَا لَيْلَةَ الْجُمُعَةِ لَيْلَةَ الْقَدْرِ ، وعن ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: كَشَفَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ السِّتَارَةَ فِي مَرَضِهِ، وَالناس صُفُوفُ خَلْفَ أَبِي بَكْرٍ، فَقَالَ: « **أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّهُ لَمْ يَبْقَ مِنْ مُبَشِّرَاتِ النُّبُوَّةِ إِلَّا الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ، يَرَاهَا الْمُسْلِمُ أَوْ تُرَىٰ لَهُ** »[١].

قوله عزوجل : ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ﴾ وَذَلِكَ أَنَّ رُؤْيَا الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وَحْيٌ فَعَلِمَ يَعْقُوبُ أَنَّ إخوته إِذَا سَمِعُوهَا حَسَدُوهُ فَأَمَرَهُ بِالْكِتْمَانِ، وَمِنْ هَذَا يُؤْخَذُ الْأَمْرُ بِكِتْمَانِ النِّعْمَةِ حَتَّىٰ تُوجَدَ وَتَظْهَرَ،كَمَا وَرَدَ فِي حَدِيثِ: «**اسْتَعِينُوا عَلَىٰ قَضَاءِ الْحَوَائِجِ بِكِتْمَانِهَا، فَإِنَّ كُلَّ ذِي نعمة محسود**»[٢]، ﴿فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾ فيحتالوا في إهلاكك؛ لأنهم لا يَعْلَمُونَ

---

(١) مسلم (٤٧٩) .

(٢) مسند الشهاب (رقم ١١١) .

تَأْوِيلَهَا فَيَحْسُدُونَكَ ، وَالْكَيْدُ: إِخْفَاءُ عَمَلٍ يَضُرُّ الشخص المقصود ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ أَيْ: يُزَيِّنُ لَهُمُ الشَّيْطَانُ وَيَحْمِلُهُمْ علىٰ الكيد لعداوته القديمة، هَذَا كاعتذار النبيء صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِلرَّجُلَيْنِ مِنَ الْأَنْصَارِ اللَّذَيْنِ لَقِيَاهُ لَيْلًا وَهُوَ يُشَيِّعُ زَوْجَهُ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ إِلَىٰ بَيْتِهَا فَلَمَّا رَأَيَاهُ وَلَّيَا، فَقَالَ: «عَلَىٰ رِسْلِكُمَا إِنَّهَا صَفِيَّةُ، فَقَالَا: سُبْحَانَ اللهِ يَا رَسُولَ اللهِ وَأَكْبَرَا ذَلِكَ، فَقَالَ لَهُمَا: إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنِ ابْنِ آدَمَ مَجْرَىٰ الدَّمِ وَإِنِّي خَشِيتُ أَنْ يَقْذِفَ فِي نُفُوسِكُمَا» فَهَذِهِ آيَةُ عِبْرَةٍ بِتَوَسُّمِ يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَحْوَالَ أَبْنَائِهِ وَارْتِيَائِهِ أَنْ يَكُفَّ كَيْدَ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ.

[٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ يصطفيك بقوله يعقوب ليوسف عليهما السلام، قال الْحَسَنُ البصري: بِالنُّبُوَّةِ ، وَالِاجْتِبَاءُ اخْتِيَارُ مَعَالِي الْأُمُورِ لِلْمُجْتَبَىٰ، وَأَصْلُهُ مِنْ جَبَيْتُ الشَّيْءَ أَيْ حَصَّلْتُهُ، وَمِنْهُ جَبَيْتُ الْمَاءَ فِي الحوض. أَيْ: كَمَا رَفَعَ مَنْزِلَتَكَ بِهَذِهِ الرُّؤْيَا، فَكَذَلِكَ يَصْطَفِيكَ رَبُّكَ، ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ يُرِيدُ تَعْبِيرَ الرُّؤْيَا، سُمِّيَ تَأْوِيلًا؛ لأنه يؤول أَمْرُهُ إِلَىٰ مَا رَأَىٰ فِي منامه، والتأويل ما يؤول إليه عَاقِبَةِ الْأَمْرِ، ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ﴾ يَعْنِي: بِالنُّبُوَّةِ، ﴿وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ﴾ أَيْ: عَلَىٰ أَوْلَادِهِ، فَإِنَّ أَوْلَادَهُ كُلَّهُمْ كَانُوا أَنْبِيَاءَ، ﴿كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ﴾ فَجَعَلَهُمَا نَبِيَّيْنِ، ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ وَقِيلَ: الْمُرَادُ مِنْ إِتْمَامِ النِّعْمَةِ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ الْخَلَّةُ، وَقِيلَ: إِنْجَاؤُهُ مِنَ الذَّبْحِ، وَقِيلَ: بِإِخْرَاجِ يَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ مِنْ صُلْبِهِ،

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: كَانَ بَيْنَ رُؤْيَا يُوسُفَ هَذِهِ وَبَيْنَ تَحْقِيقِهَا بِمَصِيرِ أَبَوَيْهِ وَإِخْوَتِهِ إِلَيْهِ أَرْبَعُونَ سَنَةً، وَهُوَ قَوْلُ أَكْثَرِ أَهْلِ التَّفْسِيرِ، فَلَمَّا بَلَغَتْ هَذِهِ الرُّؤْيَا إِخْوَةَ يُوسُفَ حَسَدُوهُ وَقَالُوا: مَا رَضِيَ أَنْ تسجد لَهُ إِخْوَتُهُ حَتَّىٰ يَسْجُدَ لَهُ أبواه فبغوه وحسدوه.

[٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ﴾ أَيْ: فِي خَبَرِهِ وَخَبَرِ إِخْوَتِهِ ﴿آيَاتٌ﴾ أَيْ عِظَةٌ وَعِبْرَةٌ، وَقِيلَ: عَجَبٌ، ﴿لِلسَّائِلِينَ﴾ وَذَلِكَ أَنَّ الْيَهُودَ سَأَلُوا رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ قِصَّةِ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَقِيلَ: سَأَلُوهُ عَنْ سَبَبِ انْتِقَالِ وَلَدِ يَعْقُوبَ مِنْ كَنْعَانَ إِلَىٰ مِصْرَ، فَذَكَرَ لَهُمْ قِصَّةَ يُوسُفَ جميعها، فَوَجَدُوهَا مُوَافِقَةً لِمَا فِي التَّوْرَاةِ فَتَعَجَّبُوا مِنْهَا، فَهَذَا مَعْنَىٰ قَوْلِهِ: ﴿آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ﴾ أَيْ: دَلَالَةٌ عَلَىٰ نُبُوَّةِ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَقِيلَ: آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ وَلِمَنْ لَمْ يَسْأَلْ، كَقَوْلِهِ: ﴿سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ﴾ وَقِيلَ: مَعْنَاهُ عِبْرَةٌ لِلْمُعْتَبِرِينَ، فَإِنَّهَا تَشْتَمِلُ عَلَىٰ حَسَدِ إِخْوَةِ يُوسُفَ وَمَا آلَ إِلَيْهِ أَمْرُهُمْ فِي الْحَسَدِ وَتَشْتَمِلُ عَلَىٰ رُؤْيَاهُ، وَمَا حَقَّقَ اللهُ مِنْهَا، وَتَشْتَمِلُ عَلَىٰ صَبْرِ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنْ قَضَاءِ الشَّهْوَةِ وَعَلَىٰ الرِّقِّ وعلىٰ اللبث فِي السِّجْنِ، وَمَا آلَ إِلَيْهِ أَمْرُهُ مِنَ الْمُلْكِ، وَتَشْتَمِلُ عَلَىٰ حُزْنِ يعقوب وصبره علىٰ فراق يوسف، وَمَا آلَ إِلَيْهِ أَمْرُهُ مِنَ الْوُصُولِ إِلَىٰ الْمُرَادِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ.

[٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ﴾ اللَّامُ فِيهِ جَوَابُ الْقَسَمِ تَقْدِيرُهُ: والله ليوسف، ﴿وَأَخُوهُ﴾ بِنْيَامِينُ، ﴿أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا﴾ كَانَ يُوسُفُ وَأَخُوهُ بِنْيَامِينُ

مِنْ أُمٍّ وَاحِدَةٍ، وَكَانَ يَعْقُوبُ عَلَيْهِ السَّلَامُ شَدِيدَ الْحُبِّ لِيُوسُفَ عَلَيْهِ السلام، وكان إخوته يرون منه مِنَ الْمَيْلِ إِلَيْهِ مَا لَا يَرَوْنَهُ مَعَ أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا هَذِهِ المقالة، ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ أي: جماعة وكانوا عشرة، وقال الْفَرَّاءُ: الْعُصْبَةُ هِيَ الْعَشَرَةُ فَمَا زَادَ، وَقِيلَ: الْعُصْبَةُ مَا بَيْنَ الْوَاحِدِ إِلَىٰ الْعَشَرَةِ، وَقِيلَ: مَا بَيْنَ الثَّلَاثَةِ إِلَىٰ الْعَشَرَةِ، وَقِيلَ: جَمَاعَةٌ يَتَعَصَّبُ بَعْضُهَا لِبَعْضٍ لَا وَاحِدَ لَهَا مِنْ لَفْظِهَا كَالنَّفَرِ وَالرَّهْطِ. ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ أي خطأ بين أمر إِيثَارِهِ يُوسُفَ وَأَخَاهُ عَلَيْنَا، وَلَيْسَ المراد من هذا الضلال، الضَّلَالِ عَنِ الدِّينِ وَلَوْ أَرَادُوهُ لَكَفَرُوا بِهِ، بَلِ الْمُرَادُ مِنْهُ الْخَطَأُ فِي تَدْبِيرِ أَمْرِ الدُّنْيَا يقولون نحن أنفع فِي أَمْرِ الدُّنْيَا وَإِصْلَاحِ أَمْرِ معاشه ورعي مواشيه من يوسف، فَنَحْنُ أَوْلَىٰ بِالْمَحَبَّةِ مِنْهُ فَهُوَ مُخْطِئٌ فِي صَرْفِ مَحَبَّتِهِ إِلَيْهِ.

[٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾ أي: إلىٰ أرض تبعد عَنْ أَبِيهِ، وَقِيلَ: فِي أَرْضٍ تأكله السباع، أو أن تُلْقُوهُ فِي أَرْضٍ مِنَ الْأَرَاضِي تَسْتَرِيحُوا مِنْهُ وتخلوا أنتم بأبيكم،﴿يَخْلُ لَكُمْ﴾ يَخْلُصْ لَكُمْ، وَيَصْفُ لَكُمْ ﴿وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾ عَنْ شَغْلِهِ بِيُوسُفَ، ﴿وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ﴾ مِنْ بَعْدِ قَتْلِ يُوسُفَ، ﴿قَوْمًا صَالِحِينَ﴾ تَائِبِينَ أَيْ: تُوبُوا بَعْدَمَا فَعَلْتُمْ هَذَا يَعْفُ اللهُ عَنْكُمْ، وَقَالَ مقاتل: صالحين يَصْلُحْ أَمْرُكُمْ فِيمَا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ أَبِيكُمْ.

[١٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ﴾ وَهَذَا الْقَائِلُ أَحَدُ الْإِخْوَةِ وَلِذَلِكَ وُصِفَ بِأَنَّهُ مِنْهُمْ، قيل هو كبيرهم يهوذا ﴿لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ﴾ نَهَاهُمْ عَنْ قَتْلِهِ

وَقَالَ: الْقَتْلُ كبيرة عظيمة ، ﴿وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ﴾ وَالْغَيَابَاتُ: جَمْعُ غَيَابَةٍ، وَهِيَ مَا غَابَ عَنِ الْبَصَرِ مِنْ شَيْءٍ ، فَيُقَالُ: غَيَابَةُ الْجُبِّ وَغَيَابَةُ الْقَبْرِ وَالْمُرَادُ قَعْرُ الْجُبِّ، وَالْجُبُّ: الْبِئْرُ الَّتِي تُحْفَرُ وَلَا تُطْوَىٰ، أَيْ: فِي أَسْفَلِ الْجُبِّ وَظُلْمَتِهِ، قال القرطبي : وَجَمَعَ بَيْنَ الْغَيَابَةِ وَالْجُبِّ لِأَنَّهُ أَرَادَ أَلْقَوْهُ فِي مَوْضِعٍ مُظْلِمٍ مِنَ الْجُبِّ حتىٰ لا يلحقه نظر الناظرين. ﴿يَلْتَقِطْهُ﴾ يَأْخُذْهُ، وَالِالْتِقَاطُ أَخْذُ الشَّيْءِ مِنْ حيث لا يحتسبه الإنسان، ﴿بَعْضُ السَّيَّارَةِ﴾ أَيْ: بَعْضُ الْمُسَافِرِينَ فَيَذْهَبُ بِهِ إِلَىٰ نَاحِيَةٍ أُخْرَىٰ فَتَسْتَرِيحُوا مِنْهُ، وَالسَّيَّارَةُ الْجَمْعُ الَّذِي يَسِيرُونَ فِي الطَّرِيقِ لِلسَّفَرِ، ﴿إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ أَيْ: إِنْ عَزَمْتُمْ عَلَىٰ فِعْلِكُمْ، قال مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ: اشْتَمَلَ فِعْلُهُمْ علىٰ جرائم من قطيعة الرَّحِمِ، وَعُقُوقِ الْوَالِدَيْنِ، وَقِلَّةِ الرَّأْفَةِ بِالصَّغِيرِ الَّذِي لَا ذَنْبَ لَهُ، وَالْغَدْرِ بِالْأَمَانَةِ وَتَرْكِ الْعَهْدِ وَالْكَذِبِ مَعَ أَبِيهِمْ، وَعَفَا اللهُ عَنْهُمْ ذلك كله حتىٰ لا ييأس أَحَدٌ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ، وَقَالَ بعض أهل العلم: إنهما عَزَمُوا عَلَىٰ قَتْلِهِ وَعَصَمَهُمُ اللهُ رحمة لهم، ولو فعلوا لهلكوا أجمعون، وَكُلُّ ذَلِكَ كَانَ قَبْلَ أَنْ أَنْبَأَهُمُ اللهُ تَعَالَىٰ.

[١١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالُوا﴾ لِيَعْقُوبَ عليه السلام، ﴿يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ قِيلَ لِلْحَسَنِ البصري: أَيَحْسُدُ الْمُؤْمِنُ؟ قَالَ: مَا أَنْسَاكَ بِبَنِي يَعْقُوبَ! ، ﴿وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ﴾ قَالَ مُقَاتِلٌ: فِي الْكَلَامِ تَقْدِيمٌ وَتَأْخِيرٌ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ قَالُوا لِأَبِيهِمْ: ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا﴾ فَقَالَ أَبُوهُمْ: إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تذهبوا به، فحينئذ قَالُوا: ﴿يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ﴾ والنصح

ههنا هُوَ الْقِيَامُ بِالْمَصْلَحَةِ، وَقِيلَ: الْبِرُّ والعطف، إِنَّا عَاطِفُونَ عَلَيْهِ قَائِمُونَ بِمَصْلَحَتِهِ نَحْفَظُهُ حَتَّىٰ نَرُدَّهُ إِلَيْكَ.

[١٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا﴾ إلىٰ الصحراء، ﴿يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾ وَالرَّتْعُ هُوَ المبالغة فِي الأكل والشرب ؛ قَالَ ابن عباس: يسعىٰ وينشط، يُقَالُ: رَتَعَ فُلَانٌ فِي مَالِهِ إِذَا أَنْفَقَهُ فِي شَهَوَاتِهِ، يُرِيدُ وَنَتَنَعَّمُ وَنَأْكُلُ وَنَشْرَبُ وَنَلْهُو وَنَنْشَطُ، وَقَالَ الْقُتَبِيُّ ﴿نَرْتَعُ﴾ نَتَحَارَسُ وَنَتَحَافَظُ، وَيَرْعَىٰ بَعْضُنَا بَعْضًا، مِنْ قَوْلِكَ: رَعَاكَ اللهُ، أَيْ حَفِظَكَ ﴿وَنَلْعَبُ﴾ مِنَ اللَّعِبِ وَقِيلَ لِأَبِي عَمْرِو بْنِ الْعَلَاءِ: كَيْفَ قَالُوا ﴿وَنَلْعَبُ﴾ وَهُمْ أَنْبِيَاءُ؟ فَقَالَ: لَمْ يَكُونُوا يَوْمئِذٍ أَنْبِيَاءَ، ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ مِنْ كُلِّ مَا تَخَافُ عَلَيْهِ.

[١٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ﴾ لَهُمْ يَعْقُوبُ عليه السلام، ﴿إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ﴾ أَيْ: يُحْزِنُنِي ذَهَابُكُمْ بِهِ، وَالْحُزْنُ ههنا: أَلَمُ الْقَلْبِ بِفِرَاقِ الْمَحْبُوبِ، ﴿وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾ وَذَلِكَ أَنَّ يَعْقُوبَ كَانَ رَأَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنَّ ذِئْبًا شَدَّ عَلَىٰ يُوسُفَ، فَكَانَ يَخَافُ مِنْ ذلك، فمن ثم قال: أخاف أن يأكله الذئب، ، يَقُولُ: وَأَخْشَىٰ أَنْ تَشْتَغِلُوا عَنْهُ برميكم ورعيكم، فَيَأْتِيهِ ذِئْبٌ فَيَأْكُلُهُ وَأَنْتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ، فَأَخَذُوا مِنْ فَمِهِ هَذِهِ الْكَلِمَةَ وَجَعَلُوهَا عُذْرَهُمْ فِيمَا فعلوه.

[١٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ جماعة ﴿إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ﴾ يَقُولُونَ: لَئِنْ عَدَا عَلَيْهِ الذِّئْبُ فَأَكَلَهُ مِنْ بَيْنِنَا وَنَحْنُ جَمَاعَةٌ، إِنَّا إِذًا لَهَالِكُونَ عَاجِزُونَ.

[١٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا﴾ أي: عزموا، ﴿أَنْ يَجْعَلُوهُ﴾ يلقوه، وَالْمَعْنَىٰ: فَلَمَّا أَجَابَهُمْ يَعْقُوبُ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَىٰ مَا طَلَبُوا ذَهَبُوا بِهِ وَبَلَغُوا الْمَكَانَ الَّذِي فِيهِ الْجُبُّ ، ﴿فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ﴾ ، هَذِهِ الْوَاوُ زَائِدَةٌ تَقْدِيرُهُ: أَوْحَيْنَا إِلَيْهِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ - وَنَادَيْنَاهُ﴾ أَيْ: نَادَيْنَاهُ، ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ وَمَعْنَىٰ بِأَمْرِهِمْ: بِفِعْلِهِمُ الْعَظِيمِ فِي الْإِسَاءَةِ.أي: أَوْحَيْنَا إِلَىٰ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: لَتُصَدَّقَنَّ رُؤْيَاكَ وَلَتُخْبِرَنَّ إِخْوَتَكَ بِصَنِيعِهِمْ هَذَا، وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ، بِوَحْيِ الله وإعلامه إياه ذلك، قال مُجَاهِدٌ، وَقِيلَ: مَعْنَاهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ يَوْمَ تُخْبِرُهُمْ أَنَّكَ يُوسُفُ، وَذَلِكَ حِينَ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وهم منكرون، والأكثرون عَلَىٰ أَنَّ الله تَعَالَىٰ أَوْحَىٰ إِلَيْهِ بِهَذَا، وَبَعَثَ إِلَيْهِ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ يُؤْنِسُهُ، وَيُبَشِّرُهُ بِالْخُرُوجِ، وَيُخْبِرُهُ أَنَّهُ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا فَعَلُوهُ وَيُجَازِيهِمْ عَلَيْهِ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما: ثم إنهم ذبحوا ماعز، وَجَعَلُوا دَمَهَا عَلَىٰ قَمِيصِ يُوسُفَ علية السلام.

[١٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ﴾ قال أهل المعاني: جاؤوا فِي ظُلْمَةِ الْعِشَاءِ لِيَكُونُوا أَجْرَأَ عَلَىٰ الِاعْتِذَارِ بِالْكَذِبِ، وَرُوِيَ أَنَّ يَعْقُوبَ عَلَيْهِ

السَّلَامُ سَمِعَ صِيَاحَهُمْ وَعَوِيلَهُمْ فَخَرَجَ وَقَالَ: مَا لَكُمْ يَا بَنِيَّ هَلْ أَصَابَكُمْ فِي غَنَمِكُمْ شَيْءٌ؟ قَالُوا: لَا قَالَ: فَمَا أَصَابَكُمْ وَأَيْنَ يُوسُفُ ؟.

[١٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ﴾ أي: نترامىٰ وننتضل، قال السُّدِّيُّ: نركض عَلَىٰ أَقْدَامِنَا، وَالْمُرَادُ: الِاسْتِبَاقُ بِالْجَرْيِ عَلَىٰ الْأَرْجُلِ، وَذَلِكَ مِنْ مَرَحِ الشَّبَابِ وَلَعِبِهِمْ ، قَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ: الْمُسَابَقَةُ شِرْعَةٌ فِي الشَّرِيعَةِ، وَخَصْلَةٌ بَدِيعَةٌ، وَعَوْنٌ عَلَىٰ الْحَرْبِ، وَقَدْ فَعَلَهَا صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِنَفْسِهِ وَبِخَيْلِهِ، وَسَابَقَ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا عَلَىٰ قَدَمَيْهِ فَسَبَقَهَا، فَلَمَّا كَبُرَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَابَقَهَا فَسَبَقَتْهُ، فَقَالَ لَهَا: « **هَذِهِ بِتِلْكَ** »[١]، قَوْلُهُ: ﴿وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا﴾ أَيْ: عِنْدَ ثِيَابِنَا وَأَقْمِشَتِنَا، وَالْمَتَاعُ: مَا يُتَمَتَّعُ أَيْ يُنْتَفَعُ بِهِ. وَالْمُرَادُ بِهِ هُنَا ثَقَلُهُمْ مِنَ الثِّيَابِ وَالْآنِيَةِ وَالزَّادِ، ﴿فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا﴾ بمصدق لنا ﴿وَلَوْ كُنَّا﴾ وإن كنا ﴿صَادِقِينَ﴾ فِي قَوْلِنَا، وَلَمْ يُصَدِّقْهُمْ يَعْقُوبُ لِمَا ظَهَرَ لَهُ مِنْهُمْ مِنْ قُوَّةِ التُّهْمَةِ وَكَثْرَةِ الْأَدِلَّةِ عَلَىٰ خِلَافِ مَا قَالُوهُ ، وَقِيلَ: ﴿وَلَوْ كُنَّا صادِقِينَ﴾ أَيْ وَلَوْ كُنَّا عِنْدَكَ مِنْ أَهْلِ الثِّقَةِ وَالصِّدْقِ مَا صَدَّقْتَنَا، ولا تهمتنا فِي هَذِهِ الْقَضِيَّةِ، لِشِدَّةِ مَحَبَّتِكَ فِي يُوسُفَ.

[١٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ أي: بدم كَذِبٌ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ دَمَ يُوسُفَ، وَقِيلَ: بِدَمٍ مَكْذُوبٍ فِيهِ، قَالَ مُجَاهِدٌ: كَانَ دَمَ سَخْلَةٍ أَوْ

---

(١) أبو داود (٢٥٧٨) .

جَدْيٍ ذَبَحُوهُ، وَفِي الْقِصَّةِ: أَنَّهُمْ لَطَّخُوا الْقَمِيصَ بِالدَّمِ وَلَمْ يَشُقُّوهُ، فَقَالَ يَعْقُوبُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: كَيْفَ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَلَمْ يَشُقَّ قَمِيصَهُ فَاتَّهَمَهُمْ، ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا ﴾ زَيَّنَتْ، وَالتَّسْوِيلُ: التَّسْهِيلُ وَتَزْيِينُ النَّفْسِ مَا تَحْرِصُ عَلَىٰ حُصُولِهِ ، ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ مَعْنَاهُ: فَأَمْرِي صَبْرٌ جَمِيلٌ، أَوْ فِعْلِي صَبْرٌ جَمِيلٌ، وَقِيلَ: فَصَبْرٌ جَمِيلٌ أَخْتَارُهُ، وَالصَّبْرُ الْجَمِيلُ الَّذِي لا شكوىٰ فيه ولا جزع. ﴿وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ أَيْ: أَسْتَعِينُ بِاللهِ عَلَىٰ الصَّبْرِ، علىٰ ما تكذبون؛ وَعَنْ حَبِيبِ بْنِ أَبِي ثَابِتٍ أَنَّ يَعْقُوبَ كَانَ قَدْ سَقَطَ حَاجِبَاهُ عَلَىٰ عَيْنَيْهِ، فَكَانَ يَرْفَعُهُمَا بِخِرْقَةٍ، فَقِيلَ لَهُ: مَا هَذَا؟ قَالَ: طُولَ الزَّمَانِ وَكَثْرَةُ الْأَحْزَانِ، فَأَوْحَىٰ اللهُ إِلَيْهِ أَتَشْكُونِي يَا يَعْقُوبُ؟! قَالَ: يَا رَبِّ! خَطِيئَةٌ أَخْطَأْتُهَا فَاغْفِرْ لِي.

[١٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ﴾ وَهُمُ الْقَوْمُ الْمُسَافِرُونَ سُمُّوا سَيَّارَةً؛ لِأَنَّهُمْ يَسِيرُونَ فِي الْأَرْضِ كَانَتْ رُفْقَةً مِنْ مَدْيَنَ تُرِيدُ مِصْرَ، فأخطأوا الطَّرِيقَ فَنَزَلُوا قَرِيبًا مِنَ الْجُبِّ، وَكَانَ الْجُبُّ فِي قَفْرٍ بَعِيدٍ مِنَ الْعُمْرَانِ لِلرُّعَاةِ وَالْمَارَّةِ، وَكَانَ مَاؤُهُ مَالِحًا فَعَذُبَ حِينَ أُلْقِيَ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِيهِ، فَلَمَّا نَزَلُوا أَرْسَلُوا رَجُلًا مِنْ أَهْلِ مَدْيَنَ يُقَالُ لَهُ مَالِكُ بْنُ دُعْرٍ، لِطَلَبِ الْمَاءِ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ عز وجل، ﴿فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ﴾ وَالْوَارِدُ: الَّذِي يَتَقَدَّمُ الرُّفْقَةَ إِلَىٰ الْمَاءِ فَيُهَيِّئُ الْأَرْشِيَةَ وَالدِّلَاءَ ﴿فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ﴾ أَيْ: أَرْسَلَهَا فِي الْبِئْرِ، يُقَالُ: أَدْلَيْتُ الدَّلْوَ إِذَا أَرْسَلْتُهَا فِي الْبِئْرِ، وَدَلَوْتُهَا إِذَا أَخْرَجْتَهَا، فَتَعَلَّقَ يُوسُفُ بِالْحَبْلِ فَلَمَّا خَرَجَ إِذَا هُوَ بِغُلَامٍ

أَحْسَنَ مَا يَكُونُ ﴿قَالَ يا بُشْرَىٰ﴾ أَبْشِرُوا، وَالْمَعْنَىٰ: أَنَّهُ فَرِحَ وَابْتَهَجَ بِالْعُثُورِ عَلَىٰ غُلَامٍ. ﴿هَذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ﴾ أي أخفوه، أَيْ خَبَرُ الْتِقَاطِهِ خَشْيَةَ أَنْ يَكُونَ مِنْ وِلْدَانِ بَعْضِ الْأَحْيَاءِ الْقَرِيبَةِ مِنَ الْمَاءِ قَدْ تَرَدَّىٰ فِي الْجُبِّ، فَإِذَا عَلِمَ أَهْلُهُ بِخَبَرِهِ طَلَبُوهُ وَانْتَزَعُوهُ مِنْهُمْ لِأَنَّهُمْ تَوَسَّمُوا مِنْهُ صفات أَبْنَاءِ الْبُيُوتِ، ﴿بِضَاعَةً﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: أَسَرَّهُ مَالِكُ بْنُ ذُعْرٍ وَأَصْحَابُهُ مِنَ التُّجَّارِ الَّذِينَ معهم، وقالوا هذا بِضَاعَةٌ اسْتَبْضَعَهَا بَعْضُ أَهْلِ الْمَاءِ إِلَىٰ مِصْرَ خِيفَةَ أَنْ يَطْلُبُوا مِنْهُمْ فِيهِ الْمُشَارَكَةَ، وَقِيلَ: أَرَادَ أَنَّ إِخْوَةَ يُوسُفَ أَسَرُّوا شَأْنَ يُوسُفَ، وَقَالُوا هَذَا عَبْدٌ لَنَا أبق منا، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَاللهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾. فَأَتَىٰ يَهُوذَا يُوسُفَ بِالطَّعَامِ فَلَمْ يَجِدْهُ فِي الْبِئْرِ فَأَخْبَرَ بِذَلِكَ إِخْوَتَهُ فَطَلَبُوهُ فَإِذَا هُمْ بِمَالِكٍ وأصحابه نزول فَأَتَوْهُمْ فَإِذَا هُمْ بِيُوسُفَ، فَقَالُوا هَذَا عَبْدٌ آبِقٌ مِنَّا، وَيُقَالُ: إِنَّهُمْ هَدَّدُوا يُوسُفَ حَتَّىٰ لَمْ يَعْرِفْ حَالَهُ، وَقَالَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ، ثُمَّ بَاعُوهُ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ عَزَّ وجل:

[٢٠] ﴿وَشَرَوْهُ﴾ أي: باعوه، يُقَالُ: شَرَىٰ كَمَا يُقَالُ: بَاعَ، ﴿بِثَمَنٍ بَخْسٍ﴾ قَالَ الضَّحَّاكُ وَمُقَاتِلٌ وَالسُّدِّيُّ: حَرَامٌ؛ لِأَنَّ ثَمَنَ الْحُرِّ حَرَامٌ، وَسُمِّيَ الْحَرَامُ بَخْسًا؛ لِأَنَّهُ مَبْخُوسُ الْبَرَكَةِ، وَالْبَخْسُ: أَصْلُهُ مَصْدَرُ بَخَسَهُ إِذَا نَقَصَهُ عَنْ قِيمَةِ شَيْئِهِ. وَقَالَ عِكْرِمَةُ والشعبي: بثمن قليل ، ﴿دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾ ذَكَّرَ الْعَدَدَ عِبَارَةٌ عَنْ قِلَّتِهَا، وَقِيلَ: إِنَّمَا قَالَ مَعْدُودَةً؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ لَا يَزِنُونَ مَا كَانَ أَقَلَّ مِنْ أَرْبَعِينَ دِرْهَمًا، إِنَّمَا كَانُوا يَعُدُّونَهَا عَدًّا فَإِذَا بَلَغَتْ أُوقِيَّةً وَزَنُوهَا، ﴿وَكَانُوا﴾ يعني: إخوة يوسف، ﴿فِيهِ﴾ أَيْ: فِي يُوسُفَ ﴿مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ لِأَنَّهُمْ

لَمْ يَعْلَمُوا مَنْزِلَتَهُ عِنْدَ اللهِ، وَقِيلَ: كَانُوا فِي الثَّمَنِ مِنَ الزَّاهِدِينَ؛ لِأَنَّهُمْ لَمْ يَكُنْ قَصْدُهُمْ تَحْصِيلُ الثَّمَنِ إِنَّمَا كَانَ قَصْدُهُمْ تَبْعِيدَ يُوسُفَ عَنْ أَبِيهِ، ثُمَّ انْطَلَقَ مَالِكُ بْنُ ذُعْرٍ وأصحابه بيوسف فَذَهَبُوا بِهِ حَتَّىٰ قَدِمُوا مِصْرَ، وَعَرَضَهُ مَالِكٌ عَلَىٰ الْبَيْعِ فَاشْتَرَاهُ صَاحِبُ أَمْرِ الْمَلِكِ، وَكَانَ عَلَىٰ خزائن مصر يسمىٰ العزيز فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ:

[٢١] : ﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ﴾ وَاسْمُهَا زُلَيْخَا ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ﴾ أَيْ: مَنْزِلَهُ وَمُقَامَهُ، وَالْمَثْوَىٰ: مَوْضِعُ الْإِقَامَةِ، وَقِيلَ: أَكْرِمِيهِ فِي الْمَطْعَمِ وَالْمَلْبَسِ وَالْمُقَامِ، وَقَالَ قَتَادَةُ وَابْنُ جُرَيْجٍ: مَنْزِلَتَهُ ، ﴿ عَسىٰ أَنْ يَنْفَعَنا) أَيْ يَكْفِينَا بَعْضَ الْمُهِمَّاتِ إِذَا بَلَغَ، ﴿أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: كَانَ حَصُورًا لَا يُولَدُ لَهُ، فتبناه ، قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ: أَحْسَنُ النَّاسِ فِرَاسَةً ثَلَاثَةٌ، الْعَزِيزُ حِينَ تَفَرَّسَ فِي يُوسُفَ فَقَالَ:﴿عَسىٰ أَنْ يَنْفَعَنا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً﴾ وَبِنْتُ شُعَيْبٍ حِينَ قَالَتْ لِأَبِيهَا فِي مُوسَىٰ: ﴿اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ [القصص : ٢٦] ، وَأَبُو بَكْرٍ حِينَ اسْتَخْلَفَ عُمَرَ رضي الله عنهما ، قَوْلُهُ ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾ أَيْ: فِي أَرْضِ مِصْرَ، أَيْ: كَمَا أَنْقَذْنَا يُوسُفُ مِنَ الْقَتْلِ وَأَخْرَجْنَاهُ مِنَ الْجُبِّ، كَذَلِكَ مَكَّنَا لَهُ فِي الْأَرْضِ فَجَعَلْنَاهُ عَلَىٰ خَزَائِنِهَا، ﴿وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ أَيْ: مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ كي نُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ، وَهِيَ عِبَارَةٌ عَنِ الرُّؤْيَا. ﴿وَاللهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ﴾ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ لَا يَغْلِبُهُ شيء ولا يرد عليه حكم رَادٌّ، وَقِيلَ: هِيَ رَاجِعَةٌ إِلَىٰ يُوسُفَ عَلَيْهِ

السَّلَامُ مَعْنَاهُ: إِنَّ الله مسئول علىٰ أمر يوسف بالتدبير والإحاطة، لَا يَكِلُهُ إِلَىٰ أَحَدٍ حَتَّىٰ يبلغه مُنْتَهَىٰ عِلْمِهِ فِيهِ. ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أَيْ لَا يَطَّلِعُونَ عَلَىٰ غَيْبِهِ، وَقِيلَ: الْمُرَادُ بِالْأَكْثَرِ الْجَمِيعُ، لِأَنَّ أَحَدًا لَا يَعْلَمُ الْغَيْبَ.

[٢٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾ منتهىٰ شبابه وشدته وقوته ومعرفته ﴿آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ فَالْحُكْمُ: النُّبُوَّةُ، وَالْعِلْمُ: الْفِقْهُ فِي الدِّينِ، وَقِيلَ: حَكَمًا يَعْنِي إِصَابَةً فِي الْقَوْلِ، وَعِلْمًا بِتَأْوِيلِ الرُّؤْيَا، وَقِيلَ: الْفَرْقُ بَيْنَ الْحَكِيمِ وَالْعَالِمِ: أَنَّ الْعَالِمَ هُوَ الَّذِي يَعْلَمُ الْأَشْيَاءَ وَالْحَكِيمَ الَّذِي يَعْمَلُ بِمَا يُوجِبُهُ العلم، ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: الْمُؤْمِنِينَ، وَعَنْهُ أَيْضًا: الْمُهْتَدِينَ، وَقَالَ الضَّحَّاكُ: الصَّابِرِينَ عَلَىٰ النَّوَائِبِ كَمَا صَبَرَ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

[٢٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ﴾ يَعْنِي: امْرَأَةَ الْعَزِيزِ، وَالْمُرَاوَدَةُ: طَلَبُ الفعل، والمراد ههنا أَنَّهَا دَعَتْهُ إِلَىٰ نَفْسِهَا لِيُوَاقِعَهَا، الْمُرَاوَدَةُ: مُشْتَقَّةٌ مِنْ رَادَ يَرُودُ، إِذَا جَاءَ وَذَهَبَ، شَبَّهَ حَالَ الْمُحَاوِلِ أَحدًا عَلَىٰ فِعْلِ شَيْءٍ مُكَرَّرًا ذَلِكَ، بِحَالِ مَنْ يَذْهَبُ وَيَجِيءُ فِي الْمُعَاوَدَةِ إِلَىٰ الشَّيْءِ الْمَذْهُوبِ عَنْهُ، فَأَطْلَقَ رَاوَدَ بِمَعْنَىٰ حَاوَلَ ، ﴿وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ﴾ أَيْ: أَطْبَقَتْهَا، وَكَانَتْ سَبْعَةً، ﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾ أي: هلم وأقبل، قَالَ عِكْرِمَةُ: هِيَ أَيْضًا بِالْحَوْرَانِيَّةِ هَلُمَّ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَغَيْرُهُ: هِيَ لُغَةٌ عَرَبِيَّةٌ، وَهِيَ كَلِمَةُ حَثٍّ وَإِقْبَالٍ عَلَىٰ الشَّيْءِ: ﴿قَالَ﴾ يُوسُفَ لَهَا عِنْدَ ذَلِكَ، ﴿مَعَاذَ اللهِ﴾ أَيْ: أَعُوذُ بِاللهِ وَأَعْتَصِمُ

بِاللهِ مِمَّا دَعَوْتِنِي إِلَيْهِ، ﴿إِنَّهُ رَبِّي﴾ يُرِيدُ أَنَّ زَوْجَكِ قِطْفِيرَ سَيِّدِي ﴿أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ أَيْ: أَكْرَمَ مَنْزِلِي، هَذَا قَوْلُ أَكْثَرِ الْمُفَسِّرِينَ، وَكَانُوا يُطْلِقُونَ الرَّبَّ عَلَىٰ السَّيِّدِ وَالْكَبِيرِ، أَيْ إِنَّ بَعْلَكِ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ أَيْ مَنْزِلِي، وَأَحْسَنَ إِلَيَّ فَلَا أُقَابِلُهُ بِالْفَاحِشَةِ فِي أَهْلِهِ، وَقِيلَ: الْهَاءُ رَاجِعَةٌ إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ يُرِيدُ أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ، أَيْ: آوَانِي، وَمِنْ بَلَاءِ الْجُبِّ عَافَانِي. ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ يعني: إن فعل هَذَا فَخُنْتُهُ فِي أَهْلِهِ بَعْدَ مَا أَكْرَمَ مَثْوَايَ فَأَنَا ظَالِمٌ، وَلَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ، وَقِيلَ: لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ أَيْ لَا يَسْعَدُ الزُّنَاةُ.

[٢٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا﴾ وَالْهَمُّ هُوَ الْمُقَارَبَةُ مِنَ الْفِعْلِ من غير دخول فيه، وفي هذا الباب ما ورد من حَدِيثُ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ، قَالَ رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم: « **يَقُولُ اللهُ تَعَالَىٰ: إِذَا هَمَّ عَبْدِي بِحَسَنَةٍ فَاكْتُبُوهَا لَهُ حَسَنَةً، فَإِنَّ عَمِلَهَا فَاكْتُبُوهَا لَهُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، وَإِنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا فَاكْتُبُوهَا لَهُ حَسَنَةً، فَإِنَّمَا تَرَكَهَا مِنْ جَرَّايَ، وَإِنْ عَمِلَهَا فَاكْتُبُوهَا لَهُ بِمِثْلِهَا**»(١)، واخْتَلَفُوا فِي ذَلِكَ الْبُرْهَانِ، قَالَ قَتَادَةُ وَأَكْثَرُ الْمُفَسِّرِينَ: إِنَّهُ رَأَىٰ صُورَةَ يَعْقُوبَ، وَهُوَ يَقُولُ لَهُ يَا يُوسُفُ تَعْمَلُ عَمَلَ السُّفَهَاءِ، وَأَنْتَ مَكْتُوبٌ فِي الْأَنْبِيَاءِ، وَعَنْ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ قَالَ: كَانَ فِي الْبَيْتِ صَنَمٌ فَقَامَتِ الْمَرْأَةُ وَسَتَرَتْهُ بِثَوْبٍ، فَقَالَ لَهَا يُوسُفُ: لِمَ فَعَلْتِ هَذَا؟ فَقَالَتِ: اسْتَحْيَيْتُ مِنْهُ أَنْ يَرَانِي عَلَىٰ

---

(١) البخاري (٦٤٩١) ومسلم (١٢٨) .

الْمَعْصِيَةِ، فَقَالَ يُوسُفُ: أَتَسْتَحِينَ مِمَّا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يَفْقَهُ؟ فَأَنَا أَحَقُّ أَنْ أَسْتَحِيَ مِنْ رَبِّي وَهَرَبَ، قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَوْلَا أَنْ رَأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ جَوَابُ لَوْلَا مَحْذُوفٌ تَقْدِيرُهُ: لَوْلَا أَنْ رَأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ لَوَاقَعَ الْمَعْصِيَةَ، قَالَ الطبري: وَالصَّوَابُ أَنْ يُقَالَ: إِنَّهُ أي آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ الله تزجره عَمَّا كَانَ همَّ بِهِ، وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ صُورَةَ يَعْقُوبَ، وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ صُورَةَ الْمَلِكِ، وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ مَا رَآهُ مَكْتُوبًا مِنَ الزَّجْرِ عَنْ ذَلِكَ، وَلَا حُجَّةَ قَاطِعَةٌ عَلَىٰ تَعْيِينِ شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، فَالصَّوَابُ أَنْ يُطْلَقَ، كما قال الله تعالىٰ، وَقَوْلُهُ: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ﴾ أَيْ كَمَا أَرَيْنَاهُ بُرْهَانًا صَرَفَهُ عَمَّا كَانَ فِيهِ كذلك نفيه السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ فِي جَمِيعِ أُمُورِهِ، ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ أَيْ مِنَ الْمُجْتَبِينَ الْمُطَهَّرِينَ الْمُخْتَارِينَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ، صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ.

قَوْلُهُ: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ﴾ وَالسُّوءُ: الْقَبِيحُ، وَهُوَ خِيَانَةُ مَنِ ائْتَمَنَهُ، وَالْفَحْشَاءُ: الْمَعْصِيَة، وَهِي الزِّنَىٰ ، قال ابن عاشور : وَالتَّعْبِيرُ عَنِ الْعِصْمَةِ بِالصَّرْفِ يُشِيرُ إِلَىٰ أَنَّ أَسْبَابَ حُصُولِ السُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ مَوْجُودَةٌ وَلَكِنَّ اللهَ صَرَفَهُمَا عَنْهُ. ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ أي الْمُخْتَارِينَ لِلنُّبُوَّةِ، دليله: ﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَىٰ الدَّارِ﴾ أَيِ الَّذِينَ أَخْلَصَهُمُ اللهُ وَاصْطَفَاهُمْ.

[٢٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ﴾ وَذَلِكَ أَنْ يُوسُفَ لَمَّا رَأَىٰ الْبُرْهَانَ قَامَ مُبَادِرًا إِلَىٰ بَابِ الْبَيْتِ هَارِبًا، وَتَبِعَتْهُ الْمَرْأَةُ لِتَمْسِكَ الْبَابَ حَتَّىٰ لَا يَخْرُجَ يُوسُفُ، فَسَبَقَ يُوسُفُ وَأَدْرَكَتْهُ الْمَرْأَةُ فَتَعَلَّقَتْ بقميصه خَلْفِهِ فَجَذَبَتْهُ إِلَيْهَا حَتَّىٰ

لَا يخرج، وَالِاسْتِبَاقُ طَلَبُ السَّبْقِ إِلَىٰ الشَّيْءِ، وَمِنْهُ السِّبَاقُ ، ﴿وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ﴾ أي: فشقته وَالْقَدُّ : الْقَطْعُ، وَأَكْثَرُ مَا يُسْتَعْمَلُ فِيمَا كَانَ طُولًا، ﴿مِنْ دُبُرٍ﴾ أَيْ: مِنْ خَلْفٍ، فَلَمَّا خَرَجَا لَقِيَا الْعَزِيزَ، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَىٰ الْبَابِ﴾ أَيْ وَجَدَا الْعَزِيزَ عِنْدَ الْبَابِ، وَعُنِيَ بِالسَّيِّدِ الزَّوْجُ، وَالْإِلْفَاءُ: وِجْدَانُ شَيْءٍ عَلَىٰ حَالَةٍ خَاصَّةٍ مِنْ غَيْرِ سَعْيٍ لِوِجْدَانِهِ، فَالْأَكْثَرُ أَنْ يَكُونَ مُفَاجِئًا، أَوْ حَاصِلًا عَنْ جَهْلٍ بِأَوَّلِ حُصُولٍ، كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: قالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنا عَلَيْهِ آباءَنا وكان اسمه قِطْفِيرَ مَعَ ابْنِ عَمٍّ لِرَاعِيلَ فَلَمَّا رَأَتْهُ هَابَتْهُ و ﴿قَالَتْ﴾ سَابِقَةً بِالْقَوْلِ لِزَوْجِهَا ﴿مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا﴾ يَعْنِي: الزِّنَا، ثُمَّ خَافَتْ عَلَيْهِ أَنْ يَقْتُلَهُ فَقَالَتْ ﴿إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ﴾ أَيْ: يُحْبَسَ، ﴿أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أَيْ: ضَرْبٌ بِالسِّيَاطِ، فَلَمَّا سَمِعَ يُوسُفُ مَقَالَتَهَا.

[٢٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي﴾ يَعْنِي: طَلَبَتْ مِنِّي الْفَاحِشَةَ فَأَبَيْتُ وفررت منها، وَقِيلَ: مَا كَانَ يُرِيدُ يُوسُفُ أن يذكرها، فَلَمَّا قَالَتِ الْمَرْأَةُ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا ذَكَرَهُ، فَقَالَ: ﴿هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي﴾ ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ﴾ وحكم حاكم، ﴿مِنْ أَهْلِهَا﴾ اخْتَلَفُوا فِي ذَلِكَ الشَّاهِدِ، فَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَالضَّحَّاكُ: كَانَ صَبِيًّا فِي الْمَهْدِ أَنْطَقَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَهُوَ رِوَايَةُ الْعَوْفِيِّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «**تَكَلَّمَ فِي المهد أَرْبَعَةٌ وَهُمْ صِغَارٌ: ابْنُ مَاشِطَةِ ابْنَةِ فِرْعَوْنَ، وَشَاهِدُ يُوسُفَ،**

وَصَاحِبُ جُرَيْجٍ، وَعِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ»(١) ، وَقِيلَ: كَانَ ذَلِكَ الصَّبِيُّ ابن خال الْمَرْأَةِ ، وَقَالَ الْحَسَنُ وَعِكْرِمَةُ وَقَتَادَةُ وَمُجَاهِدٌ: لَمْ يَكُنْ صَبِيًّا وَلَكِنَّهُ كَانَ رَجُلًا حَكِيمًا ذَا رَأْيٍ ، قَالَ السُّدِّيُّ: هُوَ ابْنُ عَمِّ رَاعِيلَ فَحَكَمَ فَقَالَ: ﴿إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ﴾ أَيْ: مِنْ قُدَّامٍ، ﴿فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ .

[٢٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ وَذَلِكَ يَكُونُ كما وقع لما هرب منها، وطلبته، أَمْسَكَتْ بِقَمِيصِهِ مِنْ وَرَائِهِ لِتَرُدَّهُ إِلَيْهَا، فَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ وَرَائِهِ.

[٢٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَمَّا رَأَىٰ﴾ قِطْفِيرُ عزيز مصر ﴿قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ﴾ عَرَفَ خِيَانَةَ امْرَأَتِهِ وَبَرَاءَةَ يُوسُفَ عليه السلام، ﴿قَالَ﴾ لها ﴿إِنَّهُ﴾ أَيْ: إِنَّ هَذَا الصَّنِيعَ، ﴿مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ وَقِيلَ: إِنَّ هَذَا مِنْ قَوْلِ الشَّاهِدِ، وَالْكَيْدُ: فِعْلُ شَيْءٍ فِي صُورَةٍ غَيْرِ الْمَقْصُودَةِ لِلتَّوَصُّلِ إِلَىٰ مَقْصُودٍ ، ثُمَّ أَقْبَلُ قِطْفِيرُ عَلَىٰ يوسف فقال:

[٢٩] : ﴿يُوسُفُ﴾ أَيْ: يَا يُوسُفُ، ﴿أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾ أَيْ: عَنْ هَذَا الْحَدِيثِ فَلَا تَذْكُرْهُ لِأَحَدٍ حَتَّىٰ لَا يَشِيعَ ، وقيل: معناه لا تكترث به فَقَدْ بَانَ عُذْرُكَ وَبَرَاءَتُكَ، ثُمَّ قال لامرأته، ﴿وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ﴾ أَيْ: تُوبِي إِلَىٰ اللهِ، ﴿إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ من المذنبين، وَقِيلَ: إِنَّ هَذَا مِنْ قَوْلِ الشَّاهِدِ

---

(١) أحمد (٢٨٢٢) .

لِيُوسُفَ وزليخة وَأَرَادَ بِقَوْلِهِ وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ، أَيْ: سَلِي زَوْجَكِ أَنْ لَا يُعَاقِبَكِ وَيَصْفَحَ عَنْكِ، إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ، مِنَ الْمُذْنِبِينَ حَتَّىٰ رَاوَدْتِ شَابًّا عَنْ نَفْسِهِ وَخُنْتِ زَوْجَكِ، فَلَمَّا اسْتَعْصَمَ كَذَبْتِ عَلَيْهِ، قَالَ الْمُفَسِّرُونَ: وَكَانَ الْعَزِيزُ قَلِيلَ الْغَيْرَةِ. وَقِيلَ: كَانَ حَلِيمًا عَاقِلًا. وَلَعَلَّهُ كَانَ مُولَعًا بِهَا، أَوْ كَانَتْ شُبْهَةُ الْمُلْكِ تُخَفِّفُ مُؤَاخَذَةَ الْمَرْأَةِ بِمُرَاوَدَةِ مَمْلُوكِهَا.

[٣٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ﴾ يَقُولُ شَاعَ أَمْرُ يُوسُفَ وَالْمَرْأَةِ فِي الْمَدِينَةِ مَدِينَةِ مِصْرَ. وقيل: مدينة عين الشمس، وتحدثت النساء بذلك وقلن: ﴿امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا﴾ أَيْ: عَبْدَهَا الْكَنْعَانِيَّ، قَالَ قَتَادَةُ:" فَتاها" وَهُوَ فَتَىٰ زَوْجِهَا، لِأَنَّ يُوسُفَ كَانَ عِنْدَهُمْ فِي حُكْمِ الْمَمَالِيكِ، وَكَانَ يَنْفُذُ أَمْرُهَا فِيهِ. ﴿عَنْ نَفْسِهِ﴾ أَيْ: تَطْلُبُ مِنْ عَبْدِهَا الْفَاحِشَةَ، ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ أَيْ: عَلِقَهَا حُبًّا. قَالَ الْكَلْبِيُّ: حَجَبَ حبُّه قَلْبَهَا حَتَّىٰ لَا تَعْقِلَ سِوَاهُ، وَقِيلَ: أَحَبَّتْهُ حَتَّىٰ دخلها حُبُّهُ شَغَافَ قَلْبِهَا، أَيْ: دَاخِلَ قَلْبِهَا، وَالشِّغَافُ وَهُوَ غِلَافُ الْقَلْبِ: أَيْ أَصَابَ حُبُّهُ شِغَافَهَا، أَيِ اخْتَرَقَ الشَّغَافَ فَبَلَغَ الْقَلْبَ، كِنَايَةٌ عَنِ التَّمَكُّنِ، وعَنْ سَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ قَالَ: إِنَّ امْرَأَةَ الْعَزِيزِ اسْتَوْهَبَتْ زَوْجَهَا يُوسُفَ فَوَهَبَهُ لَهَا، وَقَالَ: مَا تَصْنَعِينَ بِهِ؟ قَالَتْ أَتَّخِذُهُ وَلَدًا، قَالَ: هُوَ لَكِ، فَرَبَّتْهُ حَتَّىٰ أَيْفَعَ وَفِي نَفْسِهَا مِنْهُ مَا فِي نَفْسِهَا، فَكَانَتْ تَنْكَشِفُ لَهُ وَتَتَزَيَّنُ وَتَدْعُوهُ مِنْ وَجْهِ اللُّطْفِ فَعَصَمَهُ اللهُ. ﴿إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ أي: خطأ ظاهر، وقيل: أَيْ هِيَ مَفْتُونَةُ الْعَقْلِ بِحُبِّ هَذَا الْفَتَىٰ، وَلَيْسَ الْمُرَادُ الضَّلَالَ الدِّينِيَّ.

[٣١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ﴾ زليخة ﴿بِمَكْرِهِنَّ﴾ بقولهن وحديثهن، قاله قتادة والسدي، وقال ابْنُ إِسْحَاقَ: إِنَّمَا قُلْنَ ذَلِكَ مَكْرًا بِهَا لِتُرِيَهُنَّ يُوسُفَ، وَكَانَ وصف لَهُنَّ حُسْنُهُ وَجَمَالُهُ، وَقِيلَ: إِنَّهَا أفشت إليهن ذَلِكَ، فَلِذَلِكَ سَمَّاهُ مَكْرًا ﴿أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ﴾ قَالَ وَهْبٌ: اتَّخَذَتْ مَأْدُبَةً وَدَعَتْ أَرْبَعِينَ امْرَأَةً مِنْهُنَّ هَؤُلَاءِ اللَّاتِي عيّرنها. ﴿وَأَعْتَدَتْ﴾ أي أعدت وَأَعْتَدْتِمِنَ الْعَتَادِ، وَهُوَ كُلُّ مَا جَعَلْتَهُ عُدَّةً لِشَيْءٍ، ﴿لَهُنَّ مُتَّكَأً﴾ أَيْ هَيَّأَتْ لَهُنَّ مَجَالِسَ يَتَّكِئْنَ عَلَيْهَا. وَقَالَ ابْنِ عَبَّاسٍ وغيره: مُتَّكَأً أَيْ: طَعَامًا سَمَّاهُ مُتَّكَأً؛ لِأَنَّ أَهْلَ الطَّعَامِ إِذَا جَلَسُوا يَتَّكِئُونَ عَلَىٰ الْوَسَائِدِ، فَسَمَّىٰ الطَّعَامَ مُتَّكَأً عَلَىٰ الِاسْتِعَارَةِ. يُقَالُ: اتَّكَأْنَا عِنْدَ فُلَانٍ أَيْ: طَعِمْنَا، وَيُقَالُ: الْمُتَّكَأُ: مَا اتكأت عليه للشراب أو الحديث أو الطعام، ﴿وَآتَتْ﴾ أعطت، ﴿كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا﴾ فَكُنَّ يَأْكُلْنَ اللَّحْمَ حَزًّا بِالسِّكِّينِ ﴿وَقَالَتِ﴾ ليوسف، ﴿اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾ وَذَلِكَ أَنَّهَا كَانَتْ أَجْلَسَتْهُ فِي مكان آخَرَ؛ فَخَرَجَ عَلَيْهِنَّ يُوسُفُ. قَالَ عِكْرِمَةُ: كَانَ فَضْلُ يُوسُفَ عَلَىٰ سائر النَّاسِ فِي الْحُسْنِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَىٰ سَائِرِ النُّجُومِ، وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**رَأَيْتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي إِلَىٰ السَّمَاءِ يُوسُفَ كَالْقَمَرِ لَيْلَةَ البدر**»[١].

---

(١) أحمد (١٢٥٠٥).

قَوْلُهُ : ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ﴾ أَعْظَمْنَهُ، قَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ: هَالَهُنَّ أَمْرُهُ وَبُهِتْنَ. وَمَعْنَىٰ أَكْبَرْنَهُ أَعْظَمْنَهُ، أَيْ أَعَظَمْنَ جَمَالَهُ وَشَمَائِلَهُ، ﴿وَقَطَّعْنَ﴾ قال مجاهد: حَزَّزْنَ بِالسَّكَاكِينِ الَّتِي مَعَهُنَّ، قَالَ النَّحَّاسُ: يُرِيدُ مُجَاهِدٌ أَنَّهُ لَيْسَ قَطْعًا تَبِينُ مِنْهُ الْيَدُ، إِنَّمَا هُوَ خَدْشٌ وَحَزٌّ، وَذَلِكَ مَعْرُوفٌ فِي اللُّغَةِ أَنْ يُقَالَ إِذَا خَدَشَ الْإِنْسَانُ يَدَ صَاحِبِهِ قَطَعَ يَدَهُ ، ﴿أَيْدِيَهُنَّ﴾ وَهُنَّ يَحْسَبْنَ أَنَّهُنَّ يَقْطَعْنَ البرتقال ، وَلَمْ يَجِدْنَ الْأَلَمَ لِشُغْلِ قُلُوبِهِنَّ بِيُوسُفَ، قَالَ مُجَاهِدٌ: فَمَا أَحْسَسْنَ إلا بالدم، ﴿وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا﴾ أَيْ: مَعَاذَ اللهِ أَنْ يَكُونَ هذا بشرًا، ﴿مَا هَذَا بَشَرًا﴾ نَصْبٌ بِنَزْعِ حَرْفِ الصِّفَةِ، أَيْ: ببشر، ﴿إِنْ هَذَا﴾ أَيْ: مَا هَذَا، ﴿إِلَّا مَلَكٌ﴾ من الملائكة، ﴿كَرِيمٌ﴾ علىٰ الله.

[٣٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَتْ﴾ يَعْنِي زليخة ﴿فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ﴾ لَمَّا رَأَتِ افْتِتَانَهُنَّ بِيُوسُفَ أَظْهَرَتْ عُذْرَ نَفْسِهَا بِقَوْلِهَا: ﴿لُمْتُنَّنِي فِيهِ﴾ أَيْ بِحُبِّهِ، وَاللَّوْمُ الْوَصْفُ بِالْقَبِيحِ. ثُمَّ صَرَّحَتْ بِمَا فَعَلَتْ، فَقَالَتْ: ﴿وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾ أي: امتنع، وَسُمِّيَتِ الْعِصْمَةُ عِصْمَةً لِأَنَّهَا تَمْنَعُ مِنَ ارْتِكَابِ الْمَعْصِيَةِ. وَقِيلَ: ﴿اسْتَعْصَمَ﴾ أَيِ اسْتَعْصَىٰ، وَالْمَعْنَىٰ وَاحِدٌ ، وَإِنَّمَا صَرَّحَتْ بِهِ لِأَنَّهَا عَلِمَتْ أن لَا مَلَامَةَ عَلَيْهَا مِنْهُنَّ وَقَدْ أَصَابَهُنَّ مَا أَصَابَهَا مِنْ رُؤْيَتِهِ، فَقُلْنَ لَهُ: أَطِعْ مَوْلَاتَكَ. فَقَالَتْ زليخة: ﴿وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ﴾ وَلَئِنْ لَمْ يُطَاوِعْنِي فِيمَا دَعَوْتُهُ إليه، ﴿لَيُسْجَنَنَّ﴾ أي: ليعاقبن بالحبس، ﴿وَلَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾

مِنَ الْأَذِلَّاءِ ، تقول: لَيُحْبَسَنَّ، وليكونًا من أهل الصغار والذلة بالحبس والسجن، ولأهيننَّه.

[٣٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ رَبِّ﴾ أَيْ: يَا رَبِّ، ﴿السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ أَيْ دُخُولُ السِّجْنِ، فَحَذَفَ الْمُضَافَ، قَالَهُ الزَّجَّاجُ وَالنَّحَّاسُ: ﴿ أَحَبُّ إِلَيَّ﴾ أَيْ أَسْهَلُ عَلَيَّ وَأَهْوَنُ مِنَ الْوُقُوعِ فِي الْمَعْصِيَةِ، لَا أَنَّ دُخُولَ السِّجْنِ مِمَّا يُحِبُّ عَلَىٰ التَّحْقِيقِ ، وَحُكِيَ أَنَّ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا قَالَ: ﴿ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ﴾ أَوْحَىٰ اللهُ إِلَيْهِ: يَا يُوسُفُ! أَنْتَ حَبَسْتَ نَفْسَكَ حَيْثُ قُلْتَ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ، وَلَوْ قُلْتَ الْعَافِيَةُ أَحَبُّ إِلَيَّ لَعُوفِيتَ ، قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ﴾ أَيْ كَيْدَ النِّسْوَانِ، وَقِيلَ: كَيْدُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي رَأَيْنَهُ؟ ﴿أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾ أَمِلْ إِلَيْهِنَّ وَأُتَابِعْهُنَّ، أَيْ أَمِلْ إِلَيْهِنَّ، مِنْ صَبَا يَصْبُو إِذَا مَالَ وَاشْتَاقَ صَبْوًا وَصَبْوَةً، أَيْ إِنْ لَمْ تَلْطُفْ بِي فِي اجْتِنَابِ الْمَعْصِيَةِ وَقَعْتُ فِيهَ ، ﴿وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ أَيْ مِمَّنْ يَرْتَكِبُ الْإِثْمَ وَيَسْتَحِقُّ الذَّمَّ، أَوْ مِمَّنْ يَعْمَلُ عَمَلَ الْجُهَّالِ، وَدَلَّ هَذَا عَلَىٰ أَنَّ أَحَدًا لَا يَمْتَنِعُ عَنْ مَعْصِيَةِ اللهِ إِلَّا بِعَوْنِ اللهِ، وَدَلَّ أَيْضًا عَلَىٰ قُبْحِ الْجَهْلِ وَالذَّمِّ لِصَاحِبِهِ.

[٣٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَاسْتَجابَ لَهُ رَبُّهُ﴾ لِمَا قَالَ.﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ﴾ تَعَرَّضَ لِلدُّعَاءِ، وَكَأَنَّهُ قَالَ: اللَّهُمَّ اصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ، فَاسْتَجَابَ لَهُ دُعَاءَهُ، وَلَطَفَ بِهِ وَعَصَمَهُ عَنِ الْوُقُوعِ فِي الزنىٰ، ﴿ كَيْدَهُنَّ﴾ قِيلَ: لِأَنَّهُنَّ جَمْعٌ

قَدْ رَاوَدْنَهُ عَنْ نَفْسِهِ، ﴿فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ السميع لِدُعَائِهِ الْعَلِيمُ بِمَكْرِهِنَّ.

[٣٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُمْ﴾ يعني لِلْعَزِيزِ وَأَصْحَابِهِ فِي الرَّأْيِ وَذَلِكَ أَنَّهُمْ أَرَادُوا أَنْ يَقْتَصِرُوا مِنْ أَمْرِ يُوسُفَ عَلَىٰ الْأَمْرِ بِالْإِعْرَاضِ، ثم بدا له بأن يَحْبِسُوهُ، ﴿مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ﴾ الدَّالَّةِ عَلَىٰ بَرَاءَةِ يُوسُفَ مِنْ قدِّ الْقَمِيصِ وَكَلَامِ الطِّفْلِ وَقَطْعِ النِّسَاءِ أَيْدِيَهُنَّ وَذَهَابِ عُقُولِهِنَّ، ﴿لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ إِلَىٰ مُدَّةٍ يَرَوْنَ فِيهِ رَأْيَهُمْ، وَقَالَ عَطَاءٌ: إِلَىٰ أَنْ تَنْقَطِعَ مَقَالَةُ النَّاسِ، وقَالَ السُّدِّيُّ: وَذَلِكَ أَنَّ الْمَرْأَةَ قَالَتْ لِزَوْجِهَا: إِنَّ هَذَا الْعَبْدَ الْعِبْرَانِيَّ قَدْ فَضَحَنِي فِي النَّاسِ يُخْبِرُهُمْ أَنِّي رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ، فإما أن تأذن لي أن أخرج فَأَعْتَذِرَ إِلَىٰ النَّاسِ، وَإِمَّا أَنْ تَحْبِسَهُ، فَحَبَسَهُ، وذُكر أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ جَعَلَ ذَلِكَ الْحَبْسَ تَطْهِيرًا لِيُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ هَمِّهِ بالمرأة.

[٣٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ﴾ وَهُمَا غُلَامَانِ كَانَا لملك مصر أو الفرعون كما كان يسمىٰ، أَحَدُهُمَا خَبَّازُهُ وَصَاحِبُ طَعَامِهِ وَالْآخَرُ سَاقِيهِ وَصَاحِبُ شَرَابِهِ، غَضِبَ الْمَلِكُ عَلَيْهِمَا فَحَبَسَهُمَا، وَكَانَ السَّبَبُ فِيهِ أَنَّ جَمَاعَةً مِنْ أَهْلِ مِصْرَ أَرَادُوا الْمَكْرَ بِالْمَلِكِ وَاغْتِيَالَهُ فَضَمَّنُوا لِهَذَيْنَ مَالًا لِيَسُمَّا الْمَلِكَ فِي طَعَامِهِ وَشَرَابِهِ، فَأَجَابَاهُمْ، ثُمَّ إِنَّ السَّاقِيَ نَكَلَ عَنْهُ، وَقَبِلَ الْخَبَّازُ الرِّشْوَةَ فَسَمَّ الطَّعَامَ، فَلَمَّا أَحْضَرَ الطَّعَامَ وَالشَّرَابَ، قَالَ السَّاقِي: لَا تَأْكُلْ أَيُّهَا الْمَلِكُ فَإِنَّ الطَّعَامَ مَسْمُومٌ، وَقَالَ الْخَبَّازُ لَا تَشْرَبْ فَإِنَّ الشَّرَابَ مَسْمُومٌ، فَقَالَ

الْمَلِكُ لِلسَّاقِي: اشْرَبْ فَشَرِبَهُ فَلَمْ يَضُرَّهُ، وَقَالَ لِلْخَبَّازِ: كُلْ من طعام، فَأَبَىٰ فَجَرَّبَ ذَلِكَ الطَّعَامَ عَلَىٰ دَابَّةٍ فَأَكَلَتْهُ فَهَلَكَتْ، فَأَمَرَ الْمَلِكُ بِحَبْسِهِمَا وَكَانَ يُوسُفُ حِينَ دَخَلَ السِّجْنَ جَعَلَ يَنْشُرُ عِلْمَهُ وَيَقُولُ: إِنِّي أَعْبُرُ الْأَحْلَامَ، فَقَالَ أَحَدُ الْفَتَيَيْنِ لِصَاحِبِهِ: هَلُمَّ فَلْنُجَرِّبْ هَذَا الْعِبْرَانِيَّ، فَتَرَاءَيَا لَهُ فَسَأَلَاهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَا رَأَيَا شَيْئًا، قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: مَا رَأَيَا شَيْئًا وَإِنَّمَا تَحَالَمَا لِيُجَرِّبَا يُوسُفَ، وَقَالَ قَوْمٌ: بَلْ كَانَا رَأَيَا حَقِيقَةً، فَرَآهُمَا يُوسُفُ وَهُمَا مَهْمُومَانِ فسألهما عن شأنهما، فذكر أنهما غلامان للملك وقد حبسهما، وقد رأيا رؤيا قد غَمَّتْهُمَا، فَقَالَ يُوسُفُ: قُصَّا عَلَيَّ مَا رَأَيْتُمَا، فَقَصَّا عَلَيْهِ ﴿قَالَ أَحَدُهُمَا﴾ وَهُوَ صَاحِبُ الشَّرَابِ، ﴿إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا﴾ أَيْ: عِنَبًا سَمَّىٰ الْعِنَبَ خَمْرًا بِاسْمِ مَا يَئُولُ إِلَيْهِ، كَمَا يُقَالُ: فُلَانٌ يَطْبُخُ الْآجُرَّ أَيْ: يَطْبُخُ اللَّبِنَ لِلْآجُرِّ، وَقِيلَ: الْخَمْرُ الْعِنَبُ بِلُغَةِ عَمَّانَ، وَذَلِكَ أَنَّهُ قَالَ: إِنِّي رَأَيْتُ كَأَنِّي فِي بستان، فإذا أنا بِأَصْلِ حَبَلَةٍ عَلَيْهَا ثَلَاثُ عَنَاقِيدَ مِنْ عِنَبٍ فَجَنَيْتُهَا وَكَانَ كَأْسَ الْمَلِكِ بِيَدِي فَعَصَرْتُهَا فِيهِ وَسَقَيْتُ الملك فشربه. ﴿وَقَالَ الْآخَرُ﴾ وَهُوَ الْخَبَّازُ ﴿إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ﴾ وَذَلِكَ أَنَّهُ قَالَ: إِنِّي رَأَيْتُ كَأَنَّ فَوْقَ رَأْسِي ثَلَاثَ سِلَالٍ فيها الخبز والألوان من الأطعمة وسباع الطير ينهشن وينهبن منه. ﴿نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ﴾ أَخْبِرْنَا بِتَفْسِيرِهِ وَتَعْبِيرِهِ وَمَا يَئُولُ إِلَيْهِ أَمْرُ هَذِهِ الرُّؤْيَا. ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أَيِ: الْعَالِمِينَ بِعِبَارَةِ الرُّؤْيَا، وَالْإِحْسَانُ بِمَعْنَىٰ الْعِلْمِ ، وَرُوِيَ أَنَّ الضَّحَّاكَ بْنَ مُزَاحِمٍ سُئِلَ عَنْ قَوْلِهِ: ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ ، وَقِيلَ: إِنَّهُ لَمَّا دَخَلَ السِّجْنَ

وَجَدَ فِيهِ قومًا قد اشْتَدَّ بَلَاؤُهُمْ وَانْقَطَعَ رَجَاؤُهُمْ وَطَالَ حزنهم، فجعل يسليهم وجعل يقول: أَبْشِرُوا وَاصْبِرُوا تُؤْجَرُوا، فَيَقُولُونَ بَارَكَ اللهُ فِيكَ يَا فَتَىٰ مَا أَحْسَنَ وَجْهَكَ وَخُلُقَكَ وَحَدِيثَكَ، لَقَدْ بورك لنا في جوارك .

[٣٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ﴾ قِيلَ: أَرَادَ بِهِ فِي النَّوْمِ يَقُولُ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ فِي نَوْمِكُمَا ﴿إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ﴾ فِي الْيَقَظَةِ، وَقِيلَ: أَرَادَ بِهِ فِي الْيَقَظَةِ يَقُولُ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ مِنْ مَنَازِلِكُمَا تُرْزَقَانِهِ، تُطْعَمَانِهِ وَتَأْكُلَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ بِقَدْرِهِ وَلَوْنِهِ وَالْوَقْتِ الَّذِي يَصِلُ فِيهِ إليكما، ﴿قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا﴾ قَبْلَ أَنْ يَصِلَ إِلَيْكُمَا، وَأَيَّ طَعَامٍ أَكَلْتُمْ وَكَمْ أَكَلْتُمْ وَمَتَىٰ أَكَلْتُمْ، ﴿ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي﴾ ، قال الطبري: يقول: هذا الذي أذكر أني أعلمه من تعبير الرؤيا، مما علمني ربي فعلمته ، ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ﴾ والمعنىٰ- إنىٰ برئت من ملة من لا يصدق بالله ولا يقر بوحدانيته وأنه خالق السموات والأرض وما بينهما : ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ لا يؤمنون بالبعث والنشور.

[٣٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ أَظْهَرَ أَنَّهُ مِنْ أَوْلَادِ الْأَنْبِيَاءِ، فَيَعْرِفُ مُسْتَمِعُوهُ مِنْ مَقَالَتِهِ أَنَّهُ لَيْسَ عَلَىٰ دِينِ الرَّعَاعِ؛ لِأَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ حَقًّا، وَلَكِنَّهُ عَلَىٰ دِينِ آبَائِهِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ، وَهُمُ الرُّسُلُ الْمَشْهُورُونَ بِالصِّدْقِ، وَتَعْلِيمِ قَوْمِهِمُ الدِّينَ الْحَقَّ ، ﴿مَا كَانَ لَنَا﴾ مَا يَنْبَغِي لَنَا ﴿أَنْ نُشْرِكَ بِاللهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ مَعْنَاهُ: أَنَّ اللهَ قَدْ عَصَمَنَا من الشرك

﴿ذَلِكَ﴾ التَّوْحِيدُ وَالْعِلْمُ، ﴿مِنْ فَضْلِ اللهِ عَلَيْنَا وَعَلَىٰ النَّاسِ﴾ مَا بَيَّنَ لَهُمْ مِنَ الْهُدَىٰ، يْ عَلَىٰ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ عَصَمَهُمُ اللهُ مِنَ الشِّرْكِ ، وَقِيلَ:﴿ذلِكَ مِنْ فَضْلِ اللهِ عَلَيْنا﴾ إِذْ جَعَلْنَا أَنْبِيَاءَ، ﴿وَعَلَىٰ النَّاسِ﴾ إِذْ جَعَلْنَا الرُّسُلَ إِلَيْهِمْ. ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ علىٰ نعمة التوحيد والإيمان. ثُمَّ دَعَاهُمَا إِلَىٰ الْإِسْلَامِ فقَالَ:

[٣٩] : ﴿يا صَاحِبَيِ السِّجْنِ﴾ أَيْ يَا سَاكِنَيِ السِّجْنِ، وَذَكَرَ الصُّحْبَةَ لِطُولِ مَقَامِهِمَا فِيهِ، كَمَا يُقَالُ لِسُكَّانِ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ وَلِسُكَّانِ النَّارِ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ﴾ أَيْ: آلِهَةٌ شَتَّىٰ هَذَا مِنْ ذَهَبٍ وَهَذَا مِنْ فِضَّةٍ، وَهَذَا مِنْ حَدِيدٍ وَهَذَا أَعْلَىٰ وَهَذَا أوسط وهذا أَدْنَىٰ، مُتَبَايِنُونَ لَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ، وَكَانَتْ آلِهَةُ الْقِبْطِ نَحْوًا مِنْ ثَلَاثِينَ رَبًّا أَكْبَرَهَا عِنْدَهُمْ آمونْ رَعْ، فمن بَلَاغَةِ الْقُرْآنِ إِذْ عَبَّرَ عَنْ تَعَدُّدِهَا بِالتَّفَرُّقِ فَقَالَ: ﴿أَأَرْبابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ الَّذِي لَا ثَانِيَ لَهُ، الْقَهَّارُ: الْغَالِبُ عَلَىٰ الْكُلِّ، ثُمَّ بَيَّنَ عَجزَ الْأَصْنَامِ فَقَالَ:

[٤٠] : ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ أَيْ: مِنْ دُونِ اللهِ، وَإِنَّمَا ذُكِرَ بِلَفْظِ الْجَمْعِ وَقَدِ ابْتَدَأَ الْخِطَابَ لِلِاثْنَيْنِ لِأَنَّهُ أَرَادَ جَمِيعَ أَهْلِ السِّجْنِ، وَكُلَّ مَنْ هُوَ عَلَىٰ مِثْلِ حَالِهِمَا مِنْ أَهْلِ الشرك، ﴿إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا﴾ آلِهَةً وَأَرْبَابًا خَالِيَةً عَنِ الْمَعْنَىٰ لَا حَقِيقَةَ لِتِلْكَ الْأَسْمَاءِ ﴿أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ حجة وبرهان، ﴿إِنِ الْحُكْمُ﴾ مَا الْقَضَاءُ وَالْأَمْرُ وَالنَّهْيُ، ﴿إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ قال الربيع بن أنس، عن أبي العالية: أُسِّسَ الدين علىٰ الإخلاص لله وحده

لا شريك له، ﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ أي: الْمُسْتَقِيمُ، والمعنىٰ: هذا الذي دعوتكما إليه من البراءة من الطواغيت والأوثان، وإفراد الله تعالىٰ بالعبادة والتعظيم، هو الدين القويم الذي لا اعوجاج فيه، وهو منهج الصدق في الإيمان ،﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ثُمَّ فسَّر رُؤْيَاهُمَا فَقَالَ:

[٤١] : ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا﴾ يْ قَالَ لِلسَّاقِي: إِنَّكَ تُرَدُّ عَلَىٰ عَمَلِكَ الَّذِي كُنْتَ عَلَيْهِ مِنْ سَقْيِ الْمَلِكِ بَعْدَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ، ﴿فَيَسْقِي رَبَّهُ﴾ يعني الملك ﴿خَمْرًا﴾ والعناقيد الثَّلَاثَةُ أَيَّامٍ يَبْقَىٰ فِي السِّجْنِ ثُمَّ يَدْعُوهُ الْمَلِكُ بَعْدَ الثَّلَاثَةِ أيام، ويرد إِلَىٰ مَنْزِلَتِهِ الَّتِي كَانَ عَلَيْهَا، ﴿وَأَمَّا الْآخَرُ﴾ يَعْنِي: صَاحِبَ الطَّعَامِ فَيَدْعُوهُ الْمَلِكُ بَعْدَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ، وَالسِّلَالُ الثَّلَاثُ الثَّلَاثَةُ أَيَّامٍ يَبْقَىٰ في السجن، ثم يخرجه فيأمر به، ﴿فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ﴾ ، لذا جاء في السنة أن الإنسان إذا رأىٰ في منامه شيء يزعجه فليفعل كما روىٰ أبو هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « **إِذَا رَأَىٰ أَحَدُكُمْ رُؤْيَا يَكْرَهُهَا ، فَلْيَتَحَوَّلْ وَلْيَتْفُلْ عَنْ يَسَارِهِ ثَلَاثًا ، وَلْيَسْأَلِ اللهَ مِنْ خَيْرِهَا وَلْيَتَعَوَّذْ مِنْ شَرِّهَا**»[(١)] ، وقد بين لنا النبي صلىٰ الله عليه وسلم الفرق بين الرؤيا وبين الحلم فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : « **إِذَا رَأَىٰ أَحَدُكُمُ الرُّؤْيَا يُحِبُّهَا ، فَإِنَّهَا مِنَ اللهِ فَلْيَحْمَدِ اللهَ عَلَيْهَا وَلْيُحَدِّثْ بِهَا ، وَإِذَا رَأَىٰ غَيْرَ ذَلِكَ**

---

(١) البخاري (٦٩٨٥) .

مِمَّا يَكْرَهُ فَإِنَّمَا هِيَ مِنَ الشَّيْطَانِ فَلْيَسْتَعِذْ مِنْ شَرِّهَا وَلا يَذْكُرْهَا لِأَحَدٍ فَإِنَّهَا لَنْ تَضُرَّهُ »[(١)] ، فتبين أن الرؤيا الطيبة السارة من الله وأن الرؤيا السيئة التي يكرها الإنسان فإنها حلم من الشيطان فعليه أن يستعيذ من شرها ، قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: لَمَّا سَمِعَا قَوْلَ يُوسُفَ قَالَا: مَا رَأَيْنَا شَيْئًا إِنَّمَا كُنَّا نَلْعَبُ، وَعَنْ قَتَادَةَ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَىٰ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ فقَالَ: إِنِّي رَأَيْتُ كَأَنِّي أَعْشَبْتُ ثُمَّ أَجْدَبْتُ ثُمَّ أَعْشَبْتُ ثُمَّ أَجْدَبْتُ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: أَنْتَ رَجُلٌ تُؤْمِنُ ثُمَّ تَكْفُرُ، ثُمَّ تُؤْمِنُ ثُمَّ تَكْفُرُ، ثُمَّ تَمُوتُ كَافِرًا، فَقَالَ الرَّجُلُ: مَا رَأَيْتُ شَيْئًا، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: قَدْ قُضِيَ لَكَ مَا قُضِيَ لِصَاحِبِ يُوسُفَ، قُلْنَا: لَيْسَتْ لِأَحَدٍ بَعْدَ عُمَرَ، لِأَنَّ عُمَرَ كَانَ مُحَدَّثًا، وَكَانَ إِذَا ظَنَّ ظنا كان، قَالَ يُوسُفُ: ﴿قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ أَيْ: فُرِغَ مِنَ الْأَمْرِ الَّذِي عَنْهُ تَسْأَلَانِ، وَوَجَبَ حُكْمُ اللهِ عَلَيْكُمَا الَّذِي أَخْبَرْتُكُمَا بِهِ، رَأَيْتُمَا أو لم تريا، وَالِاسْتِفْتَاءُ: مَصْدَرُ اسْتَفْتَىٰ إِذَا طَلَبَ الْإِفْتَاءَ. وَهُوَ: الْإِخْبَارُ بِإِزَالَةِ مُشْكِلٍ، أَوْ إِرْشَادٌ إِلَىٰ إِزَالَةِ حَيْرَةٍ، قال الثوري: لَمَّا قَالَا مَا قَالَا، وَأَخْبَرَهُمَا قَالَا: مَا رَأَيْنَا شَيْئًا، فَقَالَ: ﴿قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ أي: فُرغ منه، وسيقع بكما، صدقتما أو كذبتما.

[٤٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَالَ﴾ يَعْنِي: يُوسُفَ عِنْدَ ذَلِكَ، ﴿لِلَّذِي ظَنَّ﴾ علم ﴿أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا﴾ وَهُوَ السَّاقِي، ﴿اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾ يَعْنِي: سَيِّدَكَ الْمَلِكَ، قال

(١) مسلم (٢٢٦٢) .

ابن كثير : يَقُولُ: اذْكُرْ قِصَّتِي عِنْدَ رَبِّكَ وَهُوَ الْمَلِكُ فَنَسِيَ ذَلِكَ الْمُوصَىٰ أَنْ يذكر مولاه الملك بِذَلِكَ، وَكَانَ مِنْ جُمْلَةِ مَكَايِدِ الشَّيْطَانِ لِئَلَّا يَطْلَعَ نَبِيُّ اللهِ مِنَ السِّجْنِ، وَقُلْ لَهُ: إِنَّ فِي السِّجْنِ غُلَامًا مَحْبُوسًا ظُلْمًا طَالَ حَبْسُهُ ﴿فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾ قِيلَ: أَنْسَىٰ الشَّيْطَانُ السَّاقِيَ ذِكْرَ يُوسُفَ لِلْمَلِكِ تَقْدِيرُهُ: فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذكره لربه ، وقال ابْنُ عَبَّاسٍ وَعَلَيْهِ الْأَكْثَرُونَ: أَنْسَىٰ الشَّيْطَانُ يُوسُفَ ذِكْرَ رَبِّهِ حِينَ ابْتَغَىٰ الْفَرَجَ مِنْ غَيْرِهِ وَاسْتَعَانَ بِمَخْلُوقٍ، وَتِلْكَ غَفْلَةٌ عَرَضَتْ لِيُوسُفَ من الشيطان، وَلَقَدْ رَدَّ الْإِمَامُ اللُّغَوِيُّ الْمُفَسِّرُ أَبُو حَيَّانَ الْأَنْدَلُسِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ هَذَا الْوَجْهَ فِي إِعَادَةِ ضَمِيرِ ﴿فَأَنْسَاهُ﴾ عَلَىٰ يُوسُفَ، فَقَالَ: وَقِيلَ: الضَّمِيرُ فِي (أَنْسَاهُ) عَائِدٌ عَلَىٰ يُوسُفَ، وَرَتَّبُوا عَلَىٰ ذَلِكَ أَخْبَارًا لَا تَلِيقُ نِسْبَتُهَا إِلَىٰ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، وَقِيلَ: إِنَّ الْهَاءَ تَعُودُ عَلَىٰ النَّاجِي، فَهُوَ النَّاسِي، أَيْ أَنْسَىٰ الشَّيْطَانُ السَّاقِيَ أَنْ يَذْكُرَ يُوسُفَ لِرَبِّهِ، أَيْ لِسَيِّدِهِ، وَفِيهِ حَذْفٌ، أَيْ أَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَهُ لِرَبِّهِ، وَقَدْ رَجَّحَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ هَذَا الْقَوْلَ فَقَالَ: لَوْلَا أَنَّ الشَّيْطَانَ أَنْسَىٰ يُوسُفَ ذِكْرَ اللهِ لَمَا اسْتَحَقَّ الْعِقَابَ بِاللَّبْثِ فِي السِّجْنِ، إِذِ النَّاسِي غَيْرُ مُؤَاخَذٍ. ﴿فَلَبِثَ﴾ فَمَكَثَ ﴿فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ وَاخْتَلَفُوا فِي مَعْنَىٰ الْبِضْعِ، فَقَالَ مُجَاهِدٌ: مَا بَيْنَ الثَّلَاثِ إِلَىٰ السَّبْعِ، وَقَالَ قَتَادَةُ: مَا بَيْنَ الثَّلَاثِ إِلَىٰ التِّسْعِ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ مَا دُونُ الْعَشَرَةِ ، الْبِضْعُ قِطْعَةٌ مِنَ الدَّهْرِ مُخْتَلَفٌ فِيهَا، وَقَالَ الْهَرَوِيُّ: الْعَرَبُ تَسْتَعْمِلُ الْبِضْعَ فِيمَا بَيْنَ الثَّلَاثِ إِلَىٰ التِّسْعِ ، وَأَكْثَرُ الْمُفَسِّرِينَ عَلَىٰ أَنَّ الْبِضْعَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ سَبْعُ سِنِينَ، وَكَانَ قَدْ لَبِثَ قَبْلَهُ

خَمْسَ سِنِينَ فجملته اثنتا عشر سنة، وَقال القرطبي : فِي هَذِهِ الْآيَةِ دَلِيلٌ عَلَىٰ جَوَازِ التَّعَلُّقِ بِالْأَسْبَابِ - وَإِنْ كَانَ الْيَقِينُ حَاصِلًا - فَإِنَّ الْأُمُورَ بِيَدِ مُسَبِّبِهَا، وَلَكِنَّهُ جَعَلَهَا سِلْسِلَةً، وَرَكَّبَ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ، فَتَحْرِيكُهَا سُنَّةٌ، وَالتَّعْوِيلُ عَلَىٰ الْمُنْتَهَىٰ يَقِينٌ ، وَالَّذِي يَدُلُّ عَلَىٰ جَوَازِ ذَلِكَ نِسْبَةُ مَا جَرَىٰ مِنَ النِّسْيَانِ إِلَىٰ الشَّيْطَانِ كَمَا جَرَىٰ لِمُوسَىٰ فِي لُقْيَا الخضر، وهذا بين فتأملوه.

[٤٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ﴾ السمان: واحدها سمين وسمينة، ﴿ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ﴾ واحدها عجفاء أي هزيلة ضعيفة، ﴿وَسَبْعَ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ﴾ الْيَابِسُ مِنَ السُّنْبُلِ: مَا آنَ حَصَادُهُ، وَمُلَخَّصُ رُؤْيَا الْمَلِكِ أَنَّهُ قَالَ: إِنِّي رَأَيْتُ فِيمَا يَرَىٰ النَّائِمُ رُؤْيَا جَلِيَّةً كَأَنِّي أَرَاهَا الْآنَ، سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ خَرَجْنَ مِنْ نَهْرٍ يَابِسٍ وَسَبْعَ بَقَرَاتٍ عِجَافٍ فَابْتَلَعَتِ الْعِجَافُ السِّمَانَ، وَرَأَيْتُ سَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ قَدِ انْعَقَدَ حَبُّهَا، وَسَبْعًا أُخَرَ يَابِسَاتٍ قَدِ اسْتُحْصِدَتْ وَأَدْرَكَتْ، فَالْتَوَتِ الْيَابِسَاتُ عَلَىٰ الْخُضْرِ حَتَّىٰ غَلَبْنَ عَلَيْهَا فَجَمَعَ لَهُمْ: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ﴾، هَذِهِ الرُّؤْيَا مِنْ مَلِكِ مِصْرَ مِمَّا قَدَّرَ اللهُ تَعَالَىٰ إِنَّهَا كَانَتْ سَبَبًا لِخُرُوجِ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنَ السِّجْنِ مُعَزَّزًا مُكَرَّمًا وَذَلِكَ أَنَّ الْمَلِكَ رَأَىٰ هَذِهِ الرُّؤْيَا فَهَالَتْهُ، وَتَعَجَّبَ مَنْ أمرها، وما يكون تفسيرها، فجمع الكهنة وكبار دولته وأمراءه، وَكَانَ تَعْبِيرُ الرُّؤْيَا مِمَّا يَشْتَغِلُونَ بِهِ، وَكَانَ الْكَهَنَةُ مِنْهُمْ يَعُدُّونَهُ مِنْ

عُلُومِهِمْ وَلَهُمْ قَوَاعِدُ فِي حَلِّ رُمُوزِ مَا يَرَاهُ النَّائِمُ، فقص عَلَيْهِمْ مَا رَأَىٰ وَسَأَلَهُمْ عَنْ تَأْوِيلِهَا، فَلَمْ يعرفوا ذلك، واعتذروا إليه.

[٤٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ﴾ أَخْلَاطُ أَحْلَامٍ مُشْتَبِهَةٍ أَهَاوِيلُ وَاحِدُهَا ضِغْثٌ وَأَصْلُهُ الْحُزْمَةُ مِنْ أَنْوَاعِ الْحَشِيشِ، فمن ذلك قوله تعالىٰ: وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا وَالْأَحْلَامُ جَمْعُ الْحُلْمِ، وَهُوَ الرُّؤْيَا، و(الْأَحْلامِ) جَمْعُ حُلْمٍ، وَالْحُلْمُ بِالضَّمِّ مَا يَرَاهُ النَّائِمُ، وَالتَّقْدِيرُ: هَذِهِ الرُّؤْيَا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ. شُبِّهَتْ تِلْكَ الرُّؤْيَا بِالْأَضْغَاثِ فِي اخْتِلَاطِهَا وَعَدَمِ تَمَيُّزِ مَا تَحْتَوِيهِ لَمَّا أُشْكِلَ عَلَيْهِمْ تَأْوِيلُهَا. وَإِنَّمَا أَرَادُوا مَحْوَهَا مِنْ صَدْرِ الْمَلِكِ حَتَّىٰ لَا تَشْغَلَ بَالَهُ، ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ﴾.

[٤٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا﴾ من القتل، يَعْنِي سَاقِيَ الْمَلِكِ. ﴿مِنْهُمَا﴾ مِنَ الْفَتَيَيْنِ وَهُوَ السَّاقِي، ﴿وَادَّكَرَ﴾ أَيْ: تَذَكَّرَ قَوْلَ يُوسُفَ اذْكُرْنِي عند ربك، ﴿بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ أي: بَعْدَ حِينٍ وَهُوَ سَبْعُ سِنِينَ، ﴿أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ﴾ أَيْ بِتَأْوِيلِ هَذَا الْمَنَامِ، وَذَلِكَ أَنَّ الْغُلَامَ جَثَا بَيْنَ يَدَيِ الْمَلِكِ، وَقَالَ: إِنَّ فِي السِّجْنِ رَجُلًا يَعْبُرُ الرُّؤْيَا، ﴿فَأَرْسِلُونِ﴾ وَفِيهِ اخْتِصَارٌ تَقْدِيرُهُ: فَأَرْسِلْنِي أَيُّهَا الْمَلِكُ إِلَيْهِ، فَأَرْسَلَهُ فَأَتَىٰ السِّجْنَ، خَاطَبَ الْمَلِكَ وَلَكِنْ بِلَفْظِ التَّعْظِيمِ، أَوْ خَاطَبَ الْمَلِكَ وَأَهْلَ مَجْلِسِهِ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: وَلَمْ يَكُنِ السِّجْنُ فِي الْمَدِينَةِ.

[٤٦]: فَقَالَ: ﴿يُوسُفُ﴾ يَعْنِي: يَا يُوسُفُ، ﴿أَيُّهَا الصِّدِّيقُ﴾ وَالصِّدِيقُ الْكَثِيرُ الصِّدْقِ، وَمِنْهُ مَا لقّب النبيء صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَبَا بَكْرٍ بِالصِّدِّيقِ فِي

قَوْلِهِ فِي حَدِيثِ رَجْفِ جَبَلِ أُحُدٍ «**اسْكُنْ أُحُدُ فَإِنَّمَا عَلَيْك نبيء وَصِدِّيقٌ وَشَهِيدَانِ**»(١) مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ أَجْمَعَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمِنْهُمْ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ عَلَىٰ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَفْضَلُ الْأمة بعد النبيء صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عَنْ أَبِي عَبْدِ اللهِ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ الصَّادِقِ عَنْ أَبِيهِ الْبَاقِرِ: أَنَّ رَجُلًا جَاءَ إِلَىٰ أَبِيهِ زَيْنِ الْعَابِدِينَ السَّجَّادِ قَالَ: أَخْبِرْنِي عَنْ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ، فَقَالَ: عَنِ الصِّدِّيقِ؟ قَالَ: تُسَمِّيهِ الصِّدِّيقَ؟ قَالَ: ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ، قَدْ سَمَّاهُ الصِّدِّيقَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْمُهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَارُ، وَمَنْ لَمْ يُسَمِّهِ صِدِّيقًا فَلَا صَدَّقَ اللهُ قَوْلَهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، اذْهَبْ فَأَحِبَّ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ»، قَوْلُهُ: ﴿أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ﴾ فَإِنَّ الْمَلِكَ رَأَىٰ هَذِهِ الرُّؤْيَا، ﴿لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَىٰ النَّاسِ﴾ أهل مصر، ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ تَأْوِيلَ الرُّؤْيَا، وَقِيلَ: لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ مَنْزِلَتَكَ فِي الْعِلْمِ، فَقَالَ لَهُمْ يُوسُفُ مُعَبِّرًا وَمُعَلِّمًا، أَمَّا الْبَقَرَاتُ السِّمَانُ وَالسُّنْبُلَاتُ الْخُضْرُ فَسَبْعُ سِنِينَ مخاصيب، والبقرات العجاف والسنبلات، فَالسُّنُونَ الْمُجْدِبَةُ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ إِخْبَارًا عَنْ يُوسُفَ:

[٤٧]: ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا﴾ هَذَا خَبَرٌ بِمَعْنَىٰ الْأَمْرِ، يَعْنِي: ازْرَعُوا سَبْعَ سِنِينَ عَلَىٰ عَادَتِكُمْ فِي الزِّرَاعَةِ، فسيأتيكم الخصب والمطر سبع

(١) البخاري (٣٦٧٥).

سنين متواليات، وَالدَّأَبُ: الْعَادَةُ. وَقِيلَ: بِجِدٍّ وَاجْتِهَادٍ. يقال: دأبت شي الأمر أدأب وَدَأْبًا إِذَا اجْتَهَدْتُ فِيهِ ، ﴿فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ﴾ أَمْرَهُمْ بِتَرْكِ الْحِنْطَةِ فِي السُّنْبُلَةِ لتكون أَبْقَىٰ عَلَىٰ الزَّمَانِ وَلَا تَفْسُدَ، ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ﴾ أي: تَدْرُسُونَ قَلِيلًا لِلْأَكْلِ، أَمَرَهُمْ بِحِفْظِ الْأَكْثَرِ وَالْأَكْلِ بِقَدْرِ الْحَاجَةِ، أي مهما استغللتم وهذه السبع السنين الخصب فادخروه فِي سُنْبُلِهِ لِيَكُونَ أَبْقَىٰ لَهُ وَأَبْعَدَ عَنْ إِسْرَاعِ الْفَسَادِ إِلَيْهِ إِلَّا الْمِقْدَارَ الَّذِي تَأْكُلُونَهُ، وليكن قَلِيلًا لَا تُسْرِفُوا فِيهِ، لِتَنْتَفِعُوا فِي السَّبْعِ الشِّدَادِ، وَهُنَّ السَّبْعُ السِّنِينَ الْمُحْلُ الَّتِي تَعْقُبُ هذه السبع المتواليات، وهن البقرات العجاف اللاتي تأكل السِّمَانَ، لِأَنَّ سِنِيَّ الْجَدْبِ يُؤْكَلُ فِيهَا مَا جَمَعُوهُ فِي سِنِيِّ الْخِصْبِ، وَهُنَّ السُّنْبُلَاتُ الْيَابِسَاتُ، وَأَخْبَرَهُمْ أَنَّهُنَّ لَا يُنْبِتْنَ شَيْئًا وَمَا بَذَرُوهُ فَلَا يَرْجِعُونَ مِنْهُ إِلَىٰ شَيْءٍ.

[٤٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ﴾ يَعْنِي السِّنِينَ الْمُجْدِبَاتِ، سَمَّىٰ السِّنِينَ الْمُجْدِبَةَ شِدَادًا لِشِدَّتِهَا علىٰ الناس، ﴿يَأْكُلْنَ﴾ أَيْ: يَفْنِينَ وَيُهْلِكْنَ، وهو مَجَازٌ، وَالْمَعْنَىٰ يَأْكُلُ أَهْلُهُنَّ ﴿مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ﴾ أَيْ: يُؤْكَلُ فِيهِنَّ مَا ادَّخَرْتُمْ لِأَجْلِهِنَّ، مِنَ الطَّعَامِ، أَضَافَ الْأَكْلَ إِلَىٰ السِّنِينَ عَلَىٰ طَرِيقِ التَّوَسُّعِ ، كَىٰ زَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ عَنْ أَبِيهِ: أَنَّ يُوسُفَ كَانَ يَضَعُ طَعَامَ الِاثْنَيْنِ فَيُقَرِّبُهُ إِلَىٰ رَجُلٍ وَاحِدٍ فَيَأْكُلُ بَعْضُهُ، حَتَّىٰ إِذَا كَانَ يَوْمٌ قَرَّبَهُ لَهُ فَأَكَلَهُ كُلَّهُ، فَقَالَ يُوسُفُ: هَذَا أَوَّلُ يَوْمٍ مِنَ السَّبْعِ الشِّدَادِ ، ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ﴾ تَدَّخِرُونَ لِلْبَذْرِ، لِأَنَّ فِي اسْتِبْقَاءِ الْبَذْرِ تَحْصِينُ الْأَقْوَاتِ.

[٤٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ﴾ أي: يمطرون من الغث، وَهُوَ الْمَطَرُ، وَقِيلَ: يُنْقَذُونَ، مِنْ قَوْلِ الْعَرَبِ: اسْتَغَثْتُ فُلَانًا فَأَغَاثَنِي، قَالَ قَتَادَةُ: زَادَهُ اللهُ علم سنة لم يسألوه عَنْهَا إِظْهَارًا لِفَضْلِهِ، وَإِعْلَامًا لِمَكَانِهِ مِنَ الْعِلْمِ وَبِمَعْرِفَتِهِ. ﴿وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ وَمَعْنَاهُ: يَعْصِرُونَ الْعِنَبَ خَمْرًا وَالزَّيْتُونَ زَيْتًا وَالسِّمْسِمَ دُهْنًا وَأَرَادَ بِهِ كَثْرَةَ النَّعِيمِ وَالْخَيْرِ، وَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: يَعْصِرُونَ أَيْ يَنْجُونَ مِنَ الْكُرُوبِ وَالْجَدَبِ وَالْعَصَرُ وَالْعَصَرَةُ النجا وَالْمَلْجَأُ.

[٥٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ﴾ وَذَلِكَ أَنَّ السَّاقِيَ لَمَّا رَجَعَ إِلَىٰ الْمَلِكِ وَأَخْبَرَهُ بِمَا أَفْتَاهُ به يُوسُفُ مِنْ تَأْوِيلِ رُؤْيَاهُ، وَعَرَفَ الْمَلِكُ أَنَّ الَّذِي قَالَهُ كَائِنٌ، قَالَ ائْتُونِي بِهِ، ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ﴾ وَقَالَ لَهُ: أَجِبِ الْمَلِكَ، أَبَىٰ أَنْ يَخْرُجَ مَعَ الرَّسُولِ حَتَّىٰ تظهر براءته ثم، ﴿قَالَ﴾ للرسول، ﴿ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ يَعْنِي: سَيِّدَكَ الْمَلِكَ، ﴿فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ وَلَمْ يُصَرِّحْ بِذِكْرِ امْرَأَةِ الْعَزِيزِ أدبًا واحترامًا ﴿إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ أَيْ: إِنَّ اللهَ بِصَنِيعِهِنَّ عَالِمٌ، وَإِنَّمَا أَرَادَ يُوسُفُ بِذِكْرِهِنَّ، بَعْدَ طُولِ الْمُدَّةِ حَتَّىٰ لَا يَنْظُرَ إليه الملك بعين التهمة والخيانة، وَيَصِيرَ إِلَيْهِ بَعْدَ زَوَالِ الشَّكِّ عَنْ أَمْرِهِ، فَرَجَعَ الرَّسُولُ إِلَىٰ الْمَلِكِ مِنْ عِنْدِ يُوسُفَ بِرِسَالَتِهِ، فَدَعَا الْمَلِكُ النِّسْوَةَ وَامْرَأَةَ الْعَزِيزِ، وَرَوَىٰ الْبُخَارِيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « **يَرْحَمُ اللهُ لُوطًا لَقَدْ كَانَ يَأْوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ وَلَوْ لَبِثْتُ فِي السِّجْنِ مَا لَبِثَ يُوسُفَ**

لَأَجَبْتُ الدَّاعِيَ وَنَحْنُ أَحَقُّ مِنْ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لَهُ»[1] ، أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قال بَلىٰ وَلكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي.

[٤٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ﴾ الملك لهن، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَأَرْسَلَ الْمَلِكُ إِلَىٰ النِّسْوَةِ وَإِلَىٰ امْرَأَةِ الْعَزِيزِ- وَكَانَ قَدْ مَاتَ الْعَزِيزُ - فَدَعَاهُنَّ فَـ ﴿قالَ مَا خَطْبُكُنَّ﴾ أَيْ مَا شَأْنُكُنَّ ، وَأَمْرُكُنَّ، ﴿إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ﴾ خَاطَبَهُنَّ وَالْمُرَادُ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ، وَقِيلَ: إِنَّ امْرَأَةَ الْعَزِيزِ رَاوَدَتْهُ عَنْ نفسه وسائر النسوة أمرته بطاعتها فَكَانَ ذَلِكَ مُرَاوَدَةٌ مِنْهُنَّ، فلذلك خاطبهن جميعًا، ﴿قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ﴾ مَعَاذَ اللهِ، مُبَالَغَةٌ فِي النَّفْيِ وَالتَّنْزِيهِ. وَالْمَقْصُودُ: التَّبَرُّؤُ مِمَّا نُسِبَ إِلَيْهِنَّ مِنَ الْمُرَاوَدَةِ. ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ﴾ خيانة، ﴿قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ﴾ ظَهَرَ وَتَبَيَّنَ، وقيل : ثَبَتَ وَاسْتَقَرَّ. وَأَصْلُهُ حَصَصَ، وَأَصْلُ الْحَصِّ اسْتِئْصَالُ الشَّيْءِ، يُقَالُ: حَصَّ شَعْرَهُ إِذَا اسْتَأْصَلَهُ جَزًّا وَقِيلَ: إِنَّ النِّسْوَةَ أَقْبَلْنَ عَلَىٰ امْرَأَةِ الْعَزِيزِ فَقَرَّرْنَهَا فَأَقَرَّتْ، وَقِيلَ: خَافَتْ أَنْ يَشْهَدْنَ عليها فأقرت وقالت: ﴿أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ وَهَذَا الْقَوْلُ مِنْ زليخة- وَإِنْ لَمْ يَكُنْ سَأَلَ عَنْهُ- إِظْهَارٌ لِتَوْبَتِهَا وَتَحْقِيقٌ لِصِدْقِ يُوسُفَ وَكَرَامَتِهِ، لِأَنَّ إِقْرَارَ الْمُقِرِّ عَلَىٰ نَفْسِهِ أَقْوَىٰ مِنَ الشَّهَادَةِ عَلَيْهِ، فَجَمَعَ اللهُ تَعَالَىٰ لِيُوسُفَ لِإِظْهَارِ

---

(١) البخاري (٣٣٧٢) ومسلم (١٥١) .

صِدْقِهِ الشَّهَادَةَ وَالْإِقْرَارَ، حَتَّىٰ لَا يُخَامِرَ نَفْسًا ظَنٌّ، وَلَا يُخَالِطَهَا شَكٌّ. فَلَمَّا سَمِعَ ذَلِكَ يُوسُفُ قال:

[٥٢] : ﴿ذَلِكَ﴾ أَيْ: ذَلِكَ الَّذِي فَعَلْتُ مِنْ رَدِّي رَسُولَ الْمَلِكِ إِلَيْهِ، والراجح أنه من طلام يوسف عليه السلام : أَيْ لَمْ أَخُنْ سَيِّدِي فِي حُرْمَتِهِ حَالَ مَغِيبِهِ. وَيَكُونُ مَعْنَىٰ ﴿وَما أُبَرِّئُ نَفْسِي ﴾، مِثْلَ مَا تَقَدَّمَ قَصَدَ بِهِ التَّوَاضُعَ، أَيْ لَسْتُ أَقُولُ هَذَا ادِّعَاءً بِأَنَّ نَفْسِي بَرِيئَةٌ مِنِ ارْتِكَابِ الذُّنُوبِ إِلَّا مُدَّةَ رَحْمَةِ اللهِ النَّفْسَ بِتَوْفِيقِهَا لِأَكُفَّ عَنِ السُّوءِ، أَيْ أَنِّي لَمْ أَفْعَلْ مَا اتُّهِمْتُ بِهِ ﴿لِيَعْلَمَ﴾ العزيز، ﴿أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ﴾ في زوجته، ﴿بِالْغَيْبِ﴾ أَيْ: فِي حَالِ غَيْبَتِهِ ﴿وَأَنَّ اللهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ مَعْنَاهُ: أَنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْخَائِنِينَ بِكَيْدِهِمْ.

[٥٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي﴾ مِنَ الْخَطَإِ وَالزَّلَلِ فَأُزَكِّيهَا، قِيلَ: هُوَ مِنْ قَوْلِ الْمَرْأَةِ، قال ابن كثير : أَقْوَىٰ وَأُظْهِرُ، لِأَنَّ سِيَاقَ الْكَلَامِ كُلِّهِ مِنْ كَلَامِ امْرَأَةِ الْعَزِيزِ بِحَضْرَةِ الْمَلِكِ وَلَمْ يَكُنْ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ عِنْدَهُمْ بَلْ بَعْدَ ذَلِكَ أَحْضَرَهُ الْمَلِكُ. ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ بِالْمَعْصِيَةِ يْ مُشْتَهِيَةٌ لَها ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ أَيْ: إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبِّي فعصمه، وَقِيلَ: إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِشَارَةٌ إِلَىٰ حَالَةِ الْعِصْمَةِ عِنْدَ رُؤْيَةِ الْبُرْهَانِ، ﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لِلْمَلِكِ عُذْرُ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَعَرَفَ أَمَانَتَهُ وَعِلْمَهُ اشتاق لرؤيته وكلامه، وذلك معنىٰ قوله تعالىٰ إخبارًا عنه:

[٥٤] : ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي﴾ أَيْ: أَجْعَلُهُ خَالِصًا لِنَفْسِي السِّينُ وَالتَّاءُ فِي أَسْتَخْلِصْهُ لِلْمُبَالَغَةِ، مِثْلَ اسْتَجَابَ وَاسْتَأْجَرَ، ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُ﴾ فِيهِ اخْتِصَارٌ تَقْدِيرُهُ: فَجَاءَ الرَّسُولُ يُوسُفَ فَقَالَ لَهُ: أَجِبِ الْمَلِكَ الآن، أعجب الْمَلِكُ مَا رَأَىٰ مِنْهُ مَعَ حداثة سَنَةً فَأَجْلَسَهُ وَ ﴿قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ﴾ المكانة في الجاه، وَالْمَكِينُ: صِفَةٌ مِنْ مَكُنَ إِذَا صَارَ ذَا مَكَانَةٍ، وَهِيَ الْمَرْتَبَةُ الْعَظِيمَةُ، وَهِيَ مُشْتَقَّةٌ مِنَ الْمَكَانِ. ﴿أَمِينٌ﴾ أي: صادق.

[٥٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ﴾ يُوسُفُ، ﴿اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ﴾ الْخَزَائِنُ جَمْعُ خِزَانَةٍ وَأَرَادَ خَزَائِنَ الطَّعَامِ وَالْأَمْوَالِ، وَالْأَرْضُ أَرْضُ مِصْرَ، أي: خزائن أرضك. عَلَىٰ خَرَاجِ مِصْرَ وَدَخْلِهِ، ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ أَيْ: حَفِيظٌ لِلْخَزَائِنِ عَلِيمٌ بِوُجُوهِ مصالحها. وقيل: حفيظ عليم، أي: كَاتِبٌ حَاسِبٌ. وَقِيلَ: حَفِيظٌ لِمَا اسْتَوْدَعْتَنِي عَلِيمٌ بِمَا وَلَّيْتَنِي. وَقِيلَ: حَفِيظٌ لِلْحِسَابِ عَلِيمٌ بِالْأَلْسُنِ أَعْلَمُ لغة مَنْ يَأْتِينِي، وَقَالَ الْكَلْبِيُّ: حَفِيظٌ بتقديره في السنين المجدبة عَلِيمٌ بِوَقْتِ الْجُوعِ حِينَ يَقَعُ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: وَمَنْ أَحَقُّ بِهِ مِنْكَ؟! فَوَلَّاهُ ذَلِكَ، وَقَالَ لَهُ: إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ، ذُو مَكَانَةٍ وَمَنْزِلَةٍ، أَمِينٌ عَلَىٰ الخزائن.

[٥٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾ يَعْنِي: أَرْضَ مِصْرَ مَلَّكْنَاهُ، ﴿يَتَبَوَّأُ﴾ أي: ينزل، ﴿مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ﴾ وَيَصْنَعُ فِيهَا مَا يَشَاءُ، ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا﴾ أي: بنعمتنا ﴿مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَوَهْبٌ: يَعْنِي الصَّابِرِينَ، قَالَ مُجَاهِدٌ وَغَيْرُهُ: فَلَمْ يَزَلْ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَدْعُو

الملك إلىٰ الإسلام ويتلطف به حَتَّىٰ أَسْلَمَ الْمَلِكُ وَكَثِيرٌ مِنَ الناس[1] فهذا في أمر الدنيا.

[٥٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ﴾ ثَوَابُ الْآخِرَةِ، ﴿خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ قَالَ القرطبي : لَمْ يَتَزَوَّجْ يُوسُفُ زليخة ، وَأَنَّهَا رَأَتْهُ يوماً فِي مَوْكِبِهِ بَكَتْ، ثُمَّ قَالَتِ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ الْمُلُوكَ عَبِيدًا بِالْمَعْصِيَةِ، وَالْحَمْدِ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ الْعَبِيدَ بِالطَّاعَةِ مُلُوكًا، فَضَمَّهَا إِلَيْهِ، فَكَانَتْ مِنْ عِيَالِهِ حَتَّىٰ مَاتَتْ عِنْدَهُ، وَلَمْ يَتَزَوَّجْهَا،فلما اطمأن يوسف في مُلْكِهِ دَبَّرَ فِي جَمْعِ الطَّعَامِ بِأَحْسَنِ التَّدْبِيرِ، وَبَنَىٰ الْحُصُونَ وَالْبُيُوتَ الْكَثِيرَةَ، وَجَمَعَ فِيهَا الطَّعَامَ لِلسِّنِينَ الْمُجْدِبَةِ، وَأَنْفَقَ بِالْمَعْرُوفِ حَتَّىٰ خَلَتِ السِّنُونَ الْمُخْصِبَةُ وَدَخَلَتِ السِّنُونَ الْمُجْدِبَةُ بِهَوْلٍ لَمْ يَعْهَدِ النَّاسُ بِمِثْلِهِ، وَقَصَدَ النَّاسُ مِصْرَ مِنْ كُلِّ النواحي يَمْتَارُونَ الطَّعَامَ فَجَعَلَ يُوسُفُ لَا يُمَكِّنُ أَحَدًا مِنْهُمْ، وَإِنْ كَانَ عظيمًا أَكْثَرَ مِنْ حِمْلِ بَعِيرٍ تَقْسِيطًا بَيْنَ النَّاسِ، وَتَزَاحَمَ النَّاسُ عَلَيْهِ فأصاب أَرْضَ كَنْعَانَ وَبِلَادَ الشَّامِ مَا أَصَابَ النَّاسُ فِي سَائِرِ الْبِلَادِ مِنَ الْقَحْطِ وَالشِّدَّةِ، وَنَزَلَ بِيَعْقُوبَ مَا نَزَلْ بِالنَّاسِ فَأَرْسَلَ بَنِيهِ إِلَىٰ مِصْرَ لِلْمِيرَةِ وَأَمْسَكَ بِنْيَامِينَ أَخَا يُوسُفَ لِأُمِّهِ.

[٥٨] فَذَلِكَ قَوْلُهُ تعالىٰ: ﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ﴾ وَكَانُوا عَشَرَةً، وَكَانَ مَنْزِلُهُمْ بالقرب مِنْ أَرْضِ فِلَسْطِينَ، بِغَوْرِ الشَّامِ، وَكَانُوا أَهْلَ بَادِيَةٍ وَإِبِلٍ وَشَاةٍ، فَدَعَاهُمْ يَعْقُوبُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَالَ: يَا بَنِيَّ بَلَغَنِي أَنَّ بِمِصْرَ مَلِكًا صَالِحًا يَبِيعُ الطَّعَامَ، فَتَجَهَّزُوا له فاذهبوا لِتَشْتَرُوا مِنْهُ الطَّعَامَ، فَأَرْسَلَهُمْ فَقَدِمُوا مصر،

﴿فَدَخَلُوا عَلَيْهِ﴾ علىٰ يوسف، قوله تعالىٰ: ﴿فَعَرَفَهُمْ﴾ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ. قَالَ ابْنُ عباس ومجاهد: وعرفهم بِأَوَّلِ مَا نَظَرَ إِلَيْهِمْ. وَعَرَفَ يُوسُفُ- عَلَيْهِ السَّلَامُ- إِخْوَتَهِ بَعْدَ مُضِيِّ سِنِينَ عَلَىٰ فِرَاقِهِمْ لِقُوَّةِ فِرَاسَتِهِ وَزَكَانَةِ عَقْلِهِ دُونَهُمْ. ﴿وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ﴾ أي: لم يعرفوه، فَلَمَّا نَظَرَ إِلَيْهِمْ يُوسُفُ وَكَلَّمُوهُ بِالْعِبْرَانِيَّةِ، قَالَ لَهُمْ: أَخْبَرُونِي مَنْ أَنْتُمْ وَمَا أَمْرُكُمْ فَإِنِّي أَنْكَرْتُ شَأْنَكُمْ؟ قَالُوا: نَحْنُ قَوْمٌ مِنْ أهل الشَّامِ رُعَاةٌ أَصَابَنَا الْجَهْدُ فَجِئْنَا نَمْتَارُ يعني نشتري الطعام لأهلنا ، فَقَالَ: لَعَلَّكُمْ جِئْتُمْ تَنْظُرُونَ عَوْرَةَ بِلَادِي، قَالُوا: لَا وَاللهِ مَا نَحْنُ بِجَوَاسِيسَ إِنَّمَا نَحْنُ إِخْوَةٌ بَنُو أَبٍ وَاحِدٍ، وَهُوَ شَيْخٌ صِدِّيقٌ يُقَالُ لَهُ يَعْقُوبُ نبي من أنبياء الله، فقال: وَكَمْ أَنْتُمْ؟ قَالُوا: كُنَّا اثْنَيْ عَشَرَ فَذَهَبَ أَخٌ لَنَا مَعَنَا إِلَىٰ الْبَرِّيَّةِ فَهَلَكَ فِيهَا وَكَانَ أَحَبَّنَا إِلَىٰ أَبِينَا، قَالَ: فَكَمْ أنتم هاهنا؟ قَالُوا: عَشَرَةٌ، قَالَ: وَأَيْنَ الْآخَرُ؟ قَالُوا: عِنْدَ أَبِينَا لِأَنَّهُ أَخُو الذي هلك من أمه، فأبونا يتسلىٰ به، فقال: فَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّ الَّذِي تَقُولُونَ حق وصدق؟ قَالُوا: أَيُّهَا الْمَلِكُ إِنَّا بِبِلَادٍ لا يعرفنا فيها أحد من أهلها، فقال لهم يُوسُفُ: فَأْتُونِي بِأَخِيكُمُ الَّذِي مِنْ أَبِيكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ، وَأَنَا أَرْضَىٰ بِذَلِكَ، قَالُوا: فَإِنَّ أَبَانَا يَحْزَنُ عَلَىٰ فِرَاقِهِ وَسَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ، قَالَ: فَدَعُوا بَعْضَكُمْ عِنْدِي رهينة حتىٰ تأتوني بأخيكم الذي من أبيكم، فَاقْتَرَعُوا بَيْنَهُمْ فَأَصَابَتِ الْقَرْعَةُ شَمْعُونَ وَكَانَ أَحْسَنَهُمْ رَأْيًا فِي يُوسُفَ، فَخَلَّفُوهُ عِنْدَهُ. فَذَلِكَ قَوْلُهُ عَزَّ وجل:

[٥٩] : ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ﴾ أَيْ: حَمَّلَ لِكُلِّ وَاحِدٍ بَعِيرًا بِعُدَّتِهِمْ، وَالْجَهَازُ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْمُسَافِرُ، وَأَوَّلُهُ مَا سَافَرَ لِأَجْلِهِ مِنَ الْأَحْمَالِ، ﴿قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ﴾ يَعْنِي بِنْيَامِينَ، ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ﴾ أَيْ: أُتِمُّهُ وَلَا أَبْخَسُ النَّاسَ شَيْئًا فَأَزِيدُكُمْ حِمْلَ بِعِيرٍ لِأَجْلِ أَخِيكُمْ وَأُكْرِمُ مَنْزِلَتَكُمْ وَأُحْسِنُ إِلَيْكُمْ، ﴿وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: أَيْ: خَيْرُ الْمُضِيفِينَ، وَكَانَ قَدْ أَحْسَنَ ضِيَافَتَهُمْ، وكانَ يوسف عليه السلام يُنْزِلُ الناس القادمين من خارج فِي ضِيَافَتِهِ لِكَثْرَةِ الْوَافِدِينَ عَلَىٰ مِصْرَ لِلْمِيرَةِ، بسبب سنوات القحط.

[٦٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي﴾ أَيْ: لَيْسَ لَكُمْ عِنْدِي طَعَامٌ أكيله، مَعْنَىٰ فَلا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي أَيْ لَا يُكَالُ لَكُمْ، كِنَايَةٌ عَنْ مَنْعِهِمْ مِنِ ابتياع الطَّعَام، ﴿وَلَا تَقْرَبُونِ﴾ أَيْ: لَا تَقْرَبُوا دَارِي وَبِلَادِي بَعْدَ ذَلِكَ وَهُوَ جَزْمٌ عَلَىٰ النَّهْيِ.

[٦١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ﴾ أَيْ: نَطْلُبُهُ وَنَسْأَلُهُ أَنْ يُرْسِلَهُ معنا، ﴿وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ﴾ مَا أَمَرْتَنَا بِهِ، أَيْ لَضَامِنُونَ الْمَجِيءَ بِهِ، وَمُحْتَالُونَ فِي ذَلِكَ.

[٦٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ﴾ يريد لغلمانه ﴿اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ﴾ ثَمَنَ طَعَامِهِمْ وَكَانَتْ دَرَاهِمَ، وَقَالَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: كَانَتِ النِّعَالَ والجلود المدبوغة، ﴿فِي رِحَالِهِمْ﴾ أَوْعِيَتِهِمْ، وَهِيَ جَمْعُ رَحْلٍ، قالَ ابْنُ الْأَنْبَارِيِّ: يُقَالُ لِلْوِعَاءِ رَحْلٌ، وَلِلْبَيْتِ رَحْلٌ. ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا﴾ انْصَرَفُوا، ﴿إِلَىٰ أَهْلِهِمْ

لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ وَاخْتَلَفُوا فِي السَّبَبِ الَّذِي فَعَلَهُ يُوسُفُ مِنْ أَجْلِهِ، قِيلَ: أَرَادَ أَنْ يُرِيَهُمْ كَرَمَهُ فِي رَدِّ الْبِضَاعَةِ وَتَقْدِيمِ الضَّمَانِ فِي الْبِرِّ وَالْإِحْسَانِ لِيَكُونَ أَدْعَىٰ لَهُمْ إِلَىٰ الْعَوْدِ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا أَيْ كَرَامَتَهُمْ عَلَيْنَا ، وَقِيلَ: اسْتَقْبَحَ أَنْ يَأْخُذَ مِنْ أَبِيهِ وَإِخْوَتِهِ ثَمَنَ الطَّعَامِ ، وَقِيلَ: لِيَرَوْا فَضْلَهُ، وَيَرْغَبُوا فِي الرجوع إليه ، وَقَالَ الكلبي: تخوف ألا يَكُونَ عِنْدَ أَبِيهِ مِنَ الفضة مَا يَرْجِعُونَ بِهِ مَرَّةً أُخْرَىٰ، وَقِيلَ: فَعَلَ ذَلِكَ لِأَنَّهُ عَلِمَ أَنَّ دِيَانَتَهُمْ تَحْمِلُهُمْ عَلَىٰ رَدِّ الْبِضَاعَةِ نَفْيًا لِلْغَلَطِ وَلَا يَسْتَحِلُّونَ إِمْسَاكَهَا.

[٦٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يا أَبَانَا﴾ إِنَّا قَدِمْنَا عَلَىٰ خَيْرِ رَجُلٍ أَنْزَلَنَا وَأَكْرَمَنَا كَرَامَةً لَوْ كَانَ رَجُلًا مِنْ أَوْلَادِ يَعْقُوبَ مَا أَكْرَمَنَا كَرَامَتَهُ، فَقَالَ لَهُمْ يَعْقُوبُ: إِذَا أَتَيْتُمْ مَلِكَ مِصْرَ فَأَقْرِئُوهُ مِنِّي السَّلَامَ، وَقُولُوا لَهُ: إِنَّ أَبَانَا يُصَلِّي عَلَيْكَ وَيَدْعُو لَكَ بِمَا أَوْلَيْتَنَا، ثُمَّ قَالَ: أَيْنَ شَمْعُونُ؟ قَالُوا: ارْتَهَنَهُ مَلِكُ مِصْرَ وَأَخْبَرُوهُ بِالْقِصَّةِ، فَقَالَ لَهُمْ: وَلِمَ أَخْبَرْتُمُوهُ؟ قَالُوا: إِنَّهُ أَخَذَنَا وَقَالَ أَنْتُمْ جَوَاسِيسُ حَيْثُ كَلَّمْنَاهُ بِلِسَانِ الْعِبْرَانِيَّةِ، وَقَصُّوا عَلَيْهِ الْقِصَّةَ، وَقَالُوا: يَا أَبَانَا ﴿مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ﴾ قَالَ الْحَسَنُ البصري: مَعْنَاهُ يُمْنَعُ مِنَّا الْكَيْلُ إِنْ لَمْ تَحْمِلْ أَخَانَا مَعَنَا. وَقِيلَ: مَعْنَاهُ أَعْطَىٰ بِاسْمِ كل واحد منا حملًا ويمنع مِنَّا الْكَيْلَ لِبِنْيَامِينَ، وَالْمُرَادُ بِالْكَيْلِ الطعام لأنه كان يكال، ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا﴾ بنيامين، ﴿نكْتَلْ﴾ يَعْنِي: نَكْتَلْ نَحْنُ وَهُوَ الطَّعَامُ أي يوزن لنا كما يقال في هذا العصر، وَقِيلَ: نَكْتَلْ له، والمعنىٰ :فَأَرْسِلْ أَخَانَا يَكْتَلْ مَعَنَا، فَيَكُونُ لِلْجَمِيعِ، ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾

أَيْ لَا تَخَفْ عَلَيْهِ فَإِنَّهُ سَيَرْجِعُ إِلَيْكَ، وَهَذَا كَمَا قَالُوا لَهُ فِي يُوسُفَ ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ ولهذا قال لهم أَيْ هَلْ أَنْتُمْ صَانِعُونَ بِهِ إِلَّا كَمَا صَنَعْتُمْ بِأَخِيهِ مِنْ قَبْلُ، تُغَيِّبُونَهُ عَنِّي وَتَحُولُونَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ؟ ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا﴾، ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ أَيْ هُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ بِي وَسَيَرْحَمُ كِبَرِي وَضَعْفِي وَوَجْدِي بِوَلَدِي وَأَرْجُو مِنَ اللهِ إِن يَرُدَّهُ عليَّ وَيَجْمَعَ شَمْلِي بِهِ، إِنَّهُ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ.

[٦٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ﴾ يوسف ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ أَيْ: كَيْفَ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ وَقَدْ فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ مَا فَعَلْتُمْ؟ ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا﴾ يُقَالُ: هُوَ خَيْرٌ رَجُلًا، وَمَعْنَىٰ الْآيَةِ: حِفْظُ اللهِ لَهُ خَيْرٌ مِنْ حِفْظِكُمْ إِيَّاهُ. قَالَ كَعْبُ الْأَحْبَارِ: لَمَّا قَالَ يَعْقُوبُ: ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا﴾ قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: وَعِزَّتِي وَجَلَالِي لَأَرُدَّنَّ عَلَيْكَ ابْنَيْكَ كِلَيْهِمَا بعد ما تَوَكَّلْتَ عَلَيَّ ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾.

[٦٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ﴾ الَّذِي حَمَلُوهُ مِنْ مِصْرَ، ﴿وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ﴾ ثم الطَّعَامِ، ﴿رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي﴾ أَيْ: مَاذَا نَبْغِي وَأَيَّ شَيْءٍ نَطْلُبُ؟ وَذَلِكَ أَنَّهُمْ ذَكَرُوا لِيَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِحْسَانَ الْمَلِكِ إِلَيْهِمْ وَحَثَّوهُ عَلَىٰ إِرْسَالِ بِنْيَامِينَ مَعَهُمْ، فَلَمَّا فَتَحُوا الْمَتَاعَ وَوَجَدُوا الْبِضَاعَةَ، قَالُوا: يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي، ﴿هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾ أَيَّ شَيْءٍ نَطْلُبُ بِالْكَلَامِ فَهَذَا هُوَ الْعِيَانُ مِنَ الْإِحْسَانِ وَالْإِكْرَامِ، أَوْفَىٰ لَنَا الْكَيْلَ وردَّ عَلَيْنَا الثَّمَنَ، أَرَادُوا تَطْيِيبَ

نَفْسِ أَبِيهِمْ، ﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾ أَيْ: نَشْتَرِي لَهُمُ الطَّعَامَ فَنَحْمِلُهُ إِلَيْهِمْ. يُقَالُ: مَارَ أَهْلَهُ يَمِيرُ مَيْرًا إِذَا حَمَلَ إِلَيْهِمُ الطَّعَامَ من بَلَدٍ آخَرَ. ﴿وَنَحْفَظُ أَخَانَا﴾ بِنْيَامِينَ، أَيْ: مِمَّا تَخَافُ عَلَيْهِ ، ﴿وَنَزْدَادُ﴾ علىٰ أحمالنا، ﴿كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ أَيْ: حِمْلَ بَعِيرٍ يُكَالُ لَنَا مِنْ أَجْلِهِ؛ لِأَنَّهُ كَانَ يُعْطِي بِاسْمِ كُلِّ رَجُلٍ حِمْلَ بَعِيرٍ، ﴿ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ أَيْ: مَا حَمَلْنَاهُ قَلِيلٌ لَا يفينا وَأَهْلَنَا. وَالْإِشَارَةُ فِي ذلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ إِلَىٰ الطَّعَامِ الَّذِي فِي مَتَاعِهِمْ. قِيلَ: إِنَّ يَعْقُوبَ- عَلَيْهِ السَّلَامُ- قَالَ لَهُمْ: لَعَلَّهُمْ نَسُوا الْبِضَاعَةَ فَإِذَا قَدِمْتُمْ عَلَيْهِمْ فَأَخْبِرُوهُمْ بِأَنَّكُمْ وَجَدْتُمُوهَا فِي رحالكُمْ، وَقِيلَ: مَعْنَاهُ نَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ لَا مؤنة فيه ولا مشقة.

[٦٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ﴾ لَهُمْ يَعْقُوبُ عليه السلام، ﴿لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ﴾ تعطون ﴿مَوْثِقًا﴾ أي: ميثاقًا وعهدًا، ﴿مِنَ اللهِ﴾ وَالْعَهْدُ الْمُوَثَّقُ: الْمُؤَكَّدُ بِالْقَسَمِ، وَقِيلَ: الْمُؤَكَّدُ بِإِشْهَادِ اللهِ عَلَىٰ نَفْسِهِ قَالَ السُّدِّيُّ: حَلَفُوا بِاللهِ لَيَرُدُّنَّهُ إِلَيْهِ وَلَا يُسْلِمُونَهُ، ﴿لَتَأْتُنَّنِي بِهِ﴾ وَأَدْخَلَ اللَّامَ فِيهِ لِأَنَّ مَعْنَىٰ الْكَلَامِ الْيَمِينُ، ﴿إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: إِلَّا أَنْ تَهْلَكُوا جَمِيعًا. وَقَالَ قَتَادَةُ: إِلَّا أَنْ تَغْلِبُوا حَتَّىٰ لَا تُطِيقُوا ذَلِكَ ، وَفِي الْقِصَّةِ: أَنَّ الْإِخْوَةَ ضَاقَ الْأَمْرُ عَلَيْهِمْ وَجَهِدُوا أَشَدَّ الْجُهْدِ، فَلَمْ يَجِدْ يَعْقُوبُ بُدًّا مِنْ إِرْسَالِ بِنْيَامِينَ مَعَهُمْ ، ﴿فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ﴾ أعطوه عهودهم، ﴿قَالَ﴾ يَعْنِي: يَعْقُوبَ، ﴿اللهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ شَاهِدٌ ، وَقِيلَ: حَافِظٌ، وَقِيلَ: حَفِيظٌ لِلْعَهْدِ قَائِمٌ بِالتَّدْبِيرِ وَالْعَدْلِ.

[٦٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَالَ﴾ لَهُمْ يَعْقُوبُ عليه السلام لَمَّا أَرَادُوا الْخُرُوجَ مِنْ عِنْدِهِ، ﴿يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ﴾ أَمَرَهُمْ أَلَّا يَدْخُلُوا مِصْرَ مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ، وَكَانَتْ مِصْرُ لَهَا أَرْبَعَةُ أَبْوَابٍ، وَذَلِكَ أَنَّهُ خَافَ عَلَيْهِمُ الْعَيْنَ لِأَنَّهُمْ كَانُوا أُعْطُوا جَمَالًا وَقُوَّةً وَامْتِدَادَ قَامَةٍ، وَكَانُوا وَلَدَ رَجُلٍ وَاحِدٍ، فَأَمَرَهُمْ أَنْ يَتَفَرَّقُوا فِي دُخُولِهِمْ لِئَلَّا يُصَابُوا بِالْعَيْنِ، فَإِنَّ الْعَيْنَ حَقٌّ، وَقَدْ ثَبَتَتِ الْأَحَادِيثُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْإِصَابَةِ بِالْعَيْنِ، فَمِنْ ذَلِكَ مَا فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: «كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَأْمُرُنِي أَنْ أَسْتَرْقِيَ مِنَ الْعَيْنِ»(١)، وَأَخْرَجَ مُسْلِمٌ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**الْعَيْنُ حَقٌّ وَلَوْ كَانَ شَيْءٌ سَابَقَ الْقَدَرِ لَسَبَقَتْهُ الْعَيْنُ، وَإِذَا اسْتُغْسِلْتُمْ فَاغْسِلُوا**»(٢)، وَرَوَىٰ أَبُو دَاوُدَ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: «كَانَ يُؤْمَرُ الْعَائِنُ فَيَتَوَضَّأُ ثُمَّ يَغْسِلُ مِنْهُ الْمَعِينُ»(٣)، يَعْنِي يَأْمُرُ الْحَاسِدَ يَتَوَضَّأُ وَيَغْتَسِلُ بِفَضْلِ الْوُضُوءِ الْمَحْسُودُ، قَالَ ابْنُ سِيرِينَ: مَا حَسَدْتُ أَحَدًا عَلَىٰ شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا؛ لِأَنَّهُ إِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَكَيْفَ أَحْسُدُهُ عَلَىٰ الدُّنْيَا، وَهِيَ حَقِيرَةٌ فِي الْجَنَّةِ؟! وَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، فَكَيْفَ أَحْسُدُهُ عَلَىٰ أَمْرِ الدُّنْيَا، وَهُوَ يَصِيرُ إِلَىٰ النَّارِ؟!، قَالَ الْقُرْطُبِيُّ:

---

(١) البخاري (٥٧٣٨).

(٢) مسلم (٢١٨٨).

(٣) أبو داود (٣٨٨٠).

وواجِبٌ عَلَىٰ كُلِّ مسلم أعجبه شي أَنْ يُبَرِّكَ، وَالتَّبْرِيكُ أَنْ يَقُولَ: تَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ! اللَّهُمَّ بَارِكْ فِيهِ ، والْعَائِنُ إِذَا أَصَابَ بِعَيْنِهِ وَلَمْ يُبَرِّكْ فَإِنَّهُ يُؤْمَرُ بِالِاغْتِسَالِ، وَيُجْبَرُ عَلَىٰ ذَلِكَ إِنْ رفض ، لِأَنَّ الْأَمْرَ عَلَىٰ الْوُجُوبِ، لَا سِيَّمَا هَذَا، ثُمَّ قَالَ: ﴿وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ مَعْنَاهُ: إِنْ كَانَ اللهُ قَضَىٰ فِيكُمْ قَضَاءً فَيُصِيبُكُمْ مُجْتَمِعِينَ كُنْتُمْ أَوْ مُتَفَرِّقِينَ، فَإِنَّ الْمَقْدُورَ كَائِنٌ والحذر لا ينفع عن القدراً ﴿إِنِ الْحُكْمُ﴾ ما الحكم، ﴿إِلَّا لِلَّهِ﴾ هَذَا تَفْوِيضُ يَعْقُوبَ أُمُورَهُ إِلَىٰ الله، ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ اعتمدت، ﴿وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ .

[٦٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ﴾ أَيْ: مِنَ الْأَبْوَابِ الْمُتَفَرِّقَةِ. وَقِيلَ: كَانَتِ الْمَدِينَةُ مَدِينَةَ الْفَرَمَاءِ وَلَهَا أَرْبَعَةُ أَبْوَابٍ، فَدَخَلُوهَا مِنْ أَبْوَابِهَا، ﴿مَا كَانَ يُغْنِي﴾ يَدْفَعُ ﴿عَنْهُمْ مِنَ اللهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ صَدَقَ اللهُ تَعَالَىٰ يَعْقُوبَ فِيمَا قال، ﴿إِلَّا حَاجَةً﴾ مُرَادًا، ﴿فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا﴾ أَشْفَقَ عَلَيْهِمْ إِشْفَاقَ الْآبَاءِ عَلَىٰ أَبْنَائِهِمْ وَجَرَىٰ الْأَمْرُ عَلَيْهِ، أَيْ خَاطِرٌ خَطَرَ بِقَلْبِهِ، وَهُوَ وَصِيَّتُهُ أَنْ يَتَفَرَّقُوا، قَالَ مُجَاهِدٌ: خَشْيَةَ الْعَيْنِ، وَقِيلَ: لِئَلَّا يَرَىٰ الْمَلِكُ عَدَدَهُمْ وَقُوَّتَهُمْ فَيَبْطِشُ بِهِمْ حَسَدًا أَوْ حَذَرًا، قال القرطبي : وَدَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ عَلَىٰ أَنَّ الْمُسْلِمَ يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يُحَذِّرَ أَخَاهُ مِمَّا يَخَافُ عَلَيْهِ، وَيُرْشِدَهُ إِلَىٰ مَا فِيهِ طَرِيقُ السَّلَامَةِ وَالنَّجَاةِ، فَإِنَّ الدِّينَ النَّصِيحَةُ، وَالْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ ، ﴿وَإِنَّهُ﴾ يَعْنِي: يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ﴿لَذُو عِلْمٍ﴾ يَعْنِي: كَانَ يَعْمَلُ مَا يَعْمَلُ عَنْ عِلْمٍ لَا عَنْ جَهْلٍ، ﴿لِمَا عَلَّمْنَاهُ﴾ أَيْ: لِتَعْلِيمِنَا إِيَّاهُ، وَقِيلَ: إِنَّهُ لَعَامِلٌ بِمَا عَلِمَ، قَالَ سُفْيَانُ: مَنْ لَا يَعْمَلُ

بِمَا يَعْلَمُ لا يكون عالمًا ، وقيل: إنه لَذُو حِفْظٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ مَا يَعْلَمُ يَعْقُوبُ لِأَنَّهُمْ لَمْ يَسْلُكُوا طَرِيقَ إِصَابَةِ الْعِلْمِ ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لَا يَعْلَمُ الْمُشْرِكُونَ مَا أَلْهَمَ اللهُ أَوْلِيَاءَهُ.

[٦٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ قَالُوا: هَذَا أَخُونَا الَّذِي أَمَرْتَنَا أَنْ نَأْتِيَكَ بِهِ قَدْ جِئْنَاكَ بِهِ، فَقَالَ: أَحْسَنْتُمْ وَأَصَبْتُمْ، وَسَتَجِدُونَ جَزَاءَ ذَلِكَ عِنْدِي، ثُمَّ أنزلهم فأكرم منزلتهم، ثُمَّ أَضَافَهُمْ وَأَجْلَسَ كُلَّ اثْنَيْنِ مِنْهُمْ عَلَىٰ مَائِدَةٍ فَبَقِيَ بِنْيَامِينُ وَحِيدًا فَبَكَىٰ وَقَالَ: لَوْ كَانَ أَخِي يُوسُفُ حَيًّا لَأَجْلَسَنِي مَعَهُ، فقال يوسف: لقد بقي أحدكم هَذَا وَحِيدًا فَأَجْلَسَهُ مَعَهُ عَلَىٰ مَائِدَتِهِ فَجَعَلَ يُواكله فَلَمَّا كَانَ الليل أمر لهم بمثل، وَقَالَ لِيَنَمْ كُلُّ أَخَوَيْنِ مِنْكُمْ عَلَىٰ مِثَالٍ، فَبَقِيَ بِنْيَامِينُ وَحدَهُ، فَقَالَ يُوسُفُ: هَذَا يَنَامُ مَعِي عَلَىٰ فِرَاشِي، فَنَامَ مَعَهُ فَجَعَلَ يُوسُفُ يَضُمُّهُ إِلَيْهِ وَيَشُمُّ رِيحَهُ حَتَّىٰ أَصْبَحَ، وَجَعَلَ رُوبِينُ يَقُولُ: مَا رَأَيْنَا مِثْلَ هَذَا، فَلَمَّا أَصْبَحَ، قَالَ لَهُمْ: إِنِّي أَرَىٰ هَذَا الرَّجُلَ لَيْسَ مَعَهُ ثَانٍ فَسَأَضُمُّهُ إِلَيَّ فَيَكُونُ مَنْزِلُهُ مَعِي، ثُمَّ أَنْزَلَهُمْ مُنْزِلًا وَأَجْرَىٰ عَلَيْهِمُ الطعام، وأنزل أخاه لأمه، فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿آوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾ أَيْ: ضَمَّ إِلَيْهِ أَخَاهُ فَلَمَّا خلا به ، قال: ﴿قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ﴾ أَيْ: لَا تَحْزَنْ، ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ بِشَيْءٍ فَعَلُوهُ بِنَا فِيمَا مَضَىٰ، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ قَدْ أَحْسَنَ إِلَيْنَا، وَلَا تُعْلِمْهُمْ شَيْئًا مِمَّا أَعْلَمْتُكُ، ثُمَّ أَوْفَىٰ يُوسُفُ لِإِخْوَتِهِ الْكَيْلَ وَحَمَّلَ لَهُمْ بَعِيرًا بَعِيرًا وَلِبِنْيَامِينَ بَعِيرًا بِاسْمِهِ، ثُمَّ أَمَرَ بِسِقَايَةِ الْمَلِكِ فَجُعِلَتْ فِي رَحْلِ بنيامين.

[٧٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ﴾ وَالْجَهَازُ- بِفَتْحِ الْجِيمِ وَكَسْرِهَا- مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْمُسَافِرُ، وَأَوَّلُهُ مَا سَافَرَ لِأَجْلِهِ مِنَ الْأَحْمَالِ ، ﴿جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ﴾ وَالسِّقَايَةُ: إِنَاءٌ كَبِيرٌ يُسْقَىٰ بِهِ الْمَاءُ وَالْخَمْرُ. كَانَ الْمَلِكُ يَشْرَبُ مِنْهَا. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: كَانَتْ مِنْ زَبَرْجَدٍ، وَقَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: كَانَتْ مِنْ فِضَّةٍ ، وَقِيلَ: مِنْ ذَهَبٍ، وَقَالَ عِكْرِمَةُ: كَانَتْ مَشْرَبَةً مِنْ فِضَّةٍ مُرَصَّعَةً بِالْجَوَاهِرِ، جَعَلَهَا يُوسُفُ مِكْيَالًا لِئَلَّا يُكَالَ بِغَيْرِهَا، وَكَانَ يَشْرَبُ مِنْهَا. وَالصُّوَاعُ: لُغَةٌ فِي الصَّاعِ، وَهُوَ وِعَاءٌ لِلْكَيْلِ يُقَدَّرُ بِوَزْنِ رِطْلٍ وَرُبُعٍ أَوْ وَثُلُثٍ، وَكَانُوا يَشْرَبُونَ الْخَمْرَ بِالْمِقْدَارِ، يُقَدِّرُ كُلُّ شَارِبٍ لِنَفْسِهِ مَا اعْتَادَ أَنَّهُ لَا يَصْرَعُهُ، وَالسِّقَايَةُ والصواع واحد، جعلت فِي وِعَاءِ طَعَامِ بِنْيَامِينَ، ثُمَّ ارْتَحَلُوا وَأَمْهَلَهُمْ يُوسُفُ حَتَّىٰ انْطَلَقُوا وذهبوا منزلًا ، وقيل: خَرَجُوا مِنَ الْعِمَارَةِ، ثُمَّ بَعَثَ من خَلْفَهُمْ مَنِ اسْتَوْقَفَهُمْ وَحَبَسَهُمْ. ﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ﴾ نادىٰ منادٍ - وَالتَّأْذِينُ: النِّدَاءُ الْمُكَرَّرُ - ﴿أَيَّتُهَا الْعِيرُ﴾ وَهِيَ الْقَافِلَةُ الَّتِي فِيهَا الْأَحْمَالُ وَالْعِيرُ: اسْمٌ لِلْحَمُولَةِ مِنْ إِبِلٍ وَحَمِيرٍ وَمَا عَلَيْهَا مِنْ أَحْمَالٍ وَمَا مَعَهَا مِنْ رُكَّابِهَا، فَهُوَ اسْمٌ لِمَجْمُوعِ هَذِهِ الثَّلَاثَةِ ، ﴿إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾ قِفُوا. قِيلَ: قَالُوهُ مِنْ غَيْرِ أَمْرِ يُوسُفَ. ، وَقِيلَ: قَالُوهُ عَلَىٰ تَأْوِيلِ أَنَّهُمْ سَرَقُوا يُوسُفَ مِنْ أَبِيهِ، فَلَمَّا انْتَهَىٰ إِلَيْهِمُ الرَّسُولُ، قَالَ لَهُمْ: أَلَمْ نُكْرِمْ ضِيَافَتَكُمْ وَنَحْسُنْ مَنْزِلَتَكُمْ وَنُوَفِّكُمْ كَيْلَكُمْ وَنَفْعَلْ بِكُمْ مَا لَمْ نَفْعَلْ بغيركم؟ قالوا: بلىٰ، قالوا: وَمَا ذَاكَ؟ قَالُوا: سِقَايَةُ الْمَلِكِ فَقَدْنَاهَا، وَلَا نَتَّهِمُ عَلَيْهَا غَيْرَكُمْ.

[٧١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ﴾ عَطَفُوا عَلَىٰ الْمُؤَذِّنِ وَأَصْحَابِهِ، ﴿مَاذَا تَفْقِدُونَ﴾ **أي قال إخوة يوسف للمؤذن ومن معه** مَا الَّذِي ضَلَّ عَنْكُمْ. وَالْفُقْدَانُ: ضد الوجدان.

[٧٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ﴾ مِنَ الطَّعَامِ، أي ولمن أتىٰ به حمل جمل من القمح، وفىٰ هذا دليل علىٰ أن عيرهم كانت الإبل ، ﴿وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾ كفيل، أي قال المؤذن وأنا كفيل بحمل البعير، أجعله مكافأة لمن يجيء به، سواء أكان مفقودا أم جاء به غير سارقه.

[٧٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالُوا﴾ يعني: إخوة يوسف، ﴿تَاللهِ﴾ أَيْ: وَاللهِ، وَالتَّاءُ فِي تَاللهِ حَرْفُ قَسَمٍ عَلَىٰ الْمُخْتَارِ ، وَخُصَّتْ هَذِهِ الْكَلِمَةُ بِأَنْ أُبْدِلَتِ الْوَاوُ فِيهَا بِالتَّاءِ فِي الْيَمِينِ دُونَ سَائِرِ أَسْمَاءِ اللهِ تَعَالَىٰ ، ﴿لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ﴾ لِنَسْرِقَ فِي أَرْضِ مِصْرَ، فَإِنْ قِيلَ: كَيْفَ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتُمْ؟ وَمِنْ أَيْنَ عَلِمُوا ذَلِكَ؟ قِيلَ: قالوا قد عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ، فَإِنَّا مُنْذُ قَطَعْنَا هَذَا الطَّرِيقَ لَمْ نوذِ أَحَدًا فَاسْأَلُوا عنَّا مَن مَرَرْنَا بِهِ، هَلْ ضَرَرْنَا أَحَدًا ، وَقِيلَ: لِأَنَّهُمْ رَدُّوا الْبِضَاعَةَ الَّتِي جُعِلَتْ فِي رِحَالِهِمْ، قَالُوا: فَلَوْ كُنَّا سَارِقِينَ ما رددناها، وقيل: قالوا بذلك لِأَنَّهُمْ كَانُوا مَعْرُوفِينَ بِأَنَّهُمْ لَا يَتَنَاوَلُونَ مَا لَيْسَ لَهُمْ، وَكَانُوا إِذَا دَخَلُوا مِصْرَ كَمَّمُوا أَفْوَاهَ دَوَابِّهِمْ كَيْلَا تَتَنَاوَلَ شَيْئًا مِنْ حُرُوثِ النَّاسِ، ﴿وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾ .

[٧٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالُوا﴾ يَعْنِي: الْمُنَادِيَ وَأَصْحَابَهُ ﴿فَمَا جَزَاؤُهُ﴾ يعني: ما جَزَاءُ السَّارِقِ، ﴿إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ﴾ فِي قَوْلِكُمْ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ.

[٧٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالُوا﴾ يَعْنِي: إِخْوَةَ يُوسُفَ، ﴿جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ﴾ أَيْ: فَالسَّارِقُ جَزَاؤُهُ أَنْ يُسَلَّمَ السَّارِقُ بِسَرِقَتِهِ إِلَىٰ الْمَسْرُوقِ مِنْهُ فَيَسْتَرِقَّهُ سَنة يعني يصبح عنده عبداً ، وَكَانَ ذَلِكَ سُنّة آلِ يَعْقُوبَ فِي حُكْمِ السَّارِقِ، وَكَانَ حُكْمُ مَلِكِ مِصْرَ أَنْ يُضْرَبَ السَّارِقُ وَيُغَرَّمَ ضِعْفَيْ قِيمَةِ الْمَسْرُوقِ، فَأَرَادَ يُوسُفُ أَنْ يَحْبِسَ أَخَاهُ عِنْدَهُ، فَرَدَّ الْحُكْمَ إِلَيْهِمْ لِيَتَمَكَّنَ مِنْ حَبْسِهِ عِنْدَهُ عَلَىٰ حكمهم ، ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ الْفَاعِلِينَ مَا لَيْسَ لَهُمْ فِعْلُهُ مِنْ سَرِقَةِ مَالِ الْغَيْرِ، فَقَالَ الرَّسُولُ عِنْدَ ذَلِكَ: لَا بُدَّ مِنْ تَفْتِيشِ أَمْتِعَتِكُمْ، فَأَخَذَ فِي تَفْتِيشِهَا. وَرُوِيَ أَنَّهُ رَدَّهُمْ إِلَىٰ يُوسُفَ فَأَمَرَ بِتَفْتِيشِ أَوْعِيَتِهِمْ بَيْنَ يديه.

[٧٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ﴾ إِنَّمَا بَدَأَ يُوسُفُ بِرِحَالِهِمْ لِنَفْيِ التُّهْمَةِ وَالرِّيبَةِ مِنْ قُلُوبِهِمْ إِنْ بَدَأَ بِوِعَاءِ أَخِيهِ ، وَالْوِعَاءُ يُقَالُ بِضَمِّ الْوَاوِ وَكَسْرِهَا، لُغَتَانِ، وَهُوَ مَا يُحْفَظُ فِيهِ الْمَتَاعُ وَيَصُونَهُ ، ﴿قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ﴾ فَكَانَ يُفَتِّشُ أَوْعِيَتَهُمْ وَاحِدًا وَاحِدًا ﴿ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ﴾ يَعْنِي بِنْيَامِينَ، أَيِ اسْتَخْرَجَ السِّقَايَةَ أَوِ الصُّوَاعَ عِنْدَ مَنْ يُؤَنِّثُ، وَقِيلَ: الصُّوَاعُ يُذَكَّرُ وَيُؤَنَّثُ، فَلَمَّا أَخرَجَ الصُّوَاعَ مِنْ رَحْلِ بِنْيَامِينَ نَكَّسَ إِخْوَتُهُ رُءُوسَهُمْ مِنَ الْحَيَاءِ، وَأَقْبَلُوا عَلَىٰ بِنْيَامِينَ وَقَالُوا: مَا الَّذِي صَنَعْتَ فَضَحْتَنَا وَسَوَّدْتَ وُجُوهَنَا يَا بَنِي رَاحِيلَ؟ مَا يَزَالُ لَنَا مِنْكُمُ الْبَلَاءُ مَتَىٰ أَخَذْتَ هَذَا الصُّوَاعَ، فَقَالَ بِنْيَامِينُ: بَلْ بَنُو رَاحِيلَ لَا

يَزَالُ لَهُمْ مِنْكُمْ بَلَاءٌ ذَهَبْتُمْ بأخي فأهلكتموه في البرية، والله قد وَضع هَذَا الصُّوَاعَ فِي رَحْلِي الَّذِي وَضَعَ الْبِضَاعَةَ فِي رِحَالِكُمْ، فَأَخَذُوا بنيامين رقيقًا، ﴿كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ والكيد هاهنا جَزَاءُ الْكَيْدِ، يَعْنِي: كَمَا فَعَلُوا فِي الِابْتِدَاءِ بِيُوسُفَ مِنَ الْكَيْدِ فَعَلْنَا بِهِمْ ، وَقَدْ قَالَ يَعْقُوبُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِيُوسُفَ: ﴿فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾ فَكِدْنَا لِيُوسُفَ فِي أَمْرِهِمْ. وَالْكَيْدُ مِنَ الْخُلُقِ: الْحِيلَةُ، وَمِنَ اللهِ: التَّدْبِيرُ بِالْحَقِّ ، وَقِيلَ: كِدْنَا: أَلْهَمْنَا ، وَمَعْنَاهُ: صَنَعْنَا لِيُوسُفَ حَتَّىٰ ضَمَّ أَخَاهُ إِلَىٰ نَفْسِهِ، وَحَالَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ إِخْوَتِهِ ، وَهَذَا مِنَ الْكَيْدِ الْمَحْبُوبِ الْمُرَادِ الَّذِي يحبه وَيَرْضَاهُ لِمَا فِيهِ مِنَ الْحِكْمَةِ وَالْمَصْلَحَةِ الْمَطْلُوبَةِ، قال ابن عاشور : الْكَيْدُ: هُنَا هُوَ إِلْهَامُ يُوسُفَ- عَلَيْهِ السَّلَامُ- لِهَذِهِ الْحِيلَةِ الْمُحْكَمَةِ فِي وَضْعِ الصُّوَاعِ وَتَفْتِيشِهِ وَإِلْهَامِ إِخْوَتِهِ إِلَىٰ ذَلِكَ الْحُكْمِ ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ﴾ فَيَضُمَّهُ إِلَىٰ نَفْسِهِ، ﴿فِي دِينِ الْمَلِكِ﴾ أَيْ: فِي حُكْمِهِ. قَالَهُ قَتَادَةُ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فِي سُلْطَانِهِ، ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ﴾ يَعْنِي: إِنَّ يُوسُفَ لَمْ يَكُنْ يَتَمَكَّنُ مِنْ حَبْسِ أَخِيهِ فِي حُكْمِ الْمَلِكِ لَوْلَا مَا كِدْنَا لَهُ بِلُطْفِنَا حَتَّىٰ وَجَدَ السَّبِيلَ إِلَىٰ ذَلِكَ، وَهُوَ مَا أَجْرَىٰ عَلَىٰ أَلْسِنَةِ الْإِخْوَةِ أَنَّ جَزَاءَ السَّارِقِ الِاسْتِرْقَاقُ، فَحَصَلَ مُرَادُ يُوسُفَ بِمَشِيئَةِ اللهِ تَعَالَىٰ ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ﴾ بِالْعِلْمِ كَمَا رَفَعْنَا دَرَجَةَ يُوسُفَ عَلَىٰ إِخْوَتِهِ. أَيْ: يَرْفَعُ اللهُ دَرَجَاتِ مِنْ يَشَاءُ. أو نَرْفَعُ بِهِ نحن، قال الطبري : بمعنىٰ: نرفع منازل من نشاء رفع منازله ومراتبه في الدنيا بالعلم علىٰ غيره، كما رفعنا مرتبة يوسف في ذلك ومنزلته في الدنيا علىٰ منازل إخوته ومراتبهم ، والواقع أَيْضًا هُوَ

اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَوْقَ كُلِّ عَالَمٍ عَالَمٌ إِلَىٰ أَنْ يَنْتَهِيَ العلم إلىٰ الله تعالىٰ، فإن الله تَعَالَىٰ فَوْقَ كُلِّ عَالَمٍ.

[٧٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ﴾ الْمَعْنَىٰ: أَيِ اقْتَدَىٰ بِأَخِيهِ، وَلَوِ اقْتَدَىٰ بِنَا مَا سَرَقَ، وَإِنَّمَا قَالُوا ذَلِكَ لِيَبْرَءُوا مِنْ فِعْلِهِ، لِأَنَّهُ لَيْسَ مِنْ أُمِّهِمْ، وَأَنَّهُ إِنْ سَرَقَ فَقَدْ جَذَبَهُ عِرْقُ أَخِيهِ السَّارِقِ، لِأَنَّ الِاشْتِرَاكَ فِي الْأَنْسَابِ يُشَاكِلُ فِي الْأَخْلَاقِ ، وَقَدِ اخْتَلَفُوا فِي السَّرِقَةِ الَّتِي نَسَبُوا إِلَىٰ يُوسُفَ فَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَقَتَادَةُ: كَانَ لِجَدِّهِ أَبِي أُمِّهِ صَنَمٌ يَعْبُدُهُ فَأَخَذَهُ سِرًّا أَوْ كَسَرَهُ وَأَلْقَاهُ فِي الطَّرِيقِ لِئَلَّا يُعْبَدَ ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: إِنَّ يُوسُفَ جَاءَهُ سَائِلٌ يَوْمًا فَأَخَذَ بَيْضَةً مِنَ البيت فناولها السائل ، وقال سفيان ابن عُيَيْنَةَ: أَخَذَ دَجَاجَةً مِنَ الطَّيْرِ الَّتِي كَانَتْ فِي بَيْتِ يَعْقُوبَ فَأَعْطَاهَا سَائِلًا، وَقَالَ وَهْبٌ: كَانَ يخبأ الطعام من المائدة للفقراء، ﴿فَأَسَرَّهَا﴾ أَضْمَرَهَا ﴿يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾ وإنما أنث الكناية لأنه عين بِهَا الْكَلِمَةَ وَهِيَ قَوْلُهُ: ﴿قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا﴾ ذَكَرَهَا سِرًّا فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُصَرِّحْ بِهَا، يُرِيدُ أَنْتُمْ شَرٌّ مكانًا أي: منزلًا عِنْدَ اللهِ مِمَّنْ رَمَيْتُمُوهُ بِالسَّرِقَةِ فِي صَنِيعِكُمْ بِيُوسُفَ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ مِنْ يُوسُفَ سَرِقَةٌ حَقِيقِيَّةٌ وَخِيَانَتُكُمْ حَقِيقَةٌ، ﴿وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ تَقُولُونَالَ هذا في نفسه ولم يبدها لَهُمْ، وَهَذَا مِنْ بَابِ الْإِضْمَارِ قَبْلَ الذِّكْرِ.

[٧٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا﴾ في السن وفي القدر يحبه، ﴿فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ﴾ بَدَلًا مِنْهُ،أَيْ عَبْدًا بَدَلَهُ، أَيْ خُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ.

حَتَّىٰ يَنْصَرِفَ إِلَيْكَ صَاحِبُكَ، وَمَقْصِدُهُمْ بِذَلِكَ أَنْ يَصِلَ بِنْيَامِينُ إِلَىٰ أَبِيهِ، وَيَعْرِفُ يَعْقُوبُ جَلِيَّةَ الْأَمْرِ، ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ فِي أَفْعَالِكِ. وَقِيلَ: مِنَ الْمُحْسِنِينَ إِلَيْنَا فِي تَوْفِيَةِ الْكَيْلِ وَحُسْنِ الضِّيَافَةِ وَرَدِّ الْبِضَاعَةِ، وَقِيلَ: يَعْنُونَ إِنْ فَعَلْتُ ذَلِكَ كُنْتُ مِنَ المحسنين.

[٧٩] : ﴿قَالَ﴾ يوسف، ﴿مَعَاذَ اللهِ﴾ أَعُوذُ باللهِ، ﴿أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ﴾ وَلَمْ يَقُلْ إِلَّا مَنْ سَرَقَ تَحَرُّزًا مِنَ الْكَذِبِ، ﴿إِنَّا إِذًا لَظَالِمُونَ﴾ إِنْ أَخَذْنَا بَرِيئًا بِمُجْرِمٍ.

[٨٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ﴾ أَيْ: أَيِسُوا مِنْ يُوسُفَ أَنْ يُجِيبَهُمْ إِلَىٰ مَا سَأَلُوهُ، وَقَالَ أبو عبيدة: استيأسوا اسْتَيْقَنُوا أَنَّ الْأَخَ لَا يُرد إليهم،﴿خَلَصُوا نَجِيًّا﴾ أَيْ: خَلَا بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ يَتَنَاجَوْنَ وَيَتَشَاوَرُونَ لَا يُخَالِطُهُمْ غَيْرُهُمْ، وَالنَّجِيُّ يصلح للجماعة كما قال هاهنا وَيَصْلُحُ لِلْوَاحِدِ كَقَوْلِهِ: ﴿وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾ وَمِثْلُهُ النَّجْوَىٰ يَكُونُ اسْمًا وَمَصْدَرًا ، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ﴾ [الْإِسْرَاءِ: ٤٧] أَيْ: مُتَنَاجُونَ، وَقَالَ: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ﴾ ﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ﴾ يَعْنِي: فِي الْعَقْلِ وَالْعِلْمِ لَا فِي السِّنِّ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَالْكَلْبِيُّ: هُوَ يَهُوذَا وَهُوَ أَعْقَلُهُمْ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: هُوَ شَمْعُونُ، وَكَانَتْ لَهُ الرِّئَاسَةُ عَلَىٰ إِخْوَتِهِ، وَقَالَ قَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ وَالضَّحَّاكُ: هُوَ رُوبِيلُ، وَكَانَ أَكْبَرَهُمْ فِي السِّنِّ، وَهُوَ الذي نهىٰ عَنْ قَتْلِ يُوسُفَ. ﴿أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا﴾ عَهْدًا ، ﴿مِنَ اللهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ﴾ قصرتم ﴿فِي يُوسُفَ﴾ قَالَ قَتَادَةُ:

وَهُوَ رُوبِيلُ، كَانَ أَكْبَرَهُمْ فِي السِّنِّ. مُجَاهِدٌ: هُوَ شَمْعُونُ، كَانَ أَكْبَرَهُمْ فِي الرَّأْيِ. وَقَالَ الْكَلْبِيُّ: يَهُوذَا، وَكَانَ أَعْقَلَهُمْ، ألم تعلموا أيها القوم أن أباكم يعقوب قد أخذ عليكم عهد الله وميثاق لتردّنّه إليه إلا أن يحاط بكم، وقد رأيتم كيف تعذر ذلك عليكم، ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ﴾ التي أنا بها وهي مِصْرَ ، أَيْ أَلْزَمُهَا، وَلَا أَبْرَحُ مُقِيمًا فِيهَا، يُقَالُ: بَرِحَ بَرَاحًا وَبُرُوحًا أَيْ زَالَ، فَإِذَا دَخَلَ النَّفْيُ صَارَ مُثْبَتًا ، ﴿حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي﴾ بِالرُّجُوعِ فَإِنِّي أستحي منه ، ﴿أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي﴾ بِرَدِّ أَخِي إِلَيَّ أَوْ بِخُرُوجِي وَتَرْكِ أَخِي. وَقِيلَ: أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي بِالسَّيْفِ فَأُقَاتِلُهُمْ وَأَسْتَرِدُّ أخي، أي: فلن أغادر هذه البلدة حتىٰ يسمح لي أبي بالرجوع إليه، أو يحكم الله لي بأخذ أخي بالسيف أو بتمكيني من ردّه، أو بما يشاء سبحانه وهو خير الحاكمين ، ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ أَعْدَلُ مَنْ فَصَلَ بَيْنَ النَّاسِ.

[٨١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ارْجِعُوا إِلَىٰ أَبِيكُمْ﴾ يَقُولُ الْأَخُ الْمُحْتَبِسُ بِمِصْرَ لِإِخْوَتِهِ: ارْجِعُوا إِلَىٰ أَبِيكُمْ، ﴿فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ﴾ بنيامين، ﴿سَرَقَ﴾ أَيْ نُسِبَ إِلَىٰ السرقة ورمي بها،﴿وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا﴾ يَعْنِي: مَا قُلْنَا هَذَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا فَإِنَّا رَأَيْنَا إِخْرَاجَ الصواع مِنْ مَتَاعِهِ. وَقِيلَ: مَعْنَاهُ وَمَا شهدنا إلا بما علمنا أي ما كانت منها شَهَادَةٌ فِي عُمْرِنَا عَلَىٰ شَيْءٍ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا، وَلَيْسَتْ هَذِهِ شَهَادَةٌ مِنَّا إِنَّمَا هُوَ خَبَرٌ عَنْ صَنِيعِ ابْنِكَ بِزَعْمِهِمْ ، وَقِيلَ: قَالَ لَهُمْ يَعْقُوبُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: مَا يَدْرِي هَذَا الرَّجُلُ أَنَّ السَّارِقَ يُؤْخَذُ بِسَرِقَتِهِ إِلَّا بِقَوْلِكُمْ، فَقَالُوا: مَا

شَهِدْنَا عِنْدَ يُوسُفَ بِأَنَّ السَّارِقَ يُسْتَرَقُّ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا، وَكَانَ الْحُكْمُ ذَلِكَ عِنْدَ يَعْقُوبَ وَبَنِيهِ ، ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ : مَا كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّ ابْنَكَ سَيَسْرِقُ وَيَصِيرُ أمرنا إلىٰ هذا، وَإِنَّمَا قُلْنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا مِمَّا لنا حِفْظِهِ مِنْهُ سَبِيلٌ ، وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: مَا كُنَّا لِلَيْلِهِ وَنَهَارِهِ وَمَجِيئِهِ وَذَهَابِهِ حَافِظِينَ، وَقَالَ عِكْرِمَةُ: وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ فَلَعَلَّهَا دُسَّتْ بِاللَّيْلِ فِي رَحْلِهِ.

[٨٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾ أَيْ: أَهْلَ الْقَرْيَةِ وَهِيَ مِصْرُ ﴿وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ أَيِ: الْقَافِلَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا، وَكَانَ صَحِبَهُمْ قَوْمٌ مِنْ كَنْعَانَ مِنْ جِيرَانِ يَعْقُوبَ ، قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: عَرَفَ الْأَخُ الْمُحْتَبَسُ بِمِصْرَ أَنَّ إِخْوَتَهُ أَهْلَ تُهْمَةٍ عِنْدَ أَبِيهِمْ لِمَا كَانُوا صَنَعُوا فِي أَمْرِ يُوسُفَ فَأَمَرَهُمْ أَنْ يَقُولُوا هذه المقالة لأبيهم ، ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ فَإِنْ قِيلَ: كَيْفَ اسْتَجَازَ يُوسُفُ أَنْ يَعْمَلَ مِثْلَ هَذَا بِأَبِيهِ وَلَمْ يُخْبِرْهُ بِمَكَانِهِ وَحَبَسَ أَخَاهُ مَعَ عِلْمِهِ بِشِدَّةِ وَجْدِ أَبِيهِ عليه؟ وقيل معنىٰ العقوق: قطيعة الرَّحِمِ وَقِلَّةِ الشَّفَقَةِ؟ قِيلَ: قَدْ أَكْثَرَ النَّاسُ فِيهِ، وَالصَّحِيحُ أَنَّهُ عَمِلَ ذَلِكَ بِأَمْرِ اللهِ سُبْحَانَهُ وتعالىٰ، أمره به لِيَزِيدَ فِي بَلَاءِ يَعْقُوبَ فَيُضَاعِفَ لَهُ الْأَجْرَ وَيُلْحِقَهُ فِي الدَّرَجَةِ بِآبَائِهِ الْمَاضِينَ. وَقِيلَ: إِنَّهُ لَمْ يُظْهِرْ نَفْسَهُ لِإِخْوَتِهِ لِأَنَّهُ لَمْ يَأْمَنْ أَنْ يُدَبِّرُوا فِي أَمْرِهِ تَدْبِيرًا فَيَكْتُمُوهُ عَنْ أَبِيهِ. وَالْأَوَّلُ أَصَحُّ.

[٨٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ﴾ زينت، ﴿أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ وَفِيهِ اخْتِصَارٌ مَعْنَاهُ: فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ وَذَكَرُوا لِأَبِيهِمْ مَا قَالَ كَبِيرُهُمْ، فَقَالَ يَعْقُوبُ: بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا، أَيْ: حُمِلَ أَخِيكُمْ إِلَىٰ مِصْرَ لِطَلَبِ نَفْعٍ عَاجِلٍ،

﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَىٰ اللهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾ يَعْنِي: يُوسُفَ وَبِنْيَامِينَ وَأَخَاهُمُ الْمُقِيمَ بمصر، ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ﴾ بِحُزْنِي وَوَجْدِي عَلَىٰ فَقْدِهِمْ، ﴿الْحَكِيمُ﴾ فِي تَدْبِيرِ خَلْقِهِ.

[٨٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ﴾ وَذَلِكَ أَنَّ يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لما بلغه خبر بنيامين تناهىٰ حزنه وبلغ جهده، وهيج حُزْنُهُ عَلَىٰ يُوسُفَ فَأَعْرَضَ عَنْهُمْ، قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ: ظن أَنَّهَا كَفَعْلَتِهِمْ بِيُوسُفَ، ﴿وَقَالَ يا أَسَفَىٰ﴾ يا حزنا، ﴿عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ وَالْأَسَفُ أَشَدُّ الْحُزْنِ، قال سعيد بن جبير: لَمْ يُعْطَ أَحَدٌ الِاسْتِرْجَاعَ غَيْرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ - يعني أن يقول الإنسان عند المصيبة : إنا لله وإنا إليه راجعون - أَلَّا تَسْمَعُونَ إِلَىٰ قَوْلِ يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿يا أسفا عَلَىٰ يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ أَيْ سَاكِتٌ لَا يَشْكُو أَمْرَهُ إِلَىٰ مَخْلُوقٍ، ﴿وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ﴾ يعني: عَمِيَ بَصَرُهُ، قَالَ مُقَاتِلٌ: لَمْ يبصر بِهِمَا سِتَّ سِنِينَ، ﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ أَيْ: مَكْظُومٌ مَمْلُوءٌ مِنَ الْحُزْنِ مُمْسِكٌ عَلَيْهِ لَا يَبُثُّهُ. وَالْكَظِيمُ: مُبَالَغَةٌ لِلْكَاظِمِ ، أَيْ كَاظِمٌ لِلْحُزْنِ لَا يُظْهِرُهُ بَيْنَ النَّاسِ، وَيَبْكِي فِي خَلْوَتِهِ وَقَالَ قتادة: تردد حُزْنَهُ فِي جَوْفِهِ وَلَمْ يَقُلْ إِلَّا خَيْرًا. قَالَ الْحَسَنُ البصري: كَانَ بَيْنَ خُرُوجِ يُوسُفَ مِنْ حِجْرِ أَبِيهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْتَقَىٰ مَعَهُ ثَمَانُونَ عَامًا لَا تَجِفُّ عَيْنَا يَعْقُوبَ وَمَا عَلَىٰ وَجْهِ الْأَرْضِ أَكْرَمُ عَلَىٰ اللهِ مِنْ يَعْقُوبَ، قال ابن عاشور: وَإِنَّمَا ذَكَرَ الْقُرْآنُ تَحَسُّرَهُ عَلَىٰ يُوسُفَ- عَلَيْهِ السَّلَامُ- وَلَمْ يَذْكُرْ تَحَسُّرَهُ عَلَىٰ ابْنَيْهِ الْآخَرَيْنِ لِأَنَّ ذَلِكَ التَّحَسُّرَ هُوَ الَّذِي يَتَعَلَّقُ بِهَذِهِ الْقِصَّةِ فَلَا

يَقْتَضِي ذِكْرُهُ أَنَّ يَعْقُوبَ- عَلَيْهِ السَّلَامُ- لَمْ يَتَحَسَّرْ قَطُّ إِلَّا عَلَىٰ يُوسُفَ، مَعَ أَنَّ الْوَاوَ لَا تُفِيدُ تَرْتِيبَ الْجُمَلِ الْمَعْطُوفَةِ بِهَا.

[٨٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالُوا﴾ يَعْنِي: أَوْلَادَ يَعْقُوبَ، ﴿تَاللهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ﴾ أَيْ: والله لَا تَزَالُ تَذْكُرُ يُوسُفَ، لَا تَفْتُرُ مِنْ حُبِّهِ، قَالَ الْكِسَائِيُّ: فَتَأْتُ وَفَتِئْتُ أَفْعَلُ ذَلِكَ أَيْ مَا زِلْتُ، قال مجاهد : أي: إنك لا تفتر من حب يوسف واستعراض ذكراه، ﴿حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا﴾ أي ضَعِيفَ الْقُوَّةِ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: الْحَرَضُ مَا دُونَ الْمَوْتِ، يَعْنِي: قَرِيبًا مِنَ الْمَوْتِ. وَقَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: فَاسِدًا لَا عَقْلَ لَكَ، وَالْحَرَضُ: الَّذِي فَسَدَ جِسْمُهُ وَعَقْلُهُ. وَقِيلَ: ذَائِبًا مِنَ الْهَمِّ. وَمَعْنَىٰ الْآيَةِ: حَتَّىٰ تَكُونَ دَنِفَ الْجِسْمِ ، مَخْبُولَ الْعَقْلِ. وَأَصْلُ الْحَرَضِ: الْفَسَادُ فِي الْجِسْمِ، وَالْعَقْلِ مِنَ الْحُزْنِ والهرم، أو العشق أو الهم، يُقَالُ: رَجُلٌ حَرَضٌ وَامْرَأَةٌ حَرَضٌ، وَرَجُلَانِ وَامْرَأَتَانِ حَرَضٌ، وَرِجَالٌ وَنِسَاءٌ كَذَلِكَ، يَسْتَوِي فِيهِ الْوَاحِدُ وَالِاثْنَانِ وَالْجَمْعُ وَالْمُذَكَّرُ وَالْمُؤَنَّثُ؛ لِأَنَّهُ مَصْدَرٌ وُضِعَ مَوْضِعَ الِاسْمِ. ﴿أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾ أي: من الميتين، يَقُولُونَ: إن اسْتَمَرَّ بِكَ هَذَا الْحَالُ خَشِينَا عَلَيْكَ الْهَلَاكَ والتلف.

[٨٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ﴾ يَعْقُوبُ عَلَيْهِ السَّلَامُ عِنْدَ ذَلِكَ لَمَّا رَأَىٰ غِلْظَتَهُمْ ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَىٰ اللهِ﴾ وَالْبَثُّ أَشَدُّ الْحُزْنِ، سُمِّيَ بِذَلِكَ لِأَنَّ صَاحِبَهُ لَا يَصْبِرُ عَلَيْهِ حتىٰ يبثه أَيْ: يُظْهِرَهُ، قَالَ الْحَسَنُ البصري: بَثِّي أي: حاجتي، وروىٰ أَنَّهُ دَخَلَ عَلَىٰ يَعْقُوبَ جَارٌ له وقال: يا يعقوب ما الذي غير حالك مالي

أَرَاكَ قَدْ تَهَشَّمْتَ وَفَنِيتَ وَلَمْ تَبْلُغْ مِنَ السِّنِّ مَا بَلَغَ أَبُوكَ؟ قَالَ: هَشَّمَنِي وَأَفْنَانِي مَا ابْتَلَانِي اللهُ بِهِ مِنْ هَمِّ يُوسُفَ، فَأَوْحَىٰ اللهُ إِلَيْهِ: يَا يَعْقُوبُ أَتَشْكُونِي إِلَىٰ خَلْقِي؟ فَقَالَ: يَا رَبِّ خَطِيئَةٌ أَخْطَأْتُهَا فَاغْفِرْهَا لِي، فَقَالَ: قَدْ غَفَرْتُهَا لَكَ، فَكَانَ بَعْدَ ذَلِكَ إِذَا سُئِلَ قَالَ: إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وحزني إلىٰ الله. قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ يَعْنِي أَعْلَمُ مِنْ حَيَاةِ يُوسُفَ مَا لَا تَعْلَمُونَ.

[٨٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا﴾ تخبروا واطلبوا الخير، وَالتَّحَسُّسُ بِالْحَاءِ وَالْجِيمِ لَا يَبْعُدُ أَحَدُهُمَا مِنَ الْآخَرِ، إِلَّا أَنَّ التَّحَسُّسَ بِالْحَاءِ فِي الْخَيْرِ والتجسس بِالْجِيمِ فِي الشَّرِّ، والتحسس هُوَ طَلَبُ الشَّيْءِ بِالْحَاسَّةِ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: معناه التمسوا ﴿مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ قِيلَ: إِنَّ يَعْقُوبَ تَنَبَّهَ عَلَىٰ يُوسُفَ بِرَدِ الْبِضَاعَةِ، وَاحْتِبَاسِ أَخِيهِ، وَإِظْهَارِ الْكَرَامَةِ، فَلِذَلِكَ وَجَّهَهُمْ إِلَىٰ جِهَةِ مِصْرَ دُونَ غَيْرِهَا. ﴿وَلَا تَيْأَسُوا﴾ وَلَا تَقْنَطُوا ﴿مِنْ رَوْحِ اللهِ﴾ أي: من الرحمة: وَقِيلَ: مِنْ فَرَجِ اللهِ، وقال ابن زيد: من فرج الله، يفرِّج عنكم الغمَّ الذي أنتم فيه، قال القرطبي: يُرِيدُ: أَنَّ الْمُؤْمِنَ يَرْجُو فَرَجَ اللهِ، وَالْكَافِرَ يَقْنَطُ فِي الشِّدَّةِ. ﴿إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾، قال الطبري: يقول: لا يقنط من فرجه ورحمته، ويقطع رجاءه منه، ﴿إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾، يعني: القوم الذين يجحدون قُدرته علىٰ ما شاء تكوينه.

[٨٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ﴾ في هذه الآيات: عَوْدَةُ إخوة يوسف إلىٰ مصر، ودخولُهم علىٰ يوسف ببضاعة قليلة، وهم يرجونه رحمتهم في شأن

أخيهم وحسن التزود من كيله، ﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ﴾ أَيِ: الشِّدَّةُ وَالْجُوعُ، يعنون من الجَدْب والقحْط وقلة الطعام. هَذِهِ الْمَرَّةُ الثَّالِثَةُ مِنْ عَوْدِهِمْ إِلَىٰ مِصْرَ، قال القرطبي : فِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَىٰ جَوَازِ الشَّكْوَىٰ عِنْدَ الضُّرِّ، أَيِ الْجُوعُ، بَلْ وَاجِبٌ عَلَيْهِ إِذَا خَافَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الضُّرَّ مِنَ الْفَقْرِ وَغَيْرِهِ أَنْ يُبْدِيَ حَالَتَهُ إِلَىٰ مَنْ يَرْجُو مِنْهُ النَّفْعَ، كَمَا هُوَ وَاجِبٌ عَلَيْهِ أَنْ يَشْكُوَ مَا بِهِ مِنَ الْأَلَمِ إِلَىٰ الطَّبِيبِ لِيُعَالِجَهُ، وَلَا يَكُونُ ذَلِكَ قَدَحًا فِي التَّوَكُّلِ، وَهَذَا مَا لَمْ يَكُنِ التَّشَكِّي عَلَىٰ سَبِيلِ التَّسَخُّطِ، وَالصَّبْرِ وَالتَّجَلُّدِ فِي النَّوَائِبِ أَحْسَنُ، وَالتَّعَفُّفُ عَنِ المسألة أفضل، وأحسن الكلام فِي الشَّكْوَىٰ سُؤَالُ الْمَوْلَىٰ زَوَالَ الْبَلْوَىٰ، قَوْلُهُ: ﴿وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ﴾ الْبِضَاعَةُ الْقِطْعَةُ مِنَ الْمَالِ يُقْصَدُ بِهَا شراء شي، تَقُولُ: أَبْضَعْتُ الشَّيْءَ وَاسْتَبْضَعْتُهُ أَيْ جَعَلْتُهُ بِضَاعَةً، والمزجاة أَيْ: قَلِيلَةٍ رَدِيئَةٍ كَاسِدَةٍ لَا تُنْفَقُ فِي ثَمَنِ الطَّعَامِ إِلَّا بِتَجَوُّزٍ مِنَ الْبَائِعِ فِيهَا قَالَ ثَعْلَبٌ: الْبِضَاعَةُ الْمُزْجَاةُ النَّاقِصَةُ غَيْرُ التامة، وَالْمُزْجَاةُ: الْقَلِيلَةُ الَّتِي لَا يُرْغَبُ فِيهَا فَكَأَنَّ صَاحِبَهَا يُزْجِيهَا، أَي يَدْفعهَا بكفة لِيَقْبَلَهَا الْمَدْفُوعَةُ إِلَيْهِ. ﴿فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ﴾ أَيْ: أَعْطِنَا مَا كُنْتَ تُعْطِينَا قبل الثمن الجيد الوافي ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا﴾ أَيْ تَفَضَّلْ عَلَيْنَا بِمَا بَيْنَ الثَّمَنَيْنِ الْجَيِّدِ وَالرَّدِيءِ وَلَا تَنْقُصْنَا. هَذَا قَوْلُ أَكْثَرِ الْمُفَسِّرِينَ ، وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ وَالضَّحَّاكُ: وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا بِرَدِّ أَخِينَا إِلَيْنَا ، ﴿إِنَّ اللهَ يَجْزِي﴾ يثيب ﴿الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ وَقَالَ الضَّحَّاكُ: لَمْ يَقُولُوا إِنَّ اللهَ يَجْزِيكَ لِأَنَّهُمْ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مُؤْمِنٌ، قال ابن عاشور : وَطَلَبُوا التَّصَدُّقَ مِنْهُ تَعْرِيضًا بِإِطْلَاقِ أَخِيهِمْ لِأَنَّ ذَلِكَ

فَضْلٌ مِنْهُ إِذْ صَارَ مَمْلُوكًا لَهُ كَمَا تَقَدَّمَ. وَسُئِلَ سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ: هَلْ حُرِّمَتِ الصَّدَقَةُ عَلَىٰ أَحَدٍ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ سِوَىٰ نَبِيِّنَا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؟ فَقَالَ سُفْيَانُ: أَلَمْ تَسْمَعْ قَوْلَهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ يُرِيدُ أَنَّ الصَّدَقَةَ كَانَتْ حَلَالًا لَهُمْ. وَرُوِيَ أَنَّ الْحَسَنَ البصري سَمِعَ رَجُلًا يَقُولُ: اللَّهُمَّ تَصَدَّقْ عليَّ، فَقَالَ: إِنَّ اللهَ لَا يَتَصَدَّقُ وَإِنَّمَا يَتَصَدَّقُ مَنْ يَبْغِي الثَّوَابَ، قُلِ: اللَّهُمَّ أَعْطِنِي أَوْ تَفَضَّلْ عليَّ.

[٨٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ اسْتِفْهَامٌ بِمَعْنَىٰ التَّذْكِيرِ وَالتَّوْبِيخِ ، واخْتَلَفُوا فِي السَّبَبِ الَّذِي حَمَلَ يُوسُفَ عَلَىٰ هَذَا الْقَوْلِ، قال ابْنُ إِسْحَاقَ: ذُكِرَ لِي أَنَّهُمْ لَمَّا كَلَّمُوهُ بِهَذَا الْكَلَامِ أَدْرَكَتْهُ الرِّقَّةُ فسال دَمْعُهُ فَبَاحَ بِالَّذِي كان يكتمه، وَقِيلَ: قَالَهُ حِينَ قَرَأَ كِتَابَ أبيه الذي كتب إِلَيْهِ فَلَمْ يَتَمَالَكِ الْبُكَاءَ فَقَالَ: هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وأخيه إذا فَرَّقْتُمْ بَيْنَهُمَا، وَصَنَعْتُمْ مَا صَنَعْتُمْ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ بِمَا يَئُولُ إِلَيْهِ أَمْرُ يُوسُفَ؟ وَقِيلَ: مُذْنِبُونَ وَعَاصُونَ. وَقَالَ الْحَسَنُ: إِذْ أَنْتُمْ شبان وَمَعَكُمْ جَهْلُ الشَّبَابِ، فَإِنْ قِيلَ: كَيْفَ قَالَ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ وَمَا كَانَ مِنْهُمْ إِلَىٰ أخيه شيء وَهُمْ لَمْ يَسْعَوْا فِي حَبْسِهِ؟ قِيلَ: قَدْ قَالُوا لَهُ فِي الصاع: مَا رَأَيْنَا مِنْكُمْ يَا بَنِي رَاحِيلَ خَيْرًا وَقِيلَ: لَمَّا كَانَا مِنْ أُمٍّ وَاحِدَةٍ كَانُوا يُؤْذُونَهُ مِنْ بَعْدِ فَقْدِ يُوسُفَ، ﴿إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾ دَلِيلٌ عَلَىٰ أَنَّهُمْ كَانُوا صِغَارًا فِي وَقْتِ أَخْذِهِمْ لِيُوسُفَ، غَيْرَ أَنْبِيَاءَ، لِأَنَّهُ لَا يُوصَفُ

بِالْجَهْلِ إِلَّا مَنْ كَانَتْ هَذِهِ صِفَتُهُ، وَيَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُ حَسُنَتْ حَالُهُمُ الْآنَ، أَيْ فَعَلْتُمْ ذَلِكَ إِذْ أَنْتُمْ صِغَارٌ جُهَّالٌ ، وقيل: جاهلون بما تؤول إِلَيْهِ الْعَاقِبَةُ.

[٩٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالُوا أَئِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ لَمَّا قَالَ لَهُمْ:﴿هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ﴾ ، ثُمَّ تَبَسَّمَ يُوسُفُ - وَكَانَ إِذَا تَبَسَّمَ كَأَنَّ ثَنَايَاهُ اللُّؤْلُؤُ الْمَنْظُومُ- فَشَبَّهُوهُ بيوسف، فقالوا له علىٰ جهة الاستفهام: ﴿أَإِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ﴾ ،﴿قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي﴾ بِنْيَامِينُ، ﴿قَدْ مَنَّ اللهُ عَلَيْنَا﴾ أنعم الله عَلَيْنَا بِأَنْ جَمَعَ بَيْنَنَا ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ﴾ بِأَدَاءِ الْفَرَائِضِ وَاجْتِنَابِ الْمَعَاصِي، ﴿وَيَصْبِرْ﴾ عَمَّا حَرَّمَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهِ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَتَّقِي الزنا وَيَصْبِرُ عَنِ الْعُزُوبَةِ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: يَتَّقِي الْمَعْصِيَةَ وَيَصْبِرُ عَلَىٰ السِّجْنِ، ﴿فَإِنَّ اللهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ .

[٩١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالُوا﴾ مُعْتَذِرِينَ، ﴿تَاللهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللهُ عَلَيْنَا﴾ أَيِ: اخْتَارَكَ اللهُ وَفَضَّلَكَ عَلَيْنَا، وَالْإِيثَارُ: التَّفْضِيلُ بِالْعَطَاءِ ، وَالْمُرَادُ: الْإِيثَارُ فِي الدُّنْيَا بِمَا أَعْطَاهُ اللهُ مِنَ النِّعَمِ. ﴿وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾ أَيْ: وَمَا كُنَّا فِي صَنِيعِنَا بِكَ إِلَّا مُخْطِئِينَ مُذْنِبِينَ. يُقَالُ: خطئ خطأ إِذَا تَعَمَّدَ، وَأَخْطَأَ إِذَا كَانَ غير متعمد، وَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ إِذْ قَالُوا: وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ ، وَالْخَاطِئُ: فَاعِلُ الْخَطِيئَةِ، أَيِ الْجَرِيمَةِ، فَنَفَعَتْ فِيهِمُ الْمَوْعِظَةُ، وَقِيلَ لِابْنِ عَبَّاسٍ: كَيْفَ قَالُوا ﴿وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾ وَقَدْ تَعَمَّدُوا لِذَلِكَ؟ قَالَ: وَإِنْ تَعَمَّدُوا لِذَلِكَ، فَمَا تَعَمَّدُوا حَتَّىٰ

أَخْطَئُوا الْحَقَّ، وَكَذَلِكَ كُلُّ مَنْ أَتَىٰ ذَنْبًا تَخَطَّىٰ الْمِنْهَاجَ الَّذِي عَلَيْهِ مِنَ الْحَقِّ، حَتَّىٰ يَقَعَ فِي الشُّبْهَةِ وَالْمَعْصِيَةِ.

[٩٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ﴾ يُوسُفُ وَكَانَ حَلِيمًا، ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾ لا تعيير وَلَا أَذْكُرُ لَكُمْ ذَنْبَكُمْ بَعْدَ الْيَوْمَ، وَالتَّثْرِيبُ التَّعْيِيرُ وَالتَّوْبِيخُ، أَيْ لَا تَعْيِيرَ وَلَا تَوْبِيخَ وَلَا لَوْمَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ، وَأَصْلُ التَّثْرِيبِ الْإِفْسَادُ، وَهِيَ لُغَةُ أَهْلِ الْحِجَازِ، وَقَالَ الْأَصْمَعِيُّ: ثَرَّبْتُ عَلَيْهِ وَعَرَّبْتُ عَلَيْهِ بِمَعْنَىٰ إِذَا قَبَّحْتُ عَلَيْهِ فِعْلَهُ. ﴿يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ عنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا دَخَلَ مَكَّةَ قال لأهلها: مَا تَقُولُونَ وَمَا تَظُنُّونَ ؟ قَالُوا: نَقُولُ: ابْنُ أَخٍ وَابْنُ عَمٍّ حَلِيمٌ رَحِيمٌ ، قَالَ: وَقَالُوا ذَلِكَ ثَلَاثًا ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **أَقُولُ كَمَا قَالَ يُوسُفُ**: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾.

[٩٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا﴾ أَيْ: يَعُدْ مُبْصِرًا. وَقِيلَ: يَأْتِينِي بَصِيرًا لِأَنَّهُ كَانَ قَدْ دَعَاهُ. قَالَ الْحَسَنُ البصري: لَمْ يَعْلَمْ أَنَّهُ يَعُودُ بَصِيرًا إِلَّا بَعْدَ أَنْ أَعْلَمَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ. وَقَالَ الضَّحَّاكُ: كَانَ ذَلِكَ الْقَمِيصُ مِنْ نسج الجنة ، عن مُجَاهِدٍ قَالَ: أَمَرَهُ جِبْرِيلُ أَنْ يرسل إليه قميصه، فَدَفَعَ يُوسُفُ ذَلِكَ الْقَمِيصَ إِلَىٰ إِخْوَتِهِ وَقَالَ: أَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا، ﴿وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ لِتَتَّخِذُوا مِصْرَ دَارًا ، قَالَ مَسْرُوقٌ: فَكَانُوا ثَلَاثَةً وَتِسْعِينَ، مَا بَيْنَ رَجُلٍ وَامْرَأَةٍ.

[٩٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ﴾ أَيْ خَرَجَتْ مِنْ عَرِيشِ مِصْرَ مُتَوَجِّهَةً إِلَىٰ كَنْعَانَ ﴿قَالَ أَبُوهُمْ﴾ أَيْ: قَالَ يَعْقُوبُ لِوَلَدِ وَلَدِهِ، ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ﴾ تُسَفِّهُونِي، وَالتَّفْنِيدُ: النِّسْبَةُ لِلْفَنَدِ، وَهُوَ اخْتِلَالُ الْعقل من الخرف، وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: تُجَهِّلُونِي. وقال الضحاك: تهرموني فَتَقُولُونَ شَيْخٌ كَبِيرٌ قَدْ خَرَّفَ وَذَهَبَ عَقْلُهُ. وَقِيلَ: تُضَعِّفُونِي. وَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: تُضَلِّلُونِي.

[٩٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالُوا﴾ يَعْنِي: أَوْلَادَ أَوْلَادِهِ، ﴿تَاللهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لَفِي خَطَئِكَ الْمَاضِي مِنْ حُبِّ يُوسُفَ لَا تَنْسَاهُ، والضلال هو الذهاب عن الطريق الصَّوَابِ، فَإِنَّ عِنْدَهُمْ أَنْ يُوسُفَ قَدْ مَاتَ وَيَرَوْنَ يَعْقُوبَ قَدْ لهج بذكره.

[٩٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ﴾ وَهُوَ الْمُبَشِّرُ عَنْ يُوسُفَ، قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: جَاءَ الْبَشِيرُ بَيْنَ يَدَيِ الْعِيرِ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هو يهوذا قال: أَنَا ذَهَبْتُ بِالْقَمِيصِ مُلَطَّخًا بِالدَّمِ إِلَىٰ يَعْقُوبَ فَأَخْبَرْتُهُ أَنَّ يُوسُفَ أَكَلَهُ الذِّئْبُ فَأَنَا أَذْهَبُ إِلَيْهِ الْيَوْمَ بِالْقَمِيصِ فَأُخْبِرُهُ أَنَّ وَلَدَهُ حَيٌّ فَأُفْرِحُهُ كَمَا أَحْزَنْتُهُ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: حَمَلَهُ يَهُوذَا وَخَرَجَ حَافِيًا حَاسِرًا يَعْدُو وَمَعَهُ سَبْعَةُ أَرْغِفَةٍ لَمْ يَسْتَوْفِ أَكْلَهَا حَتَّىٰ أَتَىٰ أَبَاهُ، وَكَانَتِ الْمَسَافَةُ ثَمَانِينَ فَرْسَخًا، وَقِيلَ: الْبَشِيرُ مَالِكُ بْنُ ذُعْرٍ، ﴿أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ﴾ يَعْنِي: أَلْقَىٰ الْبَشِيرُ قَمِيصَ يُوسُفَ عَلَىٰ وَجْهِ يَعْقُوبَ، ﴿فَارْتَدَّ بَصِيرًا﴾ فعاد بصيرًا بعد ما كان أعمىٰ وَعَادَتْ إِلَيْهِ قُوَّتُهُ بَعْدَ الضَّعْفِ وَشَبَابُهُ بَعْدَ الْهَرَمِ وَسُرُورُهُ بَعْدَ الحزن، ﴿قَالَ﴾ يعني: يعقوب عليه السلام، ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ

إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ من حياة يوسف أن اللهَ يَجْمَعُ بَيْنَنَا. وَرُوِيَ أَنَّهُ قَالَ لِلْبَشِيرِ: كَيْفَ تَرَكْتَ يُوسُفَ؟ قَالَ: إِنَّهُ مَلِكُ مِصْرَ، فَقَالَ يَعْقُوبُ: مَا أَصْنَعُ بِالْمُلْكِ؟ عَلَىٰ أَيِّ دِينٍ تَرَكْتَهُ؟ قَالَ عَلَىٰ دِينِ الْإِسْلَامِ، قَالَ: الْآنَ تَمَّتِ النِّعْمَةُ.

[٩٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾ مُذْنِبِينَ، فِي الْكَلَامِ حَذْفٌ، التَّقْدِيرُ: فَلَمَّا رَجَعُوا مِنْ مِصْرَ قَالُوا يَا أَبَانَا، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ الَّذِي قَالَ لَهُ:﴿تَاللهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾ بَنُو بَنِيهِ أَوْ غَيْرُهُمْ مِنْ قَرَابَتِهِ وَأَهْلِهِ لَا وَلَدُهُ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا غُيَّبًا، وَكَانَ يَكُونُ ذَلِكَ زِيَادَةً فِي الْعُقُوقِ، وَاللهُ أَعْلَمُ، وَإِنَّمَا سَأَلُوهُ الْمَغْفِرَةَ، لِأَنَّهُمْ أَدْخَلُوا عَلَيْهِ مِنْ أَلَمِ الْحُزْنِ مَا لَمْ يَسْقُطِ الْمَأْثَمُ عَنْهُ إِلَّا بِإِحْلَالِهِ، وفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ وَغَيْرِهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ كَانَتْ لَهُ مظلمة لأخيه من عرضه أو شي فَلْيُحْلِلْهُ مِنْهُ الْيَوْمَ قَبْلَ أَلَّا يَكُونَ دِينَارٌ وَلَا دِرْهَمٌ إِنْ كَانَ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ أُخِذَ مِنْهُ بِقَدْرِ مَظْلَمَتِهِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِ صَاحِبِهِ فَحُمِلَ عَلَيْهِ**»(١)، قَالَ الْمُهَلَّبُ فَقَوْلُهُ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَخَذَ مِنْهُ بِقَدْرِ مَظْلِمَتِهِ**» يَجِبُ أَنْ تَكُونَ الْمَظْلِمَةُ مَعْلُومَةَ الْقَدْرِ مُشَارًا إِلَيْهَا مُبَيَّنَةً، وَاللهُ أَعْلَمُ.

[٩٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: أَخَّرَ دُعَاءَهُ إِلَىٰ السَّحَرِ، وعَنْ طَاوُسٍ قَالَ: سَحَرُ لَيْلَةِ الْجُمْعَةِ، وَوَافَقَ

---

(١) البخاري (٢٤٤٩).

ذَلِكَ لَيْلَةَ عَاشُورَاءَ، عَنْ مُحَارِبِ بْنِ دِثَارٍ عَنْ عَمِّهِ قَالَ: كُنْتُ آتِي الْمَسْجِدَ فِي السَّحَرِ فَأَمُرُّ بِدَارِ ابْنِ مَسْعُودٍ فَأَسْمَعُهُ يَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنَّكَ أَمَرْتَنِي فَأَطَعْتُ، وَدَعَوْتَنِي فَأَجَبْتُ، وَهَذَا سَحَرٌ فَاغْفِرْ لِي، فَلَقِيتُ ابْنَ مَسْعُودٍ فَقُلْتُ: كَلِمَاتٌ أَسْمَعُكَ تَقُولُهُنَّ فِي السَّحَرِ فَقَالَ: إِنَّ يَعْقُوبَ أَخَّرَ بَنِيهِ إِلَىٰ السَّحَرِ بِقَوْلِهِ:﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾.

[٩٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ﴾ أي: ضم إليه، ﴿أَبَوَيْهِ﴾ قَالَ أَكْثَرُ الْمُفَسِّرِينَ: هُوَ أَبُوهُ وَخَالَتُهُ لِيَا؟ وَكَانَتْ أُمُّهُ رَاحِيلُ قَدْ مَاتَتْ فِي نِفَاسِ بِنْيَامِينَ. وقيل: هُوَ أَبُوهُ وَأُمُّهُ وَكَانَتْ حَيَّةً قال ابن كثير : يُخْبِرُ تَعَالَىٰ عَنْ وُرُودِ يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقُدُومِهِ بِلَادَ مِصْرَ، لَمَّا كَانَ يوسف قد تقدم لإخوته أَنْ يَأْتُوهُ بِأَهْلِهِمْ أَجْمَعِينَ، فَتُحُمِّلُوا عَنْ آخِرِهِمْ، وَتَرَحَّلُوا مِنْ بِلَادِ كَنْعَانَ قَاصِدِينَ بِلَادَ مِصْرَ، فَلَمَّا أُخْبِرَ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِاقْتِرَابِهِمْ خَرَجَ لِتَلَقِّيهِمْ، وَأَمَرَ الْمَلِكُ أُمَرَاءَهُ وَأَكَابِرَ النَّاسِ بِالْخُرُوجِ مَعَ يُوسُفَ لِتَلَقِّي نَبِيِّ اللهِ - يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَيُقَالُ إِنَّ الْمَلِكَ خَرَجَ أَيْضًا لِتَلَقِّيهِ وهو الأشبه، ﴿وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللهُ آمِنِينَ﴾ قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: أَيْ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنْ شَاءَ اللهُ، وَقِيلَ: إِنَّمَا قَالَ: ﴿ إِنْ شاءَ اللهُ﴾ تَبَرُّكًا وَجَزْمًا، ﴿ آمِنِينَ﴾ مِنَ الْقَحْطِ، أَوْ مِنْ فِرْعَوْنَ، وَكَانُوا لَا يَدْخُلُونَهَا إِلَّا بِجَوَازِهِ.

[١٠٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَىٰ الْعَرْشِ﴾ أي: علىٰ السرير أجلسمها، قد يُعَبَّرُ بِالْعَرْشِ عَنِ الْمُلْكِ وَالْمَلِكِ نَفْسِهِ، وَالرَّفْعُ هُوَ النَّقْلُ إِلَىٰ

الْعُلُوِّ. ﴿وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾ يعني: يعقوب وخالته وإخوانه وَكَانَتْ تَحِيَّةُ النَّاسِ يَوْمَئِذٍ السُّجُودَ ولم يرد ، بِالسُّجُودِ وَضْعَ الْجِبَاهِ عَلَىٰ الْأَرْضِ، وَإِنَّمَا هُوَ الِانْحِنَاءُ وَالتَّوَاضُعُ، وَقِيلَ: وَضَعُوا الْجِبَاهَ عَلَىٰ الْأَرْضِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَىٰ طَرِيقِ التَّحِيَّةِ وَالتَّعْظِيمِ، لَا عَلَىٰ طَرِيقِ الْعِبَادَةِ. وَقَدْ كَانَ هَذَا سَائِغًا فِي شَرَائِعِهِمْ إِذَا سَلَّمُوا عَلَىٰ الْكَبِيرِ يَسْجُدُونَ لَهُ، وَلَمْ يَزَلْ هَذَا جَائِزًا مِنْ لَدُنْ آدَمَ إِلَىٰ شَرِيعَةِ عِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَحُرِّمَ هَذَا فِي هَذِهِ الْمِلَّةِ، وَجُعِلَ السُّجُودُ مُخْتَصًّا بِجَنَابِ الرَّبِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، هَذَا مَضْمُونُ قَوْلِ قَتَادَةَ وَغَيْرِهِ، وَفِي الحديث: «**لَوْ كُنْتُ آمِرًا أَحَدًا أَنْ يَسْجُدَ لِأَحَدٍ لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها لعظم حقه عليها**»[1] وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ: أَنَّ سَلْمَانَ لَقِيَ النَّبِيَّ صلىٰ الله عليه وسلم في بعض الْمَدِينَةِ، وَكَانَ سَلْمَانُ حَدِيثَ عَهْدٍ بِالْإِسْلَامِ، فَسَجَدَ لِلنَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: «**لَا تَسْجُدْ لِي يَا سَلْمَانُ وَاسْجُدْ لِلْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ**»[2] ، ﴿وَقَالَ﴾ يُوسُفُ عِنْدَ ذَلِكَ : ﴿يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ أي التي كان قصها علىٰ أبيه من قبل،وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ [يوسف : ٤] ، قوله: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي﴾ رَبِّي، أَيْ: أَنْعَمَ عليَّ، ﴿إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ﴾ وَلَمْ يَقُلْ مِنَ الْجُبِّ مَعَ كَوْنِهِ أَشَدَّ بَلَاءً مِنَ السِّجْنِ اسْتِعْمَالًا لِلْكَرَمِ لِكَيْلَا يَخْجَلَ إِخْوَتُهُ بعد ما قَالَ لَهُمْ: ﴿لَا

---

(١) الترمذي (١١٥٩) .

(٢) أحمد (٢٣٧٣٥) .

تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾ وَلِأَنَّ نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْهِ فِي إِخْرَاجِهِ مِنَ السِّجْنِ أَعْظَمُ، لِأَنَّهُ بَعْدَ الْخُرُوجِ مِنَ الْجُبِّ صَارَ إِلَىٰ الْعُبُودِيَّةِ وَالرِّقِّ، وَبَعْدَ الْخُرُوجِ مِنَ السِّجْنِ صَارَ إِلَىٰ الْمُلْكِ، وَلِأَنَّ وُقُوعَهُ فِي الْبِئْرِ كَانَ لحسد إخوته ، وفي السجن كان مُكَافَأَةٌ مِنَ اللهِ تَعَالَىٰ لِزَلَّةٍ كَانَتْ مِنْهُ ، ﴿وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ﴾ وَالْبَدْوُ بَسِيطٌ مِنَ الْأَرْضِ يَسْكُنُهُ أَهْلُ الْمَوَاشِي بِمَاشِيَتِهِمْ، وَكَانُوا أَهْلَ بادية ومواشي، يُقَالُ بَدَا يَبْدُو إِذَا صَارَ إِلَىٰ الْبَادِيَةِ ، يروى أَنَّ مَسْكَنَ يَعْقُوبَ كَانَ بِأَرْضِ كَنْعَانَ، وَكَانُوا أَهْلُ مَوَاشٍ وَبَرِّيَّةٍ، وَقِيلَ: كَانَ يَعْقُوبُ تَحَوَّلَ إِلَىٰ بَادِيَةٍ وَسَكَنَهَا، وَأَنَّ اللهَ لَمْ يَبْعَثْ نَبِيًّا مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ، قوله : ﴿مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ﴾ أَفْسَدَ، وَالنَّزْغُ النَّخْسُ وَالْغَرْزُ ، جاء من نَزْغِ الرَّاكِبِ الدَّابَّةَ وَهُوَ نَخْسُهَا لتسير فيه ، ﴿الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾ بالحسد والبغض، وَقِيلَ: أَفْسَدَ مَا بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي، أَحَالَ ذَنْبَهُمْ عَلَىٰ الشَّيْطَانِ تَكَرُّمًا مِنْهُ. ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ﴾ أَيْ: ذُو لُطْفٍ، وَقَالَ الْخَطَّابِيُّ: اللَّطِيفُ هُوَ الْبَرُّ بِعِبَادِهِ الَّذِي يَلْطُفُ بِهِمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ، وَيُسَبِّبُ لَهُمْ مَصَالِحَهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُونَ، ال قَتَادَةُ، لَطَفَ بِيُوسُفَ بِإِخْرَاجِهِ مِنَ السِّجْنِ، وَجَاءَهُ بِأَهْلِهِ مِنَ الْبَدْوِ، وَنَزَعَ عَنْ قَلْبِهِ نَزْغَ الشَّيْطَانِ ، ﴿لِمَا يَشَاءُ﴾ وقيل: معناه لمن يَشَاءُ ، وَحَقِيقَةُ اللَّطِيفِ الَّذِي يُوصِلُ الْإِحْسَانَ إِلَىٰ غَيْرِهِ بِالرِّفْقِ ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ فَلَمَّا جَمَعَ اللهُ تَعَالَىٰ لِيُوسُفَ شَمْلَهُ عَلَىٰ أَنَّ نَعِيمَ الدُّنْيَا لَا يَدُومُ سَأَلَ اللهَ تَعَالَىٰ حُسْنَ الْعَاقِبَةِ فَقَالَ:

[١٠١] : ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ﴾ يَعْنِي مُلْكَ مِصْرَ، وَالْمُلْكُ: اتِّسَاعُ الْمَقْدُورِ لِمَنْ لَهُ السِّيَاسَةُ وَالتَّدْبِيرُ ، ﴿وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ يعني: تعبير الرؤيا. ﴿فَاطِرَ﴾ أي: يا فاطر، ﴿السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: خالقهما ﴿أَنْتَ وَلِيِّي﴾ أَيْ: مُعِينِي وَمُتَوَلِّي أَمْرِي، ﴿فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا﴾ يَقُولُ اقْبِضْنِي إِلَيْكَ مُسْلِمًا، لَ قَتَادَةُ: لَمْ يَتَمَنَّ الْمَوْتَ أَحَدٌ، نَبِيٌّ وَلَا غَيْرُهُ إِلَّا يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، حِينَ تَكَامَلَتْ عَلَيْهِ النِّعَمُ وَثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَنَسٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « **لَا يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمُ الْمَوْتَ لِضُرٍّ نَزَلَ بِهِ ، فَإِنْ كَانَ لَا بُدَّ مُتَمَنِّيًا فَلْيَقُلِ : اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مَا كَانَتِ الْحَيَاةُ خيراً لي ، وتوفقني إِذَا كَانَتِ الْوَفَاةُ خَيْرًا لِي**»[١] ، وَقَالَ سَهْلُ بْنُ عَبْدِ اللهِ التُّسْتَرِيُّ: لَا يَتَمَنَّىٰ الْمَوْتَ إِلَّا ثَلَاثٌ: رَجُلٌ جَاهِلٌ بِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ، أَوْ رَجُلٌ يَفِرُّ مِنْ أَقْدَارِ اللهِ تَعَالَىٰ عَلَيْهِ، أَوْ مُشْتَاقٌ مُحِبٌّ لِلِقَاءِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ ، ﴿وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ يريد بآبائي النبيين.

[١٠٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ذَلِكَ﴾ الَّذِي ذَكَرْتُ ﴿مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ﴾ أَيْ: مَا كُنْتَ يَا مُحَمَّدُ عِنْدَ أَوْلَادِ يَعْقُوبَ، ﴿إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ﴾ أَيْ: عَزَمُوا عَلَىٰ إِلْقَاءِ يُوسُفَ فِي الجب، ﴿وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ .

---

(١) البخاري (٥٦٧١) ومسلم (٢٦٨٠) .

[١٠٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ﴾ يَا مُحَمَّدُ، عليه الصلاة والسلام ﴿وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ عَلَىٰ إِيمَانِهِمْ ، وَرُوِيَ أَنَّ الْيَهُودَ وَقُرَيْشًا سَأَلُوا رَسُولَ اللهِ - صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عَنْ قِصَّةِ يُوسُفَ، فَلَمَّا أَخْبَرَهُمْ عَلَىٰ مُوَافَقَةِ التَّوْرَاةِ لَمْ يُسْلِمُوا، فَحَزِنَ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِذَلِكَ، فَقِيلَ لَهُ: إِنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ وإن حرصت علىٰ إيمانهم.

[١٠٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ﴾ أَيْ: عَلَىٰ تَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ وَالدُّعَاءِ إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ، ﴿مِنْ أَجْرٍ﴾ جعل وجزاء، أَيْ لَا يَسُوءُكَ عَدَمُ إِيمَانِهِمْ فَلَسْتَ تَبْتَغِي أَنْ يَكُونَ إِيمَانُهُمْ جَزَاءً عَلَىٰ التَّبْلِيغِ بَلْ إِيمَانُهُمْ لِفَائِدَتِهِمْ، كَقَوْلِهِ: قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ ﴿إِنْ هُوَ﴾ مَا هُوَ يَعْنِي الْقُرْآنَ، ﴿إِلَّا ذِكْرٌ﴾ عظة وتذكير ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾ .

[١٠٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَكَأَيِّنْ﴾ وكم، قَالَ الْخَلِيلُ وَسِيبَوَيْهِ: هِيَ أَيُّ دَخَلَتْ. عَلَيْهَا كَافُ التَّشْبِيهِ وَبُنِيَتْ مَعَهَا فَصَارَ فِي الْكَلَامِ مَعْنَىٰ وَكَمْ وَصُوِّرَتْ فِي الْمُصْحَفِ نُونًا، لِأَنَّهَا كَلِمَةٌ ،﴿مِنْ آيَةٍ﴾ عِبْرَةٍ وَدَلَالَةٍ، ﴿فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ لَا يَتَفَكَّرُونَ فِيهَا وَلَا يَعْتَبِرُونَ بِهَا.

[١٠٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ فَكَانَ مِنْ إِيمَانِهِمْ إِذَا سُئِلُوا: مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ؟ قَالُوا: اللهُ، وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ: مَنْ يُنْزِلُ الْقَطْرَ؟ قَالُوا: اللهُ، ثُمَّ مَعَ ذَلِكَ يَعْبُدُونَ الْأَصْنَامَ وَيُشْرِكُونَ ، وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ: إِنَّهَا نَزَلَتْ فِي تَلْبِيَةِ الْمُشْرِكِينَ مِنَ الْعَرَبِ كَانُوا يَقُولُونَ فِي

تَلْبِيَتِهِمْ: لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ إِلَّا شَرِيكٌ هُوَ لَكَ تَمْلِكُهُ وَمَا مَلَكَ. وَقَالَ عَطَاءٌ: هَذَا فِي الدُّعَاءِ وَذَلِكَ أَنَّ الْكُفَّارَ نَسُوا رَبَّهُمْ فِي الرَّخَاءِ، فَإِذَا أَصَابَهُمُ الْبَلَاءُ أَخْلَصُوا فِي الدُّعَاءِ.

[١٠٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللهِ﴾ قال ابن عباس: عُقُوبَةٌ مُجَلِّلَةٌ، ويعني عامة تشمل الجميع، وقَالَ مُجَاهِدٌ: عَذَابٌ يَغْشَاهُمْ، نَظِيرُهُ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥٥] ، قَالَ قَتَادَةُ: وَقِيعَةٌ ، وَقَالَ الضَّحَّاكُ: يَعْنِي الصَّوَاعِقَ وَالْقَوَارِعَ، وَالْغَشْيُ وَالْغَشَيَانُ: الْإِحَاطَةُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ وَإِذا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ وَالْغَاشِيَةُ الْحَادِثَةُ الَّتِي تُحِيطُ بِالنَّاسِ ، وَالْعَرَبُ يُؤَنِّثُونَ هَذِهِ الْحَوَادِثَ مِثْلَ الطَّامَّةِ وَالصَّاخَّةِ ﴿أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً﴾ فجأة، قَالَ النَّحَّاسُ: وَمَعْنَىٰ (بَغْتَةً) إِصَابَةٌ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَتَوَقَّعْ ، ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بِقِيَامِهَا، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: تَصِيحُ الصَّيْحَةُ بِالنَّاسِ وَهُمْ فِي أَسْوَاقِهِمْ وَمَوَاضِعِهِمْ.

[١٠٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ﴾ يا محمد، ﴿هَذِهِ﴾ الدَّعْوَةُ الَّتِي أَدْعُو إِلَيْهَا وَالطَّرِيقَةُ التي أنا عليها، ﴿سَبِيلِي﴾ سُنَّتِي وَمِنْهَاجِي، وَقَالَ مُقَاتِلٌ: دِينِي، نَظِيرُهُ قَوْلُهُ: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ [النَّحْلِ: ١٢٥] أَيْ: إِلَىٰ دِينِهِ ، ﴿أَدْعُو إِلَىٰ اللهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ عَلَىٰ يَقِينٍ. وَالْبَصِيرَةُ: هِيَ الْمَعْرِفَةُ التي يميز بِهَا بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَالْبَصِيرُ: صَاحِبُ الْحُجَّةِ لِأَنَّهُ بِهَا صَارَ بَصِيرًا بِالْحَقِيقَةِ.﴿أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ أَيْ: وَمَنْ آمَنَ بِي وَصَدَّقَنِي أَيْضًا يَدْعُو إِلَىٰ اللهِ. هَذَا قول الكلبي وابن

زيد. قال: حَقٌّ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَهُ أَنْ يَدْعُوَ إِلَىٰ مَا دَعَا إِلَيْهِ، يذكرون بِالْقُرْآنِ. وَقِيلَ: تَمَّ الْكَلَامُ عِنْدَ قوله: ﴿أَدْعُو إِلَىٰ اللهِ﴾ ثُمَّ اسْتَأْنَفَ: ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ يَقُولُ: إِنِّي عَلَىٰ بَصِيرَةٍ مِنْ رَبِّي وَكُلُّ مَنِ اتَّبَعَنِي، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَعْنِي أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانُوا عَلَىٰ أَحْسَنِ طَرِيقَةٍ وَأَقْصَدِ هِدَايَةٍ، مَعْدِنَ الْعِلْمِ وَكَنْزَ الْإِيمَانِ وَجُنْدَ الرَّحْمَنِ، قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ: مَنْ كَانَ مُسْتَنًّا فَلْيَسْتَنَّ بِمَنْ قَدْ مَاتَ، فَإِنَّ الْحَيَّ لَا تُؤْمَنُ عَلَيْهِ الْفِتْنَةُ، أُولَئِكَ أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وسلم كانوا أفضل هذه الأمة، أبرها قُلُوبًا وَأَعْمَقَهَا عِلْمًا وَأَقَلَّهَا تَكَلُّفًا، اختارهم الله لصحبة نبيه، لإقامة دِينِهِ، فَاعْرِفُوا لَهُمْ فَضْلَهُمْ، وَاتَّبِعُوهُمْ علىٰ آثَارِهِمْ وَتَمَسَّكُوا بِمَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ أَخْلَاقِهِمْ وَسِيَرِهِمْ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا عَلَىٰ الْهُدَىٰ الْمُسْتَقِيمِ، قَوْلُهُ: ﴿وَسُبْحَانَ اللهِ﴾ أَيْ: وَقُلْ سُبْحَانَ اللهِ تَنْزِيهًا لَهُ عَمَّا أَشْرَكُوا بِهِ، ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ الذين يتخذون من دون الله أندادا.

[١٠٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ﴾ يا محمد، ﴿إِلَّا رِجَالًا﴾ لا ملائكة، هذا رد علىٰ القائلين: ﴿لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ [الأنعام: ٨] أَيْ أَرْسَلْنَا رِجَالًا لَيْسَ فِيهِمْ امْرَأَةٌ وَلَا جِنِّيٌّ وَلَا مَلَكٌ، ﴿نُوحِي إِلَيْهِمْ﴾ في الحديث عن أم عائشة رضي الله عنها قالت: أَنَّ الْحَارِثَ بْنَ هِشَامٍ سَأَلَ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ كَيْفَ يَأْتِيكَ الْوَحْيُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَحْيَانًا يَأْتِينِي مِثْلَ صَلْصَلَةِ الْجَرَسِ، وَهُوَ أَشَدُّهُ عَلَيَّ فَيَفْصِمُ عَنِّي وقد وَعَيْتُ مَا قَالَ، وَأَحْيَانًا يَأْتِينِي المَلك رَجُلًا، فَيُكَلِّمُنِي فَأَعِي مَا يَقُولُ**»، قَالَتْ

عائشة رضي الله عنها: فَلَقَدْ رَأَيْتُهُ يَنْزِلُ عَلَيْهِ الْوَحْيُ فِي الْيَوْمِ الشَّدِيدِ الْبَرْدِ فَيَفْصِمُ عَنْهُ، وَإِنَّ جبينه صلىٰ الله عليه وسلم ليتفصد عرقاً[1]، قوله: ﴿مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ﴾ يَعْنِي: مِنْ أَهْلِ الْأَمْصَارِ دُونَ أهل الْبَوَادِي لِأَنَّ أَهْلَ الْأَمْصَارِ أَعْقَلُ من أهل البوادي لِغِلَظِهِمْ وَجَفَائِهِمْ، وقَالَ قَتَادَةُ: ﴿ مِنْ أَهْلِ الْقُرىٰ ﴾ أَيْ مِنْ أَهْلِ الْأَمْصَارِ لِأَنَّهُمْ أَعْلَمُ وَأَحْلَمُ، ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ يَعْنِي: هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ الْمُكَذِّبِينَ، ﴿فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ﴾ آخِرُ أَمْرِ، ﴿الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ يَعْنِي: الْأُمَمَ الْمُكَذِّبَةَ فَيَعْتَبِرُوا، ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ يَقُولُ جَلَّ ذِكْرُهُ: هَذَا فِعْلُنَا بِأَهْلِ وِلَايَتِنَا وَطَاعَتِنَا أَنْ نُنْجِيَهُمْ عِنْدَ نُزُولِ الْعَذَابِ، وَمَا فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لَهُمْ، فتَرَكَ ما ذكرنا اكتفاء بدلالة الكلام عليه. قوله: ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ﴾، قِيلَ: معناه ولدار الحال الآخرة خير، وَقِيلَ: هُوَ إِضَافَةُ الشَّيْءِ إِلَىٰ نَفْسِهِ، كَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ﴾ [الْوَاقِعَةِ: ٩٥] وَكَقَوْلِهِمْ: يَوْمُ الْخَمِيسِ وَرَبِيعُ الْآخَرِ ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ فَتُؤْمِنُونَ.

[١١٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ﴾ قال ابن عباس: قَالَ: لَمَّا أَيِسَتِ الرُّسُلُ أَنْ يَسْتَجِيبَ لَهُمْ قومهم، ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا﴾ أَيْ أَيْقَنُوا أَنَّ قَوْمَهُمْ كَذَّبُوهُمْ، ومَعْنَاهُ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ مِنْ إِيمَانِ قَوْمِهِمْ وَظَنُّوا أَيْ: ظَنَّ قَوْمُهُمْ أَنَّ الرُّسُلَ قَدْ كذبتهم في وعيد العقاب، وَرُوِيَ عَنِ ابْنِ

(١) البخاري (٢) ومسلم (٢٣٣٣).

عَبَّاسٍ: أَنَّ معناه ضعف قلوبهم، يعني: وظنت الرسل أنهم قد كَذَبُوا فِيمَا وَعَدُوا مِنَ النَّصْرِ، وَكَانُوا بَشَرًا فَضَعُفُوا وَيَئِسُوا وَظَنُّوا أنهم قد أَخْلَفُوا، ثُمَّ تَلَا: ﴿حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللهِ﴾ [البقرة: ٢١٤] ﴿جَاءَهُمْ﴾ أَيْ: جَاءَ الرُّسُلَ نَصْرُنَا وروي عن سَعِيدَ بن جبير قال: أخبرنا أَبَا عَبْدِ اللهِ كَيْفَ هَذَا الْحَرْفُ: فَإِنِّي إذا أتيت عليه تمنيت أن لَا أَقْرَأُ هَذِهِ السُّورَةَ: ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ﴾ قَالَ: نَعَمْ، حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ مِنْ قَوْمِهِمْ أَنْ يصدقوهم، وظن المرسل إليهم أن الرسل قد كُذِّبُوا، فَقَالَ الضَّحَّاكُ بْنُ مُزَاحِمٍ: مَا رَأَيْتُ كَالْيَوْمِ قَطُّ رَجُلًا يُدْعَىٰ إِلَىٰ عِلْمٍ فَيَتَلَكَّأُ، لو رحلت إلىٰ اليمن في هذه كان قليلاً ﴿فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ﴾ وَهُمُ الْمُؤْمِنُونَ المطيعون، ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا﴾ أي عذابنا، ﴿عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي: الْمُشْرِكِينَ.

[١١١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ﴾ أَيْ فِي قِصَّةِ يُوسُفَ وَأَبِيهِ وَإِخْوَتِهِ، ﴿عِبْرَةٌ﴾ [أَيْ فِكْرَةٌ وَتَذْكِرَةٌ وَعِظَةٌ. ﴿لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ﴾ يعني: القرآن ﴿حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ﴾ أَيْ مَا كَانَ الْقُرْآنُ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ، ﴿وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي﴾ أَيْ وَلَكِنْ كَانَ تَصْدِيقَ الَّذِي ﴿بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ مِنَ التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَسَائِرِ كُتُبِ اللهِ تَعَالَىٰ، ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ مِمَّا يَحْتَاجُ الْعِبَادُ إِلَيْهِ مِنَ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ وَالْأَمْرِ وَالنَّهْيِ وَالشَّرَائِعِ وَالْأَحْكَامِ، ﴿هُدًىٰ وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ تَهْتَدِي بِهِ قُلُوبُهُمْ مِنَ الْغَيِّ إِلَىٰ الرَّشَادِ، ومن الضلال إِلَىٰ السَّدَادِ، وَيَبْتَغُونَ بِهِ

الرَّحْمَةَ مِنْ رَبِّ الْعِبَادِ، فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْمَعَادِ، فَنَسْأَلُ اللهَ الْعَظِيمَ أَنْ يَجْعَلَنَا مِنْهُمْ فِي الدنيا والآخرة.

تَمَّ تَفْسِيرُ سُورَةِ يُوسُفَ بِعَوْنِ اللهِ وَتَوْفِيقِهِ، وَوَاسِعِ مَنِّهِ وَكَرَمِهِ،
فَلَهُ الْحَمْدُ أَوَّلاً وَآخِراً.

سُورَةُ الرَّعْدِ

هَكَذَا سُمِّيَتْ مِنْ عَهْدِ السَّلَفِ، وَذَلِكَ يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهَا مُسَمَّاةٌ بِذَلِكَ مِنْ عَهْدِ النَّبِيءِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذْ لَمْ يَخْتَلِفُوا فِي اسْمِهَا، وَإِنَّمَا سُمِّيَتْ بِإِضَافَتِهَا إِلَىٰ الرَّعْدِ لِوُرُودِ ذِكْرِ الرَّعْدِ فِيهَا بِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ﴾ [الرَّعْد: ١٣] فَسُمِّيَتْ بِالرَّعْدِ لِأَنَّ الرَّعْدَ لَمْ يُذْكَرْ فِي سُورَةٍ مِثْلِ هَذِهِ السُّورَةِ، فَإِنَّ هَذِهِ السُّورَةَ مَكِّيَّةٌ كُلُّهَا أَوْ مُعْظَمُهَا.

[١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿المر﴾ هُوَ كَمَا قِيلَ هِيَ شَأْنُ الْحُرُوفِ الْمُقَطَّعَةِ أَوَائِلَ السُّوَرِ، وَالرَّاجِحُ أَنَّ ذِكْرَهَا مِنْ بَابِ الْإِعْجَازِ وَالْبَيَانِ، لِيَتَجَلَّىٰ عَظَمَةُ مَا بَعْدَهَا مِنَ التَّنْزِيلِ ، قوله : ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ﴾ يَعْنِي: تِلْكَ الْأَخْبَارُ الَّتِي قَصَصْتُهَا عليك آيات التوراة والإنجيل والكتاب المتقدمة، ﴿وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ يَعْنِي: وَهَذَا الْقُرْآنُ الَّذِي أُنْزِلَ إليك ﴿مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ﴾ لَا كَمَا يَقُولُ الْمُشْرِكُونَ: إِنَّكَ تَأْتِي بِهِ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِكَ، فَاعْتَصِمْ بِهِ، وَاعْمَلْ بِمَا فِيهِ ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَرَادَ بِالْكِتَابِ الْقُرْآنَ، ثُمَّ قَالَ: وَهَذَا الْقُرْآنُ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أَيْ مَعَ هَذَا الْبَيَانِ وَالْجَلَاءِ وَالْوُضُوحِ لَا يُؤْمِنُ

أَكْثَرُهُمْ لِمَا فِيهِمْ مِنَ الشِّقَاقِ، وَالْعِنَادِ، والنفاق، قَالَ مُقَاتِلٌ: نَزَلَتْ حِينَ قَالَ الْمُشْرِكُونَ: إِنَّ مُحَمَّدًا أَتَىٰ بِالْقُرْآنِ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِهِ. فَرَدَّ قَوْلَهُمْ ثُمَّ بَيَّنَ دَلَائِلَ رُبُوبِيَّتِهِ، فَقَالَ عَزَّ مَنْ قَائِلٍ:

[٢] : ﴿اللهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ يَعْنِي: السَّوَارِيَ وَاحِدُهَا عَمُودٌ، والعماد: مَا تُقَامُ عَلَيْهِ الْقُبَّةُ وَالْبَيْتُ، قال قتادة: والآية خبر من الله تعالىٰ عن عظيم قدرته وكمال سلطانه، وأن السماوات قامت بأمره وبإذنه دون أعمدة.﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَىٰ الْعَرْشِ﴾ عَلَا عَلَيْهِ، وفي الحديث عن أَبِي ذَرٍّ الْغِفَارِيِّ أَنَّهُ سَأَلَ النَّبِيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الْكُرْسِيِّ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بيده ما السموات السَّبْعُ وَالْأَرْضُونَ السَّبْعُ عِنْدَ الْكُرْسِيِّ إِلَّا كَحَلْقَةٍ مُلْقَاةٍ بِأَرْضٍ فَلَاةٍ، وَإِنَّ فَضْلَ الْعَرْشِ عَلَىٰ الكرسي كفضل الفلاة علىٰ تلك الحلقة**»(١)، ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ أَيْ ذَلَّلَهُمَا لِمَنَافِعِ خَلْقِهِ وَمَصَالِحِ عِبَادِهِ، وَكُلُّ مَخْلُوقٍ مُذَلَّلٌ لِلْخَالِقِ، ﴿كُلٌّ يَجْرِي﴾ أَيْ: يَجْرِيَانِ عَلَىٰ مَا يُرِيدُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ، ﴿لِأَجَلٍ مُسَمًّىٰ﴾ أَيْ: إِلَىٰ وَقْتٍ مَعْلُومٍ وَهُوَ فَنَاءُ الدُّنْيَا، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَرَادَ بالأجل المسمىٰ درجاتهما ومنازلها التي ينتهيان إليها لا يجاوز انها، وَقِيلَ: مَعْنَىٰ الْأَجَلِ الْمُسَمَّىٰ أَنَّ الْقَمَرَ يَقْطَعُ فَلَكَهُ فِي شَهْرٍ،

(١) ابن حبان (٣٦١).

وَالشَّمْسُ فِي سَنَةٍ، ﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ﴾ يقضيه وحده، ﴿يُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ يُبَيِّنُ الدَّلَالَاتِ، ﴿لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ لِكَيْ تُوقِنُوا بِوَعْدِهِ وَتُصَدِّقُوهُ.

[٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ﴾ لَمَّا بَيَّنَ آيَاتِ السَّمَاوَاتِ بَيَّنَ آيَاتِ الْأَرْضِ، أَيْ بَسَطَ الْأَرْضَ طُولًا وَعَرْضًا، ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ أَيْ جِبَالًا ثَوَابِتَ، وَاحِدُهَا رَاسِيَةٌ، لِأَنَّ الْأَرْضَ تَرْسُو بِهَا، أَيْ تَثْبُتُ، وَالْإِرْسَاءُ الثُّبُوتُ، ﴿وَأَنْهَاراً﴾ أَيْ مِيَاهًا جَارِيَةً فِي الْأَرْضِ، فِيهَا مَنَافِعُ الْخَلْقِ، ﴿وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ أَيْ: صِنْفَيْنِ اثْنَيْنِ وَقِيلَ: مَعْنَىٰ ﴿زَوْجَيْنِ﴾ نَوْعَانِ، كَالْحُلْوِ وَالْحَامِضِ، وَالرَّطْبِ وَالْيَابِسِ، وَالْأَبْيَضِ وَالْأَسْوَدِ، وَالصَّغِيرِ وَالْكَبِيرِ، ﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ﴾ أَيْ: يُلْبِسُ النَّهَارَ بِظُلْمَةِ اللَّيْلِ وَيُلْبِسُ اللَّيْلَ بِضَوْءِ النَّهَارِ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فَيَسْتَدِلُّونَ، وَالتَّفَكُّرُ تَصَرُّفُ الْقَلْبِ فِي طَلَبِ مَعَانِي الْأَشْيَاءِ.

[٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ﴾ مُتَقَارِبَاتٌ يُقَرَّبُ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَهِيَ مُخْتَلِفَةٌ هَذِهِ طَيِّبَةٌ تُنْبِتُ وَهَذِهِ سَبِخَةٌ لَا تُنْبِتُ، وَهَذِهِ قَلِيلَةُ الرِّيعِ وَهَذِهِ كَثِيرَةُ الرِّيعِ، قال ابن عاشور : وَإِنَّمَا وُصِفَتْ بِمُتَجَاوِرَاتٍ لِأَنَّ اخْتِلَافَ الْأَلْوَانِ والمنابت مَعَ التجاور أَشَدُّ دَلَالَةً عَلَىٰ الْقُدْرَةِ الْعَظِيمَةِ، فَمَعْنَىٰ قِطَعٌ مُتَجاوِراتٌ بِقَاعٌ مُخْتَلِفَةٌ مَعَ كَوْنِهَا مُتَجَاوِرَةً مُتَلَاصِقَةً ، ﴿وَجَنَّاتٌ﴾ أي: بَسَاتِينُ ﴿مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ﴾ الصنوان جَمْعُ صِنْوٍ وَهُوَ النَّخَلَاتُ يَجْمَعُهُنَّ أصل واحد، ﴿وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾ هِيَ النَّخْلَةُ الْمُنْفَرِدَةُ بِأَصْلِهَا، وَقَالَ أَهْلُ

التَّفْسِيرِ: صِنْوَانٌ مُجْتَمِعٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ مُتَفَرِّقٌ ، قال النَّحَّاسُ: وَكَذَلِكَ هُوَ فِي اللُّغَةِ، يُقَالُ لِلنَّخْلَةِ إِذَا كَانَتْ فِيهَا نَخْلَةٌ أُخْرَىٰ أَوْ أَكْثَرُ صِنْوَانٌ، وَالصِّنْوُ الْمِثْلُ، وَمِنْهُ قَوْلُ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « **عَمُّ الرَّجُلِ صِنْوُ أَبِيهِ**»[1] ، ﴿يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ﴾ أَيْ: يُسْقَىٰ ذَلِكَ كُلُّهُ بِمَاءٍ واحد كَصَالِحِ بَنِي آدَمَ وَخَبِيثِهِمْ، أَبُوهُمْ وَاحِدٌ، في حديث أَبِي مُوسَىٰ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: « **إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ خَلَقَ آدَمَ مِنْ قَبْضَةٍ قَبَضَهَا مِنْ جَمِيعِ الْأَرْضِ، فَجَاءَ بَنُو آدَمَ عَلَىٰ قَدْرِ الْأَرْضِ، جَاءَ مِنْهُمُ الْأَبْيَضُ وَالْأَحْمَرُ وَالْأَسْوَدُ وَبَيْنَ ذَلِكَ، وَالْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ ، وَالسَّهْلُ وَالْحَزْنُ وَبَيْنَ ذَلِكَ** »[2] ، وَالْمَاءُ جِسْمٌ رَقِيقٌ مَائِعٌ بِهِ حَيَاةُ كَلِّ نَامٍ، ﴿وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ﴾ فِي الثَّمَرِ وَالطَّعْمِ، قال الفارسي: كجيد التمر وَالدَّقَلُ وَالْحُلْوُ وَالْحَامِضُ ، قَالَ مُجَاهِدٌ: كَمَثَلِ بَنِي آدَمَ صَالِحِهِمْ وَخَبِيثِهِمْ وَأَبُوهُمْ وَاحِدٌ ، قَالَ الْحَسَنُ البصري: هَذَا مَثَلٌ ضَرَبَهُ اللهُ تَعَالَىٰ لِقُلُوبِ بني آدم، كَانَتِ الْأَرْضُ طِينَةً وَاحِدَةً فِي يَدِ الرَّحْمَنِ عَزَّ وَجَلَّ فَسَطَحَهَا فَصَارَتْ قِطَعًا مُتَجَاوِرَةً فَيُنْزِلُ عَلَيْهَا الْمَطَرَ مِنَ السَّمَاءِ فَتُخْرِجُ هَذِهِ زَهْرَتَهَا وَشَجَرَهَا وَثَمَرَهَا وَنَبَاتَهَا وَتُخْرِجُ هَذِهِ سَبَخَهَا وَمِلْحَهَا وَخَبِيثَهَا، وَكُلٌّ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ، كَذَلِكَ النَّاسُ خُلِقُوا مِنْ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ تَذْكِرَةً فَتَرِقُّ قُلُوبٌ فَتَخْشَعُ،

---

(١) مسلم (٩٨٣) .

(٢) الترمذي (٢٩٥٥) وأبو داود (٤٦٩٣) .

وَتَقْسُو قُلُوبٌ فَتَلْهُو، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ الَّذِي ذَكَرْتُ ﴿لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أَيْ لَعَلَامَاتٍ لِمَنْ كَانَ لَهُ قلب يفهم عن الله تعالىٰ.

[٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ﴾ الْعَجَبُ تَغَيُّرُ النَّفْسِ بِرُؤْيَةِ الْمُسْتَبْعَدِ فِي الْعَادَةِ وَالْخِطَابُ لِرَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَمَعْنَاهُ إِنَّكَ إِنْ تَعْجَبْ مِنْ إِنْكَارِهِمُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ مَعَ إِقْرَارِهِمْ بِابْتِدَاءِ الخلق فَعَجَبٌ أَمْرُهُمْ، وَكَانَ الْمُشْرِكُونَ يُنْكِرُونَ الْبَعْثَ مَعَ إِقْرَارِهِمْ بِابْتِدَاءِ الْخَلْقِ مِنَ اللهِ تَعَالَىٰ، وَقَدْ تَقَرَّرَ فِي الْقُلُوبِ أَنَّ الْإِعَادَةَ أَهْوَنُ مِنَ الِابْتِدَاءِ، فَهَذَا مَوْضِعُ الْعَجَبِ، وَقِيلَ: مَعْنَاهُ وَإِنَّ تَعْجَبْ مِنْ تَكْذِيبِ الْمُشْرِكِينَ وَاتِّخَاذِهِمْ مَا لَا يَضُرُّ وَلَا يَنْفَعُ آلِهَةً يَعْبُدُونَهَا وَهُمْ قَدْ رَأَوْا مِنْ قُدْرَةِ اللهِ تَعَالَىٰ مَا ضَرَبَ لَهُمْ بِهِ الْأَمْثَالَ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ، أَيْ: فَتَعْجَبُ أَيْضًا مِنْ قَوْلِهِمْ، ﴿أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا﴾ بَعْدَ الْمَوْتِ، ﴿أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أَيْ: نُعَادُ خَلْقًا جَدِيدًا كَمَا كنا قبل الموت، وفي الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: « **يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: يَشْتُمُنِي ابْنُ آدَمَ، وَمَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَشْتُمَنِي، وَيُكَذِّبُنِي، وَمَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُكَذِّبَنِي، أَمَّا شَتْمُهُ إِيَّايَ قَوْلُهُ: إِنَّ لِي وَلَدًا، وَأَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ، قَوْلُهُ: لَنْ يُعِيدَنِي كَمَا بَدَأَنِي** »(١)، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ﴾ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَ (الْأَغْلالُ) جَمْعُ غُلٍّ، وَهُوَ طَوْقٌ تُشَدُّ بِهِ الْيَدُ إِلَىٰ الْعُنُقِ، أَيْ يُغَلُّونَ يَوْمَ

---

(١) البخاري (٤٩٧٤).

الْقِيَامَةِ، بِدَلِيلِ قَوْلِهِ: ﴿ إِذِ الْأَغْلالُ فِي أَعْناقِهِمْ﴾ [غافر : ٧١] ، قوله : ﴿وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

[٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾ الِاسْتِعْجَالُ طَلَبُ تَعْجِيلِ الْأَمْرِ قَبْلَ مجيء وقته، والسيئة هاهنا هِيَ الْعُقُوبَةُ وَالْحَسَنَةُ الْعَافِيَةُ، وَذَلِكَ أَنَّ مُشْرِكِي مَكَّةَ كَانُوا يَطْلُبُونَ الْعُقُوبَةَ بَدَلًا مِنَ الْعَافِيَةِ اسْتِهْزَاءً مِنْهُمْ يَقُولُونَ: اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أو ائتنا بعذاب أليم ، قَالَ قَتَادَةُ: طَلَبُوا الْعُقُوبَةَ قَبْلَ الْعَافِيَةِ، وَقَدْ حَكَمَ سُبْحَانَهُ بِتَأْخِيرِ الْعُقُوبَةِ عَنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، ﴿وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ﴾ العقوبات، أَيْ: مَضَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ فِي الْأُمَمِ الَّتِي عَصَتْ رَبَّهَا وَكَذَّبَتْ رُسُلَهَا الْعُقُوبَاتُ، وَالْمَثُلَاتُ جَمْعُ الْمَثُلَةِ بِفَتْحِ الْمِيمِ وَضَمِّ الثَّاءِ مِثْلُ صَدُقَةٍ وَصَدُقَاتٍ. وَالْمَثُلَاتُ وَهِيَ الْعُقُوبَةُ الشَّدِيدَةُ الَّتِي تَكُونُ مِثَالًا تُمَثَّلُ بِهِ الْعُقُوبَاتُ، ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ إِذَا أَصَرُّوا عَلَىٰ الْكُفْرِ. وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيِّبِ قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَوْلَا عَفْوُ اللهِ وَرَحْمَتُهُ وَتَجَاوُزُهُ لَمَا هَنَأَ أحد عَيْشٌ وَلَوْلَا عِقَابُهُ وَوَعِيدُهُ وَعَذَابُهُ لَاتَّكَلَ كُلُّ أحد**».

[٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ﴾ أَيْ: عَلَىٰ مُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ أَيْ: عَلَامَةٌ وَحُجَّةٌ عَلَىٰ نُبُوَّتِهِ، قَالَ اللهُ

تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ﴾ أَيْ إِنَّمَا عَلَيْكَ أَنْ تُبَلِّغَ رِسَالَةَ اللهِ الَّتِي أمرك بها،﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ أَيْ: لِكُلِّ قَوْمٍ نَبِيٌّ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ، وَقِيلَ: الْهَادِي اللهُ، أَيْ عَلَيْكَ الْإِنْذَارُ، وَاللهُ هَادِي كُلِّ قَوْمٍ إن أراد هدايتهم، وَقَالَ الْكَلْبِيُّ: دَاعٍ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ الْحَقِّ أَوْ إِلَىٰ الضَّلَالَةِ. وَقَالَ عِكْرِمَةُ: الْهَادِي مُحَمَّدٌ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ﴾ وَأَنْتَ هَادٍ لِكُلِّ قَوْمٍ أَيْ دَاعٍ، وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: الْهَادِي هو الله تعالىٰ.

[٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿اللهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ﴾ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ سَوِيَّ الْخَلْقِ أَوْ نَاقِصَ الْخَلْقِ وَاحِدًا أَوِ اثْنَيْنِ أَوْ أَكْثَرَ ﴿وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ﴾ أَيْ: مَا تَنْقُصُ ﴿وَمَا تَزْدَادُ﴾ قَالَ أَهْلُ التَّفْسِيرِ: غَيْضُ الْأَرْحَامِ الْحَيْضُ عَلَىٰ الْحَمْلِ، فَإِذَا حَاضَتِ الْحَامِلُ كَانَ نُقْصَانًا فِي الْوَلَدِ، لِأَنَّ دَمَ الْحَيْضِ غِذَاءُ الْوَلَدِ فِي الرَّحِمِ فَإِذَا أَهْرَقَتِ الدَّمَ يَنْقُصُ الْغِذَاءُ فَيَنْتَقِصُ الْوَلَدُ، وَإِذَا لَمْ تَحِضْ يَزْدَادُ الْوَلَدُ وَيَتِمُّ فَالنُّقْصَانُ نُقْصَانُ خِلْقَةِ الْوَلَدِ بِخُرُوجِ الدَّمِ وَالزِّيَادَةُ تَمَامُ خِلْقَتِهِ بِاسْتِمْسَاكِ الدَّمِ. وَقِيلَ: إِذَا حَاضَتْ يَنْتَقِصُ الْغِذَاءُ وَتَزْدَادُ مُدَّةُ الْحَمْلِ حَتَّىٰ تستكمل تسعة أشهر طاهرا فَإِنْ رَأَتْ خَمْسَةَ أَيَّامٍ دَمًا وَضَعَتْ لِتِسْعَةِ أَشْهُرٍ وَخَمْسَةِ أَيَّامٍ فَالنُّقْصَانُ فِي الْغِذَاءِ وَالزِّيَادَةُ فِي الْمُدَّةِ، وَقَالَ الْحَسَنُ البصري: غَيْضُهَا نُقْصَانُهَا مِنْ تِسْعَةِ أَشْهُرٍ وَالزِّيَادَةُ زِيَادَتُهَا عَلَىٰ تِسْعَةِ أَشْهُرٍ، وَقِيلَ: النُّقْصَانُ السَّقْطُ، وَالزِّيَادَةُ تَمَامُ الْخَلْقِ، وَأَقَلُّ مُدَّةِ الْحَمْلِ سِتَّةُ أَشْهُرٍ، فَقَدْ يُولَدُ الْمَوْلُودُ لِهَذِهِ الْمُدَّةِ وَيَعِيشُ، قال ابن عاشور: وَتَغِيضُ: تَنْقُصُ، وَالظَّاهِرُ أَنَّهُ كِنَايَةٌ عَنِ الْعُلُوقِ لِأَنَّ

غَيْضَ الرَّحِمِ انْحِبَاسُ دَمِ الْحَيْضِ عَنْهَا، وَازْدِيَادُهَا: فَيَضَانُ الْحَيْضِ مِنْهَا. وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْغَيْضُ مُسْتَعَارًا لِعَدَمِ التَّعَدُّدِ ، وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ، قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ فِي خَلْقِ أحدكم أَحَدِكُمْ يُجْمَعُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللهُ إِلَيْهِ ملكًا فيؤمر بأربع كلمات، بكتب رزقه وَعَمَلَهُ وَشِقِّيٌّ أَوْ سَعِيدٌ**»[1]، وَفِي الْحَدِيثِ الْآخَرِ: «**فَيَقُولُ الْمَلَكُ أَيْ رَبِّ! أَذَكَرٌ أَمْ أُنْثَىٰ! أَشَقِيٌّ أَمْ سَعِيدٌ؟ فَمَا الرِّزْقُ؟ فَمَا الْأَجَلُ؟ فيقول الله ويكتب الملك**»[2] ، ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ أَيْ بِأَجَلٍ، حَفِظَ أَرْزَاقَ خَلْقِهِ وَآجَالَهُمْ وَجَعَلَ لِذَلِكَ أَجَلًا مَعْلُومًا، وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: « أَنَّ إِحْدَىٰ بَنَاتِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعَثَتْ إِلَيْهِ أَنَّ ابْنًا لَهَا فِي الْمَوْتِ، وَأَنَّهَا تُحِبُّ أَنْ يَحْضُرَهُ، فَبَعَثَ إِلَيْهَا يَقُولُ: **إِنَّ لِلَّهِ مَا أَخَذَ وَلَهُ مَا أَعْطَىٰ، وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِأَجَلٍ مُسَمًّىٰ، فَمُرُوهَا فَلْتَصْبِرْ وَلْتَحْتَسِبْ**»[3] .

[٩] قَوْلُهُ تعالىٰ: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ أَيْ يَعْلَمُ كُلَّ شَيْءٍ مِمَّا يُشَاهِدُهُ الْعِبَادُ وَمِمَّا يَغِيبُ عَنْهُمْ وَلَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ مِنْهُ شَيْءٌ ﴿الْكَبِيرُ﴾ الَّذِي هُوَ أَكْبَرُ مِنْ

---

(١) البخاري (٣٢٠٨) ومسلم (٢٦٤٣) .

(٢) البخاري (٦٥٩٥) ومسلم (٣٢٠٨) .

(٣) البخاري (١٢٨٤) ومسلم (٩٢٣) .

كُلِّ شَيْءٍ، ﴿الْمُتَعَالِ﴾ أَيْ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ، ﴿قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ وَقَهَرَ كُلَّ شَيْءٍ فَخَضَعَتْ لَهُ الرِّقَابُ وَدَانَ لَهُ الْعِبَادُ طَوْعًا وَكَرْهًا.

[١٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ﴾ أَيْ: يَسْتَوِي فِي عِلْمِ اللهِ الْمُسِرُّ بِالْقَوْلِ وَالْجَاهِرُ بِهِ، ﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ﴾ أَيْ: مُسْتَتِرٌ بِظُلْمَةِ اللَّيْلِ، ﴿وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ أَيْ: ذَاهِبٌ فِي سَرْبِهِ ظَاهِرٌ، وَالسَّرْبُ الطَّرِيقُ، قَالَ الْقُتَيْبِيُّ: سَارِبٌ بِالنَّهَارِ أَيْ مُتَصَرِّفٌ فِي حَوَائِجِهِ، قَالَ ابن عباس: هُوَ صَاحِبُ رِيبَةٍ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ فَإِذَا خَرَجَ بِالنَّهَارِ أَرَىٰ النَّاسَ أَنَّهُ بَرِيءٌ مِنَ الْإِثْمِ، وَقِيلَ: مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ أَيْ ظَاهِرٌ مِنْ قَوْلِهِمْ خَفِيتُ الشَّيْءَ إِذَا أَظْهَرْتَهُ وَأَخْفَيْتُهُ إِذَا كَتَمْتَهُ، وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ أَيْ: مُتَوَارٍ دَاخِلٌ فِي سَرْبٍ.

[١١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ﴾ أَيْ: لِلَّهِ تَعَالَىٰ مَلَائِكَةٌ يَتَعَاقَبُونَ فيكم بالليل والنهار صَعِدَتْ مَلَائِكَةُ اللَّيْلِ جَاءَ فِي عَقِبِهَا مَلَائِكَةُ النَّهَارِ وَإِذَا صَعِدَتْ مَلَائِكَةُ النَّهَارِ جَاءَ فِي عَقِبِهَا مَلَائِكَةُ اللَّيْلِ، وَالتَّعْقِيبُ: الْعَوْدُ بَعْدَ الْبَدْءِ ، وفي الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ - صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: « **إِنَّ لِلَّهِ مَلَائِكَةً يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ، فَإِذَا كَانَ صَلَاةُ الْفَجْرِ نَزَلَتْ مَلَائِكَةُ النَّهَارِ فَشَهِدُوا مَعَكُمُ الصَّلَاةَ جَمِيعًا، ثُمَّ صَعِدَتْ مَلَائِكَةُ اللَّيْلِ، وَمَكَثَتْ مَعَكُمْ مَلَائِكَةُ النَّهَارِ. فَيَسْأَلُهُمْ رَبُّهُمْ -وَهُوَ أَعْلَمُ بِهِمْ-: مَا تَرَكْتُمْ عِبَادِي يَصْنَعُونَ؟ قَالَ: فَيَقُولُونَ:**

جِئْنَا وَهُمْ يُصَلُّونَ، وَتَرَكْنَاهُمْ يُصَلُّونَ »[1] ، ﴿مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ يَعْنِي: مِنْ قُدَّامِ هَذَا الْمُسْتَخْفِي بِاللَّيْلِ وَالسَّارِبِ بِالنَّهَارِ، وَمِنْ خَلْفِهِ مِنْ وَرَاءِ ظَهْرِهِ، ﴿يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللهِ﴾ يَعْنِي: بِأَمْرِ اللهِ، أَيْ: يَحْفَظُونَهُ بإذن الله ما لم يجئ القدر، فإذا جاء القدر خُلُّوا عَنْهُ. وَقِيلَ: يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللهِ أَيْ مِمَّا أَمَرَ اللهُ بِهِ مِنَ الْحِفْظِ عَنْهُ ، قَالَ مُجَاهِدٌ: مَا مِنْ عَبْدٍ إِلَّا وَلَهُ مَلَكٌ مُوَكَّلٌ بِهِ يَحْفَظُهُ فِي نَوْمِهِ وَيَقَظَتِهِ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالْهَوَامِّ، فَمَا مِنْهُمْ شَيْءٌ يَأْتِيهِ يُرِيدُهُ إِلَّا قَالَ: وَرَاءَكَ إِلَّا شَيْءٌ يَأْذَنُ اللهُ فيه فيصيبه قال أَبُو أُمَامَةَ: مَا مِنْ آدَمِيٍّ إِلَّا وَمَعَهُ مَلَكٌ يَذُودُ عَنْهُ حَتَّىٰ يُسْلِمَهُ لِلَّذِي قُدِّرَ له، وقال أبو مجلز: جاء رجل إِلَىٰ عَلِيٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَهُوَ يُصَلِّي، فقال: احترس، فإن ناسًا يُرِيدُونَ قَتْلَكَ، فَقَالَ: إِنْ مَعَ كُلِّ رَجُلٍ ملكين يحفظانه مما لم يقدر له، فإذا جاء القدر خليا بينه وبينه، أن الْأَجَلَ جُنَّةٌ حَصِينَةٌ، ﴿إِنَّ اللهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ﴾ مِنَ الْعَافِيَةِ وَالنِّعْمَةِ، ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ مِنَ الْحَالِ الْجَمِيلَةِ فَيَعْصُوا رَبَّهُمْ،قال القرطبي : لَيْسَ مَعْنَىٰ الْآيَةِ : أَنَّهُ لَيْسَ يَنْزِلُ بِأَحَدٍ عُقُوبَةٌ إِلَّا بِأَنْ يَتَقَدَّمَ مِنْهُ ذَنْبٌ، بَلْ قَدْ تَنْزِلُ الْمَصَائِبُ بِذُنُوبِ الْغَيْرِ، كَمَا قَالَ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « وَقَدْ سُئِلَ أَنَهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ؟ قَالَ: نَعَمْ إِذَا كَثُرَ الْخَبَثُ»[2] ، ﴿وَإِذَا أَرَادَ اللهُ بِقَوْمٍ سُوءًا﴾ أَيْ: عَذَابًا وَهَلَاكًا ﴿فَلَا

(١) البخاري (٥٥٥) ومسلم (٦٣٢) .

(٢) البخاري (٣٣٤٦) ومسلم (٢٨٨٠) .

مَرَدَّ لَهُ﴾ أَيْ: لَا رَادَّ لَهُ، ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾ أَيْ: مَلْجَإٍ يَلْجَئُونَ إِلَيْهِ، وَقِيلَ: والٍ يَلِي أَمْرَهُمْ وَيَمْنَعُ الْعَذَابَ عنهم.

[١٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ قِيلَ: خَوْفًا مِنَ الصَّاعِقَةِ طَمَعًا فِي نَفْعِ الْمَطَرِ، وَقِيلَ: الْخَوْفُ للمسافر يخاف منه الأذىٰ أو المشقة وَالطَّمَعُ لِلْمُقِيمِ يَرْجُو مِنْهُ الْبَرَكَةَ وَالْمَنْفَعَةَ، وَقِيلَ: الْخَوْفُ مِنَ الْمَطَرِ فِي غَيْرِ مَكَانِهِ وَإِبَّانِهِ وَالطَّمَعُ إِذَا كَانَ فِي مَكَانِهِ وَإِبَّانِهِ ومن البلدان ما إذا مطروا قحطوا وإذ لَمْ يُمْطَرُوا أَخْصبُوا، وَقَالَ الْحَسَنُ البصري: خَوْفًا مِنْ صَوَاعِقِ الْبَرْقِ، وَطَمَعًا فِي غَيْثِهِ الْمُزِيلِ لِلْقَحْطِ ،﴿وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ﴾ بِالْمَطَرِ، يُقَالُ: أَنْشَأَ اللهُ السَّحَابَةَ فنشأت أي أبداها فبدت، وقال ابن كثير: أي: ويَخْلُقها مُنشأةً جديدة، وهي لكثرة مائها ثقيلةٌ قريبة إلىٰ الأرض.

[١٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: مَنْ سَمِعَ صَوْتَ الرَّعْدِ فَقَالَ: سُبْحَانَ الَّذِي يُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ فَإِنْ أَصَابَتْهُ صَاعِقَةٌ فَعَلَيَّ دِيَتُهُ، وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ الزُّبَيْرِ: أَنَّهُ كَانَ إِذَا سَمِعَ صَوْتَ الرَّعْدِ تَرَكَ الْحَدِيثَ وَقَالَ: سُبْحَانَ مَنْ يُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ والملائكة من خيفته ﴿وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ﴾ أَيْ: تُسَبِّحُ الْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَةِ اللهِ عز وجل وخشيته ﴿وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ﴾ جَمْعُ صَاعِقَةٍ وَهِيَ الْعَذَابُ الْمُهْلِكُ يَنْزِلُ مِنَ الْبَرْقِ فَيَحْرِقُ مَنْ يُصِيبُهُ، ﴿فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ﴾ يخاصمون، ﴿فِي اللهِ﴾ نَزَلَتْ فِي شَأْنِ أَرْبَدَ بْنِ رَبِيعَةَ حَيْثُ قَالَ لِلنَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مِمَّ رَبُّكَ آمن دُرّ أم من يا قوت أَمْ مِنْ ذَهَبٍ؟ فَنَزَلَتْ صَاعِقَةٌ من السماء فأحرقته ﴿وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾ قَالَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: شَدِيدُ الْأَخْذِ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: شديد الحول، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: شَدِيدُ الْقُوَّةِ، وَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: شَدِيدُ الْعُقُوبَةِ، وَقِيلَ: شَدِيدُ الْمَكْرِ.

[١٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ﴾ أَيْ: لِلَّهِ دَعْوَةُ الصِّدْقِ، قَالَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: دَعْوَةُ الْحَقِّ التَّوْحِيدُ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ، وَقِيلَ: الدُّعَاءُ بِالْإِخْلَاصِ وَالدُّعَاءُ الْخَالِصُ لَا يَكُونُ إِلَّا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ أَيْ: يَعْبُدُونَ الْأَصْنَامَ مِنْ دُونِ اللهِ تَعَالَىٰ، ﴿لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ﴾ أَيْ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ دُعَاءً، وَلَا يَسْمَعُونَ لَهُمْ نِدَاءً، ﴿إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَىٰ الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ﴾ أَيْ: إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ لِيَقْبِضَ عَلَىٰ الْمَاءِ وَالْقَابِضُ عَلَىٰ الْمَاءِ لَا يَكُونُ فِي يَدِهِ شَيْءٌ وَلَا يَبْلُغُ إِلَىٰ فِيهِ مِنْهُ شيء، كذلك الذين يدعون الْأَصْنَامَ وَهِيَ لَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ لَا يَكُونُ بِيَدِهِ شَيْءٌ ، وقَالَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: معناه كالرجل العطشان الْجَالِسِ عَلَىٰ شَفِيرِ الْبِئْرِ يَمُدُّ يَدَهُ إِلَىٰ الْبِئْرِ فَلَا يَبْلُغُ قَعْرَ الْبِئْرِ إِلَىٰ الْمَاءِ وَلَا يَرْتَفِعُ إِلَيْهِ الْمَاءُ فَلَا يَنْفَعُهُ بَسْطُ الْكَفِّ إِلَىٰ الْمَاءِ وَدُعَاؤُهُ لَهُ، وَلَا هُوَ يَبْلُغُ فَاهُ كَذَلِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ الْأَصْنَامَ لَا ينفعهم نداؤها ودعاؤها، وَهِيَ لَا تَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ، وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: كَالْعَطْشَانِ إِذَا بسط كفيه إِلىٰ الْمَاءِ لَا يَنْفَعُهُ ذَلِكَ مَا لَمْ يَغْرِفْ بِهِمَا الْمَاءَ وَلَا يَبْلُغُ الْمَاءُ فَاهُ مَا دَامَ باسطا كفيه، مثل ضربه الله لِخَيْبَةِ الْكُفَّارِ ، ﴿وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ أصنامهم، ﴿إِلَّا فِي

ضَلَالٍ﴾ يَضِلُّ عَنْهُمْ إِذَا احْتَاجُوا إِلَيْهِ وَقِيلَ: إِلَّا فِي ضَلَالٍ أَيْ يَضِلُّ عَنْهُمْ ذَلِكَ الدُّعَاءُ، فَلَا يَجِدُونَ مِنْهُ سَبِيلًا، وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ رَبَّهُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ لِأَنَّ أَصْوَاتَهُمْ مَحْجُوبَةٌ عَنِ اللهِ تَعَالَىٰ.

[١٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا﴾ يعني: الملائكة والمؤمنين، ﴿وَكَرْهًا﴾ يَعْنِي: الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ الَّذِينَ أُكْرِهُوا علىٰ السجود بالسيف، ﴿وَظِلَالُهُمْ﴾ يَعْنِي: ظِلَالَ السَّاجِدِينَ طَوْعًا وَكَرْهًا تَسْجُدُ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ طَوْعًا، قَالَ مُجَاهِدٌ: ظِلُّ الْمُؤْمِنِ يَسْجُدُ طَوْعًا وَهُوَ طَائِعٌ، وَظِلُّ الْكَافِرِ يَسْجُدُ طَوْعًا وَهُوَ كَارِهٌ، وَقِيلَ: ﴿طَوْعًا﴾ مَنْ طَالَتْ مُدَّةُ إِسْلَامِهِ فَأَلِفَ السُّجُودَ، وَ ﴿كَرْهًا﴾ مَنْ يُكْرِهُ نَفْسَهُ لِلَّهِ تَعَالَىٰ، فَالْآيَةُ فِي الْمُؤْمِنِينَ وقد ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ فَأَكْثِرُوا الدُّعَاءَ**»(١)، ﴿بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ يعني إذا سجد بالغدو والعشي يسجد معه ظله، والغدو: أي البكور والآصال: هومَا بَيْنَ الْعَصْرِ إِلَىٰ غُرُوبِ الشَّمْسِ، وَقِيلَ: ظِلَالُهُمْ أَيْ: أَشْخَاصُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ بِالْبُكَرِ وَالْعَشَايَا، وَقِيلَ: سُجُودُ الظِّلِّ تذليله لما أريد له.

[١٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أَيْ: خَالِقُهُمَا وَمُدَبِّرُهُمَا فَسَيَقُولُونَ اللهُ، إنهم يُقِرُّونَ بِأَنَّ اللهَ خَالِقُهُمْ وَخَالِقُ السَّمَاوَاتِ

---

(١) مسلم (٤٨٢).

والأرض إذا أَجَابُوكَ، فَقُلْ أَنْتَ أَيْضًا يَا مُحَمَّدُ: اللهُ ، وَرُوِيَ أَنَّهُ لَمَّا قَالَ هَذَا لِلْمُشْرِكِينَ عَطَفُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا: أَجِبْ أَنْتَ، فَأَمَرَهُ اللهُ عز وجل فقال: ﴿قُلْ﴾ أنت يا محمد، ﴿اللهُ﴾ ثُمَّ قَالَ اللهُ لَهُمْ إِلْزَامًا لِلْحُجَّةِ: ﴿قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ مَعْنَاهُ: إِنَّكُمْ مَعَ إِقْرَارِكُمْ بِأَنَّ اللهَ خَالِقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ اتَّخَذْتُمْ مَنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَعَبَدْتُمُوهَا مِنْ دُونِ اللهِ يَعْنِي: الْأَصْنَامَ وَهُمْ ﴿لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ فَكَيْفَ يَمْلِكُونَ لَكُمْ؟ ثُمَّ ضَرَبَ لَهُمْ مَثَلًا فَقَالَ: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ﴾ كَذَلِكَ لَا يَسْتَوِي الْكَافِرُ وَالْمُؤْمِنُ، ﴿أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ﴾ أَيْ: كَمَا لَا يَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ لَا يَسْتَوِي الْكُفْرُ وَالْإِيمَانُ. ﴿أَمْ جَعَلُوا﴾ أي: جَعَلُوا، ﴿لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾ أَيِ: اشْتَبَهَ مَا خَلَقُوهُ بِمَا خَلَقَهُ اللهُ تَعَالَىٰ فَلَا يَدْرُونَ مَا خَلْقَ اللهُ وَمَا خَلَقَ آلِهَتُهُمْ ، أَيْ أَنَّهُمْ لَمْ يَتَّخِذُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَالِقِينَ قَدْ خَلَقُوا مِثْلَ خَلْقِ اللهِ ، فَاشْتَبَهَ عَلَيْهِمْ مَخْلُوقُ اللهِ بِمَخْلُوقِ الشُّرَكَاءِ، حَتَّىٰ يَقُولُوا قَدَرَ هَؤُلَاءِ عَلَىٰ الْخَلْقِ كَمَا قَدَرَ اللهُ عَلَيْهِ فَاسْتَحَقُّوا الْعِبَادَةَ فَنَتَّخِذَهُمْ لَهُ شُرَكَاءَ وَنَعْبُدَهُمْ كَمَا يُعْبَدُ، وَلَكِنَّهُمُ اتَّخَذُوا لَهُ شُرَكَاءَ عَاجِزِينَ لَا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ مَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ الْخَلْقُ فَضْلًا عَلَىٰ مَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ الْخَالِقُ ، ﴿قُلِ اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ قبل كل شيء ، (الْقَهَّارُ) الغالب لكل شي، الَّذِي يَغْلِبُ فِي مُرَادِهِ كُلَّ مُرِيدٍ ، ثُمَّ ضَرَبَ اللهُ تَعَالَىٰ مَثَلَيْنِ لِلْحَقِّ وَالْبَاطِلِ.

[١٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَنْزَلَ﴾ يَعْنِي اللهَ عَزَّ وَجَلَّ، ﴿مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ يعني المطر، ﴿فَسَالَتْ﴾ مِنْ ذَلِكَ الْمَاءِ ﴿أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾ أَيْ: فِي الصِّغَرِ وَالْكِبَرِ،أَيْ أَخَذَ كُلُّ وادٍ بِحَسْبِهِ، فَهَذَا كَبِيرٌ وَسِعَ كَثِيرًا من الماء، قِيلَ: مَعْنَاهَا بِمَا قُدِّرَ لَهَا، وَالْأَوْدِيَةُ: جَمْعُ الْوَادِي، وَسُمِّيَ وَادِيًا لِخُرُوجِهِ وَسَيَلَانِهِ، فَالْوَادِي عَلَىٰ هَذَا اسْمٌ لِلْمَاءِ السَّائِلِ،﴿فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ﴾ الَّذِي حَدَثَ مِنْ ذَلِكَ الْمَاءِ، ﴿زَبَدًا رَابِيًا﴾ الزَّبَدُ الْخَبَثُ الَّذِي يَظْهَرُ عَلَىٰ وجه الماء، رَابِيًا أَيْ عَالِيًا مُرْتَفِعًا فَوْقَ الماء الصَّافِي الْبَاقِي هُوَ الْحَقُّ ، وَالذَّاهِبُ الزَّائِلُ الَّذِي يَتَعَلَّقُ بِالْأَشْجَارِ وَجَوَانِبِ الْأَوْدِيَةِ هُوَ الْبَاطِلُ ، وَقِيلَ: قَوْلُهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً هَذَا مَثَلٌ لِلْقُرْآنِ وَالْأَوْدِيَةُ مَثَلٌ لِلْقُلُوبِ يريد ينزل القرآن، فتحتمل مِنْهُ الْقُلُوبُ عَلَىٰ قَدْرِ الْيَقِينِ وَالْعَقْلِ وَالشَّكِّ وَالْجَهْلِ، فَهَذَا أَحَدُ الْمَثَلَيْنِ وَالْمَثَلُ الْآخَرُ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ﴾ أَيْ: ومن الذي توقدون عليه النَّارِ، وَالْإِيقَادُ جَعْلُ النَّارِ تَحْتَ الشيء ليذوب، ﴿ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ﴾ أَيْ لِيَجْعَلَ حِلْيَةً أَوْ نُحَاسًا أَوْ حَدِيدًا فَيُجْعَلُ مَتَاعًا، فَإِنَّهُ يَعْلُوهُ زَبَدٌ مِنْهُ، كَمَا يَعْلُو ذَلِكَ زَبَدٌ مِنْهُ، ﴿أَوْ مَتَاعٍ﴾ أَيْ: طَلَبِ مَتَاعٍ وَهُوَ مَا يُنْتَفَعُ بِهِ، وَذَلِكَ مِثْلُ الْحَدِيدِ وَالنُّحَاسِ وَالرَّصَاصِ، وَالصُّفْرِ تُذَابُ فَيُتَّخَذُ مِنْهَا الْأَوَانِي وَغَيْرُهَا مِمَّا يُنْتَفَعُ بِهَا، ﴿زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ﴾ أَيْ: إِذَا أُذِيبَ فَلَهُ أَيْضًا زَبَدٌ مِثْلُ زَبَدِ الْمَاءِ، فَالْبَاقِي الصَّافِي مِنْ هَذِهِ الْجَوَاهِرِ مِثْلُ الْحَقِّ، وَالزَّبَدُ الَّذِي لَا يُنْتَفَعُ بِهِ مِثْلُ الْبَاطِلِ، ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ﴾ الذي علا السيل ﴿فَيَذْهَبُ جُفَاءً﴾ أَيْ: ضَائِعًا بَاطِلًا، وَالْجُفَاءُ مَا رَمَىٰ بِهِ الْوَادِي مِنَ

الزَّبَدِ وَالْقِدْرُ إِلَىٰ جنبَاتِهِ، يُقَالُ: جَفَا الْوَادِي وَأَجْفَأَ إِذَا أَلْقَىٰ غُثَاءَهُ، وَأَجْفَأَتِ الْقِدْرُ وَجفَأَتْ إِذَا غَلَتْ وَأَلْقَتْ زَبَدَهَا، فَإِذَا سَكَنَتْ لَمْ يَبْقَ فِيهَا شَيْءٌ مَعْنَاهُ: إِنَّ الْبَاطِلَ وَإِنْ عَلَا فِي وَقْتٍ فَإِنَّهُ يَضْمَحِلُّ. وَقِيلَ: جُفَاءً أَيْ: مُتَفَرِّقًا. يُقَالُ: جَفَأَتِ الرِّيحُ الْغَيْمَ إِذَا فَرَّقَتْهُ وَذَهَبَتْ بِهِ، ﴿وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ﴾ يعني: الماء والذهب وَالْفِضَّةِ وَالصُّفْرِ وَالنُّحَاسِ، ﴿فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ أَيْ: يَبْقَىٰ وَلَا يَذْهَبُ، ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الْأَمْثَالَ﴾ جعل الله هذا مثالا للحق والباطل، يعني أَنَّ الْبَاطِلَ كَالزَّبَدِ يَذْهَبُ وَيَضِيعُ والحق كالماء يَبْقَىٰ فِي الْقُلُوبِ، وَقِيلَ: هَذَا تَسْلِيَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ، يَعْنِي: أَنَّ أَمْرَ الْمُشْرِكِينَ كَالزَّبَدِ يُرَىٰ فِي الصُّورَةِ شَيْئًا وَلَيْسَ لَهُ حَقِيقَةٌ، وَأَمْرَ الْمُؤْمِنِينَ كَالْمَاءِ الْمُسْتَقِرِّ فِي مَكَانِهِ له البقاء والثبات. وقال القرطبي: وَهُوَ أَنَّ الْمَثَلَيْنِ ضَرَبَهُمَا اللهُ لِلْحَقِّ فِي ثَبَاتِهِ، وَالْبَاطِلِ فِي اضْمِحْلَالِهِ، فَالْبَاطِلُ وَإِنْ عَلَا فِي بَعْضِ الْأَحْوَالِ فَإِنَّهُ يَضْمَحِلُّ كَاضْمِحْلَالِ الزَّبَدِ وَالْخَبَثِ. وَقِيلَ: الْمُرَادُ مَثَلٌ ضَرَبَهُ اللهُ لِلْقُرْآنِ وَمَا يَدْخُلُ مِنْهُ الْقُلُوبَ، فَشَبَّهَ الْقُرْآنَ بِالْمَطَرِ لِعُمُومِ خَيْرِهِ وَبَقَاءِ نَفْعِهِ، وَشَبَّهَ الْقُلُوبَ بِالْأَوْدِيَةِ، يَدْخُلُ فِيهَا مِنَ الْقُرْآنِ مِثْلُ مَا يَدْخُلُ فِي الْأَوْدِيَةِ بِحَسَبِ سَعَتِهَا وَضِيقِهَا، وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي مُوسَىٰ الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وسلم قال: «**إِنَّ مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ مِنَ الْهُدَىٰ وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَصَابَ أَرْضًا فكَانَ منها طائفة قبلت الماء فأنبت الكلأ والعشب الكثير، وكان مِنْهَا أَجَادِبَ أَمْسَكَتِ الْمَاءَ فَنَفَعَ اللهُ بِهَا النَّاسَ فَشَرِبُوا وَرَعَوْا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا، وَأَصَابَتْ طَائِفَةً مِنْهَا أُخرىٰ، إِنَّمَا هِيَ**

قِيعَانٌ لَا تُمْسِكُ مَاءً وَلَا تُنْبِتُ كَلَأً؛ فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ فِي دِينِ اللهِ وَنَفَعَهُ اللهُ بِمَا بَعَثَنِي وَنَفَعَ بِهِ فَعَلِمَ وَعَلَّمَ؛ وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَىٰ اللهِ الَّذِي أرسلت به»(١).

[١٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا﴾ أجابوا، ﴿لِرَبِّهِمُ﴾ أَيْ أَطَاعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَانْقَادُوا لِأَوَامِرِهِ وَصَدَّقُوا أَخْبَارَهُ الْمَاضِيَةَ وَالْآتِيَةَ، ﴿الْحُسْنَىٰ﴾ الْجَنَّةُ، ﴿وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ﴾ أَيْ: لَبَذَلُوا ذَلِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ افْتِدَاءً مِنَ النَّارِ، ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ﴾ قَالَ إِبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ: سُوءُ الْحِسَابِ أَنْ يُحَاسَبَ الرَّجُلُ بِذَنْبِهِ كُلِّهِ لَا يَغْفِرُ لَهُ منه شيء، ﴿وَمَأْوَاهُمْ﴾ فِي الْآخِرَةِ ﴿جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ الْفِرَاشُ، أَيْ: بِئْسَ مَا مُهِّدَ لَهُمْ.

[١٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ﴾ هُوَ الْحَقُّ الَّذِي لَا شَكَّ فِيهِ وَلَا مِرْيَةَ، بَلْ هُوَ كُلُّهُ حَقٌّ يُصَدِّقُ بَعْضُهُ بَعْضًا، فأخباره كلها حق، وأوامره ونواهيه عدل، فَلَا يَسْتَوِي مِنْ تَحَقَّقَ صِدْقَ مَا جِئْتَ بِهِ يَا مُحَمَّدُ، وَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ لَا يَهْتَدِي إِلَىٰ خَيْرٍ وَلَا يَفْهَمُهُ، وَلَوْ فَهِمَهُ مَا انْقَادَ لَهُ وَلَا صَدَّقَهُ وَلَا اتَّبَعَهُ، كقوله تَعَالَىٰ: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ [الحشر: ٢٠]، ﴿كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ﴾ عَنْهُ لَا يَعْلَمُهُ وَلَا يَعْمَلُ بِهِ، قِيلَ: نَزَلَتْ فِي

---

(١) مسلم (٢٢٨٢).

حَمْزَةَ وَأَبِي جَهْلٍ، وَقِيلَ: فِي عَمَّارٍ وَأَبِي جَهْلٍ، فَالْأَوَّلُ حَمْزَةُ أَوْ عَمَّارٌ وَالثَّانِي أَبُو جَهْلٍ، وَهُوَ الْأَعْمَىٰ، أَيْ: لَا يَسْتَوِي مَنْ يُبْصِرُ الْحَقَّ وَيَتَّبِعُهُ وَمَنْ لَا يُبْصِرُهُ وَلَا يَتَّبِعُهُ، قال القرطبي: وَالْمُرَادُ بِالْعَمَىٰ عَمَىٰ الْقَلْبِ، وَالْجَاهِلُ بِالدِّينِ أَعْمَىٰ الْقَلْبِ، ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ﴾ يتعظ ﴿أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ ذَوُو الْعُقُولِ، قال الطبري: يقول: إنما يتعظ بآيات الله ويعتبر بها ذوو العقول، وهي ﴿الْأَلْبَابِ﴾، واحدها (لُبٌّ).

[٢٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللهِ﴾ هَذَا مِنْ صِفَةِ ذَوِي الْأَلْبَابِ، أَيْ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ الْمُوفُونَ بِعَهْدِ الله، والعهد اسم الجنس، أَيْ بِجَمِيعِ عُهُودِ اللهِ، وَهِيَ أَوَامِرُهُ وَنَوَاهِيهِ الَّتِي وَصَّىٰ بِهَا عباده ،فهم ملتزمون بِمَا أَمَرَهُمُ اللهُ تَعَالَىٰ بِهِ وَفَرَضَهُ عَلَيْهِمْ فَلَا يُخَالِفُونَهُ، ﴿وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ﴾ أَيْ إِذَا عَقَدُوا فِي طَاعَةِ اللهِ عَهْدًا لَمْ يَنْقُضُوهُ، قَالَ قَتَادَةُ: تَقَدَّمَ اللهُ إِلَىٰ عِبَادِهِ فِي نَقْضِ الْمِيثَاقِ وَنَهَىٰ عَنْهُ فِي بِضْعٍ وَعِشْرِينَ آيَةً ، وَقِيلَ: أَرَادَ الْعَهْدَ الَّذِي أَخَذَهُ عَلَىٰ ذُرِّيَّةِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ أَخْرَجَهُمْ مِنْ صُلْبِهِ، وَقَالَ الْقَفَّالُ: هُوَ مَا رُكِّبَ فِي عُقُولِهِمْ مِنْ دَلَائِلِ التَّوْحِيدِ وَالنُّبُوَّاتِ، رَوَىٰ أَبُو دَاوُدَ وَغَيْرُهُ عَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: « كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - سَبْعَةٌ أَوْ ثَمَانِيَةٌ أَوْ تِسْعَةٌ - فَقَالَ: **أَلَا تُبَايِعُونَ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**؟! وَكُنَّا حَدِيثَ عَهْدٍ بِبَيْعَةٍ ، فَقُلْنَا: قَدْ بَايَعْنَاكَ - حَتَّىٰ قَالَهَا ثَلَاثًا - فَبَسَطْنَا أَيْدِينَا فَبَايَعْنَاهُ، فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ! إِنَّا قَدْ بَايَعْنَاكَ فَعَلَىٰ مَاذَا نُبَايِعُكَ؟ قَالَ: **أَنْ تَعْبُدُوا اللهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَتُصَلُّوا الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ وَتَسْمَعُوا وَتُطِيعُوا**- وَأَسَرَّ كَلِمَةً خَفِيَّةً- قَالَ: **لَا تَسْأَلُوا**

النَّاسَ شَيْئًا، قَالَ: وَلَقَدْ كَانَ بَعْضُ أُولَئِكَ النَّفَرُ يَسْقُطُ سَوْطُهُ ، فَمَا يَسْأَلُ أَحَدًا أَنْ يُنَاوِلَهُ إِيَّاهُ »[1] ، قَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ: مِنْ أَعْظَمِ الْمَوَاثِيقِ فِي الذِّكْرِ أَلَّا يُسْأَلَ سِوَاهُ.

[٢١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ ظَاهِرٌ فِي صِلَةِ الْأَرْحَامِ، وَهُوَ قَوْلُ قَتَادَةَ وَأَكْثَرِ الْمُفَسِّرِينَ، وقِيلَ: أَرَادَ بِهِ الْإِيمَانَ بِجَمِيعِ الْكُتُبِ وَالرُّسُلِ وَلَا يُفَرِّقُونَ بَيْنَهُمَا، وَالْأَكْثَرُونَ عَلَىٰ أَنَّهُ أَرَادَ بِهِ صلة الرحم ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ قِيلَ: فِي قَطْعِ الرَّحِمِ ، وَقِيلَ: فِي جَمِيعِ الْمَعَاصِي ، ﴿وَيَخافُونَ سُوءَ الْحِسابِ﴾ سُوءُ الْحِسَابِ الِاسْتِقْصَاءُ فِيهِ وَالْمُنَاقَشَةُ، وَمَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ عُذِّبَ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: مَعْنَىٰ :﴿يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ﴾ الْإِيمَانُ بِجَمِيعِ الْكُتُبِ وَالرُّسُلِ كُلِّهِمْ ، وقال الْحَسَنُ البصري: هُوَ صِلَةُ مُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

[٢٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا﴾ عَلَىٰ طَاعَةِ اللهِ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: عَلَىٰ أَمْرِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَقَالَ عَطَاءٌ: عَلَىٰ الْمَصَائِبِ وَالنَّوَائِبِ، وَقِيلَ: عَنِ الشَّهَوَاتِ، وَقِيلَ: عَنِ الْمَعَاصِي، ﴿ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ طلب تعظيمه أن يخالفوه، ﴿ابْتِغاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ يَعْنِي يُؤَدُّونَ الزَّكَاةَ، ﴿وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ الدَّرْءُ: الدَّفْعُ وَالطَّرْدُ. وَهُوَ هُنَا مُسْتَعَارٌ لِإِزَالَةِ أَثَرِ الشَّيْءِ فَيَكُونُ بَعْدَ حُصُولِ الْمَدْفُوعِ ، فَيُصَدِّقُ ذَلِكَ بِأَنْ يُتْبِعَ السَّيِّئَةَ إِذَا صَدَرَتْ مِنْهُ بِفِعْلِ الْحَسَنَاتِ فَإِنَّ ذَلِكَ كَطَرْدِ السَّيِّئَةِ. قَالَ النَّبِيءُ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يَا مُعَاذُ اتَّقِ اللهَ حَيْثُ كُنْتَ وَأَتْبِعِ**

---

(١) مسلم (١٠٤٣) ؛ وأبو داود (١٦٤٦) .

السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا»[1] ، رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ قَالَ: يَدْفَعُونَ بِالصَّالِحِ مِنَ الْعَمَلِ السَّيِّئَ مِنَ الْعَمَلِ، وَهُوَ مَعْنَىٰ قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ وَجَاءَ فِي الْحَدِيثِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**إِذَا عَمِلْتَ سَيِّئَةً ، فَاعْمَلْ بِجَنْبِهَا حَسَنَةً تَمْحُهَا، السِّرُّ بِالسِّرِّ وَالْعَلَانِيَةُ بالعلانية**»[2]، وَقَالَ ابْنُ كَيْسَانَ: مَعْنَىٰ الْآيَةِ يَدْفَعُونَ الذَّنْبَ بِالتَّوْبَةِ. وَقِيلَ: لَا يُكَافِئُونَ الشَّرَّ بِالشَّرِّ وَلَكِنْ يَدْفَعُونَ الشَّرَّ بِالْخَيْرِ. وَقَالَ الْقُتَيْبِيُّ: مَعْنَاهُ إِذَا سُفِهَ عَلَيْهِمْ حَلِمُوا، فَالسَّفَهُ: السَّيِّئَةُ، وَالْحِلْمُ: الْحَسَنَةُ ، وَقَالَ قَتَادَةُ: ردوا عليهم معروفا نطيره قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الْفُرْقَانِ: ٦٣] ، وَقَالَ الْحَسَنُ البصري: إِذَا حُرِمُوا أَعْطَوْا وَإِذَا ظُلِمُوا عفوا وإذا قطعوا وصلوا ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَىٰ الدَّارِ﴾ أَيْ عَاقِبَةُ الْآخِرَةِ، وَهِيَ الْجَنَّةُ بَدَلَ النَّارِ، وَالدَّارُ غَدًا دَارَانِ: الْجَنَّةُ لِلْمُطِيعِ، وَالنَّارُ لِلْعَاصِي، فَلَمَّا ذَكَرَ وَصْفَ الْمُطِيعِينَ فَدَارُهُمُ الْجَنَّةُ لَا مَحَالَةَ، وَقِيلَ: عُنِيَ بِالدَّارِ دَارُ الدُّنْيَا، أَيْ لَهُمْ جَزَاءُ مَا عَمِلُوا مِنَ الطَّاعَاتِ فِي دَارِ الدُّنْيَا، ثُمَّ بَيَّنَ ذَلِكَ فَقَالَ:

[٢٣] : ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ بَسَاتِينُ إِقَامَةٍ، وَ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ وَسَطُ الجنة وقصبتها، وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ: «إِذَا سَأَلْتُمُ اللهَ فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أَوْسَطُ

---

(١) أحمد (٢١٣٥٤).

(٢) أحمد (٢٢١١٤).

الْجَنَّةِ وَأَعْلَىٰ الْجَنَّةِ وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ وَمِنْهُ تُفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ »[1] ، ﴿يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾أَيْ مَنْ كَانَ صَالِحًا، لَا يَدْخُلُونَهَا بِالْأَنْسَابِ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هَذَا الصَّلَاحُ الْإِيمَانُ بِاللهِ وَالرَّسُولِ، وَلَوْ كَانَ لَهُمْ مَعَ الْإِيمَانِ طَاعَاتٌ أُخْرَىٰ لَدَخَلُوهَا بِطَاعَتِهِمْ لَا عَلَىٰ وَجْهِ التَّبَعِيَّةِ، ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بابٍ﴾ أَيْ بِالتُّحَفِ وَالْهَدَايَا مِنْ عِنْدِ اللهِ تَكْرِمَةً لَهُمْ. قِيلَ: مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ، وَقِيلَ: من أبواب القصور.

[٢٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ أَيْ: يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ، وَقِيلَ: يَقُولُونَ سَلَّمَكُمُ اللهُ مِنَ الْآفَاتِ التي تَخَافُونَ مِنْهَا ، قَالَ مُقَاتِلٌ: يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ فِي مِقْدَارِ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ مِنْ أَيَّامِ الدُّنْيَا ثَلَاثَ كَرَّاتٍ مَعَهُمُ الْهَدَايَا وَالتُّحَفُ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ﴿بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَىٰ الدَّارِ﴾ قال ابن زيد: الصبر، في هاتين، فصبرٌ لله علىٰ ما أحبَّ وإن ثقل علىٰ الأنفس والأبدان، وصبرٌ عمَّا يكره وإن نازعت إليه الأهواء ، فمن كان هكذا فهو من الصابرين، وقرأ: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَىٰ الدَّارِ﴾ .

[٢٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ لَمَّا ذَكَرَ الْمُوفِينَ بِعَهْدِهِ، وَالْمُوَاصِلِينَ لِأَمْرِهِ، وَذَكَرَ مَا لَهُمْ ذَكَرَ عَكْسَهُمْ. نَقْضُ الْمِيثَاقِ: تَرْكُ أَمْرِهِ. وَقِيلَ: إِهْمَالُ عُقُولِهِمْ، فَلَا يَتَدَبَّرُونَ بِهَا لِيَعْرِفُوا اللهَ تَعَالَىٰ ،

---

(١) البخاري (٢٧٩٠) .

﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ أَيْ: يُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْأَنْبِيَاءِ وَيَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ. وَقِيلَ: يَقْطَعُونَ الرَّحِمَ، ﴿وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ أَيْ: يَعْمَلُونَ بِالْمَعَاصِي، ﴿أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ يَعْنِي: النَّارَ، وَقِيلَ: سُوءُ الْمُنْقَلَبِ لأن منقلب الناس دورهم.

[٢٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿اللهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ أَيْ: يُوَسِّعُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ وَيُضَيِّقُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ، ﴿وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ يَعْنِي: مُشْرِكِي مَكَّةَ أَشِرُوا وَبَطِرُوا، وَالْفَرَحُ لَذَّةٌ فِي الْقَلْبِ بِنَيْلِ المشتهىٰ، ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ﴾ أَيْ: قَلِيلٌ ذَاهِبٌ ، قَالَ الْكَلْبِيُّ: كمثل القصعة وَالْقَدَحِ وَالْقِدْرِ يُنْتَفَعُ بِهَا ثُمَّ تذهب، وفي الحديث الصحيح قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وسلم: «**ما الدنيا في الآخرة إلا كما يَجْعَلُ أَحَدُكُمْ إِصْبَعَهُ هَذِهِ فِي الْيَمِّ فَلْيَنْظُرْ بِمَ تَرْجِعُ**»(١).

[٢٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ ﴿لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ أَيْ: يَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ بِالْإِنَابَةِ. وَقِيلَ: يُرْشِدُ إِلَىٰ دِينِهِ مَنْ يَرْجِعُ إِلَيْهِ بِقَلْبِهِ.

[٢٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ﴾ تسكن وَتَسْتَأْنِسُ بِتَوْحِيدِ اللهِ فَتَطْمَئِنُّ، وَالِاضْطِرَابُ يَكُونُ بِالشَّكِّ، ﴿قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللهِ﴾ قَالَ قتادة : أَيْ وَهُمْ

---

(١) مسلم (٢٨٥٨) .

تَطْمَئِنُّ قلوبهم علىٰ الدوام بذكر الله بألسنتهم، قَالَ مُقَاتِلٌ: بِالْقُرْآنِ، وَالسُّكُونُ يَكُونُ بِالْيَقِينِ، ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ تَسْكُنُ قُلُوبُ الْمُؤْمِنِينَ وَيَسْتَقِرُّ فِيهَا الْيَقِينُ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هَذَا فِي الْحَلِفِ، يَقُولُ: إِذَا حَلَفَ الْمُسْلِمُ بِاللهِ عَلَىٰ شَيْءٍ تَسْكُنُ قُلُوبُ الْمُؤْمِنِينَ إِلَيْهِ، فَإِنْ قِيلَ: أَلَيْسَ قَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ فَكَيْفَ تَكُونُ الطُّمَأْنِينَةُ وَالْوَجَلُ فِي حَالَةٍ وَاحِدَةٍ؟ قِيلَ: الْوَجَلُ عِنْدَ ذِكْرِ الْوَعِيدِ وَالْعِقَابِ وَالطُّمَأْنِينَةُ عِنْدَ ذِكْرِ الْوَعْدِ وَالثَّوَابِ، فَالْقُلُوبُ تَوْجَلُ إِذَا ذكرت وعيد اللهِ وَشِدَّةَ حِسَابِهِ، وَتَطْمَئِنُّ إِذَا ذكرت فضل الله وكرمه .

[٢٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ﴾ مَعْنَاهُ لَهُمْ طُوبَىٰ، وَاخْتَلَفُوا فِي تَفْسِيرِ ﴿طُوبَىٰ﴾ رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: فَرَحٌ لَهُمْ وَقُرَّةُ عَيْنٍ ، وَقَالَ عِكْرِمَةُ: نِعْمَ مَالَهُمْ، وَقَالَ قَتَادَةُ: حُسْنَىٰ لَهُمْ، وَقَالَ مَعْمَرٌ، عَنْ قَتَادَةَ: هَذِهِ كَلِمَةٌ عَرَبِيَّةٌ يَقُولُ الرَّجُلُ لِلرَّجُلِ طُوبَىٰ لَكَ أَيْ أَصَبْتَ خَيْرًا. وَقَالَ إبراهيم: خير لهم وكرامة ، قال الْفَرَّاءُ: أَصْلُهُ مِنَ الطَّيِّبِ وَالْوَاوُ فِيهِ لِضَمَّةِ الطَّاءِ وَفِيهِ لُغَتَانِ، تَقُولُ الْعَرَبُ: طُوبَاكَ وَطُوبَىٰ لَكَ أَيْ لَهُمُ الطَّيِّبُ ، قال ابن عاشور : وَطُوبَىٰ: مَصْدَرٌ مِنْ طَابَ طِيبًا إِذَا حَسُنَ، وَهِيَ بِوَزْنِ الْبُشْرَىٰ وَالزُّلْفَىٰ، قُلِبَتْ يَاؤُهَا وَاوًا لِمُنَاسَبَةِ الضَّمَّةِ، أَيْ لَهُمُ الْخَيْرُ الْكَامِلُ لِأَنَّهُمُ اطْمَأَنَّتْ قُلُوبُهُمْ بِالذِّكْرِ، فَهُمْ فِي طِيبِ حَالٍ: فِي الدُّنْيَا بِالِاطْمِئْنَانِ، وَفِي الْآخِرَةِ بِالنَّعِيمِ الدَّائِمِ وَهُوَ حُسْنُ الْمَئَابِ وَهُوَ مَرْجِعُهُمْ فِي آخِرِ أَمْرِهِمْ ، ﴿وَحُسْنُ

مَآبٍ﴾ أي: حسن المنقلب ، وَرُوِيَ عَنْ أَبِي أُمَامَةَ وَأَبِي هريرة وأبي الدرداء قال: طُوبَىٰ شَجَرَةٌ فِي الْجَنَّةِ تُظِلُّ الجنان كلها، وروىٰ البخاري ومسلم عن سهل بن سعد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**إِنَّ فِي الْجَنَّةِ شجرة يَسِيرُ الرَّاكِبُ فِي ظِلِّهَا مِائَةَ عَامٍ لَا يقطعها**»[1].

[٣٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ﴾ أي: كَمَا أَرْسَلْنَا الْأَنْبِيَاءَ إِلَىٰ الْأُمَمِ أَرْسَلْنَاكَ إِلَىٰ هَذِهِ الْأُمَّةِ، قال القرطبي : شَبَّهَ الْإِنْعَامَ عَلَىٰ مَنْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ مُحَمَّدٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِالْإِنْعَامِ علىٰ من أرسل إليه الأنبياء قبله ، ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ مَضَتْ، ﴿مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِتَتْلُوَا عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ لِتَقْرَأَ، والْمَقْصُودُ لِتَقْرَأَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنَ، وَقَالَ النَّبِيءُ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ نَبِيٌّ إِلَّا أُوتِيَ مِنَ الْآيَاتِ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللهُ إِلَيَّ**»[2]، قَوْلُهُ : ﴿ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾ أَيْ هَذِهِ الْأُمَّةُ الَّتِي بَعَثْنَاكَ فِيهِمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ لَا يُقِرُّونَ بِهِ، لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَأْنَفُونَ من وصف الله بـ ﴿الرحمن الرَّحِيمِ﴾ وَلِهَذَا أَنِفُوا يَوْمَ الْحُدَيْبِيَةِ أَنْ يَكْتُبُوا بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، وَقَالُوا: مَّا نَدْرِي مَا الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ، وفي صحيح مسلم: «**إِنَّ أَحَبَّ الْأَسْمَاءِ إِلَىٰ اللهِ عَبْدُ اللهِ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ**»[3] ، قَالَ قَتَادَةُ: نزلت هذه الْآيَةُ فِي صُلْحِ الْحُدَيْبِيَةِ،

---

(١) البخاري (٦٤٨١) ومسلم (٢٨٢٦) .

(٢) البخاري (٧٢٧٤) ومسلم (١٥٢) .

(٣) مسلم (٢١٣٢) .

وَذَلِكَ أَنَّ سُهَيْلَ بْنَ عَمْرٍو لَمَّا جاءَ إِلَىٰ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَاتَّفَقُوا عَلَىٰ أَنْ يَكْتُبُوا كِتَابَ الصُّلْحِ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عليه وسلم لعلي رضي الله عنه : «**اكْتُبْ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ**» ، قَالُوا: لَا نَعْرِفُ الرَّحْمَنَ إِلَّا صاحب اليمامة، يعنون مسيلمة الْكَذَّابَ، اكْتُبْ كَمَا كُنْتَ تَكْتُبُ بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ، فَهَذَا مَعْنَىٰ قَوْلِهِ: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾ وَالْمَعْرُوفُ أَنَّ الْآيَةَ مَكِّيَّةٌ ، وَسَبَبُ نُزُولِهَا: أَنَّ أَبَا جَهْلٍ سَمِعَ النَّبِيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ فِي الْحِجْرِ يَدْعُو: يَا اللهُ يَا رَحْمَنُ، فَرَجَعَ إِلَىٰ الْمُشْرِكِينَ فَقَالَ: إِنَّ مُحَمَّدًا يَدْعُو إليهن يَدْعُو اللهَ وَيَدْعُو إِلَهًا آخَرَ يُسَمَّىٰ الرَّحْمَنَ، وَلَا نَعْرِفُ الرَّحْمَنَ إِلَّا رَحْمَانَ الْيَمَامَةِ فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ وَنَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُلِ ادْعُوا اللهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الأعراف : ١١٠] وعن ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي كُفَّارِ قُرَيْشٍ حِينَ قَالَ لَهُمُ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: اسجدوا لله لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ؟ قَالَ الله تعالىٰ. ﴿قُلْ﴾ لَهُمْ يَا مُحَمَّدُ إِنَّ الرَّحْمَنَ الَّذِي أَنْكَرْتُمْ مَعْرِفَتَهُ ﴿هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ أيْ فِي جَمِيعِ أُمُورِي، ﴿وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ أَيْ إِلَيْهِ أَرْجِعُ وَأُنِيبُ فَإِنَّهُ لَا يَسْتَحِقُّ ذَلِكَ أَحَدٌ سِوَاهُ. وَأَصْلُ مَتابِ مَتَابِي ، أَيِ التَّوْبَةُ.

[٣١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ﴾ فَأُذْهِبَتْ عَنْ وَجْهِ الْأَرْضِ ﴿أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ﴾ أَيْ: شُقِّقَتْ فَجُعِلَتْ أَنْهَارًا وَعُيُونًا ﴿أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ﴾ قال ابن كثير : أَيْ لَوْ كَانَ فِي الْكُتُبِ الْمَاضِيَةِ كِتَابٌ تَسِيرُ بِهِ الْجِبَالُ عَنْ أَمَاكِنِهَا، أَوْ تُقَطَّعُ بِهِ الْأَرْضُ وَتَنْشَقُّ أَوْ تُكَلَّمُ بِهِ الْمَوْتَىٰ فِي قُبُورِهَا، لَكَانَ

هَذَا الْقُرْآنُ هُوَ الْمُتَّصِفُ بِذَلِكَ دُونَ غَيْرِهِ، أَوْ بِطَرِيقِ الْأَوْلَىٰ أَنْ يَكُونَ كَذَلِكَ، لِمَا فِيهِ مِنَ الْإِعْجَازِ الَّذِي لَا يسطتيع الإنسان وَالْجِنُّ عَنْ آخِرِهِمْ إِذَا اجْتَمَعُوا أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِهِ وَلَا بِسُورَةٍ مِنْ مَثَلِهِ، وَمَعَ هَذَا فَهَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ كَافِرُونَ بِهِ جَاحِدُونَ لَهُ، ﴿بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا﴾ أَيْ: فِي هَذِهِ الْأَشْيَاءِ إِنْ شَاءَ فَعَلَ وَإِنْ شَاءَ لَمْ يفعل، ﴿أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ قَالَ أَكْثَرُ الْمُفَسِّرِينَ: مَعْنَاهُ أَفَلَمْ يَعْلَمْ، وَذَلِكَ أَنَّ أَصْحَابَ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما سَمِعُوا هَذَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ طَمِعُوا فِي أَنْ يَفْعَلَ اللهُ مَا سَأَلُوا فيؤمنوا فنزل: ﴿أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يَعْنِي: الصَّحَابَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ مِنْ إِيمَانِ هَؤُلَاءِ أَيْ لم ييأسوا عِلْمًا وَكُلُّ مَنْ عَلِمَ شَيْئًا يَئِسَ مِنْ خِلَافِهِ يَقُولُ: أَلَمْ يُيَئِّسْهُمُ الْعِلْمُ ﴿أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللهُ لَهَدَىٰ النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا﴾ مِنْ كُفْرِهِمْ وَأَعْمَالِهِمُ الْخَبِيثَةِ ﴿قَارِعَةٌ﴾ أَيْ: نَازِلَةٌ وَدَاهِيَةٌ تَقْرَعُهُمْ مِنْ أَنْوَاعِ الْبَلَاءِ أَحْيَانًا بِالْجَدْبِ وَأَحْيَانًا بالسلب وأحيانا بالقتل والأسر ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: الْقَارِعَةُ الطَّلَائِعُ وَالسَّرَايَا الَّتِي كَانَ يُنَفِّذُهَا رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَهُمْ ﴿أَوْ تَحُلُّ﴾ يعني: القارعة، ﴿قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ﴾ وَقِيلَ: أَوْ تَحُلُّ أَيْ تَنْزِلُ أَنْتَ يَا مُحَمَّدُ بِنَفْسِكَ قَرِيبًا مِنْ دِيَارِهِمْ،قال القرطبي : أَيْ لَا تَزَالُ تُصِيبُهُمُ الْقَوَارِعُ فَتَنْزِلُ بِسَاحَتِهِمْ أَوْ بِالْقُرْبِ مِنْهُمْ كَقُرَىٰ الْمَدِينَةِ وَمَكَّةَ. ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللهِ﴾ قِيلَ: يَوْمُ الْقِيَامَةِ. وَقِيلَ: الْفَتْحُ وَالنَّصْرُ وَظُهُورُ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَدِينِهِ، وَقَالَ الْحَسَنُ البصري: وَعْدُ اللهِ يوم القيامة، ﴿إِنَّ اللهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾

وَكَانَ الْكُفَّارُ يَسْأَلُونَ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ عَلَىٰ سَبِيلِ الِاسْتِهْزَاءِ فَأَنْزَلَ اللهُ تَسْلِيَةً لِنَبِيِّهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

[٣٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾ كَمَا اسْتَهْزَءُوا بِكَ، وَالِاسْتِهْزَاءُ: مُبَالِغَةٌ فِي الْهَزْءِ مِثْلَ الِاسْتِسْخَارِ فِي السُّخْرِيَةِ ، ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أَمْهَلْتُهُمْ وَأَطَلْتُ لَهُمُ الْمُدَّةَ وَمِنْهُ الْمَلَوَانِ وَهُمَا اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، فَلَمَّا حَقَّ الْقَضَاءُ أَخَذْتُهُمْ بِالْعُقُوبَةِ وَالْإِمْلَاءُ: الْإِمْهَالُ وَالتَّرْكُ مُدَّةً، وَمِنْهُ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا. ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾ عَاقَبْتُهُمْ فِي الدُّنْيَا بِالْقَتْلِ وَفِي الْآخِرَةِ بِالنَّارِ ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ أَيْ فَكَيْفَ رَأَيْتُمْ مَا صَنَعْتُ بِهِمْ، فَكَذَلِكَ أَصْنَعُ بِمُشْرِكِي قَوْمِكَ ، قال ابن عاشور : وَالْكَلَام تَسْلِيَة للنبيء صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْمُؤْمِنِينَ، ووعيد لِلْمُشْرِكين.

[٣٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ أَيْ: حَافِظُهَا وَرَازِقُهَا وَعَالَمٌ بِهَا وَمُجَازِيهَا بِمَا عَمِلَتْ، وَجَوَابُهُ مَحْذُوفٌ تَقْدِيرُهُ: كَمَنْ لَيْسَ بِقَائِمٍ بَلْ عَاجِزٌ عَنْ نَفْسِهِا قال القرطبي : لَيْسَ هَذَا الْقِيَامُ الْقِيَامَ الَّذِي هُوَ ضِدُّ الْقُعُودِ، بَلْ هُوَ بِمَعْنَىٰ التَّوَلِّي لِأُمُورِ الْخَلْقِ، كَمَا يُقَالُ: قَامَ فُلَانٌ بِشُغْلِ كَذَا، فَإِنَّهُ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ أَيْ يُقْدِرُهَا عَلَىٰ الْكَسْبِ، وَيَخْلُقُهَا وَيَرْزُقُهَا وَيَحْفَظُهَا وَيُجَازِيهَا عَلَىٰ عَمَلِهَا، ﴿وَجَعَلُوا﴾ حَالٌ، أَيْ أَوَقَدْ جَعَلُوا، أَوْ عَطْفٌ عَلَىٰ ﴿ اسْتُهْزِئَ﴾ أَيِ اسْتَهْزَءُوا وَجَعَلُوا، أَيْ سَمُّوا ﴿لِلَّهِ شُرَكَاءَ﴾ يَعْنِي أَصْنَامًا جَعَلُوهَا آلِهَةً ، ﴿قُلْ سَمُّوهُمْ﴾ أَيْ قُلْ لَهُمْ يَا مُحَمَّدُ: ﴿سَمُّوهُمْ﴾ أَيْ بَيِّنُوا

أَسْمَاءَهُمْ، عَلَىٰ جِهَةِ التَّهْدِيدِ، أَيْ إِنَّمَا يُسَمُّونَ: اللَّاتُ وَالْعُزَّىٰ وَمَنَاةُ وَهُبَلُ ، ﴿أَمْ تُنَبِّئُونَهُ﴾ (أَمْ) اسْتِفْهَامُ تَوْبِيخٍ أي: تخبرون الله ﴿بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ﴾ فَإِنَّهُ لَا يَعْلَمُ لِنَفْسِهِ شَرِيكًا وَلَا فِي الْأَرْضِ إِلَهًا غَيْرَهُ وَقِيلَ: الْمَعْنَىٰ قُلْ لَهُمْ أَتُنَبِّئُونَ اللهَ بِبَاطِنٍ لَا يَعْلَمُهُ ﴿أَمْ بِظاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ﴾ يَعْلَمُهُ؟ فَإِنْ قَالُوا: بِبَاطِنٍ لَا يَعْلَمُهُ أَحَالُوا، وَإِنْ قَالُوا: بِظَاهِرٍ يَعْلَمُهُ فَقُلْ لَهُمْ: سَمُّوهُمْ، فَإِذَا سَمَّوْهُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ فَقُلْ لَهُمْ: إِنَّ اللهَ لَا يَعْلَمُ لِنَفْسِهِ شَرِيكًا. ﴿أَمْ بِظَاهِرٍ﴾ يَعْنِي: أَمْ تَتَعَلَّقُونَ بِظَاهِرٍ، قَالَ قَتَادَةُ: مَعْنَاهُ بِبَاطِلٍ مِنَ الْقَوْلِ، ﴿مِنَ الْقَوْلِ﴾ مَسْمُوعٍ وَهُوَ فِي الْحَقِيقَةِ بَاطِلٌ لا أصل له. وقيل: بزائل مِنَ الْقَوْلِ ﴿بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ﴾ كَيَدُهُمْ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: شِرْكُهُمْ وَكَذِبُهُمْ عَلَىٰ اللهِ ﴿وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ﴾ أي: صرفوا عن الدين قال ابن كثير : بِمَا زُيِّنَ لَهُمْ مِنْ صِحَّةِ مَا هُمْ عَلَيْهِ صُدُّوا بِهِ عَنْ سَبِيلِ اللهِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ﴾ بِخُذْلَانِهِ إِيَّاهُ ﴿فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ .

[٣٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ بِالْقَتْلِ وَالْأَسْرِ ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ﴾ أَشَدُّ أَيْ مِنْ هَذَا بِكَثِيرٍ كَمَا قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِلْمُتَلَاعِنِينَ: «إِنَّ عَذَابَ الدُّنْيَا أَهْوَنُ مِنْ عَذَابِ الْآخِرَةِ»، وَهُوَ كَمَا قَالَ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ: فَإِنَّ عَذَابَ الدُّنْيَا لَهُ انْقِضَاءٌ، وَذَاكَ دَائِمٌ أَبَدًا فِي نَارٍ هِيَ بِالنِّسْبَةِ إِلَىٰ هَذِهِ سَبْعُونَ ضِعْفًا، وَوِثَاقٌ لَا يُتَصَوَّرُ كَثَافَتُهُ وَشِدَّتُهُ، ﴿وَمَا لَهُمْ مِنَ اللهِ مِنْ وَاقٍ﴾ مَانِعٍ يَمْنَعُهُمْ مِنَ الْعَذَابِ.

[٣٥] قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾ صِفَةُ الْجَنَّةِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ﴾ [النَّحْلُ: ٦٠] أَيْ: الصِّفَةُ الْعُلْيَا ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أَيْ: صِفَةُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ أَنَّ الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا، وَقِيلَ: مَثَلُ صِلَةٌ مَجَازُهَا الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ. ﴿أُكُلُهَا دَائِمٌ﴾ أَيْ: لَا يَنْقَطِعُ ثَمَرُهَا وَنَعِيمُهَا، ﴿وَظِلُّهَا﴾ أَيْ: ظِلُّهَا ظَلِيلٌ لَا يَزُولُ وَفِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي صَلَاةِ الْكُسُوفِ، وَفِيهِ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ رَأَيْنَاكَ تَنَاوَلْتَ شَيْئًا فِي مَقَامِكَ هَذَا ثُمَّ رَأَيْنَاكَ تَكَعْكَعْتَ، فَقَالَ: «**إِنِّي رَأَيْتُ الْجَنَّةَ - أَوْ أُرِيتُ الْجَنَّةَ - فَتَنَاوَلْتُ مِنْهَا عُنْقُودًا، وَلَوْ أَخَذْتُهُ لَأَكَلْتُمْ مِنْهُ مَا بَقِيَتِ الدُّنْيَا**»(١)، وَقَالَ الْحَافِظُ أَبُو يعلىٰ، عَنْ جَابِرٍ قَالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ فِي صَلَاةِ الظُّهْرِ، إِذْ تَقَدَّمَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَتَقَدَّمْنَا، ثُمَّ تَنَاوَلَ شَيْئًا لِيَأْخُذَهُ ثُمَّ تَأَخَّرَ، فَلَمَّا قَضَىٰ الصَّلَاةَ قَالَ لَهُ أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ: يَا رَسُولَ اللهِ صَنَعْتَ الْيَوْمَ فِي الصَّلَاةِ شَيْئًا مَا رَأَيْنَاكَ كُنْتَ تَصْنَعُهُ، فَقَالَ: «**إِنِّي عُرِضَتْ عليَّ الْجَنَّةُ وَمَا فيها من زهرة وَالنَّضْرَةِ، فَتَنَاوَلْتُ مِنْهَا قِطْفًا مِنْ عِنَبٍ لِآتِيَكُمْ بِهِ فَحِيلَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ، وَلَوْ أَتَيْتُكُمْ بِهِ لَأَكَلَ مِنْهُ مِنْ بَيْنِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا ينقصونه**»(٢)، وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عنه قَالَ، قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّكَ لَتَنْظُرُ**

---

(١) البخاري (١٠٥٢) ومسلم (٩٠٧).

(٢) أحمد (١٤٥٤٥).

إِلَىٰ الطَّيْرِ فِي الْجَنَّةِ فَيَخِرُّ بَيْنَ يَدَيْكَ مَشْوِيًّا»[1]، ﴿تِلْكَ عُقْبَىٰ﴾ أي عاقبة ﴿الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ يَعْنِي الْجَنَّةَ ﴿وَعُقْبَىٰ الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾ أَيْ عَاقِبَةُ أمر المكذبين وآخرتهم النار يدخلونها.

[٣٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ يَعْنِي: الْقُرْآنَ وَهُمْ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ من القرآن ﴿وَمِنَ الْأَحْزَابِ﴾ يَعْنِي: الْكُفَّارَ الَّذِينَ تَحَزَّبُوا عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ - صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَهُمُ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ ﴿مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ﴾ هَذَا قَوْلُ مُجَاهِدٍ وَقَتَادَةَ. وَقَالَ الْآخَرُونَ: كَانَ ذِكْرُ الرَّحْمَنِ قَلِيلًا فِي الْقُرْآنِ فِي الِابْتِدَاءِ فَلَمَّا أَسْلَمَ عَبْدُ اللهِ بْنُ سَلَامٍ وَأَصْحَابُهُ سَاءَهُمْ قِلَّةُ ذِكْرِهِ فِي الْقُرْآنِ مَعَ كَثْرَةِ ذِكْرِهِ فِي التَّوْرَاةِ، فَلَمَّا كَرَّرَ اللهُ ذِكْرَهُ فِي الْقُرْآنِ فَرِحُوا بِهِ فَأَنْزَلَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ﴾ يَعْنِي: مُشْرِكِي مَكَّةَ حِينَ كَتَبَ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي كِتَابِ الصُّلْحِ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ قَالُوا: مَا نَعْرِفُ الرَّحْمَنَ إِلَّا رَحمْنَ الْيَمَامَةِ، يَعْنُونَ مُسَيْلِمَةَ الْكَذَّابَ فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ [الْأَنْبِيَاءُ: ٣٦] ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾ وَإِنَّمَا قَالَ: ﴿بَعْضَهُ﴾ لِأَنَّهُمْ كَانُوا لَا يُنْكِرُونَ ذِكْرَ اللهِ

---

(١) أحمد (١٢٥٤٣).

وَيُنْكِرُونَ ذِكْرَ الرَّحْمَنِ. ﴿قُلْ﴾ يا مُحَمَّدُ، ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ﴾ أَيْ: مَرْجِعِي.

[٣٧] قَوْلُهُ تعَالَىٰ: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾ يَقُولُ: كَمَا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ يَا مُحَمَّدُ فَأَنْكَرَهُ الْأَحْزَابُ كَذَلِكَ أنزلنا إليك الْحكَمَ وَالدِّينَ عَرَبِيًّا، نُسِبَ إِلَىٰ الْعَرَبِ لِأَنَّهُ نَزَلَ بِلُغَتِهِمْ فَكَذَّبَ بِهِ الْأَحْزَابُ، وَقِيلَ: نَظْمُ الْآيَةِ كما أنزل الْكُتُبُ عَلَىٰ الرُّسُلِ بِلُغَاتِهِمْ فَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ حُكْمًا عَرَبِيًّا. ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ وقيل: في القبلة، ﴿أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَمَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ﴾ يَعْنِي: مِنْ نَاصِرٍ وَلَا حَافِظٍ.

[٣٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ﴾ رُوِيَ أَنَّ الْيَهُودَ، وَقِيلَ: إِنَّ الْمُشْرِكِينَ قَالُوا: إِنَّ هَذَا الرَّجُلَ لَيْسَتْ لَهُ هِمَّةٌ إِلَّا فِي النِّسَاءِ فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ مَلَائِكَةً لَا يَأْكُلُونَ وَلَا يَشْرَبُونَ وَلَا يَنْكِحُونَ، ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ يَقُولُ: لِكُلِّ أَمْرٍ قَضَاهُ اللهُ كتاب قد كتبه فِيهِ. وَقِيلَ: فِيهِ تَقْدِيمٌ وَتَأْخِيرٌ تَقْدِيرُهُ أَيْ: لِكُلِّ كِتَابٍ أَجَلٌ وَمُدَّةٌ أَيِ: الْكُتُبُ الْمُنَزَّلَةُ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا وَقْتٌ يَنْزِلُ فِيهِ.

[٣٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَمْحُوا اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ﴾ اخْتَلَفُوا فِي مَعْنَىٰ الْآيَةِ فَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَقَتَادَةُ: يَمْحُو اللهُ مَا يَشَاءُ مِنَ الشَّرَائِعِ وَالْفَرَائِضِ فَيَنْسَخُهُ وَيُبَدِّلُهُ وَيُثْبِتُ مَا يَشَاءُ مِنْهَا فَلَا يَنْسَخُهُ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَمْحُو اللهُ مَا يَشَاءُ

وَيُثْبِتُ إِلَّا الرِّزْقَ وَالْأَجَلَ وَالسَّعَادَةَ والشقاوة وَقِيلَ: مَعْنَىٰ الْآيَةِ إِنَّ الْحَفَظَةَ يَكْتُبُونَ جَمِيعَ أَعْمَالِ بَنِي آدَمَ وَأَقْوَالِهِمْ فَيَمْحُو اللهُ مِنْ دِيوَانِ الْحَفَظَةِ مَا لَيْسَ فِيهِ ثَوَابٌ وَلَا عِقَابٌ، مِثْلُ قَوْلِهِ: أَكَلْتُ، شَرِبْتُ، دَخَلْتُ، خَرَجْتُ، وَنَحْوِهَا مِنْ كَلَامٍ هُوَ صَادِقٌ فِيهِ، وَيُثْبِتُ مَا فِيهِ ثَوَابٌ وَعِقَابٌ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: هُوَ الرَّجُلُ يَعْمَلُ بِطَاعَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ ثُمَّ يَعُودُ لِمَعْصِيَةِ اللهِ فَيَمُوتُ عَلَىٰ ضَلَالَةٍ فَهُوَ الَّذِي يَمْحُو، وَالَّذِي يُثْبِتُ الرَّجُلُ يَعْمَلُ بِطَاعَةِ اللهِ فَيَمُوتُ وَهُوَ فِي طَاعَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فَهُوَ الَّذِي يُثْبِتُ. وقال الحسن البصري: ﴿يَمْحُوا اللهُ مَا يَشَاءُ﴾ أَيْ مَنْ جَاءَ أَجَلُهُ يَذْهَبُ به ويثبت من لم يجئ أجله إلىٰ يوم أجله. وعن سعيد بن جبير قال: ﴿يَمْحُوا اللهُ مَا يَشَاءُ﴾ مِنْ ذُنُوبِ الْعِبَادِ فَيَغْفِرُهَا وَيُثْبِتُ مَا يَشَاءُ فَلَا يَغْفِرُهَا، وَقَالَ عكرمة: ﴿يَمْحُوا اللهُ مَا يَشَاءُ﴾ مِنَ الذُّنُوبِ بِالتَّوْبَةِ وَيُثْبِتُ بَدَلَ الذُّنُوبِ حَسَنَاتٍ، كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ [الفرقان: ٧٠]، ﴿وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ أَيْ: أَصْلُ الْكِتَابِ وَهُوَ اللَّوْحُ الْمَحْفُوظُ الَّذِي لَا يُبَدَّلُ وَلَا يُغَيَّرُ، وَقَالَ ابْن عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: هُمَا كِتَابَانِ: كِتَابٌ سِوَىٰ أُمِّ الْكِتَابِ يَمْحُو مِنْهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ، وَأُمُّ الْكِتَابِ الَّذِي لَا يُغَيَّرُ مِنْهُ شَيْءٌ. وَعَنْ عَطَاءٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: إِنَّ لِلَّهِ تَعَالَىٰ لَوْحًا مَحْفُوظًا مَسِيرَةَ خَمْسِمِائَةِ عَامٍ مِنْ دُرَّةٍ بَيْضَاءَ لَهَا دفتان من يا قوت لله في كل يوم فيه ثلاثمائة وستون لحظة ﴿يَمْحُوا اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ وَسَأَلَ ابْنُ عَبَّاسٍ كَعْبًا عَنْ أُمِّ الْكِتَابِ فَقَالَ: عِلْمُ اللهِ مَا هُوَ خَالِقٌ وَمَا خَلْقُهُ عَامِلُونَ.

[٤٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ﴾ مِنَ الْعَذَابِ قَبْلَ وَفَاتِكَ، ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ قَبْلَ ذَلِكَ، ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ﴾ لَيْسَ عَلَيْكَ إِلَّا ذَلِكَ، ﴿وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ الْجَزَاءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

[٤١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ يَعْنِي: أَهْلَ مَكَّةَ الَّذِينَ يَسْأَلُونَ مُحَمَّدًا صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ أَكْثَرُ الْمُفَسِّرِينَ عَلَىٰ أَنَّ الْمُرَادَ مِنْهُ فَتْحُ دِيَارِ الشِّرْكِ، فَإِنَّ مَا زَادَ فِي دِيَارِ الْإِسْلَامِ فقد نقصر مع دِيَارِ الشِّرْكِ، يَقُولُ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ فَنَفْتَحُهَا لِمُحَمَّدٍ أَرْضًا بَعْدَ أَرْضٍ حَوَالَيْ أَرْضِهِمْ، أَفَلَا يَعْتَبِرُونَ؟ هَذَا قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ وَقَتَادَةَ وَجَمَاعَةٍ. وَقَالَ قَوْمٌ: هُوَ خَرَابُ الْأَرْضِ مَعْنَاهُ أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ فَنُخَرِّبُهَا وَنُهْلِكُ أَهْلَهَا أَفَلَا يَخَافُونَ أَنْ نَفْعَلَ بِهِمْ ذَلِكَ؟ وَقَالَ مُجَاهِدٌ: هُوَ خَرَابُ الْأَرْضِ وَقَبْضُ أَهْلِهَا ، وَعَنْ عِكْرِمَةَ قَالَ: قَبْضُ النَّاسِ ، وَعَنِ الشَّعْبِيِّ مِثْلُهُ، وَقَالَ عَطَاءٌ وَجَمَاعَةٌ: نُقْصَانُهَا موت العلماء، وذهاب الفقهاء قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ اللهَ لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ الْعِبَادِ وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ، حَتَّىٰ إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُؤَسَاءَ جُهَّالًا فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ فَضَلُّوا وأضلوا**»(١) ، قوله : ﴿وَاللهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ﴾ لا راد لِقَضَائِهِ وَلَا نَاقِضَ لِحُكْمِهِ، ﴿وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ .

---

(١) البخاري (١٠٠) ومسلم (٢٦٧٣) .

[٤٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ يَعْنِي: مِنْ قَبْلِ مُشْرِكِي مَكَّةَ، وَالْمَكْرُ: إِيصَالُ الْمَكْرُوهِ إِلَىٰ الْإِنْسَانِ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُ، ﴿فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا﴾ أَيْ: عِنْدَ اللهِ جَزَاءُ مَكْرِهِمْ ، وَقِيلَ: إِنَّ اللهَ خَالِقُ مَكْرِهِمْ جَمِيعًا بِيَدِهِ الْخَيْرُ وَالشَّرُّ وَإِلَيْهِ النفع والضر، فلا يضر أَحَدٍ أَحَدًا إِلَّا بِإِذْنِهِ، ﴿يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَىٰ الدَّارِ﴾ أَيْ: عَاقِبَةُ الدَّارِ الْآخِرَةِ حِينَ يَدْخُلُونَ النَّارَ وَيَدْخُلُ الْمُؤْمِنُونَ الْجَنَّةَ.

[٤٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِاللهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ إني رسول إِلَيْكُمْ ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ يُرِيدُ مُؤْمِنِي أَهْلِ الْكِتَابِ يَشْهَدُونَ أَيْضًا عَلَىٰ ذَلِكَ ، قَالَ قَتَادَةُ: هُوَ عَبْدُ اللهِ بْنُ سَلَامٍ ، وَأَنْكَرَ الشَّعْبِيُّ هَذَا وَقَالَ: السُّورَةُ مَكِّيَّةٌ، وَعَبْدُ اللهِ بْنُ سَلَامٍ أَسْلَمَ بِالْمَدِينَةِ، وَقَالَ أَبُو بِشْرٍ: قُلْتُ لِسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ أَهُوَ عَبْدُ اللهِ بْنُ سَلَامٍ؟ فَقَالَ: وَكَيْفَ يَكُونُ عَبْدُ اللهِ بْنُ سَلَامٍ وَهَذِهِ السُّورَةُ مَكِّيَّةٌ؟ وَقَالَ الْحَسَنُ وَمُجَاهِدٌ: وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ هُوَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ يَدُلُّ عَلَيْهِ قِرَاءَةُ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبَّاسٍ، وَمِنْ عِنْدِهُ بِكَسْرِ الْمِيمِ وَالدَّالِ أَيْ: مِنْ عِنْدِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ.

تَمَّ تَفْسِيرُ سُورَةِ الرعد بِعَوْنِ اللهِ وَتَوْفِيقِهِ، وَوَاسِعِ مَنِّهِ وَكَرَمِهِ

سُورَةُ إِبْرَاهِيمَ

لقد أُضِيفَتْ هَذِهِ السُّورَةُ إِلَىٰ اسْمِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فَكَانَ ذَلِكَ اسْمًا لَهَا لَا يُعْرَفُ لَهَا غَيْرُهُ، قال ابن عاشور : وَوَجْهُ تَسْمِيَتِهَا بِهَذَا - وَإِنْ كَانَ ذِكْرُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ جَرَىٰ فِي كَثِيرٍ مِنَ السُّورِ - أَنَّهَا مِنَ السُّورِ ذَوَاتِ ﴿الر﴾، وَقَدْ مُيِّزَ بَعْضُهَا عَنْ بَعْضٍ بِالْإِضَافَةِ إِلَىٰ أَسْمَاءِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ الَّتِي جَاءَتْ قِصَصُهُمْ فِيهَا، أَوْ إِلَىٰ مَكَانِ بِعْثَةِ بَعْضِهِمْ وَهِيَ سُورَةُ الْحِجْرِ، وَلِذَلِكَ لَمْ تُضَفْ سُورَةُ الرَّعْدِ إِلَىٰ مِثْلِ ذَلِكَ ؛ لِأَنَّهَا متميزة بفاتحها بِزِيَادَةِ حَرْفِ مِيمٍ عَلَىٰ أَلْفٍ وَلَامٍ وَرَاءٍ، وَهِيَ مَكِّيَّةٌ كُلُّهَا عِنْدَ الْجُمْهُورِ، وَعَنْ قَتَادَةَ إِلَّا آيَتَيْ ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللهِ كُفْراً﴾ إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿وَبِئْسَ الْقَرارُ﴾ [سُورَة إِبْرَاهِيم: ٢٨].

[١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿الر﴾ قَدْ سَبَقَ الْقَوْلُ فِي الْحُرُوفِ الْمُقَطَّعَةِ أَوَائِلِ السُّوَرِ، وَأَنَّ فِيهَا بَيَانًا لِإِعْجَازِ هَذَا الْقُرْآنِ الْمُؤَلَّفِ مِنْ جِنْسِ هَذِهِ الْأَحْرُفِ، وَلَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يُرَكِّبَ مِنْ مِثْلِ هَذِهِ الْحُرُوفِ سُورَةً مِنْ مِثْلِهِ ، ﴿كِتَابٌ﴾ أَيْ: هَذَا كِتَابٌ ﴿أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ﴾ يَا مُحَمَّدُ يَعْنِي الْقُرْآنَ، ﴿لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَىٰ النُّورِ﴾ أَيْ مِنْ ظُلُمَاتِ الكفر الضلالة وَالْجَهْلِ إِلَىٰ نُورِ الْإِيمَانِ وَالْعِلْمِ، لِأَنَّ الْكُفْرَ يَجْعَلُ صَاحِبَهُ فِي حَيْرَةٍ فَهُوَ كَالظُّلْمَةِ فِي ذَلِكَ، وَالْإِيمَانُ يُرْشِدُ إِلَىٰ الْحَقِّ

فَهُوَ كَالنُّورِ فِي إِيضَاحِ السَّبِيلِ ، ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ بِأَمْرِ رَبِّهِمْ. وَقِيلَ: بِعِلْمِ رَبِّهِمْ، أَيْ بِتَوْفِيقِهِ إِيَّاهُمْ وَلُطْفِهِ بِهِمْ، وَأُضِيفَ الْفِعْلُ إِلَىٰ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأَنَّهُ الدَّاعِي وَالْمُنْذِرُ ﴿إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ أي: إلىٰ دينه والعزيز هو الغالب والحميد المستحق بالحمد، وَقِيلَ: (الْعَزِيزِ) الْمَنِيعُ فِي مُلْكِهِ وَسُلْطَانِهِ ، (الْحَمِيدِ) أَيِ الْمَحْمُودُ فِي جَمِيعِ أَفْعَالِهِ وَأَقْوَالِهِ وشرعته وأمره ونهيه، وَالْمُمَجَّدُ فِي كُلِّ مَكَانٍ عَلَىٰ كُلِّ حَالٍ ، وَرَوَي عن ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: كَانَ قَوْمٌ آمَنُوا بِعِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ، وَقَوْمٌ كَفَرُوا بِهِ، فَلَمَّا بُعِثَ مُحَمَّدٌ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ آمَنَ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعِيسَىٰ، وَكَفَرَ الَّذِينَ آمَنُوا بِعِيسَىٰ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ.

[٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿اللهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ﴾ أَيْ مُلْكًا وَعَبِيدًا وَاخْتِرَاعًا وَخَلْقًا، قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَوَيْلٌ لِلْكافِرِينَ مِنْ عَذابٍ شَدِيدٍ﴾ قَالَ الزَّجَّاجُ: هِيَ كَلِمَةٌ تُقَالُ لِلْعَذَابِ وَالْهَلَكَةِ، ﴿مِنْ عَذابٍ شَدِيدٍ﴾ أَيْ من جهنم، وَالْكَافِرُونَ هنا هُمُ الْمَعْهُودُونَ وَهُمُ الَّذِينَ لَمْ يَخْرُجُوا مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَىٰ النُّورِ، وَلَا اتَّبَعُوا صِرَاطَ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ، وَلَا انْتَفَعُوا بِالْكِتَابِ الَّذِي أُنْزِلَ لِإِخْرَاجِهِمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَىٰ النُّورِ.

[٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ﴾ يَخْتَارُونَ، وقيل : بِمَعْنَىٰ يُحِبُّونَ، فَالسِّينُ وَالتَّاءُ لِلتَّأْكِيدِ مِثْلَ اسْتَقْدَمَ واستأخر. ﴿الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَىٰ الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ﴾ أَيْ: يَمْنَعُونَ النَّاسَ عَنْ قَبُولِ دين الله، وَقِيلَ: (يَسْتَحِبُّونَ) أَيْ يَلْتَمِسُونَ الدُّنْيَا مِنْ غَيْرِ وَجْهِهَا، لِأَنَّ نِعْمَةَ اللهِ لَا تُلْتَمَسُ إِلَّا

بِطَاعَتِهِ دُونَ مَعْصِيَتِهِ ، وَالصَّدُّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ: مَنْعُ الدَّاخِلِينَ فِي الْإِسْلَامِ مِنَ الدُّخُولِ فِيهِ. شَبَّهَ ذَلِكَ بِمَنْ يَمْنَعُ الْمَارَّ مِنْ سُلُوكِ الطَّرِيقِ. وَجُعِلَ الطَّرِيقُ طَرِيقَ اللهِ لِأَنَّهُ مُوَصِّلٌ إِلَىٰ مَرْضَاتِهِ فَكَأَنَّهُ مُوَصِّلٌ إِلَيْهِ ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أَيْ يَطْلُبُونَ لَهَا زَيْغًا وَمَيْلًا لِمُوَافَقَةِ أَهْوَائِهِمْ، وَقَضَاءِ حَاجَاتِهِمْ وَأَغْرَاضِهِمْ، وَالسَّبِيلُ تُذَكَّرُ وَتُؤَنَّثُ. وَالْعِوَجُ بكسر العين في الدين والأمر والأرضي، وَفِي كُلِّ مَا لَمْ يَكُنْ قَائِمًا، وَبِفَتْحِ الْعَيْنِ فِي كُلِّ مَا كَانَ قَائِمًا، كَالْحَائِطِ وَالرُّمْحِ وَنَحْوِهِ، وَقِيلَ: الْهَاءُ رَاجِعَةٌ إِلَىٰ الدُّنْيَا ومعناه يَطْلُبُونَ الدُّنْيَا عَلَىٰ طَرِيقِ الْمَيْلِ عن الحق، أي بجهة الْحَرَامِ. ﴿أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾.

[٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ بِلُغَتِهِمْ لِيَفْهَمُوا عَنْهُ فَإِنْ قِيلَ: كَيْفَ هَذَا وَقَدْ بَعَثَ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَىٰ كَافَّةِ الْخَلْقِ؟ قِيلَ: بُعِثَ مِنَ الْعَرَبِ بِلِسَانِهِمْ وَالنَّاسُ تَبَعٌ لَهُمْ ثُمَّ بَثَّ الرُّسُلُ إِلَىٰ الْأَطْرَافِ يَدْعُونَهُمْ إِلَىٰ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَيُتَرْجِمُونَ لَهُمْ بِأَلْسِنَتِهِمْ، قال القرطبي : وَلَا حُجَّةَ لِلْعَجَمِ وَغَيْرِهِمْ فِي هَذِهِ الْآيَةِ، لِأَنَّ كُلَّ مَنْ تُرْجِمَ لَهُ مَا جَاءَ بِهِ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَرْجَمَةً يَفْهَمُهَا لَزِمَتْهُ الْحُجَّةُ، وَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿ وَما أَرْسَلْناكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً﴾ ، وقال الطاهر ابن عاشور : وَاخْتَارَ الله عزوجل أَنْ يَكُونَ الْكِتَابُ الْمُنَزَّلُ إِلَيْهِمْ بِلُغَةِ الْعَرَبِ، لِأَنَّهَا أَصْلَحُ اللُّغَاتِ جَمْعَ مَعَانٍ، وَإِيجَازَ عِبَارَةٍ، وَسُهُولَةَ جَرْيٍ عَلَىٰ الْأَلْسُنِ، وَسُرْعَةَ حِفْظٍ، وَجَمَالَ وَقْعٍ فِي الْأَسْمَاعِ، وَجُعِلَتِ الْأُمَّةُ الْعَرَبِيَّةُ هِيَ المتلقية للْكتاب بادئ ذِي بَدْءٍ، وَعُهِدَ

إِلَيْهَا نَشْرُهُ بَيْنَ الْأُمَمِ ، وَفِي الصَّحِيحَيْنِ وَغَيْرِهِمَا مِمَّا ثَبَتَ تَوَاتُرُهُ بِالْوَقَائِعِ المتعددة أنه صلىٰ الله عليه وسلم بعث كتبه يَدْعُو إِلَىٰ اللهِ مُلُوكَ الْآفَاقِ وَطَوَائِفَ بَنِي آدَمَ مِنْ عَرَبِهِمْ وَعَجَمِهِمْ، كِتَابِيِّهِمْ وَأُمِّيِّهِمْ امْتِثَالًا لأمر الله له بذلك، وَقَدْ رُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ، يَهُودِيٌّ وَلَا نَصْرَانِيٌّ، وَمَاتَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَّا كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ**»(١) ، وَقَالَ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**بُعِثْتُ إِلَىٰ الأحمر والأسود**»(٢) ، وقال: «**كان النبي بعث إِلَىٰ قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَىٰ النَّاسِ عَامَّةً**»(٣) ، وروىٰ الإمام أَحْمَدَ، عَنْ أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أَنَّ غُلَامًا يَهُودِيًّا كَانَ يَضَعُ لِلنَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَضُوءَهُ وَيُنَاوِلُهُ نَعْلَيْهِ، فَمَرِضَ فَأَتَاهُ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَدَخَلَ عَلَيْهِ وَأَبُوهُ قَاعِدٌ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يَا فُلَانُ قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ**»، فَنَظَرَ إِلَىٰ أَبِيهِ فَسَكَتَ أَبُوهُ ، فَأَعَادَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَنَظَرَ إِلَىٰ أَبِيهِ، فَقَالَ أَبُوهُ: أَطِعْ أَبَا الْقَاسِمِ، فَقَالَ الْغُلَامُ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّكَ رَسُولُ اللهِ، فَخَرَجَ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ يَقُولُ: «**الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَخْرَجَهُ بِي مِنَ النَّارِ**»(٤) ، وَقَوْلُهُ: ﴿فَيُضِلُّ اللهُ مَن يَشَآءُ

---

(١) مسلم (١٥٣) .

(٢) أحمد (٢١٣٥) .

(٣) البخاري (٣٣٥) ومسلم (٥٢١) .

(٤) البخاري (١٣٥٦) .

وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾ أَيْ بَعْدَ الْبَيَانِ وَإِقَامَةِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ، يُضِلُّ الله مَن يَشَاءُ عَنْ وَجْهِ الْهُدَىٰ، وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ الْحَقِّ ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الَّذِي مَا شَاءَ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ، ﴿الْحَكِيمُ﴾ فِي أَفْعَالِهِ فَيُضِلُّ مَنْ يَسْتَحِقُّ الْإِضْلَالَ، ويهدي من هو أهل لذلك.

[٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنا مُوسىٰ بِآياتِنا﴾ أَيْ بِحُجَّتِنَا وَبَرَاهِينِنَا، أَيْ بِالْمُعْجِزَاتِ الدَّالَّةِ عَلَىٰ صِدْقِهِ ، قَالَ مُجَاهِدٌ: هِيَ التِّسْعُ الْآيَاتِ ﴿أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَىٰ النُّورِ﴾ أَيْ: مِنَ الْكُفْرِ إِلَىٰ الْإِيمَانِ بالدعوة، ﴿وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللهِ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَأُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ: بِنِعَمِ اللهِ ، وَقَالَ مُقَاتِلٌ: بِوَقَائِعِ اللهِ فِي الْأُمَمِ السَّالِفَةِ، قال القرطبي : أَيْ بِمَا أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ فِي إِخْرَاجِهِ إِيَّاهُمْ مِنْ أَسْرِ فِرْعَوْنَ وَقَهْرِهِ وَظُلْمِهِ وَغَشْمِهِ، وَإِنْجَائِهِ إِيَّاهُمْ مِنْ عَدُوِّهِمْ، وَفَلْقِهِ لَهُمُ الْبَحْرَ، وَتَظْلِيلِهِ إِيَّاهُمْ بِالْغَمَامِ، وَإِنْزَالِهِ عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ، إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ النِّعَمِ، وَقَدْ تُسَمَّىٰ النِّعَمُ الْأَيَّامَ، يُقَالُ فُلَانٌ عَالِمٌ بِأَيَّامِ الْعَرَبِ أَيْ بِوَقَائِعِهِمْ، وَإِنَّمَا أَرَادَ بِمَا كَانَ فِي أَيَّامِ اللهِ مِنَ النِّعْمَةِ وَالْمِحْنَةِ فَاجْتَزَأَ بِذِكْرِ الْأَيَّامِ عَنْهَا لِأَنَّهَا كَانَتْ مَعْلُومَةً عِنْدَهُمْ، وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ أَيْ إِنَّ فِيمَا صَنَعْنَا بِأَوْلِيَائِنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ حِينَ أَنْقَذْنَاهُمْ مِنْ يَدِ فِرْعَوْنَ، وَأَنْجَيْنَاهُمْ مِمَّا كَانُوا فِيهِ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ، لَعِبْرَةٌ لِّكُلِّ ﴿صَبَّارٍ﴾ أَيْ فِي الضَّرَّاءِ، ﴿شَكُورٍ﴾ أَيْ فِي السَّرَّاءِ، كَمَا قَالَ قَتَادَةُ: نِعْمَ الْعَبْدُ عَبْدٌ إِذَا ابْتُلِيَ صَبَرَ، وَإِذَا أُعْطِيَ شَكَرَ، وَأَرَادَ لِكُلِّ مُؤْمِنٍ لِأَنَّ الصَّبْرَ وَالشُّكْرَ مِنْ خِصَالِ المؤمنين ، وَكَذَا جَاءَ فِي الصَّحِيحِ

عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «**إِنَّ أَمْرَ الْمُؤْمِنِ كُلَّهُ عَجَبٌ، لَا يَقْضِي اللهُ لَهُ قَضَاءً إِلَّا كَانَ خَيْرًا لَهُ، إِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ**»(١).

[٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ تَذْكِيرُ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَوْمَهُ بِنِعْمَةِ اللهِ الْكَبِيرَةِ عَلَيْهِمْ فِي نَجَاتِهِمْ مِنْ فِرْعَوْنَ وَجُنْدِهِ، الَّذِينَ كَانُوا يُذِيقُونَهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَبْقُونَ نِسَاءَهُمْ، وَفِي ذَلِكُمْ اخْتِبَارٌ مِنَ اللهِ شَدِيدٌ. وَقَضَاءُ اللهِ تَعَالَىٰ بِمُقَابَلَةِ شُكْرِهِ بِمَزِيدِ عَطَائِهِ وَمُقَابَلَةِ جَحْدِ نِعَمِهِ بِالْحِرْمَانِ وَالْعَذَابِ الشَّدِيدِ. وَإِعْلَانُ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِقَوْمِهِ أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ غَنِيٌّ عَنْ شُكْرِ عِبَادِهِ، وَهُوَ الْحَمِيدُ الْمَحْمُودُ وَلَوْ كَفَرَ جَمِيعُ خَلْقِهِ، فَإِنَّمَا مَرَدُّ الْكُفْرِ عَلَىٰ أَهْلِهِ، وَقَوْلُهُ: ﴿إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ أي: حين أنجاكم من أهل دين فوعون وطاعته، وقوله: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ أي: يذيقونكم أذل العذاب وأصعبه، حين كانوا يذبحون مَنْ وجد من أبنائكم، ويستبقون إناثكم، ﴿وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ أَصْلُ الْبَلَاءِ: الِاخْتِبَارُ، وَالْبَلَاءُ هُنَا الْمُصِيبَةُ بِالشَّرِّ، سُمِّيَ بِاسْمِ الِاخْتِبَارِ لِأَنَّهُ اخْتِبَارٌ لِمِقْدَارِ الصَّبْرِ،

---

(١) مسلم (٢٩٩٩).

وَاخْتِيَارُ وَصْفِ الرَّبِّ هُنَا لِلْإِيمَاءِ إِلَىٰ أَنَّهُ أَرَادَ بِهِ صَلَاحَ مُسْتَقْبَلِهِمْ وَتَنْبِيهَهُمْ لِاجْتِنَابِ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ وَتَحْرِيفِ الدِّين.

[٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ﴾ قِيلَ: هُوَ مِنْ قَوْلِ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ، وَقِيلَ هُوَ مِنْ قَوْلِ اللهِ تعالىٰ، أَيْ : وَاذْكُرْ يَا مُحَمَّدُ إِذْ قَالَ رَبُّكَ كَذَا ، وَ(تَأَذَّنَ) وَأَذَّنَ بِمَعْنَىٰ أَعْلَمَ، مِثْلُ أَوْعَدَ وَتَوَعَّدَ، وَمِنْهُ الْأَذَانُ، لِأَنَّهُ إِعْلَامٌ، ﴿ولَئِنْ شَكَرْتُمْ﴾ نعمتي فآمنتم وأطعتم ﴿لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ فِي النِّعْمَةِ ، وَقِيلَ: الشُّكْرُ قَيْدُ الْمَوْجُودِ وَصَيْدُ الْمَفْقُودِ ، وَقِيلَ: لَئِنْ شَكَرْتُمْ بِالطَّاعَةِ لَأَزِيدَنَّكُمْ فِي الثَّوَابِ ، وسئل بَعْضُ الصُّلَحَاءِ عَنِ الشُّكْرِ لِلَّهِ فَقَالَ: أَلَّا تَتَقَوَّىٰ بِنِعَمِهِ عَلَىٰ مَعَاصِيهِ ، وَحُكِيَ عَنْ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ قَالَ: أَيْ رَبِّ كَيْفَ أَشْكُرُكَ، وَشُكْرِي لَكَ نِعْمَةٌ مُجَدَّدَةٌ مِنْكَ عَلَيَّ ، قَالَ: يَا دَاوُدُ الْآنَ شَكَرْتَنِي، وقال جعفر الصادق: إذا سمعت النعمة الشُّكْرِ فَتَأَهَّبْ لِلْمَزِيدِ ، قال القرطبي: فَحَقِيقَةُ الشُّكْرِ عَلَىٰ هَذَا الِاعْتِرَافِ بِالنِّعْمَةِ لِلْمُنْعِمِ ، وَأَلَّا يَصرِفَهَا فِي غَيْرِ طَاعَتِهِ، ﴿وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ﴾ نِعْمَتِي فَجَحَدْتُمُوهَا وَلَمْ تَشْكُرُوهَا، ﴿إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ وَعَدَ بِالْعَذَابِ عَلَىٰ الْكُفْرِ، كَمَا وَعَدَ بِالزِّيَادَةِ عَلَىٰ الشُّكْرِ، وقد جاء الْحَدِيثِ: «**إِنَّ الْعَبْدَ لَيُحْرَمُ الرِّزْقَ بِالذَّنْبِ يُصِيبُهُ**»[١].

---

(١) أحمد (٢٢٣٨٦) .

[٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ أَيْ: غَنِيٌّ عَنْ خَلْقِهِ حَمِيدٌ مَحْمُودٌ فِي أَفْعَالِهِ لِأَنَّهُ فِيهَا مُتَفَضِّلٌ وَعَادِلٌ، وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ: «**يَقُولُ اللهُ تَعَالَىٰ: يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَىٰ أَتْقَىٰ قَلْبِ رَجُلٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَىٰ أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ مِنْكُمْ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مِلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللهَ، وَمِنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومُنَّ إِلَّا نَفْسَهُ**»(١).

[٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ﴾ خَبَرُ الَّذِينَ ﴿مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللهُ﴾ أَيْ لَا يُحْصِي عَدَدَهُمْ إِلَّا اللهُ، وَلَا يَعْرِفُ نَسَبَهُمْ إِلَّا اللهُ ﴿جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أَيْ بِالْحُجَجِ وَالدِّلَالَاتِ الْوَاضِحَة ، ﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾ اخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ في معناه، قيل: مَعْنَاهُ أَنَّهُمْ أَشَارُوا إِلَىٰ أَفْوَاهِ الرُّسُلِ يَأْمُرُونَهُمْ بِالسُّكُوتِ عَنْهُمْ لَمَّا دَعَوْهُمْ إِلَىٰ اللهِ عزَّ وجلَّ، وَقِيلَ بَلْ وَضَعُوا أَيْدِيَهُمْ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ تكذيبًا لهم، قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: عَضُّوا عَلَىٰ أَيْدِيهِمْ غَيْظًا كَمَا قَالَ: ﴿عَضُّواْ عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ﴾ [آل عمران : ١١٩] ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لَمَّا سَمِعُوا

---

(١) مسلم (٢٥٧٧).

كِتَابَ اللهِ عَجِبُوا وَرَجَعُوا بِأَيْدِيهِمْ إِلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ. قَالَ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ: كَذَّبُوا الرُّسُلَ وَرَدُّوا مَا جَاءُوا بِهِ، يُقَالُ: رَدَدْتُ قَوْلَ فُلَانٍ فِي فِيهِ أَيْ كَذَّبْتُهُ ، وَقَالَ الْكَلْبِيُّ: يَعْنِي أَنَّ الْأُمَمَ رَدُّوا أيديهم في أفواههم أي فِي أَفْوَاهِ أَنْفُسِهِمْ أَيْ وَضَعُوا الْأَيْدِيَ عَلَىٰ الْأَفْوَاهِ إِشَارَةً إِلَىٰ الرُّسُلِ أَنِ اسْكُتُوا، وَقَالَ مُقَاتِلٌ: فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ عَلَىٰ أَفْوَاهِ الرُّسُلِ يسكتونهم بذلك، وقيل: إن الْأَيْدِي بِمَعْنَىٰ النِّعَمِ مَعْنَاهُ، رَدُّوا مَا لَوْ قَبِلُوا كَانَتْ أَيَادِيَ وَنِعَمًا فِي أَفْوَاهِهِمْ أَيْ: بِأَفْوَاهِهِمْ يعني: بألسنتهم ، ﴿وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ مُوجِبٍ لِلرِّيبَةِ مُوقِعٍ لِلتُّهْمَةِ، يُقَالُ: أَرَبْتُهُ إِذْ فَعَلْتُ أَمْرًا أَوْجَبَ رِيبَةً وَشَكًّا، أَيْ نَظُنُّ أَنَّكُمْ تَطْلُبُونَ الملك والدنيا.

[١٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللهِ شَكٌّ﴾ اسْتِفْهَامٌ مَعْنَاهُ الْإِنْكَارُ، أَيْ لَا شَكَّ فِي اللهِ، أَيْ فِي تَوْحِيدِهِ، قَالَ قَتَادَةُ ، وَقِيلَ: فِي طَاعَتِهِ ، وَيَحْتَمِلُ وَجْهًا ثَالِثًا: أَفِي قُدْرَةِ اللهِ شَكٌّ؟! لِأَنَّهُمْ مُتَّفِقُونَ عَلَيْهَا وَمُخْتَلِفُونَ فِيمَا عَدَاهَا، يَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ: ﴿فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ خَالِقُهُمَا، وَالْفَاطِرُ: فَاعِلُ الْفَطْرِ، وَهُوَ الْخَلْقُ، وَفِيهِ مَعْنَىٰ التَّكَوُّنِ سَرِيعًا لِأَنَّهُ مُشْتَقٌّ مِنَ الْفَطْرِ وَهُوَ الشَّقُّ، وَمِنْهُ قوله تعالىٰ ﴿إِذَا السَّماءُ انْفَطَرَتْ﴾ [الانفطار: ١] ، وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ «كُنْتُ لَا أَدْرِي مَا فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ (أَيْ لِعَدَمِ جَرَيَانِ هَذَا اللَّفْظِ بَيْنَهُمْ فِي زَمَانِهِ) حَتَّىٰ أَتَانِي أَعْرَابِيَّانِ يَخْتَصِمَانِ فِي بِئْرٍ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا: أَنَا فَطَرْتُهَا، أَيْ أَنَا ابْتَدَأْتُهَا. ﴿يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ أي: ذنوبكم، وقال الطبري: يقول:

يدعوكم إلىٰ توحيدهِ وطاعته، ﴿لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾، يقول: فيستر عليكم بعضَ ذنوبكم بالعفو عنها، فلا يعاقبكم عليها، ﴿وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّىٰ﴾ إِلَىٰ حِينِ اسْتِيفَاءِ آجَالِكُمْ فَلَا يعاجلكم بالعذاب، ﴿قَالُوا﴾ للرسل، ﴿إِنْ أَنْتُمْ﴾ مَا أَنْتُمْ، ﴿إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ فِي الْهَيْئَةِ وَالصُّورَةِ، تَأْكُلُونَ مِمَّا نَأْكُلُ، وَتَشْرَبُونَ مِمَّا نَشْرَبُ، وَلَسْتُمْ مَلَائِكَةً، ﴿تُرِيدُونَ﴾ بِقَوْلِكُمْ، ﴿تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونا عَمَّا كانَ يَعْبُدُ آباؤُنا﴾ مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَوْثَانِ ﴿فَأْتُونا بِسُلْطانٍ مُبِينٍ﴾ أي بحجة ظاهرة، وكان مُحَالًا مِنْهُمْ، فَإِنَّ الرُّسُلَ مَا دَعُوا إِلَّا ومعهم المعجزات.

[١١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ أَيْ فِي الصُّورَةِ وَالْهَيْئَةِ كَمَا قُلْتُمْ ، ﴿وَلكِنَّ اللهَ يَمُنُّ عَلىٰ مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ﴾ أَيْ يَتَفَضَّلُ عليه بِالنُّبُوَّةِ وَالْحِكْمَةِ، . وَقِيلَ، بِالتَّوْفِيقِ وَالْحِكْمَةِ وَالْمَعْرِفَةِ وَالْهِدَايَةِ. وَقَالَ سَهْلُ بْنُ عَبْدِ اللهِ: بِتِلَاوَةِ الْقُرْآنِ وَفَهْمِ مَا فِيهِ، ﴿وَما كانَ لَنا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطانٍ﴾ أَيْ بِحُجَّةٍ وَآيَةٍ، ﴿إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ﴾ أَيْ بِمَشِيئَتِهِ، وَلَيْسَ ذَلِكَ فِي قُدْرَتِنَا، أَيْ لَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَأْتِيَ بِحُجَّةٍ كَمَا تَطْلُبُونَ إِلَّا بِأَمْرِهِ وَقُدْرَتِهِ، ﴿وَعَلَىٰ اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾.

[١٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَىٰ اللهِ﴾ وَقَدْ عَرَفْنَا أَنْ لَا نَنَالَ شَيْئًا إِلَّا بِقَضَائِهِ وَقَدَرِهِ: أي شي لَنَا فِي تَرْكِ التَّوَكُّلِ عَلَىٰ اللهِ ، وَالتَّوَكُّلُ: الِاعْتِمَادُ وَتَفْوِيضُ التَّدْبِيرِ إِلَىٰ الْغَيْرِ ثِقَةٌ بِأَنَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَصْلُحُ، فَالتَّوَكُّلُ عَلَىٰ اللهِ تَحَقَّقَ أَنَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَنْفَعُ أَوْلِيَاءَهُ مِنْ خَيْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. وَفِي الْحَدِيثِ: «**لَوْ تَوَكَّلْتُمْ عَلَىٰ**

اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرُزِقْتُمْ كَمَا تُرْزَقُ الطَّيْرُ تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا»[1] ، ﴿وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا﴾ أَيِ الطَّرِيقَ الَّذِي يُوَصِّلُ إِلَىٰ رحمته، وينجي من سخطه ونقمته ، ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ﴾ اللام لام القسم مجازا، وَاللهِ لِنَصْبِرَنَّ ﴿عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَىٰ اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ .

[١٣] قوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ يَعْنُونَ إِلَّا أَنْ تَرْجِعُوا أَوْ حَتَّىٰ تَرْجِعُوا إِلَىٰ دِينِنَا، قال القرطبي: خَيَّرَ الْكُفَّارُ الرُّسُلَ بَيْنَ أَنْ يَعُودُوا فِي مِلَّتِهِمْ أَوْ يُخْرِجُوهُمْ مِنْ أَرْضِهِمْ، وَهَذِهِ سِيرَةُ اللهِ تَعَالَىٰ فِي رُسُلِهِ وَعِبَادِهِ، قال ابن عاشور : والظَّاهِرُ عِنْدِي أَنَّ الْمُرَادَ بِ الَّذِينَ كَفَرُوا هُنَا كُفَّارُ قُرَيْشٍ عَلَىٰ طَرِيقَةِ التَّوْجِيهِ، وَأَنَّ المُرَاد ب لِرُسُلِهِمْ الرَّسُولُ مُحَمَّدٌ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾.

[١٤] قوْلُهُ تَعَالَىٰ ﴿وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ أي: بَعْدِ هَلَاكِهِمْ، وَإِسْكَانُ الْأَرْضِ: التَّمْكِينُ مِنْهَا وَتَخْوِيلُهَا إِيَّاهُمْ، كَقَوْلِهِ: وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيارَهُمْ ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي﴾ أي: خاف قِيَامَهُ بَيْنَ يَدَيَّ كَمَا قَالَ: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ فَأَضَافَ قِيَامَ الْعَبْدِ إِلَىٰ نَفْسِهِ، كَمَا تَقُولُ: نَدِمْتُ عَلَىٰ ضَرْبِكَ أَيْ عَلَىٰ ضَرْبِي إِيَّاكَ، وَقيل : مَعْنَىٰ خاف مَقامِي خَافَنِي ﴿وَخَافَ

---

(١) الترمذي (٢٣٤٤) وابن ماجه (٤١٦٤) من حديث عمر رضي الله عنه.

وَعِيدِ﴾ أي عقابي، وَقَالَ الْأَخْفَشُ: ﴿ ذلِكَ لِمَنْ خافَ مَقامِي﴾ أَيْ عَذَابِي، ﴿وَخافَ وَعِيدِ﴾ أَيِ الْقُرْآنَ وَزَوَاجِرَهُ.

[١٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَاسْتَفْتَحُوا﴾ أَيِ: اسْتَنْصَرُوا ، أَيْ أَذِنَ لِلرُّسُلِ فِي الِاسْتِفْتَاحِ عَلَىٰ قَوْمِهِمْ، وَالدُّعَاءِ بِهَلَاكِهِمْ وقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَعْنِي الْأُمَمَ وَذَلِكَ أَنَّهُمْ قَالُوا: اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَؤُلَاءِ الرُّسُلُ صَادِقِينَ فَعَذِّبْنَا، نَظِيرُهُ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ [الْأَنْفَالِ: ٣٢] وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ: وَاسْتَفْتَحُوا يَعْنِي الرُّسُلَ وَذَلِكَ أَنَّهُمْ لَمَّا يَئِسُوا مِنْ إِيمَانِ قَوْمِهِمُ اسْتَنْصَرُوا اللهَ وَدَعَوْا عَلَىٰ قَوْمِهِمْ بالعذاب، كما قال نُوحٌ: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَىٰ الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نُوحٌ: ٢٦] ، وقال موسىٰ: ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [يُونُسَ: ٨٨] الْآيَةَ ، قوله : ﴿وَخَابَ﴾ خَسِرَ ، وَقِيلَ: هَلَكَ، ﴿كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ وَالْجَبَّارُ: الَّذِي لَا يَرَىٰ فَوْقَهُ أَحَدًا ، وَالْجَبْرِيَّةُ: طَلَبُ الْعُلُوِّ بِمَا لَا غَايَةَ وَرَاءَهُ. وَهَذَا الْوَصْفُ لَا يَكُونُ إِلَّا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَقِيلَ: الْجَبَّارُ: الَّذِي يُجْبِرُ الْخَلْقَ عَلَىٰ مُرَادِهِ، وَالْعَنِيدُ: الْمُعَانِدُ لِلْحَقِّ وَمُجَانِبُهُ ، قَالَهُ مُجَاهِدٌ، وَعَنِ ابن عباس: هُوَ الْمُعْرِضُ عَنِ الْحَقِّ. وَقَالَ مُقَاتِلٌ: هُوَ الْمُتَكَبِّرُ، وَقَالَ قَتَادَةُ: الْعَنِيدُ الَّذِي أَبَىٰ أَنْ يَقُولَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ. وَقَالَ الْهَرَوِيُّ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ:﴿ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ أَيْ جَائِرٌ عَنِ الْقَصْدِ، وَهُوَ الْعَنُودُ وَالْعَنِيدُ وَالْعَانِدُ، وَقِيلَ: الْعَنُودُ والعنيد الذي يَتَكَبَّرُ عَلَىٰ الرُّسُلِ وَيَذْهَبُ عَنْ

طَرِيقِ الْحَقِّ فَلَا يَسْلُكُهَا، تَقُولُ الْعَرَبُ: شَرُّ الْإِبِلِ الْعَنُودُ الَّذِي يَخْرُجُ عَنِ الطَّرِيقِ. وَقِيلَ: الْعَنِيدُ الْعَاصِي.

[١٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ﴾ أَيْ: أَمَامَهُ كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ﴾ [الْكَهْفِ: ٧٩] أَيْ أَمَامَهُمْ، وَقَالَ الْأَخْفَشُ: هُوَ كَمَا يُقَالُ: هَذَا الْأَمْرُ مِنْ وَرَائِكَ يُرِيدُ أَنَّهُ سَيَأْتِيكَ، وَأَنَا مِنْ وَرَاءِ فُلَانٍ يَعْنِي أَصِلُ إِلَيْهِ. وَقَالَ مُقَاتِلٌ: مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ أَيْ بَعْدَهُ. ﴿وَيُسْقَىٰ مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ﴾ أَيْ: مِنْ مَاءٍ هُوَ صَدِيدٌ وَهُوَ مَا يَسِيلُ مِنْ أَبْدَانِ الْكُفَّارِ مِنَ الْقَيْحِ وَالدَّمِ. وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ: مَا يَسِيلُ مِنْ فُرُوجِ الزُّنَاةِ يُسْقَاهُ الْكَافِرُ.

[١٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَتَجَرَّعُهُ﴾ أَيْ: يَتَحَسَّاهُ وَيَشْرَبُهُ لَا بِمَرَّةٍ وَاحِدَةٍ بَلْ جُرْعَةً جُرْعَةً لِمَرَارَتِهِ وحرارته، ﴿وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ﴾ يَكَادُ صِلَةٌ أَيْ لَا يُسِيغُهُ، كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا﴾ [النُّورِ: ٤٠] أَيْ: لَمْ يَرَهَا، قَالَ ابن عباس: لَا يُجِيزُهُ، وَقِيلَ: مَعْنَاهُ: يَكَادُ لَا يُسِيغُهُ وَيُسِيغُهُ فَيَغْلِي فِي جوفه يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ [مُحَمَّدٍ: ١٥] وَالسَّوْغُ انْحِدَارُ الشَّرَابِ فِي الْحَلْقِ بِدُونِ غُصَّةٍ، وَذَلِكَ إِذَا كَانَ الشَّرَابُ غَيْرَ كَرِيهِ الطَّعْمِ وَلَا الرِّيحِ، يُقَالُ سَاغَ الشَّرَابُ، وَشَرَابٌ سَائِغٌ. ويقول: ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾ يعني يجدهم الْمَوْتِ وَأَلَمَهُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ مِنْ أَعْضَائِهِ، قَالَ إِبْرَاهِيمُ التَّيْمِيُّ: حَتَّىٰ مِنْ تَحْتِ كُلِّ شَعْرَةٍ مِنْ جَسَدِهِ. وَقِيلَ: يَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ قُدَّامِهِ وَمِنْ خَلْفِهِ وَمِنْ فَوْقِهِ وَمِنْ تَحْتِهِ وَعَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ ﴿وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ فَيَسْتَرِيحُ، قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ:

تُعَلَّقُ بنفسه عند حنجرته ولا تَخْرُجُ مِنْ فِيهِ فَيَمُوتُ وَلَا تَرْجِعُ إِلَىٰ مَكَانِهَا مِنْ جَوْفِهِ فتنفعه الحياة. نظيرها ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا﴾ [طه: ٧٤] ﴿وَمِنْ وَرَائِهِ﴾ أمامه ﴿عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ شَدِيدٌ ، وَقِيلَ: الْعَذَابُ الْغَلِيظُ: الْخُلُودُ في النار. وَالْغَلِيظُ: حَقِيقَتُهُ الْخَشِنُ الْجِسْمِ، وَهُوَ مُسْتَعْمَلٌ هُنَا فِي الْقُوَّةِ وَالشِّدَّةِ بِجَامِعِ الْوَفْرَةِ فِي كُلٍّ، أَيْ عَذَابٌ لَيْسَ بِأَخَفِّ مِمَّا هُوَ فِيهِ ، وَقَالَ فُضَيْلُ بْنُ عِيَاضٍ فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَىٰ:﴿ وَمِنْ وَرائِهِ عَذابٌ غَلِيظٌ﴾ قال: حبس الأنفاس.

[١٨] قوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ﴾ يعني: مثل أَعْمَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ ، قال ابن كثير : ي مثل أعمالهم يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِذَا طَلَبُوا ثَوَابَهَا مِنَ اللهِ تعالىٰ، لأنهم كانوا يحسبون أنهم كانوا علىٰ شيء، فلم يجدوا شيئًا إِلَّا كَمَا يُتَحَصَّلُ مِنَ الرَّمَادِ إِذَا اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ الْعَاصِفَةُ ﴿كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ وَصَفَ الْيَوْمَ بالعاصف، والعاصف مِنْ صِفَةِ الرِّيحِ لِأَنَّ الرِّيحَ تَكُونُ فيه، كَمَا يُقَالُ: يَوْمٌ حَارٌّ، وَيَوْمٌ بَارِدٌ لِأَنَّ الْحَرَّ وَالْبَرْدَ فِيهِ ، وَقِيلَ: مَعْنَاهُ فِي يَوْمٍ عَاصِفِ الرِّيحِ فَحَذَفَ الرِّيحَ لِأَنَّهَا قَدْ ذُكِرَتْ مِنْ قَبْلُ، وَهَذَا مَثَلٌ ضَرَبَهُ اللهُ لِأَعْمَالِ الْكُفَّارِ يُرِيدُ أَنَّهُمْ لَا يَنْتَفِعُونَ بِأَعْمَالِهِمُ الَّتِي عَمِلُوهَا فِي الدُّنْيَا؛ لِأَنَّهُمْ أَشْرَكُوا فِيهَا غَيْرَ اللهِ كَالرَّمَادِ الَّذِي ذَرَتْهُ الرِّيحُ لَا يُنْتَفَعُ بِهِ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَا يَقْدِرُونَ﴾ يعني: الكفار ﴿مِمَّا كَسَبُوا﴾ في الدنيا، ﴿عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ فِي الْآخِرَةِ، أَيْ مِنْ ثَوَابِ مَا عَمِلُوا مِنَ الْبِرِّ فِي الدُّنْيَا، لِإِحْبَاطِهِ بِالْكُفْرِ. ﴿ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ أَيِ الْخُسْرَانُ الْكَبِيرُ، وَإِنَّمَا جَعَلَهُ كَبِيرًا بَعِيدًا لِفَوَاتِ اسْتِدْرَاكِهِ بِالْمَوْتِ.

[١٩] قوْلُهُ تعَالَىٰ : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ لرُّؤْيَةُ هُنَا رُؤْيَةُ الْقَلْبِ، لِأَنَّ الْمَعْنَىٰ: أَلَمْ يَنْتَهِ عِلْمُكَ إِلَيْهِ؟﴿بِالْحَقِّ﴾ أَيْ: لَمْ يَخْلُقْهُمَا بَاطِلًا وَإِنَّمَا خَلَقَهُمَا لِأَمْرٍ عَظِيمٍ، وَمَعْنَىٰ﴿بِالْحَقِّ﴾ لِيَسْتَدِلَّ بِهَا عَلَىٰ قُدْرَتِهِ ، قال ابن كثير : يَقُولُ تَعَالَىٰ مُخْبِرًا عَنْ قُدْرَتِهِ عَلَىٰ مَعَادِ الْأَبْدَانِ يَوْمَ القيامة، بأنه خلق السماوات وَالْأَرْضَ الَّتِي هِيَ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ، أفليس الذي قَدَرَ عَلَىٰ خَلْقِ هَذِهِ السَّمَاوَاتِ فِي ارْتِفَاعِهَا وَاتِّسَاعِهَا وَعَظَمَتِهَا، وَمَا فِيهَا مِنَ الكواكب الثوابت والسيارات وَالْآيَاتِ الْبَاهِرَاتِ، وَهَذِهِ الْأَرْضُ بِمَا فِيهَا مِنْ مِهَادٍ وَوِهَادٍ، وَأَوْتَادٍ وَبَرَارِي وَصَحَارِي وَقِفَارٍ وَبِحَارٍ وأشجار، ونبات وحيوان علىٰ اختلاف أصنافها ومنافِعها، وأشكالها وألوانها ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ سِوَاكُمْ أَطْوَعَ لِلَّهِ مِنْكُمْ. قال النسفي: أي هو قادرٌ علىٰ أن يعدم الناس ويخلق مكانهم خلقًا آخر علىٰ شكلهم أو علىٰ خلاف شكلهم إعلامًا بأنه قادرٌ علىٰ إعدام الموجود وإيجادِ المعدوم.

[٢٠] قوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا ذَلِكَ عَلَىٰ اللهِ بِعَزِيزٍ﴾ مَنِيعٍ شَدِيدٍ، يَعْنِي أَنَّ الْأَشْيَاءَ تُسَهَّلُ فِي الْقُدْرَةِ لَا يَصْعُبُ علىٰ الله شَيْءٌ وَإِنْ جَلَّ وَعَظُمَ.

[٢١] قوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ أَيْ: خَرَجُوا مِنْ قُبُورِهِمْ إِلَىٰ اللهِ وَظَهَرُوا جَمِيعًا، يَعْنِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَالْبُرُوزُ الظُّهُورُ، وَالْبَرَازُ الْمَكَانُ الْوَاسِعُ لِظُهُورِهِ، ﴿فَقَالَ الضُّعَفَاءُ﴾ يعني الأتباع، ﴿لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ أَيْ: تَكَبَّرُوا عَلَىٰ النَّاسِ وَهُمُ الْقَادَةُ وَالرُّؤَسَاءُ، ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ جَمْعُ تَابِعٍ مِثْلُ حَرَسٍ

وَحَارِسٍ، ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ﴾ دَافِعُونَ، ﴿عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا﴾ يعني القادة للمتبوعين، ﴿لَوْ هَدَانَا اللهُ لَهَدَيْنَاكُمْ﴾ أَيْ: لَوْ هَدَانَا اللهُ لَدَعَوْنَاكُمْ إِلَىٰ الْهُدَىٰ، فَلَمَّا أَضَلَّنَا دَعَوْنَاكُمْ إِلَىٰ الضَّلَالَةِ، ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ﴾ مهرب ولا منجىٰ ، يُقَالُ: حَاصَ فُلَانٌ عَنْ كَذَا أَيْ فَرَّ وَزَاغَ يَحِيصُ حَيْصًا ، وَالْمَعْنَىٰ: مَا لَنَا وَجْهٌ نَتَبَاعَدُ بِهِ عَنِ النَّارِ، وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كعب القرظي: ذكر لما أَنَّ أَهْلَ النَّارِ يَقُولُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: يَا هؤلاء! قد نزل بكم من البلا وَالْعَذَابِ مَا قَدْ تَرَوْنَ، فَهَلُمَّ فَلْنَصْبِرْ، فَلَعَلَّ الصَّبْرَ يَنْفَعُنَا كَمَا صَبَرَ أَهْلُ الطَّاعَةِ عَلَىٰ طَاعَةِ اللهِ فَنَفَعَهُمُ الصَّبْرُ إِذْ صَبَرُوا، فَأَجْمَعُوا رَأْيَهُمْ عَلَىٰ الصَّبْرِ فَصَبَرُوا، فَطَالَ صَبْرُهُمْ فَجَزِعُوا، فَنَادَوْا: ﴿سَواءٌ عَلَيْنا أَجَزِعْنا أَمْ صَبَرْنا مَا لَنا مِنْ مَحِيصٍ﴾ أَيْ مَنْجًىٰ.

[٢٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ﴾ يَعْنِي: إِبْلِيسَ، قالَ الْحَسَنُ البصري: يَقِفُ إِبْلِيسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ خَطِيبًا فِي جَهَنَّمَ عَلَىٰ مِنْبَرٍ مِنْ نَارٍ يَسْمَعُهُ الْخَلَائِقُ جَمِيعًا، قال القرطبي : يعنِي الْبَعْثَ وَالْجَنَّةَ وَالنَّارَ وَثَوَابَ الْمُطِيعِ وَعِقَابَ الْعَاصِي فَصَدَقَكُمْ وَعْدَهُ، وَوَعَدْتُكُمْ أَنْ لَا بَعْثَ وَلَا جَنَّةَ وَلَا نَارَ وَلَا ثَوَابَ وَلَا عِقَابَ فَأَخْلَفْتُكُمْ ، ﴿لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ﴾ أَيْ فُرِغَ مِنْهُ فَأُدْخِلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ وَأَهْلُ النَّارِ النَّارَ، وَقَالَ مُقَاتِلٌ: يُوضَعُ لَهُ مِنْبَرٌ فِي النَّارِ فَيَرْقَاهُ فَيَجْتَمِعُ عَلَيْهِ الكفار بالأئمة فَيَقُولُ لَهُمْ، ﴿إِنَّ اللهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ﴾ فَوَفَّىٰ لَكُمْ بِهِ، ﴿وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ وَقِيلَ: يَقُولُ لَهُمْ: قُلْتُ لَكُمْ: لَا بَعْثَ وَلَا جَنَّةَ وَلَا نَارَ. ﴿وَمَا كَانَ

لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ﴾ وِلاَيَةٍ، وَقِيلَ: لَمْ آتِكُمْ بِحُجَّةٍ فِيمَا دَعَوْتُكُمْ إِلَيْهِ، ﴿إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ﴾ هَذَا اسْتِثْنَاءٌ مُنْقَطِعٌ مَعْنَاهُ: وَلَكِنْ ﴿دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ بِإِجَابَتِي وَمُتَابَعَتِي مِنْ غَيْرِ سُلْطَانٍ وَلَا بُرْهَانٍ، ﴿مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ﴾ بمغيثكم وَالصَّارِخُ وَالْمُسْتَصْرِخُ هُوَ الَّذِي يَطْلُبُ النُّصْرَةَ وَالْمُعَاوَنَةَ، وَالْإِصْرَاخُ: الْإِغَاثَةُ، اشْتُقَّ مِنَ الصُّرَاخِ لِأَنَّ الْمُسْتَغِيثَ يَصْرُخُ بِأَعْلَىٰ صَوْتِهِ، ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ﴾ بمغيثي ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِنْ قَبْلُ﴾ أَيْ: كَفَرْتُ بِجَعْلِكُمْ إِيَّايَ شَرِيكًا فِي عِبَادَتِهِ، وَتَبَرَّأْتُ مِنْ ذَلِكَ، وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: إِنِّي كَفَرْتُ الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَدَّعُونَهُ فِي الدُّنْيَا مِنَ الشِّرْكِ بِاللهِ تَعَالَىٰ، قَالَ قَتَادَةُ: إِنِّي عَصَيْتُ اللهَ، وقَالَ الثَّوْرِيُّ: كَفَرْتُ بِطَاعَتِكُمْ إِيَّايَ فِي الدُّنْيَا قال ابن عاشور: وَالْإِشْرَاكُ الَّذِي كَفَرَ بِهِ إِشْرَاكُهُمْ إِيَّاهُ فِي الْعِبَادَةِ بِأَنْ عَبَدُوهُ مَعَ اللهِ لِأَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ مَنْ يَعْبُدُونَ الشَّيَاطِينَ وَالْجِنَّ، فَهَؤُلَاءِ يَعْبُدُونَ جِنْسَ الشَّيْطَانِ مُبَاشَرَةً، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْبُدُونَ الْأَصْنَامَ فَهُمْ يَعْبُدُونَ الشَّيَاطِينَ بِوَاسِطَةِ عِبَادَةِ آلِهَتِهِ.

﴿إِنَّ الظَّالِمِينَ﴾ الكافرين، ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ قال ابن كثير: وتكون هَذِهِ الْخُطْبَةَ مِنْ إِبْلِيسَ بَعْدَ دُخُولِهِمُ النَّارَ، قال الشعبي: يقوم خطيبان يوم القيامة علىٰ رؤوس الناس، يقول تعالىٰ لعيسىٰ بن مَرْيَمَ: ﴿أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دون الله﴾ [المائدة: ١٦]، قَالَ: وَيَقُومُ إِبْلِيسُ لَعَنَهُ اللهُ فَيَقُولُ: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فاستجبتم لِي﴾.

[٢٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ جَنَّاتٍ﴾ أَيْ فِي جَنَّاتٍ ، لَمَّا أَخْبَرَ تَعَالَىٰ بِحَالِ أَهْلِ النَّارِ أَخْبَرَ بِحَالِ أَهْلِ الْجَنَّةِ أَيْضًا ، ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ أَيْ بِأَمْرِهِ ، وَقِيلَ: بِمَشِيئَتِهِ وَتَيْسِيرِهِ. وَقَالَ: ﴿ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ وَلَمْ يَقُلْ: بِإِذْنِي تَعْظِيمًا وَتَفْخِيمًا ، ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيها سَلامٌ﴾ يُسَلِّمُ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَتُسَلِّمُ الْمَلَائِكَةُ عَلَيْهِمْ. وَقِيلَ: الْمُحَيِّي بِالسَّلَامِ هو الله عز وجل، وفي الحديث عَنْ عَبْدِ اللهِ ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «**إِنَّ السَّلَامَ اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللهِ وَضَعَهُ فِي الْأَرْضِ، فَأَفْشُوا بَيْنَكُمْ، فَإِنَّ الرَّجُلَ الْمُسْلِمَ إِذَا مَرَّ بِقَوْمٍ فَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ فَرَدُّوا عَلَيْهِ كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ فَضْلُ دَرَجَةٍ بِتَذْكِيرِهِ إِيَّاهُمُ السَّلَامَ، فَإِنْ لَمْ يَرُدُّوا عَلَيْهِ رَدَّ عَلَيْهِ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنْهُمْ وَأَطْيَبُ**»(١).

[٢٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ، وَالْمَثَلُ قَوْلٌ سَائِرٌ لِتَشْبِيهِ شَيْءٍ بِشَيْءٍ ، قال القرطبي : لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَىٰ مَثَلَ أَعْمَالِ الْكُفَّارِ وَأَنَّهَا كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ، ذَكَرَ مَثَلَ أَقْوَالِ الْمُؤْمِنِينَ وَغَيْرِهَا، ثُمَّ فَسَّرَ ذَلِكَ الْمَثَلَ فَقَالَ: ﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ وَهِيَ قَوْلُ: لَا إِلَهَ إِلَّا الله، ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ وَهِيَ النَّخْلَةُ يُرِيدُ كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةِ الثمرة، وقال أَبُو ظَبْيَانَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: هِيَ شَجَرَةٌ فِي الْجَنَّةِ ، عَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: « **أَخْبِرُونِي عَنْ شَجَرَةٍ تُشْبِهُ - أَوْ - كَالرَّجُلِ الْمُسْلِمِ، لَا يتحات ورقها**

---

(١) البخاري (الأدب المفرد ، ٩٨٩) .

صيفاً ولا شتاء، وتؤتي أكلها كل حين بإذن ربها، قَالَ ابْنُ عُمَرَ: فَوَقَعَ فِي نَفْسِي أَنَّهَا النَّخْلَةُ، وَرَأَيْتُ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ لَا يَتَكَلَّمَانِ، فَكَرِهْتُ أَنْ أَتَكَلَّمَ، فَلَمَّا لَمْ يَقُولُوا شَيْئًا قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**هِيَ النَّخْلَةُ**»، فَلَمَّا قُمْنَا قُلْتُ لِعُمَرَ: يَا أبتاه والله وَقَعَ فِي نَفْسِي أَنَّهَا النَّخْلَةُ، قَالَ: مَا مَنَعَكَ أن تتكلم؟ قلت: لَمْ أَرَكُمْ تَتَكَلَّمُونَ، فَكَرِهْتُ أَنْ أَتَكَلَّمَ أَوْ أَقُولَ شَيْئًا، قَالَ عُمَرُ: لَأَنْ تَكُونَ قُلْتَهَا أحب إليَّ من كذا وكذا »[1] ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: ﴿مَثَلُ كَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ ، **قَالَ: هِيَ النَّخْلَةُ، وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَها مِنْ قَرارٍ قَالَ: هِيَ الْحَنْظَلُ**»[2] ، ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾ فِي الأرض قال ابن كثير : يَقُولُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ فِي قَلْبِ الْمُؤْمِنِ، ﴿وَفَرْعُهَا﴾ أعلاها، يقول: يُرفَعُ بها عمل المؤمن إلىٰ السماء، وقال سعيد ابن جبير ومجاهد: إن ذلك عبارةٌ عن المؤمن، وقوله الطيِّب، وعمله الصالح، وإن المؤمن كالشجرة من النّخل، لا يزالُ يُرفع له عملٌ صالحٌ في كل حينٍ ووقتٍ، وصباح ومساء، ﴿فِي السَّمَاءِ﴾ كَذَلِكَ أَصْلُ هَذِهِ الْكَلِمَةِ رَاسِخٌ فِي قَلْبِ الْمُؤْمِنِ بِالْمَعْرِفَةِ وَالتَّصْدِيقِ فَإِذَا تَكَلَّمَ بِهَا عَرَجَتْ فَلَا تُحْجَبُ حَتَّىٰ تَنْتَهِيَ إِلَىٰ اللهِ عَزَّ

---

(١) البخاري (٥٤٤٤) ومسلم (٢٨١١) .

(٢) الترمذي (٣١١٩) وأحمد (١٢٥٥٥) .

وَجَلَّ، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠].

[٢٥] قوْلُهُ تعَالَىٰ: ﴿تُؤْتِي أُكُلَهَا﴾ تغطي ثَمَرَهَا، ﴿كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ وَالْحِينُ فِي اللُّغَةِ هُوَ الْوَقْتُ، كَذَلِكَ عَمَلُ الْمُؤْمِنِ يَصْعَدُ أَوَّلَ النَّهَارِ وَآخِرَهُ وَبَرَكَةُ إِيمَانِهِ لَا تَنْقَطِعُ أَبَدًا، بَلْ تَصِلُ إِلَيْهِ فِي كُلِّ وَقْتٍ، وَالْحِكْمَةُ فِي تَمْثِيلِ الْإِيمَانِ بِالشَّجَرَةِ هِيَ أَنَّ الشَّجَرَةَ لَا تكُونُ شَجَرَةً إِلَّا بِثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ: عِرْقٌ رَاسِخٌ، وَأَصْلٌ قَائِمٌ، وَفَرْعٌ عَالٍ كَذَلِكَ الْإِيمَانُ لَا يَتِمُّ إِلَّا بِثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ تَصْدِيقٌ بِالْقَلْبِ، وَقَوْلٌ بِاللِّسَانِ، وَعَمَلٌ بالأبدان، قال القرطبي: شَبَّهَ عَمَلَ الْمُؤْمِنِ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي كُلِّ وَقْتٍ: بِالنَّخْلَةِ الَّتِي تُؤْتِي أُكُلَهَا فِي أَوْقَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ، وَقَالَ الضَّحَّاكُ: كُلَّ سَاعَةٍ مِنْ لَيْلٍ أَوْ نَهَارٍ شِتَاءً وَصَيْفًا يوكل فِي جَمِيعِ الْأَوْقَاتِ، وَكَذَلِكَ الْمُؤْمِنُ لَا يَخْلُو مِنَ الْخَيْرِ فِي الْأَوْقَاتِ كُلِّهَا، فَالْإِيمَانُ ثَابِتٌ فِي قَلْبِ الْمُؤْمِنِ، وَعَمَلُهُ وَقَوْلُهُ وَتَسْبِيحُهُ عَالٍ مُرْتَفِعٌ فِي السَّمَاءِ ارْتِفَاعَ فُرُوعِ النَّخْلَةِ، وَمَا يَكْسِبُ مِنْ بَرَكَةِ الْإِيمَانِ وَثَوَابِهِ كَمَا يَنَالُ مِنْ ثَمَرَةِ النَّخْلَةِ فِي أَوْقَاتِ السَّنَةِ كُلِّهَا، ﴿وَيَضْرِبُ اللهُ الْأَمْثَالَ﴾ أَيِ الْأَشْبَاهَ ﴿لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ وَيَعْتَبِرُونَ، قَالَ الطَّبَرِيُّ: وَيَضْرِبُ اللهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ، وَيُشَبِّهُ لَهُمُ الْأَشْبَاهَ، لِيَتَذَكَّرُوا حُجَّةَ اللهِ عَلَيْهِمْ، فَيَعْتَبِرُوا بِهَا وَيَتَّعِظُوا، فَيَنْزَجِرُوا عَمَّا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْكُفْرِ بِهِ إِلَىٰ الْإِيمَانِ، وَعَنْ عَبْدِ اللهِ ابْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: « قُلْنَا يَا نَبِيَّ اللهِ مَنْ خَيْرُ النَّاسِ؟ قَالَ: **ذُو الْقَلْبِ الْمَخْمُومِ وَاللِّسَانِ الصَّادِقِ**، قَالَ: يَا نَبِيَّ اللهِ قَدْ عَرَفْنَا

اللَّسَانَ الصَّادِقَ فَمَا الْقَلْبُ الْمَخْمُومُ؟ قَالَ :**التَّقِيُّ النَّقِيُّ الَّذِي لَا إِثْمَ فِيهِ وَلَا بَغْيَ وَلَا حَسَدَ** ، قَالَ : قُلْنَا : يَا رَسُول الله فَمن علىٰ أَثَره؟ قَالَ : **الَّذِي يشنأ الدُّنْيَا** (يعني يكره الدنيا) **وَيُحب الْآخِرَة**، قُلْنَا : مَا نَعْرِف هَذَا فِينَا إِلَّا رَافع مولىٰ رَسُول الله صلىٰ الله عَلَيْهِ وَسلم ، فَمن علىٰ أَثَره ؟ قَالَ : **مُؤمن فِي خلق حسن**، قُلْنَا أما هَذِه ففينا »(١).

[٢٦] قوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ وهي الشرك، وَقِيلَ: الْكَافِرُ نَفْسُهُ. ﴿كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ وَهِيَ الْحَنْظَلُ ، وَقِيلَ: هِيَ الثُّومُ ، ﴿اجْتُثَّتْ﴾ يَعْنِي انْقَلَعَتْ، قال ابن عاشور : وَجُمْلَةُ ﴿اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ﴾ صفة لشَجَرَة خَبِيثَةٍ ؛ لِأَنَّ النَّاسَ لَا يتركونها تلتف عَلَىٰ الْأَشْجَارِ فَتَقْتُلَهَا ، وَالِاجْتِثَاثُ: قَطْعُ الشَّيْءِ كُلِّهِ، مُشْتَقٌّ مِنَ الْجُثَّةِ وَهِيَ الذَّاتُ ، ﴿مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾ ثَبَاتٍ، مَعْنَاهُ: وَلَيْسَ لَهَا أَصْلٌ ثَابِتٌ فِي الْأَرْضِ، وَلَا فَرْعٌ صَاعِدٌ إِلَىٰ السَّمَاءِ، كَذَلِكَ الْكَافِرُ لَا خَيْرَ فِيهِ وَلَا يَصْعَدُ لَهُ قَوْلٌ طَيِّبٌ وَلَا عَمَلٌ صالح، وعنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَلْحَةَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ، ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ قَالَ: الْمُؤْمِنُ، ﴿أَصْلُها ثابِتٌ﴾ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ثَابِتَةٌ فِي قَلْبِ الْمُؤْمِنِ، ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ قَالَ: الشِّرْكُ، ﴿كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ قَالَ: الْمُشْرِكُ، ﴿اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَها مِنْ قَرارٍ﴾ أَيْ لَيْسَ لِلْمُشْرِكِ أَصْلٌ يَعْمَلُ عَلَيْهِ. وَقِيلَ: يَرْجِعُ الْمَثَلُ

---

(١) ابن ماجه (٤٢١٦) .

إِلَىٰ الدُّعَاءِ إِلَىٰ الْإِيمَانِ، وَالدُّعَاءُ إِلَىٰ الشِّرْكِ، لِأَنَّ الْكَلِمَةَ يُفْهَمُ مِنْهَا الْقَوْلُ وَالدُّعَاءُ إِلَىٰ الشيء.

[٢٧] قوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ﴾ كَلِمَةِ التَّوْحِيدِ وَهِيَ قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ يَعْنِي قَبْلَ الْمَوْتِ، ﴿وَفِي الْآخِرَةِ﴾ يَعْنِي فِي الْقَبْرِ هَذَا قَوْلُ أكثر المفسرين وَقِيلَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا عِنْدَ السُّؤَالِ فِي الْقَبْرِ، وَفِي الْآخِرَةِ: عند البعث، والأول أصح، عَنِ الْبَرَاءِ قَالَ قَالَ: « يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَفِي الْآخِرَةِ، نَزَلَتْ فِي عَذَابِ الْقَبْرِ، يُقَالُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: رَبِّيَ اللهُ وَدِينِي دِينُ مُحَمَّدٍ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿ يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ ، قوله: ﴿وَيُضِلُّ اللهُ الظَّالِمِينَ﴾ أَيْ: لَا يَهْدِي الْمُشْرِكِينَ إِلَىٰ الْجَوَابِ بِالصَّوَابِ فِي الْقَبْرِ، والمعنىٰ: عَنْ حُجَّتِهِمْ فِي قُبُورِهِمْ كَمَا ضَلُّوا فِي الدُّنْيَا، بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُلَقِّنُهُمْ كَلِمَةَ الْحَقِّ، فَإِذَا سُئِلُوا فِي قُبُورِهِمْ قَالُوا: لَا نَدْرِي، فَيَقُولُ: لَا دَرَيْتَ وَلَا تَلَيْتَ »[(١)]، وَقِيلَ: يُمْهِلُهُمْ حَتَّىٰ يَزْدَادُوا ضَلَالًا فِي الدُّنْيَا ، قوله : ﴿وَيَفْعَلُ اللهُ مَا يَشَاءُ﴾ مِنَ التَّوْفِيقِ وَالْخُذْلَانِ وَالتَّثْبِيتِ وَتَرْكِ التثبت، قالَ سَهْلُ بْنُ عَمَّارٍ: رَأَيْتُ يَزِيدَ بْنَ هَارُونَ فِي الْمَنَامِ بَعْدَ مَوْتِهِ، فَقُلْتُ لَهُ: مَا فَعَلَ اللهُ بِكَ؟ فقَالَ: أَتَانِي فِي قَبْرِي مَلَكَانِ فَظَّانِ غَلِيظَانِ، فَقَالَا: مَا دِينُكَ وَمَنْ رَبُّكَ وَمَنْ نَبِيُّكَ؟ فَأَخَذْتُ بِلِحْيَتِي الْبَيْضَاءِ

(١) أحمد (١٨٥٣٤) وأبو داود (٤٧٥٣) .

وَقُلْتُ: أَلِمِثْلِي يُقَالُ هَذَا وَقَدْ عَلَّمْتُ النَّاسَ جَوَابَكُمَا ثَمَانِينَ سَنَةً؟! فَذَهَبَا وَقَالَا: أَكَتَبْتَ عَنْ حَرِيزِ بْنِ عُثْمَانَ؟ قُلْتُ نَعَمْ! فَقَالَا: إِنَّهُ كَانَ يُبْغِضُ [عَلِيًّا] فَأَبْغَضَهُ اللهَ، وَقِيلَ: مَعْنَىٰ، ﴿يُثَبِّتُ اللهُ﴾ يُدِيمُهُمُ اللهُ عَلَىٰ الْقَوْلِ الثَّابِتِ.

[٢٨] قوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللهِ كُفْرًا﴾ أَيْ جَعَلُوا بَدَلَ نِعْمَةِ اللهِ عَلَيْهِمُ الْكُفْرَ فِي تَكْذِيبِهِمْ مُحَمَّدًا صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حِينَ بَعَثَهُ اللهُ مِنْهُمْ وَفِيهِمْ فَكَفَرُوا، وَالْمُرَادُ مُشْرِكُو قُرَيْشٍ وَأَنَّ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِيهِمْ، وقال عمر رضي الله عنه : هُمْ قُرَيْشٌ، وَمُحَمَّدٌ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نِعْمَةُ اللهِ ، قَالَ أَبُو الطُّفَيْلِ: سَمِعْتُ عَلِيًّا رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يَقُولُ: هُمْ قُرَيْشٌ الَّذِينَ نُحِرُوا يَوْمَ بَدْرٍ، ﴿وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ أَيْ أَنْزَلُوهُمْ ، وَمعنىٰ الْبَوَارُ: الْهَلَاكُ وَالْخُسْرَانُ. وقيل دار الْبَوَارُ هو يَوْمُ بَدْرٍ ، قَوْلُهُ: ﴿بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللهِ﴾ أَيْ: غَيَّرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْهِمْ فِي مُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وسلم حيث ابتعثه الله مِنْهُمْ ﴿كُفْرًا﴾ كَفَرُوا بِهِ ﴿وَأَحَلُّوا﴾ أَيْ أَنْزَلُوا قَوْمَهُمْ مِمَّنْ تَابَعَهُمْ عَلَىٰ كُفْرِهِمْ دَارَ الْبَوَارِ الْهَلَاكِ، ثم بين دار البوار فقال:

[٢٩] : ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا﴾ يدخلونها ﴿وَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾ المستقر، أي: ومكثهم جهنم ومستقرهم إلىٰ النار، وبئس القرار والموضع الذي يصيرون إليه نار السعير.

[٣٠] قوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا﴾ أَيْ أَصْنَامًا عَبَدُوهَا، وَلَيْسَ لِلَّهِ تَعَالَىٰ نِدٌّ، وَاحِدُهَا نِدٌّ، قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ (أَنْداداً) أَضْدَادًا. وقال الْجَوْهَرِيُّ: وَالنَّدُّ

(بِفَتْحِ النُّونِ): التَّلُّ الْمُرْتَفِعُ فِي السَّمَاءِ، قال ابن حيان: أَيْ زَادُوا إِلَىٰ كُفْرِهِمْ نِعْمَتَهُ أَنْ صَيَّرُوا لَهُ أَنْدَادًا وَهِيَ الْأَصْنَامُ الَّتِي اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنْ دُونِ اللهِ. ﴿لِيُضِلُّوا﴾ لِيُضِلُّوا النَّاسَ، ﴿عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا﴾ عِيشُوا فِي الدُّنْيَا، وهذا وَعِيدٌ لَهُمْ، وَهُوَ إِشَارَةٌ إِلَىٰ تَقْلِيلِ مَا هُمْ فِيهِ مِنْ مَلَاذِّ الدُّنْيَا إِذْ هُوَ مُنْقَطِعٌ. ﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَىٰ النَّارِ﴾ أَيْ مردكم ومرجعكم إلىٰ عذاب جهنم. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: هُمْ أَهْلُ مَكَّةَ، أَنْعَمَ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَيْهِمْ بِبَعْثِهِ رَسُولًا مِنْهُمْ يُعَلِّمُهُمْ أَمْرَ دِينِهِ وَشَرَّفَهُمْ بِهِ، وَأَسْكَنَهُمْ حرمه، وجعلهم قوام بيته، فَوَضَعُوا مَكَانَ شُكْرِ هَذِهِ النِّعْمَةِ كُفْرًا.

[٣١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ قال الفراء: هذا جَزْمٌ عَلَىٰ الْجَزَاءِ أَيْ إِنَّ أَهْلَ مَكَّةَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللهِ بِالْكُفْرِ، فَقُلْ لِمَنْ آمَنَ وَحَقَّقَ عُبُودِيَّتَهُ أَنْ ﴿يُقِيمُوا الصَّلاةَ﴾ يَعْنِي الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ، أَيْ قُلْ لَهُمْ أَقِيمُوا، وَالْأَمْرُ مَعَهُ شَرْطٌ مُقَدَّرٌ، تَقُولُ: أَطِعِ اللهَ يُدْخِلْكَ الْجَنَّةَ، أَيْ إِنْ أَطَعْتَهُ يُدْخِلْكُ الْجَنَّةَ، ﴿وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْناهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً﴾ يَعْنِي الزَّكَاةَ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَغَيْرِهِ. وَقَالَ الْجُمْهُورُ: السِّرُّ مَا خَفِيَ وَالْعَلَانِيَةُ مَا ظَهَرَ، وَقَالَ القاسم ابن يَحْيَىٰ: إِنَّ السِّرَّ التَّطَوُّعُ وَالْعَلَانِيَةَ الْفَرْضُ، ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ﴾ مخاللة وصداقة، وَالْخُلَّةُ: خَالِصُ الْمَوَدَّةِ، مَأْخُوذَةٌ مِنْ تَخَلُّلِ الْأَسْرَارِ بَيْنَ الصَّدِيقَيْنِ، فَأَخْبَرَ اللهُ تَعَالَىٰ أَلَّا خُلَّةَ فِي الْآخِرَةِ وَلَا شَفَاعَةَ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ، وقال الطبري: يَقُولُ: ليس هناك مخالة خليل فيصبح عمن استوجب العقوبة عن العقاب لمخالفته، بل هناك العدل والقسط، يُخْبِرُ تَعَالَىٰ أَنَّهُ لَا يَنْفَعُ

أَحَدًا بَيْعٌ وَلَا فِدْيَةٌ، وَلَوِ افْتَدَىٰ بِمِلْءِ الْأَرْضِ ذَهَبًا لو وجده، ولا تنفعه صَدَاقَةُ أَحَدٍ وَلَا شَفَاعَةُ أَحَدٍ، إِذَا لَقِيَ اللهَ كَافِرًا، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ تَنفَعُهَا شفاعة وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة: ٤٨] ، قال ابن الجوزي : رُوِيَ أَن الْجَبَابِرَة يحشرون يَوْم الْقِيَامَة علىٰ صُورَة الذَّر (يعني النمل) أَصْغَر النَّاس خلقَة لتجبرهم علىٰ الْعباد فِي الدُّنْيَا قد صَارَت الْعِزَّة للغني الحميد ولزمت الذلة كل جَبَّار عنيد وَشَيْطَان مُرِيد قد ترادفت عَلَيْهِم الهموم والأهوال وَظَهَرت لَهُم الْعُقُوبَات والأنكال وَنَدم كل مذنب بطال فَحِينَئِذٍ لَا حِيلَة لمحتال فِي يَوْم لَا بيع فِيهِ وَلَا خلال.

[٣٢] قوْلُهُ تَعَالَىٰ : قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ﴾ أَيْ أَبْدَعَهَا وَاخْتَرَعَهَا عَلَىٰ غَيْرِ مِثَالٍ سَبَقَ، ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ﴾ أَيْ مِنَ السَّحَابِ، ﴿مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَراتِ﴾ أي من الشجر ، ثَمَرَاتٍ ﴿رِزْقًا لَكُمْ﴾ ، قوله : ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ﴾ الْفُلْكُ: السُّفُنُ، سُمِّيَتِ السَّفِينَةُ فُلْكًا لِأَنَّهَا تَدُورُ بِالْمَاءِ أَسْهَلَ دَوْرٍ ، وَوَجْهُ الْآيَةِ فِي الْفُلْكِ: تَسْخِيرُ اللهِ إِيَّاهَا حَتَّىٰ تَجْرِيَ عَلَىٰ وَجْهِ الْمَاءِ وَوُقُوفُهَا فَوْقَهُ مَعَ ثِقَلِهَا.

[٣٣] قوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ﴾ يَجْرِيَانِ فِيمَا يَعُودُ إِلَىٰ مَصَالِحِ الْعِبَادِ وَلَا يَفْتُرَانِ، قَالَ ابْنُ عباس: دؤوبهما فِي طَاعَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، قال ابن عاشور : وَمَعْنَىٰ دائِبَيْنِ دَائِبَيْنِ عَلَىٰ حَالَاتٍ لَا تَخْتَلِفُ إِذْ لَوِ اخْتَلَفَتْ لَمْ يَسْتَطِعِ الْبَشَرُ ضَبْطَهَا فَوَقَعُوا فِي حَيْرَةٍ وَشَكٍّ ، ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ

وَالنَّهَارَ﴾ يَتَعَاقَبَانِ فِي الضِّيَاءِ وَالظُّلْمَةِ وَالنُّقْصَانِ والزيادة، وفي الحديث عن أبي موسىٰ عبد الله بن قيسٍ الأشعري رضي اللهُ عَنْه عن النبي - صلىٰ الله عليه وسلم - قال: « **إنَّ الله تعالىٰ يَبْسُطُ يدَهُ بالليل ليتوبَ مُسيءُ النّهار، ويَبْسُطُ يدهُ بالنهار ليتوبَ مُسيءُ الليل حتىٰ تطلعَ الشمسُ مِنْ مَغْرِبها** »[1] .

[٣٤] قوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ يعني: آتاكم مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَأَلْتُمُوهُ شَيْئًا، فَحَذَفَ الشَّيْءَ الثَّانِيَ اكْتِفَاءً بِدَلَالَةِ الكلام علىٰ التبغيض، وَقِيلَ: الْمَعْنَىٰ وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ، وَمِنْ كُلِّ مَا لَمْ تَسْأَلُوهُ فَحَذَفَ، فَلَمْ نَسْأَلْهُ شَمْسًا وَلَا قَمَرًا وَلَا كَثِيرًا مِنْ نِعَمِهِ الَّتِي ابْتَدَأَنَا بِهَا ، ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللهِ﴾ أَيْ: نِعَمَ اللهِ، ﴿لَا تُحْصُوهَا﴾ أَيْ: لَا تُطِيقُوا عَدَّهَا وَلَا الْقِيَامَ بِشُكْرِهَا، ، وَلَا تَقُومُوا بِحَصْرِهَا لِكَثْرَتِهَا، كَالسَّمْعِ وَالْبَصَرِ وَتَقْوِيمِ الصُّوَرِ إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْعَافِيَةِ وَالرِّزْقِ، هَذِهِ النِّعَمُ مِنَ اللهِ، فَلِمَ تُبَدِّلُونَ نِعْمَةَ اللهِ بِالْكُفْرِ؟! وَهَلَّا اسْتَعَنْتُمْ بِهَا عَلَىٰ الطَّاعَةِ؟! عَن طلق بن حبيب قَالَ: إِن حق الله أثقل من أَن يقوم بِهِ الْعباد وَإِن نعم الله أَكثر من أَن تحصيها الْعباد وَلَكِن أَصْبحُوا توّابين وأمسوا توابين وَقَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ: مَنْ لَمْ يَرَ نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْهِ إِلَّا فِي مَطْعَمِهِ وَمَشْرَبِهِ فَقَدْ قَلَّ عِلْمُهُ، وَحَضَرَ عَذَابُهُ ، وَعَن بكر بن عبد الله الْمُزنِيّ رَضِي الله عَنهُ قَالَ: يَا ابْن آدم إِذا أردْت أَن تعرف قدر مَا أنعم الله عَلَيْك فغمض عَيْنَيْك، قوله : ﴿إِنَّ

---

(١) مسلم (٢٧٥٩) .

الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ أَيْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ بِالْمَعْصِيَةِ كَافِرٌ بربه فِي نِعْمَتِهِ وَقِيلَ: الظَّلُومُ الَّذِي يَشْكُرُ غَيْرَ مَنْ أَنْعَمَ عَلَيْهِ والكافر من يجحد منعمه، قال ابن حيان : وَالْمُرَادُ بِالْإِنْسَانِ هُنَا الْجِنْسُ أَيْ: تُوجَدُ فِيهِ هَذِهِ الْخِلَالُ وَهِيَ:الظُّلْمُ، وَالْكُفْرُ، يَظْلِمُ النِّعْمَةَ بِإِغْفَالِ شُكْرِهَا، وَيَكْفُرُهَا بِجَحْدِهَا. وَقِيلَ: ظَلُومٌ فِي الشِّدَّةِ فَيَشْكُو وَيَجْزَعُ، كَفَّارٌ فِي النِّعْمَةِ يَجْمَعُ وَيَمْنَعُ.

[٣٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ﴾ **يَعْنِي مَكَّةَ** ﴿آمِنًا﴾ ذَا أَمْنٍ يُؤَمَّنُ فِيهِ، ﴿وَاجْنُبْنِي﴾ أَبْعِدْنِي، ﴿وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ يقال: جنبت الشَّيْءَ وَأَجْنَبْتُهُ جَنْبًا وَجَنَّبْتُهُ تَجْنِيبًا وَاجْتَنَبْتُهُ اجْتِنَابًا بِمَعْنًىٰ وَاحِدٍ، وَكَانَ إِبْرَاهِيمُ التَّيْمِيُّ يَقُولُ فِي قَصَصِهِ: مَنْ يَأْمَنُ الْبَلَاءَ بَعْدَ الْخَلِيلِ حِينَ يَقُولُ: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنامَ﴾ كَمَا عَبَدَهَا أَبِي وَقَوْمِي ، فَإِنْ قيل: قد كان إبراهيم معصوماً من عبادة بنيه الْأَصْنَامِ فَكَيْفَ يَسْتَقِيمُ السُّؤَالُ ، وَقَدْ عَبَدَ كَثِيرٌ مِنْ بَنِيهِ الْأَصْنَامَ فَأَيْنَ الْإِجَابَةُ؟ قِيلَ: الدُّعَاءُ فِي حق إبراهيم لِزِيَادَةِ الْعِصْمَةِ وَالتَّثْبِيتِ وَأَمَّا دُعَاؤُهُ لِبَنِيهِ فَأَرَادَ بَنِيهِ مِنْ صُلْبِهِ وَلَمْ يَعْبُدْ مِنْهُمْ أَحَدٌ الصَّنَمَ ، وَقِيلَ: إِنَّ دُعَاءَهُ لِمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا مِنْ بَنِيهِ، قال مجاهد : اسْتَجَاب الله تَعَالَىٰ لِإِبراهيم عَلَيْهِ السَّلَام دَعوته فِي وَلَده فَلم يعبد أحد من وَلَده صنماً بعد دَعوته وَجعل هَذَا الْبَلَد آمنا ورزق أَهله من الثمرات وَجعله إِمَامًا وَجعل من ذُريَّته من يُقيم الصَّلَاة وَتقبل دعاءه وَأَرَاهُ مَنَاسِكه وَتَاب عَلَيْهِ.

[٣٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ﴾ يَعْنِي: ضَلَّ بِهِنَّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ عَنْ طَرِيقِ الْهُدَىٰ حَتَّىٰ عبدوهن، وهذا من الْمَقْلُوبُ نَظِيرُهُ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾ [آلِ عِمْرَانَ: ١٧٥] أَيْ: يُخَوِّفُهُمْ بِأَوْلِيَائِهِ، وَقِيلَ: نَسَبَ الْإِضْلَالَ إِلَىٰ الْأَصْنَامِ لِأَنَّهُنَّ سَبَبٌ فِيهِ كَمَا يَقُولُ الْقَائِلُ: فَتَنَتْنِي الدُّنْيَا، نَسَبَ الْفِتْنَةَ إِلَىٰ الدُّنْيَا لِأَنَّهَا سَبَبُ الْفِتْنَةِ، ﴿فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ أي: من أهل ديني وملتي، وقيل: في التوحيد ﴿وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ قَالَ السُّدِّيُّ: مَعْنَاهُ: وَمَنْ عَصَانِي ثُمَّ تَابَ، وَقَالَ مُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانَ: وَمَنْ عَصَانِي فِيمَا دُونَ الشِّرْكِ، وَقِيلَ: قَالَ ذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يُعْلِمَهُ اللهُ أَنَّهُ لَا يَغْفِرُ الشرك، وفي الحديث عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَلَا قَوْلَ إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِّنَ الناس﴾ الآية، وَقَوْلَ عِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عبادك﴾ الآية، ثم رفع يَدَيْهِ ثُمَّ قَالَ: «**اللَّهُمَّ أُمَّتِي، اللَّهُمَّ أُمَّتِي، اللهم أمتي**» وبكىٰ، فقال الله: اذهب يا جبريل إِلَىٰ مُحَمَّدٍ، وَرَبُّكَ أَعْلَمُ؛ وَسَلْهُ مَا يُبْكِيكَ؟ فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَسَأَلَهُ فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما قَالَ، فَقَالَ اللهُ: اذْهَبْ إِلَىٰ مُحَمَّدٍ فَقُلْ له: إِنَّا سَنُرْضِيكَ فِي أُمَّتِكَ وَلَا نَسُوؤُكَ(١).

---

(١) مسلم (٢٠٢).

[٣٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ أَدْخَلَ مِنْ لِلتَّبْعِيضِ، وَمَجَازُ الْآيَةِ: أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي وَلَدًا، ﴿بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾ وَهُوَ مَكَّةُ لِأَنَّ مَكَّةَ وَادٍ بَيْنَ جَبَلَيْنِ، ﴿عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ سَمَّاهُ مُحَرَّمًا لِأَنَّهُ يَحْرُمُ عِنْدَهُ مَا لَا يَحْرُمُ عِنْدَ غَيْرِهِ ، قال ابن كثير : وَهَذَا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ هَذَا دُعَاءٌ ثَانٍ بَعْدَ الدُّعَاءِ الْأَوَّلِ الَّذِي دَعَا بِهِ عِنْدَمَا وَلَّىٰ عَنْ هَاجَرَ وَوَلَدِهَا، وَذَلِكَ قَبْلَ بِنَاءِ الْبَيْتِ، وَهَذَا كَانَ بَعْدَ بِنَائِهِ تَأْكِيدًا وَرَغْبَةً إِلَىٰ اللهِ عَزَّ وجلَّ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ أَيْ يَحْرُمُ فِيهِ مَا يُسْتَبَاحُ فِي غَيْرِهِ مِنْ جِمَاعٍ وَاسْتِحْلَالٍ ، وَقِيلَ: مُحَرَّمٌ عَلَىٰ الْجَبَابِرَةِ، وَأَنْ تُنْتَهَكَ حُرْمَتُهُ، وَيُسْتَخَفُّ بِحَقِّهِ، ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ﴾ الْأَفْئِدَةُ جَمْعُ الْفُؤَادِ وَقَدْ يُعَبَّرُ عَنِ الْقَلْبِ بِالْفُؤَادِ ، قال القرطبي : خَصَّ الصلاة مِنْ جُمْلَةِ الدِّينِ لِفَضْلِهَا فِيهِ، وَمَكَانِهَا مِنْهُ، وَهِيَ عَهْدُ اللهِ عِنْدَ الْعِبَادِ، قَالَ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**خَمْسُ صَلَوَاتٍ كَتَبَهُنَّ اللهُ عَلَىٰ الْعِبَادِ، فَمَنْ جَاءَ بِهِنَّ لَمْ يُضَيِّعْ مِنْهُنَّ شَيْئًا اسْتِخْفَافًا بِحَقِّهِنَّ، كَانَ لَهُ عِنْدَ اللهِ عَهْدٌ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، وَمَنْ لَمْ يَأْتِ بِهِنَّ فَلَيْسَ لَهُ عِنْدَ اللهِ عَهْدٌ، إِنْ شَاءَ عَذَّبَهُ، وَإِنْ شَاءَ أَدْخَلَهُ الْجَنَّةَ**»(١) ، قوله : ﴿تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ تشتاق وتحن إليهن ، قَالَ مُجَاهِدٌ: لَوْ قَالَ أَفْئِدَةَ النَّاسِ لَزَاحَمَتْكُمْ فَارِسُ وَالرُّومُ وَالتُّرْكُ وَالْهِنْدُ، وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: لَحَجَّتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ وَالْمَجُوسُ وَلَكِنَّهُ قَالَ: أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ وَهُمُ الْمُسْلِمُونَ، قال ابن

---

(١) أبو داود (٤٢٥) والنسائي (٤٦١) .

عاشور: وَالْمُرَادُ فَاجْعَلْ أُنَاسًا يَهْوُونَ إِلَيْهِمْ، فَأَقْحَمَ لَفْظَ الْأَفْئِدَةِ لِإِرَادَةِ أَنْ يَكُونَ مَسِيرُ النَّاسِ إِلَيْهِمْ عَنْ شَوْقٍ وَمَحَبَّةٍ حَتَّىٰ كَأَنَّ الْمُسْرِعَ هُوَ الْفُؤَادُ لَا الْجَسَدُ فالْمَعْنَىٰ: فَاجْعَلْ أُنَاسًا يَقْصِدُونَهُمْ بِحَبَّاتِ قُلُوبِهِمْ ، ﴿وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ مَا رَزَقْتَ سُكَّانَ الْقُرَىٰ ذَوَاتِ الماء، قال ابن كثير : **أَيْ لِيَكُونَ** ذَلِكَ عَوْنًا لَهُمْ عَلَىٰ طَاعَتِكَ، وَكَمَا أَنَّهُ وادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ فَاجْعَلْ لَهُمْ ثِمَارًا يَأْكُلُونَهَا، وَقَدِ اسْتَجَابَ الله ذلك، كما قال: ﴿أو لم نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَماً آمِناً يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كل شيء رِّزْقاً مِّن لَّدُنَّا﴾ وَهَذَا مِنْ لُطْفِهِ تَعَالَىٰ وَكَرَمِهِ وَرَحْمَتِهِ وَبَرَكَتِهِ أنه ليس فِي الْبَلَدِ الْحَرَامِ (مَكَّةَ) شَجَرَةٌ مُثْمِرَةٌ، وَهِيَ تجبىٰ إليها ثمرات ما حولها استجابة لدعاء الخليل عليه السلام.﴿لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ .

[٣٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ﴾ مِنْ أُمُورِنَا. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُقَاتِلٌ: مِنِ الْوَجْدِ بِإِسْمَاعِيلَ وَأُمِّهِ حَيْثُ أَسْكَنْتُهُمَا بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ. ﴿وَمَا يَخْفَىٰ عَلَىٰ اللهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ قيل: هذا كله قول إبراهيم متصل بما قبله ، وَقَالَ الْأَكْثَرُونَ: يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿وَمَا يَخْفَىٰ عَلَىٰ اللهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ ، عن ابن عباس: ما نخفي من الوَجد بمفارقة إسماعيل، وما نعلن من الحُبِّ له.

[٣٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَىٰ الْكِبَرِ﴾ أعطاني علىٰ كبر السن، ﴿إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: وُلِدَ إِسْمَاعِيلُ لِإِبْرَاهِيمَ وَهُوَ ابْنُ تِسْعٍ وَتِسْعِينَ سَنَةً، وَوُلِدَ إِسْحَاقُ وَهُوَ ابْنُ مِائَةٍ

وَاثْنَتَيْ عَشْرَةَ سَنَةً، وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: بُشِّرَ إِبْرَاهِيمُ بِإِسْحَاقَ وَهُوَ ابْنُ مِائَةٍ وَسَبْعَ عَشْرَةَ سَنَةً.

[٤٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ﴾ يَعْنِي: مِمَّنْ يُقِيمُ الصَّلَاةَ بِأَرْكَانِهَا ويحافظ عليها، ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ يَعْنِي: اجْعَلْ مِنْ ذُرِّيَّتِي مَنْ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ ، ﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ﴾ أَيْ: عَمَلِي وَعِبَادَتِي، سَمَّىٰ الْعِبَادَةَ دعاء وَقِيلَ: مَعْنَاهُ اسْتَجِبْ دُعَائِي.

[٤١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ﴾ فَإِنْ قِيلَ: كَيْفَ اسْتَغْفَرَ لِوَالِدَيْهِ وَهُمَا غَيْرُ مُؤْمِنَيْنِ؟ قِيلَ: قَدْ قِيلَ: إِنَّ أُمَّهُ أَسْلَمَتْ، وَقِيلَ: أَرَادَ إِنْ أَسْلَمَا وَتَابَا، وَقِيلَ: قَالَ ذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يَتَبَيَّنَ لَهُ أَمْرُ أَبِيهِ وَقَدْ بَيَّنَ الله عذر خليله فِي اسْتِغْفَارِهِ لِأَبِيهِ فِي سُورَةِ التوبة. ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أَيِ: اغْفِرْ لِلْمُؤْمِنِينَ كُلِّهِمْ، ﴿يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ أَيْ يَبْدُو وَيَظْهَرُ. وَقِيلَ: أَرَادَ يوم الحساب يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِلْحِسَابِ، فَاكْتَفَىٰ بِذِكْرِ الْحِسَابِ لِكَوْنِهِ مَفْهُومًا.

[٤٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾ أي لا تحسبنه إذا أَنْظَرَهُمْ وَأَجَّلَهُمْ أَنَّهُ غَافِلٌ عَنْهُمْ، مُهْمِلٌ لَهُمْ لَا يُعَاقِبُهُمْ عَلَىٰ صُنْعِهِمْ، بَلْ هُوَ يُحْصِي ذلك عليهم ويعده عليهم عداً، ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ أَيْ: لَا تُغْمَضُ مِنْ هَوْلِ مَا تَرَىٰ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ، وَقِيلَ: تَرْتَفِعُ وَتَزُولُ عَنْ أَمَاكِنِهَا. وَشُخُوصُ الْبَصَرِ: ارْتِفَاعُهُ كَنَظَرِ الْمَبْهُوتِ الْخَائِفِ.

[٤٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿مُهْطِعِينَ﴾ قَالَ قَتَادَةُ: مُسْرِعِينَ،قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: الْإِهْطَاعُ النَّسَلَانُ كَعَدْوِ الذِّئْبِ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: مُدِيمِي النَّظَرِ، وَمَعْنَىٰ الْإِهْطَاعِ أَنَّهُمْ لَا يَلْتَفِتُونَ يَمِينًا وَلَا شِمَالًا، وَلَا يَعْرِفُونَ مواطن أقدامهم، ﴿مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ﴾ أَيْ رَافِعِي رُءُوسِهِمْ، وَإِقْنَاعُ الرَّأْسِ: طَأْطَأَتُهُ مِنَ الذُّلِّ، وَقِيلَ: الْمُهْطِعُ الَّذِي يَنْظُرُ فِي ذُلٍّ وَخُشُوعٍ، أَيْ نَاظِرِينَ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَطْرِفُوا، وَقَالَ الحسن البصري: وجوه الناس يومئذ إلىٰ الماء لَا يَنْظُرُ أَحَدٌ إِلَىٰ أَحَدٍ، ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ لا ترجع إليهم أبصارهم مع شِدَّةِ النَّظَرِ، وَهِيَ شَاخِصَةٌ قَدْ شَغَلَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ. وَمَعْنَىٰ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ، أَيْ لَا يَعُودُ إِلَىٰ مُعْتَادِهِ، أَيْ لَا يَسْتَطِيعُونَ تَحْوِيلَهُ. فَهُوَ كِنَايَةٌ عَنْ هَوْلِ مَا شَاهَدُوهُ بِحَيْثُ يَبْقُونَ نَاظِرِينَ إِلَيْهِ لَا تَطْرَفُ أَعْيُنُهُمْ. ﴿وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ أَيْ خَالِيَةٌ ، قَالَ قَتَادَةُ: خَرَجَتْ قُلُوبُهُمْ عَنْ صُدُورِهِمْ فَصَارَتْ فِي حَنَاجِرِهِمْ، لَا تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ولا تعود إلىٰ مكانها، فأفئدتهم هَوَاءٌ لَا شَيْءَ فِيهَا وَمِنْهُ سُمِّيَ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ هَوَاءٌ لِخُلُوِّهِ، وَقِيلَ: خَالِيَةٌ لَا تَعِي شَيْئًا وَلَا تَعْقِلُ مِنَ الخوف، وقال الأخفش: جوفا لَا عُقُولَ لَهَا، وَالْعَرَبُ تُسَمِّي كل أجوف خلو هواء ، قال سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ أَيْ: مُتَرَدِّدَةٌ تَمُورُ فِي أَجْوَافِهِمْ لَيْسَ لَهَا مَكَانٌ تَسْتَقِرُّ فِيهِ، وَحَقِيقَةُ الْمَعْنَىٰ: أَنَّ الْقُلُوبَ زَائِلَةٌ عَنْ أَمَاكِنِهَا وَالْأَبْصَارَ شَاخِصَةٌ مِنْ هَوْلِ ذَلِكَ الْيَوْمِ، قال القرطبي : وَهَذَا تَسْلِيَةٌ لِلنَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعْدَ أَنْ أَعْجَبَهُ مِنْ أَفْعَالِ الْمُشْرِكِينَ وَمُخَالَفَتِهِمْ دِينَ إِبْرَاهِيمَ، أَيِ اصْبِرْ كَمَا صَبَرَ إِبْرَاهِيمُ، وَأَعْلِمِ

الْمُشْرِكِينَ أَنَّ تَأْخِيرَ الْعَذَابِ لَيْسَ لِلرِّضَا بِأَفْعَالِهِمْ، بَلْ سُنَّةُ اللهِ إِمْهَالُ الْعُصَاةِ مُدَّةً. قَالَ مَيْمُونُ ابْنُ مِهْرَانَ: هَذَا وَعِيدٌ لِلظَّالِمِ، وَتَعْزِيَةٌ لِلْمَظْلُومِ.

[٤٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَنْذِرِ النَّاسَ﴾ خوفهم، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَرَادَ أَهْلَ مَكَّةَ، ﴿يَوْمَ﴾ أي: بيوم ﴿يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ﴾ هو يَوْمُ الْقِيَامَةِ ، أَيْ خَوِّفْهُمْ ذَلِكَ الْيَوْمَ. وَإِنَّمَا خَصَّهُمْ بِيَوْمِ الْعَذَابِ وَإِنْ كَانَ يَوْمَ الثَّوَابِ، لِأَنَّ الْكَلَامَ خَرَجَ مَخْرَجَ التَّهْدِيدِ لِلْعَاصِي. ﴿فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ فيقول الذين أشركوا، ﴿رَبَّنَا أَخِّرْنَا﴾ أمهلنا ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ هَذَا سُؤَالُهُمُ الرَّدُّ إِلَىٰ الدُّنْيَا، أي: ارجعنا، قال ابن عاشور : وَالْقَرِيبُ: الْقَلِيلُ الزَّمَنِ. شَبَّهَ الزَّمَانَ بِالْمَسَافَةِ، أَيْ أَخِّرْنَا مِقْدَارَ مَا نُجِيبُ بِهِ دَعْوَتَكَ ، ﴿نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ﴾ فَيُجَابُونَ: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ﴾ حَلَفْتُمْ فِي دَارِ الدُّنْيَا، قَالَ مُجَاهِدٌ: هُوَ قَسَمُ قُرَيْشٍ أَنَّهُمْ لَا يُبْعَثُونَ ، ﴿مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ﴾ عَنْهَا أَيْ: لَا تُبْعَثُونَ، وَالزَّوَالُ: الِانْتِقَالُ مِنَ الْمَكَانِ ، وَأُرِيدَ بِهِ هُنَا الزَّوَالُ مِنَ الْقُبُورِ إِلَىٰ الْحِسَابِ.

[٤٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَسَكَنْتُمْ﴾ فِي الدُّنْيَا، فَهَلَّا اعْتَبَرْتُمْ بِمَسَاكِنِهِمْ، بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ لَكُمْ مَا فَعَلْنَا بِهِمْ، ﴿فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ بالكفر والعصيان، يَعْنِي قَوْمَ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَغَيْرِهِمْ. ﴿وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ﴾ أَيْ: عَرَفْتُمْ عُقُوبَتَنَا إِيَّاهُمْ، وَكَانَت الْعَرَبُ يَمُرُّونَ عَلَىٰ دِيَارِ ثَمُودَ فِي رِحْلَتِهِمْ إِلَىٰ الشَّامِ ويحطون الرّحال هُنَا لَك، وَيَمُرُّونَ عَلَىٰ دِيَارِ عَادٍ فِي رِحْلَتِهِمْ إِلَىٰ الْيَمَنِ. ﴿وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ﴾ أي بينا مَثَلَكُمْ كَمَثَلِهِمْ.

[٤٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ﴾ أَيْ بِالشِّرْكِ بِاللهِ وَتَكْذِيبِ الرُّسُلِ وَالْمُعَانَدَةِ، ﴿وَعِنْدَ اللهِ مَكْرُهُمْ﴾ أَيْ: جَزَاءُ مَكْرِهِمْ، ﴿وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ﴾ أي في العظم والشدة ، وقَالَ الْحَسَنُ البصري: إِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لَأَضْعَفُ مِنْ أَنْ تَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ. وَقِيلَ: مَعْنَاهُ إِنَّ مَكْرَهُمْ لَا يُزِيلُ أَمْرَ مُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الَّذِي هُوَ ثَابِتٌ كَثُبُوتِ الْجِبَالِ ، ﴿لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ قَالَ قَتَادَةُ: مَعْنَاهُ: وَإِنْ كَانَ مكرهم شِرْكُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ، قال ابن عاشور : وَهَذَا مِنَ الْمُبَالَغَةِ فِي حُصُولِ أَمْرٍ شَنِيعٍ أَوْ شَدِيدٍ فِي نَوْعِهِ عَلَىٰ نَحْوِ قَوْله تَعَالَىٰ: ﴿يكَاد السَّماواتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبالُ هَدًّا﴾ [مريم : ٩٠] .

[٤٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ﴾ بِالنَّصْرِ لِأَوْلِيَائِهِ وَهَلَاكِ أَعْدَائِهِ، وَفِيهِ تَقْدِيمٌ وَتَأْخِيرٌ، تَقْدِيرُهُ: وَلَا تَحْسَبَنَّ اللهَ مُخْلِفَ رُسُلِهِ وَعْدَهُ، وَهَذَا تثبيت للنبيء صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأَنَّ اللهَ مُنْجِزٌ لَهُ مَا وَعَدَهُ مِنْ نَصْرِهِ عَلَىٰ الْكَافِرِينَ بِهِ،﴿إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ﴾ أَيْ مَنِيعُ الْجَنَابِ عَظِيمُ السُّلْطَانِ، ﴿ذُو انْتِقَامٍ﴾: أَيْ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ وَخَالَفَ رُسُلَهُ الْكِرَامَ وَأَنْبِيَاءَهُ الْعِظَامَ.

[٤٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ﴾ وعَنْ أم المؤمنين عَائِشَةَ أَنَّهَا قَالَتْ: أَنَا أَوَّلُ النَّاسِ سَأَلَ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الأرض والسموات﴾ قَالَتْ، قُلْتُ: أَيْنَ

النَّاسُ يومئذٍ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قال: «**علىٰ الصراط**»[1] ، وعن ابْنُ مَسْعُودٍ فِي هَذِهِ الْآيَةِ قَالَ: تُبَدَّلُ الْأَرْضُ بِأَرْضٍ كَفِضَّةٍ بَيْضَاءَ نَقِيَّةٍ لَمْ يُسْفَكْ فِيهَا دَمٌ وَلَمْ تُعْمَلْ فِيهَا خَطِيئَةٌ وَقِيلَ: مَعْنَىٰ التَّبْدِيلِ جَعْلُ السَّمَاوَاتِ جِنَانًا وَجَعْلُ الْأَرْضِ نِيرَانًا ، وَقِيلَ: تَبْدِيلُ الْأَرْضِ تَغْيِيرُهَا مِنْ هَيْئَةٍ إِلَىٰ هَيْئَةٍ، وَهِيَ تَسْيِيرُ جِبَالِهَا ولهم أنهارها وتسوية أوديتها وقلع أَشْجَارِهَا وَجَعْلُهَا قَاعًا صَفْصَفًا، وَتَبْدِيلُ السماوات تغييرها عن حَالِهَا بِتَكْوِيرِ شَمْسِهَا، وَخُسُوفِ قَمَرِهَا وَانْتِثَارِ نُجُومِهَا، وَكَوْنِهَا مَرَّةً كَالدِّهَانِ، ومرة كالمهل، عَنْ ثَوْبَانَ مَوْلَىٰ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وسلم قَالَ: كُنْتُ قَائِمًا عِنْدَ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَجَاءَهُ حَبْرٌ مِنْ أَحْبَارِ يهود فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا مُحَمَّدُ، فَدَفَعْتُهُ دَفْعَةً كَادَ يُصْرَعُ مِنْهَا، فَقَالَ: لِمَ تَدْفَعُنِي؟ فَقُلْتُ: أَلَا تَقُولُ يَا رَسُولَ اللهِ؟ فَقَالَ الْيَهُودِيُّ: إِنَّمَا نَدْعُوهُ بِاسْمِهِ الَّذِي سَمَّاهُ بِهِ أَهْلُهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ اسْمِي مُحَمَّدٌ الَّذِي سَمَّانِي بِهِ أَهْلِي**»، فَقَالَ الْيَهُودِيُّ: جِئْتُ أَسْأَلُكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أينفعك شيئـًا إِنْ حَدَّثْتُكَ**»؟ فَقَالَ: أَسْمَعُ بِأُذُنَيَّ، فنكت رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِعُودٍ مَعَهُ، فقَالَ: «**سَلْ**»، فَقَالَ الْيَهُودِيُّ: أَيْنَ يَكُونُ النَّاسُ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأرض غير الأرض والسماوات؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**هُمْ فِي الظُّلْمَةِ دُونَ الْجِسْرِ**»، قَالَ: فَمَنْ أول الناس إجازة؟ فقال: «**فقراء المهاجرين**»، فقال

---

(١) مسلم (٣١٥) .

الْيَهُودِيُّ: فَمَا تُحْفَتُهُمْ حِينَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ؟ قَالَ: «**زِيَادَةُ كَبِدِ النُّونِ**»، قَالَ: فَمَا غِذَاؤُهُمْ فِي أَثَرِهَا؟ قَالَ: «**يُنْحَرُ لَهُمْ ثَوْرُ الْجَنَّةِ الَّذِي كَانَ يَأْكُلُ مِنْ أَطْرَافِهَا**»، قَالَ: فَمَا شَرَابُهُمْ عَلَيْهِ؟ قَالَ: «**مِنْ عَيْنٍ فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلاً**»، قَالَ: صَدَقْتَ، قَالَ: وَجِئْتُ أَسْأَلُكَ عَنْ شَيْءٍ لَا يَعْلَمُهُ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ إِلَّا نَبِيٌّ أَوْ رَجُلٌ أَوْ رَجُلَانِ، قَالَ: «**أَيَنْفَعُكَ إِنْ حَدَّثْتُكَ**»؟ قَالَ: أَسْمَعُ بِأُذُنَيَّ، قَالَ : **جِئْتُ أَسْأَلُكَ عَنِ الْوَلَدِ**، قَالَ: «**مَاءُ الرَّجُلِ أَبْيَضُ وَمَاءُ الْمَرْأَةِ أَصْفَرُ، فَإِذَا اجْتَمَعَا فَعَلَا مَنِيُّ الرجل مني المرأة كان ذكراً بِإِذْنِ اللهِ، وَإِذَا عَلَا مَنِيُّ الْمَرْأَةِ مَنِيَّ الرجل كان أُنثىٰ بِإِذْنِ اللهِ**»(١)، قوله: ﴿وَبَرَزُوا﴾ خَرَجُوا مِنْ قُبُورِهِمْ، ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ الَّذِي يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ وَيَحْكُمُ مَا يُرِيدُ.

[٤٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ﴾ مَشْدُودِينَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ، ﴿فِي الْأَصْفَادِ﴾ فِي الْقُيُودِ وَالْأَغْلَالِ وَاحِدُهَا: صَفَدٌ، وَكُلُّ مَنْ شَدَدْتَهُ شَدًّا وَثِيقًا فقد صفدته وَقِيلَ: يُقْرَنُ كُلُّ كَافِرٍ مَعَ شَيْطَانِهِ فِي سِلْسِلَةٍ، وَقِيلَ: مَعْنَاهُ مُقَرَّنَةٌ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ إِلَىٰ رِقَابِهِمْ بِالْأَصْفَادِ وَالْقُيُودِ.

[٥٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿سَرَابِيلُهُمْ﴾ أَيْ: قُمُصُهُمْ، جَمْعُ سِرْبَالٍ وَهُوَ الْقَمِيصُ، ﴿مِنْ قَطِرَانٍ﴾ هو ما تطلىٰ بِهِ الْإِبِلُ، وأقرب المعاني إليه هو الزفت الذي تبلط به الشوارع في زماننا هذا ﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ﴾ أَيْ: تَعْلُو.

---

(١) مسلم (٣١٥).

[٥١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لِيَجْزِيَ اللهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ﴾ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ، ﴿إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾، لِأَنَّهُ يَعْلَمُ كُلَّ شَيْءٍ وَلَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ خَافِيَةٌ.

[٥٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿هَذَا﴾ أي: هذا القرآن، ﴿بَلَاغٌ﴾ أَيْ تَبْلِيغٌ وَعِظَةٌ، ﴿لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا﴾ وَلِيُخَوَّفُوا، ﴿بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ أَيْ لِيَسْتَدِلُّوا بِهَذِهِ الْآيَاتِ عَلَىٰ وحدانية الله، ﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ أَيْ: لِيَتَّعِظَ أُولُو الْعُقُولِ.

تَمَّ تَفْسِيرُ سُورَةِ إِبْرَاهِيمَ بِعَوْنِ اللهِ وَتَوْفِيقِهِ، وَوَاسِعِ مَنِّهِ وَكَرَمِهِ

سُورَةِ الحِجْرِ

سُمِّيَتْ هَذِه السُّورَة سُورَة الْحِجْرَ، وَلَا يُعْرَفُ لَهَا اسْمٌ غَيْرَهُ. وَوَجْهُ التَّسْمِيَةِ أَنَّ اسْمَ الْحِجْرِ لَمْ يُذْكَرْ فِي غَيْرِهَا ، وَالْحِجْرُ اسْمُ الْبِلَادِ الْمَعْرُوفَةِ بِهِ وَهُوَ حِجْرُ ثَمُودَ ، وَثَمُودُ هُمْ أَصْحَابُ الْحِجْرِ، وَهِيَ مَكِّيَّةٌ كُلُّهَا.

[١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿الر﴾ قَدْ سَبَقَ بَيَانُ مَفْهُومِ ذَلِكَ مِنَ الْحُرُوفِ الْمُقَطَّعَةِ أَوَّلَ السُّوَرِ، وَأَنَّهُ دَلَالَةٌ عَلَىٰ إِعْجَازِ هَذَا الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ، الَّذِي آيَاتُهُ وَكَلِمَاتُهُ مِنْ جِنْسِ هَذِهِ الْأَحْرُفِ، وَلَا قُدْرَةَ لِأَحَدٍ عَلَىٰ مُعَارَضَتِهِ وَلَا بِسُورَةٍ نَحْوَهُ ، ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ﴾ أَيْ: هَذِهِ آيَاتُ الْكِتَابِ، ﴿وَقُرْآنٍ﴾ أي: وآيات قرآن، ﴿مُبِينٍ﴾ أَيْ: بَيَّنَ الْحَلَالَ مِنَ الْحَرَامِ وَالْحَقَّ مِنَ الْبَاطِلِ، قال قتادة: تبيّن والله هداه ورشده وخيره، وَقِيلَ: الْمُرَادُ بِالْكِتَابِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ وَبِالْقُرْآنِ هَذَا الكتاب.

[٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿رُبَمَا﴾ وَرُبَّ تَدْخُلُ عَلَىٰ الِاسْمِ وَرُبَمَا عَلَىٰ الْفِعْلِ، يُقَالُ: رُبَّ رَجُلٍ جَاءَنِي وَرُبَمَا جَاءَنِي رَجُلٌ، وَأَدْخَلَ مَا هَاهُنَا لِلْفِعْلِ بَعْدَهَا، ﴿يَوَدُّ﴾ يَتَمَنَّىٰ، ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ واختلف في الحالة الَّتِي يَتَمَنَّىٰ الْكَافِرُ فِيهَا الْإِسْلَامَ، قَالَ الضَّحَّاكُ: حَالَةُ الْمُعَايَنَةِ، وَقِيلَ: يَوْمُ الْقِيَامَةِ، وَالْمَشْهُورُ أَنَّهُ حِينَ يُخْرِجُ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ النَّارِ، وفي حديث جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ

قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « **إِنَّ نَاسًا مِنْ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ النَّارَ بِذُنُوبِهِمْ ، فَيَكُونُونَ فِي النَّارِ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَكُونُوا ثُمَّ يُعَيِّرُهُمْ أَهْلُ الشِّرْكِ فَيَقُولُونَ مَا نَرَىٰ مَا كُنْتُمْ تُخَالِفُونَا فِيهِ مِنْ تَصْدِيقِكُمْ وَإِيمَانِكُمْ نَفَعَكُمْ ، فَلَا يَبْقَىٰ مُوَحِّدٌ إِلَّا أَخْرَجَهُ اللهُ مِنَ النَّارِ**، ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿رُبَما يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كانُوا مُسْلِمِينَ﴾[1] ، قَالَ الْحَسَنُ البصري : إِذَا رَأَىٰ الْمُشْرِكُونَ المسلمين وقد دخلوا الجنة وما رأوهم فِي النَّارِ تَمَنَّوْا أَنَّهُمْ كَانُوا مُسْلِمِينَ.

[٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ذَرْهُمْ﴾ يَا مُحَمَّدُ يَعْنِي الَّذِينَ كَفَرُوا، ﴿يَأْكُلُوا﴾ في الدنيا، ﴿وَيَتَمَتَّعُوا﴾ من لذاتهم ﴿وَيُلْهِهِمُ﴾ أَيْ يَشْغَلُهُمْ عَنِ الطَّاعَةِ. يُقَالُ: أَلْهَاهُ عَنْ كَذَا أَيْ شَغَلَهُ. وَلَهِيَ هُوَ عَنِ الشَّيْءِ يَلْهَىٰ. ﴿الْأَمَلُ﴾ عَنِ الْأَخْذِ بِحَظِّهِمْ مِنَ الْإِيمَانِ والطاعة، وَحَقِيقَةُ الْأَمَلِ: الْحِرْصُ عَلَىٰ الدُّنْيَا وَالِانْكِبَابُ عَلَيْهَا، وَالْحُبُّ لَهَا وَالْإِعْرَاضُ عَنِ الْآخِرَةِ ، وَقَالَ الْحَسَنُ البصري: مَا أَطَالَ عَبْدٌ الْأَمَلَ إِلَّا أَسَاءَ الْعَمَلَ. ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ إِذَا وَرَدُوا الْقِيَامَةَ وَذَاقُوا وَبَالَ مَا صَنَعُوا، وَهَذَا تَهْدِيدٌ وَوَعِيدٌ ، وَقَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ: ذَرْهُمْ تَهْدِيدٌ وَقَوْلُهُ: فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ، تَهْدِيدٌ آخَرُ، فَمَتَىٰ يَهْنَأُ الْعَيْشُ بَيْنَ تَهْدِيدَيْنِ ، وَالْآيَةُ نَسَخَتْهَا آيَةُ الْقِتَالِ، روىٰ عن أبي الدرداء رضىٰ الله أَنَّهُ قَامَ عَلَىٰ دَرَجِ مَسْجِدِ دِمَشْقَ فَقَالَ: يأهل

(١) الطبراني (الكبير ، رقم ٨٠٢٨) .

دِمَشْقَ، أَلَا تَسْمَعُونَ مِنْ أَخٍ لَكُمْ نَاصِحٍ؟ إِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَجْمَعُونَ كَثِيرًا وَيَبْنُونَ مَشِيدًا وَيَأْمُلُونَ بَعِيدًا، فَأَصْبَحَ جَمْعُهُمْ بُورًا وَبُنْيَانُهُمْ قُبُورًا وَأَمَلُهُمْ غُرُورًا. هَذِهِ عَادٌ قَدْ مَلَأَتِ الْبِلَادَ أَهْلًا وَمَالًا وَخَيْلًا وَرِجَالًا، فَمَنْ يَشْتَرِي مِنِّي الْيَوْمَ تَرِكَتَهُمْ بِدِرْهَمَيْنِ!.

[٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ﴾ أَيْ: مِنْ أَهْلِ قَرْيَةٍ، ﴿إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ﴾ أَيْ أَجَلٌ مَضْرُوبٌ لَا يُتَقَدَّمُ عَلَيْهِ وَلَا يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ حَتَّىٰ يُبَلَّغُوهُ وَلَا يَتَأَخَّرُ عَنْهُمْ، قال ابن كثير: يخبر تَعَالَىٰ إِنَّهُ مَا أَهْلَكَ قَرْيَةً إِلَّا بَعْدَ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهَا وَانْتِهَاءِ أَجَلِهَا، وَإِنَّهُ لَا يؤخر أمة حان هلاكهم عن ميقاتهم وَلَا يَتَقَدَّمُونَ عَنْ مُدَّتِهِمْ، وَهَذَا تَنْبِيهٌ لِأَهْلِ مَكَّةَ وَإِرْشَادٌ لَهُمْ، إِلَىٰ الْإِقْلَاعِ عَمَّا هَمْ عليه مِنَ الشِّرْكِ وَالْعِنَادِ وَالْإِلْحَادِ الَّذِي يَسْتَحِقُّونَ بِهِ الهلاك.

[٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا﴾ من صلة كَقَوْلِكَ: مَا جَاءَنِي مِنْ أَحَدٍ. أَيْ لَا تَتَجَاوَزُ أَجَلَهَا فَتَزِيدُ عَلَيْهِ، وَلَا تَتَقَدَّمُ قَبْلَهُ. ﴿وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ أَيِ: الْمَوْتُ لَا يَتَقَدَّمُ وَلَا يتأخر، وقيل: العذاب، وقيل: الأجل المضروب، قال الزهري: نرىٰ أَنه إذا حضر أَجله فَإِنَّهُ لَا يُؤَخر سَاعَة وَلَا يقدم وَأما مَا لم يحضر أَجله فَإِن الله يُؤَخر مَا شَاءَ وَيقدم مَا شَاءَ.

[٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَالُوا﴾ يَعْنِي: مُشْرِكِي مَكَّةَ، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ﴾ أَيِ: الْقُرْآنُ وَأَرَادُوا بِهِ مُحَمَّدًا صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ﴿إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾

وَذَكَرُوا تَنْزِيلَ الذِّكْرِ عَلَىٰ سَبِيلِ الاستهزاء، ثُمَّ طَلَبُوا مِنْهُ إِتْيَانَ الْمَلَائِكَةِ دَلَالَةً علىٰ صدقه.

[٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَوْ مَا﴾ هلا ، تَقُولُ: لَوْمَا زَيْدٌ لَضُرِبَ عَمْرٌو ، قَالَ الْكِسَائِيُّ: لَوْلَا وَلَوْمَا سَوَاءٌ فِي الْخَبَرِ وَالِاسْتِفْهَامِ ، ﴿تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ﴾ شَاهِدِينَ لَكَ بِالصِّدْقِ عَلَىٰ مَا تقول إن الله أرسلك، ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ أَنَّكَ نَبِيٌّ.

[٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ أَيْ: بِالْعَذَابِ وَلَوْ نَزَلَتْ يَعْنِي الْمَلَائِكَةَ لَعَجَّلُوا بِالْعَذَابِ، ﴿وَمَا كَانُوا إِذًا مُنْظَرِينَ﴾ أَيْ لَوْ تَنَزَّلَتِ الْمَلَائِكَةُ بِإِهْلَاكِهِمْ لَمَا أُمْهِلُوا وَلَا قُبِلَتْ لَهُمْ تَوْبَةٌ ، وَقَدْ كَانَ الْكُفَّارُ يَطْلُبُونَ إِنْزَالَ الْمَلَائِكَةِ عِيَانًا فَأَجَابَهُمُ اللهُ تَعَالَىٰ بِهَذَا ، وَمَعْنَاهُ : إِنَّهُمْ لَوْ نَزَلُوا أَعْيَانًا لَزَالَ عَنِ الْكُفَّارِ الْإِمْهَالُ وَعُذِّبُوا فِي الْحَالِ.

[٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ﴾ يَعْنِي الْقُرْآنَ، ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ أَيْ: نَحْفَظُ الْقُرْآنَ مِنَ الشَّيَاطِينِ أَنْ يَزِيدُوا فِيهِ أَوْ يَنْقُصُوا منه أو يبدلوا بغيره، قَالَ ثَابِتٌ الْبُنَانِيُّ: حَفِظَهُ اللهُ مِنْ أَنْ تَزِيدَ فِيهِ الشَّيَاطِينُ بَاطِلًا أَوْ تَنْقُصَ مِنْهُ حَقًّا، فَتَوَلَّىٰ سُبْحَانَهُ حِفْظَهُ فَلَمْ يَزَلْ مَحْفُوظًا، قَالَ الْأَلُوسِيُّ: ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ أَيْ مِنْ كُلِّ مَا يَقْدَحُ فِيهِ كَالتَّحْرِيفِ وَالزِّيَادَةِ وَالنُّقْصَانِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، حَتَّىٰ إِنَّ الشَّيْخَ الْمَهِيبَ لَوْ غَيَّرَ نُقْطَةً يَرُدُّ عَلَيْهِ الصِّبْيَانُ وَيَقُولُ لَهُ مَنْ كَانَ: الصَّوَابُ كَذَا، وَيَدْخُلُ فِي ذَلِكَ اسْتِهْزَاءُ أُولَئِكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ وَتَكْذِيبُهُمْ إِيَّاهُ دُخُولًا أَوَّلِيًّا، وَمَعْنَىٰ حِفْظِهِ مِنْ ذَلِكَ عَدَمُ تَأْثِيرِهِ فِيهِ وَذَبُّهُ عَنْهُ، وَقَالَ الْحَسَنُ: حِفْظُهُ بِإِبْقَاءِ شَرِيعَتِهِ إِلَىٰ يَوْمِ

الْقِيَامَةِ، وَلَمْ يَحْفَظْ سُبْحَانَهُ كِتَابًا مِنَ الْكُتُبِ كَذَلِكَ، بَلِ اسْتُحْفِظَهَا جَلَّ وَعَلَا الرَّبَّانِيِّينَ وَالْأَحْبَارَ فَوَقَعَ فِيهَا مَا وَقَعَ، وَتَوَلَّىٰ حِفْظَ الْقُرْآنِ بِنَفْسِهِ سُبْحَانَهُ، فَلَمْ يَزَلْ مَحْفُوظًا أَوَّلًا وَآخِرًا.

[١٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ﴾ أَيْ رُسُلًا، ﴿فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ﴾ أَيْ: فِي الْأُمَمِ وَالْقُرُونِ الْمَاضِيَةِ، والشيعة: هم القوم المجتمعة المتفقة كلمتهم علىٰ رأي واحد.

[١١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ كَمَا فَعَلُوا بِكَ، ذَكَرَهُ تَسْلِيَةً لِلنَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

[١٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ﴾ أَيْ: كَمَا سَلَكْنَا الْكُفْرَ وَالتَّكْذِيبَ وَالِاسْتِهْزَاءَ بِالرُّسُلِ فِي قُلُوبِ شِيَعِ الْأَوَّلِينَ كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ: نُدْخِلُهُ، وَقِيلَ: الْمَعْنَىٰ نَسْلُكُ الْقُرْآنَ فِي قُلُوبِهِمْ فَيُكَذِّبُونَ بِهِ ، وَالسَّلْكُ: إِدْخَالُ الشَّيْءِ فِي الشَّيْءِ كَإِدْخَالِ الْخَيْطِ فِي الْمِخْيَطِ ، ﴿فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾ يَعْنِي مُشْرِكِي مَكَّةَ قَوْمَكَ.

[١٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ يَعْنِي: لَا يُؤْمِنُونَ بِمُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَبِالْقُرْآنِ، ﴿وَقَدْ خَلَتْ﴾ مضت، ﴿سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: وقائع الله تعالىٰ الإهلاك فِيمَنْ كَذَّبَ الرُّسُلَ مِنَ الْأُمَمِ الْخَالِيَةِ يُخَوِّفُ أَهْلَ مَكَّةَ.

[١٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ﴾ يَعْنِي: عَلَىٰ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ، ﴿بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾ فظلت الملائكة

يعرجون فيه وَهُمْ يَرَوْنَهَا عِيَانًا، هَذَا قَوْلُ الْأَكْثَرِينَ ، وَقَالَ الْحَسَنُ البصري: مَعْنَاهُ فَظَلَّ هؤلاء الكفار يعرجون فيه أَيْ: يَصْعَدُونَ. وَالْأَوَّلُ أَصَحُّ.

[١٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ﴾ سدت، ﴿أَبْصَارُنَا﴾ وَقَالَ الْحَسَنُ البصري: سُحِرَتْ، وَقَالَ قَتَادَةُ: أُخِذَتْ، ﴿بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ﴾ أَيْ: عُمِلَ فِينَا السِّحْرُ فَسَحَرَنَا محمد.

[١٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا﴾ وَالْبُرُوجُ هِيَ النُّجُومُ الْكِبَارُ مَأْخُوذَةٌ مِنَ الظُّهُورِ، يُقَالُ: تَبَرَّجَتِ الْمَرْأَةُ أَيْ: ظَهَرَتْ، وَحَقِيقَتُهُ الْبِنَاءُ الْكَبِيرُ الْمُتَّخَذُ لِلسُّكْنَىٰ أَوْ لِلتَّحَصُّنِ ، وَهُوَ يُرَادِفُ الْقَصْرَ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ﴾ [النساء : ٧٨] ، وَأَرَادَ بِهَا الْمَنَازِلَ الَّتِي تَنْزِلُهَا الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالْكَوَاكِبُ السَّيَّارَةُ، وَقَالَ عَطِيَّةُ: هِيَ قُصُورٌ فِي السَّمَاءِ عَلَيْهَا الْحَرَسُ ﴿وَزَيَّنَّاهَا﴾ أَيِ السَّمَاءَ بِالشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَالنُّجُومِ ، ﴿لِلنَّاظِرِينَ﴾ قال الطبري : وزينا السماء بالكواكب لمن نظر إليها وأبصرها.

[١٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾ مَرْجُومٍ ، وَقَالَ الْكِسَائِيُّ: كُلُّ رَجِيمٍ فِي الْقُرْآنِ فَهُوَ بِمَعْنَىٰ الشَّتْمِ، وَقِيلَ: مَلْعُونٍ ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: كَانَتِ الشَّيَاطِينُ لَا يُحْجَبُونَ عَنِ السَّمَاوَاتِ وَكَانُوا يَدْخُلُونَهَا، وَيَأْتُونَ بأخبارها فيلقون علىٰ الكهنة ما سمعوا، فَلَمَّا وُلِدَ عِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ منعوا من ثلاث سماوات، فَلَمَّا وُلِدَ مُحَمَّدٌ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُنِعُوا مِنَ السَّمَاوَاتِ أَجْمَعَ، فَمَا مِنْهُمْ مَنْ أَحَدٍ يُرِيدُ اسْتِرَاقَ السَّمْعِ إِلَّا رُمِيَ بِشِهَابٍ، فَلَمَّا مُنِعُوا مِنْ

تِلْكَ الْمَقَاعِدِ ذَكَرُوا ذَلِكَ لِإِبْلِيسَ، فَقَالَ: لقد حدث في الأرض حادث، قَالَ: فَبَعَثَهُمْ فَوَجَدُوا رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَتْلُو القرآن ، فقالوا: هذا والله حَدَثَ.

[١٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ﴾ لَكِنَّ مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ، وَاسْتِرَاقُ السَّمْعِ: سَرِقَتُهُ. وَمَعْنَىٰ اسْتِرَاقِهِ الِاسْتِمَاعَ بِخِفْيَةٍ مِنَ الْمُتَحَدِّثِ كَأَنَّ الْمُسْتَمِعَ يَسْرِقُ مِنَ الْمُتَكَلِّمِ كَلَامَهُ الَّذِي يُخْفِيهِ عَنْهُ. ﴿فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ﴾ والشهاب الشعلة من النار، وفيصَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنْ عَائِشَةَ: أَنَّ نَاسًا سَأَلُوا رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الْكُهَّانِ فَقَالَ: «**لَيْسُوا بِشَيْءٍ** - أَيْ لَا وُجُودَ لِمَا يَزْعُمُونَهُ - فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ فَإِنَّهُمْ يُحَدِّثُونَ أَحْيَانًا بِالشَّيْءِ يَكُونُ حَقًّا؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **تِلْكَ الْكَلِمَةُ مِنَ الْحَقِّ يَخْطِفُهَا الْجِنِّيُّ فَيُقِرُّهَا فِي أُذُنِ وَلِيِّهِ قَرَّ الدَّجَاجَةِ ، فَيَخْلِطُونَ فِيهَا أَكْثَرَ مِنْ مِائَةِ كِذْبَةٍ**»(١).

[١٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا﴾ بسطناها ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ جِبَالًا ثَوَابِتَ، وَقَدْ كَانَتِ الْأَرْضُ تَمِيدُ إِلَىٰ أَنْ أَرْسَاهَا اللهُ بالجبال، ﴿وَأَنْبَتْنَا فِيهَا﴾ أَيْ: فِي الْأَرْضِ، ﴿مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ﴾ بقدر مَعْلُومٍ، قال القرطبي : وَالْمَقْصُودُ مِنَ الْإِنْبَاتِ الْإِنْشَاءُ وَالْإِيجَادُ. وَقِيلَ:﴿أَنْبَتْنا فِيها﴾ أَيْ فِي الْجِبَالِ

(١) البخاري (٣٢٨٨) ومسلم (٢٢٢٨) .

﴿مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ﴾ من الذهب والفضة والنحاس والرصاص والقزدير، حَتَّىٰ الزِّرْنِيخَ وَالْكُحْلَ، كُلُّ ذَلِكَ يُوزَنُ وَزْنًا.

[٢٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ﴾ جَمْعُ مَعِيشَةٍ، قِيلَ: أَرَادَ بِهَا المطاعم والمشارب والملابس ، قِيلَ: إِنَّهَا التَّصَرُّفُ فِي أَسْبَابِ الرِّزْقِ مُدَّةَ الْحَيَاةِ. ﴿وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ﴾ أي: جعلنا فيها معايش مَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ مِنَ الدواب والأنعام، أي: جعلنا لَكُمْ وَكَفَيْنَاكُمْ رِزْقَهَا .

[٢١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ﴾ أَيْ: وَمَا مِنْ شيء ﴿إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ﴾ أَيْ مَفَاتِيحُ خَزَائِنِهِ ، أَيْ وَإِنْ من شي مِنْ أَرْزَاقِ الْخَلْقِ وَمَنَافِعِهِمْ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ، يَعْنِي الْمَطَرَ الْمُنَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ، لِأَنَّ بِهِ نبات كل شي، ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ أَيْ وَلَكِنْ لَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا عَلَىٰ حَسَبِ مَشِيئَتِنَا وَعَلَىٰ حَسَبِ حَاجَةِ الْخَلْقِ إِلَيْهِ.

[٢٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ﴾ أَيْ: حَوَامِلَ لِأَنَّهَا تَحْمِلُ الْمَاءَ إِلَىٰ السَّحَابِ، وَهُوَ جَمْعُ لَاقِحَةٍ، يُقَالُ: نَاقَةٌ لَاقِحَةٌ إِذَا حَمَلَتِ الْوَلَدَ. قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: يُرْسِلُ اللهُ الرِّيحَ فَتَحْمِلُ الْمَاءَ فَيَمُرُّ بِهِ السَّحَابُ فَيَدِرُّ كَمَا تَدِرُّ اللِّقْحَةُ ثُمَّ تُمْطِرُ. قال ابن عاشور : وَمَعْنَىٰ الْإِلْقَاحِ أَنَّ الرِّيَاحَ تُلَقِّحُ السَّحَابَ بِالْمَاءِ بِتَوْجِيهِ عَمِلِ الْحَرَارَةِ وَالْبُرُودَةِ مُتَعَاقِبَيْنِ فَيَنْشَأُ عَنْ ذَلِكَ الْبُخَارُ الَّذِي يَصِيرُ مَاءً فِي الْجَوِّ ثُمَّ يَنْزِلُ مَطَرًا عَلَىٰ الْأَرْضِ وَأَنَّهَا تُلَقِّحُ الشَّجَرَ ذِي الثَّمَرَةِ بِأَنْ تَنْقُلَ إِلَىٰ نَوْرِهِ غَبْرَةً دَقِيقَةً مِنْ نَوْرِ الشَّجِرِ الذَّكَرِ فَتَصْلُحُ ثَمَرَتُهُ أَوْ تَثْبُتُ، وَبِدُونِ ذَلِكَ لَا

تَثْبُتُ أَوْ لَا تَصْلُحُ. ﴿فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ﴾ أَيْ: جَعَلْنَا الْمَطَرَ لَكُمْ سَقْيًا وَسَقَاهُ إِذَا أَعْطَاهُ مَا يَشْرَبُ. وَتَقُولُ الْعَرَبُ: سَقَيْتُ الرَّجُلَ مَاءً وَلَبَنًا إِذَا كَانَ لِسَقْيِهِ، فَإِذَا جَعَلُوا لَهُ مَاءً لِشُرْبِ أَرْضِهِ ودوابه تقول العرب: أَسْقَيْتُهُ، ﴿وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾ يَعْنِي الْمَطَرَ فِي خَزَائِنِنَا لَا فِي خَزَائِنِكُمْ. وَقَالَ سُفْيَانُ: بِمَانِعِينَ.

[٢٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ﴾ نُمِيتَ جَمِيعَ الْخَلَائِقِ، فَلَا يَبْقَىٰ حي سوانا.

[٢٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَرَادَ بِالْمُسْتَقْدِمِينَ الْأَمْوَاتَ وَبِالْمُسْتَأْخِرِينَ الْأَحْيَاءَ. قَالَ الشَّعْبِيُّ: الْأَوَّلِينَ وَالْآخَرِينَ، وَقَالَ عِكْرِمَةُ: الْمُسْتَقْدِمُونَ مَنْ خَلَقَ اللهُ وَالْمُسْتَأْخِرُونَ مَنْ لَمْ يَخْلُقِ اللهُ. قَالَ مُجَاهِدٌ: المستقدمون الْقُرُونُ الْأُولَىٰ وَالْمُسْتَأْخِرُونَ أُمَّةُ مُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَقَالَ ابْنُ عُيَيْنَةَ: أَرَادَ مَنْ يُسَلِّمُ وَمَنْ لَا يُسَلِّمُ.

[٢٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ عَلَىٰ مَا عَلِمَ مِنْهُمْ. وَقِيلَ: يملك الْكُلَّ ثُمَّ يَحْشُرُهُمُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ، قَالَ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ مَاتَ عَلَىٰ شَيْءٍ بَعَثَهُ اللهُ عَلَيْهِ**»[١].

---

(١) أحمد (١٤٦٣١).

[٢٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ﴾ يَعْنِي: آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، سُمِّيَ إِنْسَانًا لِظُهُورِهِ وَإِدْرَاكِ الْبَصَرِ إِيَّاهُ. وَقِيلَ: مِنَ النِّسْيَانِ لِأَنَّهُ عَهِدَ إليه فنسي ، ﴿مِنْ صَلْصَالٍ﴾ وَهُوَ الطِّينُ الْيَابِسُ الَّذِي إِذَا نَقَرْتَهُ سَمِعْتَ لَهُ صَلْصَلَةً، أَيْ: صَوْتًا. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هُوَ الطين الحر الطيب ، وَقال ابن عاشور : وَالصَّلْصَالُ: الطِّينُ الَّذِي يُتْرَكُ حَتَّىٰ يَيْبَسَ فَإِذَا يَبِسَ فَهُوَ صَلْصَالٌ وَهُوَ شِبْهُ الْفَخَّارِ إِلَّا أَنَّ الْفَخَّارَ هُوَ مَا يَبِسَ بِالطَّبْخِ بِالنَّارِ. ﴿مِنْ حَمَإٍ﴾ وَالْحَمَأُ: الطِّينُ إِذَا اسْوَدَّ وَكُرِهَتْ رَائِحَتُهُ.﴿مَسْنُونٍ﴾ أَيْ: مُتَغَيِّرٍ، وَالْمَسْنُونُ: الَّذِي طَالَتْ مُدَّةُ مُكْثِهِ، قَالَ مُجَاهِدٌ : هُوَ الْمُنْتِنُ الْمُتَغَيِّرُ. وَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: هُوَ الْمَصْبُوبُ. تَقُولُ الْعَرَبُ: سَنَنْتُ الْمَاءَ أَيْ صَبَبْتُهُ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هُوَ التُّرَابُ الْمُبْتَلُّ المنتن جعل صلصالا كالفخار.

[٢٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هُوَ أَبُو الْجِنِّ كَمَا أَنَّ آدَمَ أَبُو الْبَشَرِ. وَقَالَ قَتَادَةُ: هُوَ إِبْلِيسُ خُلِقَ قَبْلَ آدَمَ ، وَيُقَالُ: الْجَانُّ أبو الجن وإبليس أبو الشيطان، وَفِي الْجِنِّ مُسْلِمُونَ وَكَافِرُونَ، وَيَحْيَوْنَ وَيَمُوتُونَ، وَأَمَّا الشَّيَاطِينُ فَلَيْسَ مِنْهُمْ مُسْلِمُونَ وَيَمُوتُونَ إِذَا مَاتَ إِبْلِيسُ، وَذَكَرَ وَهْبٌ: إِنَّ مِنَ الْجِنِّ مَنْ يُولَدُ لَهُمْ وَيَأْكُلُونَ وَيَشْرَبُونَ بِمَنْزِلَةِ الْآدَمِيِّينَ، وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ هُمْ بِمَنْزِلَةِ الرِّيحِ لَا يَأْكُلُونَ وَلَا يَشْرَبُونَ وَلَا يَتَوَالَدُونَ ، ﴿مِنْ نَارِ السَّمُومِ﴾ وَالسَّمُومُ رِيحٌ حَارَّةٌ تَدْخُلُ مَسَامَّ الإنسان فتقتله. يقال: السموم بالنهار والحرور بالليل، وَقِيلَ: نَارُ السَّمُومِ لَهَبُ النَّارِ. وَقِيلَ: مِنْ نَارِ السَّمُومِ أَيْ: مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ، وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: كَانَ إِبْلِيسُ مِنْ حَيٍّ مِنَ الْمَلَائِكَةِ يُقَالُ لَهُمْ:

الْجِنُّ خُلِقُوا مِنْ نَارِ السَّمُومِ وَخُلِقَتِ الْجِنُّ الَّذِينَ ذُكِرُوا فِي الْقُرْآنِ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ، فَأَمَّا الْمَلَائِكَةُ فَإِنَّهُمْ خلقوا من النور.

[٢٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ﴾ وعدلت صُورَتَهُ، وَأَتْمَمْتُ خَلْقَهُ، ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ فَصَارَ بَشَرًا حَيًّا وَالرُّوحُ جِسْمٌ لَطِيفٌ يَحْيَا بِهِ الْإِنْسَانُ وَأَضَافَهُ إِلَىٰ الله تعالىٰ تَشْرِيفًا، ﴿فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ سُجُودَ تَحِيَّةٍ لَا سُجُودَ عِبَادَةٍ.

[٣٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ﴾ الَّذِينَ أُمِرُوا بِالسُّجُودِ، ﴿كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ فَإِنْ قِيلَ: لِمَ قَالَ ﴿كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ وَقَدْ حَصَلَ الْمَقْصُودُ بِقَوْلِهِ: فسجد الْمَلَائِكَةُ؟ قُلْنَا: زَعَمَ الْخَلِيلُ وَسِيبَوَيْهِ أَنَّهُ ذَكَرَ ذَلِكَ تَأْكِيدًا وَذَكَرَ الْمُبَرِّدُ أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ﴾ كَانَ مِنَ الْمُحْتَمَلِ أَنَّهُ سَجَدَ بَعْضُهُمْ، فَذَكَرَ كُلُّهُمْ لِيَزُولَ هَذَا الْإِشْكَالُ، ثُمَّ كَانَ يَحْتَمِلُ أَنَّهُمْ سَجَدُوا فِي أَوْقَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ فَزَالَ ذلك الإشكال بقوله: ﴿أَجْمَعُونَ﴾.

[٣١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ قِيلَ: هَذَا الِاسْتِثْنَاءُ مُتَّصِلٌ لِكَوْنِهِ كَانَ مِنْ جِنْسِ الْمَلَائِكَةِ، وَلَكِنَّهُ أَبَىٰ ذَلِكَ اسْتِكْبَارًا وَاسْتِعْظَامًا لِنَفْسِهِ وَحَسَدًا لِآدَمَ، فَحَقَّتْ عَلَيْهِ كَلِمَةُ اللهِ وَقِيلَ: إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، وَلَكِنَّهُ كَانَ مَعَهُمْ، فَغَلَبَ اسْمُ الْمَلَائِكَةِ عَلَيْهِ وَأُمِرَ بِمَا أُمِرُوا بِهِ، فَكَانَ الِاسْتِثْنَاءُ بِهَذَا الِاعْتِبَارِ مُتَّصِلًا وَقِيلَ: إِنَّ الِاسْتِثْنَاءَ مُنْفَصِلٌ بِنَاءً عَلَىٰ عَدَمِ كَوْنِهِ مِنْهُمْ، وَعَدَمِ تَغْلِيبِهِمْ عَلَيْهِ، أَيْ: وَلَكِنَّ إِبْلِيسَ أَبَىٰ أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ.

[٣٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ﴾ أَيْ مَا الْمَانِعُ لَكَ؟ ﴿أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ أَيْ فِي أَلَّا تَكُونَ ؛ لِأَنَّهُ أَبَىٰ أَنَّ يَسْجُدَ وَأَنْ يُسَاوِيَ الْمَلَائِكَةَ فِي الرِّضَىٰ بِالسُّجُودِ ، فَدَلَّ هَذَا عَلَىٰ أَنَّهُ عَصَىٰ وَأَنَّهُ تَرَفَّعَ عَنْ مُتَابَعَةِ غَيْرِهِ.

[٣٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ أراد: إِنِي أَفْضَلُ مِنْهُ لِأَنَّهُ طِينِيٌّ، وَأَنَا نَارِيٌّ وَالنَّارُ تَأْكُلُ الطِّينَ، فبيَّنَ تَكَبُّرَهُ وَحَسَدَهُ، وَأَنَّهُ خَيْرٌ مِنْهُ، إِذْ هُوَ مِنْ نَارٍ وَالنَّارُ تَأْكُلُ الطِّينَ، قَالَ الْعُلَمَاءُ: الَّذِي أَحْوَجَهُ إِلَىٰ تَرْكِ السُّجُودِ هُوَ الْكِبْرُ وَالْحَسَدُ، وَكَانَ أَضْمَرَ ذَلِكَ فِي نَفْسِهِ إِذَا أُمِرَ بِذَلِكَ، رَأَىٰ أَنَّ النَّارَ أَشْرَفُ مِنَ الطِّينِ، لِعُلُوِّهَا وَصُعُودِهَا وَخِفَّتِهَا، وَلِأَنَّهَا جَوْهَرٌ مُضِيءٌ ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَالْحَسَنُ وَابْنُ سِيرِينَ: أَوَّلُ مَنْ قَاسَ إِبْلِيسُ فَأَخْطَأَ الْقِيَاسَ، فمن قاس الدين برأيه قرنه مَعَ إِبْلِيسَ، قَالَ ابْنُ سِيرِينَ: وَمَا عُبِدَتِ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ إِلَّا بِالْمَقَايِيسِ ، وَقَالَتِ الْحُكَمَاءُ: أَخْطَأَ عَدُوُّ اللهِ مِنْ حَيْثُ فَضَّلَ النَّارَ عَلَىٰ الطِّينِ، وَإِنْ كَانَا فِي دَرَجَةٍ وَاحِدَةٍ مِنْ حَيْثُ هِيَ جَمَادٌ مَخْلُوقٌ، وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ، قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**خُلِقت الملائكةُ مِنْ نُورٍ وَخُلِقَ إِبْلِيسُ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لكم**»(١) .

---

(١) مسلم (٢٩٩٦) .

[٣٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا﴾ أَيْ: مِنَ الْجَنَّةِ ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ أَيْ مَرْجُومٌ بِالشُّهُبِ، وَقِيلَ: مَلْعُونٌ مَشْئُومٌ، وَدَلَّ هَذَا أَنَّ مَنْ عَصَىٰ مَوْلَاهُ فَهُوَ ذَلِيلٌ، وَقَالَ أَبُو رَوْقٍ وَالْبَجَلِيُّ: ﴿ فَاهْبِطْ مِنْها﴾ أَيْ مِنْ صُورَتِكَ الَّتِي أَنْتَ فِيهَا، لِأَنَّهُ افْتَخَرَ بِأَنَّهُ مِنَ النَّارِ فَشُوِّهَتْ صُورَتُهُ بِالْإِظْلَامِ وَزَوَالِ إِشْرَاقِهِ.

[٣٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ﴾ قِيلَ: إِنَّ أَهْلَ السَّمَاوَاتِ يَلْعَنُونَ إِبْلِيسَ كَمَا يَلْعَنُهُ أَهْلُ الْأَرْضِ فَهُوَ مَلْعُونٌ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وعنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ أَنَّهُ قَالَ: لَمَّا لعن الله إبليس تغيرت صورته عن صور الْمَلَائِكَةِ، وَرَنَّ رَنَّةً، فَكُلُّ رَنَّةٍ فِي الدُّنْيَا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مِنْهَا.

[٣٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ أَرَادَ الْخَبِيثُ أَنْ لَا يَمُوتَ، قال القرطبي: هَذَا السُّؤَالُ مِنْ إِبْلِيسٍ لَمْ يَكُنْ عن ثقته مِنْهُ بِمَنْزِلَتِهِ عِنْدَ اللهِ تَعَالَىٰ، وَأَنَّهُ أَهْلٌ أَنْ يُجَابَ لَهُ دُعَاءٌ، وَلَكِنْ سَأَلَ تَأْخِيرَ عَذَابَهُ زِيَادَةً فِي بَلَائِهِ، كَفِعْلِ الْآيِسِ مِنَ السَّلَامَةِ، وَأَرَادَ بِسُؤَالِهِ الْإِنْظَارَ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ: أَلَّا يَمُوتَ، لِأَنَّ يَوْمَ الْبَعْثِ لَا مَوْتَ فِيهِ وَلَا بَعْدَهُ.

[٣٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ يَعْنِي من المؤجلين، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَرَادَ بِهِ النَّفْخَةَ الْأُولَىٰ، أَيْ حِينَ تَمُوتُ الْخَلَائِقُ.

[٣٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ أَيِ: الْوَقْتِ الَّذِي يَمُوتُ فِيهِ الخلائق وهو النفخة الأولىٰ.

[٣٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾ أَضْلَلْتَنِي، وَقِيلَ: خَيَّبْتَنِي مِنْ رَحْمَتِكَ، وَالْإِغْوَاءُ: جَعْلُهُمْ غَاوِينَ، وَالْغَوَايَةُ: الضَّلَالُ، وَالْمَعْنَىٰ: وَلَأُضِلَّنَّهُمْ، قال القرطبي: الْإِغْوَاءُ إِيقَاعُ الْغَيِّ فِي الْقَلْبِ، أَيْ فَبِمَا أَوْقَعْتَ فِي قَلْبِي مِنَ الْغَيِّ وَالْعِنَادِ وَالِاسْتِكْبَارِ. وَهَذَا لِأَنَّ كُفْرَ إِبْلِيسَ لَيْسَ كُفْرَ جَهْلٍ، بَلْ هُوَ كُفْرُ عِنَادٍ وَاسْتِكْبَارٍ. ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ حب الدنيا ومعاصيك، وَتَزْيِينُهُ هُنَا يَكُونُ بِوَجْهَيْنِ: إِمَّا بِفِعْلِ الْمَعَاصِي، وَإِمَّا بِشَغْلِهِمْ بزينة الدنيا عن فعل الطاعة ﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ﴾ أي: لأضلنهم، ﴿أَجْمَعِينَ﴾.

[٤٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ المؤمنين الذين أخلصوا لك بالطاعة وَالتَّوْحِيدَ، وَمَنْ فَتَحَ اللَّامَ أَيْ من أخلصته بتوحيدك فهديته واصطفيته، وحُكِي عن الْحَوَارِيِّينَ أنهم سَأَلُوا عِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنِ الْمُخْلَصِينَ لِلَّهِ؟ فَقَالَ: «الَّذِي يعمل ولا يحب أن يحمده الناس».

[٤١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ﴾ اللهُ تَعَالَىٰ ﴿هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ قال الحسن البصري: معناه صراط مستقيم، قال مُجَاهِدٌ: الْحَقُّ يَرْجِعُ إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ وَعَلَيْهِ طَرِيقُهُ وَلَا يَعْوَجُّ عَلَيْهِ شَيْءٌ، وَقَالَ الْأَخْفَشُ: يَعْنِي عَلَيَّ الدَّلَالَةُ عَلَىٰ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ. قَالَ الْكِسَائِيُّ: هَذَا عَلَىٰ التَّهْدِيدِ وَالْوَعِيدِ كَمَا يَقُولُ الرَّجُلُ لِمَنْ يخاصمه طريقك، أَيْ: لَا تُفْلِتُ مِنِّي، كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ [الْفَجْرِ: ١٤] قِيلَ: الْمَعْنَىٰ عَلَيَّ أَنْ أَدُلَّ عَلَىٰ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ بِالْبَيَانِ وَالْبُرْهَانِ. وَقِيلَ: بِالتَّوْفِيقِ وَالْهِدَايَةِ.

[٤٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ أَيْ: قُوَّةٌ، قَالَ الْعُلَمَاءَ: يَعْنِي عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وقَالَ سفيان بْنُ عُيَيْنَةَ: أَيْ فِي أَنْ يُلْقِيَهُمْ فِي ذَنْبٍ يَمْنَعُهُمْ عَفْوِي وَيُضَيِّقُهُ عَلَيْهِمْ، وَهَؤُلَاءِ الذين هداهم الله واجتباهم واختارهم واصطفاهم.. مَعْنَاهُ لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ تُلْقِيهِمْ فِي ذَنْبٍ يَضِيقُ عَنْهُ عَفْوِي، وَهَؤُلَاءِ ثَنِيَّةُ اللهِ الَّذِينَ هداهم وَاجْتَبَاهُمْ، ﴿إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ وَالْمَعْنَىٰ أَنَّ اللهَ وَضَعَ سُنَّةً فِي نُفُوسِ الْبَشَرِ أَنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَتَسَلَّطُ إِلَّا عَلَىٰ مَنْ كَانَ غَاوِيًا، أَيْ مَائِلًا لِلْغَوَايَةِ مُكْتَسِبًا لَهَا دُونَ مَنْ كَبَحَ نَفْسَهُ عَنِ الشَّرِّ، قال ابن عاشور : وَالْمَعْنَىٰ أَنَّ اللهَ وَضَعَ سُنَّةً فِي نُفُوسِ الْبَشَرِ أَنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَتَسَلَّطُ إِلَّا عَلَىٰ مَنْ كَانَ غَاوِيًا، أَيْ مَائِلًا لِلْغَوَايَةِ مُكْتَسِبًا لَهَا دُونَ مَنْ كَبَحَ نَفْسَهُ عَنِ الشَّرِّ.

[٤٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ يَعْنِي مَوْعِدَ إِبْلِيسَ وَمَنْ تَبِعَهُ.

[٤٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ﴾ أطباق طبق فوق طبق ، وعَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: أَبْوَابُ جَهَنَّمَ سَبْعَةٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ، فَيَمْتَلِئُ الْأَوَّلُ ثم الثاني ثم الثالث، حتىٰ تمتلئ كُلُّهَا ، وَقَالَ عِكْرِمَةُ: سَبْعَةُ أَبْوَابٍ سَبْعَةُ أَطْبَاقٍ، وقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: النَّارُ سَبْعُ دَرَكَاتٍ أَوَّلُهَا جَهَنَّمُ ، ثُمَّ لَظَىٰ ، ثُمَّ الْحُطَمَةُ ، ثُمَّ السَّعِيرُ ، ثُمَّ سَقَرُ ، ثُمَّ الْجَحِيمُ ، ثُمَّ الْهَاوِيَةُ ، ﴿لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾ أَيْ: لِكُلِّ دَرَكَةٍ قَوْمٌ يَسْكُنُونَهَا ، وَقَالَ الضَّحَّاكُ: فِي الدَّرَكَةِ الْأُولَىٰ أهل التوحيد الذين أُدْخِلُوا النَّارَ يُعَذَّبُونَ بِقَدْرِ ذُنُوبِهِمْ ثُمَّ يَخْرُجُونَ، وَفِي الثَّانِيَةِ النَّصَارَىٰ،

وَفِي الثَّالِثَةِ الْيَهُودُ، وَفِي الرَّابِعَةِ الصابئون، فِي الْخَامِسَةِ الْمَجُوسُ، وَفِي السَّادِسَةِ أَهْلُ الشِّرْكِ، وَفِي السَّابِعَةِ الْمُنَافِقُونَ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾.

[٤٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ أَيْ: فِي بَسَاتِينَ وَأَنْهَارٍ.

[٤٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ادْخُلُوهَا﴾ أَيْ: يُقَالُ لَهُمُ: ادْخُلُوا الْجَنَّةَ، ﴿بِسَلَامٍ﴾ أي: بسلامة ﴿آمِنِينَ﴾ مِنَ الْمَوْتِ وَالْخُرُوجِ وَالْآفَاتِ.

[٤٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَنَزَعْنَا﴾ أَخْرَجْنَا، ﴿مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ﴾ هُوَ الشَّحْنَاءُ وَالْعَدَاوَةُ وَالْحِقْدُ وَالْحَسَدُ، ﴿إِخْوَانًا﴾ ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ﴾ جمع سرير ﴿مُتَقَابِلِينَ﴾ يُقَابِلُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا لَا يَنْظُرُ أَحَدٌ مِنْهُمْ إِلَىٰ قَفَا صَاحِبِه.

[٤٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَا يَمَسُّهُمْ﴾ لا يصيبهم، ﴿فِيهَا نَصَبٌ﴾ أَيْ: تَعَبٌ، ﴿وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ هَذِهِ أَنَصُّ آيَةٍ فِي الْقُرْآنِ عَلَىٰ الْخُلُودِ.

[٤٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَعْنِي لِمَنْ تاب منهم.

[٥٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «**إِنَّ اللهَ خَلَقَ الرَّحْمَةَ يَوْمَ خَلَقَهَا مِائَةَ رَحْمَةٍ فَأَمْسَكَ عِنْدَهُ تِسْعًا وَتِسْعِينَ رَحْمَةً وَأَرْسَلَ فِي خَلْقِهِ كُلِّهِمْ رَحْمَةً وَاحِدَةً،**

فَلَوْ يَعْلَمُ الْكَافِرُ بِكُلِّ الَّذِي عِنْدَ اللهِ مِنَ الرَّحْمَةِ لَمْ يَيْأَسْ مِنَ الْجَنَّةِ، وَلَوْ يَعْلَمُ الْمُؤْمِنُ بِكُلِّ الَّذِي عِنْدَ اللهِ مِنَ الْعَذَابِ لَمْ يَأْمَنْ مِنَ النَّارِ»[1].

[٥١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ﴾ أي: عن الضيافة، وَالضَّيْفُ اسْمٌ يَقَعُ عَلَىٰ الْوَاحِدِ وَالِاثْنَيْنِ وَالْجمْعِ وَالْمُذَكَّرِ وَالْمُؤَنَّثِ، وَهُمُ الْمَلَائِكَةُ الَّذِينَ أَرْسَلَهُمُ اللهُ تَعَالَىٰ ليبشروا إبراهيم بالولد ويهلكوا قوم لوط.

[٥٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ﴾ إبراهيم، ﴿إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ﴾ أَيْ فَزِعُونَ خَائِفُونَ، وَإِنَّمَا قَالَ هَذَا بَعْدَ أَنْ قَرَّبَ الْعِجْلَ وَرَآهُمْ لَا يَأْكُلُونَ، وَالْوَجِلُ: الْخَائِفُ، وَالْوَجَلُ - بِفَتْحِ الْجِيمِ - الْخَوْفُ، قال الفضيل بن عياض: مَنْ خَافَ اللهَ خَافَ مِنْهُ كُلُّ شَيْءٍ وَمَنْ خَافَ غَيْرَ اللهِ خَافَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، وكان يَحْيَىٰ بْنَ مُعَاذٍ الرَّازِيَّ يَقُولُ: عَلَىٰ قَدْرِ حُبِّكَ لِلَّهِ يُحِبُّكَ الْخَلْقُ، وَعَلَىٰ قَدْرِ خَوْفِكَ مِنَ اللهِ يَهَابُكَ الْخَلْقُ، وَعَلَىٰ قَدْرِ شُغْلِكَ بِأَمْرِ اللهِ يُشْغَلُ فِي أَمْرِكَ الْخَلْقُ.

[٥٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالُوا لَا تَوْجَلْ﴾ أَيْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ لَا تَخفْ، ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ أَيْ: غُلَامٍ فِي صِغَرِهِ عَلِيمٌ فِي كِبَرِهِ يَعْنِي إِسْحَاقَ، أَيْ عَلِيمٌ بِالشَّرِيعَةِ بِأَن يكون نبيئا. فَتَعَجَّبَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ كِبَرِهِ وكبر امرأته.

---

(١) البخاري (٦٤٦٩) ومسلم (٢٧٥٥).

[٥٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي﴾ أَيْ: بِالْوَلَدِ ﴿عَلَىٰ أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ﴾ أَيْ: عَلَىٰ حَالِ الْكِبَرِ قَالَهُ عَلَىٰ طَرِيقِ التَّعَجُّبِ، وَالْمَسُّ: الْإِصَابَةُ ، وَالْمَعْنَىٰ تَعَجَّبَ مِنْ بِشَارَتِهِ بِوَلَدٍ مَعَ أَنَّ الْكِبَرَ مَسَّهُ، وَقَدْ عَلِمَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنَ الْبِشَارَةِ أَنَّهُمْ مَلَائِكَةٌ صَادِقُونَ فَتَعَيَّنَ أَنَّ الِاسْتِفْهَامَ لِلتَّعَجُّبِ، ﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾ فبأي شيء تبشرون، وَالِاسْتِفْهَامُ فِي أَبَشَّرْتُمُونِي لِلتَّعَجُّبِ، قال مجاهد: عجب من كبره، وكبر امرأته.

[٥٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ أَيْ بِالصِّدْقِ، ﴿فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ﴾ من اليائسين ، والْقُنُوطُ: الْيَأْسُ، قال ابن عاشور : وَلَمَّا كَانَ إِبْرَاهِيمُ- عَلَيْهِ السَّلَام- منزّها عَنِ الْقُنُوطِ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ جَاءُوا فِي مَوْعِظَتِهِ بِطَرِيقَةِ الْأَدَبِ الْمُنَاسِبِ فَنَهَوْهُ عَنْ أَنْ يَكُونَ مِنْ زُمْرَةِ الْقَانِطِينَ تَحْذِيرًا لَهُ مِمَّا يُدْخِلُهُ فِي تِلْكَ الزُّمْرَةِ، وَلَمْ يَفْرِضُوا أَنْ يَكُونَ هُوَ قَانِطًا لرفعة مقام نبوءته عَنْ ذَلِكَ. وَهُوَ فِي هَذَا الْمَقَامِ كَحَالِهِ فِي مَقَامِ مَا حَكَاهُ اللهُ عَنْهُ مِنْ قَوْلِهِ: أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَىٰ وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي.

[٥٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ﴾ قنط يقنط أي: من ييأس، ﴿مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ أَيِ: الْخَاسِرُونَ، وَالْقُنُوطُ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ كَبِيرَةٌ كَالْأَمْنِ مِنْ مَكْرِهِ، قال القرطبي : أَيِ الْمُكَذِّبُونَ الذَّاهِبُونَ عَنْ طَرِيقِ الصَّوَابِ ، يَعْنِي أَنَّهُ اسْتَبْعَدَ الْوَلَدَ لِكِبَرِ سِنِّهِ لَا أنه قنط من رحمة الله تعالىٰ، وعَن مُوسَىٰ بن عَليّ عَن أَبِيه قَالَ: بَلغنِي أَن نوحًا عَلَيْهِ السَّلَام قَالَ لِابْنِهِ سَام: يَا بني لَا تدخلن الْقَبْر وَفِي

قَلْبك مِثْقَال ذرة من الشّرك بِاللَّه ، فَإِنَّهُ من يَأْتِ الله عز وَجل مُشْركًا فَلَا حجَّة لَهُ، وَيَا بني لَا تدخل الْقَبْر وَفِي قَلْبك مِثْقَال ذرة من الْكبر فَإِن الْكبر رِدَاء الله ، فَمن يُنَازع الله رِدَاءَهُ يغْضب الله عَلَيْهِ، وَيَا بني لَا تدخلن الْقَبْر وَفِي قَلْبك مِثْقَال ذرة من الْقنُوط فَإِنَّهُ لَا يقنط من رَحْمَة الله إِلَّا ضال.

[٥٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ﴾ إبراهيم لهم، ﴿فَمَا خَطْبُكُمْ﴾ ما شأنكم، وَالْخَطْبُ الْأَمْرُ الْخَطِيرُ. أَيْ فَمَا أَمْرُكُمْ وَشَأْنُكُمْ وَمَا الَّذِي جِئْتُمْ بِهِ. ﴿أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ ، وَهَذَا إِخْبَارٌ مِنَ اللهِ سُبْحَانَهُ عَنْ سُؤَالِ إِبْرَاهِيمَ لِضُيُوفِهِ، لَمَّا ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ ، عَنْ سَبَبِ قُدُومِهِمْ وَمَجِيئِهِمْ لَهُ، فَأَخْبَرُوهُ بِإِرْسَالِ اللهِ تَعَالَىٰ لَهُمْ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ الْمُجْرِمِينَ ، ﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُجْرِمِينَ﴾ مشركين، والكلام فيه : إِيجَازُ حَذْفٍ ، وَتَقْدِيرُ الْكَلَامِ: إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ لُوطٍ لِأَجْلِ قَوْمٍ مُجْرِمِينَ، أَيْ لِعَذَابِهِمْ.

[٥٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِلَّا آلَ لُوطٍ﴾ أَتْبَاعَهُ وَأَهْلَ دِينِهِ، ﴿إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ وَالتَّنْجِيَةُ وَالْإِنْجَاءُ التَّخْلِيصُ.

[٥٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِلَّا امْرَأَتَهُ﴾ أي: امرأة لوط، اسْتَثْنَىٰ مِنْ آلِ لُوطٍ امْرَأَتَهُ وَكَانَتْ كَافِرَةً فَالْتَحَقَتْ بِالْمُجْرِمِينَ فِي الْهَلَاكِ ، ﴿قَدَّرْنَا﴾ قضينا، ﴿إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ﴾ الْبَاقِينَ فِي الْعَذَابِ قَالَ حُذَيْفَةُ: « لَمَّا أُرْسِلَتِ الرُّسُلُ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ لِيُهْلِكُوهُمْ قِيلَ لَهُمْ: لَا تُهْلِكُوهُمْ حَتَّىٰ يَشْهَدَ عَلَيْهِمْ لُوطٌ ثَلَاثَ مِرَارٍ، فَأَتَوْا لُوطًا وَهُوَ يَعْمَلُ فِي أَرْضٍ لَهُ، قَالَ: فَحَسِبَهُمْ بَشَرًا، قَالَ: فَأَقْبَلَ بِهِمْ خَفِيًّا حَتَّىٰ أَمْسَىٰ

إِلَىٰ أَهْلِهِ، قَالَ: فَمَشَوْا مَعَهُ فَالْتَفَتَ إِلَيْهِمْ، قَالَ: وَمَا تَدْرُونَ مَا يَصْنَعُ هَؤُلَاءِ، قَالُوا: وَمَا يَصْنَعُونَ؟ فَقَالَ: مَا مِنَ النَّاسِ أَحَدٌ هُوَ أَشَرُّ مِنْهُمْ، قَالَ: فَلَبِسُوا آذَانَهُمْ عَلَىٰ مَا قَالَ: وَمَشَوْا مَعَهُ، قَالَ: ثُمَّ قَالَ: مِثْلَ هَذَا، فَأَعَادَ عَلَيْهِمْ مِثْلَ هَذَا ثَلَاثَ مِرَارٍ، قَالَ: فَانْتَهَىٰ بِهِمْ إِلَىٰ أَهْلِهِ، قَالَ: فَانْطَلَقَتِ امْرَأَتُهُ الْعَجُوزُ عَجُوزُ السُّوءِ إِلَىٰ قَوْمِهِ، فَقَالَتْ: لَقَدْ تَضَيَّفَ لُوطٌ اللَّيْلَةَ رِجَالًا مَا رَأَيْتُ رِجَالًا قَطُّ أَحْسَنَ مِنْهُمْ وُجُوهًا، وَلَا أَطْيَبَ رِيحًا مِنْهُمْ، قَالَ: فَأَقْبَلُوا يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ فَدَافَعُوهُ الْبَابَ حَتَّىٰ كَادُوا يَغْلِبُونَهُ عَلَيْهِ ... إلىٰ أن قال : وَسَارَ بِأَهْلِهِ حَتَّىٰ قَالَ: اسْتَأْذَنَ جِبْرِيلُ فِي هَلَكَتِهِمْ فَأُذِنَ لَهُ فَاحْتَمَلَ الْأَرْضَ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا، قَالَ: فَأَهْوَىٰ بِهَا حَتَّىٰ سَمِعَ أَهْلُ سَمَاءِ الدُّنْيَا صُغَاءَ كِلَابِهِمْ، قَالَ ثُمَّ قَلَبَهَا بِهِمْ، قَالَ: فَسَمِعَتِ امْرَأَتُهُ - يَعْنِي لُوطًا عَلَيْهِ السَّلَامُ - الْوَجْبَةَ وَهِيَ مَعَهُ فَالْتَفَتَتْ فَأَصَابَهَا الْعَذَابُ، قَالَ: وَتَتَبَّعَتْ سِفَارَهُمْ بِالْحِجَارَةِ» .

[٦١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ﴾ ، فَلَمَّا أَتَىٰ رُسُلُ اللهِ آلَ لُوطٍ أَنْكَرَهُمْ لُوطٌ فَلَمْ يَعْرِفْهُمْ وَقَالَ لَهُمْ :

[٦٢] : ﴿قَالَ﴾ لُوطٌ لَهُمْ ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾ أَيْ: أَنَا لَا أَعْرِفُكُمْ، أَيْ لَا تُعْرَفُ قبيلتكم. وقِيلَ: كَانُوا شَبَابًا وَرَأَىٰ جَمَالًا فَخَافَ عَلَيْهِمْ مِنْ فِتْنَةِ قَوْمِهِ، فَهَذَا هُوَ الْإِنْكَارُ.

[٦٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ أَيْ: يَشُكُّونَ فِي أَنَّهُ نَازِلٌ بِهِمْ وَهُوَ الْعَذَابُ ؛ لِأَنَّهُ كَانَ يُوعِدُهُمْ بِالْعَذَابِ وَلَا يُصَدِّقُونَهُ.

[٦٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ بِالْيَقِينِ ، وَقِيلَ: بِالْعَذَابِ، ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ أَيْ فِي هَلَاكِهِمْ.

[٦٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ﴾ أي: خَلْفَهُمْ، وَالْقِطْعُ الْجُزْءُ الْأَخِيرُ مِنَ اللَّيْلِ ، ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ﴾ حَتَّىٰ لَا يَرْتَاعُوا مِنَ الْعَذَابِ إِذَا نَزَلَ بِقَوْمِهِمْ. وَقِيلَ: جَعَلَ اللهُ ذَلِكَ عَلَامَةً لِمَنْ يَنْجُو مِنْ آلِ لُوطٍ، ﴿وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَعْنِي الشَّامَ ، وَقِيلَ: الْأُرْدُنُ.

[٦٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ﴾ أي وقضينا إلىٰ آل لوط ذَلِكَ الْأَمْرِ أَيْ أَحْكَمْنَا الْأَمْرَ الَّذِي أُمِرْنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ، وأخبرناه ﴿أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ﴾ يَدُلُّ عَلَيْهِ قِرَاءَةُ عَبْدِ اللهِ وَقُلْنَا لَهُ إِنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ يعني أصلهم، ﴿مَقْطُوعٌ﴾ مستأصل، ﴿مُصْبِحِينَ﴾ أَيْ عِنْدَ طُلُوعِ الصُّبْحِ.

[٦٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ﴾ أَيْ أَهْلُ مَدِينَةِ لُوطٍ يعني سدوم، ﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾ بِأَضْيَافِ لُوطٍ أَيْ: يُبَشِّرُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا طَمَعًا فِي رُكُوبِ الْفَاحِشَةِ منهم.

[٦٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ﴾ لُوطٌ لِقَوْمِهِ، ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي﴾ وَحَقٌّ عَلَىٰ الرَّجُلِ إِكْرَامُ ضَيْفِهِ، ﴿فَلَا تَفْضَحُونِ﴾ فِيهِمْ، أَيْ تُخْجِلُونِ.

[٦٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَاتَّقُوا اللهَ وَلَا تُخْزُونِ﴾ وَلَا تُخْجِلُونِ، أي: قال لهم لوط هؤلاء أضيافي فلا تُخْجِلون، وخافوا الله في عملكم ولا تذلوني ولا تهينوني فيهم بالتعرض للنيل منهم بمكروه.

[٧٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ أَيْ: أَلَمْ نَنْهَكَ عَنْ أَنْ تُضِيفَ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ. وَقِيلَ: أَلَمْ نَنْهَكَ أَنْ تُدْخِلَ الْغُرَبَاءَ الْمَدِينَةَ فَإِنَّا نَرْكَبُ مِنْهُمُ الْفَاحِشَةَ.

[٧١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي﴾ أُزَوِّجُهُنَّ إِيَّاكُم إِنْ أَسْلَمْتُمْ فَأْتُوا الْحَلَالَ وَدَعُوا الْحَرَامَ ﴿إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ مَا آمُرُكُمْ بِهِ، وَقِيلَ: أَرَادَ بِالْبَنَاتِ نِسَاءَ قَوْمِهِ لِأَنَّ النَّبِيَّ كَالْوَالِدِ لِأُمَّتِهِ، قال ابن كثير : وَهَذَا إِنَّمَا قَالَهُ لَهُمْ قَبْلَ أَنْ يَعْلَمَ أنهم رسل الله، كما قال في سورة هود، وأما ههنا فَتَقَدَّمَ ذِكْرُ أَنَّهُمْ رُسُلُ اللهِ وَعُطِفَ بِذِكْرِ مَجِيءِ قَوْمِهِ وَمُحَاجَّتِهِ لَهُمْ، وَلَكِنَّ الْوَاوَ لَا تَقْتَضِي التَّرْتِيبَ، وَلَا سِيَّمَا إِذَا دَلَّ دَلِيلٌ عَلَىٰ خِلَافِهِ، فَقَالُوا لَهُ مُجِيبِينَ: ﴿أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ أَيْ أَوَمَا نَهَيْنَاكَ أَنْ تُضِيفَ أَحَدًا؟ فَأَرْشَدَهُمْ إِلَىٰ نِسَائِهِمْ وَمَا خَلَقَ لَهُمْ ربهم منهن من الفروج المباحة، هَذَا كُلُّهُ وَهُمْ غَافِلُونَ عَمَّا يُرَادُ بِهِمْ وَمَا قَدْ أَحَاطَ بِهِمْ مِنَ الْبَلَاءِ، وَمَاذَا يُصَبِّحُهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْمُسْتَقِرِّ.

[٧٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَعَمْرُكَ﴾ يَا مُحَمَّدُ أَيْ وَحَيَاتِكَ، قَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ: قَالَ الْمُفَسِّرُونَ بِأَجْمَعِهِمْ أَقْسَمَ اللهُ تَعَالَىٰ ها هنا بِحَيَاةِ مُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَشْرِيفًا لَهُ : أَنَّ قَوْمَهُ مِنْ قُرَيْشٍ فِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ وَفِي حَيْرَتِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ،

وَمَعْنَاهُ : وَبَقَائِكَ يَا مُحَمَّدُ، وَقِيلَ: وَحَيَاتِكَ ، وَهَذَا نِهَايَةُ التَّعْظِيمِ وَغَايَةُ الْبِرِّ وَالتَّشْرِيفِ. قَالَ أَبُو الْجَوْزَاءِ: مَا أَقْسَمَ اللهُ بِحَيَاةِ أَحَدٍ غَيْرِ مُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لِأَنَّهُ أَكْرَمُ الْبَرِيَّةِ عِنْدَهُ ، ﴿إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ﴾ حيرتهم وضلالتهم ، وَالسَّكْرَةُ: ذَهَابُ الْعَقْلِ، مُشْتَقَّةٌ مِنَ السَّكْرِ - بِفَتْحِ السِّينِ - وَهُوَ السَّدُّ وَالْغَلْقُ، قال ابن عاشور : وَأُطْلِقَتْ هُنَا عَلَىٰ الضَّلَالِ تَشْبِيهًا لِغَلَبَةِ دَوَاعِي الْهَوَىٰ عَلَىٰ دَوَاعِي الرَّشَادِ بِذَهَابِ الْعَقْلِ وَغَشْيَتِهِ ، ﴿يَعْمَهُونَ﴾ يَتَرَدَّدُونَ ، قَالَ قَتَادَةُ: يَلْعَبُونَ. رُوِيَ عَنِ ابْنِ عباس أنه قَالَ: مَا خَلَقَ اللهُ نَفْسًا أَكْرَمَ عَلَيْهِ مِنْ مُحَمَّدٍ - صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَمَا أَقْسَمَ اللهُ تَعَالَىٰ بِحَيَاةِ أَحَدٍ إِلَّا بِحَيَاتِهِ ، قَالَ الْقُرْطُبِيُّ: لِلَّهِ أَنْ يُقْسِمَ بِمَا شَاءَ مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ مِنْ حَيَوَانٍ وَجَمَادٍ، وَإِنْ لَمْ يُعْلَمْ وَجْهُ الْحِكْمَةِ فِي ذَلِكَ، أَمَّا الْمَخْلُوقُ فَلَا يَجُوزُ لَهُ أَنْ يُقْسِمَ إِلَّا بِاللهِ أَوْ بِاسْمٍ مِنْ أَسْمَائِهِ أَوْ صِفَةٍ مِنْ صِفَاتِهِ، عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صلىٰ الله عليه وسلم : « **إِنَّ الله يَنْهَاكُمْ أَنْ تَحْلِفُوا بِآبَائِكم**» ، وَلمسلم : «**فَمَن كان حَالِفا فَلْيَحْلِف بِالله أو لِيَصْمُت** »[1].

[٧٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ﴾ وَهِيَ مَا جَاءَهُمْ مِنَ الصَّوْتِ الْقَاصِفِ عِنْدَ شُرُوقِ الشَّمْسِ وَهُوَ طُلُوعُهَا، وَذَلِكَ مَعَ رَفْعِ بِلَادِهِمْ إِلَىٰ عَنَانِ السَّمَاءِ، ثُمَّ قَلْبِهَا، وَجَعْلِ عَالِيَهَا سَافِلَهَا، وَإِرْسَالِ حِجَارَةِ السِّجِّيلِ عَلَيْهِمْ،

---

(١) البخاري (٦٦٤٦) ومسلم (١٦٤٦) .

﴿مُشْرِقِينَ﴾ أَيْ وَقْتَ شُرُوقِ الشَّمْسِ، يُقَالُ: أَشْرَقَتِ الشَّمْسُ أَيْ أَضَاءَتْ، وَشَرَقَتْ إِذَا طَلَعَتْ، فَكَانَ ابْتِدَاءُ الْعَذَابِ حِينَ أَصْبَحُوا وَتَمَامُهُ حِينَ أَشْرَقُوا.

[٧٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ﴾ أَيْ: فَرَفَعْنَا الْقَرْيَةَ وَقَلَبْنَاهَا بِمَنْ فِيهَا، بَعْدَ مَجِيءِ الصَّوْتِ الْقَاصِفِ عِنْدَ شُرُوقِ الشَّمْسِ، فَجَعَلْنَا عَالِيَ أَرْضِهِمْ سَافِلَهَا، وَأَمْطَرْنَاهُمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ طِينٍ.

[٧٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لِلنَّاظِرِينَ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: لِلْمُتَفَرِّسِينَ، وَقَالَ قَتَادَةُ: لِلْمُعْتَبِرِينَ، وَقَالَ مَالِكٌ عَنْ بَعْضِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ: ﴿لِلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ لِلْمُتَأَمِّلِينَ.

[٧٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِنَّهَا﴾ يَعْنِي قُرَىٰ قَوْمِ لُوطٍ، ﴿لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ﴾ أَيْ عَلَىٰ طَرِيقِ قَوْمِكَ يَا مُحَمَّدُ إِلَىٰ الشَّامِ، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أَيْ لَعِبْرَةٌ لِلْمُصَدِّقِينَ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: بِطَرِيقٍ مُعَلَّمٍ لَيْسَ بِخَفِيٍّ وَلَا زَائِلٍ؛ لذلك قال تعالىٰ

[٧٧] : ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أَيْ إِنَّ الَّذِي صَنَعْنَا بِقَوْمِ لُوطٍ مِنَ الْهَلَاكِ وَالدَّمَارِ، وَإِنْجَائِنَا لُوطًا وَأَهْلَهُ لَدَلَالَةٌ وَاضِحَةٌ جَلِيَّةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ بِاللهِ وَرُسُلِهِ.

[٧٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِنْ كَانَ﴾ وقد كان ﴿أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ﴾ الغيضة ، وَالْأَيْكَةُ: الْغَيْضَةُ، وَهِيَ جَمَاعَةُ الشَّجَرِ، وَقِيلَ: الْأَيْكَةُ اسْمُ الْقَرْيَةِ ، يُرِيدُ قَوْمَ شُعَيْبٍ، كَانُوا أَصْحَابَ غِيَاضٍ وَرِيَاضٍ وَشَجَرٍ مُثْمِرٍ، ﴿لَظَالِمِينَ﴾ لَكَافِرِينَ .

[٧٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ بِالْعَذَابِ وَذَلِكَ أَنَّ اللهَ سَلَّطَ عَلَيْهِمُ الْحَرَّ سَبْعَةَ أَيَّامٍ، ثُمَّ بعث سَحَابَةً فَالْتَجَئُوا إِلَيْهَا يَلْتَمِسُونَ الرَّوْحَ، فبعث عليهم منها نارا فأحرقتهما، فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ﴾ [الشعراء: ١٨٩] ﴿وَإِنَّهُمَا﴾ يَعْنِي مَدِينَتَي قَوْمِ لُوطٍ وَأَصْحَابِ الأيكة ﴿لَبِإِمَامٍ مُبِينٍ﴾ يْ طَرِيقٍ مُّبِينٌ، قال ابن عباس: طَرِيقٌ ظَاهِرٌ.

[٨٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ﴾ وَهِيَ مَدِينَةُ ثَمُودَ قَوْمِ صَالِحٍ وَهِيَ بَيْنَ الْمَدِينَةِ وَالشَّامِ، قال ابن عاشور: وَالْحِجْرُ: الْمَكَانُ الْمَحْجُورُ، أَيِ الْمَمْنُوعُ مِنَ النَّاسِ بِسَبَبِ اخْتِصَاصٍ بِهِ، أَوِ اشْتُقَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَنْحِتُونَ بُيُوتَهُمْ فِي صَخْرِ الْجَبَلِ نَحْتًا مُحْكَمًا، وَقَدْ جُعِلَتْ طَبَقَاتٌ وَفِي وَسَطِهَا بِئْرٌ عَظِيمَةٌ وَبِئَارٌ كَثِيرَةٌ، ﴿الْمُرْسَلِينَ﴾ أراد صالحاً وحده، وَإِنَّمَا ذُكِرَ بِلَفْظِ الْجَمْعِ لِأَنَّ من كذب رسولاً، فقد كذب الرسل كلهم، رَوَىٰ الْبُخَارِيِّ عَنِ ابْنِ عُمَرَ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَمَّا نَزَلَ الْحِجْرَ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ أَمَرَهُمْ أَلَّا يَشْرَبُوا مِنْ بِئْرِهَا وَلَا يَسْتَقُوا مِنْهَا، فَقَالُوا: قَدْ عُجْنَا وَاسْتَقَيْنَا، فَأَمَرَهُمْ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَنْ يُهْرِيقُوا الْمَاءَ، وَأَنْ يَطْرَحُوا ذَلِكَ الْعَجِينَ»(١)

(١) البخاري (٣٣٧٨) ومسلم (٢٩٨١).

[٨١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا﴾ يعني: الناقة ، ذَكَرَ تَعَالَىٰ أَنَّهُ آتَاهُمْ مِنَ الْآيَاتِ مَا يَدُلُّهُمْ عَلَىٰ صِدْقِ مَا جَاءَهُمْ بِهِ صَالِحٌ، كَالنَّاقَةِ الَّتِي أَخْرَجَهَا اللهُ لَهُمْ بِدُعَاءِ صَالِحٍ مِنْ صخرة صماء، وكانت تَسْرَحُ فِي بِلَادِهِمْ لَهَا شِرْبٌ وَلَهُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ أي لم يعتبروا.

[٨٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَكَانُوا يَنْحِتُونَ﴾ النَّحْتُ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ: الْبَرْيُ وَالنَّجْرُ. ﴿مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ﴾ فَكَانُوا يَتَّخِذُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا لِأَنْفُسِهِمْ بِشِدَّةِ قُوَّتِهِمْ، ﴿آمِنِينَ﴾ أَيْ مِنْ أَنْ تَسْقُطَ عَلَيْهِمْ أَوْ تَخْرَبَ. وَقِيلَ: آمِنِينَ مِنَ الْمَوْتِ

[٨٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ﴾ يعني: صيحة العذاب، ﴿مُصْبِحِينَ﴾ أَيْ فِي وَقْتِ الصُّبْحِ ، فأَخَذَتْهُمْ صَيْحَةُ الْهَلَاكِ حِينَ أَصْبَحُوا مِنَ الْيَوْمِ الرَّابِعِ مِنَ الْيَوْمِ الَّذِي وُعِدُوا الْعَذَابَ.

[٨٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْحُصُونِ فِي الْجِبَالِ، وَلَا مَا أُعْطَوْهُ مِنَ الْقُوَّةِ.

[٨٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَما خَلَقْنَا السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ أَيْ لِلزَّوَالِ وَالْفَنَاءِ ، وَقِيلَ: أَيْ لِأُجَازِيَ الْمُحْسِنَ وَالْمُسِيءَ، ﴿ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ) أَيْ لَكَائِنَةٌ فَيُجْزَىٰ كُلٌّ بِعَمَلِهِ ، (فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ) مِثْلُ ﴿ وَاهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلًا ﴾ [المزمل : ١٠] أي تجاوز عنهم يا محمد، وأعفو

عَفْوًا حَسَنًا، ثُمَّ نُسِخَ بِالسَّيْفِ، قَالَ قَتَادَةُ: نَسَخَهُ قَوْلُهُ:﴿ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ [النساء : ٨٩] .

[٨٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ﴾ أَيِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الَّذِي خَلَقَهُمْ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ، وَهُوَ عَالِمٌ بِهِمْ وَبِتَدْبِيرِهِمْ وَمَا يَأْتُونَ مِنَ الْأَفْعَالِ ، ﴿الْعَلِيمُ﴾: بِأَهْلِ الْوِفَاقِ وَالنِّفَاقِ ، قال ابن كثير : ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ تَقْرِيرٌ لِلْمَعَادِ وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ قَادِرٌ عَلَىٰ إِقَامَةِ السَّاعَةِ، فَإِنَّهُ الخلاق الذي لا يعجزه خلق شيء ﴿الْعَلِيمُ﴾ بِمَا تَمَزَّقَ مِنَ الْأَجْسَادِ وَتَفَرَّقَ فِي سائر أقطار الأرض كقوله: ﴿ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴾ [يس: ٨١] عَنْ بُسْرِ بْنِ جَحَّاشٍ الْقُرَشِيِّ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بَصَقَ يَوْمًا فِي كَفِّهِ فَوَضَعَ عَلَيْهَا أُصْبُعَهُ، ثُمَّ قَالَ: « **قَالَ اللهُ: بَنِي آدَمَ، أَنَّىٰ تُعْجِزُنِي وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ مِثْلِ هَذِهِ، حَتَّىٰ إِذَا سَوَّيْتُكَ وَعَدَلْتُكَ، مَشَيْتَ بَيْنَ بُرْدَيْنِ، وَلِلْأَرْضِ مِنْكَ وَئِيدٌ** (يعني شكوىٰ) ، **فَجَمَعْتَ وَمَنَعْتَ، حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ قُلْتَ: أَتَصَدَّقُ، وَأَنَّىٰ أَوَانُ الصَّدَقَةِ..؟!** »(١) .

[٨٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ قال عمر وعلي رضي الله عنهما : فَاتِحَةُ الْكِتَابِ ،وَهُوَ قَوْلُ قَتَادَةَ وَعَطَاءٍ وَالْحَسَنِ وَسَعِيدِ ابْنِ جُبَيْرٍ ، وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

---

(١) أحمد (١٧٨٣٠) وابن ماجه (٢٧٠٧) .

«**أُمُّ الْقُرْآنِ هِيَ السَّبْعُ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ**»(١) ، وَعَنِ ابْنِ مسعود قال: السَّبْعِ الْمَثَانِي هِيَ فَاتِحَةُ الْكِتَابِ ، والقرآن العظيم سَائِرُ الْقُرْآنِ، وَاخْتَلَفُوا فِي أَنَّ الفاتحة لم سميت مثاني؟ فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَالْحُسْنُ وَقَتَادَةُ: لِأَنَّهَا تُثَنَّىٰ فِي الصَّلَاةِ فَتُقْرَأُ فِي كُلِّ رَكْعَةٍ ، وَقِيلَ: لِأَنَّهَا مَقْسُومَةٌ بَيْنَ اللهِ وَبَيْنَ الْعَبْدِ بنصفين نِصْفُهَا ثَنَاءٌ وَنِصْفُهَا دُعَاءٌ، كَمَا روينا عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : «**يقول الله: "قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ**»(٢)، وَقَالَ الْحُسَيْنُ بْنُ الْفَضْلِ: سُمِّيَتْ مَثَانِيَ لِأَنَّهَا نَزَلَتْ مَرَّتَيْنِ مرة بمكة ومرة بالمدينة. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: سُمِّيَتْ مَثَانِيَ لِأَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ اسْتَثْنَاهَا وَادَّخَرَهَا لِهَذِهِ الْأُمَّةِ فَمَا أَعْطَاهَا غَيْرَهُمْ ، قال ابن عاشور : وَالْأَصَحُّ أَنَّ السَّبْعَ الْمَثَانِي هِيَ سُورَةُ فَاتِحَةِ الْكِتَابِ لِأَنَّهَا يُثَنَّىٰ بِهَا، أَيْ تُعَادُ فِي كُلِّ رَكْعَةٍ مِنَ الصَّلَاةِ فَاشْتِقَاقُهَا مِنَ اسْمِ الِاثْنَيْنِ الْمُرَادُ بِهِ مُطْلَقُ التَّكْرِيرِ.

[٨٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ يَا مُحَمَّدُ، وعن سُفْيَان فِي قَوْله: ﴿وَلَا تَمُدَّن عَيْنَيْك﴾ الْآيَة قَالَ: تَعْزِيَة لرَسُول الله صلىٰ الله عَلَيْهِ وَسلم ، وَالْمَدُّ: أَصْلُهُ الزِّيَادَةُ. وَأُطْلِقَ عَلَىٰ بَسْطِ الْجِسْمِ وَتَطْوِيلِهِ. يُقَالُ: مَدَّ يَدَهُ إِلَىٰ كَذَا، وَمَدَّ رِجْلَهُ فِي الْأَرْضِ. ثُمَّ اسْتُعِيرَ لِلزِّيَادَةِ مِنْ شَيْءٍ. وَمِنْهُ مَدَدُ الْجَيْشِ، وَمَدُّ الْبَحْرِ، وَالْمَدُّ فِي الْعُمُرِ، ﴿إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا﴾ أَيْ أَمْثَالًا فِي النِّعَمِ، أَيِ الْأَغْنِيَاءِ

---

(١) البخاري (٤٧٠٤) ومسلم (٥٠٠٦) .

(٢) مسلم (٣٩٥) .

بَعْضُهُمْ أَمْثَالُ بَعْضٍ فِي الْغِنَىٰ، فَهُمْ أَزْوَاجٌ. يْ أَمْثَالًا فِي النِّعَمِ، أَيِ الْأَغْنِيَاءِ بَعْضُهُمْ أَمْثَالُ بَعْضٍ فِي الْغِنَىٰ، فَهُمْ أَزْوَاجٌ، ﴿مِنْهُمْ﴾ أَيْ: مِنَ الْكُفَّارِ مُتَمَنِّيًا لَهَاۖ نَهَىٰ اللهُ تَعَالَىٰ رَسُولَهُ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الرَّغْبَةِ فِي الدُّنْيَا وَمُزَاحَمَةِ أَهْلِهَا عَلَيْهَاۖ ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ أَيْ: لَا تَغْتَمَّ عَلَىٰ مَا فَاتَكَ مِنْ مُشَارَكَتِهِمْ فِي الدُّنْيَا وَقِيلَ: هَذِهِ الْآيَةُ مُتَّصِلَةٌ بِمَا قبلها وذلك أنه لِمَا مَنَّ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَيْهِ بِالْقُرْآنِ نَهَاهُ عَنِ الرَّغْبَةِ فِي الدنيا، قال ابن عاشور: والنَّهْيُ عَن الْحزن عَلَيْهِم شَامِلٌ لِكُلِّ حَالٍ مِنْ أَحْوَالِهِمْ مِنْ شَأْنِهَا أَنْ تُحْزِنَ الرَّسُولَ- عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- وَتُؤْسِفُهُ، فَمِنْ ذَلِكَ كُفْرُهُمْ كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: فَلَعَلَّكَ باخِعٌ نَفْسَكَ عَلىٰ آثارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ﴾ لين جانبك ، وَخَفْضُ الْجَنَاحِ تَمْثِيلٌ لِلرِّفْقِ وَالتَّوَاضُعِ بِحَالِ الطَّائِرِ إِذَا أَرَادَ أَنْ ينحطّ للوقوع حفض جَنَاحَهُ يُرِيدُ الدُّنُوَّ، وَيُقَالُ: فُلَانٌ خَافِضُ الْجَنَاحِ، أَيْ وَقُورٌ سَاكِنٌ. وَالْجَنَاحَانِ مِنَ ابْنِ آدَمَ جَانِبَاهُ، ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ وارفق بهم والجناحان من ابن آدَمَ جَانِبَاهُ.

[٨٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ﴾ أَيْ: قُلْ يَا مُحَمَّدُ لِمُشْرِكِي قَوْمِكَ: إِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ لَكُمْ قَدْ أَبَانَ إِنْذَارَهُ لَكُمْ مِنَ الْبَلَاءِ وَمَا يُنْتَظَرُ مِنَ الْعِقَابِ لِلْمُتَمَادِينَ فِي الشِّرْكِ وَالْكُفْرِ وَالضَّلَالِ، مِثْلَ الْعِقَابِ الَّذِي أَنْزَلَهُ تَعَالَىٰ عَلَىٰ الْأُمَمِ السَّابِقَةِ الَّتِي اقْتَسَمَتِ الْقُرْآنَ الْمُنْزَلَ عَلَيْهَا فَآمَنَتْ بِبَعْضِهِ وَكَفَرَتْ بِبَعْضٍ.

[٩٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَىٰ الْمُقْتَسِمِينَ﴾ قَالَ الْفَرَّاءُ: مَجَازُهُ أُنْذِرُكُمْ عَذَابًا كَعَذَابِ الْمُقْتَسِمِينَ، حُكِيَ عَنِ ابْنِ عباس أَنَّهُ قَالَ: هُمُ الْيَهُودُ

وَالنَّصَارَىٰ، آمَنُوا بِبَعْضِهِ وَكَفَرُوا بِبَعْضِهِ، سُمُّوا مُقْتَسِمِينَ لِأَنَّهُمْ كَانُوا مُسْتَهْزِئِينَ، فَيَقُولُ بَعْضُهُمْ: هَذِهِ السُّورَةُ لِي وَهَذِهِ السُّورَةُ لَكَ ، قال ابن عاشور : وَمَعْنَىٰ التَّقْسِيمِ وَالتَّجْزِئَةِ هُنَا تَفْرِقَةُ الصِّفَاتِ وَالْأَحْوَالِ لَا تَجْزِئَةُ الذَّاتِ.

[٩١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ جزّؤوه فَجَعَلُوهُ أَعْضَاءً فَآمَنُوا بِبَعْضِهِ وَكَفَرُوا بِبَعْضِهِ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: هُمُ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ قَسَّمُوا كِتَابَهُمْ فَفَرَّقُوهُ وَبَدَّلُوهُ، وَقِيلَ: الْمُقْتَسِمُونَ قَوْمٌ اقْتَسَمُوا الْقُرْآنَ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: سِحْرٌ ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: شِعْرٌ ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: كَذِبٌ ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ. وَقِيلَ: الِاقْتِسَامُ هُوَ أَنَّهُمْ فَرَّقُوا الْقَوْلَ فِي رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالُوا: سَاحِرٌ كَاهِنٌ شَاعِرٌ، وَقَالَ مُقَاتِلٌ: كَانُوا سِتَّةَ عَشَرَ رَجُلًا بَعَثَهُمُ الْوَلِيدُ بْنُ الْمُغِيرَةِ أَيَّامَ الْمَوْسِمِ فَاقْتَسَمُوا عِقَابَ مَكَّةَ وطرفها، وقعدوا علىٰ نقابها فيقولون لِمَنْ جَاءَ مِنَ الْحُجَّاجِ: لَا تَغْتَرُّوا بِهَذَا الرَّجُلِ الْخَارِجِ الَّذِي يَدَّعِي النُّبُوَّةَ مِنَّا، وَتَقُولُ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ: إِنَّهُ مَجْنُونٌ وَطَائِفَةٌ إِنَّهُ كَاهِنٌ وَطَائِفَةٌ إِنَّهُ شَاعِرٌ وَالْوَلِيدُ قَاعِدٌ عَلَىٰ بَابِ الْمَسْجِدِ نَصَّبُوهُ حَكَمًا فَإِذَا سُئِلَ عَنْهُ قَالَ: صَدَقَ أُولَئِكَ يَعْنِي الْمُقْتَسِمِينَ. وَقَوْلُهُ: ﴿عِضِينَ﴾ قِيلَ: هُوَ جَمْعُ عُضْوٍ مَأْخُوذٌ مِنْ قَوْلِهِمْ عَضَيْتُ الشَّيْءَ تَعْضِيَةً، إِذَا فَرَّقْتُهُ وَمَعْنَاهُ أَنَّهُمْ جَعَلُوا الْقُرْآنَ أَعْضَاءً، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: سِحْرٌ ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: كِهَانَةٌ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: آمَنُوا بِبَعْضٍ وَكَفَرُوا بِبَعْضٍ، قال القرطبي : وَالْمَعْنَىٰ: أَكْثَرُوا الْبَهْتَ

عَلَىٰ الْقُرْآنِ وَنَوَّعُوا الْكَذِبَ فِيهِ، فَقَالُوا: سِحْرٌ وَأَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ، وَأَنَّهُ مُفْتَرًىٰ، إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ.

[٩٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَوَ رَبِّكَ لَنَسْئَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أَيْ لَنَسْأَلَنَّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ جَرَىٰ ذِكْرُهُمْ عَمَّا عَمِلُوا فِي الدُّنْيَا، وَفِي الْبُخَارِيِّ: وَقَالَ عدة من أهل العلم في قوله: ﴿فَوَ رَبِّكَ لَنَسْئَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كانُوا يَعْمَلُونَ﴾ عَنْ لَا إِلَهَ إلا الله.

[٩٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: لَيْسَ الْإِيمَانُ بِالتَّحَلِّي وَلَا الدِّينُ بِالتَّمَنِّي وَلَكِنْ مَا وَقَرَ فِي الْقُلُوبِ وَصَدَّقَتْهُ الْأَعْمَالُ، وَلِهَذَا مَا قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ مُخْلِصًا دَخَلَ الْجَنَّةَ**، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ، وَمَا إِخْلَاصُهَا؟ قَالَ: **أَنْ تَحْجِزَهُ عَنْ مَحَارِمِ اللهِ**»(١)، وقيل: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لَا يَسْأَلُهُمْ هَلْ عَمِلْتُمْ لِأَنَّهُ أَعْلَمُ بِهِمْ مِنْهُمْ وَلَكِنْ يَقُولُ: لِمَ عَمِلْتُمْ كَذَا وَكَذَا؟.

[٩٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: {فَاصْدَعْ بِما تُؤْمَرُ} أَيْ بِالَّذِي تُؤْمَرُ بِهِ، أَيْ بَلِّغْ رِسَالَةَ اللهِ جَمِيعَ الْخَلْقِ لِتَقُومَ الْحُجَّةُ عَلَيْهِمْ، فَقَدْ أَمَرَكَ اللهُ بِذَلِكَ، وَالصَّدْعُ: الشَّقُّ، وَتَصَدَّعَ الْقَوْمُ أَيْ تَفَرَّقُوا، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَظْهِرْهُ، وَقَالَ سِيبَوَيْهِ: اقْضِ بِمَا تُؤْمَرُ، وَأَصْلُ الصَّدْعِ الْفَصْلُ وَالْفَرْقُ، أُمِرَ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ بِإِظْهَارِ الدَّعْوَةِ، وَرُوِيَ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُبَيْدَةَ قَالَ: كَانَ مُسْتَخْفِيًا حَتَّىٰ

---

(١) الطبراني (الأوسط، ٧٢٣٢).

نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ، فَخَرَجَ هُوَ وَأَصْحَابُهُ {وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ} نَسَخَتْهَا آيَةُ الْقِتَالِ.

[٩٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ يَقُولُ اللهُ تَعَالَىٰ لِنَبِيِّهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فَاصْدَعْ بِأَمْرِ اللهِ وَلَا تَخَفْ أَحَدًا غَيْرَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فَإِنَّ اللهَ كَافِيكَ مَنْ عَادَاكَ كَمَا كَفَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ.

[٩٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ وَقِيلَ: اسْتِهْزَاؤُهُمْ وَاقْتِسَامُهُمْ : هُوَ أَنَّ الله لَمَّا أَنْزَلَ فِي الْقُرْآنِ ، كَانُوا يَجْتَمِعُونَ وَيَقُولُونَ استهزاء يقول هَذَا فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ ، وَيَقُولُ هَذَا فِي سُورَةِ النَّحْلِ وَيَقُولُ هَذَا فِي سُورَةِ الْعَنْكَبُوتِ.

[٩٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ﴾ أَيْ قَلْبُكَ، لِأَنَّ الصَّدْرَ مَحَلُّ الْقَلْبِ، ﴿بِما يَقُولُونَ﴾ أَيْ بِمَا تَسْمَعُهُ مِنْ تَكْذِيبِكَ وَرَدِّ قولك، وتناله: ويناله أصحابك من أعدائك.

[٩٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَصَلِّ بِأَمْرِ ربك، ﴿وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ مِنَ الْمُصَلِّينَ الْمُتَوَاضِعِينَ، وَقَالَ الضَّحَّاكُ: فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قُلْ سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ، يعني: من الْمُصَلِّينَ،

وورد: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : كَانَ إِذَا حَزَبَهُ أَمْرٌ فَزِعَ إِلَىٰ الصَّلَاةِ»(١).

[٩٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ أي الْمَوْتُ الْمُوقَنُ بِهِ، قال القرطبي : أَمَرَهُ بِعِبَادَتِهِ إِذْ قَصَّرَ عِبَادُهُ فِي خِدْمَتِهِ، وَأَنَّ ذَلِكَ يَجِبُ عَلَيْهِ ، عَن عبد الله بن مَسْعُود رَضِي الله عَنهُ قَالَ: لَيْسَ لِلْمُؤمنِ رَاحَة دون لِقَاء الله وَمن كَانَت رَاحَته فِي لِقَاء الله فَكَانَ قد كفي.

تمَّ تَفْسِيرُ سُورَةِ الْحِجْرِ بِعَوْنِ اللهِ وَتَوْفِيقِهِ،
وَوَاسِعِ مَنِّهِ وَكَرَمِهِ، فَلَهُ الْحَمْدُ أَوَّلًا وَآخِرًا

(١) أحمد (٢٣٢٩٩) وأبو داود (١٣١٩) .

سُورَةُ النَّحْلِ

سُمِّيَتْ هَذِهِ السُّورَةُ عِنْدَ السَّلَفِ سُورَةُ النَّحْلِ، وَهُوَ اسْمُهَا الْمَشْهُورُ فِي الْمَصَاحِفِ وَكُتُبِ التَّفْسِيرِ وَكُتُبِ السُّنَّةِ، وَهِيَ مَكِّيَّةٌ فِي قَوْلِ الْجُمْهُورِ ، وَهَذِهِ السُّورَةُ نَزَلَتْ بَعْدَ سُورَةِ الْأَنْبِيَاءِ وَقَبْلَ سُورَةِ الم السَّجْدَةِ ، وَقَدْ عُدَّتِ الثَّانِيَةُ وَالسَّبْعِينَ فِي تَرْتِيبِ نُزُولِ السُّوَرِ ، وَآيُهَا ١٢٨ بِلَا خِلَافٍ.

[١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ قوله : ﴿أَتَىٰ﴾ أَيْ: جَاءَ وَدَنَا وَقَرُبَ، قِيلَ:﴿أَتَىٰ ﴾ بِمَعْنَىٰ يَأْتِي، فَهُوَ كَقَوْلِكَ: إِنْ أَكْرَمْتَنِي أَكْرَمْتُكَ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ إِخْبَارَ اللهِ تَعَالَىٰ فِي الْمَاضِي وَالْمُسْتَقْبَلِ سَوَاءٌ، لِأَنَّهُ آتٍ لَا مَحَالَةَ ﴿أَمْرُ اللهِ﴾ قَالَ ابْنُ عَرَفَةَ: تَقُولُ الْعَرَبُ: أَتَاكَ الْأَمْرُ وَهُوَ مُتَوَقَّعٌ بَعْدُ، أي: أتىٰ أمر الله وعده، وقيل : عِقَابُهُ لِمَنْ أَقَامَ عَلَىٰ الشِّرْكِ وَتَكْذِيبِ رَسُولِهِ. ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ وُقُوعًا، وَالْخِطَابُ لِلْمُشْرِكِينَ ابْتِدَاءً ؛ لِأَنَّ اسْتِعْجَالَ الْعَذَابِ مِنْ خِصَالِهِمْ، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾ [سُورَة الْحَج: ٤٧] ، قوله : ﴿أَمْرُ اللهِ﴾ قَالَ الْكَلْبِيُّ وَغَيْرُهُ: الْمُرَادُ مِنْهُ الْقِيَامَةُ ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: «لَمَّا نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ﴾ [الْقَمَرِ: ١] قَالَ الْكُفَّارُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: إِنَّ هَذَا يَزْعُمُ أَنَّ الْقِيَامَةَ قَدْ قَرُبَتْ فَأَمْسِكُوا عَنْ بَعْضِ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ حَتَّىٰ تَنْظُرُوا مَا هُوَ كَائِنٌ،

فَلَمَّا لَمْ يَنْزِلْ شَيْءٌ قَالُوا: مَا نَرَىٰ شَيْئًا فَنَزَلَ قَوْلُهُ: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ [الْأَنْبِيَاءِ: ١] فَأَشْفَقُوا فَلَمَّا امْتَدَّتِ الْأَيَّامُ قَالُوا: يَا مُحَمَّدُ مَا نَرَىٰ شَيْئًا مِمَّا تُخَوِّفُنَا بِهِ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللهِ﴾ فَوَثَبَ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَرَفَعَ النَّاسُ رُءُوسَهُمْ وَظَنُّوا أَنَّهَا قَدْ أَتَتْ حَقِيقَةً فَنَزَلَتْ ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ فَاطْمَأَنُّوا»، وَالِاسْتِعْجَالُ: طَلَبُ الشَّيْءِ قَبْلَ حِينِهِ، وَلَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ، قَالَ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ وَأَشَارَ بِأُصْبُعَيْهِ وَإِنْ كَادَتْ لتسبقني**»[١]، وَقَالَ قَوْمٌ: الْمُرَادُ بِالْأَمْرِ هَاهُنَا عقوبة المكذوبين وَالْعَذَابُ بِالسَّيْفِ، وَذَلِكَ أَنَّ النَّضْرَ بْنَ الْحَارِثِ قَالَ: «اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ فَاسْتَعْجَلَ الْعَذَابَ فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ»، وَقُتِلَ النَّضْرُ يَوْمَ بَدْرٍ صَبْرًا، ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ مَعْنَاهُ تَعَاظَمَ بِالْأَوْصَافِ الْحَمِيدَةِ عَمَّا يَصِفُهُ بِهِ الْمُشْرِكُونَ.

[٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ﴾ بِالْوَحْيِ سَمَّاهُ رُوحًا لِأَنَّهُ يُحْيِي بِهِ الْقُلُوبَ وَالْحَقَّ، قَالَ عَطَاءٌ: بِالنُّبُوَّةِ، وَقَالَ قَتَادَةُ: بِالرَّحْمَةِ، قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: بِالرُّوحِ يَعْنِي مَعَ الروح وهو جبرائيل، قال القرطبي: وَوَجْهُ تَشْبِيهِ الْوَحْيِ بِالرُّوحِ أَنَّ الْوَحْيَ إِذَا وَعَتْهُ الْعُقُولُ حَلَّتْ بِهَا الْحَيَاةُ الْمَعْنَوِيَّةُ وَهُوَ الْعِلْمُ، كَمَا أَنَّ الرُّوحَ إِذَا حَلَّ فِي الْجِسْمِ حَلَّتْ بِهِ الْحَيَاةُ الْحِسِّيَّةُ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَكَذَلِكَ

---

(١) أحمد (٢٢٨٢٨).

أَوْحَيْنا إِلَيْكَ رُوحـًا مِنْ أَمْرِنا﴾ [سُورَة الشورىٰ: ٥٢] ، قوله : ﴿مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ أي: علىٰ الذين اختارهم الله للنبوة ﴿أَنْ أَنْذِرُوا﴾ أَعْلِمُوا ﴿أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ قال الربيع بن أنس : قَالَ: بها بعث الله الْمُرْسلين أَن يوحد الله وحده ويطاع أمره ويجتنب سخطه، وَقِيلَ: مَعْنَاهُ مُرُوهُمْ بِقَوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ مُنْذِرِينَ مُخَوِّفِينَ بِالْقُرْآنِ إِنْ لَمْ يَقُولُوا ، وَقَوْلُهُ: ﴿فَاتَّقَوْنِ﴾ أَيْ: فَخَافُونِ، وهذا تَحْذِيرٌ مِنْ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ، وَلِذَلِكَ جَاءَ الْإِنْذَارُ، لِأَنَّ أَصْلَهُ التَّحْذِيرُ مِمَّا يُخَافُ منه. وعن عتبان بن مالك، عن النبي صلىٰ الله عليه وسلم قال: « **إِنَّ اللهَ حَرَّمَ عَلَىٰ النَّارِ مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ**»(١).

[٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْض بِالْحَقِّ﴾ أَيْ لِلزَّوَالِ وَالْفَنَاءِ، وَقِيلَ: ﴿بِالْحَقِّ﴾ أَيْ لِلدَّلَالَةِ عَلَىٰ قُدْرَتِهِ، وَأَنَّ لَهُ أَنْ يَتَعَبَّدَ الْعِبَادَ بِالطَّاعَةِ وَأَنْ يُحْيِيَ الْخَلْقَ بَعْدَ الْمَوْتِ، ﴿تَعالىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أَيْ مِنْ هَذِهِ الْأَصْنَامِ الَّتِي لَا تقدر علىٰ خلق شي.

[٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ﴾ يجادل بالباطل، أَيْ مُخَاصِمٌ، كَالنَّسِيبِ بِمَعْنَىٰ الْمُنَاسِبِ، أَيْ يُخَاصِمُ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ فِي قدرته ، و ﴿مُبِينٌ﴾ أَيْ ظَاهِرُ الْخُصُومَةِ ، وَقِيلَ: يُبِينُ عَنْ نَفْسِهِ الْخُصُومَةَ بِالْبَاطِلِ، وَالْمُبِينُ: هُوَ الْمُفْصِحُ عَمَّا فِي ضميره بمنطقه، ونَزَلَتْ هذه الآية فِي أُبَيِّ بْنِ

---

(١) البخاري (٤٢٥) ومسلم (٣٣) .

خَلَفٍ الْجُمَحِيِّ وَكَانَ يُنْكِرُ الْبَعْثَ جاءَ بِعَظْمٍ رَمِيمٍ فَقَالَ : أَتَقُولُ إِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ يُحْيِي هَذَا بَعْدَ مَا قَدْ رَمَّ؟ كَمَا قَالَ جَلَّ ذِكْرُهُ ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ﴾ [يس: ٧٨] نَزَلَتْ فِيهِ أَيْضًا ، وَالصَّحِيحُ أَنَّ الْآيَةَ عَامَّةٌ، وَفِيهَا بَيَانُ الْقُدْرَةِ وَكَشْفُ قَبِيحِ ما فعلوه، من جحود نِعَمِ اللهِ مَعَ ظُهُورِهَا عَلَيْهِمْ.

[٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا﴾ يَعْنِي الْإِبِلَ وَالْبَقَرَ وَالْغَنَمَ، لَمَّا ذَكَرَ الْإِنْسَانَ ذَكَرَ مَا مَنَّ بِهِ عَلَيْهِ. وَالْأَنْعَامُ: الْإِبِلُ وَالْبَقَرُ وَالْغَنَمُ ، وَأَكْثَرُ مَا يُقَالُ: نَعَمٌ وَأَنْعَامٌ لِلْإِبِلِ، وَيُقَالُ لِلْمَجْمُوعِ وَلَا يُقَالُ لِلْغَنَمِ مفردة ، وَقَالَ الْجَوْهَرِيُّ: وَالنَّعَمُ وَاحِدُ الْأَنْعَامِ وَهِيَ الْمَالُ الرَّاعِيَةُ، وَأَكْثَرُ مَا يَقَعُ هَذَا الِاسْمُ عَلَىٰ الْإِبِلِ ، وقال رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم لعلي رضي الله عنه : « **لأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بكَ رَجُلاً [واحداً] خيرٌ لكَ مِن أن تكونَ لك حُمْرُ النَّعَمِ**»[١]، وخصها بالذكر؛ لأنها أعز أموالهم ، و (النَّعَمِ) إذا أُطلق فهو الإبل، وحُمْرُها هي أعزُّها عند العرب وأحسنُها؛ لأن الحمرةَ أشرفُ الألوان عندهم، ﴿لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ﴾ يَعْنِي: مِنْ أَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا وَأَصْوَافِهَا مَلَابِسَ وَلُحُفًا تَسْتَدْفِئُونَ بِهَا،وَالدِّفْءُ- بِكَسْرِ الدَّالِ- اسْمٌ لِمَا يُتَدَفَّأُ بِهِ كَالْمِلْءِ وَالْحِمْلِ ، وَهُوَ الثِّيَابُ الْمَنْسُوجَةُ مِنْ أَوْبَارِ الْأَنْعَامِ وَأَصْوَافِهَا وَأَشْعَارِهَا تُتَّخَذُ مِنْهَا الْخِيَامُ وَالْمَلَابِسُ ، ﴿وَمَنَافِعُ﴾ بِالنَّسْلِ وَالدَّرِّ وَالرُّكُوبِ وَالْحَمْلِ وَغَيْرِهَا، قال مُجَاهِدٌ: الرُّكُوبُ وَالْحَمْلُ وَالْأَلْبَانُ

---

(١) البخاري (٣٧٠١) ومسلم (٣٠٠٩) .

وَاللُّحُومُ وَالسَّمْنُ ، ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ يَعْنِي لُحُومَهَا، أَفْرَدَ مَنْفَعَةَ الْأَكْلِ بِالذِّكْرِ لِأَنَّهَا مُعْظَمُ الْمَنَافِعِ، وَقِيلَ: الْمَعْنَىٰ وَمِنْ لحومها تأكلون عند الذبح.

[٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ﴾ زينة، الْجَمَالُ مَا يُتَجَمَّلُ بِهِ وَيُتَزَيَّنُ، وفي الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ : أَنَّ رَجُلًا أَتَى النَّبِيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَكَانَ جَمِيلًا، فَقَالَ: حُبِّبَ إِلَيَّ الْجَمَالُ، وَأُعْطِيتُ مَا تَرَىٰ، حَتَّىٰ مَا أُحِبُّ أَنْ يَفُوقَنِي أَحَدٌ، إِمَّا قَالَ: بِشِرَاكِ نَعْلٍ، وَإِمَّا قَالَ: بِشِسْعٍ أَحْمَرَ، الْكِبْرُ ذَاكَ؟ قَالَ: «**لَا، وَلَكِنَّ الْكِبْرَ مَنْ بَطَرَ الْحَقَّ، وَغَمَطَ النَّاسَ**»(١) ، قال القرطبي : قَالَ عُلَمَاؤُنَا: فَالْجَمَالُ يَكُونُ فِي الصُّورَةِ وَتَرْكِيبِ الْخِلْقَةِ، وَيَكُونُ فِي الْأَخْلَاقِ الْبَاطِنَةِ، وَيَكُونُ فِي الافعال. فأما جمال الخلقة فهو أَمْرٌ يُدْرِكُهُ الْبَصَرُ وَيُلْقِيهِ إِلَىٰ الْقَلْبِ مُتَلَائِمًا، فَتَتَعَلَّقُ بِهِ النَّفْسُ مِنْ غَيْرِ مَعْرِفَةٍ بِوَجْهِ ذَلِكَ وَلَا نِسْبَتِهِ لِأَحَدٍ مِنَ الْبَشَرِ ، وَأَمَّا جَمَالُ الْأَخْلَاقِ فَكَوْنُهَا عَلَىٰ الصِّفَاتِ الْمَحْمُودَةِ مِنَ الْعِلْمِ وَالْحِكْمَةِ وَالْعَدْلِ وَالْعِفَّةِ، وَكَظْمِ الْغَيْظِ وَإِرَادَةِ الْخَيْرِ لِكُلِّ أَحَدٍ ، وَأَمَّا جَمَالُ الْأَفْعَالِ فَهُوَ وُجُودُهَا مُلَائِمَةً لِمَصَالِحِ الْخَلْقِ وَقَاضِيَةً لِجَلْبِ الْمَنَافِعِ فِيهِمْ وَصَرْفِ الشَّرِّ عَنْهُمْ. وَجَمَالُ الْأَنْعَامِ وَالدَّوَابِّ مِنْ جَمَالِ الْخِلْقَةِ، وَهُوَ مَرْئِيٌّ بِالْأَبْصَارِ مُوَافِقٌ لِلْبَصَائِرِ. وَمِنْ جَمَالِهَا كَثْرَتُهَا وَقَوْلُ النَّاسِ إِذَا رَأَوْهَا هَذِهِ نَعَمُ فُلَانٍ، وَلِهَذَا الْمَعْنَىٰ قَدَّمَ الرَّوَاحَ عَلَىٰ السَّرَاحِ لِتَكَامُلِ دَرِّهَا وَسُرُورِ النَّفْسِ بِهَا إِذْ ذَاكَ. قوله

---

(١) مسلم (٩١) .

تعالىٰ : ﴿حِينَ تُرِيحُونَ﴾ أَيْ: حِينَ تَرُدُّونَهَا بِالْعَشِيِّ مِنْ مَرَاعِيهَا إِلَىٰ مَبَارِكِهَا الَّتِي تَأْوِي إليها، ﴿وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ أَيْ: تُخْرِجُونَهَا بِالْغَدَاةِ مِنْ مَرَاحِهَا إِلَىٰ مَسَارِحِهَا، وَقَدَّمَ الرَّوَاحَ لِأَنَّ الْمَنَافِعَ تُؤْخَذُ مِنْهَا بَعْدَ الرَّوَاحِ، وَمَالِكُهَا يَكُونُ أَعْجَبَ بِهَا إِذَا راحت، عَنْ مَالِكٍ قَالَ: يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿وَلَكُمْ فِيها جَمالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ ، وَذَلِكَ فِي الْمَوَاشِي حِينَ تَرُوحُ إِلَىٰ الْمَرْعَىٰ وَتَسْرَحُ عَلَيْهِ ، وَالرَّوَاحُ رُجُوعُهَا بِالْعَشِيِّ مِنَ الْمَرْعَىٰ، وَالسَّرَاحُ بِالْغَدَاةِ، تَقُولُ: سَرَحْتِ الْإِبِلُ أَسْرَحُهَا سَرْحًا وَسُرُوحًا إِذَا غَدَوْتُ بِهَا إِلَىٰ الْمَرْعَىٰ فَخَلَّيْتُهَا.

[٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ﴾ الْأَثْقَالُ أَثْقَالُ النَّاسِ مِنْ مَتَاعٍ وَطَعَامٍ وَغَيْرِهِ، وَهُوَ مَا يُثْقِلُ الْإِنْسَانَ حَمْلُهُ. وَقِيلَ: الْمُرَادُ أَبْدَانُهُمْ، يَدُلُّ عَلَىٰ ذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقالَها﴾ [الزلزلة : ٢] ، قوله : ﴿إِلَىٰ بَلَدٍ﴾ آخر غير بلدكم، قال عكرمة: الْبَلَدُ مَكَّةُ، قِيلَ: هُوَ مَحْمُولٌ عَلَىٰ الْعُمُومِ فِي كُلِّ بَلَدٍ مَسْلَكُهُ عَلَىٰ الظَّهْرِ ، قوله: ﴿لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ﴾ أَيْ: بِالْمَشَقَّةِ وَالْجُهْدِ. وَالشِّقُّ: النِّصْفُ أَيْضًا أَيْ: لَمْ تَكُونُوا بَالِغَيْهِ إِلَّا بِنُقْصَانِ قُوَّةِ النَّفْسِ وَذَهَابِ نِصْفِهَا ، ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ بخلقه حيث جعل لكم هذه المنافع، وخصَّ الْإِبِلَ هُنَا بِالذِّكْرِ فِي حَمْلِ الْأَثْقَالِ عَلَىٰ سَائِرِ الْأَنْعَامِ، فَإِنَّ الْغَنَمَ لِلسَّرْحِ وَالذَّبْحِ، وَالْبَقَرَ لِلْحَرْثِ، وَالْإِبِلَ لِلْحَمْلِ ، وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « **بَيْنَمَا رَجُلٌ يَسُوقُ بَقَرَةً لَهُ قَدْ حَمَلَ عَلَيْهَا الْتَفَتَتْ إِلَيْهِ الْبَقَرَةُ فَقَالَتْ إِنِّي لَمْ أُخْلَقْ لِهَذَا وَلَكِنِّي إِنَّمَا خُلِقْتُ لِلْحَرْثِ** ، فَقَالَ

الناس : سبحان الله تعجبا وفزعا أبقرة تتكلم؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **وإني أو من به وأبو بكر وعمر** »[1] ، فَدَلَّ هَذَا الْحَدِيثُ عَلَىٰ أَنَّ الْبَقَرَ لَا يُحْمَلُ عَلَيْهَا وَلَا تُرْكَبُ، وَإِنَّمَا هِيَ لِلْحَرْثِ وللأكل والنسل .

[٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَالْخَيْلَ﴾ يَعْنِي: وَخَلَقَ الْخَيْلَ وَهِيَ اسْمُ جِنْسٍ لَا وَاحِدَ لَهُ مِنْ لفظه كالإبل والنساء والسماء ، وَسُمِّيَتِ الْخَيْلُ خَيْلًا لِاخْتِيَالِهَا فِي الْمِشْيَةِ. ﴿وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ يَعْنِي وَجَعَلَهَا زِينَةً لَكُمْ مَعَ المنافع التي فيها، قَالَ الْعُلَمَاءُ: مَلَّكَنَا اللهُ تَعَالَىٰ الْأَنْعَامَ وَالدَّوَابَّ وَذَلَّلَهَا لَنَا، وَأَبَاحَ لَنَا تَسْخِيرَهَا وَالِانْتِفَاعَ بِهَا رَحْمَةً مِنْهُ تَعَالَىٰ لَنَا، وَمَا مَلَكَهُ الْإِنْسَانُ وَجَازَ لَهُ تَسْخِيرُهُ مِنَ الْحَيَوَانِ فَكِرَاؤُهُ لَهُ جَائِزٌ بِإِجْمَاعِ أَهْلِ الْعِلْمِ، لَا اخْتِلَافَ بَيْنَهُمْ فِي ذَلِكَ، وَحُكْمُ كِرَاءِ الرَّوَاحِلِ وَالدَّوَابِّ مَذْكُورٌ فِي كُتُبِ الْفِقْهِ. ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ من وسائل الانتقال وأسباب الزينة، وَقِيلَ، مِنْ أَنْوَاعِ الْحَشَرَاتِ وَالْهَوَامِّ فِي أَسَافِلِ الْأَرْضِ وَالْبَرِّ وَالْبَحْرِ مِمَّا لَمْ يَرَهُ الْبَشَرُ وَلَمْ يَسْمَعُوا بِهِ. وقيل: يَعْنِي مَا أَعَدَّ اللهُ فِي الْجَنَّةِ لِأَهْلِهَا وَفِي النَّارِ لِأَهْلِهَا مما لم تره عين ولا سمعته أذن ولا خطر عدىٰ قلب بشر.

[٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَعَلَىٰ اللهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ يَعْنِي: بَيَانُ طَرِيقِ الْهُدَىٰ مِنَ الضَّلَالَةِ ، وَقِيلَ: بَيَانُ الْحَقِّ بِالْآيَاتِ وَالْبَرَاهِينِ، وَالْقَصْدُ: الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ.

---

(١) البخاري (٣٤٧١) ومسلم (٢٣٨٨) .

وَالْقَصْدُ: اسْتِقَامَةُ الطَّرِيقِ ، وَقَعَ هُنَا وَصْفًا لِلسَّبِيلِ مِنْ قَبِيلِ الْوَصْفِ بِالْمَصْدَرِ، لِأَنَّهُ يُقَالُ: طَرِيقٌ قَاصِدٌ، أَي مُسْتَقِيم، ﴿وَمِنْهَا جَائِرٌ﴾ يَعْنِي: وَمِنَ السَّبِيلِ جَائِرٌ عَنِ الِاسْتِقَامَةِ مُعْوَجٌّ، وَالْجَائِرُ: هُوَ الْحَائِدُ عَنْ الِاسْتِقَامَةِ. فَالْقَصْدُ مِنَ السَّبِيلِ دين الإسلام، والجائر منها دين الْيَهُودِيَّةُ وَالنَّصْرَانِيَّةُ وَسَائِرُ مِلَلِ الْكُفْرِ. قَالَ جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللهِ: قَصْدُ السَّبِيلِ بَيَانُ الشَّرَائِعِ وَالْفَرَائِضِ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَيْ مَنْ أَرَادَ اللهَ أَنْ يَهْدِيَهُ سَهَّلَ لَهُ طَرِيقَ الْإِيمَانِ، وَمَنْ أَرَادَ أَنْ يُضِلَّهُ ثَقَّلَ عَلَيْهِ الْإِيمَانَ وَفُرُوعَهُ. وَقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ الْمُبَارَكِ وَسَهْلُ بْنُ عَبْدِ اللهِ ، قَصْدُ السَّبِيلِ السُّنَّةُ ، وَمِنْهَا جَائِرٌ: الْأَهْوَاءُ وَالْبِدَعُ، دَلِيلُهُ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾ [الْأَنْعَامِ: ١٥٣] ، قوله : ﴿وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ نَظِيرُهُ : قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾ [السجدة : ٣٢].

[١٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ﴾ تشربونه، وَذَكَرَ فِي الْمَاءِ هنا للإشارة إلىٰ نعمتين الشَّرَابَ مِنْهُ، وَالْإِنْبَاتَ لِلشَّجَرِ وَالزَّرْعِ ، ﴿وَمِنْهُ شَجَرٌ﴾ أي: من ذلك الماء شراب أشجاركم حياة نباتكم، ﴿فِيهِ﴾ يعني: في الشجر، ﴿تُسِيمُونَ﴾ تَرْعَوْنَ مَوَاشِيَكُمْ، يُقَالُ: سَامَتِ السَّائِمَةُ تَسُومُ سَوْمًا أَيْ رَعَتْ، فَهِيَ سَائِمَةٌ، وَأَصْلُ السَّوْمِ الْإِبْعَادُ فِي الْمَرْعَىٰ. وَقَالَ الزَّجَّاجُ: أُخِذَ مِنَ السُّومَةِ وَهِيَ الْعَلَامَةُ، أَيْ أَنَّهَا تُؤَثِّرُ فِي الْأَرْضِ عَلَامَاتٌ بِرَعْيِهَا، أَوْ لِأَنَّهَا تُعَلَّمُ لِلْإِرْسَالِ فِي الْمَرْعَىٰ.

[١١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ﴾ أَيْ: يُنْبِتُ اللهُ لَكُمْ بِهِ يعني الماء الَّذِي أَنْزَلَ وَقَرَأَ أَبُو بَكْرٍ عَنْ عَاصِمٍ ﴿نُنْبِتُ﴾ بِالنُّونِ، عَلَىٰ التَّعْظِيمِ، ﴿الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذلِكَ﴾ الْإِنْزَالِ وَالْإِنْبَاتِ، ﴿لَآيَةً﴾ أَيْ دَلَالَةً: ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ ،قال ابن عاشور: وَهَذَا الإنبات مِنْ دَلَائِلِ عَظِيمِ الْقُدْرَةِ الرَّبَّانِيَّةِ، فَالْغَرَضُ مِنْهُ بِالتَّذْكِيرِ بِالنِّعْمَةِ، وَالْآيَةُ: الدَّلَالَةُ عَلَىٰ أَنَّهُ تَعَالَىٰ الْمُبْدِعُ الْحَكِيمُ، وَتِلْكَ هِيَ إِنْبَاتُ أَصْنَافٍ مُخْتَلِفَةٍ مِنْ مَاءٍ وَاحِدٍ، كَمَا قَالَ: ﴿تسقىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ﴾ [الرعد: ١٣].

[١٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ﴾ ذَلَّلَ لَكُمْ أَيْ لِلسُّكُونِ وَالْأَعْمَالِ، ﴿اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ﴾ مذللات، لِمَعْرِفَةِ الْأَوْقَاتِ وَنُضْجِ الثِّمَارِ وَالزَّرْعِ والاهتداء بالنجوم في الظلمات، ﴿بِأَمْرِهِ﴾ أي: بإذنه ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي عَنِ اللهِ مَا نَبَّهَهُمْ عَلَيْهِ وَوَفَّقَهُمْ لَهُ، وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ -كَمَا فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ- تَذْكِيرٌ مِنَ اللهِ تَعَالَىٰ لِعِبَادِهِ بِنِعَمٍ كَبِيرَةٍ أُخْرَىٰ يَتَمَتَّعُونَ بِهَا فِي حَيَاتِهِمْ وَيَسْتَفِيدُونَ مِنْ تَسْخِيرِهَا وَتَعَاقُبِهَا، فَنِعْمَةُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَالنُّجُومِ نِعَمٌ قَرِيبَةٌ مُتَّصِلَةٌ بِحَيَاةِ النَّاسِ وَمَنَافِعِهِمْ.

[١٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا ذَرَأَ﴾ خلق، ذَرَأَ اللهُ الْخَلْقَ يَذْرَؤُهُمْ ذَرْءًا خَلَقَهُمْ وَمِنْهُ الذُّرِّيَّةُ وَهِيَ نَسْلُ الثَّقَلَيْنِ، ﴿لَكُمْ﴾ لِأَجْلِكُمْ: أَيْ: وَسَخَّرَ مَا خَلَقَ لأجلكم، مَا ذَرَأَهُ اللهُ سُبْحَانَهُ مِنْهُ مُسَخَّرٌ مُذَلَّلٌ كَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ وَالْأَشْجَارِ وَغَيْرِهَا، وَمِنْهُ غَيْرُ ذَلِكَ، فعَنْ كَعْبِ الْأَحْبَارِ قَالَ: لَوْلَا كَلِمَاتٌ أَقُولُهُنَّ لَجَعَلَتْنِي يَهُودُ حِمَارًا.

فَقِيلَ لَهُ: وَمَا هُنَّ؟ فَقَالَ: أَعُوذُ بِوَجْهِ اللهِ العظيم الذي ليس شي أَعْظَمَ مِنْهُ، وَبِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ الَّتِي لَا يُجَاوِزُهُنَّ بَرٌّ وَلَا فَاجِرٌ، وَبِأَسْمَاءِ اللهِ الْحُسْنَىٰ كُلِّهَا مَا عَلِمْتُ مِنْهَا وَمَا لَمْ أَعْلَمْ، مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ وَبَرَأَ وَذَرَأَ، ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ مِنَ الدَّوَابِّ وَالْأَشْجَارِ وَالثِّمَارِ وَغَيْرِهَا، ﴿مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ﴾ هَيْئَاتُهُ وَمَنَاظِرُهُ، يَعْنِي الدَّوَابَّ وَالشَّجَرَ وَغَيْرَهَا ، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ أَيْ يَتَّعِظُونَ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ فِي تَسْخِيرِ هَذِهِ الْمُكَوَّنَاتِ لَعَلَامَاتٌ عَلَىٰ وَحْدَانِيَّةِ اللهِ تَعَالَىٰ، وَأَنَّهُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ ذلك أحد غيره.

[١٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ﴾ تَسْخِيرُ الْبَحْرِ هُوَ تَمْكِينُ الْبَشَرِ مِنَ التَّصَرُّفِ فِيهِ وَتَذْلِيلِهِ بِالرُّكُوبِ وَالْإِرْفَاءِ وَغَيْرِهِ، وَهَذِهِ نِعْمَةٌ مِنْ نِعَمِ اللهِ عَلَيْنَا، فَلَوْ شَاءَ سَلَّطَهُ عَلَيْنَا وَأَغْرَقَنَا ﴿لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ يَعْنِي: السَّمَكَ،وَالطَّرِيُّ: ضِدُّ الْيَابِسِ. وَالْمَصْدَرُ: الطَّرَاوَةُ ، ﴿وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ وَالْحِلْيَةُ: مَا يَتَحَلَّىٰ بِهِ النَّاسُ، أَيْ يَتَزَيَّنُونَ ، يَعْنِي: اللُّؤْلُؤَ وَالْمَرْجَانَ، ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ﴾ جواري فيه ، قَالَ قَتَادَةُ: مُقْبِلَةً وَمُدْبِرَةً وَهُوَ أَنَّكَ تَرَىٰ سَفِينَتَيْنِ إِحْدَاهُمَا تُقْبِلُ وَالْأُخْرَىٰ تُدَبِرُ تَجْرِيَانِ بِرِيحٍ وَاحِدَةٍ. وَقَالَ الْحَسَنُ البصري : مَوَاخِرَ أَيْ مَمْلُوءَةً، وقال الفراء والأخفش: مواخر شواق تشق الماء يجؤجؤها، قَالَ مُجَاهِدٌ: تَمْخُرُ السُّفُنَ الرِّيَاحُ، وَأَصْلُ الْمَخْرِ: الرَّفْعُ وَالشَّقُّ، وَقَالَ الْجَوْهَرِيُّ: وَمَخَرَ السَّابِحُ إِذَا شَقَّ الْمَاءَ بِصَدْرِهِ، وَمَخَرَ الْأَرْضَ شَقَّهَا لِلزِّرَاعَةِ، وَمَخَرَهَا بِالْمَاءِ إِذَا حَبَسَ الْمَاءَ فِيهَا حَتَّىٰ تَصِيرَ أَرِيضَةً، أَيْ خَلِيقَةً

بِجَوْدَةِ نَبَاتِ الزَّرْعِ. وَقَالَ الطَّبَرِيُّ: الْمَخْرُ فِي اللُّغَةِ صَوْتُ هُبُوبِ الرِّيحِ، وَلَمْ يُقَيِّدْ كَوْنَهُ فِي مَاءٍ، وَقَالَ: إِنَّ مِنْ ذَلِكَ قَوْلُ وَاصِلٍ مَوْلَىٰ أَبِي عُيَيْنَةَ: إِذَا أَرَادَ أَحَدُكُمُ الْبَوْلَ فَلْيَتَمَخَّرِ الرِّيحَ، أَيْ لِيَنْظُرَ فِي صَوْتِهَا فِي الْأَجْسَامِ مِنْ أَيْنَ تَهُبُّ، فَيَتَجَنَّبُ اسْتِقْبَالَهَا لِئَلَّا تَرُدَّ عَلَيْهِ بَوْلَهُ. ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ أَيْ وَلِتَرْكَبُوهُ لِلتِّجَارَةِ وَطَلَبِ الرِّبْحِ. ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ إذ رَأَيْتُمْ صُنْعَ اللهِ فِيمَا سَخَّرَ لكم.

[١٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ﴾ أَيْ لِئَلَّا تَمِيدَ بِكُمْ أَيْ تَتَحَرَّكَ وَتَمِيلَ، وَالْمَيْدُ: هُوَ الِاضْطِرَابُ وَالتَّكَفُّؤُ وَمِنْهُ قِيلَ لِلدَّوَّارِ الَّذِي يَعْتَرِي رَاكِبَ الْبَحْرِ: مَيَدٌ، قَالَ وَهْبٌ: لَمَّا خَلَقَ اللهُ الْأَرْضَ جَعَلَتْ تَمُورُ فَقَالَتِ الْمَلَائِكَةُ: إِنَّ هَذِهِ غَيْرُ مُقِرَّةٍ أَحَدًا عَلَىٰ ظَهْرِهَا فَأَصْبَحَتْ وَقَدْ أُرْسِيَتْ بِالْجِبَالِ فَلَمْ تَدْرِ الْمَلَائِكَةُ مِمَّ خُلِقَتِ الْجِبَالُ، ﴿وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا﴾ أَيْ: وَجَعَلَ فِيهَا أَنْهَارًا وَطُرُقًا مختلفة ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ إِلَىٰ مَا تُرِيدُونَ فَلَا تَضِلُّونَ.

[١٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَعَلَامَاتٍ﴾ يَعْنِي: مَعَالِمَ الطُّرُقِ، قَالَ بَعْضُهُمْ: ها هنا تَمَّ الْكَلَامُ ثُمَّ ابْتَدَأَ ﴿وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ: أراد بالعلامات الجبال والجبال تَكُونُ عَلَامَاتِ النَّهَارِ وَالنُّجُومُ عَلَامَاتُ اللَّيْلِ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: أَرَادَ بِالْكُلِّ النُّجُومَ مِنْهَا مَا يَكُونُ عَلَامَاتٍ ومنها ما يهتدون به.

[١٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ﴾ يَعْنِي: اللهَ تَعَالَىٰ، ﴿كَمَنْ لَا يَخْلُقُ﴾ يعني: الأصنام، ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾، أَخْبَرَ عَنِ الْأَوْثَانِ الَّتِي لَا تَخْلُقُ وَلَا تضر ولا تنفع، كما يخبر عمن يعمل عَلَىٰ مَا تَسْتَعْمِلُهُ الْعَرَبُ فِي ذَلِكَ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا

يَعْبُدُونَهَا ، قَالَ الْمَهْدَوِيُّ: وَيُسْأَلُ بِـ (مَنْ) عَنِ الْبَارِئِ تَعَالَىٰ وَلَا يُسْأَلُ عَنْهُ بِـ (مَا)، لِأَنَّ (مَا) إِنَّمَا يُسْأَلُ بِهَا عَنِ الْأَجْنَاسِ، وَاللهُ تَعَالَىٰ لَيْسَ بِذِي جِنْسٍ، قال القرطبي : وَمَعْنَىٰ الْآيَةِ: مَنْ كَانَ قَادِرًا عَلَىٰ خَلْقِ الْأَشْيَاءِ الْمُتَقَدِّمَةِ الذِّكْرِ كَانَ بِالْعِبَادَةِ أَحَقُّ مِمَّنْ هُوَ مَخْلُوقٌ لَا يَضُرُّ وَلَا يَنْفَعُ : ﴿ هَذَا خَلْقُ اللهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ [لقمان ٣١] .

[١٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللهِ﴾ أَيْ نِعَمَ اللهِ ، ﴿لَا تُحْصُوها﴾ وَلَا تُطِيقُوا عَدَّهَا، وَلَا تَقُومُوا بِحَصْرِهَا لِكَثْرَتِهَا، كَالسَّمْعِ وَالْبَصَرِ وَتَقْوِيمِ الصُّوَرِ إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْعَافِيَةِ وَالرِّزْقِ، وَنِعَمٌ لَا تُحْصَىٰ ، وَهَذِهِ النِّعَمُ مِنَ اللهِ، فَلِمَ تُبَدِّلُونَ نِعْمَةَ اللهِ بِالْكُفْرِ؟! وَهَلَّا اسْتَعَنْتُمْ بِهَا عَلَىٰ الطَّاعَةِ؟!، قوله : ﴿إِنَّ اللهَ لَغَفُورٌ ﴾ لِتَقْصِيرِكُمْ فِي شُكْرِ نِعَمِهِ ﴿رَحِيمٌ﴾ بِكُمْ حَيْثُ وَسَّعَ عَلَيْكُمُ النِّعَمَ وَلَمْ يَقْطَعْهَا عَنْكُمْ بِالتَّقْصِيرِ وَالْمَعَاصِي.

[١٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ أَيْ مَا تُبْطِنُونَهُ وَمَا تُظْهِرُونَهُ، قَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ: نَبَّهَ بِعِلْمِهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، ثُمَّ بِعِلْمِهِ مَا يُسِرُّهُ الْعِبَادُ وَيُعْلِنُونَهُ، ثُمَّ بِعِلْمِهِ ذَوَاتِ الصُّدُورِ، أَنَّ شَيْئًا مِنَ الْكُلِّيَّاتِ وَالْجُزْئِيَّاتِ غَيْرُ خَافٍ عَلَيْهِ، وَلَا عَازِبٌ عَنْهُ، فَحَقُّهُ أَنْ يُتَّقَىٰ وَيُحْذَرَ، وَلَا يُجْتَرَأُ عَلَىٰ شَيْءٍ مِمَّا يُخَالِفُ رِضَاهُ.

[٢٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ يَعْنِي: الْأَصْنَامَ، ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ ، وَعَنْ أَبِي مُوسَىٰ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ

قَالَ: «**لَيْسَ أَحَدٌ -أَوْ لَيْسَ شَيْءٌ- أَصْبَرَ عَلَىٰ أَذًىٰ سَمِعَهُ مِنَ اللهِ، إِنَّهُمْ لَيَدْعُونَ لَهُ وَلَدًا، وَإِنَّهُ لَيُعَافِيهِمْ وَيَرْزُقُهُمْ**»(١).

[٢١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَمْواتٌ غَيْرُ أَحْياءٍ﴾ أَيْ هُمْ أَمْوَاتٌ، يَعْنِي الْأَصْنَامَ، لَا أَرْوَاحَ فِيهَا وَلَا تَسْمَعُ وَلَا تُبْصِرُ، أَيْ هِيَ جَمَادَاتٌ فَكَيْفَ تَعْبُدُونَهَا وَأَنْتُمْ أَفْضَلُ مِنْهَا بِالْحَيَاةِ، ﴿وَما يَشْعُرُونَ﴾ يَعْنِي الْأَصْنَامَ، ﴿أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ أَيَّانَ اسْمُ اسْتِفْهَامٍ عَنِ الزَّمَانِ. مُرَكَّبَةٌ مِنْ (أَيِّ) وَ (آنٍ) بِمَعْنَىٰ أَيُّ زَمَنٍ، أي: لَا يَدْرُونَ مَتَىٰ يُبْعَثُونَ. وَالْبَعْثُ: حَقِيقَتُهُ الْإِرْسَالُ مِنْ مَكَانٍ إِلَىٰ آخَرَ، وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ: بَعَثْتُ الْبَعِيرَ، إِذَا أَثَرْتُهُ مِنْ مَبْرَكِهِ، وَلَعَلَّهُ مِنْ إِطْلَاقِ اسْمِ الشَّيْءِ عَلَىٰ سَبَبِهِ، وَقَدْ غَلَبَ الْبَعْثُ فِي اصْطِلَاحِ الْقُرْآنِ عَلَىٰ إِحْضَارِ النَّاسِ إِلَىٰ الْحِسَابِ بَعْدَ الْمَوْتِ، وَعَبَّرَ عَنْهَا كَمَا عَبَّرَ هنا عَنِ الْآدَمِيِّينَ، لِأَنَّهُمْ زَعَمُوا أَنَّهَا تَعْقِلُ عَنْهُمْ وَتَعْلَمُ وَتَشْفَعُ لَهُمْ عِنْدَ اللهِ تَعَالَىٰ، فَجَرَىٰ خِطَابُهُمْ عَلَىٰ ذَلِكَ، وَقَدْ قِيلَ: إِنَّ اللهَ يَبْعَثُ الْأَصْنَامَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَهَا أَرْوَاحٌ فَتَتَبَرَّأُ مِنْ عِبَادَتِهِمْ، وَهِيَ فِي الدُّنْيَا جَمَادٌ لَا تَعْلَمُ مَتَىٰ تُبْعَثُ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: تُبْعَثُ الْأَصْنَامُ وَتُرَكَّبُ فِيهَا الْأَرْوَاحُ وَمَعَهَا شَيَاطِينُهَا فَيَتَبَرَّءُونَ مِنْ عَبَدَتِهَا، ثُمَّ يُؤْمَرُ بِالشَّيَاطِينِ وَالْمُشْرِكِينَ إِلَىٰ النَّارِ، وَقِيلَ: إِنَّ الْأَصْنَامَ تُطْرَحُ فِي النَّارِ مَعَ عَبَدَتِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، دَلِيلُهُ ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٢١].

---

(١) البخاري (٦٠٩٩) ومسلم (٢٨٠٤).

[٢٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ أَيْ: مَعْبُودُكُمُ الَّذِي يَسْتَحِقُّ أَنْ تُصْرَفَ لَهُ الْعِبَادَةُ وَالتَّعْظِيمُ هُوَ اللهُ الْوَاحِدُ الْأَحَدُ ، وَالَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِالْمَعَادِ مُسْتَنْكِرُونَ لِمَا نَقُصُّ عَلَيْهِمْ مِنْ قُدْرَةِ اللهِ الْمُنْعِمِ الْمُتَفَضِّلِ عَلَىٰ إِعَادَتِهِمْ، وَأَنَّ الِاسْتِعْدَادَ لِلِقَائِهِ يَكُونُ بِعِبَادَتِهِ تَعَالَىٰ وَتَعْظِيمِ أَمْرِهِ، بَلْ هُمْ مُسْتَكْبِرُونَ عَنْ إِفْرَادِهِ بِالْأُلُوهَةِ، مُشْرِكُونَ فِي عِبَادَتِهِ، مُعَظِّمُونَ لِأَهْوَاءِ عُقُولِهِمْ وَنُفُوسِهِمْ، ﴿فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ﴾ جاحدة، أَيْ لا تقبل الوعظ ولا ينجع فِيهَا الذِّكْرُ، اسْتُعْمِلَ الْإِنْكَارُ فِي جَحْدِ الْأَمْرِ الْوَاقِعِ لِأَنَّهُ ضِدُّ الْإِقْرَارِ، ﴿وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ متعظمون عَنْ قَبُولِ الْحَقِّ.

[٢٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَا جَرَمَ﴾ حَقًّا و ﴿لَا جَرَمَ﴾ كَلِمَةُ جَزْمٍ وَيَقِينٍ جَرَتْ مَجْرَىٰ الْمَثَلِ، وَ (جَرَمَ) اسْمٌ بِمَعْنَىٰ مَحَالَةَ أَيْ لَا مَحَالَةَ أَوْ بِمَعْنَىٰ بُدَّ أَيْ لَا بُدَّ، ﴿أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ عَنْ عَبْدِ اللهِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**لا يدخل الجنة مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ، وَلَا يَدْخُلُ النَّارَ مَنْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ إِيمَانٍ**، فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا ونعله حَسَنًا؟ قَالَ: **إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ، الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ**»(١) ، وَعَنِ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ أَنَّهُ مَرَّ بِمَسَاكِينَ قَدْ قَدَّمُوا كِسَرًا بَيْنَهُمْ ، وَهُمْ يَأْكُلُونَ فَقَالُوا: الْغِذَاءَ يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ، فَنَزَلَ

---

(١) مسلم (٩١) .

وَجلَسَ مَعَهُمْ وَقَالَ: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ فَلَمَّا فَرَغَ قَالَ: قَدْ أَجَبْتُكُمْ فَأَجِيبُونِي، فَقَامُوا مَعَهُ إِلَىٰ مَنْزِلِهِ فَأَطْعَمَهُمْ وَسَقَاهُمْ وَأَعْطَاهُمْ وَانْصَرَفُوا، قَالَ الْعُلَمَاءُ: وَكُلُّ ذَنْبٍ يُمْكِنُ التَّسَتُّرُ مِنْهُ وَإِخْفَاؤُهُ إِلَّا الْكِبْرَ، فَإِنَّهُ فِسْقٌ يَلْزَمُهُ الْإِعْلَانُ، وَهُوَ أَصْلُ الْعِصْيَانِ كُلِّهِ.

[٢٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ يَعْنِي: لِهَؤُلَاءِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ مُشْرِكُو مَكَّةَ الَّذِينَ اقتسموا عقابها إذا سأل منهم الْحَاجُّ، ﴿مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أحاديثهم وأباطيلهم.

[٢٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لِيَحْمِلُوا﴾ أي: ليجعلوا، ﴿أَوْزَارَهُمْ﴾ ذنوب أنفسهم، وَالْأَوْزَارُ: حَقِيقَتُهَا الْأَثْقَالُ، جَمْعُ وِزْرٍ- بِكَسْرِ الْوَاوِ وَسُكُونِ الزَّايِ- وَهُوَ الثِّقْلُ، وَاسْتُعْمِلَ فِي الْجُرْمِ وَالذَّنْبِ، لِأَنَّهُ يُثْقِلُ فَاعِلَهُ عَنِ الْخَلَاصِ مِنَ الْأَلَمِ وَالْعَنَاءِ، ﴿كَامِلَةً﴾ وَإِنَّمَا ذَكَرَ الْكَمَالَ لِأَنَّ الْبَلَايَا الَّتِي تَلْحَقُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَمَا يفعلون فيها مِنَ الْحَسَنَاتِ لَا تُكَفِّرُ عَنْهُمْ شَيْئًا، ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ بِغَيْرِ حُجَّةٍ فَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ الْإِيمَانِ، قَالَ مُجَاهِدٌ: يَحْمِلُونَ وِزْرَ مَنْ أَضَلُّوهُ وَلَا ينقص من إثم المضل شي. ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ ما يحملون. عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**مَنْ دَعَا إِلَىٰ هُدًىٰ كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ لَا يُنْقِصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا،**

وَمَنْ دَعَا إِلَىٰ ضَلَالَةٍ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ لَا يُنْقِصُ ذَلِكَ مِنْ آثامهم شيئاً»[1].

[٢٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ الْمَكْرُ : إِلْحَاقُ الضُّرِّ بِالْغَيْرِ فِي صُورَةِ تَمْوِيهِهِ بِالنُّصْحِ وَالنَّفْعِ، فَنُظِّرَ فِعْلُهُمْ بِمَكْرِ مَنْ قَبْلَهُمْ، أَيْ مِنَ الْأُمَمِ السَّابِقَةِ الَّذِينَ مَكَرُوا بِغَيْرِهِمْ مِثْلُ قَوْمِ هُودٍ، وَقَوْمِ صَالِحٍ، وَقَوْمِ لُوطٍ، وَقَوْمِ فِرْعَوْنَ، قَالَ تَعَالَىٰ فِي قَوْمِ صَالِحٍ: ﴿وَمَكَرُوا مَكْراً وَمَكَرْنا مَكْراً ﴾ [سُورَة النَّحْل: ٥٠] الْآيَةَ، وَقَالَ: ﴿وَكَذلِكَ جَعَلْنا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكابِرَ مُجْرِمِيها لِيَمْكُرُوا فِيها وَما يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَما يَشْعُرُونَ﴾ [الأنعام : ١٢٣] ، قوله : ﴿فَأَتَىٰ اللهُ بُنْيانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ﴾ أَيْ: قَصَدَ تَخْرِيبَ بُنْيَانِهِمْ مِنْ أساساتها، والْقَواعِدِ: الْأُسُسُ وَالْأَسَاطِينُ الَّتِي تُجْعَلُ عُمُدًا لِلْبِنَاءِ يُقَامُ عَلَيْهَا السَّقْفُ، ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ﴾ يَعْنِي أَعْلَىٰ الْبُيُوتِ وَالْخُرُورُ: السُّقُوطُ وَالْهُوِيُّ، ﴿مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ من مأمنهم.

[٢٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيامَةِ يُخْزِيهِمْ﴾ أَيْ يَفْضَحُهُمْ بِالْعَذَابِ وَيُذِلُّهُمْ بِهِ وَيُهِينُهُمْ. وَالْخِزْيُ: الْإِهَانَةُ ، ﴿وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكائِيَ﴾ أَيْ بِزَعْمِكُمْ وَفِي دَعْوَاكُمْ، أَيِ الْآلِهَةُ الَّتِي عَبَدْتُم دُونِي، وَهُوَ سُؤَالُ توبيخ، ﴿الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشاقُّونَ﴾ أَيْ تُعَادُونَ أَنْبِيَائِي بِسَبَبِهِمْ، فَلْيَدْفَعُوا عَنْكُمْ هَذَا العذاب، وَالْمُشَاقَّةُ:

---

(١) مسلم (٢٦٧٤) .

الْمُشَادَّةُ فِي الْخُصُومَةِ، كَأَنَّهَا خُصُومَةٌ لَا سَبِيلَ مَعَهَا إِلَىٰ الْوِفَاقِ، إِذْ قَدْ صَارَ كُلُّ خَصْمٍ فِي شِقٍّ غَيْرِ شَقِّ الْآخَر ، قال الطبري: يقول: أين الذين كنتم تزعمون في الدنيا أنهم شركائي اليوم، ما لهم لا يحضرونكم، فيدفعوا عنكم ما أنا مُحِلٌّ بكم من العذاب ﴿قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ وهم المؤمنون، وقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَيِ الْمَلَائِكَةُ، ﴿إِنَّ الْخِزْيَ﴾ أَيِ الْهَوَانَ وَالذُّلَّ يوم القيامة ، ﴿الْيَوْمَ وَالسُّوءَ﴾ أي: العذاب، ﴿عَلَىٰ الْكَافِرِينَ﴾ .

[٢٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ يَقْبِضُ أَرْوَاحَهُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ وَأَعْوَانُهُ ﴿ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾ بِالْكُفْرِ وَنُصِبَ عَلَىٰ الْحَالِ أَيْ وَهُمْ ظَالِمُونَ أَنْفُسَهُمْ إِذْ أَوْرَدُوهَا مَوَارِدَ الْهَلَاكِ. ﴿فَأَلْقَوُا السَّلَمَ﴾ أَيِ: اسْتَسْلَمُوا وَانْقَادُوا وأَقَرُّوا لِلَّهِ بِالرُّبُوبِيَّةِ وَانْقَادُوا عِنْدَ الْمَوْتِ ، وَالْإِلْقَاءُ: مُسْتَعَارٌ إِلَىٰ الْإِظْهَارِ الْمُقْتَرِنِ بِمَذَلَّةٍ. شُبِّهَ بِإِلْقَاءِ السِّلَاحِ عَلَىٰ الْأَرْضِ، ذَلِكَ أَنَّهُمْ تَرَكُوا اسْتِكْبَارَهُمْ وَإِنْكَارَهُمْ وَأَسْرَعُوا إِلَىٰ الِاعْتِرَاف ولخضوع لَمَّا ذَاقُوا عَذَابَ انْتِزَاعِ أَرْوَاحِهِمْ ثم قالوا : ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ﴾ شِرْكٍ فَقَالَ لَهُمُ الْمَلَائِكَةُ، ﴿بَلَىٰ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ قَالَ عِكْرِمَةُ: عَنَىٰ بِذَلِكَ مَنْ قُتِلَ مِنَ الْكُفَّارِ بِبَدْرٍ ، وعَنْ أَنَسِ ابْنِ مَالِكٍ قَالَ: كُنَّا عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَضَحِكَ حَتَّىٰ بَدَتْ نَوَاجِذُهُ ثُمَّ قَالَ: «**أَتَدْرُونَ مِمَّ أَضْحَكُ؟**» قُلْنَا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: **مِنْ مُجَادَلَةِ العبد ربه، يَقُولُ: يَا رَبِّ أَلَمْ تُجِرْنِي مِنَ الظُّلْمِ؟ فَيَقُولُ: بَلَىٰ، فَيَقُولُ: لَا أُجِيزُ عليَّ شَاهِدًا إِلَّا مِنْ نَفْسِي، فَيَقُولُ: كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ شَهِيدًا،**

وَبِالْكِرَامِ عَلَيْكَ شُهُودًا، فَيُخْتَمُ عَلَىٰ فِيهِ وَيُقَالُ لِأَرْكَانِهِ: انْطِقِي، فَتَنْطِقُ بِعَمَلِهِ، ثُمَّ يُخَلِّي بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكَلَامِ، فَيَقُولُ: بُعْدًا لكنَّ وَسُحْقًا، فَعَنْكُنَّ كُنْتُ أُنَاضِلُ»[1] ، وَقَالَ قَتَادَةُ: ابْنَ آدَمَ، وَاللهِ إِنَّ عَلَيْكَ لَشُهُودًا غَيْرَ مُتَّهَمَةٍ مِنْ بَدَنِكَ فَرَاقِبْهُمْ، وَاتَّقِ اللهَ فِي سِرِّكَ وَعَلَانِيَتِكَ، فَإِنَّهُ لَا يَخْفَىٰ عليه خافية، الظُّلمة عِنْدَهُ ضَوْءٌ، وَالسِّرُّ عِنْدَهُ عَلَانِيَةٌ، فَمَنِ اسْتَطَاعَ أَنْ يَمُوتَ وَهُوَ بِاللهِ حَسَنُ الظَّنِّ فَلْيَفْعَلْ ولا قوة إلا بالله.

[٢٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَادْخُلُوا﴾ أَيْ: قَالَ لَهُمُ ادْخُلُوا ﴿أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَىٰ الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ عَنِ الْإِيمَانِ، ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ وَذَلِكَ أَنَّ أَحْيَاءَ الْعَرَبِ كَانُوا يَبْعَثُونَ أَيَّامَ الْمَوْسِمِ مَنْ يَأْتِيهِمْ بِخَبَرِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وسلم فإذا جاء يسأل الَّذِينَ قَعَدُوا عَلَىٰ الطُّرُقِ عَنْهُ ، فَيَقُولُونَ: سَاحِرٌ كَاهِنٌ شَاعِرٌ كَذَّابٌ مَجْنُونٌ، وَلَوْ لَمْ تَلْقَهُ خَيْرٌ، فيقول السائل: إنا شر وفد إِنْ رَجَعْتُ إِلَىٰ قَوْمِي دُونَ أَنْ أَدْخُلَ مَكَّةَ فَأَلْقَاهُ فَيَدْخُلُ مَكَّةَ فَيَرَىٰ أَصْحَابَ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَيُخْبِرُونَهُ بِصِدْقِهِ وَأَنَّهُ نَبِيٌّ، مَبْعُوثٌ ،فَذَلِكَ قَوْلُهُ:

[٣٠] : ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا﴾ يَعْنِي: أَنْزَلَ خَيْرًا، ثُمَّ ابْتَدَأَ فَقَالَ: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ كَرَامَةً مِنَ اللهِ ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هِيَ تَضْعِيفُ الْأَجْرِ إِلَىٰ الْعَشْرِ ، وَقَالَ الضَّحَاكُ: هِيَ النَّصْرُ وَالْفَتْحُ.

---

(١) مسلم (٢٩٦٩) .

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: هِيَ الرِّزْقُ الحسن ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ﴾ أَيْ وَلَدَارُ الْحَالِ الْآخِرَةِ، ﴿خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾ قَالَ الْحَسَنُ البصري: الْمَعْنَىٰ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ الدُّنْيَا، لِأَنَّهُمْ نَالُوا بِالْعَمَلِ فِيهَا ثَوَابَ الْآخِرَةِ وَدُخُولَ الْجَنَّةِ. وَقِيلَ: الْمَعْنَىٰ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ الْآخِرَةُ، وَقَالَ أَكْثَرُ الْمُفَسِّرِينَ: هِيَ الْجَنَّةُ، ثُمَّ فَسَّرَهَا.

[٣٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ بَدَلٌ من دار المتقين، أي لهم في الآخرة جنات عدن أي مقام يَدْخُلُونَهَا، ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أَيْ بَيْنَ أشجارها وقصورها، ﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآؤونَ﴾، كقوله تعَالَىٰ: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾، وَفِي الأثر : « إِنَّ السَّحَابَةَ لَتَمُرُّ بِالْمَلَأِ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَهُمْ جُلُوسٌ عَلَىٰ شَرَابِهِمْ، فَلَا يشتهي أحد منهم شيئًا إلا أمطرته عليه، حتىٰ إن منهم ليقول: أَمْطِرِينَا كَوَاعِبَ أَتْرَابًا فَيَكُونُ ذَلِكَ» ، ﴿كَذَلِكَ يَجْزِي اللهُ الْمُتَّقِينَ﴾، أَيْ كَذَلِكَ يَجْزِي اللهُ كُلَّ مَنْ آمَنَ بِهِ وَاتَّقَاهُ وَأَحْسَنَ عَمَلَهُ، ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَىٰ عَنْ حَالِهِمْ عِنْدَ الِاحْتِضَارِ أَنَّهُمْ طَيِّبُونَ، أَيْ مُخَلَّصُونَ مِنَ الشِّرْكِ وَالدَّنَسِ وَكُلِّ سُوءٍ، وَأَنَّ الْمَلَائِكَةَ تُسَلِّمُ عَلَيْهِمْ وَتُبَشِّرُهُمْ بِالْجَنَّةِ.

[٣٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ﴾ مُؤْمِنِينَ طَاهِرِينَ مِنَ الشِّرْكِ. قَالَ مُجَاهِدٌ: زَاكِيَةً أَفْعَالُهُمْ وَأَقْوَالُهُمْ ، وَقِيلَ: مَعْنَاهُ إِنَّ وَفَاتَهُمْ تَقَعُ طَيِّبَةً سهلة، وَالطَّيِّبُ: بِزِنَةِ فَيْعِل، مِثْلُ قَيِّمٍ وَمَيِّتٍ، وَهُوَ مُبَالَغَةٌ فِي الِاتِّصَافِ بِالطِّيبِ وَهُوَ حُسْنُ الرَّائِحَةِ ، وَيُطْلَقُ عَلَىٰ مَحَاسِنِ الْأَخْلَاقِ وَكَمَالِ النَّفْسِ عَلَىٰ وَجْهِ الْمَجَازِ الْمَشْهُورِ فَتُوصَفُ بِهِ الْمَحْسُوسَاتُ كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿حَلالًا طَيِّبًا﴾

[الْبَقَرَة: ١٦٨] وَالْمَعَانِي وَالنَّفْسِيَّاتُ كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ﴾ [الزمر: ٧٣]، وَقَوْلِهِمْ: طِبْتَ نَفْسًا، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾ [الْأَعْرَاف: ٥٨]، وَفِي الْحَدِيثِ «**إِنَّ اللهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا**»، قوله: ﴿يَقُولُونَ﴾ يَعْنِي: الْمَلَائِكَةُ لَهُمْ ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمُ﴾ وقيل: معناه يُبَلِّغُونَهُمْ سَلَامَ اللهِ، وعَنْ مُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ الْقُرَظِيِّ قَالَ: إِذَا احتضرت نَفْسُ الْعَبْدِ الْمُؤْمِنِ جَاءَهُ مَلَكُ الْمَوْتِ فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكَ وَلِيَّ اللهِ اللهُ يَقْرَأُ عَلَيْكَ السَّلَامَ، ثُمَّ نَزَعَ بِهَذِهِ الْآيَةِ ﴿تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمْ﴾، وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: إِذَا جَاءَ مَلَكُ الْمَوْتِ يَقْبِضُ رُوحَ الْمُؤْمِنِ قَالَ: رَبُّكَ يُقْرِئُكَ السَّلَامَ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَيُبَشَّرُ بِصَلَاحِ وَلَدِهِ مِنْ بَعْدِهِ لِتَقَرَّ عَيْنُهُ، ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ قال القرطبي: يَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا- أَنْ يَكُونَ مَعْنَاهُ أَبْشِرُوا بِدُخُولِ الْجَنَّةِ.

الثَّانِي- أَنْ يَقُولُوا ذَلِكَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ.

قَوْلُهُ: ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ يَعْنِي فِي الدُّنْيَا مِنَ الصَّالِحَاتِ، وَجَاءَ مِنْ حَدِيثِ الْبَرَاءِ مَرْفُوعًا - فِي صِفَةِ الْمُؤْمِنِ فِي قَبْرِهِ بَعْدَ السُّؤَالِ -: وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ حَسَنُ الْوَجْهِ، حَسَنُ الثِّيَابِ، طَيِّبُ الرِّيحِ، فَيَقُولُ: أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُرُّكَ، أَبْشِرْ بِرِضْوَانٍ مِنَ اللهِ، وَجَنَّاتٍ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ، هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ، فَيَقُولُ لَهُ: وَأَنْتَ فَبَشَّرَكَ اللهُ بِخَيْرٍ، مَنْ أَنْتَ؟ فَوَجْهُكَ الْوَجْهُ يَجِيءُ بِالْخَيْرِ، فَيَقُولُ: أَنَا

عَمَلُكَ الصَّالِحُ، فَوَاللهِ مَا عَلِمْتُكَ إِلَّا كُنْتَ سَرِيعًا فِي إِطَاعَةِ اللهِ، بَطِيئًا فِي مَعْصِيَةِ اللهِ، فَجَزَاكَ اللهُ خَيْرًا.

[٣٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ هَذَا رَاجِعٌ إِلَىٰ الْكُفَّارِ، أَيْ مَا يَنْتَظِرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ لِقَبْضِ أَرْوَاحِهِمْ وَهُمْ ظَالِمُونَ لِأَنْفُسِهِمْ، ﴿أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ يَعْنِي: يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَقِيلَ: بِالْعَذَابِ مِنَ الْقَتْلِ كَيَوْمِ بَدْرٍ، أَوِ الزَّلْزَلَةِ وَالْخَسْفِ فِي الدُّنْيَا، وَالْقَوْمُ لَمْ يَنْتَظِرُوا هَذِهِ الْأَشْيَاءَ لِأَنَّهُمْ مَا آمَنُوا بِهَا، وَلَكِنَّ امْتِنَاعَهُمْ عَنِ الْإِيمَانِ أَوْجَبَ عَلَيْهِمُ الْعَذَابَ، فَأُضِيفَ ذلك إليهم، أي عاقبتهم العذاب، ﴿كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي: كفروا كما كفر الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللهُ﴾ بِتَعْذِيبِهِ إِيَّاهُمْ ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بمعصيتهم ربهم وكفرهم به، حتىٰ استحقوا عقابه، فعجَّل لهم.

[٣٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾ عُقُوبَاتُ كُفْرِهِمْ وَأَعْمَالِهِمِ الْخَبِيثَةِ، وقال القرطبي: قِيلَ: فِيهِ تَقْدِيمٌ وَتَأْخِيرٌ، التَّقْدِيرُ: كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا، وَمَا ظَلَمَهُمُ اللهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ، فَأَصَابَهُمْ عقوبات كفرهم جزاء الْخَبِيثِ مِنْ أَعْمَالِهِمْ، ﴿وَحَاقَ بِهِمْ﴾ نَزَلَ بِهِمْ وحاقَ: أَحَاطَ، وَالْحَيْقُ: الْإِحَاطَةُ، ثُمَّ خَصَّ الِاسْتِعْمَالُ الْحَيْقَ بِإِحَاطَةِ الشَّرِّ، ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾.

[٣٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ قَالَ الزَّجَّاجُ: قَالُوهُ اسْتِهْزَاءً، وَلَوْ قَالُوهُ عَنِ اعتاد لكانوا مؤمنين، وهذا

اعْتِذارٌ تَافِهٌ من شَكَلُ كُلٍّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ عَلَىٰ شِرْكِهِمْ بِاللهِ وَتَحْرِيمِ مَا لَمْ يُنْزِلْ بِهِ تَشْرِيعًا مِنَ الْبَحَائِرِ وَالسَّوَائِبِ وَالْوَصَائِلِ مُعَلِّقِينَ ذَلِكَ كُلَّهُ عَلَىٰ الْقَدَرِ، شَأْنُ الْأُمَمِ الْمَغْرُورَةِ قَبْلَهُمْ ، قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: وَمَضْمُونُ كَلَامِهِمْ أَنَّهُ لَوْ كَانَ تَعَالَىٰ كَارِهًا لِمَا فَعَلْنَا لَأَنْكَرَهُ عَلَيْنَا بِالْعُقُوبَةِ، وَلَمَا مَكَّنَنَا مِنْهُ ، ﴿نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ يعني فِي الْبَحِيرَةَ وَالسَّائِبَةَ وَالْوَصِيلَةَ وَالْحَامِ، فَلَوْلَا أن الله رضيها لنا لَغَيَّرَ ذَلِكَ وَهَدَانَا إِلَىٰ غَيْرِهَا، أَيْ مِثْلَ هَذَا التَّكْذِيبِ وَالِاسْتِهْزَاءِ فَعَلَ مَنْ كَانَ قَبْلَهُمْ بِالرُّسُلِ فَأُهْلِكُوا، ﴿فَهَلْ عَلَىٰ الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ أَيْ لَيْسَ عَلَيْهِمْ إِلَّا التَّبْلِيغُ، وَأَمَّا الهداية فهي إلىٰ الله تعالىٰ، قال ابن عاشور : وَذَلِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا يُحَاوِلُونَ إِفْحَامَ الرَّسُولِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأَنَّهُ يَقُولُ: إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ، وَإِنَّهُ الْقَادِرُ عَلَيْهِمْ وَعَلَىٰ آلِهَتِهِمْ، وَإِنَّهُ لَا يَرْضَىٰ بِأَنْ يُعْبَدَ مَا سِوَاهُ، وَإِنَّهُ يَنْهَاهُمْ عَنِ الْبَحِيرَةِ وَالسَّائِبَةِ وَنَحْوِهِمَا، فَحَسِبُوا أَنَّهُمْ خَصَمُوا النَّبِيءَ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَحَاجُّوهُ فَقَالُوا لَهُ: لَوْ شَاءَ اللهُ أَنْ لَا نَعْبُدَ أَصْنَامًا لَمَا أَقْدَرَنَا عَلَىٰ عِبَادَتِهَا، وَلَوْ شَاءَ أَنْ لَا نُحَرِّمَ مَا حَرَّمْنَا مِنْ نَحْوِ الْبَحِيرَةِ وَالسَّائِبَةِ لَمَا أَقَرَّنَا عَلَىٰ تَحْرِيمِ ذَلِكَ. وَذَلِكَ قَصْدُ إِفْحَامٍ وَتَكْذِيبٍ ، وَهَذَا رَدَّهُ اللهُ عَلَيْهِمْ بِتَنْظِيرِ أَعْمَالِهِمْ بِأَعْمَالِ الْأُمَمِ الَّذِينَ أَهْلَكَهُمُ اللهُ فَلَوْ كَانَ اللهُ يَرْضَىٰ بِمَا عَمِلُوهُ لَمَا عَاقَبَهُمْ بِالِاسْتِئْصَالِ، فَكَانَتْ عَاقِبَتُهُمْ نُزُولُ الْعَذَابِ بِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿كَذلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ ، ثُمَّ بِقَطْعِ الْمُحَاجَّةِ بِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿فَهَلْ عَلَىٰ الرُّسُلِ إِلَّا

الْبَلاغُ الْمُبِينُ ﴾، أَيْ وَلَيْسَ مِنْ شَأْنِ الرُّسُلِ- عَلَيْهِمُ السَّلَامُ- الْمُنَاظَرَةُ مَعَ الْأُمَّةِ.

[٣٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا﴾ أَيْ: كَمَا بَعَثْنَا فِيكُمْ، وَالْمَعْنَىٰ: أَنَّ اللهَ بَيَّنَ لِلْأُمَمِ عَلَىٰ أَلْسِنَةِ الرُّسُلِ- عَلَيْهِمُ السَّلَامُ- أَنَّهُ يَأْمُرُهُمْ بِعِبَادَتِهِ وَاجْتِنَابِ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ فَمِنْ كُلِّ أُمَّةٍ أَقْوَامٌ هَدَاهُمُ اللهُ فَصَدَّقُوا وَآمَنُوا، وَمِنْهُمْ أَقْوَامٌ تَمَكَّنَتْ مِنْهُمُ الضَّلَالَةُ فَهَلَكُوا ، وَمَنْ سَارَ فِي الْأَرْضِ رَأَىٰ دَلَائِلَ اسْتِئْصَالِهِمْ، ﴿أَنِ اُعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ وهو مَعْبُودٍ مِنْ دُونِ اللهِ، أَيِ اتْرُكُوا كُلَّ مَعْبُودٍ دُونَ اللهِ كَالشَّيْطَانِ وَالْكَاهِنِ وَالصَّنَمِ، وَكُلَّ مَنْ دَعَا إِلَىٰ الضَّلَالِ ، فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَىٰ اللهُ أي أرشده إلىٰ دينه وعبادته ، والطَّاغُوتَ: جِنْسُ مَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ مِنَ الْأَصْنَامِ ، وَقَدْ يَذْكُرُونَهُ بِصِيغَةِ الْجَمْعِ، فَيُقَالُ: الطَّوَاغِيتُ، وَهِيَ الْأَصْنَامُ ، ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَىٰ اللهُ﴾ أَيْ: هَدَاهُ اللهُ إِلَىٰ دِينِهِ، ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾ أَيْ وَجَبَتْ: بِالْقَضَاءِ السَّابِقِ حَتَّىٰ مَاتَ عَلَىٰ كُفْرِهِ، ﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُروا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ أَيْ: مَآلُ أَمْرِهِمْ وَهُوَ خَرَابُ مَنَازِلِهِمْ بِالْعَذَابِ وَالْهَلَاكِ.

[٣٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنْ تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَاهُمْ﴾ أَيْ إِنْ تَطْلُبْ يَا مُحَمَّدُ بِجَهْدِكَ هُدَاهُمْ ، وَالْحِرْصُ: فَرْطُ الْإِرَادَةِ الْمُلِحَّةِ فِي تَحْصِيلِ الْمُرَادِ بِالسَّعْيِ فِي أَسْبَابِهِ ، ﴿فَإِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ﴾ يَعْنِي مَنْ أَضَلَّهُ اللهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ كَمَا قَالَ: ﴿مَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ﴾ [الْأَعْرَافِ: ١٨٦] وحُكِيَ عَنْ محمد بن

يَزِيدَ كَأَنَّ مَعْنَىٰ ﴿ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ﴾ مَنْ عَلِمَ ذَلِكَ مِنْهُ وَسَبَقَ ذَلِكَ لَهُ عِنْدَهُ، قَالَ: وَلَا يَكُونُ يَهْدِي بِمَعْنَىٰ يَهْتَدِي إِلَّا أَنْ يَكُونَ يَهْدِي أَوْ يُهْدِي ،﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ أَيْ: مَا لَهُمْ نَاصِرٌ يُنْجِيهِمْ مِنَ الْعَذَابِ، أَيْ كَمَا أَنَّهُمْ مَا لَهُمْ مُنْقِذٌ مِنَ الضَّلَالِ الْوَاقِعِينَ فِيهِ مَا لَهُمْ نَاصِرٌ يَدْفَعُ عَنْهُمْ عواقب الضلال، قال ابن عاشور: وَفِي الْآيَةِ لَطِيفَتَانِ:

الْأُولَىٰ: التَّعْرِيضُ بِالثَّنَاءِ عَلَىٰ النَّبِيءِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي حِرْصِهِ عَلَىٰ خَيْرِهِمْ مَعَ مَا لَقِيَهُ مِنْهُمْ مِنَ الْأَذَىٰ الَّذِي شَأْنُهُ أَنْ يُثِيرَ الْحَنَقَ فِي نَفْسِ مَنْ يَلْحَقُهُ الْأَذَىٰ وَلَكِنَّ نَفْسَ مُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، مُطَهَّرَةٌ مِنْ كُلِّ نَقْصٍ يَنْشَأُ عَنِ الْأَخْلَاقِ الْحَيَوَانِيَّةِ.

واللَّطِيفَةُ الثَّانِيَةُ: الْإِيمَاءُ إِلَىٰ أَنَّ غَالِبَ أُمَّةِ الدَّعْوَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ سَيَكُونُونَ مُهْتَدِينَ وَأَنَّ الضَّلَالَ مِنْهُمْ فِئَةٌ قَلِيلَةٌ، وَهُمُ الَّذِينَ لَمْ يُقَدِّرِ اللهُ هَدْيَهُمْ فِي سَابِقِ عِلْمِهِ بِمَا نَشَأَ عَنْ خَلْقِهِ وَقُدْرَتِهِ مِنَ الْأَسْبَابِ الَّتِي هَيَّأَتْ لَهُمُ الْبَقَاءَ فِي الضَّلَالِ.

[٣٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ﴾ هَذَا تَعْجِيبٌ مِنْ صُنْعِهِمْ، إِذْ أَقْسَمُوا بِاللهِ وَبَالَغُوا فِي تَغْلِيظِ الْيَمِينِ بِأَنَّ اللهَ ﴿لَا يَبْعَثُ مَنْ يَمُوتُ ﴾ ، وَوَجْهُ التَّعْجِيبِ أَنَّهُمْ يُظْهِرُونَ تَعْظِيمَ اللهِ فَيُقْسِمُونَ بِهِ ثُمَّ يُعَجِّزُونَهُ عَنْ بَعْثِ الْأَمْوَاتِ، وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ: كَانَ لِرَجُلٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ عَلَىٰ مُشْرِكٍ دَيْنٌ فَتَقَاضَاهُ، وَكَانَ فِي بَعْضِ كَلَامِهِ: وَالَّذِي أَرْجُوهُ بَعْدَ الْمَوْتِ إِنَّهُ لَكَذَا، فَأَقْسَمَ الْمُشْرِكُ بِاللهِ: ﴿ لَا يَبْعَثُ اللهُ مَنْ يَمُوتُ ﴾، فَنَزَلَتِ الْآيَةُ، وَقَالَ قَتَادَةُ: ذُكِرَ لَنَا أَنَّ ابْنَ عباس قال له

رجل: يا بن عَبَّاسٍ، إِنَّ نَاسًا يَزْعُمُونَ أَنَّ عَلِيًّا مَبْعُوثٌ بَعْدَ الْمَوْتِ قَبْلَ السَّاعَةِ، وَيَتَأَوَّلُونَ هَذِهِ الْآيَةِ ؟ فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: كَذَبَ أُولَئِكَ! إِنَّمَا هَذِهِ الْآيَةُ عَامَّةٌ لِلنَّاسِ، لَوْ كَانَ عَلِيٌّ مَبْعُوثًا قَبْلَ الْقِيَامَةِ مَا نَكَحْنَا نِسَاءَهُ وَلَا قَسَمْنَا مِيرَاثَهُ ، ﴿بَلَىٰ﴾ هَذَا رَدٌّ عَلَيْهِمْ، أَيْ بَلَىٰ لَيَبْعَثَنَّهُمْ ، ﴿وَعْداً عَلَيْهِ حَقًّا﴾ مَصْدَرٌ مُؤَكَّدٌ، لِأَنَّ قَوْلَهُ: ﴿يَبْعَثُهُمْ﴾ يَدُلُّ عَلَىٰ الْوَعْدِ، أَيْ وَعَدَ الْبَعْثَ وَعْدًا حَقًّا ﴿وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ، وَفِي الْبُخَارِيِّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « **قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ ، وَشَتَمَنِي وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ ، فَأَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ : لَنْ يُعِيدَنِي كَمَا بَدَأَنِي ، وَأَمَّا شَتْمُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ: اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا ، وَأَنَا الْأَحَدُ الصَّمَدُ ، لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ** »(١).

[٣٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ﴾ أَيْ لِيُظْهِرَ لَهُمُ ، ﴿الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ أَيْ مِنْ أَمْرِ الْبَعْثِ ، ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بِالْبَعْثِ وَأَقْسَمُوا عَلَيْهِ ﴿أَنَّهُمْ كانُوا كاذِبِينَ﴾ وَقِيلَ: المعنىٰ : وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ، وَالَّذِي اخْتَلَفَ فِيهِ الْمُشْرِكُونَ وَالْمُسْلِمُونَ أُمُورٌ: مِنْهَا الْبَعْثُ، وَمِنْهَا عِبَادَةُ الْأَصْنَامِ، وَمِنْهَا إِقْرَارُ قَوْمٍ بِأَنَّ مُحَمَّدًا حَقٌّ وَلَكِنْ مَنَعَهُمْ مِنَ اتِّبَاعِهِ التَّقْلِيدُ، كَأَبِي طَالِبٍ.

---

(١) البخاري (٤٤٨٢) .

[٤٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ يَقُولُ اللهُ تَعَالَىٰ: إِذَا أَرَدْنَا أَنْ نَبْعَثَ الْمَوْتَىٰ ، فَلَا تَعَبَ عَلَيْنَا فِي إِحْيَائِهِمْ وَلَا فِي شَيْءٍ مِمَّا يَحْدُثُ إِنَّمَا نَقُولُ له: كن فيكون، فَأَعْلَمَهُمْ سُهُولَةَ الْخَلْقِ عَلَيْهِ، أَيْ إِذَا أَرَدْنَا أَنْ نَبْعَثَ مَنْ يَمُوتُ فَلَا تَعَبَ عَلَيْنَا وَلَا نَصَبَ فِي إِحْيَائِهِمْ، وَلَا فِي غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا نُحْدِثُهُ، وَقَالَ الطَّبَرِيُّ: يَقُولُ تَعَالَىٰ ذِكْرُهُ: إِنَّا إِذَا أَرَدْنَا أَنْ نَبْعَثَ مَنْ يَمُوتُ فَلَا تَعَبَ عَلَيْنَا وَلَا نَصَبَ فِي إِحْيَائِنَا لَهُمْ، وَلَا فِي غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا نَخْلُقُ وَنُكَوِّنُ وَنُحْدِثُ، لِأَنَّا إِذَا أَرَدْنَا خَلْقَهُ وَإِنْشَاءَهُ، فَإِنَّمَا نَقُولُ لَهُ: كُنْ فَيَكُونُ، لَا مُعَانَاةَ فِيهِ، وَلَا كُلْفَةَ عَلَيْنَا.

[٤١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا﴾ عذبوا وأوذوا في الله، قال قَتَادَةُ: هُمْ أَصْحَابُ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ظَلَمَهُمْ أَهْلُ مَكَّةَ ، وَأَخْرَجُوهُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ حَتَّىٰ لحق منهم طائفة بالحبشة ، ثم بوأ الله لهم الْمَدِينَةَ بَعْدَ ذَلِكَ فَجَعَلَهَا لَهُمْ دَارَ هِجْرَةٍ، وَجَعَلَ لَهُمْ أَنْصَارًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ وهو أنه أنزلهم المدينة. وَالتَّبْوِئَةُ: الْإِسْكَانُ، وَأُطْلِقَتْ هُنَا عَلَىٰ الْجَزَاءِ بِالْحُسْنَىٰ عَلَىٰ الْمُهَاجَرَةِ بِطَرِيقِ الْمُضَادَّةِ لِلْمُهَاجَرَةِ، لِأَنَّ الْمُهَاجَرَةَ الْخُرُوجُ مِنَ الدِّيَارِ فَيُضَادُّهَا الْإِسْكَانُ ، وَقِيلَ: مَعْنَاهُ لَنُحْسِنَنَّ إِلَيْهِمْ فِي الدُّنْيَا. وَقِيلَ: الْحَسَنَةُ فِي الدُّنْيَا التَّوْفِيقُ وَالْهِدَايَةُ ، فَالْحَسَنَةُ تَشْتَمِلُ عَلَىٰ تَعْوِيضِهِمْ دِيَارًا خَيْرًا مِنْ دِيَارِهِمْ، وَوَطَنًا خَيْرًا مِنْ وَطَنِهِمْ، وَهُوَ الْمَدِينَةُ، وَأَمْوَالًا خَيْرًا مِنْ أَمْوَالِهِمْ، وَهِيَ مَا نَالُوهُ مِنَ الْمَغَانِمِ وَمِنَ الْخَرَاجِ، رُوِيَ أَنَّ عُمَرَ

رَضِيَ اللهُ عَنْهُ كَانَ إِذَا أَعْطَىٰ رَجُلًا مِنَ الْمُهَاجِرِينَ عَطَاءً قَالَ لَهُ: «هَذَا مَا وَعَدَكَ رَبُّكَ فِي الدُّنْيَا، وَمَا ذَخَرَ لَكَ فِي الْآخِرَةِ أَكْبَرُ» ، وَغَلَبَةً لِأَعْدَائِهِمْ فِي الْفُتُوحِ وَأَهَمُّهَا فَتْحُ مَكَّةَ، وَأَمْنًا فِي حَيَاتِهِمْ بِمَا نَالُوهُ مِنَ السُّلْطَانِ ﴿وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ وَقَوْلُهُ: ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ يَنْصَرِفُ إِلَىٰ الْمُشْرِكِينَ لِأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ كَانُوا يعلمونه.

[٤٢] : ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا ﴾ عَلَىٰ الشَّدَائِدِ كَأَذَىٰ الْكُفَّارِ وَمُفَارَقَةِ الْوَطَنِ، وَمَحَلُّهُ النَّصْبُ أَوِ الرَّفْعُ عَلَىٰ الْمَدْحِ، ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ مُنْقَطِعِينَ إِلَىٰ اللهِ مُفَوِّضِينَ إِلَيْهِ الْأَمْرَ كُلَّهُ، هَمُّهُمْ إِلَيْهِ، وَكَفَاهُمْ كُلَّ مُؤُونَةٍ، وَرَزَقَهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُونَ، وَقَالَ بَعْضُ أَهْلِ التَّحْقِيقِ: خِيَارُ الْخَلْقِ مَنْ إِذَا نَابَهُ أَمْرٌ صَبَرَ، وَإِذَا عَجَزَ عَنْ أَمْرٍ تَوَكَّلَ.

[٤٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ، قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ﴾ نَزَلَتْ فِي مُشْرِكِي مَكَّةَ حَيْثُ أَنْكَرُوا نُبُوَّةَ مُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَقَالُوا: اللهُ أَعْظَمُ مِنْ أَنْ يَكُونَ رَسُولُهُ بَشَرًا فهل بَعَثَ إِلَيْنَا مَلَكًا، ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ﴾ يَعْنِي مُؤْمِنِي أَهْلِ الْكِتَابِ، ﴿إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ يُخْبِرُونَكُمْ أَنَّ جَمِيعَ الأنبياء كانوا بشرا، وَقِيلَ: الْمَعْنَىٰ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ فَإِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا فَهُمْ مُعْتَرِفُونَ بِأَنَّ الرُّسُلَ كَانُوا مِنَ الْبَشَرِ ، رُوِيَ مَعْنَاهُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٍ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَهْلُ الذِّكْرِ أَهْلُ الْقُرْآنِ.

[٤٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ﴾ قيل: (بِالْبَيِّناتِ) متعلق بأَرْسَلْنَا، وَفِي الْكَلَامِ تَقْدِيمٌ وَتَأْخِيرٌ، أَيْ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ إِلَّا رِجَالًا- أَيْ غير رجال، فـ (إِلَّا) بِمَعْنَىٰ غَيْرٍ، كَقَوْلِهِ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَهَذَا قَوْلُ الْكَلْبِيِّ، ﴿نُوحِي إِلَيْهِمْ﴾، وَقِيلَ: فِي الْكَلَامِ حَذْفٌ دَلَّ عَلَيْهِ ﴿أَرْسَلْنا﴾ أَيْ أَرْسَلْنَاهُمْ بالبينات والزبر، والزُّبُرِ: جَمْعُ زَبُورٍ وَهُوَ مُشْتَقٌّ مِنَ الزَّبْرِ أَيِ الْكِتَابَةِ، والزُّبُرِ الْكُتُبُ الَّتِي كُتِبَ فِيهَا مَا أُوحِيَ إِلَىٰ الرُّسُلِ مِثْلُ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَالتَّوْرَاةِ وَمَا كَتَبَهُ الْحَوَارِيُّونَ مِنَ الْوَحْيِ إِلَىٰ عِيسَىٰ- عَلَيْهِ السَّلَامُ- وَإِنْ لَمْ يَكْتُبْهُ عِيسَىٰ، ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ أَرَادَ بِالذِّكْرِ الْوَحْيَ وَكَانَ النَّبِيُّ - صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مُبَيِّنًا لِلْوَحْيِ وَبَيَانُ الْكِتَابِ يُطْلَبُ مِنَ السنة ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

[٤٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئاتِ﴾ أَيْ بِالسَّيِّئَاتِ، وَهَذَا وَعِيدٌ لِلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ احْتَالُوا فِي إِبْطَالِ الْإِسْلَامِ: ﴿أَنْ يَخْسِفَ اللهُ بِهِمُ الْأَرْضَ﴾، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: كَمَا خَسَفَ بِقَارُونَ، يُقَالُ: خَسَفَ الْمَكَانُ يَخْسِفُ خُسُوفًا ذَهَبَ فِي الْأَرْضِ، وَخَسَفَ اللهُ بِهِ الْأَرْضَ خُسُوفًا أَيْ غَابَ بِهِ فِيهَا، وَمِنْهُ قَوْلُهُ: ﴿فَخَسَفْنا بِهِ وَبِدارِهِ الْأَرْضَ﴾ [القمان: ٨١]، وَخَسَفَ هُوَ فِي الْأَرْضِ وَخُسِفَ بِهِ، وَالِاسْتِفْهَامُ بِمَعْنَىٰ الْإِنْكَارِ، أَيْ يَجِبُ أَلَّا يَأْمَنُوا عُقُوبَةً تَلْحَقُهُمْ كَمَا لَحِقَتِ الْمُكَذِّبِينَ، ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ كَمَا فُعِلَ بِقَوْمِ

لُوطٍ وَغَيْرِهِمْ. وَقِيلَ: يُرِيدُ يَوْمَ بَدْرٍ، فَإِنَّهُمْ أُهْلِكُوا ذَلِكَ الْيَوْمَ، وَلَمْ يَكُنْ شي مِنْهُ فِي حِسَابِهِمْ.

[٤٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ﴾ أي في أسفارهم وتصرفهم، قاله قتادة : ﴿فَما هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ أي سابقين الله ولا فائتيه، وَقِيلَ: ﴿فِي تَقَلُّبِهِمْ﴾ عَلَىٰ فِرَاشِهِمْ أَيْنَمَا كَانُوا ، وقال الضحاك: بالليل والنهار .

[٤٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلىٰ تَخَوُّفٍ﴾ ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أي علىٰ تنقص من أموالهم وَمَوَاشِيهِمْ وَزُرُوعِهِمْ. وَكَذَا قَالَ ابْنُ الْأَعْرَابِيِّ: أَيْ عَلَىٰ تَنَقُّصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ حَتَّىٰ أَهْلَكَهُمْ كُلَّهُمْ ، وَقَالَ الضَّحَّاكُ: هُوَ مِنَ الْخَوْفِ، الْمَعْنَىٰ: يَأْخُذُ طَائِفَةً وَيَدَعُ طَائِفَةً، فَتَخَافُ الْبَاقِيَةُ أَنْ يَنْزِلَ بِهَا مَا نَزَلَ بِصَاحِبَتِهَا، وَقَالَ الْحَسَنُ البصري: ﴿عَلىٰ تَخَوُّفٍ﴾ أَنْ يَأْخُذَ الْقَرْيَةَ فَتَخَافُهُ الْقَرْيَةُ الْأُخْرَىٰ، وَهَذَا هُوَ مَعْنَىٰ الْقَوْلِ الَّذِي قَبْلَهُ بِعَيْنِهِ، وَهُمَا رَاجِعَانِ إِلَىٰ الْمَعْنَىٰ الْأَوَّلِ، وَأَنَّ التَّخَوُّفَ التَّنَقُّصَ، تَخَوُّفُهُ تَنَقُّصُهُ، وَتَخَوَّفَهُ الدَّهْرُ وَتَخَوَّنَهُ بِمَعْنًىٰ، يُقَالُ: تَخَوَّنَنِي فُلَانٌ حَقِّي إِذَا تَنَقَّصَكَ ، وَقَالَ قَتَادَةُ: ﴿عَلىٰ تَخَوُّفٍ﴾ أَنْ يعاقب أو يتجاوز، ﴿فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ﴾ أَيْ لَا يُعَاجِلُ بَلْ يُمْهِلُ.

[٤٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ يعني الَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ ﴿إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ يَعْنِي مِنْ جِسْمٍ قَائِمٍ لَهُ ظِلٌّ مِنْ شَجَرَةٍ أَوْ جَبَلٍ، قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَإِنْ كَانَتِ الْأَشْيَاءُ كُلُّهَا سَمِيعَةً مُطِيعَةً لله تعالىٰ ، ﴿يَتَفَيَّأُ﴾ التَّفَيُّؤُ: تَفَعُّلٌ مِنْ فَاءَ الظِّلُّ فَيْئًا، أَيْ عَادَ بَعْدَ أَنْ أَزَالَهُ ضَوْءُ الشَّمْسِ، لَعَلَّ أَصْلَهُ مِنْ فَاءَ إِذَا رَجَعَ

بَعْدَ مُغَادَرَةِ الْمَكَانِ، وَتَفَيُّؤُ الظِّلَالِ تَنَقُّلُهَا مِنْ جِهَاتٍ بَعْدَ شُرُوقِ الشَّمْسِ وَبَعْدَ زَوَالِهَا ، ﴿ظِلَالُهُ﴾ أَيْ: تَمِيلُ وَتَدُورُ مِنْ جَانِبٍ إِلَىٰ جَانِبٍ فَهِيَ فِي أَوَّلِ النَّهَارِ عَلَىٰ حَالٍ ثُمَّ تَتَقَلَّصُ ثُمَّ تَعُودُ فِي آخِرِ النَّهَارِ إِلَىٰ حَالٍ أُخْرَىٰ سُجَّدًا لِلَّهِ فَمَيَلَانُهَا وَدَوَرَانُهَا سُجُودُهَا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَيُقَالُ لِلظِّلِّ بِالْعَشِيِّ: فَيْءٌ لِأَنَّهُ فَاءَ أَيْ رَجَعَ مِنَ الْمَغْرِبِ إِلَىٰ الْمَشْرِقِ فَالْفَيْءُ الرُّجُوعُ والسجود : الميل، يقال: سَجَدَتِ النَّخْلَةُ إِذَا مَالَتْ ، قَوْلُهُ : ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ﴾ قول قَتَادَةُ وَالضَّحَاكُ: أَمَّا الْيَمِينُ فَأَوَّلُ النَّهَارِ وَالشِّمَالُ آخِرُ النَّهَارِ، تَسْجُدُ الظلال لِلَّهِ، وَقِيلَ: الْمُرَادُ مِنَ الظِّلَالِ سجود الأشخاص ، فإذا قِيلَ: لِمَ وَحَّدَ الْيَمِينَ وَجَمَعَ الشَّمَائِلَ؟ قِيلَ: مِنْ شَأْنِ الْعَرَبِ فِي اجْتِمَاعِ الْعَلَامَتَيْنِ الِاكْتِفَاءُ بِوَاحِدَةٍ، ، وَقِيلَ: الْيَمِينُ يَرْجِعُ إِلَىٰ قوله: ﴿وما خَلَقَ اللهُ﴾ ، وَلَفْظُ (مَا) واحد والشمائل جمع يَرْجِعُ إِلَىٰ الْمَعْنَىٰ، ﴿وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾ صَاغِرُونَ، أَيْ خَاضِعُونَ صَاغِرُونَ، وَالدَّاخِرُ: الْخَاضِعُ الذَّلِيلُ، أَيْ دَاخِرُونَ لِعَظَمَةِ الله تَعَالَىٰ.

[٤٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ مِنْ دابَّةٍ أَيْ مِنْ كُلِّ مَا يَدِبُّ عَلَىٰ الْأَرْضِ ﴿مِنْ دَابَّةٍ﴾ أَرَادَ مِنْ كُلِّ حَيَوَانٍ يَدِبُّ ، وَيُقَالُ: السُّجُودُ الطَّاعَةُ وَالْأَشْيَاءُ كُلُّهَا مُطِيعَةٌ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ حَيَوَانٍ وَجَمَادٍ، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فُصِّلَتْ: ١١] وَقِيلَ: سُجُودُ الْأَشْيَاءِ تَذَلُّلُهَا وَتَسَخُّرُهَا لِمَا أُرِيدَتْ لَهُ وَسُخِّرَتْ لَهُ ، وَقِيلَ: سُجُودُ الْجَمَادَاتِ وَمَا لَا يَعْقِلُ ظُهُورُ أَثَرِ الصُّنْعِ فِيهِ عَلَىٰ مَعْنَىٰ أَنَّهُ

يَدْعُو الْغَافِلِينَ إِلَىٰ السُّجُودِ عِنْدَ التَّأَمُّلِ وَالتَّدَبُّرِ فِيهِ، ﴿وَالْمَلَائِكَةُ﴾ خَصَّ الْمَلَائِكَةَ بِالذِّكْرِ مَعَ كَوْنِهِمْ من جملة ما في السماوات وَالْأَرْضِ تَشْرِيفًا وَرَفْعًا لِشَأْنِهِمْ، وَقِيلَ: لِخُرُوجِهِمْ مِنَ الْمَوْصُوفِينَ بِالدَّبِيبِ إِذْ لَهُمْ أَجْنِحَةٌ يَطِيرُونَ بِهَا، وَقِيلَ: أَرَادَ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السماوات مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ، وَتَسْجُدُ الْمَلَائِكَةُ ، عَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ، قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ، وَأَسْمَعُ مَا لَا تَسْمَعُونَ، أَطَّتِ السَّمَاءُ، وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَئِطَّ، مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعَ إِلَّا عَلَيْهِ مَلَكٌ سَاجِدٌ، لَوْ عَلِمْتُمْ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا وَلَا تَلَذَّذْتُمْ بِالنِّسَاءِ عَلَىٰ الْفُرُشَاتِ، وَلَخَرَجْتُمْ إِلَىٰ الصعدات تجأرون إلىٰ الله تعالىٰ**»[1] ، فَقَالَ أَبُو ذَرٍّ: وَاللهِ لَوَدِدْتُ أَنِّي شَجَرَةٌ تعضد ، ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ عَنْ عِبَادَةِ رَبِّهِمْ، وَهَذَا رَدٌّ عَلَىٰ قُرَيْشٍ حَيْثُ زَعَمُوا أَنَّ الْمَلَائِكَةَ بَنَاتُ اللهِ.

[٥٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿يَخافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ أَيْ عِقَابَ رَبِّهِمْ وَعَذَابَهُ، لِأَنَّ الْعَذَابَ الْمُهْلِكَ إِنَّمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ ، وَقِيلَ: الْمَعْنَىٰ يَخَافُونَ قُدْرَةَ رَبِّهِمُ الَّتِي هِيَ فَوْقَ قُدْرَتِهِمْ، فَفِي الْكَلَامِ حَذْفٌ ، وَقِيلَ: مَعْنَىٰ ﴿يَخافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ يَعْنِي الْمَلَائِكَةَ، يَخَافُونَ رَبَّهُمْ وَهِيَ مِنْ فَوْقِ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ

---

(١) الترمذي (٢٣١٢) وابن ماجه (٤١٩٠) .

وَمَعَ ذَلِكَ يَخَافُونَ، فَلَأَنْ يَخَافَ مَنْ دُونَهُمْ أَوْلَىٰ، دَلِيلُ هَذَا الْقَوْلِ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ يعنيٰ الملائكة.

[٥١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَقَالَ اللهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ قِيلَ: الْمَعْنَىٰ لَا تَتَّخِذُوا اثْنَيْنِ إِلَهَيْنِ، وَلَمَّا كَانَ الْإِلَهُ الْحَقُّ لَا يَتَعَدَّدُ ، وَأَنَّ كُلَّ مَنْ يَتَعَدَّدُ فَلَيْسَ بِإِلَهٍ، اقْتَصَرَ عَلَىٰ ذِكْرِ الِاثْنَيْنِ، لِأَنَّهُ قَصَدَ نفي التعدد، ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ يَعْنِي ذَاتَهُ الْمُقَدَّسَةَ ، ﴿فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ أَيْ خَافُونِ.

[٥٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ﴾ الطاعة والإخلاص ﴿وَاصِبًا﴾ دَائِمًا ثَابِتًا، مَعْنَاهُ: لَيْسَ مِنْ أَحَدٍ يُدَانُ لَهُ وَيُطَاعُ إِلَّا انْقَطَعَ ذَلِكَ عَنْهُ بِزَوَالٍ أَوْ هَلَاكٍ غَيْرَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ ، فَإِنَّ الطَّاعَةَ تَدُومُ لَهُ وَلَا تنقطع ، قال القرطبي : وَصَبَ الشَّيْءُ يَصِبُ وُصُوبًا، أَيْ دَامَ ، وَوَصَبَ الرَّجُلُ عَلَىٰ الْأَمْرِ إِذَا وَاظَبَ عَلَيْهِ، وَالْمَعْنَىٰ: طَاعَةُ اللهِ وَاجِبَةٌ أَبَدًا ، ﴿أَفَغَيْرَ اللهِ تَتَّقُونَ﴾ أَيْ: تَخَافُونَ، اسْتِفْهَامٌ عَلَىٰ طَرِيقِ الإنكار.

[٥٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ﴾ أَيْ صِحَّةِ جِسْمٍ وَسَعَةِ رِزْقٍ وَوَلَدٍ فَمِنَ اللهِ ، أي: وما يكن مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ، ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ﴾ أي السقم والبلاء والقحط ، ﴿فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾ تَضِجُّونَ وَتَصِيحُونَ بِالدُّعَاءِ وَالِاسْتِغَاثَةِ، يُقَالُ: جَأَرَ يَجْأَرُ جُؤَارًا ، وَالْجُؤَارُ مِثْلُ الْخُوَارِ، يُقَالُ: جَأَرَ الثَّوْرُ يَجْأَرُ، أَيْ صَاحَ.

[٥٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿ثُمَّ إِذا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ﴾ أَيِ الْبَلَاءَ وَالسَّقَمَ، ﴿إِذا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ بَعْدَ إِزَالَةِ الْبَلَاءِ وَبَعْدَ الْجُؤَارِ ، فَمَعْنَىٰ الْكَلَامِ التَّعْجِيبُ مِنَ الْإِشْرَاكِ بَعْدَ النَّجَاةِ مِنَ الْهَلَاكِ.

[٥٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿لِيَكْفُرُوا﴾ ليجحدوا، ﴿بِمَا آتَيْنَاهُمْ﴾ وَهَذِهِ اللَّامُ تُسَمَّىٰ لَامَ الْعَاقِبَةِ، أَيْ: حَاصِلُ أَمْرِهِمْ هُوَ كُفْرُهُمْ بِمَا آتَيْنَاهُمْ أَعْطَيْنَاهُمْ مِنَ النَّعْمَاءِ وكشف الضراء والبلاء، ﴿فَتَمَتَّعُوا﴾ أَيْ: عِيشُوا فِي الدُّنْيَا الْمُدَّةَ الَّتِي ضَرَبْتُهَا لَكُمْ، ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ عَاقِبَةَ أَمْرِكُمْ، هَذَا وَعِيدٌ لَهُمْ. قَالَ ابْنُ حَجَرٍ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ: الْمُشْرِكُ أَصْلًا مَنْ وَضَعَ الشَّيْءَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ؛ لِأَنَّهُ جَعَلَ لِمَنْ أَخْرَجَهُ مِنَ الْعَدَمِ إِلَىٰ الْوُجُودِ مُسَاوِيًا، فَنَسَبَ النِّعْمَةَ إِلَىٰ غَيْرِ الْمُنْعِمِ بِهَا، وَقَالَ مُحَمَّدُ ابْنُ الْمُكَرَّمِ : اللَّهُمَّ، إِنَّا نَسْأَلُكَ صِحَّةَ التَّوْحِيدِ وَالْإِخْلَاصَ فِي الْإِيمَانِ، انْظُرْ إِلَىٰ هَؤُلَاءِ لَمْ يَنْفَعْهُمْ طَوَافُهُمْ، وَلَا تَلْبِيَتُهُمْ، وَلَا قَوْلُهُمْ عَنِ الصَّنَمِ هُوَ لَكَ، وَلَا قَوْلُهُمْ: تَمْلِكُهُ وَمَا مَلَكَ، مَعَ تَسْمِيَتِهِمُ الصَّنَمَ شَرِيكًا، بَلْ حَبطَ عَمَلُهُمْ بِهَذِهِ التَّسْمِيَةِ، وَلَمْ يَصِحَّ لَهُمُ التَّوْحِيدُ مَعَ الِاسْتِثْنَاءِ، وَلَا نَفَعَتْهُمْ مَعْذِرَتُهُمْ بِقَوْلِهِمْ: ﴿إِلَّا لِيُقَرِّبُونا إِلَىٰ اللهِ زُلْفىٰ﴾[الزمر : ٣] .

[٥٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ﴾ لَهُ حَقًّا أَيِ: الْأَصْنَامِ، ﴿نَصِيبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ مِنَ الْأَمْوَالِ وَهُوَ مَا جَعَلُوا لِلْأَوْثَانِ مِنْ حُرُوثِهِمْ وَأَنْعَامِهِمْ، فَقَالُوا: هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا، ثُمَّ رَجَعَ مِنَ الْخَبَرِ إِلَىٰ

الخطاب فقال: ﴿تَاللهِ لَتُسْأَلُنَّ﴾ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَهَذَا سُؤَالُ تَوْبِيخٍ، ﴿عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ﴾ أَيْ تَخْتَلِقُونَهُ فِي الدُّنْيَا. مِنَ الْكَذِبِ عَلَىٰ اللهِ أَنَّهُ أمركم بهذا.

[٥٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ﴾ وَهُمْ قبيلتي خُزَاعَةُ وَكِنَانَةُ، قَالُوا: الْمَلَائِكَةُ بَنَاتُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿سُبْحانَهُ﴾ نَزَّهَ نَفْسَهُ وَعَظَّمَهَا عَمَّا نَسَبُوهُ إِلَيْهِ مِنَ اتِّخَاذِ الْأَوْلَادِ، ﴿وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾ أَيْ يَجْعَلُونَ لِأَنْفُسِهِمُ الْبَنِينَ وَيَأْنَفُونَ مِنَ الْبَنَاتِ، وقال الطبري : يقول: يجعلون لله البنات ترضونهنّ لي، ولا ترضونهنّ لأنفسكم، وذلك أنهم كانوا في الجاهلية إذا وُلِدَ للرجل منهم جارية أمسكها علىٰ هون، أو دسّها في التراب وهي حية.

[٥٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا﴾ مُتَغَيِّرًا مِنَ الْغَمِّ وَالْكَرَاهِيَةِ، ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ وَهُوَ مُمْتَلِئٌ حُزْنًا وَغَيْظًا فَهُوَ يَكْظِمُهُ، أَيْ: يُمْسِكُهُ وَلَا يُظْهِرُهُ، ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: حَزِينٌ، وَقَالَ الْأَخْفَشُ: هُوَ الَّذِي يَكْظِمُ غَيْظَهُ فَلَا يُظْهِرُهُ، وَقِيلَ: إِنَّهُ الْمَغْمُومُ الَّذِي يُطْبِقُ فَاهُ فَلَا يَتَكَلَّمُ مِنَ الْغَمِّ، مَأْخُوذٌ مِنَ الْكِظَامَةِ وَهُوَ شَدُّ فَمِ الْقِرْبَةِ، وقَالَ قَتَادَةُ: «هَذَا صَنِيعُ مُشْرِكِي الْعَرَبِ، أَخْبَرَنَا اللهُ تَعَالَىٰ بِخُبْثِ صَنِيعِهِمْ، فَأَمَّا الْمُؤْمِنُ فَهُوَ حَقِيقٌ أَنْ يَرْضَىٰ بِمَا قَسَمَ اللهُ لَهُ وَقَضَاءُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ خَيْرٌ مِنْ قَضَاءِ الْمَرْءِ بِنَفْسِهِ، وَمَا قَضَىٰ اللهُ لَكَ يَا ابْنَ آدَمَ مِمَّا تَكْرَهُ، خَيْرٌ مِنْ قَضَائِكَ بِمَا تُحِبُّ، فَاتَّقِ اللهَ وَارْضَ بِقَضَائِهِ»، وثبَتَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٌ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: جَاءَتْنِي امْرَأَةٌ وَمَعَهَا ابْنَتَانِ لَهَا، فَسَأَلَتْنِي فَلَمْ تَجِدْ عِنْدِي غَيْرَ تَمْرَةٍ وَاحِدَةٍ، فَأَعْطَيْتُهَا إِيَّاهَا فَأَخَذَتْهَا فقَسَمَتْهَا بَيْنَ

ابْنَتَيْهَا وَلَمْ تَأْكُلْ مِنْهَا شَيْئًا، ثُمَّ قَامَتْ فَخَرَجَتْ وَابْنَتَاهَا، فَدَخَلَ عَلَيَّ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فحدثته ، حَدِيثَهَا، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « **مَنْ ابْتُلِيَ مِنَ الْبَنَاتِ بِشَيْءٍ فَأَحْسَنَ إِلَيْهِنَّ كُنَّ لَهُ سِتْرًا مِنَ النَّارِ**»[1] ، فَفِي هَذَا الْحَدِيثِ مَا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ الْبَنَاتِ بَلِيَّةٌ، ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّ فِي الصَّبْرِ عَلَيْهِنَّ وَالْإِحْسَانِ إِلَيْهِنَّ مَا يَقِي مِنَ النَّارِ، وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أَنَّهَا قَالَتْ: جَاءَتْنِي مِسْكِينَةٌ تَحْمِلُ ابْنَتَيْنِ لَهَا، فَأَطْعَمْتُهَا ثَلَاثَ تَمَرَاتٍ فَأَعْطَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا تَمْرَةً، وَرَفَعَتْ إِلَىٰ فِيهَا تَمْرَةً لِتَأْكُلَهَا فَاسْتَطْعَمَتْهَا ابْنَتَاهَا فَشَقَّتِ التَّمْرَةَ الَّتِي كَانَتْ تُرِيدُ أَنْ تَأْكُلَهَا بَيْنَهُمَا، فَأَعْجَبَنِي شَأْنُهَا، فَذَكَرْتُ الَّذِي صَنَعَتْ لِرَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ:« **إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ أَوْجَبَ لَهَا بِهَا الْجَنَّةَ أَوْ أَعْتَقَهَا بِهَا مِنَ النَّارِ**».

[٥٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿يَتَوَارَىٰ﴾ أَيْ: يَخْتَفِي، وَالتَّوَارِي: الِاخْتِفَاءُ مُشْتَقٌّ مِنَ الْوَرَاءِ وَهُوَ جِهَةُ الْخَلْفِ ، لِأَنَّهُ يَتَوَارَىٰ حَيَاءً مِنَ النَّاسِ فَيَبْقَىٰ مُتَوَارِيًا من قومه أَيَّامًا حَتَّىٰ تُنْسَىٰ قَضِيَّتُهُ.﴿مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ﴾ أَيْ مِنْ سُوءِ الْحُزْنِ وَالْعَارِ وَالْحَيَاءِ الَّذِي يَلْحَقُهُ بِسَبَبِ الْبِنْتِ، ﴿أَيُمْسِكُهُ﴾ ذَكَرَ الْكِنَايَةَ لِأَنَّهُ مَرْدُودٌ عَلَىٰ (مَا) ، قوله : ﴿عَلَىٰ هُونٍ﴾ أَيْ هَوَانٍ ، وَقِيلَ: يَرْجِعُ الْهَوَانُ إِلَىٰ الْبِنْتِ، أَيْ أَيُمْسِكُهَا وَهِيَ مُهَانَةٌ عِنْدَهُ. قَالَ قَتَادَةُ: كَانَ مُضَرُ وَخُزَاعَةُ يَدْفِنُونَ الْبَنَاتِ أَحْيَاءً، وَأَشَدُّهُمْ فِي هَذَا تَمِيمٌ. زَعَمُوا خَوْفَ الْقَهْرِ عَلَيْهِمْ وَطَمَعَ غَيْرِ الْأَكْفَاءِ فِيهِنَّ ،

---

(١) البخاري (١٤١٨) ومسلم (٢٦٢٩) .

﴿أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ﴾ أي: يخفيه فَيَئِدُهُ، وَذَلِكَ أَنْ مُضَرَ وَخُزَاعَةَ وَتَمِيمًا كَانُوا يَدْفِنُونَ الْبَنَاتِ أَحْيَاءً خَوْفًا مِنَ الْفَقْرِ عَلَيْهِمْ وَطَمَعِ غَيْرِ الْأَكْفَاءِ فِيهِنَّ، وَكَانَ الرَّجُلُ مِنَ الْعَرَبِ إِذَا وُلِدَتْ لَهُ بِنْتٌ وَأَرَادَ أَنْ يَسْتَحْيِيَهَا أَلْبَسَهَا جُبَّةً مِنْ صُوفٍ أَوْ شَعْرٍ وَتَرَكَهَا تَرْعَىٰ لَهُ الْإِبِلَ وَالْغَنَمَ فِي الْبَادِيَةِ وَإِذَا أَرَادَ أن يقتلها تركها حتىٰ صَارَتْ سُدَاسِيَّةً قَالَ: لِأُمِّهَا زَيِّنِيهَا حَتَّىٰ أَذْهَبَ بِهَا إِلَىٰ أَحْمَائِهَا، وَقَدْ حَفَرَ لَهَا بِئْرًا فِي الصَّحْرَاءِ فَإِذَا بَلَغَ بِهَا الْبِئْرَ قَالَ لَهَا: انْظُرِي إِلَىٰ هَذِهِ الْبِئْرِ، فَيَدْفَعُهَا مِنْ خَلْفِهَا فِي الْبِئْرِ ثُمَّ يُهِيلُ عَلَىٰ رَأْسِهَا التُّرَابَ حَتَّىٰ يَسْتَوِيَ الْبِئْرُ بِالْأَرْضِ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ﴾ وَقِيلَ: دَسُّهَا إِخْفَاؤُهَا عَنِ النَّاسِ حَتَّىٰ لَا تُعْرَفَ، كَالْمَدْسُوسِ فِي التُّرَابِ لِإِخْفَائِهِ عَنِ الْأَبْصَارِ، ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ بِئْسَ مَا يَقْضُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ وَلِأَنْفُسِهِمُ الْبَنِينَ.

[٦٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ يَعْنِي: لِهَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَصِفُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ وَلِأَنْفُسِهِمُ الْبَنِينَ ﴿مَثَلُ السَّوْءِ﴾ صِفَةُ السُّوءِ مِنَ الِاحْتِيَاجِ إِلَىٰ الْوَلَدِ وَكَرَاهِيَةِ الْإِنَاثِ وَقَتْلِهِنَّ خَوْفَ الفقر، ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ﴾ الصِّفَةُ الْعُلْيَا وَهِيَ التَّوْحِيدُ وَأَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، وَقِيلَ: جَمِيعُ صِفَاتِ الْجَلَالِ وَالْكَمَالِ مِنَ الْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ وَالْبَقَاءِ وَغَيْرِهَا مِنَ الصِّفَاتِ ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: مَثَلُ السوء النار والمثل الْأَعْلَىٰ شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ. ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ .

[٦١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ﴾ فَيُعَاجِلُهُمْ بِالْعُقُوبَةِ عَلَىٰ كُفْرِهِمْ وَعِصْيَانِهِمْ، ﴿مَا تَرَكَ عَلَيْهَا﴾ أَيْ: عَلَىٰ الْأَرْضِ، كِنَايَةٌ عَنْ غير

مذكور، ﴿مِنْ دَابَّةٍ﴾ قَالَ قَتَادَةُ فِي الْآيَةِ: قَدْ فعل الله ذلك من زَمَنِ نُوحٍ فَأَهْلَكَ مَنْ عَلَىٰ الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ كَانَ فِي سفينة نوح عليه السلام ، وقيل: إن مَعْنَىٰ الْآيَةِ لَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ آبَاءَ الظَّالِمِينَ بِظُلْمِهِمُ انْقَطَعَ النَّسْلُ وَلَمْ تُوجَدِ الْأَبْنَاءُ فَلَمْ يَبْقَ فِي الْأَرْضِ أَحَدٌ ، ﴿وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّىٰ﴾ يُمْهِلُهُمْ بِحِلْمِهِ إِلَىٰ أَجَلٍ، ﴿مُسَمًّىٰ﴾ إِلَىٰ مُنْتَهَىٰ آجَالِهِمْ وَانْقِطَاعِ أَعْمَارِهِمْ، قوله : ﴿فَإِذا جاءَ أَجَلُهُمْ﴾ أَيْ أَجَلِ مَوْتِهِمْ وَمُنْتَهَىٰ أعمارهم ، ﴿لا يَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ ، فَإِنْ قِيلَ: فَكَيْفَ يَعُمُّ بِالْهَلَاكِ مَعَ أَنَّ فِيهِمْ مُؤْمِنًا لَيْسَ بِظَالِمٍ؟ قِيلَ: يُجْعَلُ هَلَاكُ الظَّالِمِ انْتِقَامًا وَجَزَاءً، وَهَلَاكُ الْمُؤْمِنِ مُعَوَّضًا بِثَوَابِ الْآخِرَةِ ، وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: « **إِذَا أَرَادَ اللهُ بِقَوْمٍ عَذَابًا أَصَابَ الْعَذَابُ مَنْ كَانَ فِيهِمْ ثُمَّ بُعِثُوا عَلَىٰ نِيَّاتِهِمْ** »(1).

[٦٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾ لأنفسهم يعني البنات، ﴿وَتَصِفُ﴾ أَيْ: تَقُولُ: ﴿أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ﴾ قَالَ يَمَانٍ: يَعْنِي بِالْحُسْنَىٰ: الْجَنَّةَ فِي الْمَعَادِ، يَقُولُونَ: نَحْنُ فِي الْجَنَّةِ إِنْ كَانَ مُحَمَّدٌ صَادِقًا بِالْوَعْدِ فِي الْبَعْثِ، ﴿لَا جَرَمَ﴾ حَقًّا ، ﴿أَنَّ لَهُمُ النَّارَ﴾ في الآخرة ﴿وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ﴾ أَيْ: مَنْسِيُّونَ فِي النَّارِ، قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: مُبْعَدُونَ، وَقَالَ مُقَاتِلٌ: مَتْرُوكُونَ.

---

(١) البخاري (٧١٠٨) ومسلم (٢٨٧٩) .

[٦٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿تَاللهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ هَذِهِ الْأُمَّةِ، هَذَا تَسْلِيَةٌ لِلنَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأَنَّ مَنْ تَقَدَّمَهُ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ قَدْ كَفَرَ بِهِمْ قَوْمُهُمْ. ﴿فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ الخبيثة، ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ﴾ ناصرهم، ﴿الْيَوْمَ﴾ وَقَرِينُهُمْ سَمَّاهُ وَلِيًّا لَهُمْ لِطَاعَتِهِمْ إياه، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فِي الْآخِرَةِ.

[٦٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ مِنَ الدِّينِ وَالْأَحْكَامِ، ﴿وَهُدًىٰ وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أَيْ: مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا بَيَانًا وَهُدًىٰ وَرَحْمَةً فَالْهُدَىٰ وَالرَّحْمَةُ عَطْفٌ عَلَىٰ قَوْلِهِ (لِتُبَيِّنَ).

[٦٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَاللهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ يَعْنِي الْمَطَرَ، ﴿فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ﴾ بالنبات، ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ يُبُوسَتِهَا، ﴿ عَادَ الْكَلَامُ إِلَىٰ تَعْدَادِ النِّعَمِ وبيان كمال القدرة، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾ أي دلالة علىٰ البعث وعلىٰ وَحْدَانِيَّتِهِ، إِذْ عَلِمُوا أَنَّ مَعْبُودَهُمْ لَا يَسْتَطِيعُ شيئا، فتكون هذه الدلالة ﴿لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ عَنِ اللهِ تَعَالَىٰ بِالْقُلُوبِ لَا بِالْآذَانِ، (فَإِنَّها لَا تَعْمَىٰ الْأَبْصارُ وَلكِنْ تَعْمَىٰ الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ.

[٦٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً﴾ لعظة، ﴿نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ﴾ قَالَ الْفَرَّاءُ: رَدَّ الْكِنَايَةَ إِلَىٰ النَّعَمِ، وَالنَّعَمُ وَالْأَنْعَامُ وَاحِدٌ، وَلَفْظُ النَّعَمِ مُذَكَّرٌ قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ وَالْأَخْفَشُ: النَّعَمُ يُذَكَّرُ وَيُؤَنَّثُ فَمَنْ أنث فالمعنىٰ الْجَمْعِ وَمَنْ ذَكَّرَ فَلِحُكْمِ اللَّفْظِ، قَالَ الْكِسَائِيُّ: رَدَّهُ إِلَىٰ مَا يَعْنِي فِي بُطُونِ مَا ذَكَرْنَا،

﴿مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ﴾ وَهُوَ مَا فِي الْكَرِشِ مِنَ الثِّقْلِ فَإِذَا خَرَجَ مِنْهُ لَا يُسَمَّىٰ فَرْثًا، وَالْفَرْثُ: الْفَضَلَاتُ الَّتِي تَرَكَهَا الْهَضْمُ الْمُعْدِي فَتَنْحَدِرُ إِلَىٰ الْأَمْعَاءِ فَتَصِيرُ فَرْثًا، ﴿وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا﴾ مِنَ الدَّمِ وَالْفَرْثِ لَيْسَ عَلَيْهِ لَوْنُ دَمٍ وَلَا رَائِحَةُ فَرْثٍ، وَهَذَا الْوَصْفُ الْعَجِيبُ مِنْ مُعْجِزَاتِ الْقُرْآنِ الْعِلْمِيَّةِ، إِذْ هُوَ وَصْفٌ لَمْ يَكُنْ لِأَحَدٍ مِنَ الْعَرَبِ يَوْمَئِذٍ أَنْ يَعْرِفَ دَقَائِقَ تَكْوِينِهِ، وَلَا أَنْ يَأْتِيَ عَلَىٰ وَصْفِهِ بِمَا لَوْ وَصَفَ بِهِ الْعَالِمُ الطَّبِيعِيُّ لَمْ يَصِفْهُ بِأَوْجَزَ مِنْ هَذَا وَأَجْمَعِ، ﴿سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ﴾ هَنِيئًا يَجْرِي عَلَىٰ السُّهُولَةِ فِي الحلق. أَيْ لَذِيذًا هَيِّنًا لَا يُغَصُّ بِهِ مَنْ شَرِبَهُ، يُقَالُ: سَاغَ الشَّرَابُ يَسُوغُ سَوْغًا أَيْ سَهُلَ مَدْخَلُهُ فِي الْحَلْقِ، قال القرطبي: قَدْ جَعَلَهُ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَامَةً لِجِبْرِيلَ عَلَىٰ هِدَايَةِ هَذِهِ الْأُمَّةِ الَّتِي هِيَ خَيْرُ الْأُمَمِ أُمَّةً، فَقَالَ فِي الصَّحِيحِ: « **فَجَاءَنِي جِبْرِيلُ بِإِنَاءٍ مِنْ خَمْرٍ وَإِنَاءٍ مِنْ لَبَنٍ، فَاخْتَرْتُ اللَّبَنَ، فَقَالَ لِي جِبْرِيلُ: اخْتَرْتَ الْفِطْرَةَ، أَمَا إِنَّكَ لَوِ اخْتَرْتَ الْخَمْرَ غَوَتْ أُمَّتُكَ** »[1].

[٦٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ﴾ يَعْنِي: وَلَكُمْ أَيْضًا عِبْرَةٌ فِيمَا نُسْقِيكُمْ وَنَرْزُقُكُمْ مِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ والأعناب، ﴿تَتَّخِذُونَ مِنْهُ﴾ وَالْكِنَايَةُ فِي (مِنْهُ) عَائِدَةٌ إِلَىٰ (مَا) مَحْذُوفَةٌ، وقَالَ الطَّبَرِيُّ: التَّقْدِيرُ وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ مَا تَتَّخِذُونَ، فَحَذَفَ (مَا)، وَدَلَّ عَلَىٰ حَذْفِهِ قَوْلُهُ: (منه)، ﴿سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ قال قوم: السكر: الخمر، والرزق الْحَسَنُ الْخَلُّ وَالزَّبِيبُ

---

(١) البخاري (٣٨٨٧) ومسلم (١٦٨).

وَالتَّمْرُ ، قَالُوا: وَهَذَا قَبْلَ تَحْرِيمِ الْخَمْرِ، وَإِلَىٰ هَذَا ذَهَبَ ابْنُ مَسْعُودٍ وَابْنُ عُمَرَ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَالْحَسَنُ وَمُجَاهِدٌ، وَقَالَ الشَّعْبِيُّ: السَّكَرُ ما شربت والرزق الْحَسَنُ: مَا أَكَلْتَ، وَرَوَي عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّ السَّكَرَ هُوَ الْخَلُّ بِلُغَةِ الْحَبَشَةِ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: السَّكَرُ النَّبِيذُ الْمُسْكِرُ، وَهُوَ نَقِيعُ التَّمْرِ وَالزَّبِيبِ إِذَا اشْتَدَّ وَالْمَطْبُوخُ مِنَ الْعَصِيرِ، وَهُوَ قَوْلُ الضَّحَاكِ وَالنَّخَعِيِّ، وَمَنْ يُبِيحُ شُرْبَ النبيذ ومن حرم يَقُولُ: الْمُرَادُ مِنَ الْآيَةِ الْإِخْبَارُ لَا الْإِحْلَالُ وَأَوْلَىٰ الْأَقَاوِيلِ أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا﴾ مَنْسُوخٌ، رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: السَّكَرُ مَا حَرَّمَ مِنْ ثَمَرِهَا والرزق الْحَسَنُ مَا أَحَلَّ ، وَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: السَّكَرُ الطُّعْمُ يُقَالُ: هَذَا سَكَرٌ لَكَ أَيْ: طُعْمٌ، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ ، قَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ: أَسَدُّ، هَذِهِ الْأَقْوَالِ قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَيُخَرَّجُ ذَلِكَ عَلَىٰ أَحَدِ مَعْنَيَيْنِ، إِمَّا أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ قَبْلَ تَحْرِيمِ الْخَمْرِ، وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَىٰ: أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْكُمْ بِثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ مَا حَرَّمَ اللهُ عَلَيْكُمُ اعْتِدَاءً مِنْكُمْ، وَمَا أَحَلَّ لَكُمُ اتِّفَاقًا أَوْ قَصْدًا إِلَىٰ مَنْفَعَةِ أَنْفُسِكُمْ. وَالصَّحِيحُ أَنَّ ذَلِكَ كَانَ قَبْلَ تَحْرِيمِ الْخَمْرِ فَتَكُونُ مَنْسُوخَةً، فَإِنَّ هَذِهِ الْآيَةَ مَكِّيَّةٌ بِاتِّفَاقٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ، وَتَحْرِيمَ الْخَمْرِ مَدَنِيٌّ. قُلْتُ: فَعَلَىٰ أن السكر الخمر أَوِ الْعَصِيرُ الْحُلْوُ لَا نَسْخَ، وَتَكُونُ الْآيَةُ مُحْكَمَةٌ وَهُوَ حَسَنٌ.

[٦٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَىٰ النَّحْلِ﴾ أَيْ: أَلْهَمَهَا وَقَذَفَ فِي أَنْفُسِهَا فَفَهِمَتْهُ، والنَّحْلِ: اسْمُ جِنْسٍ جَمْعِيٍّ، وَاحِدُهُ نَحْلَةٌ، الحشرة المعروفة ،

قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: الْمُرَادُ بِالْوَحْيِ هَا هُنَا: الْإِلْهَامُ وَالْهِدَايَةُ وَالْإِرْشَادُ إِلَىٰ النَّحْلِ أَنْ تَتَّخِذَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا تَأْوِي إِلَيْهَا، ﴿وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾، ثُمَّ هِيَ مُحْكَمَةٌ فِي غَايَةِ الْإِتْقَانِ فِي تَسْدِيدِهَا وَرَصِّهَا، بِحَيْثُ لَا يَكُونُ بَيْنَهَا خَلَلٌ، ثُمَّ أَذِنَ لَهَا تَعَالَىٰ إِذْنًا قَدَرِيًّا تَسْخِيرِيًّا أَنْ تَأْكُلَ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ، وَأَنْ تَسْلُكَ الطُّرُقَ الَّتِي جَعَلَهَا اللهُ تَعَالَىٰ لَهَا مُذَلَّلَةً، أَيْ: سَهْلَةً عَلَيْهَا حَيْثُ شَاءَتْ فِي هَذَا الْجَوِّ الْعَظِيمِ وَالْبَرَارِي الشَّاسِعَةِ، وَالْأَوْدِيَةِ وَالْجِبَالِ الشَّاهِقَةِ، ثُمَّ تَعُودُ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا إِلَىٰ مَوْضِعِهَا وَبَيْتِهَا، لَا تَحِيدُ عَنْهُ يَمْنَةً وَلَا يَسْرَةً، بَلْ إِلَىٰ بَيْتِهَا وَمَا لَهَا فِيهِ مِنْ فِرَاخٍ وَعَسَلٍ، فَتَبْنِي الشَّمْعَ فِي أَجْنِحَتِهَا، وَتَقِيءُ الْعَسَلَ مِنْ فِيهَا، وَتَبِيضُ الْفِرَاخَ مِنْ دُبُرِهَا، ثُمَّ تُصْبِحُ إِلَىٰ مَرَاعِيهَا ﴿أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ يَبْنُونَ، وَقَدْ جَرَتِ الْعَادَةُ أَنَّ أَهْلَهَا يَبْنُونَ لَهَا الْأَمَاكِنَ فَهِيَ تَأْوِي إِلَيْهَا، قَالَ ابْنُ زَيْدٍ: هِيَ الْكُرُومُ، قَالَ ابن عاشور: وَأُشِيرَ إِلَىٰ أَنَّهَا تُتَّخَذُ فِي أَحْسَنِ الْبِقَاعِ مِنَ الْجِبَالِ أَوِ الشَّجَرِ أَوِ الْعَرْشِ دُونَ بُيُوتِ الْحَشَرَاتِ الْأُخْرَىٰ، وَذَلِكَ لِشَرَفِهَا بِمَا تَحْتَوِيهِ مِنَ الْمَنَافِعِ، وَبِمَا تَشْتَمِلُ عَلَيْهِ مِنْ دَقَائِقِ الصَّنْعَةِ أَلَا تَرَىٰ إِلَىٰ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ فِي ضِدِّهَا: ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ﴾ [الْعَنْكَبُوتِ: ٤١].

[٦٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ وَذَلِكَ أَنَّهَا إِنَّمَا تَأْكُلُ النُّوَّارَ مِنَ الْأَشْجَارِ، ﴿فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ﴾ أَيْ طُرُقَ رَبِّكِ، وَالسُّبُلُ: الطُّرُقُ، وَأَضَافَهَا إِلَيْهِ لِأَنَّهُ خَالِقُهَا. أَيِ ادْخُلِي طُرُقَ رَبِّكِ لِطَلَبِ الرِّزْقِ فِي الْجِبَالِ وَخِلَالِ الشَّجَرِ،

﴿ذُلُلًا﴾ جَمْعُ ذَلُولٍ وَهُوَ الْمُنْقَادُ، أَيْ مُطِيعَةً مُسَخَّرَةً. فـ ﴿ ذُلُلًا﴾ حَالٌ مِنَ النَّحْلِ، أَيْ تَنْقَادُ وَتَذْهَبُ حَيْثُ شَاءَ صَاحِبُهَا، لِأَنَّهَا تَتْبَعُ أَصْحَابَهَا حَيْثُ ذَهَبُوا، قَالَهُ ابْنُ زَيْدٍ ، وَقِيلَ: الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ ﴿ ذُلُلًا﴾ السُّبُلِ، وَقَالَ آخَرُونَ: الذُّلُلُ نَعْتُ النِّحَلِ، أَيْ: مُطِيعَةٌ مُنْقَادَةٌ بِالتَّسْخِيرِ، يُقَالُ: إِنَّ أَرْبَابَهَا يَنْقُلُونَهَا مِنْ مَكَانٍ إِلَىٰ مَكَانٍ وَلَهَا يَعْسُوبٌ إِذَا وَقَفَ وَقَفَتْ وَإِذَا سَارَ سَارَتْ، ﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ﴾ يعني: العسل ﴿مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ﴾ أَبْيَضُ وَأَحْمَرُ وَأَصْفَرُ. ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾ أَيْ: فِي الْعَسَلِ وَقَالَ مُجَاهِدٌ: أَيْ فِي الْقُرْآنِ وَالْأَوَّلُ أُولَىٰ، وأخرج البخاري ومسلم عن عائشة: « أن رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم كَانَ يُعْجِبُهُ الْحَلْوَاءُ وَالْعَسَلُ »(١) ، قوله : ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فَيَعْتَبِرُونَ، قال الزهري: عليك بالعسل، فإنه جيد للحفظ، وأجوده أصْفاه وأبْيَضُه، وألينُه حِدة، وأصدقه حلاوة، وما يُؤْخَذُ من الجبال والشجر له فضل علىٰ ما يؤخذ من الخلايا، وهو بحسب مرعىٰ نحله.

[٧٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَاللهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ﴾ صبيانـًا أو شبانـًا ، قوله: ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ﴾ أَرْدَئِهِ قَالَ مُقَاتِلٌ: يَعْنِي الْهَرَمَ ، فَأَرْذَلُ الْعُمُرِ هُوَ حَالُ هَرَمِ الْبَدَنِ وَضَعْفِ الْعَقْلِ، وَهُوَ حَالٌ فِي مُدَّةِ الْعُمُرِ، قَالَ قَتَادَةُ: أَرْذَلُ الْعُمُرِ: تِسْعُونَ سَنَةً وقال أمير المؤمنين عَلِيٌّ رضي الله عنه : أرذل العمر: خمس

---

(١) البخاري (٥٤٣١) ومسلم (١٤٧٤) .

وسبعون، وَقِيلَ: ثَمَانُونَ سَنَةً، ﴿لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ لِكَيْلَا يَعْقِلَ بَعْدَ عَقْلِهِ الْأَوَّلِ شَيْئًا، ﴿إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾.

[٧١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَاللهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ﴾ بَسَطَ عَنْ وَاحِدٍ وَضَيَّقَ عَلَىٰ الْآخَرِ وَقَلَّلَ وَكَثَّرَ، ﴿فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ مِنَ الْعَبِيدِ، ﴿فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ﴾ أَيْ: حَتَّىٰ يَسْتَوُوا هُمْ وَعَبِيدُهُمْ فِي ذَلِكَ، يَقُولُ اللهُ تَعَالَىٰ: لَا يَرْضَوْنَ أَنْ يَكُونُوا هُمْ وَمَمَالِيكُهُمْ فِيمَا رَزَقَهُمُ اللهُ سَوَاءً وَقَدْ جَعَلُوا عَبِيدِي شُرَكَائِي فِي مُلْكِي وَسُلْطَانِي يُلْزِمُ بِهِ الْحُجَّةَ عَلَىٰ الْمُشْرِكِينَ، قَالَ قَتَادَةُ: هَذَا مَثَلٌ ضَرَبَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فَهَلْ مِنْكُمْ أَحَدٌ يَشْرِكُهُ مَمْلُوكُهُ فِي زَوْجَتِهِ وَفِرَاشِهِ وَمَالِهِ أَفَتَعْدِلُونَ بِاللهِ خَلْقَهُ وَعِبَادَهُ. ﴿أَفَبِنِعْمَةِ اللهِ يَجْحَدُونَ﴾ بالإشراك به.

[٧٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَاللهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ يَعْنِي: النِّسَاءَ خَلَقَ مِنْ آدَمَ وزوجته حَوَّاءَ، وَقِيلَ: مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَيْ: مِنْ جِنْسِكُمْ أَزْوَاجًا، ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾ قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ وَالنَّخَعِيُّ: الْحَفَدَةُ أَخْتَانُ الرَّجُلِ عَلَىٰ بَنَاتِهِ، وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ أَيْضًا أَنَّهُمُ الْأَصْهَارُ، وَقَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ: الْأَظْهَرُ عِنْدِي فِي قَوْلِهِ: ﴿بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾ أَنَّ الْبَنِينَ أَوْلَادُ الرَّجُلِ لِصُلْبِهِ وَالْحَفَدَةَ أَوْلَادُ وَلَدِهِ، وَلَيْسَ فِي قُوَّةِ اللَّفْظِ أَكْثَرَ مِنْ هَذَا، قال ابن عاشور: وَالْحَافِدُ أَصْلُهُ الْمُسْرِعُ فِي الْخِدْمَةِ، وَأُطْلِقَ عَلَىٰ ابْنِ الِابْنِ لِأَنَّهُ يَكْثُرُ أَنْ يَخْدِمَ جَدَّهُ لِضَعْفِ الْجَدِّ بِسَبَبِ الْكِبَرِ، ﴿وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ من النعم الحلال،

﴿أَفَبِالْبَاطِلِ﴾ يعني الأصنام، ﴿يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ يَعْنِي التَّوْحِيدَ وَالْإِسْلَامَ، وَقِيلَ: الْبَاطِلُ الشَّيْطَانُ أَمَرَهُمْ بِتَحْرِيمِ الْبَحِيرَةِ وَالسَّائِبَةِ، وبنعمة اللهِ أَيْ بِمَا أَحَلَّ اللهُ لهم يكفرون يجحدون تحليله.

[٧٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَاوَاتِ﴾ يعني المطر، وَلَا إِنْبَاتِ زَرْعٍ ولا شجر، ولا يملكون ذلك لأنفسهم، أَيْ لَيْسَ لَهُمْ ذَلِكَ وَلَا يَقْدِرُونَ عَلَيْهِ لَوْ أَرَادُوهُ، ﴿وَالْأَرْضِ﴾ يعني النبات، ﴿شَيْئًا﴾ قَالَ الْأَخْفَشُ: مَعْنَاهُ أَنَّهُمْ لَا يَمْلِكُونَ مِنْ أَمْرِ الرِّزْقِ شَيْئًا قَلِيلًا وَلَا كَثِيرًا، وَقَالَ الْفَرَّاءُ: أَيْ لَا يَرْزُقُ شَيْئًا، ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ لَا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ» بِذِكْرِ عَجْزِ الْأَصْنَامِ عَنْ إِيصَالِ نَفْعٍ أَوْ دَفْعِ ضُرٍّ، قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ: مَنْ شَبَّهَ اللهَ بِخَلْقِهِ فَقَدْ كَفَرَ، وَمَنْ جَحَدَ مَا وَصَفَ اللهُ بِهِ نَفْسَهُ فَقَدْ كَفَرَ، وَلَيْسَ مَا وَصَفَ اللهُ بِهِ نَفْسَهُ أَوْ وَصَفَهُ بِهِ رَسُولُهُ تَشْبِيهًا، فَالْمُشَبِّهُ يَعْبُدُ صَنَمًا، وَالْمُعَطِّلُ يَعْبُدُ عَدَمًا، وَالْمُوَحِّدُ يَعْبُدُ إِلَهًا وَاحِدًا صَمَدًا.

[٧٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ يَعْنِي الْأَشْبَاهَ فَتُشَبِّهُونَهُ بِخَلْقِهِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ شَرِيكًا فَإِنَّهُ وَاحِدٌ لَا مِثْلَ لَهُ، ﴿إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ خَطَأَ مَا تَضْرِبُونَ مِنَ الْأَمْثَالِ، ثم ضرب مثلا للمؤمن والكافر، فَقَالَ جَلَّ ذِكْرُهُ، قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ :إِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ أَجَلُّ وَأَعْظَمُ وَأَكْبَرُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ فِي فِطَرِ النَّاسِ كُلِّهِمْ، وَلَكِنَّ الْمُشَبِّهُونَ الْمُشْرِكُونَ يَغْلُونَ فِيمَنْ يُعَظِّمُونَهُ،

فَيُشَبِّهُونَهُمْ بِالْخَالِقِ، وَاللهُ تَعَالَىٰ أَجَلُّ فِي صُدُورِ جَمِيعِ الْخَلْقِ مِنْ أَنْ يَجْعَلُوا غَيْرَهُ أَصْلًا، ثُمَّ يُشَبِّهُونَهُ سُبْحَانَهُ بِغَيْرِهِ.

[٧٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا﴾ نَبَّهَ تَعَالَىٰ عَلَىٰ ضَلَالَةِ الْمُشْرِكِينَ، وَهُوَ مُنْتَظِمٌ بِمَا قَبْلَهُ مِنْ ذِكْرِ نِعَمِ اللهِ عَلَيْهِمْ وَعُدْمِ مِثْلِ ذَلِكَ مِنْ آلِهَتِهِمْ، ﴿ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا﴾ أَيْ بَيَّنَ شَبهًا، ثُمَّ ذَكَرَ ذَلِكَ فَقَالَ: ﴿عَبْداً مَمْلُوكًا﴾ أَيْ كَمَا لَا يَسْتَوِي عِنْدَكُمْ عَبْدٌ مَمْلُوكٌ لَا يَقْدِرُ مِنْ أمره علىٰ شي وَرَجُلٌ حُرٌّ قَدْ رُزِقَ رِزْقًا حَسَنًا فَكَذَلِكَ أَنَا وَهَذِهِ الْأَصْنَامُ ، فَالَّذِي هُوَ مِثَالٌ فِي هَذِهِ الْآيَةِ هُوَ عَبْدٌ بِهَذِهِ الصِّفَةِ مَمْلُوكٌ لا يقدر علىٰ شي مِنَ الْمَالِ وَلَا مِنْ أَمْرِ نَفْسِهِ، وَإِنَّمَا هُوَ مُسَخَّرٌ بِإِرَادَةِ سَيِّدِهِ، وَقَالَ قَتَادَةُ: هَذَا الْمَثَلُ لِلْمُؤْمِنِ وَالْكَافِرِ، فَذَهَبَ قَتَادَةُ إِلَىٰ أَنَّ الْعَبْدَ الْمَمْلُوكَ هُوَ الْكَافِرُ، لِأَنَّهُ لَا يَنْتَفِعُ فِي الْآخِرَةِ بِشَيْءٍ مِنْ عِبَادَتِهِ، ﴿وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا﴾ هَذَا مَثَلُ الْمُؤْمِنِ أَعْطَاهُ اللهُ مَالًا فَعَمِلَ فِيهِ بِطَاعَةِ اللهِ وَأَنْفَقَهُ فِي رِضَاءِ اللهِ سِرًّا وَجَهْرًا فَأَثَابَهُ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ ، قوله : ﴿هَلْ يَسْتَوُونَ﴾ ولم يقل هل يَسْتَوِيَانِ لِمَكَانِ (مِنْ) وَهُوَ اسْمٌ يَصْلُحُ لِلْوَاحِدِ وَالِاثْنَيْنِ وَالْجَمْعِ، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ : ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ بِالْجَمْعِ لِأَجْلِ من، مَعْنَاهُ: هَلْ يَسْتَوِي هَذَا الْفَقِيرُ الْبَخِيلُ وَالْغَنِيُّ السَّخِيُّ كَذَلِكَ لَا يستوي الكافر العامي والمؤمن المطيع، ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يقول ليس الأمر كما يقولون مَا لِلْأَوْثَانِ عِنْدَهُمْ مِنْ يَدٍ وَلَا مَعْرُوفٍ فَتُحْمَدُ عَلَيْهِ إِنَّمَا الْحَمْدُ الْكَامِلُ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لِأَنَّهُ الْمُنْعِمُ وَالْخَالِقُ وَالرَّازِقُ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ الْكُفَّارِ لَا يَعْلَمُونَ، قال

القرطبي : وَذَكَرَ الْأَكْثَرُ وَهُوَ يُرِيدُ الْجَمِيعَ، فَهُوَ خَاصٌّ أُرِيدَ بِهِ التَّعْمِيمَ. وَقِيلَ: أَيْ بَلْ أَكْثَرُ الْخَلْقِ لَا يَعْلَمُونَ، وذلك أن أكثرهم المشركون. ثُمَّ ضَرَبَ مَثَلًا لِلْأَصْنَامِ فَقَالَ:

[٧٦] : ﴿وَضَرَبَ اللهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَاهُ﴾ كَلٌّ ثِقَلٌ وَوَبَالٌ عَلَىٰ مَوْلَاهُ ابْنِ عَمِّهِ وَأَهْلِ وِلَايَتِهِ، وَالْأَبْكَمُ الَّذِي لَا نُطْقَ لَهُ، وَقِيلَ الَّذِي لَا يَعْقِلُ ، وَقِيلَ الَّذِي لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ، ﴿أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ﴾ يرسله، ﴿لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾ لِأَنَّهُ لَا يَفْهَمُ مَا يُقَالُ لَهُ وَلَا يُفْهَمُ عَنْهُ، هَذَا مَثَلُ الْأَصْنَامِ لَا تَسْمَعُ وَلَا تَنْطِقُ وَلَا تَعْقِلُ، ﴿وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَاهُ﴾ عَابِدِهِ يَحْتَاجُ إِلَىٰ أَنْ يَحْمِلَهُ وَيَضَعَهُ وَيَخْدِمَهُ، ﴿هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾ يعني: الله فإنه قَادِرٌ مُتَكَلِّمٌ يَأْمُرُ بِالتَّوْحِيدِ، ﴿وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ قَالَ الْكَلْبِيُّ: يَعْنِي يَدُلُّكُمْ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ، وَقِيلَ: هُوَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ، وَقِيلَ: كِلَا الْمِثْلَيْنِ لِلْمُؤْمِنِ وَالْكَافِرِ، يَرْوِىٰ عَنِ ابْنِ عباس قال عَطَاءٌ: الْأَبْكَمُ أُبَيُّ بْنُ خَلَفٍ، وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ: حَمْزَةُ وَعُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ وَعُثْمَانُ بْنُ مَظْعُونٍ ، وَقَالَ مُقَاتِلٌ: نَزَلَتْ فِي هَاشِمِ بن عمرو بن الحرث بْنِ رَبِيعَةَ الْقُرَشِيِّ، وَكَانَ قَلِيلَ الْخَيْرِ يُعَادِي رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَقِيلَ: نَزَلَتْ فِي عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ وَمَوْلَاهُ، كَانَ عُثْمَانُ يُنْفِقُ عَلَيْهِ وَكَانَ مَوْلَاهُ يَكْرَهُ الْإِسْلَامَ.

[٧٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ﴾ فِي قُرْبِ كَوْنِهَا، وأَمْرُ السَّاعَةِ: شَأْنُهَا الْعَظِيمُ. فَالْأَمْرُ: الشَّأْنُ الْمُهِمُّ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللهِ ﴾[سُورَة النَّحْل: ١] ، وَقَوْلُ أَبِي بَكْرٍ- رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-: «مَا جَاءَ بِهِ فِي هَذِهِ السَّاعَةِ إِلَّا أَمْرٌ» ، أَيْ شَأْنٌ وَخَطْبٌ، والسَّاعَةِ: عِلْمٌ بِالْغَلَبَةِ عَلَىٰ وَقت فنَاء هَذَا الْعَالَمِ، وَهِيَ مِنْ جُمْلَةِ غَيْبِ الْأَرْضِ. وقال الطبري : يقول تعالىٰ ذكره: ولله أيها الناس مِلك ما غابَ عن أبصاركم في السماوات والأرض دون آلهتكم التي تدعون من دونه، ودون كل ما سواه، لا يملك ذلك أحد سواه ، قوله : ﴿إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ﴾ إِذَا قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ، لِأَنَّ لَمْحَ الْبَصَرِ هُوَ أَمْكَنُ وَأَسْرَعُ حَرَكَاتِ الْجَوَارِحِ فَهُوَ أَيْسَرُ وَأَسْرَعُ مِنْ نَقْلِ الْأَرْجُلِ فِي الْمَشْيِ وَمِنَ الْإِشَارَةِ بِالْيَدِ. ﴿أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ بَلْ هُوَ أَقْرَبُ، ﴿إِنَّ اللهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ نَزَلَتْ فِي الْكُفَّارِ الَّذِينَ يَسْتَعْجِلُونَ القيامة استهزاء.

[٧٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَاللهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾ قال القرطبي : ذَكَرَ أَنَّ مِنْ نِعَمِهِ أَنْ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ أَطْفَالًا لَا عِلْمَ لَكُمْ بِشَيْءٍ، وَفِيهِ ثَلَاثَةُ أَقَاوِيلَ:

أَحَدُهَا- لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا مِمَّا أُخِذَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْمِيثَاقِ فِي أَصْلَابِ آبَائِكُمْ.

الثَّانِي- لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا مِمَّا قُضِيَ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّعَادَةِ وَالشَّقَاءِ.

الثَّالِثُ- لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا مِنْ مَنَافِعِكُمْ، وتم الكلام.

ثُمَّ ابْتَدَأَ فَقَالَ: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾ والْأَفْئِدَةَ: جَمعَ الْفُؤَادِ، وَأَصْلُهُ الْقَلْبُ، وَيُطْلَقُ كَثِيرًا عَلَىٰ الْعَقْلِ وَهُوَ الْمُرَادُ هُنَا ؛ لِأَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ جَعَلَ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ لَهُمْ قَبْلَ الْخُرُوجِ مِنْ بُطُونِ الْأُمَّهَاتِ ، وَإِنَّمَا أَعْطَاهُمُ الْعِلْمَ بعد الخروج، والسَّمْعُ وَالْبَصَرُ أَعْظَمُ آلَاتِ الْإِدْرَاكِ إِذْ بِهِمَا إِدْرَاكُ أَهَمِّ الْجُزْئِيَّاتِ، وَهُمَا أَقْوَىٰ الْوَسَائِلِ لِإِدْرَاكِ الْعُلُومِ الضَّرُورِيَّةِ. ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ نِعْمَةُ كَوْنِ السَّمْعِ وَالْأَبْصَارِ وَالْأَفْئِدَةِ قَبْلَ الْخُرُوجِ؛ إِذْ يَسْمَعُ الطِّفْلُ وَيُبْصِرُ وَلَا يَعْلَمُ، وَهَذِهِ الْجَوَارِحُ مِنْ غَيْرِ هَذِهِ الصِّفَاتِ كَالْمَعْدُومِ، كَمَا قَالَ فِيمَنْ لَا يَسْمَعُ الْحَقَّ وَلَا يُبْصِرُ الْعِبَرَ وَلَا يَعْقِلُ الثَّوَابَ: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٨] لَا يَشْكُرُونَ نِعَمَهُ، وَقَدْ أَخْرَجَ الطَّبَرَانِيُّ بِسَنَدٍ حَسَنٍ عَنْ أَبِي أُمَامَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صلىٰ الله عليه وسلمك قَالَ: « **مَا أَنْعَمَ اللهُ عَلَىٰ عَبْدٍ نِعْمَةً فَحَمِدَ اللهَ عَلَيْهَا ، إِلَّا كَانَ ذَلِكَ الْحَمْدُ أَفْضَلَ مِنْ تِلْكَ النِّعْمَةِ** »(١).

[٧٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿أَلَمْ يَرَوْا﴾ قَرَأَ ابْنُ عَامِرٍ وَحَمْزَةُ وَيَعْقُوبُ بِالتَّاءِ وَالْبَاقُونَ بِالْيَاءِ لِقَوْلِهِ: ﴿وَيَعْبُدُونَ﴾ ، قوله : ﴿إِلَىٰ الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ﴾ مُذَلَّلَاتٍ لِأَمْرِ اللهِ تَعَالَىٰ، وَقِيلَ:﴿مُسَخَّراتٍ﴾ مذللات لمنافعكم، وَالتَّسْخِيرُ: التَّذْلِيلُ لِلْعَمَلِ، ﴿فِي جَوِّ السَّمَاءِ﴾ الْجَوُّ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَأَضَافَ الْجَوَّ إِلَىٰ السَّمَاءِ لِارْتِفَاعِهِ عَنِ الأرض، ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللهُ﴾ فِي حَالِ الْقَبْضِ وَالْبَسْطِ

---

(١) ابن ماجه (٣٨٠٥) .

وَالِاصْطِفَافِ ، بَيَّنَ لَهُمْ كَيْفَ يَعْتَبِرُونَ بِهَا عَلَىٰ وَحْدَانِيَّتِهِ ، وَالْمُرَادُ هُنَا: مَا يُمْسِكُهُنَّ عَنِ السُّقُوطِ إِلَىٰ الْأَرْضِ مِنْ دُونِ إِرَادَتِهَا، وَإِمْسَاكُ اللهِ إِيَّاهَا خَلْقُهُ الْأَجْنِحَةَ لَهَا وَالْأَذْنَابَ، وَجَعْلُهُ الْأَجْنِحَةَ وَالْأَذْنَابَ قَابِلَةً لِلْبَسْطِ، وَخَلْقُ عِظَامِهَا أَخَفَّ مِنْ عِظَامِ الدَّوَابِّ بِحَيْثُ إِذَا بَسَطَتْ أَجْنِحَتَهَا وَأَذْنَابَهَا وَنَهَضَتْ بِأَعْصَابِهَا خَفَّتْ خِفَّةً شَدِيدَةً فَسَبَحَتْ فِي الْهَوَاءِ فَلَا يَصْلُحُ ثِقَلُهَا لِأَنْ يَخرِقَ مَا تَحْتَهَا مِنَ الْهَوَاءِ إِلَّا إِذَا قَبَضَتْ مِنْ أَجْنِحَتِهَا وَأَذْنَابِهَا وَقَوَّسَتْ أَعْصَابَ أَصْلَابِهَا عِنْدَ إِرَادَتِهَا النُّزُولَ إِلَىٰ الْأَرْضِ أَوِ الِانْخِفَاضَ فِي الْهَوَاءِ. فَهِيَ تَحُومُ فِي الْهَوَاءِ كَيْفَ شَاءَتْ ثُمَّ تَقَعُ مَتَىٰ شَاءَتْ أَوْ تعبت ﴿إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآياتٍ﴾ أَيْ عَلَامَاتٍ وَعِبَرًا وَدَلَالَاتٍ، ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ بِاللهِ وَبِمَا جاءت به رسلهم.

[٨٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَاللهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ﴾ ، (جَعَلَ لَكُمْ) مَعْنَاهُ صَيَّرَ. وَكُلُّ مَا عَلَاكَ فَأَظَلَّكَ فَهُوَ سَقْفٌ وَسَمَاءٌ، وَكُلُّ مَا أَقَلَّكَ فَهُوَ أَرْضٌ، وَكُلُّ مَا سَتَرَكَ مِنْ جِهَاتِكَ الْأَرْبَعِ فَهُوَ جِدَارٌ، فَإِذَا انْتَظَمَتْ وَاتَّصَلَتْ فَهُوَ بَيْتٌ. وَهَذِهِ الْآيَةُ فِيهَا تَعْدِيدُ نِعَمِ اللهِ تَعَالَىٰ عَلَىٰ النَّاسِ فِي الْبُيُوتِ، فَذَكَرَ أَوَّلًا بُيُوتَ الْمُدُنِ وَهِيَ الَّتِي لِلْإِقَامَةِ الطَّوِيلَةِ ، ﴿سَكَنًا﴾ أَيْ تَسْكُنُونَ فِيهَا وَتَهْدَأُ جَوَارِحُكُمْ مِنَ الْحَرَكَةِ، وَقَدْ تَتَحَرَّكُ فِيهِ وَتَسْكُنُ فِي غَيْرِهِ، إِلَّا أَنَّ الْقَوْلَ خَرَجَ عَلَىٰ الْغَالِبِ. وَعَدَّ هَذَا فِي جُمْلَةِ النِّعَمِ فَإِنَّهُ لَوْ شَاءَ خَلَقَ الْعَبْدَ مُضْطَرِبًا أَبَدًا كَالْأَفْلَاكِ لَكَانَ ذَلِكَ كَمَا خَلَقَ وَأَرَادَ، لَوْ خَلَقَهُ سَاكِنًا كَالْأَرْضِ لَكَانَ كَمَا خَلَقَ وَأَرَادَ، وَلَكِنَّهُ أَوْجَدَهُ خَلْقًا يَتَصَرَّفُ لِلْوَجْهَيْنِ، وَيَخْتَلِفُ حَالُهُ بَيْنَ الْحَالَتَيْنِ، وَرَدَّدَهُ كَيْفَ

وَأَيْنَ. ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا﴾ يَعْنِي الْخِيَامَ وَالْقِبَابَ من الجلود ﴿تَسْتَخِفُّونَهَا﴾ أَيْ: يَخِفُّ عَلَيْكُمْ حَمْلُهَا، ﴿يَوْمَ ظَعْنِكُمْ﴾ رحلتكم في سفركم، الظَّعْنُ﴾ هو السفر وَأَطْلَقَ الْيَوْمَ عَلَىٰ الْحِينِ وَالزَّمَنِ، أَيْ وَقْتَ سَفَرِكُمْ، ﴿وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ﴾ فِي بَلَدِكُمْ لَا تَثْقُلُ عَلَيْكُمْ فِي الْحَالَيْنِ، ﴿وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا﴾ يَعْنِي أَصْوَافَ الضَّأْنِ وَأَوْبَارَ الْإِبِلِ أشعار المعز، والكناية راجعة إلىٰ الأنعام، قال القرطبي : أَذِنَ اللهُ سُبْحَانَهُ بِالِانْتِفَاعِ بِصُوفِ الْغَنَمِ وَوَبَرِ الْإِبِلِ وَشَعْرِ الْمَعْزِ، كَمَا أَذِنَ فِي الْأَعْظَمِ، وَهُوَ ذَبْحُهَا وَأَكْلُ لُحُومِهَا، وَلَمْ يَذْكُرِ الْقُطْنَ وَالْكَتَّانَ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِي بِلَادِ الْعَرَبِ الْمُخَاطَبِينَ بِهِ، وَإِنَّمَا عَدَّدَ عَلَيْهِمْ مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِمْ، وَخُوطِبُوا فِيمَا عَرَفُوا بِمَا فَهِمُوا، ﴿أَثَاثًا﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: مَالًا، قَالَ مُجَاهِدٌ: مَتَاعًا، قَالَ الْقُتَيْبِيُّ: الْأَثَاثُ المال جميعه من الإبل والغنم وَالْمَتَاعِ، اسْمُ جَمْعٍ لِلْأَشْيَاءِ الَّتِي تُفْرَشُ فِي الْبُيُوتِ مِنْ وَسَائِدَ وَبُسُطٍ وَزَرَابِيٍّ، وَكُلُّهَا تُنْسَجُ أَوْ تُحْشَىٰ بِالْأَصْوَافِ وَالْأَشْعَارِ وَالْأَوْبَارِ، ﴿وَمَتَاعًا﴾ بَلَاغًا يَنْتَفِعُونَ بِهَا، فوالْمَتَاعُ: مَا يُتَمَتَّعُ بِهِ وَيُنْتَفَعُ، وَهُوَ مُشْتَقٌّ مِنَ الْمُتَعِ، وَهُوَ الذَّهَابُ بِالشَّيْءِ، وَلِمُلَاحَظَةِ اشْتِقَاقِهِ تَعَلَّقَ بِهِ إِلَىٰ حِينٍ. ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ يعني إلىٰ حين الْمَوْتَ، وَقِيلَ: إِلَىٰ حِينِ تَبْلَىٰ.

[٨١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَاللهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا﴾ تَسْتَظِلُّونَ بِهَا مِنْ شِدَّةِ الْحَرِّ وَهِيَ ظِلَالُ الْأَبْنِيَةِ وَالْأَشْجَارِ؛ لِأَنَّ الظِّلَالَ آثَارُ حَجْبِ الْأَجْسَامِ ضَوْءَ الشَّمْسِ مِنَ الْوُقُوعِ عَلَىٰ الْأَرْضِ، ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا﴾ الأكنان أَيْ

مَكْنُونٍ فِيهِ، وَهِيَ المغارات وَالْكُهُوفُ، وَاحِدُهَا كُنٌّ ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ﴾ قُمُصًا مِنَ الْكَتَّانِ وَالْقَزِّ وَالْقُطْنِ والصوف ، وَالسَّرَابِيلُ: جَمْعُ سِرْبَالٍ، وَهُوَ الْقَمِيصُ يَقِي الْجَسَدَ حَرَّ الشَّمْسِ، كَمَا يَقِيهِ الْبَرْدَ، ﴿تَقِيكُمُ﴾ تمنعكم ﴿الْحَرَّ﴾ قَالَ أَهْلُ الْمَعَانِي: أَرَادَ الْحَرَّ والبرد اكتفاء بِذِكْرِ أَحَدِهِمَا لِدَلَالَةِ الْكَلَامِ عَلَيْهِ، ﴿وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ﴾ يَعْنِي: الدُّرُوعَ وَالْبَأْسُ: الْحَرْبُ يَعْنِي تَقِيكُمْ فِي بَأْسِكُمُ السِّلَاحَ أَنْ يُصِيبَكُمْ ، أَيْ تَقِي بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ، كَمَا فَسَّرَ بِهِ قَوْلَهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾ [الْأَنْعَام: ٦٥] ، قوله : ﴿كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ تخلصون له الطاعة ، وجاءت لعل هنا لِلرَّجَاءِ، أَيْ رَغْبَةٌ فِي أَنْ تُسْلِمُوا، أَيْ تَتَّبِعُوا دِينَ الْإِسْلَامِ الَّذِي يَدْعُوكُمْ إِلَىٰ مَا مَآلُهُ شُكْرُ نِعَمِ اللهِ تَعَالَىٰ.

[٨٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أَيْ أَعْرَضُوا عَنِ النَّظَرِ والاستدلال والايمان، ﴿فَإِنَّما عَلَيْكَ الْبَلاغُ﴾ أَيْ لَيْسَ عَلَيْكَ إِلَّا التَّبْلِيغُ، وَأَمَّا الْهِدَايَةُ فإلينا.

[٨٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللهِ﴾ قَالَ السُّدِّيُّ يَعْنِي: مُحَمَّدًا صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا﴾ يُكَذِّبُونَ بِهِ ، وَقَالَ قَوْمٌ: هِيَ الْإِسْلَامُ ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ: يَعْنِي مَا عُدّ لَهُمْ مِنَ النِّعَمِ فِي هَذِهِ السُّورَةِ يُقِرُّونَ أَنَّهَا من الله، ثم قيل لهم: تصدقوا وامتثلوا لأمر الله فيها ينكرونها فيقولون ورثتها مِنْ آبَائِنَا. وَقَالَ الْكَلْبِيُّ: هُوَ أَنَّهُ لَمَّا ذَكَرَ لَهُمْ هَذِهِ النعمة قَالُوا: نَعَمْ هَذِهِ كُلُّهَا مِنَ اللهِ وَلَكِنَّهَا بِشَفَاعَةِ آلِهَتِنَا ، وَقَالَ عَوْفُ بْنُ عَبْدِ اللهِ: هُوَ قَوْلُ الرَّجُلِ لَوْلَا فُلَانٌ لَكَانَ كذا

وكذا وَلَوْلَا فُلَانٌ لَمَا كَانَ كَذَا، وَقَالَ بَعْضُ صُلَحَاءِ السَّلَفِ: قَدْ أَصْبَحَ بِنَا مِنْ نِعَمِ اللهِ تَعَالَىٰ مَا لَا نُحْصِيهِ، مَعَ كَثْرَةِ مَا نَعْصِيهِ، فَلَا نَدْرِي أَيَّهُمَا نَشْكُرُ، أَجَمِيلَ مَا يَنْشُرُ، أَمْ قَبِيحَ مَا يَسْتُرُ، ﴿وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾ جاحدون لنعم الله تعالىٰ عليهم.

[٨٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ يَعْنِي رَسُولًا، وَبَعْثُ شَهِيدٍ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ يُفِيدُ أَنَّ مُحَمَّدًا صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَهِيدٌ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ الْكَافِرِينَ ﴿ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فِي الِاعْتِذَارِ، وَقِيلَ: فِي الْكَلَامِ أصلا، ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ يُسْتَرْضَوْنَ، يَعْنِي: لَا يُكَلَّفُونَ أَنْ يُرْضُوا رَبَّهُمْ لِأَنَّ الْآخِرَةَ لَيْسَتْ بِدَارِ تَكْلِيفٍ وَلَا يُرْجَعُونَ إِلَىٰ الدُّنْيَا فَيَتُوبُونَ، لِأَنَّ الْآخِرَةَ لَيْسَتْ بِدَارِ تَكْلِيفٍ، وَلَا يُتْرَكُونَ إِلَىٰ رُجُوعِ الدُّنْيَا فَيَتُوبُونَ. وَأَصْلُ الْكَلِمَةِ مِنَ الْعَتْبِ وَهِيَ الْمَوْجِدَةُ، يُقَالُ: عَتَبَ عَلَيْهِ يَعْتِبُ إِذَا وَجَدَ عَلَيْهِ، فَإِذَا فَاوَضَهُ مَا عَتَبَ عَلَيْهِ فِيهِ قِيلَ عَاتَبَهُ، فَإِذَا رَجَعَ إِلَىٰ مَسَرَّتِكَ فَقَدْ أَعْتَبَ، وَالِاسْمُ الْعُتْبَىٰ وَهُوَ رُجُوعُ الْمَعْتُوبِ عَلَيْهِ إِلَىٰ مَا يرضىٰ العاتب.

[٨٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا رَأَىٰ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ كفروا، ﴿الْعَذَابَ﴾ يَعْنِي جَهَنَّمَ، ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ أَيْ لَا يُمْهَلُونَ، إِذْ لا توبة لهم، أي: إِذَا عَايَنَ الْمُشْرِكُونَ الَّذِينَ كَذَّبُوا الرُّسُلَ عَذَابَ جَهَنَّمَ بِالدُّخُولِ إِلَيْهَا؛ فَإِنَّهُمْ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ عَذَابُهَا بِالْعُذْرِ الَّذِي يُلْقُونَهُ، وَلَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ سَاعَةً، وَلَا يُرْجَؤُونَ بِالْعِقَابِ؛ فَقَدْ فَاتَ وَقْتُ التَّوْبَةِ.

[٨٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ يوم القيامة، ﴿شُرَكَاءَهُمْ﴾ أَيْ أَصْنَامَهُمْ وَأَوْثَانَهُمُ الَّتِي عَبَدُوهَا، وَذَلِكَ أَنَّ اللهَ يَبْعَثُ مَعْبُودِيهِمْ فَيَتَّبِعُونَهُمْ حَتَّىٰ يُورِدُوهُمُ النَّارَ ، ﴿قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ﴾ أربابا ونعبدهم، ﴿فَأَلْقَوْا﴾ يعني الأوثان، ﴿إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ﴾ أَيْ: قَالُوا لَهُمْ، أَيْ أَلْقَتْ إِلَيْهِمُ الْآلِهَةُ الْقَوْلَ، أَيْ نَطَقَتْ بِتَكْذِيبِ مَنْ عَبَدَهَا بِأَنَّهَا لَمْ تَكُنْ آلِهَةً، وَلَا أمرتهم بعبادتها، في، نطق اللهُ الْأَصْنَامَ حَتَّىٰ تَظْهَرَ عِنْدَ ذَلِكَ فَضِيحَةُ الْكُفَّارِ. وَقِيلَ: الْمُرَادُ بِذَلِكَ الْمَلَائِكَةُ الَّذِينَ عَبَدُوهُمْ. ﴿إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ فِي تَسْمِيَتِنَا آلِهَةً مَا دَعَوْنَاكُمْ إلىٰ عبادتنا، وفي الصحيحين : من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ النَّاسُ: « يَا رَسُولَ اللهِ، هَلْ نَرَىٰ رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **هَلْ تُضَارُّونَ فِي الشَّمْسِ لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ**؟ قَالُوا: لَا، يَا رَسُولَ اللهِ ، فَقَالَ: **هَلْ تُضَارُّونَ فِي الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ لَيْسَ دُونَهُ سَحَابٌ**؟ ، فَقَالُوا: لَا، يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: **فَإِنَّكُمْ تَرَوْنَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ، يَجْمَعُ اللهُ النَّاسَ، فَيَقُولُ: مَنْ كَانَ يَعْبُدُ شَيْئًا فَيَتْبَعُهُ، فَيَتْبَعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الْقَمَرَ الْقَمَرَ، وَمَنْ كَانَ يَعْبُدُ الشَّمْسَ الشَّمْسَ، وَيَتْبَعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الطَّوَاغِيتَ الطَّوَاغِيتَ**.. الحديث »(١) .

[٨٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَأَلْقَوْا﴾ يَعْنِي الْمُشْرِكِينَ ﴿إِلَى اللهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ﴾ اسْتَسْلَمُوا وَانْقَادُوا لِحُكْمِهِ فِيهِمْ، وَلَمْ تُغْنِ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمْ شَيْئًا، وَقِيلَ: اسْتَسْلَمَ

---

(١) البخاري (٦٥٧٣) ومسلم (١٨٢) .

الْعَابِدُ وَالْمَعْبُودُ وَانْقَادُوا لِحُكْمِهِ فِيهِمْ ، والسلم : الِاسْتِسْلَامُ، أَيِ الطَّاعَةُ وَتَرْكُ الْعِنَادِ. ﴿وَضَلَّ﴾ أَيْ غَابَ عَنْهُمْ وَزَالَ، وفِي الْحَدِيثِ: «**فَيُقَالُ لِلنَّصَارَىٰ: مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ، فَيَقُولُونَ: كُنَّا نَعْبُدُ الْمَسِيحَ ابْنَ اللهِ، فَيُقَالُ لَهُمْ: كَذَبْتُمْ مَا اتَّخَذَ اللهُ مِنْ وَلَدٍ**» ، قَوْلُهُ : ﴿عَنْهُم مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أَيْ زَالَ عَنْهُمْ مَا زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ، وَمَا كَانُوا يُؤَمِّلُونَ مِنْ شفاعة آلهتهم.

[٨٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ﴾ مَنَعُوا النَّاسَ عَنْ طَرِيقِ الْحَقِّ ، لَمَّا ذَكَرَ الْعَذَابَ الَّذِينَ هُمْ لَاقُوهُ عَلَىٰ كُفْرِهِمُ اسْتَأْنَفَ هُنَا بِذِكْرِ زِيَادَةِ الْعَذَابِ لَهُمْ عَلَىٰ الزِّيَادَةِ فِي كُفْرِهِمْ بِأَنَّهُمْ يَصُدُّونَ النَّاسَ عَنِ اتِّبَاعِ الْإِسْلَامِ، وَهُوَ الْمُرَادُ بِالصَّدِّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ، أَيِ السَّبِيلِ الْمُوَصِّلَةِ إِلَىٰ اللهِ، أَيْ إِلَىٰ الْكَوْنِ فِي أَوْلِيَائِهِ وَحِزْبِهِ ، وَالْمَقْصُودُ: تَنْبِيهُ الْمُسْلِمِينَ إِلَىٰ كَيْدِهِمْ وَإِفْسَادِهِمْ، وَالتَّعْرِيضُ بِالتَّحْذِيرِ مِنَ الْوُقُوعِ فِي شِرَاكِهِمْ ، ﴿زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ فِي الدُّنْيَا بِالْكُفْرِ وَصَدِّ النَّاسِ عَنِ الْإِيمَانِ، قال ابن عاشور : وَالْبَاءُ فِي بِما كانُوا يُفْسِدُونَ لِلسَّبَبِيَّةِ، وَالْمُرَادُ: إِفْسَادُهُمُ الرَّاغِبِينَ فِي الْإِسْلَامِ بِتَسْوِيلِ الْبَقَاءِ عَلَىٰ الْكُفْرِ، كَمَا فَعَلُوا مَعَ عَامِرِ بْنِ الطُّفَيْلِ الدَّوْسِيِّ فَإِنَّهُ قَدِمَ مَكَّةَ فَمَشَىٰ إِلَيْهِ رِجَالٌ مِنْ قُرَيْشٍ ، فَقَالُوا: يَا طُفَيْلُ إِنَّكَ قَدِمْتَ بِلَادَنَا وَهَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بَيْنَ أَظْهُرِنَا قَدْ أَعْضَلَ بِنَا وَقَدْ فَرَّقَ جَمَاعَتَنَا وَشَتَّتَ أَمْرَنَا ، وَإِنَّمَا قَوْلُهُ كَالسِّحْرِ، وَإِنَّا نَخْشَىٰ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ قَوْمِكَ مَا قَدْ دَخَلَ عَلَيْنَا فَلَا تُكَلِّمَنَّهُ وَلَا

تَسْمَعْنَ مِنْهُ، وَقَدْ ذُكِرَ فِي قِصَّةِ إِسْلَامِ أَبِي ذَرٍّ كَيْفَ تَعَرَّضُوا لَهُ بِالْأَذَىٰ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حِينَ عَلِمُوا إِسْلَامَهُ.

[٨٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ وَهُمُ الْأَنْبِيَاءُ شُهَدَاءُ عَلَىٰ أُمَمِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِأَنَّهُمْ قَدْ بَلَّغُوا الرِّسَالَةَ وَدَعَوْهُمْ إِلَىٰ الْإِيمَانِ، فِي كُلِّ زَمَانٍ شَهِيدٌ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ نَبِيًّا، وَفِيهِمْ قَوْلَانِ:

أَحَدُهُمَا- أَنَّهُمْ أَئِمَّةُ الْهُدَىٰ الَّذِينَ هُمْ خُلَفَاءُ الْأَنْبِيَاءِ.

الثَّانِي- أَنَّهُمُ الْعُلَمَاءُ الَّذِينَ حَفِظَ اللهُ بِهِمْ شَرَائِعَ أَنْبِيَائِهِ.

قُلْتُ: فَعَلَىٰ هَذَا لَمْ تَكُنْ فَتْرَةً إِلَّا وَفِيهَا مَنْ يُوَحِّدُ اللهَ، كَقُسِّ بْنِ سَاعِدَةَ، وَزَيْدِ بن عمرو ابن نُفَيْلٍ الَّذِي قَالَ فِيهِ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « **يُبْعَثُ أُمَّةً وَحْدَهُ**»[١] ، وَوَرَقَةَ ابن نَوْفَلٍ الَّذِي قَالَ فِيهِ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « **رَأَيْتُهُ يَنْغَمِسُ فِي أَنْهَارِ الْجَنَّةِ**»[٢] ، فَهَؤُلَاءِ وَمَنْ كَانَ مِثْلُهُمْ حُجَّةٌ عَلَىٰ أَهْلِ زمانهم وشهيد عليهم ، والله أعلم ﴿وَجِئْنَا بِكَ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿شَهِيدًا عَلَىٰ هَؤُلَاءِ﴾ الَّذِينَ بُعِثْتَ إِلَيْهِمْ ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا﴾ بيانـًا ، ﴿لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ يُحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنَ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ وَالْحَلَالِ وَالْحَرَامِ وَالْحُدُودِ وَالْأَحْكَامِ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: كُلُّ حَلَالٍ وكل حرام. وَقَوْلُ ابْنِ مَسْعُودٍ أَعَمُّ وَأَشْمَلُ، فَإِنَّ الْقُرْآنَ اشْتَمَلَ عَلَىٰ كُلِّ عِلْمٍ نَافِعٍ مِنْ خَبَرِ ما سبق، وعلم ما سيأتي، وكل حَلَالٍ وَحَرَامٍ، وَمَا النَّاسُ إِلَيْهِ

---

(١) البزار (١١٥٤) .

(٢) أبو يعلى (٩٤٨) .

مُحْتَاجُونَ فِي أَمْرِ دُنْيَاهُمْ وَدِينِهِمْ وَمَعَاشِهِمْ وَمَعَادِهِمْ، وقال ابن عاشور : وَ«كُلِّ شَيْءٍ» يُفِيدُ الْعُمُومَ إِلَّا أَنَّهُ عُمُومٌ عُرْفِيٌّ فِي دَائِرَةِ مَا لِمِثْلِهِ تَجِيءُ الْأَدْيَانُ وَالشَّرَائِعُ: مِنْ إِصْلَاحِ النُّفُوسِ، وَإِكْمَالِ الْأَخْلَاقِ، وَتَقْوِيمِ الْمُجْتَمَعِ الْمَدَنِيِّ، وَتَبَيُّنِ الْحُقُوقِ، وَمَا تَتَوَقَّفُ عَلَيْهِ الدَّعْوَةُ مِنَ الِاسْتِدْلَالِ عَلَىٰ الْوَحْدَانِيَّةِ، وَصِدْقِ الرَّسُولِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَمَا يَأْتِي فِي خِلَالِ ذَلِكَ مِنَ الْحَقَائِقِ الْعِلْمِيَّةِ وَالدَّقَائِقِ الْكَوْنِيَّةِ، وَوَصْفِ أَحْوَالِ الْأُمَمِ، وَأَسْبَابِ فَلَاحِهَا وَخَسَارِهَا، وَالْمَوْعِظَةِ بِآثَارِهَا بِشَوَاهِدِ التَّارِيخِ، وَمَا يَتَخَلَّلُ ذَلِكَ مِنْ قَوَانِينِهِمْ وَحَضَارَاتِهِمْ وَصَنَائِعِهِمْ، ﴿وَهُدًىٰ﴾ من الضلالة ﴿وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ﴾ بشارة ﴿لِلْمُسْلِمِينَ﴾ ، وَخُصَّ بِالذِّكْرِ الْهُدَىٰ وَالرَّحْمَةُ وَالْبُشْرَىٰ لِأَهَمِّيَّتِهَا فَالْهُدَىٰ مَا يَرْجِعُ مِنَ التِّبْيَانِ إِلَىٰ تَقْوِيمِ الْعَقَائِدِ وَالْأَفْهَامِ وَالْإِنْقَاذِ مِنَ الضَّلَالِ ، وَالرَّحْمَةُ مَا يَرْجِعُ مِنْهُ إِلَىٰ سَعَادَةِ الْحَيَاتَيْنِ الدُّنْيَا وَالْأُخْرَىٰ، وَالْبُشْرَىٰ مَا فِيهِ مِنَ الْوَعْدِ بِالْحُسْنَيَيْنِ الدُّنْيَوِيَّةِ وَالْأُخْرَوِيَّةِ.

[٩٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾ بالإنصاف، وَالْعَدْلُ: إِعْطَاءُ الْحَقِّ إِلَىٰ صَاحِبِهِ، وَهُوَ الْأَصْلُ الْجَامِعُ لِلْحُقُوقِ الرَّاجِعَةِ إِلَىٰ الضَّرُورِيِّ وَالْحَاجِيِّ مِنَ الْحُقُوقِ الذَّاتِيَّةِ وَحُقُوقِ الْمُعَامَلَاتِ ﴿وَالْإِحْسَانِ﴾ إِلَىٰ النَّاسِ وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: العدل: التوحيد والإحسان: أداء الفرائض ، وعنه أيضا: الْإِحْسَانُ: الْإِخْلَاصُ فِي التَّوْحِيدِ، وَأَمَّا الْإِحْسَانُ فَهُوَ مُعَامَلَةٌ بِالْحُسْنَىٰ مِمَّنْ لَا يَلْزَمُهُ إِلَىٰ مَنْ هُوَ أَهْلُهَا. وَالْحَسَنُ: مَا كَانَ مَحْبُوبًا عِنْدَ الْمُعَامَلِ بِهِ وَلَمْ يَكُنْ لَازِمًا لِفَاعِلِهِ،

وَأَعْلَاهُ مَا كَانَ فِي جَانِبِ اللهِ تَعَالَىٰ مِمَّا فَسَّرَهُ النَّبِيءُ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِقَوْلِهِ: «الْإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ» وَقَالَ مُقَاتِلٌ: العدل التوحيد، والإحسان: الْعَفْوُ عَنِ النَّاسِ، ﴿وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾ صِلَةُ الرَّحِمِ، وَذُو الْقُرْبَىٰ: هُوَ صَاحِبُ الْقَرَابَةِ، ﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ﴾ ما قَبُحَ مِنَ الْقَوْلِ وَالْفِعْلِ. وَقَالَ ابن عباس: الزنا، ﴿وَالْمُنْكَرِ﴾ مَا لَا يُعْرَفُ فِي شَرِيعَةٍ ولا سنة، وقيل: الْمُنْكَرُ فَهُوَ مَا تَسْتَنْكِرُهُ النُّفُوسُ الْمُعْتَدِلَةُ وَتَكْرَهُهُ الشَّرِيعَةُ مِنْ فِعْلٍ أَوْ قَوْلٍ، ﴿وَالْبَغْيِ﴾ [النحل: ٩٠] الْكِبْرُ وَالظُّلْمُ، وَقَالَ ابْنُ عُيَيْنَةَ: العدل استواء السر والعلانية، والإحسان: أن يكون سريرته أحسن من علانيته، والفحشاء وَالْمُنْكَرُ أَنْ تَكُونَ عَلَانِيَتُهُ أَحْسَنَ مِنْ سَرِيرَتِهِ، ﴿يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ لعلكم تَتَّعِظُونَ، قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: أَجْمَعُ آيَةٍ فِي الْقُرْآنِ هَذِهِ الْآيَةُ. وَقَالَ عِكْرِمَةُ: إِنَّ النَّبِيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَرَأَ عَلَىٰ الْوَلِيدِ: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾ إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ فَقَالَ لَهُ: يَا ابْنَ أَخِي أعد فعاد عَلَيْهِ، فَقَالَ: إِنَّ لَهُ وَاللهِ لَحَلَاوَةً وَإِنَّ عَلَيْهِ لَطَلَاوَةً وَإِنَّ أَعْلَاهُ لَمُثْمِرٌ وَإِنَّ أَسْفَلَهُ لَمُغْدِقٌ، وما هو بقول البشر،ويروىٰ أَنَّ هَذِهِ كَانَتِ السَّبَبَ فِي تَمَكُّنِ الْإِيمَانِ مِنْ عُثْمَانَ بْنِ مَظْعُونٍ، فَإِنَّهَا لَمَّا نَزَلَتْ كَانَ عُثْمَانُ بْنُ مَظْعُونٍ بِجَانِبِ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَكَانَ حَدِيثَ الْإِسْلَامِ، وَكَانَ إِسْلَامُهُ حَيَاءً مِنَ النَّبِيءِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَرَأَهَا النَّبِيءُ عَلَيْهِ ، قَالَ عُثْمَانُ: فَذَلِكَ حِينَ اسْتَقَرَّ الْإِيمَانُ فِي قَلْبِي ، وَعَنْ عُثْمَانَ بْنِ أَبِي الْعَاصِ:

كُنْتُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَالِسًا إِذْ شَخَصَ بَصَرُهُ، فَقَالَ: أَتَانِي جِبْرِيلُ فَأَمَرَنِي أَنْ أَضَعَ هَذِهِ الْآيَةَ بِهَذَا الْمَوْضِعِ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ الْآيَةَ .

[٩١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ﴾ وَالْعَهْدُ هَاهُنَا هُوَ الْيَمِينُ، قَالَ الشَّعْبِيُّ: الْعَهْدُ يَمِينٌ وَكَفَّارَتُهُ كَفَّارَةُ اليمين، ﴿وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ تَشْدِيدِهَا فَتَحْنَثُوا فِيهَا، وَقَدْ كَانَ النَّبِيءُ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَأْخُذُ الْبَيْعَةَ عَلَىٰ كُلِّ مَنْ أَسْلَمَ مِنْ وَقْتِ ابْتِدَاءِ الْإِسْلَامِ فِي مَكَّةَ.﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾ شَهِيدًا بِالْوَفَاءِ، وَالْمَعْنَىٰ: وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ حَلِفِهَا.﴿إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ وَاخْتَلَفُوا فِيمَنْ نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ وَإِنْ كَانَ حُكْمُهَا عَامًّا، قِيلَ: نَزَلَتْ فِي الَّذِينَ بَايَعُوا رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَمَرَهُمُ اللهُ بِالْوَفَاءِ بِهَا، وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ: نَزَلَتْ فِي حِلْفِ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ. ثُمَّ ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا لِنَقْضِ الْعَهْدِ.

[٩٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ﴾ أَيْ: مِنْ بَعْدِ غَزْلِهِ وَإِحْكَامِهِ معناه: أَنَّهَا لَمْ تَكُفَّ عَنِ الْعَمَلِ وَلَا حِينَ عَمِلَتْ كَفَّتْ عَنِ النقض، فكذلك أنتم إذا أنقضتم الْعَهْدَ، لَا كَفَفْتُمْ عَنِ الْعَهْدِ وَلَا حِينَ عَاهَدْتُمْ وَفَيْتُمْ بِهِ، ﴿أَنْكَاثًا﴾ يَعْنِي أَنْقَاضًا وَاحِدَتُهَا نَكْثٌ وَهُوَ مَا نُقِضَ بَعْدَ الْفَتْلِ غَزْلًا كَانَ أَوْ حَبْلًا، وَالْمُرَادُ بِصِيغَةِ الْجَمْعِ أَنَّ مَا كَانَ غَزْلًا وَاحِدًا جَعَلَتْهُ مَنْقُوضًا، أَيْ خُيُوطًا عَدِيدَةً، وَذَلِكَ بِأَنْ صَيَّرَتْهُ إِلَىٰ الْحَالَةِ الَّتِي كَانَ عَلَيْهَا قَبْلَ الْغَزْلِ وَهِيَ كَوْنُهُ خُيُوطًا ذَاتَ عَدَدٍ قال السدي: هَذِهِ امْرَأَةٌ خَرْقَاءُ كَانَتْ بِمَكَّةَ كُلَمَّا غَزَلَتْ

شَيْئًا نَقَضَتْهُ بَعْدَ إِبْرَامِهِ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ هَذَا مَثَلٌ لِمَنْ نَقَضَ عَهْدَهُ بَعْدَ تَوْكِيدِهِ، وهذا القول أرجح وأظهر، سواء كَانَ بِمَكَّةَ امْرَأَةٌ تَنْقُضُ غَزْلَهَا أَمْ لَا ﴿تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ﴾ أي: دخلا وخيانة وخديعة والدخل: ما يدخل في شيء للفساد، وَالدَّخَلُ أَيْضًا: الشَّيْءُ الْفَاسِدُ. وقيل: الدخل والدغل أَنْ يُظْهِرَ الْوَفَاءَ وَيُبْطِنَ النَّقْضَ. ﴿أَنْ تَكُونَ﴾ أَيْ: لِأَنْ تَكُونَ، ﴿أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ﴾ أَيْ: أَكْثَرُ وَأَعْلَىٰ، من ربىٰ الشَّيْءُ يَرْبُو إِذَا كَثُرَ، ﴿مِنْ أُمَّةٍ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: وَذَلِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا يُحَالِفُونَ الْحُلَفَاءَ فَإِذَا وَجَدُوا قَوْمًا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَعَزَّ نَقَضُوا حِلْفَ هَؤُلَاءِ وَحَالَفُوا الْأَكْثَرَ، فَمَعْنَاهُ: طَلَبْتُمُ الْعِزَّ بِنَقْضِ الْعَهْدِ بِأَنْ كَانَتْ أُمَّةٌ أَكْثَرَ مِنْ أُمَّةٍ فَنَهَاهُمُ اللهُ عَنْ ذَلِكَ. ﴿إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللهُ بِهِ﴾ يَخْتَبِرُكُمُ اللهُ بِأَمْرِهِ إِيَّاكُمْ بِالْوَفَاءِ بِالْعَهْدِ، ﴿وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ فِي الدُّنْيَا.

[٩٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ عَلَىٰ مِلَّةٍ وَاحِدَةٍ وَهِيَ الْإِسْلَامُ، قال ابن كثير: أَيْ لَوَفَّقَ بَيْنَكُمْ وَلَمَا جَعَلَ اخْتِلَافًا وَلَا تباغض ولا شحناء، ﴿وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ﴾ بِخِذْلَانِهِ إِيَّاهُمْ عَدْلًا مِنْهُ، ﴿وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ بِتَوْفِيقِهِ إِيَّاهُمْ فَضْلًا مِنْهُ، عَلَيْهِمْ، وَلَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ بَلْ تُسْأَلُونَ أَنْتُمْ. ﴿وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

[٩٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا﴾ خديعة وفساداً، ﴿بَيْنَكُمْ﴾ فَتَغُرُّونَ بِهَا النَّاسَ فَيَسْكُنُونَ إِلَىٰ أَيْمَانِكُمْ وَيَأْمَنُونَ ثُمَّ تَنْقُضُونَهَا، ﴿فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾ فتهلكوا بعد ما كُنْتُمْ آمِنِينَ، وَالزَّلَلُ: تَزَلُّقُ الرِّجلِ

وَتَنَقُّلُهَا مِنْ مَوْضِعِهَا دُونَ إِرَادَةِ صَاحِبِهَا بِسَبَبِ مَلَاسَةِ الْأَرْضِ مِنْ طِينٍ رَطْبٍ أَوْ تَخَلْخُلِ حَصًىٰ أَوْ حَجَرٍ مِنْ تَحْتِ الْقَدَمِ فَيَسْقُطُ الْمَاشِي عَلَىٰ الْأَرْضِ، وَالْعَرَبُ تَقُولُ لِكُلِّ مُبْتَلًىٰ بَعْدَ عَافِيَةٍ أَوْ سَاقِطٍ فِي وَرْطَةٍ بَعْدَ سَلَامَةٍ زَلَّتْ قَدَمُهُ، قال القرطبي: أَيْ عَنِ الْأَيْمَانِ بَعْدَ الْمَعْرِفَةِ بِاللهِ، وَهَذِهِ اسْتِعَارَةٌ لِلْمُسْتَقِيمِ الْحَالِ يَقَعُ فِي شَرٍّ عَظِيمٍ وَيَسْقُطُ فِيهِ، لِأَنَّ الْقَدَمَ إِذَا زَلَّتْ نَقَلَتِ الْإِنْسَانَ مِنْ حَالِ خَيْرٍ إِلَىٰ حَالِ شَرٍّ، ﴿وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللهِ﴾ قِيلَ: مَعْنَاهُ سَهَّلْتُمْ طَرِيقَ نَقْضِ الْعَهْدِ عَلَىٰ النَّاسِ بِنَقْضِكُمُ الْعَهْدَ، وَذَوْقُ السُّوءِ فِي الدُّنْيَا هُوَ مَا يَحِلُّ بِهِمْ مِنَ الْمَكْرُوهِ. ﴿وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ هُوَ عَذَابُ الْآخِرَةِ عَلَىٰ الرُّجُوعِ إِلَىٰ الْكُفْرِ أَوْ عَلَىٰ مَعْصِيَةِ غَدْرِ الْعَهْدِ.

[٩٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ يَعْنِي لَا تَنْقُضُوا عُهُودَكُمْ تَطْلُبُونَ بِنَقْضِهَا عَرَضًا قَلِيلًا مِنَ الدُّنْيَا، وَلَكِنْ أَوْفُوا بِهَا، ﴿إِنَّمَا عِنْدَ اللهِ هُوَ﴾ مِنَ الثَّوَابِ لَكُمْ عَلَىٰ الْوَفَاءِ بالعهد، ﴿خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ فَضْلُ مَا بَيْنَ الْعِوَضَيْنِ ثُمَّ بَيَّنَ ذَلِكَ،

[٩٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ﴾ أَيِ: الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا يَفْنَىٰ، ﴿وَمَا عِنْدَ اللهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ أَيْ عَلَىٰ الْإِسْلَامِ وَالطَّاعَاتِ وَعَنِ المعاصي، أَيْ مِنَ الطَّاعَاتِ، وَجَعَلَهَا أَحْسَنَ لِأَنَّ مَا عَدَاهَا مِنَ الْحُسْنِ مُبَاحٌ، وَالْجَزَاءُ إِنَّمَا يَكُونُ عَلَىٰ الطَّاعَاتِ مِنْ حَيْثُ الْوَعْدِ مِنَ اللهِ، ﴿أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ فَبَيَّنَ الْفَرْقَ بَيْنَ حَالِ الدُّنْيَا وَحَالِ الْآخِرَةِ بِأَنَّ هَذِهِ تَنْفَدُ وَتُحَوَّلُ، وَمَا

عِنْدَ اللهِ مِنْ مَوَاهِبِ فَضْلِهِ وَنَعِيمِ جَنَّتِهِ ثَابِتٌ لَا يَزُولُ لِمَنْ وَفَّىٰ بِالْعَهْدِ وَثَبَتَ عَلَىٰ الْعَقْدِ. وَلَقَدْ أَحْسَنَ مَنْ قَالَ:

الْمَالُ يَنْفَدُ حِلُّهُ وَحَرَامُهُ ... يَوْمًا وَتَبْقَىٰ فِي غَدٍ آثَامُهُ
لَيْسَ التَّقِيُّ بِمُتَّقٍ لِإِلَهِهِ ... حَتَّىٰ يَطِيبَ شَرَابُهُ وَطَعَامُهُ

[٩٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ ، قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَعَطَاءٌ: هِيَ الرِّزْقُ الْحَلَالُ، قَالَ الْحَسَنُ: هِيَ الْقَنَاعَةُ. وَقَالَ مُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانَ: يَعْنِي الْعَيْشَ فِي الطَّاعَةِ ، وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ الْوَرَّاقُ: هِيَ حَلَاوَةُ الطَّاعَةِ ، وَقَالَ سَهْلُ بْنُ عَبْدِ اللهِ التُّسْتَرِيُّ: هِيَ أَنْ يُنْزَعَ عَنِ الْعَبْدِ تَدْبِيرُهُ وَيُرَدُّ تَدْبِيرُهُ إِلَىٰ الْحَقِّ، وَقَالَ جَعْفَرٌ الصَّادِقُ: هِيَ الْمَعْرِفَةُ بِاللهِ، وَصِدْقُ الْمُقَامِ بَيْنَ يَدَيِ اللهِ، وَقِيلَ: الِاسْتِغْنَاءُ عَنِ الْخَلْقِ وَالِافْتِقَارُ إِلَىٰ الْحَقِّ. وَقَالَ الحسن البصري : لَا تَطِيبُ الْحَيَاةُ لِأَحَدٍ إِلَّا فِي الْجَنَّةِ ، وَالطَّيِّبُ: مَا يَطِيبُ وَيَحْسُنُ ، وَضِدُّ الطيّب: الْخَبيث والسيّء، وَهَذَا وَعْدٌ بِخَيْرَاتِ الدُّنْيَا، وَأَعْظَمُهَا الرِّضَىٰ بِمَا قَسَمَ لَهُمْ وَحُسْنُ أَمَلِهِمْ بِالْعَاقِبَةِ وَالصِّحَّةِ وَالْعَافِيَةِ وَعِزَّةُ الْإِسْلَامِ فِي نُفُوسِهِمْ، وَهَذَا مَقَامٌ دَقِيقٌ تَتَفَاوَتُ فِيهِ الْأَحْوَالُ عَلَىٰ تَفَاوُتِ سَرَائِرِ النُّفُوسِ، وَيُعْطِي اللهُ فِيهِ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَرَاتِبِ هِمَمِهِمْ وَآمَالِهِمْ، وَمَنْ رَاقَبَ نَفْسَهُ رَأَىٰ شَوَاهِدَ هَذَا ، قوله : ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ قال ابن عاشور : فَمَنْ مَاتَ مِنَ الْمُسلمين الَّذين عمِلُوا صَالِحًا عَوَّضَهُ اللهُ عَنْ عَمَلِهِ مَا فَاتَهُ مِنْ وَعْدِهِ.وَيُفَسِّرُ هَذَا الْمَعْنَىٰ مَا وَرَدَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ خَبَّابِ بْنِ الْأَرَتِّ

قَالَ: «هَاجَرْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ نَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللهِ فَوَجَبَ أَجْرُنَا عَلَىٰ اللهِ، فَمِنَّا مَنْ مَضَىٰ لَمْ يَأْكُلْ مِنْ أَجْرِهِ شَيْئًا، كَانَ مِنْهُمْ مُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ قُتِلَ يَوْمَ أُحُدٍ فَلَمْ يَتْرُكْ إِلَّا نَمِرَةً كُنَّا إِذَا غَطَّيْنَا بِهَا رَأْسَهُ خَرَجَتْ رِجْلَاهُ، وَإِذَا غُطِّيَ بِهَا رِجْلَاهُ خَرَجَ رَأْسُهُ، وَمِنَّا مَنْ أَيْنَعَتْ لَهُ ثَمَرَتُهُ فَهُوَ يَهْدِبُهَا»(١).

[٩٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ﴾ أي: إذا أَرَدْتَ قِرَاءَةَ الْقُرْآنِ ، وَقَدْ رَوَىٰ جُبَيْرُ بْنُ مُطْعِمٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ افْتَتَحَ الصَّلَاةَ قَالَ : « **اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الشَّيْطَانِ مِنْ هَمْزِهِ وَنَفْخِهِ وَنَفْثِهِ**»(٢)، الهمزة: النخس والغمز، وكل شي دفعته فقد همزته، والنفخ: الكبر، لان المتكبر يتعاظم ويجمع نفسه ونفسه فيحتاج أن ينفخ. والنفث: قال ابن الأثير: جاء تفسيره في الحديث أنه الشعر، لأنه ينفث من الفم، وَرَوَىٰ أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ : أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَتَعَوَّذُ فِي صَلَاتِهِ قَبْلَ الْقِرَاءَةِ، ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَىٰ الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا﴾ [المائدة : ٦] ، وَالِاسْتِعَاذَةُ سُنَّةٌ عِنْدَ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ، وَأَكْثَرُ الْعُلَمَاءِ عَلَىٰ أَنَّ الِاسْتِعَاذَةَ قَبْلَ الْقِرَاءَةِ ، وَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: بَعْدَهَا وَلَفْظُهُ أَنْ يَقُولَ: أَعُوذُ بِاللهِ مِنَ الشيطان الرجيم ، وَالِاسْتِعَاذَةُ بِاللهِ هِيَ الِاعْتِصَامُ بِهِ.

---

(١) البخاري (١٢٧٦) ومسلم (٩٤٠) .

(٢) أحمد (٧٦٤) وابن ماجه (٨٠٧) .

[٩٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ﴾ حُجَّةٌ وَوِلَايَةٌ، وَالسُّلْطَانُ: مَصْدَرٌ بِوَزْنِ الْغُفْرَانِ، وَهُوَ التَّسَلُّطُ وَالتَّصَرُّفُ الْمَكِينُ. ﴿عَلَىٰ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ قَالَ سُفْيَانُ: أَيْ لَيْسَ لَكَ قُدْرَةٌ عَلَىٰ أَنْ تَحْمِلَهُمْ عَلَىٰ ذَنْبٍ لَا يُغْفَرُ، قَالَ مُجَاهِدٌ: لَا حُجَّةَ لَهُ عَلَىٰ مَا يَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ مِنَ الْمَعَاصِي، وقال ابن عاشور : فَالْمَعْنَىٰ أَنَّ الْإِيمَان مبدأ أصيل لِتَوْهِينِ سُلْطَانِ الشَّيْطَانِ فِي نَفْسِ الْمُؤْمِنِ فَإِذَا انْضَمَّ إِلَيْهِ التَّوَكُّلُ عَلَىٰ اللهِ انْدَفَعَ سُلْطَانُ الشَّيْطَانِ عَنِ الْمُؤْمِنَ الْمُتَوَكِّلِ.وعَن الرّبيع بن أنس فِي الْآيَة قَالَ: إِن عَدو الله إِبْلِيس حِين غلبت عَلَيْهِ الشقاوة قَالَ: ﴿وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ . إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [ص:٨٢-٨٣] ، فَهَؤُلَاءِ الَّذين لم يَجْعَل للشَّيْطَان عَلَيْهِم سَبِيل ، وَإِنَّمَا سُلْطَانه علىٰ قوم اتخذوه وليا فأشركوه فِي أَعْمَالهم ، وفي الحديث عَنْ أَبِي سَعِيدٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: « **إِنَّ الشَّيْطَانَ قَالَ: وَعِزَّتِكَ يَا رَبِّ لَا أَبْرَحُ أُغْوِي عِبَادَكَ مَا دَامَتْ أَرْوَاحُهُمْ فِي أَجْسَادِهِمْ، فَقَالَ الرَّبُّ وَعِزَّتِي وَجَلَالِي، لَا أَزَالُ أَغْفِرُ لَهُمْ مَا استغفروني** »(١) .

[١٠٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَىٰ الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ﴾ يُطِيعُونَهُ وَيَدْخُلُونَ فِي وِلَايَتِهِ، يُقَالُ: تَوَلَّيْتُهُ أَيْ أَطَعْتُهُ، وَتَوَلَّيْتُ عَنْهُ، أَيْ أَعْرَضْتُ عَنْهُ. ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ أَيْ: بِاللهِ مُشْرِكُونَ، وَقِيلَ: الْكِنَايَةُ رَاجِعَةٌ إِلَىٰ الشَّيْطَانِ،

---

(١) أحمد (١١٠١٤) والحاكم (٧٦٧٢) .

وَمَجَازُهُ الَّذِينَ هُمْ مِنْ أَجْلِهِ مُشْرِكُونَ بِاللهِ، وَالْمَعْنَىٰ: وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ أَجْلِهِ مُشْرِكُونَ، يُقَالُ: كَفَرْتَ بِهَذِهِ الْكَلِمَةِ، أَيْ مِنْ أَجْلِهَا، وَصَارَ فُلَانٌ بِكَ عَالِمًا، أَيْ مِنْ أَجْلِكَ، أَيْ والذي تولىٰ الشيطان مشركون بالله.

[١٠١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ﴾ يَعْنِي وَإِذَا نَسَخْنَا حُكْمَ آيَةٍ فَأَبْدَلْنَا مَكَانَهُ حُكْمًا آخَرَ، وَالنَّسْخُ وَالتَّبْدِيلُ رَفْعُ الشَّيْءِ مع وضع غير مَكَانَهُ. ﴿وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾ أَعْلَمُ بِمَا هُوَ أَصْلَحُ لِخَلْقِهِ فِيمَا يُغَيِّرُ وَيُبَدِّلُ مِنْ أَحْكَامِهِ، ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ﴾ يُرِيدُ كُفَّارَ قُرَيْشٍ قالوا: يا محمد، ﴿إنما أنت مُفْتَرٍ﴾ مُخْتَلِقٌ، وَأَصْلُ الِافْتِرَاءِ: الِاخْتِرَاعُ، وَغَلَبَ عَلَىٰ اخْتِرَاعِ الْخَبَرِ، أَيِ اخْتِلَاقِهِ، فَسَاوَىٰ الْكَذِبَ فِي الْمَعْنَىٰ، وَلِذَلِكَ قَدْ يُطْلَقُ وَحْدَهُ كَمَا هُنَا،وَذَلِكَ أَنَّ الْمُشْرِكِينَ قَالُوا: إِنَّ مُحَمَّدًا يَسْخَرُ بِأَصْحَابِهِ يَأْمُرُهُمُ الْيَوْمَ بِأَمْرٍ وَيَنْهَاهُمْ عَنْهُ غَدًا مَا هُوَ إِلَّا مُفْتَرٍ يَتَقَوَّلُهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِهِ، ورُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ: «كَانَ إِذَا نَزَلَتْ آيَةٌ فِيهَا شِدَّةٌ ثُمَّ نَزَلَتْ آيَةٌ أَلْيَنُ مِنْهَا يَقُولُ كُفَّارُ قُرَيْشٍ: وَاللهِ مَا مُحَمَّدٌ إِلَّا يَسْخَرُ بِأَصْحَابِهِ، الْيَوْمَ يَأْمُرُ بِأَمْرٍ وَغَدًا يَنْهَىٰ عَنْهُ، وَأَنَّهُ لَا يَقُولُ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ إِلَّا مِنْ عِنْدِ نَفْسِهِ» قَالَ اللهُ: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ حقيقة القرآن، وبيان الناسخ والمنسوخ.

[١٠٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ﴾ يعني القرآن، ﴿رُوحُ الْقُدُسِ﴾ جبريل، نَزَلَ بِالْقُرْآنِ كُلِّهِ نَاسِخِهِ وَمَنْسُوخِهِ، قال الجياني :سمىٰ جبريل روحًا لأن النفوس تحيىٰ به كما تحيىٰ بالأرواح ، قَالَ النَّحَّاسُ: وَسُمِّيَ جِبْرِيلُ رُوحًا

وَأُضِيفَ إِلَىٰ الْقُدُسِ، لِأَنَّهُ كَانَ بِتَكْوِينِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ رُوحًا مِنْ غَيْرِ وِلَادَةِ وَالِدٍ وَلَدَهُ، وَكَذَلِكَ سُمِّيَ عِيسَىٰ رُوحًا لِهَذَا ، وَالْقُدُسُ: الطَّهَارَةُ ، وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ «**أَنَّ رُوحَ الْقُدُسِ نَفَثَ فِي رُوعِي أَنَّ نَفْسًا لَنْ تَمُوتَ حَتَّىٰ تَسْتَوْفِيَ أَجَلَهَا**»(١) ، قوله : ﴿مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ أَيْ مِنْ كَلَامِ رَبِّكَ، ﴿لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أَيْ بِمَا فِيهِ مِنَ الْحُجَجِ وَالْآيَاتِ ، ﴿وَهُدًىٰ﴾ أَيْ وهو هدىٰ، ﴿وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ ، أَيْ: تَثْبِيتًا لَهُمْ وَهِدَايَةً وَبِشَارَةً، قال الشوكاني : وَفِيهِ تَعْرِيضٌ بِحُصُولِ أَضْدَادِ هَذِهِ الْخِصَالِ لِغَيْرِهِمْ.

[١٠٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾ آدَمِيٌّ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ، خْتُلِفَ فِي اسْمِ هَذَا الَّذِي قَالُوا إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ، فَقِيلَ: هُوَ غُلَامُ الْفَاكِهُ بْنُ الْمُغِيرَةِ وَاسْمُهُ جَبْرٌ، كَانَ نَصْرَانِيًّا فَأَسْلَمَ، وَكَانُوا إِذَا سَمِعُوا مِنَ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا مَضَىٰ وَمَا هُوَ آتٍ مَعَ أَنَّهُ أُمِّيٌّ لَمْ يَقْرَأْ قَالُوا: إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ جَبْرٌ وَهُوَ أَعْجَمِيٌّ، فَقَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهذا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ أَيْ كَيْفَ يُعَلِّمُهُ جَبْرٌ وَهُوَ أَعْجَمِيٌّ هَذَا الْكَلَامَ الَّذِي لَا يَسْتَطِيعُ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ أَنْ يُعَارِضُوا مِنْهُ سُورَةً وَاحِدَةً فَمَا فَوْقَهَا ، وقال ابن عباس: اسْمُهُ بَلْعَامُ وَكَانَ نَصْرَانِيًّا أَعْجَمِيَّ اللِّسَانِ، فَكَانَ الْمُشْرِكُونَ يَرَوْنَ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدْخُلُ عَلَيْهِ وَيَخْرُجُ، فَكَانُوا يَقُولُونَ: إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ

---

(١) الشافعي (المسند ، رقم ١٤٧٣) ؛ البيهقي (الشعب ، رقم ١٠٣٧٥) .

بَلْعَامُ، وَقَالَ عِكْرِمَةُ: كَانَ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُقْرِئُ غُلَامًا لِبَنِي الْمُغِيرَةِ يُقَالُ لَهُ يَعِيشُ، وَكَانَ يَقْرَأُ الْكُتُبَ، فَقَالَتْ قُرَيْشٌ: إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بشر، يَعِيشُ، وَقَالَ الضَّحَاكُ: وَكَانَ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا آذَاهُ الْكُفَّارُ يَقْعُدُ إِلَيْهِمَا ويستريح بِكَلَامِهِمَا، فَقَالَ الْمُشْرِكُونَ: إِنَّمَا يَتَعَلَّمُ مُحَمَّدٌ مِنْهُمَا، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ تَكْذِيبًا لَهُمْ: ﴿لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ﴾ أَيْ يَمِيلُونَ وَيُشِيرُونَ إِلَيْهِ، والْإِلْحَادُ: الْمَيْلُ، يُقَالُ: لَحَدَ وَأَلْحَدَ، أَيْ مَالَ عَنِ الْقَصْدِ وَلَمَّا كَانَ وَسَطُ الشَّيْءِ يُشَبَّهُ بِهِ الْحَقُّ وَالصَّوَابُ، اسْتَتْبَعَ ذَلِكَ تَشْبِيهَ الْعُدُولِ عَنِ الْحَقِّ إِلَىٰ الْبَاطِلِ بِالْإِلْحَادِ، فَأُطْلِقَ الْإِلْحَادُ عَلَىٰ الْكُفْرِ وَالْإِفْسَادِ، ﴿أَعْجَمِيٌّ﴾ الْأَعْجَمِيُّ الَّذِي لَا يُفْصِحُ وَإِنْ كَانَ يَنْزِلُ بِالْبَادِيَةِ، والعجماء: الْبَهِيمَةُ، لِأَنَّهَا لَا تُوَضِّحُ عَنْ نَفْسِهَا، وَأَعْجَمْتُ الْكِتَابَ أَيْ أَزَلْتُ عُجْمَتَهُ، وَالْعَرَبُ تُسَمِّي كُلَّ مَنْ لَا يَعْرِفُ لُغَتَهُمْ وَلَا يَتَكَلَّمُ بِكَلَامِهِمْ أَعْجَمِيًّا، ﴿وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ فَصِيحٌ وَأَرَادَ بِاللِّسَانِ الْقُرْآنَ، وَالْعَرَبُ تقول: اللغة لسان.

[١٠٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللهُ﴾ لَا يُرْشِدُهُمُ اللهُ، وقَدْ كَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ بِالنَّبِيءِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَبُو جَهْلٍ وَأَبُو سُفْيَانَ ، وَكَانَ أَبُو سُفْيَانَ أَطْوَلَ مُدَّةً فِي الْكُفْرِ مِنْ أَبِي جَهْلٍ ، وَلَكِنَّ أَبَا جَهْلٍ كَانَ يَخْلِطُ كُفْرَهُ بِأَذَىٰ النَّبِيءِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْحَنَقِ عَلَيْهِ ، وَكَانَ أَبُو سُفْيَانَ مُقْتَصِرًا عَلَىٰ الِانْتِصَارِ لِدِينِهِ وَلِقَوْمِهِ وَدَفَعَ الْمُسْلِمِينَ عَنْ أَنْ يَغْلِبُوهُمْ فَحَرَمَ اللهُ أَبَا جَهْلٍ الْهِدَايَةَ فَأَهْلَكَهُ كَافِرًا، وَهَدَىٰ أَبَا سُفْيَانَ فَأَصْبَحَ مِنْ خِيرَةِ

الْمُؤْمِنِينَ، وَتَشَرَّفَ بِصِهْرِ النَّبِيءِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ قال ابن عاشور : وَعَطَفَ وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ عَلَىٰ لَا يَهْدِيهِمُ لِلدَّلَالَةِ عَلَىٰ حِرْمَانِهِمْ مِنَ الْخَيْرِ وَإِلْقَائِهِمْ فِي الشَّرِّ لِأَنَّهُمْ إِذَا حُرِمُوا الْهِدَايَةَ فَقَدْ وَقَعُوا فِي الضَّلَالَةِ، وَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ.

[١٠٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ لَا مُحَمَّدٌ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَإِنْ قِيلَ: قَدْ قَالَ إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فَمَا مَعْنَىٰ قَوْلِهِ: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ هَذَا مُبَالَغَةٌ فِي وَصْفِهِمْ بِالْكَذِبِ، أَيْ كُلُّ كَذِبٍ قَلِيلٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَىٰ كَذِبِهِمْ، وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ مِنْ حَدِيثِ أَبِي سُفْيَانَ بْنِ حَرْبٍ -لَمَّا سَأَلَ هِرَقْلُ أَبَا سُفْيَانَ عَنْ صِفَاتِ رَسُولِ اللهِ ﷺ- قَالَ :أَفَكُنْتُمْ تَتَّهِمُونَهُ بِالْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ؟ قَالَ: لَا، فَقَالَ هِرَقْلُ: فَمَا كَانَ لِيَدَعَ الْكَذِبَ عَلَىٰ النَّاسِ وَيَذْهَبَ فَيَكْذِبَ عَلَىٰ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ (١).

[١٠٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي عَمَّارٍ ، وَذَلِكَ أَنَّ المشركين أخذوه وأباه يا سرا وَأُمَّهُ سُمَيَّةَ وَصُهَيْبًا وَبِلَالًا وَخَبَّابًا وَسَالِمًا ، فَعَذَّبُوهُمْ، فَأَمَّا سُمَيَّةُ فَإِنَّهَا رُبِطَتْ بَيْنَ بَعِيرَيْنِ وَوُجِئَ قُبُلُها بحربة فقتلت وقتل زوجها ياسر ، وَهُمَا أَوَّلُ قَتِيلَيْنِ قُتِلَا

(١) البخاري (٥١٩١) ومسلم (١٧٧٣) .

فِي الْإِسْلَامِ، وَأَمَّا عَمَّارٌ فَإِنَّهُ أَعْطَاهُمْ ما أرادوا بلسانه مكرها، فَأَتَىٰ عَمَّارٌ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ يَبْكِي، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَا وَرَاءَكَ**؟ قَالَ: شَرٌّ يَا رَسُولَ اللهِ نِلْتُ منهم وذكرت آلهتهم بخير، قَالَ: **كَيْفَ وَجَدْتَ قَلْبَكَ**؟ قَالَ: مُطْمَئِنًّا بِالْإِيمَانِ، فَجَعَلَ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَمْسَحُ عَيْنَيْهِ وَقَالَ: **إِنْ عَادُوا لَكَ فَعُدْ لَهُمْ بِمَا قُلْتَ**، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةَ» .

فائدة : الْإِكْرَاهُ: الْإِلْجَاءُ إِلَىٰ فِعْلِ مَا يُكْرَهُ فِعْلُهُ. وَإِنَّمَا يَكُونُ ذَلِكَ بِفِعْلِ شَيْءٍ تَضِيقُ عَنْ تَحَمُّلِهِ طَاقَةُ الْإِنْسَانِ مِنْ إِيلَامٍ بَالِغٍ أَوْ سَجْنٍ أَوْ قَيْدٍ أَوْ نَحْوِهِ. وَقَدْ رَخَّصَتْ هَذِهِ الْآيَةُ لِلْمُكْرَهِ عَلَىٰ إِظْهَارِ الْكُفْرِ أَنْ يُظْهِرَهُ بِشَيْءٍ مِنْ مَظَاهِرِهِ الَّتِي يُطْلَقُ عَلَيْهَا أَنَّهَا كُفْرٌ فِي عُرْفِ النَّاسِ مِنْ قَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ، قوله : ﴿وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ هذا تَرْخِيصٌ وَمَعْذِرَةٌ لِمَا صَدَرَ مِنْ عَمَّارِ بْنِ يَاسِرٍ وَأَمْثَالِهِ إِذَا اشْتَدَّ عَلَيْهِمْ عَذَابُ مَنْ فَتَنُوهُمْ ، ﴿وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا﴾ أي: فتح صدره بالكفر بالقبول فاختاره، ﴿فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ وَأَجْمَعَ الْعُلَمَاءُ عَلَىٰ أَنْ مَنْ أُكْرِهَ عَلَىٰ كَلِمَةِ الْكُفْرِ، يَجُوزُ لَهُ أَنْ يَقُولَ بِلِسَانِهِ، وَإِذَا قَالَ بِلِسَانِهِ غَيْرَ مُعْتَقِدٍ لَا يَكُونُ كُفْرًا وَإِنْ أَبَىٰ أَنْ يَقُولَ حَتَّىٰ يُقْتَلَ كَانَ أَفْضَلَ.

وَذَكَرَ الْحَافِظُ ابْنُ عَسَاكِرَ فِي تَرْجَمَةِ عَبْدِ اللهِ بْنِ حُذَافَةَ السَّهْمِيِّ -أَحَدِ الصَّحَابَةِ-: أَنَّهُ أَسَرَتْهُ الرُّومُ، فَجَاؤُوا بِهِ إِلَىٰ مَلِكِهِمْ، فَقَالَ لَهُ: تَنَصَّرْ وَأَنَا أُشْرِكُكَ فِي مُلْكِي وَأُزَوِّجُكَ ابْنَتِي. فَقَالَ لَهُ: لَوْ أَعْطَيْتَنِي جَمِيعَ مَا تَمْلِكُ وَجَمِيعَ مَا تَمْلِكُهُ الْعَرَبُ عَلَىٰ أَنْ أَرْجِعَ عَنْ دِينِ مُحَمَّدٍ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- طَرْفَةَ عَيْنٍ

مَا فَعَلْتُ! فَقَالَ: إِذَنْ أَقْتُلُكَ. قَالَ: أَنْتَ وَذَاكَ! قَالَ: فَأَمَرَ بِهِ فَصُلِبَ، وَأَمَرَ الرُّمَاةَ فَرَمَوْهُ قَرِيبًا مِنْ يَدَيْهِ وَرِجْلَيْهِ، وَهُوَ يَعْرِضُ عَلَيْهِ دِينَ النَّصْرَانِيَّةِ فَيَأْبَىٰ، ثُمَّ أَمَرَ بِهِ فَأُنْزِلَ، ثُمَّ أَمَرَ بِقِدْرٍ -وَفِي رِوَايَةٍ: بِبَقَرَةٍ مِنْ نُحَاسٍ- فَأُحْمِيَتْ، وَجَاءَ بِأَسِيرٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَأَلْقَاهُ وَهُوَ يَنْظُرُ، فَإِذَا هُوَ عِظَامٌ تَلُوحُ، وَعَرَضَ عَلَيْهِ فَأَبَىٰ، فَأَمَرَ بِهِ أَنْ يُلْقَىٰ فِيهَا، فَرُفِعَ فِي الْبَكْرَةِ لِيُلْقَىٰ، فَبَكَىٰ، فَطَمِعَ فِيهِ وَدَعَاهُ فَقَالَ لَهُ: إِنِّي إِنَّمَا بَكَيْتُ لِأَنَّ نَفْسِي إِنَّمَا هِيَ وَاحِدَةٌ، تُلْقَىٰ فِي هَذَا الْقِدْرِ السَّاعَةَ فِي اللهِ، فَأَحْبَبْتُ أَنْ يَكُونَ لِي بِعَدَدِ كُلِّ شَعْرَةٍ فِي جَسَدِي نَفْسٌ تُعَذَّبُ هَذَا الْعَذَابَ فِي اللهِ، وَفِي بَعْضِ الرِّوَايَاتِ: أَنَّهُ سَجَنَهُ وَمَنَعَ عَنْهُ الطَّعَامَ وَالشَّرَابَ أَيَّامًا، ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَيْهِ بِخَمْرٍ وَلَحْمِ خِنْزِيرٍ، فَلَمْ يَقْرَبْهُ، ثُمَّ اسْتَدْعَاهُ فَقَالَ: مَا مَنَعَكَ أَنْ تَأْكُلَ؟ قَالَ: أَمَا إِنَّهُ قَدْ حَلَّ لِي، وَلَكِنْ لَمْ أَكُنْ لِأُشْمِتَكَ فِيَّ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: فَقَبِّلْ رَأْسِي وَأَنَا أُطْلِقُكَ. فَقَالَ: وَتُطْلِقُ مَعِي جَمِيعَ أَسَارَىٰ الْمُسْلِمِينَ؟ قَالَ: نَعَمْ، فَقَبَّلَ رَأْسَهُ، فَأَطْلَقَهُ وَأَطْلَقَ مَعَهُ جَمِيعَ أَسَارَىٰ الْمُسْلِمِينَ عِنْدَهُ، فَلَمَّا رَجَعَ قَالَ عُمَرُ ابْنُ الْخَطَّابِ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-: حَقٌّ عَلَىٰ كُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يُقَبِّلَ رَأْسَ عَبْدِ اللهِ بْنِ حُذَافَةَ، وَأَنَا أَبْدَأُ، فَقَامَ فَقَبَّلَ رَأْسَهُ، رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

[١٠٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا﴾ آثروا، واسْتَحَبُّوا مُبَالَغَةٌ فِي (أَحَبُّوا) مِثْلَ اسْتَأْخَرَ أَيْ لِأَنَّهُمْ قَدَّمُوا نَفْعَ الدُّنْيَا عَلَىٰ نَفْعِ الْآخِرَةِ، لِأَنَّهُمْ قَدِ اسْتَقَرَّ فِي قُلُوبِهِمْ أَحَقِّيَّةُ الْإِسْلَامِ وَمَا رَجَعُوا عَنْهُ إِلَّا خَوْفَ الْفِتْنَةِ أَوْ رَغْبَةً فِي

رَفَاهِيَةِ الْعَيْشِ، فَيَكُونُ كُفْرُهُمْ أَشَدَّ مَنْ كُفْرِ مِنْ كفر قَبْلِ الْبَعْثَةِ، ﴿الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَىٰ الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ لَا يُرْشِدُهُمْ.

[١٠٨] قَوْلُهُ تعَالَىٰ : ﴿أُولئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللهُ عَلىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أَيْ عَنْ فَهْمِ الْمَوَاعِظِ، وَالطَّبْعُ: مُسْتَعَارٌ لِمَنْعِ وُصُولِ الْإِيمَانِ إلىٰ قلوب هؤلاء الكفار ﴿وَسَمْعِهِمْ﴾ عَنْ كَلَامِ اللهِ تَعَالَىٰ، ﴿وَأَبْصارِهِمْ﴾ عَنِ النَّظَرِ فِي الْآيَاتِ، ﴿وَأُولئِكَ هُمُ الْغافِلُونَ﴾ عَمَّا يُرَادُ بِهِمْ.

[١٠٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿لَا جَرَمَ﴾ أي حقـًا، ﴿أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾أَيِ الْمَغْبُونُونَ وَالْمَعْنَىٰ: أَنَّ خَسَارَتَهُمْ هِيَ الْخَسَارَةُ، لِأَنَّهُمْ أَضَاعُوا النَّعِيمَ إِضَاعَةً أَبَدِيَّةً.

[١١٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا﴾ عُذِّبُوا وَمُنِعُوا مِنَ الْإِسْلَامِ فَتَنَهُمُ المشركون وَالْمُرَادُ بِـ «الَّذِينَ هَاجَرُوا» الْمُهَاجِرُونَ إِلَىٰ الْحَبَشَةِ الَّذِينَ أَذِنَ لَهُمُ النَّبِيءُ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْهِجْرَةِ لِلتَّخَلُّصِ مِنْ أَذَىٰ الْمُشْرِكِينَ ، وَسَمَّىٰ مَا لَقَوْهُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فِتْنَةً. وَالْفِتْنَةُ: الْعَذَابُ وَالْأَذَىٰ الشَّدِيدُ الْمُتَكَرِّرُ الَّذِي لَا يَتْرُكُ لِمَنْ يَقَعُ بِهِ صَبْرًا وَلَا رَأْيًا، ﴿ثُمَّ جاهَدُوا وَصَبَرُوا﴾ عَلَىٰ الْإِيمَانِ وَالْهِجْرَةِ وَالْجِهَادِ، وَالْمُجَاهَدَةُ: الْمُقَاوَمَةُ بِالْجُهْدِ، أَيِ الطَّاقَةِ ، وَالْمُرَادُ بِالْمُجَاهَدَةِ هُنَا مقاومتهم الْمُشْرِكِينَ عَنْ أَنْ يَرُدُّوهُمْ إِلَىٰ الْكُفْرِ، ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا﴾ مِنْ بَعْدِ تِلْكَ الْفِتْنَةِ وَالْغَفْلَةِ ﴿لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ .

[١١١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ﴾ تخاصم وتحتج، وَالْمُجَادَلَةُ: دِفَاعٌ بِالْقَوْلِ لِلتَّخَلُّصِ مِنْ تَبِعَةِ فِعْلٍ. ﴿عَنْ نَفْسِهَا﴾ بِمَا أَسْلَفَتْ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ مُشْتَغِلًا بِهَا لَا تَتَفَرَّغُ إِلَىٰ غَيْرِهَا، وَالنَّفْسُ الْأَوَّلُ: بِمَعْنَىٰ الذَّاتِ وَالشَّخْصِ والنّفس الثَّانِيَةِ مَا بِالشَّخْصُ من صفات سيئة كانت أم حسنة ، فَالِاخْتِلَافُ بَيْنَهُمَا بِالِاعْتِبَارِ ﴿وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ تُوَفَّىٰ تُعْطَىٰ شَيْئًا وَافِيًا، أَيْ كَامِلًا غَيْرَ مَنْقُوصٍ، وفي الحديث عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: ضَحِكَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ يوم وتبسم، فقال صلىٰ الله عليه وسلم: «**أَلَا تَسْأَلُونِي عَنْ أَيِّ شَيْءٍ ضَحِكْتُ**؟» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ ضَحِكْتَ؟ قال صلىٰ الله عليه وسلم: **عَجِبْتُ مِنْ مُجَادَلَةِ الْعَبْدِ رَبَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يَقُولُ: أي ربي أليس وعدتني أن لا تظلمني، قال: بلىٰ، فيقول: فإنني لَا أَقْبَلُ عليَّ شَاهِدًا إِلَّا مِنْ نَفْسِي، فَيَقُولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: أَوَ لَيْسَ كَفَىٰ بي شهيداً والملائكة الْكِرَامِ الْكَاتِبِينَ - قَالَ - فَيُرَدِّدُ هَذَا الْكَلَامَ مِرَارًا - فَيُخْتَمُ عَلَىٰ فِيهِ، وَتَتَكَلَّمُ أَرْكَانُهُ بِمَا كَانَ يَعْمَلُ، فَيَقُولُ: بُعْدًا لَكُنَّ وَسُحْقًا، عَنْكُنَّ كُنْتُ أجادل**»[1].

[١١٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَضَرَبَ اللهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً﴾ يَعْنِي: مَكَّةَ كَانَتْ آمِنَةً لَا يُهَاجُ أَهْلُهَا وَلَا يُغَارُ عَلَيْهَا، وضَرَبَ: بِمَعْنَىٰ جعَلَ، كَمَا يُقَالُ: أَرْسَلَ فُلَانٌ

(١) مسلم (٢٩٦٩) .

مَثَلًا قَوْلُهُ: كَيْتٌ وَكَيْتٌ ، وَالْأَمْنُ: السَّلَامَةُ مِنْ تَسَلُّطِ الْعَدُوِّ ، قيل: إِنَّهُ مَثَلٌ مَضْرُوبٌ بِأَيِّ قَرْيَةٍ كَانَتْ عَلَىٰ هذه الصفة من سائر القرىٰ. ﴿مُطْمَئِنَّةً﴾ بِأَهْلِهَا لَا يَحْتَاجُونَ إِلَىٰ الِانْتِقَالِ لِلِانْتِجَاعِ كَمَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ سَائِرُ الْعَرَبِ، وَالِاطْمِئْنَانُ: الراحة وَهُدُوءُ الْبَالِ، وَقَدَّمَ الْأَمْنَ عَلَىٰ الطُّمَأْنِينَةِ إِذْ لَا تَحْصُلُ الطُّمَأْنِينَةُ بِدُونِهِ، كَمَا أَن الْخَوْف يسبّب الِانْزِعَاجِ وَالْقَلَقِ ، ﴿يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾ يُحْمَلُ إِلَيْهَا مِنَ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ، نَظِيرُهُ: ﴿يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ ، وَالرَّغَدُ: العيش الْهَنِيءُ. ﴿فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ﴾ جَمْعُ النِّعْمَةِ، وَقِيلَ: جَمْعُ نَعْمَاءَ مِثْلِ بَأْسَاءَ وَأَبْؤُسٍ، وَمَعْنَىٰ الْكُفْرِ بِأَنْعُمِ اللهِ: الْكُفْرُ بِالْمُنْعِمِ، لِأَنَّهُمْ أَشْرَكُوا غَيْرَهُ فِي عِبَادَتِهِ فَلَمْ يَشْكُرُوا الْمُنْعِمَ الْحَقَّ ، ﴿فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ﴾ وَالْإِذَاقَةُ: حَقِيقَتُهَا إِحْسَاسُ اللِّسَانِ بِأَحْوَالِ الطّعام، وَهِيَ مُسْتَعَارَةٌ هُنَا - وَفِي مَوَاضِعَ مِنَ الْقُرْآنِ - إِلَىٰ إِحْسَاسِ الْأَلَمِ وَالْأَذَىٰ إِحْسَاسًا مَكِينًا ، كَتَمَكُّنِ ذَوْقِ الطَّعَامِ مِنْ فَمِ ذَائِقِهِ لَا يَجِدُ لَهُ مِدْفَعًا، وقد ابْتَلَىٰ اللهُ تعالىٰ أهل مكة بِالْجُوعِ سَبْعَ سِنِينَ وَقَطَعَتِ الْعَرَبُ عَنْهُمُ الْمِيرَةَ بِأَمْرِ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وسلم حتىٰ جهدوا وأكلوا الْعِظَامَ الْمُحَرَّقَةَ، وَالْجِيَفَ وَالْكِلَابَ الْمَيِّتَةَ، ثُمَّ إِنَّ رُؤَسَاءَ مَكَّةَ كَلَّمُوا رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وسلم وقالوا: ما هذا؟ هبك عَادَيْتَ الرِّجَالَ ، فَمَا بَالُ النِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ؟ فَأَذِنَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِلنَّاسِ بِحَمْلِ الطَّعَامِ إِلَيْهِمْ وَهُمْ بَعْدُ مُشْرِكُونَ، وَذَكَرَ اللِّبَاسَ لِأَنَّ مَا أَصَابَهُمْ مِنَ الْهُزَالِ وَالشُّحُوبِ وَتَغَيُّرِ ظَاهِرِهِمْ عَمَّا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ قَبْلُ كاللباس لهم، ﴿وَالْخَوْفِ﴾ يَعْنِي:

بُعُوثَ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَسَرَايَاهُ الَّتِي كَانَتْ تُطِيفُ بِهِمْ ، وَإِضَافَة الخوف إِلَىٰ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ قَرِينَةٌ عَلَىٰ أَنَّهُ مُسْتَعَارٌ إِلَىٰ مَا يُغْشَىٰ مِنْ حَالَةِ إِنْسَانٍ مُلَازِمَةٍ لَهُ كَمُلَازَمَةِ اللِّبَاسِ لَابِسَهُ، ﴿بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ عن عُبيدِ الله بن مِحْصَن الخطمي -وكانت له صحبة- قال: قال رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم: « **مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُم آمِنًا فِي سِرْبِهِ، مُعَافًىٰ فِي جَسَدِهِ، عِنْدَهُ قوتُ يومِه، فكأنما حِيزت له الدنيا**»(١) ، وَحِيزت: أي جُمِعَت.

[١١٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ ، قَالَ الْقُرْطُبِيُّ: هَذَا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهَا مَكَّةُ، وَهُوَ قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٍ وَقَتَادَةَ ، ﴿فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ﴾ وَهُوَ الْجُوعُ الَّذِي وَقَعَ بِمَكَّةَ ، وَقِيلَ: الشَّدَائِدُ وَالْجُوعُ مِنْهَا، وَمِنْ ذَلِكَ الْعَذَابِ: أَنَّهُمْ لَمَّا اسْتَعْصَوْا عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَأَبَوْا إِلَّا خِلَافَهُ، دَعَا عَلَيْهِمْ بِسَبْعٍ كَسَبْعِ يُوسُفَ، فَأَصَابَتْهُمْ سَنَةٌ أَذْهَبَتْ كُلَّ شَيْءٍ لَهُمْ، فَأَكَلُوا الْعِلْهِزَ، وَهُوَ: وَبَرُ الْبَعِيرِ، يُجْعَلُ بِدَمِهِ إِذَا نَحَرُوهُ، ثُمَّ إِنَّهُمْ بُدِّلُوا بِأَمْنِهِمْ خَوْفًا مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَأَصْحَابِهِ -كَمَا ذَكَرَ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللهُ- حِينَ هَاجَرُوا إِلَىٰ الْمَدِينَةِ، مِنْ سَطْوَةِ سَرَايَاهُ وَجُيُوشِهِ، وَجَعَلُوا كُلَّ مَالِهِمْ فِي سَفَالٍ وَدَمَارٍ، حَتَّىٰ فَتَحَهَا اللهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ ﷺ. وَذَلِكَ بِسَبَبِ صَنِيعِهِمْ وَبَغْيِهِمْ وَتَكْذِيبِهِمُ الرَّسُولَ ﷺ الَّذِي بَعَثَهُ اللهُ فِيهِمْ مِنْهُمْ، وَامْتَنَّ بِهِ عَلَيْهِمْ فِي قَوْلِهِ:

(١) الترمذي (٢٣٤٦) وابن ماجه (٤١٤١) .

﴿لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَىٰ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

[١١٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ حَلالا طَيِّبًا﴾ أَيْ كُلُوا يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ مِنَ الْغَنَائِمِ، وَقِيلَ: الْخِطَابُ لِلْمُشْرِكِينَ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعَثَ إِلَيْهِمْ بِطَعَامٍ رِقَّةً عَلَيْهِمْ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ لَمَّا ابْتُلُوا بِالْجُوعِ سَبْعَ سِنِينَ، وَقَطَعَ الْعَرَبُ عَنْهُمُ الْمِيرَةَ بِأَمْرِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَكَلُوا الْعِظَامَ الْمُحْرَقَةَ وَالْجِيفَةَ وَالْكِلَابَ الْمَيِّتَةَ وَالْجُلُودَ ثُمَّ إِنَّ رُؤَسَاءَ مَكَّةَ كَلَّمُوا رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ جَهِدُوا وَقَالُوا: هَذَا عَذَابُ الرِّجَالِ فَمَا بَالُ النِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ، وَقَالَ لَهُ أَبُو سُفْيَانَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّكَ جِئْتَ تَأْمُرُ بِصِلَةِ الرَّحِمِ وَالْعَفْوِ، وَإِنَّ قَوْمَكَ قَدْ هَلَكُوا، فَادْعُ اللهَ لَهُمْ. فَدَعَا لَهُمْ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَذِنَ لِلنَّاسِ بِحَمْلِ الطعام إليهم وهم بعد مشركون، قوله: ﴿وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾، أَمْرٌ مِنَ اللهِ سُبْحَانَهُ عِبَادَهُ بِتَخَيُّرِ الْحَلَالِ الطَّيِّبِ مِنَ الرِّزْقِ وَاجْتِنَابِ الْخَبِيثِ الْحَرَامِ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالطَّعَامِ، وَالْتِمَاسِ شُكْرِهِ عَلَىٰ نِعَمِهِ تَعَالَىٰ، فَهُوَ الْمُنْعِمُ الْمُتَفَضِّلُ الَّذِي يَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، الشُّكْرُ: هُوَ الثَّنَاءُ عَلَىٰ الْمُحْسِنِ بِمَا أَوْلَاهُ مِنَ الْمَعْرُوفِ، وَالِاعْتِرَافُ بِنِعْمَةِ الْمُنْعِمِ عَلَىٰ وَجْهِ الْخُضُوعِ، وَالثَّنَاءُ عَلَىٰ الْمُحْسِنِ بِذِكْرِ إِحْسَانِهِ، وَرُؤْيَةِ النِّعَمِ وَالْمُنْعِمِ، وَاسْتِفْرَاغِ الطَّاقَةِ فِي الطَّاعَةِ، وَأَنْ لَا تَعْصِيَ اللهَ بِنِعَمِهِ.

[١١٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ﴾ ، هُوَ تَحْرِيمُ اللهِ تَعَالَىٰ مَا فِيهِ مَضَرَّةٌ فِي الدِّينِ وَالدُّنْيَا؛ مِنَ الْمَيْتَةِ وَالدَّمِ وَلَحْمِ الْخِنْزِيرِ وَمَا ذُبِحَ عَلَىٰ غَيْرِ اسْمِ اللهِ مِنْ ذَبَائِحِ الْجَاهِلِيَّةِ، قَالَ قَتَادَةُ : إِنَّ الْإِسْلَامَ دِينٌ يُطَهِّرُهُ اللهُ مِنْ كُلِّ سُوءٍ، وَجَعَلَ لَكَ فِيهِ يَا ابْنَ آدَمَ سَعَةً إِذَا اضْطُرِرْتَ إِلَىٰ شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ غَيْرَ بَاغٍ فِي أَكْلِهِ وَلَا عَادٍ أَنْ يَتَعَدَّىٰ حَلَالًا إِلَىٰ حَرَامٍ، وَهُوَ يَجِدُ عَنْهُ مَنْدُوحَةً، قَالَ ابْنُ عَاشُورٍ: وَمُنَاسَبَةُ هَذَا التَّحْدِيدِ فِي الْمُحَرَّمَاتِ أَنَّ بَعْضَ الْمُسْلِمِينَ كَانُوا بِأَرْضِ غُرْبَةٍ وَقَدْ يُؤْكَلُ فِيهَا لَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللهِ، وَكَانَ بَعْضُهُمْ بِبَلَدٍ يُؤْكَلُ فِيهِ الدَّمُ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللهِ. وقوله: ﴿فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ، قال الطبري: يقول: ذو ستر عليه أن يؤاخذه بأكله ذلك في حال الضرورة، رحيم به أن يعاقبه عليه.

[١١٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ﴾ أَيْ: لَا تَقُولُوا لِوَصْفِ أَلْسِنَتِكُمْ أَوْ لِأَجْلِ وَصْفِكُمُ الْكَذِبَ أَيْ: أَنَّكُمْ تُحِلُّونَ وَتُحَرِّمُونَ لِأَجْلِ الْكَذِبِ لَا لِغَيْرِهِ، ﴿هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ﴾ يَعْنِي الْبَحِيرَةَ وَالسَّائِبَةَ، ﴿لِتَفْتَرُوا عَلَىٰ اللهِ الْكَذِبَ﴾ فَتَقُولُونَ إِنَّ اللهَ أَمَرَنَا بِهَذَا، ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَىٰ اللهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ لَا يَنْجُونَ مِنْ عَذَابِ اللهِ، قال ابن كثير: نهىٰ تعالىٰ عن سلوك سبيل المشركين الذين حَلَّلوا وحرَّموا بمجرد ما وضعوه واصطلحوه عليه من الأسماء بآرائهم، من البحِيرة والسائِبة والوصيلةِ والحام، وغير ذلك مما كان شَرْعًا لهم ابتدعوه في جاهليّتهم. ثم قال: ويدخل في هذا كلُّ مُبْتَدِعٍ

ابتدع بِدْعةً ليس له فيها مستند شرعي، أو حَلَّلَ شيئًا مما حرّمَ الله، أو حَرَّمَ شيئًا مما أباح الله، بمجرَّدِ رأيه وتشهِّيهِ، وفي هذه الآية أيضـًا تحذير من التقول علىٰ الله تعالىٰ بغير علم : عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلىٰ الله عليه وسلم: « **مَنْ أُفْتِيَ بِغَيْرِ عِلْمٍ كَانَ إِثْمُهُ عَلَىٰ مَنْ أَفْتَاهُ** »(١).

[١١٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ﴾ يَعْنِي: الَّذِي هُمْ فِيهِ مَتَاعٌ قَلِيلٌ أَوْ لَهُمْ مَتَاعٌ قَلِيلٌ فِي الدُّنْيَا، وَالْمَتَاعُ: الشَّيْءُ الَّذِي يُشْتَرَىٰ لِلتَّمَتُّعِ بِهِ ، وَالْمَتَاعُ: الْمَنْفَعَةُ الْعَاجِلَةُ، وفي الحديث أن رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم قال : « **مَا الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا كَمَا يُدْخِلُ أَحَدُكُمْ يَدَهُ فِي الْيَمِّ [يعني البحر]، فَلْيَنْظُرْ بِمَا يَرْجِعُ**»(٢)، قوله : ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فِي الْآخِرَةِ.

[١١٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَعَلَىٰ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ﴾ لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَىٰ أَنَّهُ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْنَا الْمَيْتَةَ والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به، ذَكَرَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مَا كَانَ حَرَّمَهُ عَلَىٰ الْيَهُودِ فِي شَرِيعَتِهِمْ قَبْلَ أَنْ يَنْسَخَهَا، وَمَا كانوا فيه من الآصار والتضيق والأغلال والحرج ، ذكر اليهود هنا ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ﴾ بِتَحْرِيمِ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ، ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أَيْ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ بِمَا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ وَلَكِنَّهُمْ كَفَرُوا النِّعْمَةَ فَحُرِمُوا مِنْ نَعَمٍ عَظِيمَةٍ.

---

(١) أبو داود (٣٦٥٧) وابن ماجه (٥٣) .

(٢) مسلم (٢٨٥٨) .

[١١٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ﴾ ، وَالْجَهَالَةُ: انْتِفَاءُ الْعِلْمِ بِمَا يَجِبُ، وَالْمُرَادُ: جَهَالَتُهُمْ بِأَدِلَّةِ الْإِسْلَامِ ، قَالَ قَتَادَةُ: أَجْمَعَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَىٰ أَنَّ كُلَّ مَعْصِيَةٍ فَهِيَ بِجَهَالَةٍ، عَمْدًا كَانَتْ أَوْ جَهْلًا، وَقَالَ الزَّجَّاجُ: يَعْنِي قَوْلَهُ ﴿بِجهالَةٍ﴾ اخْتِيَارَهُمُ اللَّذَّةَ الْفَانِيَةَ عَلَىٰ اللَّذَّةِ الْبَاقِيَةِ ، ﴿ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا﴾ يعني: بالإصلاح والاستقامة عَلَىٰ التَّوْبَةِ، ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا﴾ أَيْ: مِنْ بَعْدِ الْجَهَالَةِ، ﴿لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ وقد جاء في حديث ابْنِ عُمَرَ ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: « **إِنَّ اللهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ مَا لَمْ يُغَرْغِرْ** »(١)، وَمَعْنَىٰ مَا لَمْ يُغَرْغِرْ: مَا لَمْ تَبْلُغْ رُوحُهُ حُلْقُومَهُ، فَيَكُونُ بِمَنْزِلَةِ الشَّيْءِ الَّذِي يُتَغَرْغَرُ به.

[١٢٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: الْأُمَّةُ مُعَلِّمُ الخير أي: كان معلم الخير، يَأْتَمُّ بِهِ أَهْلُ الدُّنْيَا، وَقَدِ اجْتَمَعَ فِيهِ مِنَ الْخِصَالِ الْحَمِيدَةِ ما اجتمع فِي أُمَّةٍ، قَالَ مُجَاهِدٌ: كَانَ مُؤْمِنًا وَحْدَهُ وَالنَّاسُ كُلُّهُمْ كُفَّارٌ ، قَالَ قَتَادَةُ: لَيْسَ مِنْ أَهْلِ دِينٍ إِلَّا يَتَوَلَّوْنَهُ وَيَرْضَوْنَهُ عَنْ مَالِكٍ قَالَ: بَلَغَنِي أَنَّ عَبْدَ اللهِ بْنَ مسعود قَالَ: يَرْحَمُ اللهُ مُعَاذًا! كَانَ أُمَّةً قَانِتًا، فَقِيلَ لَهُ: يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ، إِنَّمَا ذَكَرَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهَذَا إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ. ﴿قَانِتًا لِلَّهِ﴾ مطيعً ، وَقِيلَ : قَائِمًا بِأَوَامِرِ اللهِ تَعَالَىٰ، قال ابن عباس: قَالَ: كَانَ علىٰ الْإِسْلَامِ وَلم يكن فِي

---

(١) الترمذي (٣٥٣٧) وابن ماجه (٤٢٥٣) .

زَمَانه من قومه أحد علىٰ الْإِسْلَام غَيره فَلذَلِك قَالَ الله تعالىٰ : ﴿كَانَ أمة قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا﴾ مُسْتَقِيمًا عَلَىٰ دِينِ الْإِسْلَامِ، وَقِيلَ: مُخْلِصًا، وَالْحَنِيفُ: الْمُجَانِبُ لِلْبَاطِلِ، وقوله : ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَىٰ الْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ، أَوْ يُنَصِّرَانِهِ، أَوْ يُمَجِّسَانِهِ كَمَا تُولَدُ البهيمة بهيمة جمعاء هل تجدون بها مِنْ جَدْعَاءَ ؟**»(١)، وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ عِيَاضِ بن حماد قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « **قَالَ اللهُ عَزَّ وجلَّ: إِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فاجتالتهم** (صرفتهم عن الهدىٰ) **عَنْ دِينِهِمْ، وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ** »(٢).

[١٢١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿شاكِراً﴾ أَيْ كَانَ شَاكِرًا ، ﴿لِأَنْعُمِهِ﴾ الْأَنْعُمُ جَمْعُ نِعْمَةٍ ﴿اجْتَباهُ﴾ أَيِ اخْتَارَهُ واصطفاه ، ﴿وَهَداهُ إِلىٰ صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أَيْ: إِلَىٰ دِينِ الْحَقِّ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:« **أَرْبَعٌ مَنْ أُعْطِيَهُنَّ فَقَدْ أُعْطِيَ خَيْرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ: قَلْبًا شَاكِرًا، وَلِسَانًا ذَاكِرًا، وَبَدَنًا عَلَىٰ الْبَلَاءِ صَابِرًا، وَزَوْجَةً لَا تَبْغِيهِ خَوْنًا فِي نَفْسِهَا وَلَا فِي مَالِهِ** »(٣).

---

(١) البخاري (١٣٥٨) .

(٢) مسلم (٢٨٦٥) .

(٣) الطبراني (١١٢٧٥) .

[١٢٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ يَعْنِي الرِّسَالَةَ وَالْخُلَّةَ ، وَقِيلَ: لِسَانَ الصِّدْقِ وَالثَّنَاءَ الْحَسَنَ ، وَقَالَ مُقَاتِلُ بن حيان : يعني الصلاة عليه فِي قَوْلِ هَذِهِ الْأُمَّةِ: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَعَلَىٰ آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وآل إِبْرَاهِيمَ، وَقِيلَ: أَوْلَادًا أَبْرَارًا عَلَىٰ الْكِبَرِ. وَقِيلَ: الْقَبُولُ الْعَامُّ فِي جَمِيعِ الْأُمَمِ. وقيل الْحَسَنَةُ فِي الدُّنْيَا: كُلُّ مَا فِيهِ رَاحَةُ الْعَيْشِ مِنِ اطْمِئْنَانِ الْقَلْبِ بِالدِّينِ، وَالصِّحَّةِ، وَالسَّلَامَةِ، وَطُولِ الْعُمْرِ، وَسَعَةِ الرِّزْقِ الْكَافِي، وَحُسْنِ الذِّكْرِ بَيْنَ النَّاسِ ﴿وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ مَعَ آبَائِهِ الصَّالِحِينَ فِي الْجَنَّةِ. وَفِي الْآيَةِ تَقْدِيمٌ وَتَأْخِيرٌ مَجَازُهُ: وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ حَسَنَةً، وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّالِحِينَ، قال القرطبي : (مِنْ) بِمَعْنَىٰ مَعَ، أَيْ مَعَ الصَّالِحِينَ، لِأَنَّهُ كَانَ فِي الدُّنْيَا أَيْضًا مَعَ الصَّالِحِينَ.

[١٢٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ حَاجًّا مُسْلِمًا، قَالَ ابْنُ عُمَرَ: أَمَرَ بِاتِّبَاعِهِ فِي مَنَاسِكَ الْحَجِّ كَمَا عَلَّمَ إِبْرَاهِيمَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ ، وَقَالَ الطَّبَرِيُّ: أَمَرَ بِاتِّبَاعِهِ فِي التَّبَرُّؤِ مِنَ الْأَوْثَانِ وَالتَّزَيُّنِ بِالْإِسْلَامِ، ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ وَقَالَ أَهْلُ الْأُصُولِ: كَانَ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَأْمُورًا بِشَرِيعَةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَا نُسِخَ فِي شَرِيعَتِهِ، وَمَا لَمْ يُنْسَخْ صار شرعـًا.

[١٢٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَىٰ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ أي: خالفوا فِيهِ. قِيلَ: مَعْنَاهُ إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ لَعْنَةً عَلَىٰ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ، وَقِيلَ:

مَعْنَاهُ مَا فَرَضَ اللهُ تَعْظِيمَ السَّبْتِ وَتَحْرِيمَهُ إِلَّا علىٰ الذين اختلفوا فيه، يعني اليهود، قَالَ قَتَادَةُ: الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ هُمُ الْيَهُودُ اسْتَحَلَّهُ بَعْضُهُمْ وَحَرَّمَهُ بَعْضُهُمْ. رَوَىٰ الصَّحِيحُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « **نَحْنُ الْآخِرُونَ الْأَوَّلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَنَحْنُ أَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ بَيْدَ أَنَّهُمْ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِنَا ، وَأُوتِينَاهُ مِنْ بَعْدِهِمْ فَاخْتَلَفُوا فِيهِ ، فَهَدَانَا اللهُ لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ ، فهذا يومهم الذي اخْتَلَفُوا فِيهِ فَهَدَانَا اللهُ لَهُ- قَالَ يَوْمُ الْجُمْعَةِ- فَالْيَوْمُ لَنَا وَغَدًا لِلْيَهُودِ وَبَعْدَ غَدٍ لِلنَّصَارَىٰ** »(١) ، ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أي بالمجازاة علىٰ اختلافهم، يعني إفسادهم وزيغهم عن طريق الحق .

[١٢٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ﴾ بالقرآن ﴿وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ يَعْنِي مَوَاعِظَ الْقُرْآنِ ، وَقِيلَ: الْمَوْعِظَةُ الْحَسَنَةُ هِيَ الدُّعَاءُ إِلَىٰ اللهِ بالترغيب والترهيب ، وقيل: هو قول اللين الرقيق من غير تغليظ وَلَا تَعْنِيفٍ، وفي الحديث عَنِ الْعِرْبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ أَنَّهُ قَالَ: «**وَعَظَنَا رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَوْعِظَةً وَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ وَذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ**»، الْحَدِيثَ(٢)، قوله : ﴿وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ وَخَاصِمْهُمْ وَنَاظِرْهُمْ بِالْخُصُومَةِ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ أَيْ أَعْرِضْ عَنْ أَذَاهُمْ وَلَا تُقَصِّرْ فِي تَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ وَالدُّعَاءِ إِلَىٰ الْحَقِّ،

---

(١) البخاري (٨٧٦) ومسلم (٨٥٥) .

(٢) أبو داود (٤٦٠٧) والترمذي (٢٦٧٦) .

نَسَخَتْهَا آيَةُ الْقِتَالِ ، ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ قال الطبري : يَقُولُ تَعَالَىٰ ذِكْرُهُ لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: وَإِنَّكَ يَا مُحَمَّدُ لَعَلَىٰ أَدَبٍ عَظِيمٍ، وَذَلِكَ أَدَبُ الْقُرْآنِ الَّذِي أَدَّبَهُ اللهُ بِهِ، وَهُوَ الْإِسْلَامُ وَشَرَائِعُهُ.

[١٢٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾ هَذِهِ الْآيَاتُ نَزَلَتْ بِالْمَدِينَةِ فِي شُهَدَاءِ أُحُدٍ ، وَذَلِكَ أَنَّ الْمُسْلِمِينَ لَمَّا رَأَوْا مَا فَعَلَ الْمُشْرِكُونَ بِقَتْلَاهُمْ يَوْمَ أُحُدٍ مِنْ تَبْقِيرِ الْبُطُونِ وَالْمُثْلَةِ السَّيِّئَةِ حَتَّىٰ لَمَّ يَبْقَ أَحَدٌ مِنْ قَتْلَىٰ الْمُسْلِمِينَ إِلَّا مُثِّلَ بِهِ غَيْرَ حَنْظَلَةَ بْنِ الرَّاهِبِ فَإِنَّ أَبَاهُ أَبَا عمر الرَّاهِبَ كَانَ مَعَ أَبِي سُفْيَانَ فَتَرَكُوا حَنْظَلَةَ لِذَلِكَ، فَقَالَ الْمُسْلِمُونَ حِينَ رَأَوْا ذَلِكَ: لَئِنْ أَظْهَرَنَا اللهُ عَلَيْهِمْ لَنَزِيدَنَّ عَلَىٰ صَنِيعِهِمْ وَلَنُمَثِّلَنَّ بِهِمْ مُثْلَةً لَمْ يَفْعَلْهَا أَحَدٌ مِنَ الْعَرَبِ بِأَحَدٍ، فَوَقَفَ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَىٰ عَمِّهِ حَمْزَةَ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ وَقَدْ جَدَعُوا أَنْفَهُ وَأُذُنَهُ وَقَطَعُوا مَذَاكِيرَهُ وَبَقَرُوا بَطْنَهُ فقال: «لَئِنْ أَظْفَرَنِي اللهُ بِهِمْ لَأُمَثِّلَنَّ بِسَبْعِينَ مِنْهُمْ مَكَانَكَ» ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَىٰ: (وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا) الْآيَةَ ، قوله : ﴿وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ أَيْ: وَلَئِنْ عَفَوْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلْعَافِينَ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عليه وسلم: «بل نصير، وَأَمْسَكَ عَمَّا أَرَادَ وَكَفَّرَ عَنْ يَمِينِهِ» ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَالضَّحَاكُ: كَانَ هَذَا قَبْلَ نُزُولِ بَرَاءَةٌ حِينَ أَمَرَ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِقِتَالِ مَنْ قَاتَلَهُ وَمُنِعَ مِنَ الِابْتِدَاءِ بِالْقِتَالِ، فَلَمَّا أعز الْإِسْلَامَ وَأَهْلَهُ نَزَلَتْ بَرَاءَةٌ، وَأُمِرُوا بالجهاد ونسخت هذه الآية، قال النَّخَعِيُّ وَالثَّوْرِيُّ وَمُجَاهِدٌ

وَابْنُ سِيرِينَ: الآية محكمة نزلت فيمن ظُلِمَ بِظُلَامَةٍ فَلَا يَحِلُّ لَهُ أَنْ يَنَالَ مِنْ ظَالِمِهِ أَكْثَرَ مِمَّا نَالَ الظَّالِمُ مِنْهُ، أُمِرَ بِالْجَزَاءِ وَالْعَفْوِ وَمُنِعَ مِنَ الِاعْتِدَاءِ، ثُمَّ قَالَ لِنَبِيِّهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال ابن كثير : وَهَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ لَهَا أَمْثَالٌ فِي الْقُرْآنِ، فَإِنَّهَا مُشْتَمِلَةٌ عَلَىٰ مَشْرُوعِيَّةِ الْعَدْلِ وَالنَّدْبِ إِلَىٰ الْفَضْلِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ: ﴿وَجَزَآءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾، ثُمَّ قَالَ: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ علىٰ اللهِ﴾، الآية.

[١٢٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللهِ﴾ أَيْ: بِمَعُونَةِ اللهِ وَتَوْفِيقِهِ، تَأْكِيدٌ لِلْأَمْرِ بالصبر، وإخبار بأن ذلك لا ينال إلاّ بِمَشِيئَةِ اللهِ وَإِعَانَتِهِ، وَحَوْلِهِ وَقُوَّتِهِ، ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ فِي إِعْرَاضِهِمْ عَنْكَ، ﴿وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾ أَيْ غَمٍّ، مما فعلوا من الأفاعيل، وَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: الضِّيقُ بِالْكَسْرِ فِي قِلَّةِ الْمَعَاشِ وَفِي الْمَسَاكِنِ، فَأَمَّا مَا كَانَ فِي الْقَلْبِ والصدر فإنه بفتح الضاد ، وَالْمَعْنَىٰ: لَا يَضِيقُ صَدْرُكَ مِنْ كُفْرِهِمْ.

[١٢٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ أَيِ اتَّقَوُا الْفَوَاحِشَ وَالْكَبَائِرَ بِالنَّصْرِ وَالْمَعُونَةِ وَالْفَضْلِ وَالْبِرِّ وَالتَّأْيِيدِ ، وَتَقَدَّمَ مَعْنَىٰ الْإِحْسَانِ، وَقِيلَ لِهَرَمِ بْنِ حِبَّانَ عِنْدَ مَوْتِهِ: أَوْصِنَا، فَقَالَ: أوصيكم بآيات الله وآخر سورة ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ إِلَىٰ آخِرِهَا.

تَمَّ تَفْسِيرُ سُورَةِ النَّحْلِ بِعَوْنِ اللهِ وَتَوْفِيقِهِ، وَوَاسِعِ مَنِّهِ وَكَرَمِهِ

سُورَةِ الْإِسْرَاءِ

سُمِّيَتْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْمَصَاحِفِ سُورَةَ الْإِسْرَاءِ، وَهِيَ مَكِّيَّةٌ عِنْدَ الْجُمْهُورِ، وَصَرَّحَ الْأُلُوسِيُّ بِأَنَّهَا سُمِّيَتْ بِذَلِكَ، إِذْ قَدْ ذُكِرَ فِي أَولهَا الْإِسْرَاء بالنبيء صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَاخْتُصَّتْ بِذِكْرِهِ، وَتُسَمَّىٰ فِي عَهْدِ الصَّحَابَةِ سُورَةَ بَنِي إِسْرَائِيلَ. عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ أَنَّهُ قَالَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ وَالْكَهْفِ وَمَرْيَمَ: «إِنَّهُنَّ مِنَ الْعِتَاقِ الْأُوَلِ وَهُنَّ مِنْ تِلَادِي»، يعني السورة، أي من قديم ما أخذت من القرآن، شبههن بتلاد المال، وهو: المال القديم الأصلي الذي وُلِدَ عندك، وَجْهُ ذَلِكَ أَنَّهَا ذُكِرَ فِيهَا مِنْ أَحْوَالِ بَنِي إِسْرَائِيلَ مَا لَمْ يُذْكَرْ فِي غَيْرِهَا، وَهُوَ اسْتِيلَاءُ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ (الْآشُورِيِّينَ) عَلَيْهِمْ ثُمَّ اسْتِيلَاءُ قَوْمٍ آخَرِينَ وَهُمُ (الرُّومُ) عَلَيْهِمْ.

[١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ سبحان الله تنزه اللهِ تَعَالَىٰ مِنْ كُلِّ سُوءٍ ووصف بِالْبَرَاءَةِ مَنْ كُلِّ نَقْصٍ عَلَىٰ طريق المبالغة وتكون سُبْحَانَ بِمَعْنَىٰ التَّعَجُّبِ، أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ، أَيْ: سَيَّرَهُ، وَكَذَلِكَ سَرَىٰ بِهِ، بِمَعْنَىٰ سَارَ فِي اللَّيْلِ، وَقِيلَ: أَسْرَىٰ سَارَ مِنْ أَوَّلِ اللَّيْلِ، وَسَرَىٰ سَارَ مِنْ آخِرِهِ، وَالْعَبْدُ هُوَ: مُحَمَّدٌ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ﴿مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ قِيلَ: كَانَ الْإِسْرَاءُ مِنْ مَسْجِدِ مَكَّةَ. رَوَىٰ قَتَادَةُ عَنْ أَنَسٍ عَنْ مَالِكِ بْنِ صَعْصَعَةَ أَنَّ رَسُولِ صَلَّىٰ اللهُ

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**بَيْنَا أَنَا فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فِي الْحِجْرِ بَيْنَ النَّائِمِ وَالْيَقْظَانِ إِذْ أَتَانِي جِبْرِيلُ بِالْبُرَاقِ ، وَهُوَ دَابَّةٌ أَبْيَضُ طَوِيلٌفَوْقَ الْحِمَارِ وَدُونَ الْبَغْلِ يَضَعُ حَافِرَهُ عِنْدَ مُنْتَهَىٰ طَرْفِهِ- قَالَ- فَرَكِبْتُهُ حَتَّىٰ أَتَيْتُ بَيْتَ الْمَقْدِسِ- قَالَ- فَرَبَطْتُهُ بِالْحَلْقَةِ الَّتِي تَرْبِطُ بِهَا الْأَنْبِيَاءُ- قَالَ- ثُمَّ دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ فَصَلَّيْتُ فِيهِ رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ خَرَجْتُ فَجَاءَنِي جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِإِنَاءٍ مِنْ خَمْرٍ وَإِنَاءٍ مِنْ لَبَنٍ فَاخْتَرْتُ اللَّبَنَ فَقَالَ جِبْرِيلُ اخْتَرْتَ الْفِطْرَةَ- قَالَ- ثُمَّ عَرَجَ بِنَا إِلَىٰ السَّمَاءِ ...** » ، وَذَكَرَ الْحَدِيثَ[1] .

قوله : ﴿مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ أَيْ: مِنَ الْحَرَمِ ، قَالَ مُقَاتِلٌ: كَانَتْ لَيْلَةُ الْإِسْرَاءِ قَبْلَ الْهِجْرَةِ بِسَنَةٍ ، وَيُقَالُ: كَانَ فِي رَجَبٍ ، وقيل: كان في رمضان، قوله: ﴿إِلَىٰ الْمَسْجِدِ الْأَقْصَىٰ﴾ يَعْنِي: بَيْتَ الْمَقْدِسِ، وَسُمِّيَ أَقْصَىٰ لِأَنَّهُ أَبْعَدُ الْمَسَاجِدِ الَّتِي تُزَارُ. وَقِيلَ: لِبُعْدِهِ مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، ﴿الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾ بِالْأَنْهَارِ وَالْأَشْجَارِ وَالثِّمَارِ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: سَمَّاهُ مُبَارَكًا لِأَنَّهُ مَقَرُّ الْأَنْبِيَاءِ ومهبط الملائكة والوحي، وفيه الصخرة وَمِنْهُ يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، ﴿لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا﴾ وَالْآيَاتِ الَّتِي أَرَاهُ اللهُ مِنَ الْعَجَائِبِ الَّتِي أَخْبَرَ بِهَا النَّاسَ، وَإِسْرَاؤُهُ مِنْ مَكَّةَ إِلَىٰ الْمَسْجِدِ الْأَقْصَىٰ فِي لَيْلَةٍ وَهُوَ مَسِيرَةُ شَهْرٍ، وَعُرُوجُهُ إِلَىٰ السَّمَاءِ وَوَصْفُهُ الْأَنْبِيَاءَ وَاحِدًا وَاحِدًا، حَسْبَمَا ثَبَتَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ وَغَيْرِهِ، ﴿إِنَّه هُوَ

---

(١) مسلم (١٦٤) .

السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ ذَكَرَ السَّمِيعَ لِيُنَبِّهَ عَلَىٰ أَنَّهُ الْمُجِيبُ لِدُعَائِهِ، وَذَكَرَ الْبَصِيرَ لِيُنَبِّهَ عَلَىٰ أَنَّهُ الْحَافِظُ لَهُ فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ. وَرُوِيَ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أَنَّهَا كَانَتْ تَقُولُ: «مَا فُقِدَ جَسَدُ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلَكِنْ اللهَ أَسْرَىٰ بِرُوحِهِ» ، وَالْأَكْثَرُونَ عَلَىٰ أَنَّهُ أُسْرِيَ بِجَسَدِهِ فِي الْيَقَظَةِ وَتَوَاتَرَتِ الْأَخْبَارُ الصَّحِيحَةُ عَلَىٰ ذَلِكَ.

[٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَآتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ﴾ أَيْ كَرَّمْنَا مُحَمَّدًا صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْمِعْرَاجِ، وَأَكْرَمْنَا مُوسَىٰ بِالْكِتَابِ وَهُوَ التَّوْرَاةُ ، ﴿وَجَعَلْنَاهُ هُدًىٰ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا﴾ بألا، ﴿تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا﴾ ربـًا كفيلاً، قال القرطبي : وَالتَّقْدِيرُ: عَهِدْنَا إِلَيْهِ فِي الْكِتَابِ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا، وَالْوَكِيلُ: الَّذِي تُفَوَّضُ إِلَيْهِ الْأُمُورُ، وَالْمُرَادُ بِهِ الرَّبُّ، لِأَنَّهُ يَتَّكِلُ عَلَيْهِ الْعباد فِي شؤونهم، أَيْ أَنْ لَا تَتَّخِذُوا شَرِيكا تلجئون إِلَيْهِ.

[٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: هَذَا نِدَاءٌ يَعْنِي: يَا ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا، وَالْحَمْلُ وَضْعُ شَيْءٍ عَلَىٰ آخَرَ لِنَقْلِهِ، وَالْمُرَادُ الْحَمْلُ فِي السَّفِينَةِ ﴿مَعَ نُوحٍ﴾ فِي السَّفِينَةِ فَأَنْجَيْنَاهُمْ مِنَ الطُّوفَانِ، وَذَكَرَ نُوحًا لِيُذَكِّرُهُمْ نِعْمَةَ الْإِنْجَاءِ مِنَ الْغَرَقِ عَلَىٰ آبَائِهِمْ ، ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ عَنْ إِبْرَاهِيمَ قَالَ: شُكْرُهُ إِذَا أَكَلَ قَالَ: بِسْمِ اللهِ، فَإِذَا فَرَغَ مِنَ الْأَكْلِ قَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ ، قَالَ سَلْمَانُ الْفَارِسِيُّ: لِأَنَّهُ كَانَ يَحْمَدُ اللهَ عَلَىٰ طَعَامِهِ،فَسُمِّيَ عَبْدًا شَكُورًا، أَيْ: كَثِيرَ الشُّكْرِ، وفي الحديث: «**إِنَّ اللهَ لَيَرْضَىٰ عَنِ الْعَبْدِ أَنْ يَأْكُلَ الْأَكْلَةَ أَوْ يَشْرَبَ الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدَ**

اللهَ عَلَيْهَا»[(١)]، قال القرطبي : وَمَقْصُودُ الْآيَةِ: إِنَّكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ نُوحٍ وَقَدْ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا فَأَنْتُمْ أَحَقُّ بِالِاقْتِدَاءِ بِهِ دُونَ آبَائِكُمُ الْجُهَّالِ.

[٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرائِيلَ فِي الْكِتَابِ﴾ أَيْ: أَعْلَمْنَاهُمْ وَأَخْبَرْنَاهُمْ فِيمَا آتَيْنَاهُمْ من الكتاب أَنَّهُمْ سَيُفْسِدُونَ، وَقَالَ قَتَادَةُ: حَكَمْنَا، وَأَصْلُ الْقَضَاءِ الْإِحْكَامُ لِلشَّيْءِ وَالْفَرَاغُ مِنْهُ، وَقِيلَ: قَضَيْنَا أَوْحَيْنَا، وَلِذَلِكَ قَالَ:﴿إِلىٰ بَنِي إِسْرائِيلَ﴾ ، وَعَلَىٰ قَوْلِ قَتَادَةَ يَكُونُ (إِلىٰ) بِمَعْنَىٰ عَلَىٰ، أَيْ قَضَيْنَا عَلَيْهِمْ وَحَكَمْنَا ، وَالْمُرَادُ بِالْكِتَابِ اللَّوْحُ المحفوظ، ﴿لَتُفْسِدُنَّ﴾ لَامُ الْقَسَمِ مَجَازُهُ: وَاللهِ لَتُفْسِدُنَّ، وَالْمُرَادُ بِالْفَسَادِ مُخَالَفَةُ أَحْكَامِ التَّوْرَاةِ ﴿فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾ بِالْمَعَاصِي، وَالْمُرَادُ بِالْأَرْضِ أَرْضُ الشَّامِ وبيت المقدس، ﴿وَلَتَعْلُنَّ﴾ وَلَتَسْتَكْبِرُنَّ وَلَتَظْلِمُنَّ النَّاسَ، ﴿عُلُوًّا كَبِيرًا﴾، وَالْعُلُوُّ فِي قَوْلِهِ: وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيراً مَجَازٌ فِي الطُّغْيَانِ وَالْعِصْيَانِ كَقَوْلِهِ: إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الْأَرْضِ قال ابن عاشور: وَهَذِهِ الْآيَةُ تُشِيرُ إِلَىٰ حَوَادِثَ عَظِيمَةٍ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَعْدَائِهِمْ مِنْ أُمَّتَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ: حَوَادِثُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْبَابِلِيِّينَ، وَحَوَادِثُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الرُّومَانِيِّينَ، فَانْقَسَمَتْ بِهَذَا الِاعْتِبَارِ إِلَىٰ نَوْعَيْنِ: نَوْعٌ مِنْهُمَا تَنْدَرِجُ فِيهِ حَوَادِثُهُمْ مَعَ الْبَابِلِيِّينَ، وَالنَّوْعُ الْآخَرُ حَوَادِثُهُمْ مَعَ الرُّومَانِيِّينَ، فَعَبَّرَ عَنِ النَّوْعَيْنِ بِمَرَّتَيْنِ ؛ لِأَنَّ كُلَّ مَرَّةٍ مِنْهُمَا تَحْتَوِي عَلَىٰ عِدَّةِ مَلَاحِمَ.

---

(١) مسلم (٢٧٣٤) .

[٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا﴾ يعني أولىٰ مرتين، قَالَ قَتَادَةُ: إِفْسَادُهُمْ فِي الْمَرَّةِ الْأُولَىٰ مَا خَالَفُوا مِنْ أَحْكَامِ التوراة وركبوا المحارم ، هِيَ مَجْمُوعُ حَوَادِث مُتَسَلْسِلَةٍ تُسَمَّىٰ فِي التَّارِيخِ بِالْأَسْرِ الْبَابِلِيِّ وَهِيَ غَزَوَاتُ (نبوخذنصرَ) مَلِكِ بَابِلَ وَآشُورَ بِلَادَ أُورْشَلِيمَ ، وَالْغَزْوُ الْأَوَّلُ كَانَ سَنَةَ ٦٠٦ قَبْلَ الْمَسِيحِ، أَسَرَ جَمَاعَاتٍ كَثِيرَةً مِنَ الْيَهُودِ وَيُسَمَّىٰ الْأَسْرَ الْأَوَّل ، ثُمَّ غَزَاهُمْ أَيْضًا غَزْوًا يُسَمَّىٰ الْأَسْرَ الثَّانِيَ، وَهُوَ أَعْظَمُ مِنَ الْأَوَّلِ، كَانَ سَنَةَ ٥٩٨ قَبْلَ الْمَسِيحِ، وَأَسَرَ مَلِكَ يَهُوذَا وَجَمْعًا غَفِيرًا مِنَ الْإِسْرَائِيلِيِّينَ وَأَخَذَ الذَّهَبَ الَّذِي فِي هَيْكَلِ سُلَيْمَانَ وَمَا فِيهِ مِنَ الْآنِيَةِ النَّفِيسَةِ ، قوله : ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا﴾ قال قتادة: يعني جالوت الخزري وَجُنُودَهُ، وَهُوَ الَّذِي قَتَلَهُ دَاوُدُ، وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: يَعْنِي سَنْجَارِيبَ مِنْ أَهْلِ نِينَوَىٰ. وَقَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: بُخْتُنَصَّرُ الْبَابِلِيُّ وَأَصْحَابُهُ، وهو الأظهر. ﴿أُولِي﴾ ﴿بَأْسٍ﴾ ذوي بطش، ﴿شَدِيدٍ﴾ في الحرب، ﴿فَجَاسُوا﴾ أَيْ: فَطَافُوا وَدَارُوا، ﴿خِلَالَ الدِّيَارِ﴾ وسطها يطلبونكم، وَالْجَوْسُ: طَلَبُ الشَّيْءِ بِالِاسْتِقْصَاءِ ، قَالَ الْفَرَّاءُ: جَاسُوا قَتَلُوكُمْ بَيْنَ بُيُوتِكُمْ، وَأُرِيدَ بِهِ هُنَا تَتَبُّعُ الْمُقَاتَلَةِ فَهُوَ جَوْسُ مَضَرَّةٍ وَإِسَاءَةٍ بِقَرِينَةِ السِّيَاقِ ، ﴿وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا﴾ قَضَاءً كَائِنًا لَا خُلْفَ فِيهِ.

[٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ﴾ يَعْنِي: الرَّجْعَةَ وَالدَّوْلَةَ، ﴿عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾ عَدَدًا، أَيْ: مَنْ يَنْفِرُ مَعَهُمْ وَعَادَ الْبَلَدُ أَحْسَنَ مِمَّا كَانَ.

[٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ﴾ أَيْ: لَهَا ثَوَابُهَا، ﴿وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ أَيْ: فَعَلَيْهَا، وَقِيلَ: فَلَهَا الْجَزَاءُ وَالْعِقَابُ، وَقَالَ الطَّبَرِيُّ: اللَّامُ بِمَعْنَىٰ إِلَىٰ، يَعْنِي وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَإِلَيْهَا، أَيْ فَإِلَيْهَا تَرْجِعُ الإساءة،﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ﴾ أَيِ: الْمَرَّةُ الْأَخِيرَةُ مِنْ إِفْسَادِكُمْ وَذَلِكَ قَصْدُهُمْ قَتْلَ عِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ رُفِعَ وَقَتْلُهُمْ يَحْيَىٰ بْنَ زَكَرِيَّا عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، فَسَلَّطَ الله عليهم الفرس والروم حَتَّىٰ قَتَلُوهُمْ وَسَبَوْهُمْ وَنَفَوْهُمْ عَنْ دِيَارِهِمْ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ﴾ أَيْ: تَحْزَنُ وُجُوهُكُمْ وَسُوءُ الْوَجْهِ بِإِدْخَالِ الْغَمِّ وَالْحُزْنِ، وَسَوْءُ الْوُجُوهِ: جَعْلُ الْمَسَاءَةِ عَلَيْهَا، أَيْ تَسْلِيطُ أَسْبَابِ الْمَسَاءَةِ وَالْكَآبَةِ عَلَيْكُمْ حَتَّىٰ تَبْدُوَ عَلَىٰ وُجُوهِكُمْ لِأَنَّ مَا يُخَالِجُ الْإِنْسَانَ مِنْ غَمٍّ وَحُزْنٍ، أَوْ فَرَحٍ وَمَسَرَّةٍ يَظْهَرُ أَثَرُهُ عَلَىٰ الْوَجْهِ دُونَ غَيْرِهِ مِنَ الْجَسَدِ، ﴿وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ﴾ يَعْنِي: بَيْتَ الْمَقْدِسِ وَنَوَاحِيَهُ، ﴿كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا﴾ وليهلكوا،وَالتَّتْبِيرُ: الْإِهْلَاكُ وَالْإِفْسَادُ. ﴿مَا عَلَوْا﴾ أَيْ: مَا غَلَبُوا عَلَيْهِ مِنْ بلادكم ﴿تَتْبِيرًا﴾ .

[٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ﴾ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ،و(عَسىٰ) مِنَ اللهِ وَاجِبَةٌ، ﴿أَنْ يَرْحَمَكُمْ﴾ بَعْدَ انْتِقَامِهِ مِنْكُمْ فَيَرُدَّ الدَّوْلَةَ إليكم، ﴿وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا﴾ أَيْ: إِنْ عُدْتُمْ إِلَىٰ الْمَعْصِيَةِ عُدْنَا إِلَىٰ الْعُقُوبَةِ، قَالَ قَتَادَةُ: فَعَادُوا فَبَعَثَ اللهُ عَلَيْهِمْ مُحَمَّدًا صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَهُمْ يُعْطُونَ الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ، وَقَالَ الْقُشَيْرِيُّ: وَقَدْ حَلَّ الْعِقَابُ بِبَنِي إِسْرَائِيلَ مَرَّتَيْنِ عَلَىٰ أَيْدِي الْكُفَّارِ، وَمَرَّةً عَلَىٰ

أَيْدِي الْمُسْلِمِينَ. وَهَذَا حِينَ عَادُوا فَعَادَ اللهُ عَلَيْهِمْ. قال ابن عاشور : وَالْمَعْنَىٰ: بَعْدَ أَنْ يَرْحَمَكُمْ رَبُّكُمْ وَيُؤَمِّنَكُمْ فِي الْبِلَاد الَّتِي تلجأون إِلَيْهَا، إِنْ عُدْتُمْ إِلَىٰ الْإِفْسَادِ عُدْنَا إِلَىٰ عِقَابِكُمْ، أَيْ عُدْنَا لِمِثْلِ مَا تَقَدَّمَ مِنْ عِقَابِ الدُّنْيَا ، ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾ سِجْنًا وَمَحْبِسًا مِنَ الْحَصْرِ وَهُوَ الْحَبْسُ، وَالْحَصِيرُ: الْمَكَانُ الَّذِي يُحْصَرُ فِيهِ فَلَا يُسْتَطَاعُ الْخُرُوجُ مِنْهُ، وقَالَ الْحَسَنُ البصري: حَصِيرًا أَيْ: فِرَاشًا ، وَذَهَبَ إِلَىٰ الْحَصِيرِ الَّذِي يبسط ويفرش.

[٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ أَيْ: إِلَىٰ الطَّرِيقَةِ الَّتِي هِيَ أَصْوَبُ ، عَن قَتَادَة فِي الْآيَة قَالَ: إِن الْقُرْآن يدلكم علىٰ دائكم ودوائكم فَأَما دائكم فالذنوب والخطايا وَأما دواؤكم فالاستغفار ﴿وَيُبَشِّرُ﴾ يَعْنِي: الْقُرْآنُ، وجاء في الحديث عَنْ أَبِي شُرَيْحٍ الْخُزَاعِيِّ رضي الله عنه قَالَ: « خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ صلىٰ الله عليه وسلم فَقَالَ: **أَبْشِرُوا أَبْشِرُوا، أَلَيْسَ تَشْهَدُونَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ؟** ، قَالُوا: نَعَمْ قَالَ: **فَإِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ سَبَبٌ** – (يعني الحبل الذي توصل به إلىٰ الماء في البئر)- **طَرَفُهُ بِيَدِ اللهِ وَطَرَفُهُ بِأَيْدِيكُمْ فَتَمَسَّكُوا بِهِ، فَإِنَّكُمْ لَنْ تَضِلُّوا وَلَنْ تَهْلِكُوا بَعْدَهُ أَبَدًا** »(١) ، قوله : ﴿الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ﴾ بأن لهم، ﴿أَجْرًا كَبِيرًا﴾ وَهُوَ الْجَنَّةُ، قال ابن

---

(١) الطبراني (٢٦٧٨) .

جريج: الجنة، وكلّ شيء في القرآن أجر كبير، أجر كريم، ورزق كريم فهو الجنة.

[١٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ أَيْ وَيُبَشِّرُهُمْ بِأَنَّ لِأَعْدَائِهِمُ الْعِقَابَ، إِذِ الْمُرَادُ بِالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مُشْرِكُو قُرَيْشٍ وَهُمْ أَعْدَاءُ الْمُؤْمِنِينَ، فَلَا جَرَمَ أَنَّ عَذَابَ الْعَدُوِّ بِشَارَةٌ لِمَنْ عَادَاهُ، وَالْقُرْآنُ مُعْظَمُهُ وَعْدٌ وَوَعِيدٌ.

[١١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ﴾ الْمُرَادُ بِالْإِنْسَانِ الْإِنْسَانُ الَّذِي لَا يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ كَمَا هُوَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَيَقُولُ الْإِنْسانُ أَإِذا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾ وَإِطْلَاقُ الْإِنْسَانِ عَلَىٰ الْكَافِرِ كَثِيرٌ فِي الْقُرْآن. ﴿بِالشَّرِّ﴾ فَيَقُولُ عِنْدَ الْغَضَبِ: اللَّهُمَّ الْعَنْهُ وأهلكه ونحوهما، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هُوَ دُعَاءُ الرَّجُلِ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَوَلَدِهِ عِنْدَ الضَّجَرِ بِمَا لَا يُحِبُّ أَنْ يُسْتَجَابَ لَهُ: اللَّهُمَّ أَهْلِكْهُ، ﴿دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ﴾ أَيْ: كَدُعَائِهِ رَبَّهُ بِالْخَيْرِ أَنْ يهب له النعمة والعافية لو اسْتَجَابَ اللهُ دُعَاءَهُ عَلَىٰ نَفْسِهِ لَهَلَكَ، وَلَكِنَّ اللهَ لَا يَسْتَجِيبُ بفضله، وفي الحديث عَن جَابر رَضِي الله عَنهُ قَالَ: قَالَ رَسُول الله صلىٰ الله عَلَيْهِ وَسلم: « **لَا تدعوا علىٰ أَنفسكُم لَا تدعوا علىٰ أَوْلَادكُم لَا تدعوا علىٰ أَمْوَالكُم لَا توافقوا من الله سَاعَة فِيهَا إِجَابَة فيستجيب لكم** »(١) ، ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾ بِالدُّعَاءِ عَلَىٰ مَا يَكْرَهُ أَنْ

(١) مسلم (٣٠٠٩) .

يُسْتَجابَ لَهُ فِيهِ. أَيْ طَبْعُهُ الْعَجَلَةُ، فَيُعَجِّلُ بِسُؤَالِ الشَّرِّ كَمَا يُعَجِّلُ بِسُؤَالِ الْخَيْرِ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ضَجِرًا لَا صَبْرَ لَهُ عَلَىٰ السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ.

[١١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ﴾ أَيْ: عَلَامَتَيْنِ دَالَّتَيْنِ عَلَىٰ وُجُودِنَا وَوَحْدَانِيَّتِنَا وَقُدْرَتِنَا، ﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: جَعَلَ اللهُ نُورَ الشَّمْسِ سَبْعِينَ جُزْءًا وَنُورَ الْقَمَرِ كَذَلِكَ فَمَحَا مِنْ نُورِ الْقَمَرِ تِسْعَةً وَسِتِّينَ جُزْءًا فَجَعَلَهَا مع نور الشمس، وَالْمَحْوُ: الطَّمْسُ. وَأُطْلِقَ عَلَىٰ انْعِدَامِ النُّورِ، لِأَنَّ النُّورَ يُظْهِرُ الْأَشْيَاءَ وَالظُّلْمَةُ لَا تَظْهَرُ فِيهَا الْأَشْيَاءُ، وَقَالَ أمير المؤمنين عَلِيٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: يُرِيدُ بِالْمَحْوِ اللَّطْخَةَ السَّوْدَاءَ الَّتِي فِي الْقَمَرِ، لِيَكُونَ ضَوْءُ الْقَمَرِ أَقَلَّ مِنْ ضَوْءِ الشَّمْسِ فَيَتَمَيَّزُ بِهِ اللَّيْلُ مِنَ النَّهَارِ، ﴿وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ مُنِيرَةً مُضِيئَةً، يَعْنِي يُبْصَرُ بِهَا. قَالَ الْكِسَائِيُّ: تَقُولُ الْعَرَبُ: أَبْصَرَ النهار إذا أضاءت بِحَيْثُ يُبْصَرُ بِهَا، ﴿لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ أَيْ: لَوْ تَرَكَ اللهُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كَمَا خَلَقَهُمَا لَمْ يُعْرَفِ اللَّيْلُ مِنَ النَّهَارِ وَلَمْ يَدْرِ الصَّائِمُ مَتَىٰ يُفْطِرُ وَلَمْ يُدْرَ وَقْتُ الْحَجِّ وَلَا وَقْتُ حُلُولِ الْآجَالِ وَلَا وَقْتُ السُّكُونِ وَالرَّاحَةِ. ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا﴾ التَّفْصِيلُ: التَّبْيِينُ وَالتَّمْيِيزُ وَهُوَ مُشْتَقٌّ مِنَ الْفَصْلِ بِمَعْنَىٰ الْقَطْعِ لِأَنَّ التَّبْيِينَ يَقْتَضِي عَدَمَ الْتِبَاسِ الشَّيْءِ بِغَيْرِهِ، وَالتَّفْصِيلُ فِي الْأَشْيَاءِ يَكُونُ فِي خَلْقِهَا، وَنِظَامِهَا، وَعِلْمِ اللهِ بِهَا، وَإِعْلَامِهِ بِهَا.

[١٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: عَمَلُهُ وَمَا قُدِّرَ عَلَيْهِ فَهُوَ مُلَازِمُهُ أَيْنَمَا كَانَ. وَقَالَ الْكَلْبِيُّ وَمُقَاتِلٌ: خَيْرُهُ وَشَرُّهُ مَعَهُ لَا يُفَارِقُهُ حَتَّىٰ يُحَاسِبَهُ بِهِ ، وَقَالَ الْحَسَنُ: يُمْنُهُ وَشُؤْمُهُ ، وَعَنْ مُجَاهِدٍ: مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا فِي عُنُقِهِ وَرَقَةٌ مَكْتُوبٌ فِيهَا شَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ ، وَقَالَ أَهْلُ الْمَعَانِي: أَرَادَ بِالطَّائِرِ مَا قَضَىٰ اللهُ عَلَيْهِ أَنَّهُ عَامِلُهُ وَمَا هُوَ صَائِرٌ إِلَيْهِ مِنْ سَعَادَةٍ أَوْ شَقَاوَةٍ سُمِّيَ طَائِرًا عَلَىٰ عَادَةِ الْعَرَبِ فِيمَا كَانَتْ تَتَفَاءَلُ وَتَتَشَاءَمُ بِهِ مِنْ سَوَانِحِ الطَّيْرِ وَبَوَارِحِهَا. وَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: أَرَادَ بِالطَّائِرِ حَظَّهُ مِنَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ مِنْ قَوْلِهِمْ طار سهم فلان بكذا وكذا، وَخُصَّ الْعُنُقُ مِنْ بَيْنِ سَائِرِ الْأَعْضَاءِ لِأَنَّهُ مَوْضِعُ الْقَلَائِدِ وَالْأَطْوَاقِ وَغَيْرِهِمَا مِمَّا يَزِينُ أَوْ يَشِينُ، فَجَرَىٰ كَلَامُ الْعَرَبِ بِتَشْبِيهِ الْأَشْيَاءِ اللَّازِمَةِ إِلَىٰ الْأَعْنَاقِ، ﴿وَنُخْرِجُ لَهُ﴾ يَقُولُ اللهُ تَعَالَىٰ: وَنَحْنُ نُخْرِجُ له، يَعْنِي كِتَابَ طَائِرِهِ الَّذِي فِي عُنُقِهِ، ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا﴾ أَيْ يراه ﴿مَنْشُورًا﴾ نَشْرُ الْكِتَابِ إِظْهَارُهُ لِيُقْرَأَ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾ [التكوير : ١٠] ، قال أبو السوار العدوي وقرأ هذه الْآيَةَ : ﴿وَكُلَّ إِنسانٍ أَلْزَمْناهُ طائِرَهُ فِي عُنُقِه﴾ ، قال: هما نشرتان وزيه، أَمَّا مَا حَيِيتَ يَا ابْنَ آدَمَ فَصَحِيفَتُكَ الْمَنْشُورَةُ ، فَأَمِّلْ فِيهَا مَا شِئْتَ، فَإِذَا مُتَّ طُوِيَتْ حَتَّىٰ إِذَا بُعِثْتَ نُشِرَتْ.

[١٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ﴾ أَيْ: يُقَالُ لَهُ: اقْرَأْ كِتَابَكَ، ﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ مُحَاسِبًا، قَالَ الْحَسَنُ البصري : لَقَدْ عَدَلَ عَلَيْكَ مَنْ جَعَلَكَ حَسِيبَ نَفْسِكَ، وَقَالَ بَعْضُ الصُّلَحَاءِ: هَذَا كِتَابٌ، لِسَانُكَ قَلَمُهُ، وَرِيقُكَ

مِدَادُهُ، وَأَعْضَاؤُكَ قِرْطَاسُهُ، أَنْتَ كُنْتَ الْمُمْلِيَ عَلَىٰ حَفَظَتِكَ، مَا زِيدَ فِيهِ وَلَا نُقِصَ مِنْهُ، وَمَتَىٰ أَنْكَرْتَ مِنْهُ شيئا يكون فيه الشاهد منك عليك.

[١٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿مَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ﴾ لَهَا ثَوَابُهُ، يْ إِنَّمَا كُلُّ أَحَدٍ يُحَاسَبُ عَنْ نَفْسِهِ لَا عَنْ غَيْرِهِ، فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَثَوَابُ اهْتِدَائِهِ لَهُ، وَمَنْ ضَلَّ فَعِقَابُ كُفْرِهِ عَلَيْهِ،﴿وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ لِأَنَّ عَلَيْهَا عِقَابَهُ، ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أَيْ: لَا تَحْمِلُ حَامِلَةٌ حِمْلَ أُخْرَىٰ مِنَ الْآثَامِ، أَيْ: لَا يؤخذ أحد بذنب أحد. ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ إقامة للحجة وقطعا لعذر، وَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَىٰ أَنَّ مَا وَجَبَ وَجَبَ بِالسَّمْعِ لَا بِالْعَقْلِ.

[١٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ أَيْ أَمَرْنَاهُمْ بِالطَّاعَةِ فَعَصَوْا، قال ابن عباس : سَلَّطْنَا أَشْرَارَهَا فَعَصَوْا فِيهَا، فَإِذَا فَعَلُوا ذلك أهلكهم الله بِالْعَذَابِ، (مُتْرَفِيهَا) الْمُتْرَفُونَ هُمْ أَهْلُ النِّعْمَةِ وَسَعَةِ الْعَيْشِ، وَهُمْ مُعْظَمُ أَهْلِ الشِّرْكِ بِمَكَّةَ ، ﴿فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ﴾ وَجَبَ عَلَيْهَا الْعَذَابُ، ﴿فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ أَيْ: خَرَّبْنَاهَا وَأَهْلَكْنَا مَنْ فِيهَا، وَالتَّدْمِيرُ: هَدْمُ الْبِنَاءِ وَإِزَالَةُ أَثَرِهِ.

[١٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ﴾ أَيِ: الْمُكَذِّبَةِ، الْقُرُونُ جَمْعُ قَرْنٍ، وَهُوَ فِي الْأَصْلِ الْمُدَّةُ الطَّوِيلَةُ مِنَ الزَّمَنِ فَقَدْ يُقَدَّرُ بِمِائَةِ سَنَةٍ وَبِأَرْبَعِينَ سَنَةً، وَيُطْلَقُ عَلَىٰ النَّاسِ الَّذِينَ يَكُونُونَ فِي تِلْكَ الْمُدَّةِ كَمَا هُنَا ، وَفِي الْحَدِيث

«خَيْرُ الْقُرُونِ قَرْنِي ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ»(١) ، ﴿مِنْ بَعْدِ نُوحٍ﴾ يُخَوِّفُ كُفَّارَ مَكَّةَ، قال ابن كثير ك وَمَعْنَاهُ أَنَّكُمْ أَيُّهَا الْمُكَذِّبُونَ لَسْتُمْ أَكْرَمَ عَلَىٰ اللهِ مِنْهُمْ، وَقَدْ كَذَّبْتُمْ أَشْرَفَ الرُّسُلِ وَأَكْرَمَ الْخَلَائِقِ فعقوبتكم أولىٰ وأحرىٰ ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ أيْ هُوَ عَالِمٌ بِجَمِيعِ أَعْمَالِهِمْ خَيْرِهَا وَشَرِّهَا، لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ مِنْهَا خَافِيَةٌ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

[١٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ﴾ يَعْنِي الدُّنْيَا أَيِ الدَّارَ الْعَاجِلَةَ، فعبر بالصفة عن الموصوف ﴿عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ﴾ مِنَ الْبَسْطِ وَالتَّقْتِيرِ، ﴿لِمَنْ نُرِيدُ﴾ أَنْ نَفْعَلَ بِهِ ذَلِكَ أَوْ إهلاكه، أَيْ لَمْ نُعْطِهِ مِنْهَا إِلَّا مَا نَشَاءُ ثُمَّ نُؤَاخِذُهُ بِعَمَلِهِ، وَعَاقِبَتُهُ دُخُولُ النَّارِ. ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ﴾ في الآخرة، ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا﴾ يدخل نارها، ﴿مَذْمُومًا مَدْحُورًا﴾ مَطْرُودًا مُبْعَدًا. أَيْ مُطْرَدًا مُبْعَدًا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ ، وَهَذِهِ صِفَةُ الْمُنَافِقِينَ الْفَاسِقِينَ، وَالْمُرَائِينَ الْمُدَاجِينَ، يَلْبَسُونَ الْإِسْلَامَ وَالطَّاعَةَ لِيَنَالُوا عَاجِلَ الدُّنْيَا مِنَ الْغَنَائِمِ وَغَيْرِهَا، فَلَا يُقْبَلُ ذَلِكَ الْعَمَلُ مِنْهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُعْطَوْنَ فِي الدُّنْيَا إِلَّا مَا قُسِمَ لَهُمْ، وفي الأثر: «الدُّنْيَا دَارُ مَنْ لَا دَارَ لَهُ، وَمَالُ مَنْ لَا مَالَ لَهُ، وَلَهَا يَجْمَعُ مَنْ لا عقل له».

[١٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا﴾ عَمِلَ عَمَلَهَا، طَلَبَ ذَلِكَ مِنْ طَرِيقِهِ، وهو متابعة الرسول صلىٰ الله عليه وسلم ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾

---

(١) البخاري (٢٦٥٢) ومسلم (٢٥٣٣) .

أي قلبه مُؤْمِنٌ، أَيْ مُصَدِّقٌ بِالثَّوَابِ وَالْجَزَاءِ قال ابن عاشور : وَحَقِيقَةُ السَّعْيِ الْمَشْيُ دُونَ الْعَدْوِ، فَسَعْيُ الْآخِرَةِ هُوَ الْأَعْمَالُ الصَّالِحَةُ لِأَنَّهَا سَبَبُ الْحُصُولِ عَلَىٰ نَعِيمِ الْآخِرَةِ، فَالْعَامِلُ لِلصَّالِحَاتِ كَأَنَّهُ يَسِيرُ سَيْرًا سَرِيعًا إِلَىٰ الْآخِرَةِ لِيَصِلَ إِلَىٰ مَرْغُوبِهِ مِنْهَا. ﴿فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾ مَقْبُولًا غير مَرْدُودٍ. وَقِيلَ: مُضَاعَفًا، أَيْ تُضَاعَفُ لَهُمُ الْحَسَنَاتُ إِلَىٰ عَشْرٍ، وَإِلَىٰ سَبْعِينَ وَإِلَىٰ سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ، وَإِلَىٰ أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ، كَمَا رُوِيَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ وَقَدْ قِيلَ لَهُ: أَسَمِعْتَ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: « إِنَّ اللهَ لَيَجْزِي عَلَىٰ الْحَسَنَةِ الْوَاحِدَةِ أَلْفَ أَلْفِ حَسَنَةٍ؟ فَقَالَ سَمِعْتُهُ يَقُولُ: **إِنَّ اللهَ لَيَجْزِي عَلَىٰ الْحَسَنَةِ الْوَاحِدَةِ أَلْفَيْ أَلْفِ حسنة**»[1].

[٢٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ﴾ أَيْ: نُمِدُّ كِلَا الْفَرِيقَيْنِ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ، ﴿مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ﴾ أي: يرزقهما جميعا ثم يخلف بِهِمَا الْحَالُ فِي الْمَآلِ، ﴿وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ﴾ رزق ربك، ﴿مَحْظُورًا﴾ مَمْنُوعًا عَنْ عِبَادِهِ فَالْمُرَادُ مِنَ الْعَطَاءِ الْعَطَاءُ فِي الدُّنْيَا وَإِلَّا فَلَا حَظَّ لِلْكُفَّارِ فِي الْآخِرَةِ.

[٢١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿انْظُرْ﴾ يَا مُحَمَّدُ، عليه الصلاة والسلام ﴿كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي فِي الدُّنْيَا، فَمِنْهُمُ الْغَنِيُّ وَالْفَقِيرُ وَبَيْنَ ذَلِكَ، وَالْحَسَنُ وَالْقَبِيحُ وَبَيْنَ ذَلِكَ، وَمَنْ يَمُوتُ صَغِيرًا، وَمَنْ يُعَمَّرُ حَتَّىٰ يَبْقَىٰ شَيْخًا

(١) أحمد (٨١١٩).

كَبِيرًا، ﴿وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ أَيْ وَلَتَفَاوُتُهُمْ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ مِنَ الدُّنْيَا، فَإِنَّ مِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ فِي الدَّرَكَاتِ فِي جَهَنَّمَ وَسَلَاسِلِهَا وَأَغْلَالِهَا، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ فِي الدَّرَجَاتِ الْعُلَىٰ وَنَعِيمِهَا وَسُرُورِهَا، ثُمَّ أَهْلُ الدَّرَكَاتِ يتفاوتون فِيمَا هُمْ فِيهِ، كَمَا أَنَّ أَهْلَ الدَّرَجَاتِ يَتَفَاوَتُونَ، فَإِنَّ الْجَنَّةَ مِائَةُ دَرَجَةٍ مَا بَيْنَ كُلِّ دَرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَفِي الصَّحِيحَيْنِ: «**إِنَّ أَهْلَ الدَّرَجَاتِ الْعُلَىٰ لَيَرَوْنَ أَهْلَ عِلِّيِّينَ، كَمَا تَرَوْنَ الْكَوْكَبَ الْغَابِرَ فِي أُفُقِ السَّمَاءِ**»(١).

[٢٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ الْخِطَابُ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْمُرَادُ أمته، وَقِيلَ: مَعْنَاهُ لَا تَجْعَلْ أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ، وَقِيلَ: الْخِطَابُ لِلْإِنْسَانِ ، ﴿فَتَقْعُدَ﴾ أَيْ تَبْقَىٰ، ﴿مَذْمُومًا مَخْذُولًا﴾ مَذْمُومًا مِنْ غَيْرِ حَمْدٍ مَخْذُولًا مِنْ غَيْرِ نَصْرٍ، وَالْمَذْمُومُ: الْمَذْكُورُ بِالسُّوءِ وَالْعَيْبِ، وَالْمَخْذُولُ: الَّذِي تخلىٰ عنه نَاصِرُهُ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ، قَالَ رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم: «**من أَصَابَتْهُ فَاقَةٌ فَأَنْزَلَهَا بِالنَّاسِ لَمْ تُسَدَّ فَاقَتُهُ، ومن أنزلها بالله، فيوشك الله له برزق عاجل أو آجل**»(٢).

[٢٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾ وأمر ربك ، قَالَ الرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ: وَأَوْجَبَ رَبُّكَ. قال مجاهد: وأوصىٰ رَبُّكَ : فَالْقَضَاءُ هنا بِمَعْنَىٰ الْأَمْرِ، ﴿أَلَّا

---

(١) البخاري (٣٢٥٦) ومسلم (٢٨٣١) .

(٢) أبو داود (١٦٤٥) والترمذي (٢٣٢٦) .

تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ أَيْ: وَأَمَرَ بِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا بِرًّا بهما وعطفا عليهما، وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنْ عَبْدِ اللهِ قَالَ: « سَأَلْتُ النَّبِيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَيُّ الْعَمَلِ أَحَبُّ إِلَىٰ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ؟ قَالَ: **الصَّلَاةُ عَلَىٰ وَقْتِهَا** قَالَ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: **ثُمَّ بِرُّ الْوَالِدَيْنِ** قَالَ ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: **الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ** »(١) ، فَأَخْبَرَ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ بِرَّ الْوَالِدَيْنِ أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ بَعْدَ الصَّلَاةِ الَّتِي هِيَ أَعْظَمُ دَعَائِمِ الْإِسْلَامِ، ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا﴾ ، قال القرطبي : خَصَّ حَالَةَ الْكِبَرِ (وهي الشيخوخة) لِأَنَّهَا الْحَالَةُ الَّتِي يَحْتَاجَانِ فِيهَا إِلَىٰ بِرِّهِ لِتَغَيُّرِ الْحَالِ عَلَيْهِمَا بِالضَّعْفِ وَالْكِبَرِ، روَىٰ مُسْلِمٌ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:« **رَغِمَ أَنْفُهُ رَغِمَ أَنْفُهُ رَغِمَ أَنْفُهُ** ، قِيلَ: مَنْ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: **مَنْ أَدْرَكَ وَالِدَيْهِ عِنْدَ الْكِبَرِ أَحَدَهُمَا أَوْ كِلَيْهِمَا ثُمَّ لَمْ يَدْخُلِ الْجَنَّةَ**»(٢) ، ﴿فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ﴾ كَلِمَةُ كَرَاهِيَةٍ، قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ : أَصْلُ التُّفِّ وَالْأُفِّ الْوَسَخُ عَلَىٰ الْأَصَابِعِ إِذَا فَتَلْتَهَا، وَقِيلَ: الْأُفُّ مَا يَكُونُ فِي الْمَغَابِنِ مِنَ الوسخ، والتف مَا يَكُونُ فِي الْأَصَابِعِ، وَقِيلَ: الأف وسخ الأنف والتف وسخ الأظفار، وقيل: الأف وسخ الظفر والتف مَا رَفَعْتَهُ بِيَدِكَ مِنَ الْأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ حَقِيرٍ، ﴿وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ وَلَا تَزْجُرْهُمَا، قال عطاء : أي لا تنفض يدك عليهما، وَلَمَّا نَهَاهُ عَنِ الْقَوْلِ الْقَبِيحِ وَالْفِعْلِ الْقَبِيحِ، أَمَرَهُ بِالْقَوْلِ الْحَسَنِ وَالْفِعْلِ الْحَسَنِ، فَقَالَ: ﴿وَقُلْ

---

(١) البخاري (٥٢٧) ومسلم (٨٥) .

(٢) مسلم (٢٥٥١) .

لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ حَسَنًا جَمِيلًا لَيِّنًا قَالَ ابْنُ الْمُسَيَّبِ: كَقَوْلِ الْعَبْدِ الْمُذْنِبِ لِلسَّيِّدِ الْفَظِّ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: لَا تُسَمِّيهِمَا ولا تكنيهما وقل لهما يَا أَبَتَاهُ يَا أُمَّاهُ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَيْضًا إِذَا بَلَغَا عِنْدَكَ مِنَ الْكِبَرِ مَا يَبُولَانِ فَلَا تَتَقَذَّرْهُمَا وَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ حِينَ تُمِيطُ عَنْهُمَا الْخَلَاءَ وَالْبَوْلَ كَمَا كَانَا يُمِيطَانِهِ عَنْكَ صَغِيرًا.

[٢٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ﴾ أَيْ: أَلِنْ جَانِبَكَ لَهُمَا وَاخْضَعْ لهما، قال عروة بن الزبير: ألن لَهُمَا حَتَّىٰ لَا تَمْتَنِعَ عَنْ شيء أحباه ﴿مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ مِنَ الشَّفَقَةِ، ﴿وَقُلْ رَبِّي ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ أَرَادَ إِذَا كَانَا مُسْلِمَيْنِ، وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: « **إِنَّ الْعَبْدَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَيُرْفَعُ لَهُ الدَّرَجَةُ لَا يَعْرِفُهَا فَيَقُولُ: يَا رَبِّ أَنَّىٰ لِي هَذَا؟ فَيُقَالُ لَهُ: هَذَا بِاسْتِغْفَارِ ابْنِكَ لَكَ** »(١).

[٢٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ﴾ مِنْ بِرِّ الْوَالِدَيْنِ وَعُقُوقِهِمَا، ﴿إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ﴾ أَبْرَارًا مُطِيعِينَ بَعْدَ تَقْصِيرٍ كَانَ مِنْكُمْ فِي الْقِيَامِ بِمَا لَزِمَكُمْ مِنْ حَقِّ الْوَالِدَيْنِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، ﴿فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ﴾ بعد المعصية ﴿غَفُورًا﴾ قَالَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ: الْأَوَّابُ الَّذِي يُذْنِبُ ثُمَّ يَتُوبُ ثُمَّ يُذْنِبُ ثُمَّ يَتُوبُ. قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: الرَّجَّاعُ إِلَىٰ الْخَيْرِ ، وعن عبيد بن عمير

---

(١) أحمد (١٠٦١٠) .

قال: كنا نعد الأوَّاب من يَقُولَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا أَصَبْتُ فِي مَجْلِسِي هَذَا، وَقَالَ الطبري : وَالْأَوْلَىٰ فِي ذَلِكَ قَوْلُ مَنْ قَالَ هُوَ التَّائِبُ مِنَ الذنب، الرجّاع من الْمَعْصِيَةِ إِلَىٰ الطَّاعَةِ، مِمَّا يَكْرَهُ اللهُ إِلَىٰ مَا يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ، وَهَذَا الَّذِي قَالَهُ هُوَ الصَّوَابُ، لِأَنَّ الْأَوَّابَ مُشْتَقٌّ مِنَ الْأَوْبِ وَهُوَ الرُّجُوعُ، يُقَالُ: آبَ فُلَانٌ إِذَا رَجَعَ، قَالَ تعالىٰ: ﴿ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴾ [الغاشية : ٢٥] ، وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ إِذَا رَجَعَ مِنْ سَفَرٍ قَالَ: «**آيِبُونَ تَائِبُونَ عَابِدُونَ لِرَبِّنَا حَامِدُونَ**»[1].

[٢٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ﴾ يَعْنِي صِلَةَ الرَّحِمِ، وَأَرَادَ بِهِ قرابة الإنسان وعليه الأكثرون ، وَفِي الْحَدِيثِ: «**مَنْ أحب أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهُ وَيُنْسَأَ لَهُ فِي أَجَلِهِ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ**»[2]، ﴿وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ أَيْ: لَا تُنْفِقْ مَالَكَ فِي الْمَعْصِيَةِ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: لَوْ أَنْفَقَ الإنسان ماله كله كَانَ تَبْذِيرًا وَلَوْ أَنْفَقَ مُدًّا فِي بَاطِلٍ كَانَ تَبْذِيرًا ، وَسُئِلَ ابْنُ مَسْعُودٍ عَنِ التَّبْذِيرِ فَقَالَ: إِنْفَاقُ الْمَالِ فِي غَيْرِ حَقِّهِ.

[٢٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾ أي: أولياءهم، وَالْعَرَبُ تَقُولُ لِكُلِّ مُلَازِمِ سُنَّةَ قَوْمٍ هُوَ أَخُوهُمْ ، قال ابْنُ مَسْعُودٍ: التَّبْذِيرُ الْإِنْفَاقُ فِي غَيْرِ حَقٍّ، وقال مجاهد: لو أنفق إنسان ماله فِي الْحَقِّ لَمْ يَكُنْ مُبَذِّرًا، وَلَوْ

(١) البخاري (٣٠٨٤) ومسلم (١٣٤٤) .

(٢) البخاري (٢٠٦٧) ومسلم (٢٥٥٧) .

أَنْفَقَ مداً في غير حق كان مبذراً ، وَقَالَ قَتَادَةُ: التَّبْذِيرُ النَّفَقَةُ فِي مَعْصِيَةِ اللهِ تعالىٰ، وفي غير الحق والفساد، ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾ أَيْ جُحُودًا، لِأَنَّهُ أَنْكَرَ نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْهِ وَلَمْ يَعْمَلْ بِطَاعَتِهِ، بَلْ أَقْبَلَ عَلَىٰ مَعْصِيَتِهِ وَمُخَالَفَتِهِ.

[٢٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ﴾ ، وَإِنْ تُعْرِض عَنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَمَرْتُكَ أَنْ تُؤْتِيَهُمْ، قال ابن كثير : أي إذا سألك أقاربك ومن أمرناك بِإِعْطَائِهِمْ وَلَيْسَ عِنْدَكَ شَيْءٌ وَأَعْرَضْت عَنْهُمْ لِفَقْدِ النَّفَقَةِ ، ﴿ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا﴾ انْتِظَارَ رِزْقٍ مِنَ اللهِ تَرْجُوهُ أَنْ يَأْتِيَكَ، ﴿فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا﴾ لَيِّنًا وَهِيَ الْعِدَةُ، أَيْ: عِدْهُمْ وَعْدًا جَمِيلًا. وَقِيلَ: الْقَوْلُ الْمَيْسُورُ أن تقول: رزقنا الله وإياك، وخلاصة المعنىٰ: أي إن سألك أقرباؤك ومن أُمرت بإعطائهم وليس عندك شيءٌ، فعِدْهم بلين ورفق بالوصل إن شاء الله.

[٢٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ يَعْنِي: وَلَا تُمْسِكْ يَدَكَ عَنِ النَّفَقَةِ فِي الْحَقِّ كَالْمَغْلُولَةِ يَدُهُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ مَدِّهَا، تَمْثِيلِ الَّذِي يَشِحُّ بِالْمَالِ بِالَّذِي غُلَّتْ يَدُهُ إِلَىٰ عُنُقِهِ، أَيْ شُدَّتْ بِالْغُلِّ، وَهُوَ الْقَيْدُ مِنَ السَّيْرِ يشد بِهِ يَد الْأَسِيرُ، فَإِذَا غُلَّتِ الْيَدُ إِلَىٰ الْعُنُقِ تَعَذَّرَ التَّصَرُّفُ بِهَا فَتَعَطَّلَ الِانْتِفَاعُ بِهَا فَصَارَ مَصْدَرُ الْبَذْلِ مُعَطَّلًا فِيهِ، ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا﴾ بالعطاء، ﴿كُلَّ الْبَسْطِ﴾ فَتُعْطِي جَمِيعَ مَا عِنْدَكَ، ﴿فَتَقْعُدَ مَلُومًا﴾ يَلُومُكَ سَائِلُوكَ بِالْإِمْسَاكِ إِذَا لَمْ تعطهم، والملوم الَّذِي أَتَىٰ بِمَا يَلُومُ نَفْسَهُ أو يلوم غيره، ﴿مَحْسُورًا﴾ منقطعا لَا شَيْءَ عِنْدَكَ تُنْفِقُهُ. وَالْمَحْسُورُ: الْمَنْهُوكُ الْقُوَىٰ. يُقَالُ: بَعِيرٌ حَسِيرٌ، إِذَا أَتْعَبَهُ السَّيْرُ فَلَمْ تَبْقَ لَهُ قُوَّةٌ،

وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [الْملك: ٤] ، وَالْمَعْنَىٰ: غَيْرَ قَادِرٍ علىٰ إِقَامَة شؤونك، قال قَتَادَةُ: ﴿مَحْسُورًا﴾ نَادِمًا عَلَىٰ مَا فَرطَ مِنْكَ ، فَالْمَلُومُ يَرْجِعُ إِلَىٰ النَّهْيِ عَنِ الشُّحِّ، وَالْمَحْسُورُ يَرْجِعُ إِلَىٰ النَّهْيِ عَنِ التَّبْذِيرِ، فَإِنَّ الشَّحِيحَ مَلُومٌ مَذْمُومٌ. وقَالَ ابْنُ عَرَفَةَ: يَقُولُ لَا تُسْرِفْ وَلَا تُتْلِفْ مَالَكَ فَتَبْقَىٰ مَحْسُورًا مُنْقَطِعًا عَنِ النَّفَقَةِ وَالتَّصَرُّفِ، كَمَا يَكُونُ الْبَعِيرُ الْحَسِيرُ، وَهُوَ الَّذِي ذَهَبَتْ قُوَّتُهُ فَلَا انْبِعَاثَ بِهِ.

[٣٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ إِخْبَارٌ أَنَّهُ تَعَالَىٰ هُوَ الرَّزَّاقُ الْقَابِضُ الْبَاسِطُ، الْمُتَصَرِّفُ فِي خَلْقِهِ بِمَا يَشَاءُ، فَيُغْنِي مَنْ يشاء ويفقر مَنْ يَشَاءُ، لِمَا لَهُ فِي ذَلِكَ مِنَ الْحِكْمَةِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً﴾ أي خبيراً بصيراً بمن يستحق الغنىٰ ويستحق الْفَقْرَ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: «**إِنَّ مِنْ عِبَادِي لَمَنْ لَا يُصْلِحُهُ إِلَّا الْفَقْرُ وَلَوْ أَغْنَيْتُهُ لَأَفْسَدْتُ عَلَيْهِ دِينَهُ، وَإِنَّ مِنْ عِبَادِي لَمَنْ لَا يُصْلِحُهُ إِلَّا الْغِنَىٰ وَلَوْ أَفْقَرْتُهُ لَأَفْسَدْتُ عَلَيْهِ دِينَهُ**»(١)، وَقَدْ يَكُونُ الْغِنَىٰ فِي حَقِّ بَعْضِ النَّاسِ اسْتِدْرَاجًا، وَالْفَقْرُ عُقُوبَةً عِيَاذًا بِاللهِ مِنْ هذا وهذا.

[٣١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ﴾ فقر، والإملاق: الْفَقْرُ ، أَمْلَقَ الرَّجُلُ أَيْ لَمْ يَبْقَ لَهُ إِلَّا الْمَلَقَاتُ، وَهِيَ الْحِجَارَةُ الْعِظَامُ الْمُلْسُ،

(١) الطبراني في المعجم الكبير .

﴿نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ وَذَلِكَ أَنَّ أَهْلَ الْجَاهِلِيَّةِ كَانُوا يَئِدُونَ بَنَاتَهُمْ خَشْيَةَ الْفَاقَةِ فَنُهُوا عَنْهُ، وَأُخْبِرُوا أَنَّ رِزْقَهُمْ وَرِزْقَ أَوْلَادِهِمْ عَلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ، ﴿إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾ أَيْ: إِثْمًا كَبِيرًا.

[٣٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَلا تَقْرَبُوا الزِّنىٰ﴾ قَالَ الْعُلَمَاءُ: ﴿وَلا تَقْرَبُوا الزِّنىٰ﴾ أَبْلَغُ مِنْ أَنْ يَقُولَ: وَلَا تَزْنُوا، فَإِنَّ معناه لا تدنوا من الزنىٰ ، ﴿إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ أي وبئس طريقًا ومسلكًا.

[٣٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ يَقُولُ تَعَالَىٰ نَاهِيًا عَنْ قَتْلِ النَّفْسِ بِغَيْرِ حَقٍّ شَرْعِيٍّ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: « **لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ إِلَّا بِإِحْدَىٰ ثَلَاثٍ: النَّفْسُ بِالنَّفْسِ، والزاني المحصن، والتارك لدينه المفارق لجماعة**»(١) ، وفي السنن: « **لَزَوَالُ الدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَىٰ اللهِ مِنْ قَتْلِ رَجُلٍ مُسْلِمٍ** »(٢) ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا﴾: أَيْ سُلْطَةً عَلَىٰ الْقَاتِلِ، فَإِنَّهُ بِالْخِيَارِ فِيهِ، إِنْ شَاءَ قَتَلَهُ قَوْدًا، وَإِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ عَلَىٰ الدِّيَةِ، وَإِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ مَجَّانًا، كَمَا ثَبَتَتِ السنة بذلك، وقوله: ﴿فَلاَ يُسْرِف فِّي القتل﴾ أي فَلَا يُسْرِفِ الْوَلِيُّ فِي قَتْلِ الْقَاتِلِ بِأَنْ يُمَثِّلَ بِهِ أَوْ

---

(١) البخاري (٦٨٧٨) ومسلم (١٦٧٦) .

(٢) الترمذي (١٣٩٥) والنسائي (٣٩٨٧) .

يَقْتَصَّ مِنْ غَيْرِ الْقَاتِلِ، وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّهُ كَانَ مَنْصُوراً﴾: أَيْ أَنَّ الْوَلِيَّ منصور علىٰ القاتل شرعـًا وقدراً.

قَوْلُهُ : ﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا﴾ أي: قوة ولاية عَلَىٰ الْقَاتِلِ بِالْقَتْلِ، قَالَهُ مُجَاهِدٌ، وَقَالَ الضَّحَاكُ: سُلْطَانُهُ هُوَ أَنَّهُ يتخير فإن شاء استفاد مِنْهُ وَإِنْ شَاءَ أَخَذَ الدِّيَةَ، وإن شاء عفا عنه. ﴿فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَأَكْثَرُ الْمُفَسِّرِينَ: مَعْنَاهُ لَا يَقْتُلُ غَيْرَ الْقَاتِلِ وَذَلِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا فِي الْجَاهِلِيَّةِ إِذَا قُتِلَ مِنْهُمْ قَتِيلٌ لَا يرضون بقتل قاتله حتىٰ يقتل أَشْرَفَ مِنْهُ. ﴿إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا﴾ [الإسراء: ٣٣] فَالْهَاءُ رَاجِعَةٌ إِلَىٰ الْمَقْتُولِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا﴾ يَعْنِي: إِنَّ الْمَقْتُولَ مَنْصُورٌ فِي الدُّنْيَا بإيجاب القول عَلَىٰ قَاتِلِهِ، وَفِي الْآخِرَةِ بِتَكْفِيرِ خَطَايَاهُ وَإِيجَابِ النَّارِ لِقَاتِلِهِ، هَذَا قَوْلُ مُجَاهِدٍ، وَقَالَ قَتَادَةُ: الْهَاءُ رَاجِعَةٌ إِلَىٰ وَلِيِّ الْمَقْتُولِ ، مَعْنَاهُ أَنَّهُ مَنْصُورٌ عَلَىٰ الْقَاتِلِ بِاسْتِيفَاءِ الْقَصَاصِ مِنْهُ أَوِ الدِّيَةِ. وَقِيلَ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ﴾ إِنَّهُ أَرَادَ بِهِ الْقَاتِلَ المعتدي، يقول: لا يعتدي بالقتل بغير الحق شأنه إن فعل ذلك قولي المقتول منصور عَلَيْهِ بِاسْتِيفَاءِ الْقِصَاصِ مِنْهُ.

[٣٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ﴾ بِالْإِتْيَانِ بِمَا أَمَرَ اللهُ بِهِ وَالِانْتِهَاءِ عَمَّا نَهَىٰ اللهُ عَنْهُ. وَقِيلَ: أَرَادَ بِالْعَهْدِ مَا يَلْتَزِمُهُ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ، ﴿إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ قال السُّدِّيُّ:

كَانَ مَطْلُوبًا، وَقِيلَ: الْعَهْدُ يُسْأَلُ عَنْ صَاحِبِ الْعَهْدِ، فَيُقَالُ: فيما نقضت كالموءودة تُسْأَلُ فِيمَ قُتِلَتْ.

[٣٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ﴾ وَهُوَ اسْمٌ لِلْمِيزَانِ أَيْ آلَةِ الْوَزْنِ، وَاسْمٌ لِلْعَدْلِ، قَالَ مُجَاهِدٌ: هُوَ رُومِيٌّ، وَقَالَ غَيْرُهُ: هُوَ عَرَبِيٌّ مَأْخُوذٌ مِنَ الْقِسْطِ وَهُوَ الْعَدْلُ، أَيْ: زِنُوا بِالْعَدْلِ، ﴿الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ أَيْ: عَاقِبَةً، أَيْ أَحْسَنَ إِرْجَاعًا، إِذَا أَرْجَعَهُ الْمُتَأَمِّلُ إِلَىٰ مَرَاجِعِهِ وَعَوَاقِبِهِ، قال ابن كثير: أَيْ مَآلًا ومنقلبًا في آخرتكم، قال قتادة: أي خير ثوابًا وأحسن عاقبة، وكان ابن عباس يَقُولُ: يَا مَعْشَرَ الْمَوَالِي إِنَّكُمْ وُلِّيتُمْ أَمْرَيْنِ بِهِمَا هَلَكَ النَّاسُ قَبْلَكُمْ: هَذَا الْمِكْيَالُ، وَهَذَا الميزان.

[٣٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ قَالَ قَتَادَةُ: لَا تَقُلْ رَأَيْتُ وَلَمْ تَرَهُ وَسَمِعْتُ وَلَمْ تَسْمَعْهُ وَعَلِمْتُ وَلَمْ تَعْلَمْهُ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: لَا تَرْمِ أَحَدًا بِمَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ، قَالَ الْقُتَيْبِيُّ: لَا تُتْبِعْهُ بِالْحَدْسِ وَالظَّنِّ، وَهُوَ فِي اللُّغَةِ اتِّبَاعُ الْأَثَرِ، يُقَالُ: قَفَوْتُ فُلَانًا أَقْفُوهُ وَقَفَيْتُهُ وَأَقْفَيْتُهُ إِذَا اتَّبَعْتُ أَثَرَهُ، وَبِهِ سُمِّيَتِ الْقَافِيَةُ لِتَتَبُّعِهِمُ الْآثَارَ، وَحَقِيقَةُ الْمَعْنَىٰ: لَا تَتَكَلَّمْ أَيُّهَا الْإِنْسَانُ بِالْحَدْسِ وَالظَّنِّ، ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ قِيلَ: مَعْنَاهُ يُسْأَلُ الْمَرْءُ عَنْ سَمْعِهِ وَبَصَرِهِ وَفُؤَادِهِ، وَقِيلَ: يُسْأَلُ السَّمْعُ وَالْبَصَرُ وَالْفُؤَادُ عَمَّا فَعَلَهُ الْمَرْءُ، وَقَوْلُهُ ﴿كُلُّ أُولَئِكَ﴾ أَيْ حل هَذِهِ الْجَوَارِحِ وَالْأَعْضَاءِ، وَعَلَىٰ الْقَوْلِ الْأَوَّلِ يَرْجِعُ أُولَئِكَ إِلَىٰ أَرْبَابِهَا.

[٣٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ أَيْ بَطَرًا وَكِبْرًا وَخُيَلَاءَ أَيْ مُتَبَخْتِرًا مُتَمَايِلًا مَشْيَ الْجَبَّارِينَ، ﴿إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ﴾ أَيْ: لَنْ تَقْطَعَهَا بِكِبْرِكَ حَتَّىٰ تَبْلُغَ آخِرَهَا، ﴿وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ أي: لا تقدر أن تطال الْجِبَالَ وَتُسَاوِيَهَا بِكِبْرِكَ، مَعْنَاهُ أَنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَنَالُ بِكِبْرِهِ وَبَطَرِهِ شَيْئًا كَمَنْ يُرِيدُ خَرْقَ الْأَرْضِ وَمُطَاوَلَةَ الْجِبَالِ لَا يَحْصُلُ عَلَىٰ شَيْءٍ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ: «**بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ وَعَلَيْهِ بُرْدَانِ يَتَبَخْتَرُ فِيهِمَا إِذْ خُسِفَ بِهِ الْأَرْضُ فَهُوَ يَتَجَلْجَلُ فِيهَا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ**»(١)، وَكَذَلِكَ أَخْبَرَ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْ قَارُونَ أَنَّهُ خَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ، وَأَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ خَسَفَ بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ، وَفِي الْحَدِيثِ: «**مَنْ تَوَاضَعَ لِلَّهِ رَفَعَهُ اللهُ فَهُوَ فِي نَفْسِهِ حَقِيرٌ وعند الناس كبير**»(٢)، وَرَأَىٰ الْبَخْتَرِيُّ الْعَابِدُ رَجُلًا مِنْ آلِ عَلِيٍّ يَمْشِي وَهُوَ يَخْطِرُ فِي مِشْيَتِهِ، فَقَالَ لَهُ: يَا هَذَا! إِنَّ الَّذِي أَكْرَمَكَ بِهِ لَمْ تَكُنْ هَذِهِ مِشْيَتَهُ، قَالَ: فَتَرَكَهَا الرَّجُلُ بَعْدُ.

[٣٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ وَمَعْنَاهُ كُلُّ الَّذِي ذَكَرْنَا ﴿كَانَ سَيِّئُهُ﴾ أَيْ: سَيِّئُ مَا عَدَدْنَا عَلَيْكَ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا، أي كُلُّ هَذَا الَّذِي ذَكَرْنَاهُ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تعبدوا إِلاَّ إِيَّاهُ﴾ إلىٰ هنا، (فسيئه) أي فقبيحه مكروه عند الله.

---

(١) البخاري (٥٧٨٩) ومسلم (٢٠٨٨).

(٢) البيهقي (الشعب، رقم ٧٧٩٠).

[٣٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿ذَلِكَ﴾ الْإِشَارَةُ (بِذَلِكَ) إِلَىٰ هَذِهِ الْآدَابِ وَالْقِصَصِ وَالْأَحْكَامِ الَّتِي تَضَمَّنَتْهَا هَذِهِ الْآيَاتُ الْمُتَقَدِّمَةُ الَّتِي نَزَلَ بِهَا جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، أَيْ هَذِهِ مِنَ الْأَفْعَالِ الْمُحْكَمَةِ الَّتِي تَقْتَضِيهَا حِكْمَةُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي عِبَادِهِ، وَخَلْقُهَا لَهُمْ مِنْ مَحَاسِنِ الْأَخْلَاقِ وَالْحِكْمَةِ وَقَوَانِينِ الْمَعَانِي الْمُحْكَمَةِ وَالْأَفْعَالِ الْفَاضِلَةِ ،﴿مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ﴾ وَكُلُّ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أو نهىٰ الله عَنْهُ فَهُوَ حِكْمَةٌ ، ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ خَاطَبَ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ وَالْمُرَادُ مِنْهُ الْأُمَّةُ، ﴿فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا﴾ مَطْرُودًا مُبْعَدًا مِنْ كُلِّ خَيْرٍ، وَالْمَدْحُورُ: الْمُهَانُ الْمُبْعَدُ الْمُقْصَىٰ، وَيُقَالُ فِي الدُّعَاءِ: اللَّهُمَّ ادْحَرْ عَنَّا الشيطان، أي أبعده.

[٤٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ﴾ قال الطبري : أفخصكم ربكم بالذكور من الأولاد ، يَعْنِي اخْتَارَكُمْ، ﴿بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا﴾ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَقُولُونَ الْمَلَائِكَةُ بَنَاتُ اللهِ، وَالْإِصْفَاءُ: جَعْلُ الشَّيْءِ صَفْوًا، أَيْ خَالِصًا، وَتَعْدِيَةُ أَصْفَىٰ إِلَىٰ ضَمِيرِ الْمُخَاطَبِينَ عَلَىٰ طَرِيقَةِ الْحَذْفِ وَالْإِيصَالِ، وَأَصْلُهُ: أَفَأَصْفَىٰ لَكُمْ. قال ابن عاشور : وَالتَّقْدِيرُ: أَفَضَّلَكُمُ اللهُ فَأَعْطَاكُمُ الْبَنِينَ وَجَعَلَ لِنَفْسِهِ الْبَنَاتِ ، وَمُنَاسَبَتُهُ لِمَا قَبْلَهُ أَنَّ نِسْبَةَ الْبَنَاتِ إِلَىٰ اللهِ ادِّعَاءُ آلِهَةٍ تَنْتَسِبُ إِلَىٰ الله بِالنُّبُوَّةِ، إِذْ عَبَدَ فَرِيقٌ مِنَ الْعَرَبِ الْمَلَائِكَةَ كَمَا عَبَدُوا الْأَصْنَامَ، وَاعْتَلُّوا لِعِبَادَتِهِمْ بِأَنَّ الْمَلَائِكَةَ بَنَاتُ اللهِ تَعَالَىٰ ، ﴿إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ يخاطب

مشركي مكة، أَيْ في زعمكم أن لِلَّهِ وَلَدًا ثُمَّ جَعْلِكُمْ وَلَدَهُ الإِنَاثَ الَّتِي تَأْنَفُونَ أَنْ يَكُنَّ لَكُمْ وَرُبَّمَا قَتَلْتُمُوهُنَّ بِالْوَأْدِ، فتلك إِذاً قِسْمَةٌ ضيزىٰ.

[٤١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ﴾ يعني الصبر وَالْحِكَمِ وَالْأَمْثَالِ وَالْأَحْكَامِ وَالْحُجَجِ وَالْإِعْلَامِ والتشديد للتكثير والتكرير وَالتَّصْرِيفُ: أَصْلُهُ تَعَدُّدُ الصَّرْفِ، وَهُوَ النَّقْلُ مِنْ جِهَةٍ إِلَىٰ أُخْرَىٰ ، وَمِنْهُ تَصْرِيفُ الرِّيَاحِ، وَهُوَ هُنَا كِنَايَةٌ عَنِ التَّبْيِينِ بِمُخْتَلِفِ الْبَيَانِ وَمُتَنَوِّعِهِ ، ﴿لِيَذَّكَّرُوا﴾ أَيْ: لِيَتَذَكَّرُوا وَيَتَّعِظُوا، وَيَذَّكَّرُوا: أَصْلُهُ يَتَذَكَّرُوا، فَأُدْغِمَ التَّاءُ فِي الذَّالِ لِتَقَارُبِ مَخْرَجَيْهِمَا، ﴿وَمَا يَزِيدُهُمْ﴾ تصريفنا وتذكيرنا وتكريرنا، ﴿إِلَّا نُفُورًا﴾ ذَهَابًا وَتَبَاعُدًا عَنِ الْحَقِّ، وَالنُّفُورُ: هُرُوبُ الْوَحْشِيِّ وَالدَّابَّةِ بِجَزَعٍ وَخَشْيَةٍ مِنَ الْأَذَىٰ ، وَاسْتُعِيرَ هُنَا لِإِعْرَاضِهِمْ تَنْزِيلًا لَهُمْ مَنْزِلَةَ الدَّوَابّ .

[٤٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿قُلْ﴾ يَا مُحَمَّدُ لِهَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ، ﴿لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَابْتَغَوْا﴾ لَطَلَبُوا يَعْنِي الْآلِهَةَ ﴿إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ بِالْمُبَالَغَةِ وَالْقَهْرِ لِيُزِيلُوا مُلْكَهُ، قال ابن عباس : لَطَلَبُوا مَعَ اللهِ مُنَازَعَةً وَقِتَالًا كَمَا تَفْعَلُ مُلُوكُ الدُّنْيَا بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ ، وَقِيلَ: مَعْنَاهُ لَطَلَبُوا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا بِالتَّقَرُّبِ إِلَيْهِ ، وَقَالَ قَتَادَةُ: الْمَعْنَىٰ إِذًا لَابْتَغَتِ الْآلِهَةُ الْقُرْبَةَ إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا، وَالْتَمَسَتِ الزُّلْفَةَ عِنْدَهُ لِأَنَّهُمْ دُونَهُ، وَالْقَوْمُ اعْتَقَدُوا أَنَّ الْأَصْنَامَ تُقَرِّبُهُمْ إِلَىٰ اللهِ زُلْفَىٰ، فَإِذَا اعْتَقَدُوا فِي الْأَصْنَامِ أَنَّهَا مُحْتَاجَةٌ إِلَىٰ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فَقَدْ بَطَلَ أَنَّهَا آلِهَةٌ.

[٤٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ﴾ أَيْ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ الْمُعْتَدُونَ الظَّالِمُونَ فِي زَعْمِهِمْ أَنَّ مَعَهُ آلِهَةً أُخرىٰ ، قال القرطبي: نزّه سبحانه نفسه وقدّسه ومجده عما لا يليق به، ﴿عُلُوًّا كَبِيرًا﴾: أَيْ تَعَالِيًا كبيراً، بَلْ هُوَ الْأَحَدُ الصَّمَدُ، الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ.

[٤٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ يقول تعالىٰ تقدسه السماوات السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ، أَيْ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ، وتنزهه وتعظمه ووتبجله وَتَكَبِّرُهُ عَمَّا يَقُولُ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ، وَتَشْهَدُ لَهُ بالوحدانية في ربويته وَإِلَهِيَّتِهِ:

فَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةً تَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُ وَاحِدٌ

قوله : ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ: وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ حَيٍّ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ، وَقَالَ قَتَادَةُ: يعني الحيوانات والناميات ، قال ابن كثير : أي لا تفهمون تسبيحهم لأنها بخلاف لغاتكم، وهذا عام في الحيوانات والجمادات والنباتات، كَمَا ثَبَتَ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ أَنَّهُ قَالَ: « كُنَّا نَسْمَعُ تَسْبِيحَ الطَّعَامِ وَهُوَ يُؤْكَلُ »(١) ، وعَن أبي هُرَيْرَة رَضِي الله عَنهُ قَالَ: قَالَ رَسُول الله صلىٰ الله عَلَيْهِ وَسلم: « **نَزَلَ نَبِيٌّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ تَحْتَ شَجَرَةٍ، فَلَدَغَتْهُ نَمْلَةٌ، فَأَمَرَ بِجَهَازِهِ فَأُخْرِجَ مِنْ تَحْتِهَا، ثُمَّ أَمَرَ بِبَيْتِهَا فَأُحْرِقَ**

---

(١) البخاري (٣٥٧٩) .

بِالنَّارِ، فَأَوْحَىٰ اللهُ إِلَيْهِ: فَهَلَّا نَمْلَةً وَاحِدَةً؟ أَهْلَكْتَ أُمَّةً مِنَ الْأُمَمِ تُسَبِّحُ »[1] ، ويروىٰ أن نوحـًا عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ لِابْنِهِ: يَا بُنَيَّ آمُرُكَ أَنْ تَقُولَ سُبْحَانَ اللهِ فَإِنَّهَا صَلَاةُ الْخَلْقِ، وَتَسْبِيحُ الْخَلْقِ، وَبِهَا يُرْزَقُ الْخَلْقُ ، وَقَالَ عِكْرِمَةُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ قَالَ: الْأُسْطُوَانَةُ تُسَبِّحُ، والشجرة تسبح، وقال بعض السلف: صرير الباب تسبيحه، وخرير الماء تسبيحه، قوله : ﴿وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ أَيْ لَا تَعْلَمُونَ تَسْبِيحَ مَا عَدَا مَنْ يُسَبِّحُ بِلُغَاتِكُمْ وَأَلْسِنَتِكُمْ، ﴿إِنَّهُ كانَ حَلِيماً﴾ عَنْ ذُنُوبِ عِبَادِهِ فِي الدنيا، ﴿غَفُوراً﴾ للمؤمنين في الآخرة.

[٤٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا﴾ يَحْجُبُ قُلُوبَهُمْ عَنْ فَهْمِهِ وَالِانْتِفَاعِ به، قال قتادة: وهو الْأَكِنَّةُ، وَالْمَسْتُورُ بِمَعْنَىٰ السَّاتِرِ ، وَقِيلَ: مَسْتُورٌ عَنْ أَعْيُنِ النَّاسِ فَلَا يَرَوْنَهُ، وَفَسَّرَهُ بعضهم بالحجاب عن الأعين، قال ابن عاشور : وَحَقِيقَةُ الْحجاب: السَّاتِرِ الَّذِي يَحْجُبُ الْبَصَرَ عَنْ رُؤْيَةِ مَا وَرَاءَهُ ، وَهُوَ هُنَا مُسْتَعَارٌ لِلصِّرْفَةِ الَّتِي يَصْرِفُ اللهُ بِهَا أَعدَاء النبي عَلَيْهِ الصَّلَاة وَالسَّلَام عَنِ الْإِضْرَارِ بِهِ للإعراض الَّذِي يُعْرِضُونَ بِهِ عَنِ اسْتِمَاعِ الْقُرْآنِ وَفَهْمِهِ ، قال البغوي : والظاهر كَمَا رُوِيَ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ أَنَّهُ لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾ [المسد: ١] جَاءَتِ امْرَأَةُ

---

(١) البخاري (٣٣٠٥) ومسلم (٢٢٤١) .

أَبِي لَهَبٍ وَمَعَهَا حَجَرٌ وَالنَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَعَ أَبِي بَكْرٍ فَلَمْ تَرَهُ، فَقَالَتْ لِأَبِي بَكْرٍ: أَيْنَ صَاحِبُكَ لَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّهُ هَجَانِي؟ فقال: والله ما ينطق عن الهوىٰ ولا يَنْطِقُ بِالشِّعْرِ وَلَا يَقُولُهُ، فَرَجَعَتْ وَهِيَ تَقُولُ: قَدْ كُنْتُ جِئْتُ بهذا الحجر لأرضخ برأسه، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: مَا رَأَتْكَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: لَا لَمْ يَزَلْ مَلَكٌ بَيْنِي وَبَيْنَهَا يَسْتُرُنِي.

[٤٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ أغطية، وهي جَمْعُ كِنَانٍ: الَّذِي يَغْشَىٰ الْقَلْبَ ﴿أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾ كَرَاهِيَةَ أَنْ يَفْقَهُوهُ، وَقِيلَ لِئَلَّا يَفْهَمُوا الْقُرْآنَ، ﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ ثِقْلًا لِئَلَّا يَسْمَعُوهُ، وَهُوَ الثِّقَلُ الَّذِي يَمْنَعُهُمْ مِنْ سَمَاعِ الْقُرْآنِ سماعًا ينفعهم ويهتدون به، قَوْلُهُ: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ﴾ يَعْنِي إِذَا قُلْتَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ فِي الْقُرْآنِ وَأَنْتَ تَتْلُوهُ، ﴿وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا﴾ جَمْعُ نَافِرٍ مِثْلِ قَاعِدٍ وَقُعُودٍ وَجَالِسٍ وَجُلُوسٍ، أَيْ نَافِرِينَ.

[٤٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ﴾ قِيلَ: بِهِ صِلَةٌ أَيْ: يَطْلُبُونَ سمعه، ﴿إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ وَأَنْتَ تَقْرَأُ الْقُرْآنَ، وَكَانُوا يَسْتَمِعُونَ مِنَ النَّبِيِّ صَلَّىٰ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْقُرْآنَ ثُمَّ يَنْفِرُونَ فَيَقُولُونَ: هُوَ سَاحِرٌ وَمَسْحُورٌ، كَمَا أَخْبَرَ اللهُ تَعَالَىٰ بِهِ عَنْهُمْ، ﴿وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ﴾ يتناجون في أمرك، وقيل: ذو نجوىٰ، فبعضهم يقول: هو مَجْنُونٌ، وَبَعْضُهُمْ يَقُولُ: كَاهِنٌ، وَبَعْضُهُمْ يَقُولُ: سَاحِرٌ، وَبَعْضُهُمْ يَقُولُ: شَاعِرٌ، ﴿إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ﴾ يَعْنِي الْوَلِيدَ بْنَ الْمُغِيرَةِ وَأَصْحَابَهُ، ﴿إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا﴾ أَيْ مَطْبُوبًا قَدْ خَبَلَهُ السِّحْرُ فَاخْتَلَطَ

عَلَيْهِ أَمْرُهُ، يَقُولُونَ ذَلِكَ لِيُنَفِّرُوا عَنْهُ النَّاسَ، وَالسَّحْرُ: الرِّئَةُ أَيْ: إنه بشر مثلكم تغذىٰ معللا بالطعام والشراب يأكل ويشرب.

[٤٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿انْظُرْ﴾ يَا مُحَمَّدُ، ﴿كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ﴾ الْأَشْبَاهَ، قَالُوا: شَاعِرٌ وَسَاحِرٌ وَكَاهِنٌ ومجنون، ﴿فَضَلُّوا﴾ فَحَارُوا وَحَادُوا، ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ أَيْ: وُصُولًا إِلَىٰ طَرِيقِ الْحَقِّ.

[٤٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا﴾ بَعْدَ الْمَوْتِ. قَالَ مُجَاهِدٌ: تُرَابًا، وَقِيلَ: حُطَامًا، وَالرُّفَاتُ: كُلُّ مَا يُكْسَرُ وَيَبْلَىٰ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ كَالْفُتَاتِ وَالْحُطَامِ، وَمِنْهُ قَوْلُ النَّاسِ: نُقِلَ رُفَاتُ فُلَانٍ (لِلْمَيِّتِ بَعْدَ مُضِيِّ سَنَوَاتٍ عَلَىٰ مَوْتِهِ)، ﴿أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ أَيْ: يَوْمَ الْقِيَامَةِ بَعْدَ مَا بَلِينَا وَصِرْنَا عَدَمًا لَا نُذْكَرُ.

[٥٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ﴾ لَهُمْ يَا مُحَمَّدُ ﴿كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا﴾ أَيْ قُلْ لَهُمْ يَا مُحَمَّدُ كُونُوا عَلَىٰ جِهَةِ التَّعْجِيزِ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا فِي الشِّدَّةِ وَالْقُوَّةِ، قَالَ الطَّبَرِيُّ: أَيْ إِنْ عَجِبْتُمْ مِنْ إِنْشَاءِ اللهِ لَكُمْ عِظَامًا وَلَحْمًا فَكُونُوا أَنْتُمْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا إِنْ قَدَرْتُمْ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: الْمَعْنَىٰ كُونُوا مَا شِئْتُمْ فَسَتُعَادُونَ.

[٥١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾ قال القاسمي: أي يعظم في نفوسكم عن قبول الحياة ويعظم في زعمكم علىٰ الخالق إحياؤه، فإنه يحييكم ولا يعجزه بعثكم،فكيف إذا كنتم عظامًا مرفوتة وقد كانت موصوفة بالحياة قبل، والشيء أقبل لما عهد فيه مما لم يعهد، وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَعِكْرِمَةُ

وَأَكْثَرُ الْمُفَسِّرِينَ: إِنَّهُ الْمَوْتُ، فَإِنَّهُ لَيْسَ فِي نَفْسِ ابْنِ آدَمَ شَيْءٌ أَكْبَرُ مِنَ الموت، أي: ولو كُنْتُمُ الْمَوْتَ بِعَيْنِهِ لَأُمِيتَنَّكُمْ وَلَأَبْعَثَنَّكُمْ، ﴿فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا﴾ مَنْ يَبْعَثُنَا بَعْدَ الْمَوْتِ، ﴿قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ﴾ خلقكم، ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ وَمَنْ قَدَرَ عَلَىٰ الْإِنْشَاءِ قَدَرَ عَلَىٰ الْإِعَادَةِ، ﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ﴾ أَيْ: يُحَرِّكُونَهَا إِذَا قُلْتَ لَهُمْ ذَلِكَ مُسْتَهْزِئِينَ بِهَا، وَالْإِنْغَاضُ: التَّحْرِيكُ مِنْ أَعْلَىٰ إِلَىٰ أَسْفَلَ وَالْعَكْسُ، فَإِنْغَاضُ الرَّأْسِ تَحْرِيكُهُ كَذَلِكَ، وَهُوَ تَحْرِيكُ الِاسْتِهْزَاءِ. ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ﴾ أَيِ: الْبَعْثُ وَالْقِيَامَةُ، ﴿قُلْ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا﴾ أَيْ: هُوَ قَرِيبٌ، لِأَنَّ عَسَىٰ مِنَ اللهِ وَاجِبٌ، نَظِيرُهُ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الْأَحْزَابِ: ٦٣].

[٥٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ﴾ مِنْ قُبُورِكُمْ إِلَىٰ مَوْقِفِ الْقِيَامَةِ، الدُّعَاءَ: النِّدَاءُ إِلَىٰ الْمَحْشَرِ بِكَلَامٍ تَسْمَعُهُ الْخَلَائِقُ، يَدْعُوهُمُ اللهُ تَعَالَىٰ فيه بالخروج. وَقِيلَ: بِالصَّيْحَةِ الَّتِي يَسْمَعُونَهَا، فَتَكُونُ دَاعِيَةً لَهُمْ إِلَىٰ الِاجْتِمَاعِ فِي أَرْضِ الْقِيَامَةِ. قَالَ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّكُمْ تُدْعَوْنَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِأَسْمَائِكُمْ وَأَسْمَاءِ آبَائِكُمْ فَأَحْسِنُوا أَسْمَاءَكُمْ**»[1]، ﴿فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ﴾ قال ابن عباس: بِأَمْرِهِ، وَقَالَ قَتَادَةُ: بِطَاعَتِهِ، وَقِيلَ: مُقِرِّينَ بِأَنَّهُ خَالِقُهُمْ وَبَاعِثُهُمْ وَيَحْمَدُونَهُ حتىٰ لا ينفعهم الحمد، قِيلَ: هَذَا خِطَابٌ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ فَإِنَّهُمْ يُبْعَثُونَ حَامِدِينَ،

(١) أحمد (٢١٦٨٣) وأبو جاود (٤٩٤٨).

﴿وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ﴾ في الدنيا أو في القبور، ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ لَوْ مَكَثَ أُلُوفًا من السنين في الدنيا أو في القبور عَدَّ ذَلِكَ قَلِيلًا فِي مُدَّةِ الْقِيَامَةِ وَالْخُلُودِ، قال قتادة: أي في الدنيا، تحاقرت الدنيا في أنفسهم وقَلَّت، حين عاينوا يوم القيامة.

[٥٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا﴾ للكافرين ﴿الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ وَلَا يُكَافِئُوهُمْ بِسَفَهِهِمْ ، قَالَ الْحَسَنُ البصري : التي هي أحسن، لا يقول له مثل قوله، يقول له: يرحمك الله، يغفر الله لك، وَكَانَ هَذَا قَبْلَ الْإِذْنِ فِي الْجِهَادِ والقتال، وَقِيلَ: أَمَرَ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنْ يَقُولُوا وَيَفْعَلُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ أَيِ: الْخَلَّةُ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ، وَقِيلَ: الْأَحْسَنُ: كَلِمَةُ الْإِخْلَاصِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ﴾ أَيْ: يُفْسِدُ وَيُلْقِي الْعَدَاوَةَ بَيْنَهُمْ، وَالنَّزْغُ: أَصْلُهُ الطَّعْنُ السَّرِيعُ، وَاسْتُعْمِلَ هُنَا فِي الْإِفْسَادِ السَّرِيعِ الْأَثَرِ، يُقَالُ: نَزَغَ بَيْنَنَا أَيْ أَفْسَدَ، وفي الحديث عن النبي صلىٰ الله عليه وسلم : «**لَا يُشِيرَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَىٰ أَخِيهِ بِالسِّلَاحِ ، فَإِنَّهُ لَا يَدْرِي لَعَلَّ الشَّيْطَانَ أَنْ يَنْزِغَ فِي يَدِهِ، فَيَقَعَ فِي حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ**»(١) ، ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا﴾ ظَاهِرَ الْعَدَاوَةِ.

[٥٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ﴾ يُوَفِّقْكُمْ فَتُؤْمِنُوا، يُبَيِّنَ لهم أَنَّهُ خَالِقُهُمْ وَأَنَّهُ جَعَلَهُمْ مُخْتَلِفِينَ فِي أَخْلَاقِهِمْ وَصُوَرِهِمْ وَأَحْوَالِهِمْ

---

(١) البخاري (٧٠٧٢) ومسلم (٢٦١٧) .

وَمَالِهِمْ: ﴿ أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ ﴾ الملك : ١٤] ، قوله : ﴿أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ﴾ قال ابن جريج: إِنْ يَشَأْ يُوَفِّقْكُمْ لِلْإِسْلَامِ فَيَرْحَمْكُمْ، أو يميتكم على الشرك فيعذبكم، وَقَالَ الْكَلْبِيُّ: إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ فَيُنْجِيكُمْ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ، وَإِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ فَيُسَلِّطَهُمْ عَلَيْكُمْ، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ حَفِيظًا وَكَفِيلًا، أَيْ وَمَا وَكَّلْنَاكَ فِي مَنْعِهِمْ مِنَ الْكُفْرِ وَلَا جَعَلْنَا إِلَيْكَ إِيمَانَهُمْ. وَقِيلَ: مَا جَعَلْنَاكَ كَفِيلًا لَهُمْ تُؤْخَذُ بِهِمْ .

[٥٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أَيْ: رَبُّكَ الْعَالِمُ بِمَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَجَعَلَهُمْ مُخْتَلِفِينَ فِي صورهم وأخلاقهم وأحوالهم وملكهما، ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ قِيلَ: جَعَلَ أَهْلَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مُخْتَلِفِينَ كَمَا فَضَّلَ بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ. قَالَ قَتَادَةُ: فِي هَذِهِ الْآيَةِ اتَّخَذَ اللهُ إِبْرَاهِيمَ خليلا وكلم الله مُوسَىٰ تَكْلِيمًا وَقَالَ لِعِيسَىٰ كُنْ فيكون، وآتىٰ سليمان ملكا عظيما لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ، وَآتَىٰ دَاوُدَ زَبُورًا كَمَا قَالَ: ﴿وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ وَالزَّبُورُ كِتَابٌ عَلَّمَهُ اللهُ دَاوُدَ يَشْتَمِلُ عَلَىٰ مِائَةٍ وَخَمْسِينَ سُورَةً كُلُّهَا دُعَاءٌ وَتَمْجِيدٌ وَثَنَاءٌ عَلَىٰ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَلَيْسَ فِيهَا حَرَامٌ وَلَا حَلَالٌ وَلَا فَرَائِضُ وَلَا حُدُودٌ، مَعْنَاهُ: إِنَّكُمْ لَمْ تُنْكِرُوا تَفْضِيلَ النَّبِيِّينَ فَكَيْفَ تُنْكِرُونَ فَضْلَ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَإِعْطَاءَهُ الْقُرْآنَ؟ وَهَذَا خِطَابٌ مَعَ مَنْ يُقِرُّ بِتَفْضِيلِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَغَيْرِهِمْ.

[٥٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ﴾ وَذَلِكَ أَنَّ الْمُشْرِكِينَ أَصَابَهُمْ قَحْطٌ شَدِيدٌ حَتَّىٰ أَكَلُوا الْكِلَابَ وَالْجِيَفَ فَاسْتَغَاثُوا بِالنَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِيَدْعُوَ لَهُمْ، قال ابن عاشور : وَلَعَلَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي مُدَّةِ إِصَابَةِ الْقَحْطِ قُرَيْشًا بِمَكَّةَ، وَهِيَ السَّبْعُ السُّنُونَ الَّتِي هِيَ دَعْوَة النبيء صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اللَّهُمَّ اجْعَلْهَا عَلَيْهِمْ سِنِينَ كَسِنِينَ يُوسُفَ**» ، قَالَ اللهُ تعالىٰ: ﴿قُلِ﴾ للمشركين ، أَيِ ادْعُوا الَّذِينَ تَعْبُدُونَ من دونه وَزَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ آلِهَةً. وَقَالَ الْحَسَنُ: يَعْنِي الْمَلَائِكَةَ وَعِيسَىٰ وَعُزَيْرًا. ﴿ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ أنها آلهة ﴿مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ﴾ الْقَحْطِ وَالْجُوعِ، ﴿عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾ مِنَ الْفَقْرِ إِلَىٰ الْغِنَىٰ وَمِنَ السَّقَمِ إِلَىٰ الصِّحَّةِ، وَالتَّحْوِيلُ: نَقْلُ الشَّيْءِ مِنْ مَكَانٍ إِلَىٰ مَكَانٍ، أَيْ لَا يَسْتَطِيعُونَ إِزَالَةَ الضُّرِّ عَنِ الْجَمِيعِ وَلَا إِزَالَتَهُ عَنْ وَاحِدٍ إِلَىٰ غيره.

[٥٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾ يعني الذين يدعونهم المشركون أنهم آلِهَةً يَعْبُدُونَهُمْ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ: وَهُمْ عِيسَىٰ وَأُمُّهُ وَعُزَيْرٌ وَالْمَلَائِكَةُ، وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ، ﴿يَبْتَغُونَ﴾ أَيْ يَطْلُبُونَ ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾ أَيِ الْقُرْبَةَ ، وَقِيلَ: الْوَسِيلَةُ الدَّرَجَةُ أَيْ يَتَضَرَّعُونَ إِلَىٰ اللهِ فِي طَلَبِ الدَّرَجَةِ الْعُلْيَا، وروىٰ البخاري عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾ قَالَ نَاسٌ مِنَ الْجِنِّ كَانُوا يُعْبَدُونَ فَأَسْلَمُوا، وَفِي رِوَايَةٍ قَالَ: كَانَ نَاسٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعْبُدُونَ نَاسًا مِنَ الْجِنِّ فَأَسْلَمَ الْجِنُّ وَتَمَسَّكَ هؤلاء بدينهم، وَقِيلَ: الْوَسِيلَةُ كُلُّ مَا يُتَقَرَّبُ بِهِ إِلَىٰ

اللهِ تَعَالَىٰ، وَقَوْلُهُ ﴿أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ [النساء: ١١] مَعْنَاهُ يَنْظُرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ إِلَىٰ اللهِ فَيَتَوَسَّلُونَ بِهِ ، وَقَالَ الزَّجَّاجُ: أَيُّهُمْ أَقْرَبُ يَبْتَغِي الْوَسِيلَةَ إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ وَيَتَقَرَّبُ إِلَيْهِ بِالْعَمَلِ الصالح، ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ﴾ جَنَّتَهُ، ﴿وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ أَيْ يُطْلَبُ مِنْهُ الْحَذَرُ ، وَقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ: نَزَلَتِ الْآيَةُ فِي نَفَرٍ مِنَ الْعَرَبِ كَانُوا يَعْبُدُونَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ ، فَأَسْلَمَ الْجِنِّيُّونَ ، وَلَمْ يَعْلَمِ الْإِنْسُ الَّذِينَ كَانُوا يَعْبُدُونَهُمْ بِإِسْلَامِهِمْ، فَتَمَسَّكُوا بِعِبَادَتِهِمْ فَعَيَّرَهُمُ اللهُ وَأَنْزَلَ هَذِهِ الآية.

[٥٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ﴾ وَمَا مِنْ قَرْيَةٍ ﴿إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ أَيْ: مُخَرِّبُوهَا وَمُهْلِكُوا أَهْلَهَا، ﴿أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا﴾ بِأَنْوَاعِ الْعَذَابِ إِذَا كَفَرُوا وَعَصَوْا. وَقَالَ مُقَاتِلٌ وَغَيْرُهُ: مُهْلِكُوهَا فِي حَقِّ الْمُؤْمِنِينَ بِالْإِمَاتَةِ وَمُعَذِّبُوهَا فِي حَقِّ الْكُفَّارِ بِأَنْوَاعِ الْعَذَابِ، قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ: إِذَا ظَهَرَ الزِّنَا وَالرِّبَا فِي قَرْيَةٍ أذن الله في إهلاكها، ﴿كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ﴾ في اللوح المحفوظ، ﴿مَسْطُورًا﴾ مَكْتُوبًا، وَالسَّطْرُ:الْخَطُّ وَالْكِتَابَةُ، وَالْمَسْطُورُ: الْمَكْتُوبُ يُقَالُ: سَطَّرَ الْكِتَابَ إِذَا كَتَبَهُ سُطُورًا، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَالْقَلَمِ وَما يَسْطُرُونَ﴾ [القلم:١] ، وفي الحديث عن عُبَادَةَ بْنُ الصَّامِتِ قال: سَمِعْتُ

رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «**إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُ الْقَلَمُ فَقَالَ: اكْتُبْ، فَقَالَ: مَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: الْقَدَرُ، وَمَا كَانَ وَمَا هُوَ كائن إلىٰ الأبد**»(١).

[٥٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: «سَأَلَ أَهْلُ مَكَّةَ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَجْعَلَ لَهُمُ الصَّفَا ذَهَبًا وَأَنْ يُنَحِّيَ الْجِبَالَ عَنْهُمْ فَيَزْرَعُوا فَأَوْحَىٰ اللهُ تَعَالَىٰ إِلَىٰ رَسُولِهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنْ شِئْتَ أَنْ أَسْتَأْنِيَ بِهِمْ فَعَلْتُ، وَإِنْ شِئْتَ أَنْ أُوتِيَهِمْ مَا سَأَلُوا فَعَلْتُ، فَإِنْ لم يؤمنوا أهلكهم كَمَا أَهْلَكْتُ مَنْ كَانَ قَبْلَهُمْ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **لَا بَلْ تَسْتَأْنِي بِهِمْ**» فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ﴾ الَّتِي سَأَلَهَا كُفَّارُ قُرَيْشٍ ﴿إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ﴾ فَأَهْلَكْنَاهُمْ، فَإِنْ لَمْ يُؤَمِنْ قَوْمُكَ بَعْدَ إِرْسَالِ الآيات أهلكناهم، لأن من شأننا فِي الْأُمَمِ إِذَا سَأَلُوا الْآيَاتِ ثُمَّ لَمْ يُؤْمِنُوا بَعْدَ إِتْيَانِهَا أَنْ نُهْلِكَهُمْ وَلَا نُمْهِلَهُمْ، وَقَدْ حكمنا بإمهال هذه الأمة في العذاب، فَقَالَ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾، وَقِيلَ: ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ بِتَكْذِيبِهَا يُرِيدُ فَعَاجَلْنَاهُمْ بِالْعُقُوبَةِ، ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ﴾ أَيِ: الْعِبَرِ وَالدَّلَالَاتِ، ﴿إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ لِلْعِبَادِ لِيُؤْمِنُوا، قَالَ قَتَادَةُ: إِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ يُخَوِّفُ النَّاسَ بِمَا شَاءَ مِنْ آيَاتِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ، وقيل: الْعِبَرُ

---

(١) أبو داود (٤٧٠٠) والترمذي (٢١٥٥).

وَالْمُعْجِزَاتُ الَّتِي جَعَلَهَا اللهُ عَلَىٰ أَيْدِي الرُّسُلِ مِنْ دَلَائِلِ الْإِنْذَارِ تَخْوِيفًا لِلْمُكَذِّبِينَ.

[٦٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾ أَيْ: هُمْ فِي قَبْضَتِهِ لَا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ الْخُرُوجِ عَنْ مَشِيئَتِهِ فَهُوَ حَافِظُكَ وَمَانِعُكَ مِنْهُمْ فَلَا تهبهم وامض إلىٰ ما أمر الله بِهِ مِنْ تَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ، وقالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: النَّاسُ هُنَا أَهْلُ مَكَّةَ، وَإِحَاطَتُهُ بِهِمْ إِهْلَاكُهُ إِيَّاهُمْ، أَيْ إِنَّ اللهَ سَيُهْلِكُهُمْ ، وَذَكَرَهُ بِلَفْظِ الْمَاضِي لِتَحَقُّقِ كَوْنِهِ، وَعَنَىٰ بِهَذَا الْإِهْلَاكِ الْمَوْعُودِ مَا جَرَىٰ يَوْمَ بَدْرٍ وَيَوْمَ الْفَتْحِ. وَقِيلَ: مَعْنَىٰ﴿أَحاطَ بِالنَّاسِ﴾ أَيْ أَحَاطَتْ قُدْرَتُهُ بِهِمْ، فَهُمْ فِي قَبْضَتِهِ لَا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ الْخُرُوجِ مِنْ مَشِيئَتِهِ، ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِفَالْأَكْثَرُونَ عَلَىٰ أَنَّ الْمُرَادَ مِنْهُ مَا رَأَىٰ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيْلَةَ الْمِعْرَاجِ مِنَ الْعَجَائِبِ وَالْآيَاتِ، وَالْعَرَبُ تَقُولُ: رَأَيْتُ بِعَيْنِي رُؤْيَةً وَرُؤْيَا، فَلَمَّا ذَكَرَهَا رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِلنَّاسِ أنكر بعضهم ذلك، وكذبوا وكان فِتْنَةً لِلنَّاسِ. إِنَّمَا جَعَلَ الْإِسْرَاءَ وَذِكْرَ شَجَرَةِ الزَّقُّومِ فِتْنَةً وَاخْتِبَارًا لِيَكْفُرَ مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْكُفْرُ وَيُصَدِّقَ مَنْ سَبَقَ لَهُ الْإِيمَانُ، كَمَا رُوِيَ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قِيلَ لَهُ صَبِيحَةَ الْإِسْرَاءِ: إِنَّ صَاحِبَكَ يَزْعُمُ أَنَّهُ جَاءَ الْبَارِحَةَ مِنْ بَيْتِ الْمَقْدِسِ فَقَالَ: إِنْ كَانَ قَالَ ذَلِكَ فَلَقَدْ صَدَقَ. فَقِيلَ لَهُ: أَتُصَدِّقُهُ قَبْلَ أَنْ تسمع منه؟ فقال: أين عُقُولُكُمْ؟ أَنَا أُصَدِّقُهُ بِخَبَرِ السَّمَاءِ، فَكَيْفَ لَا أُصَدِّقُهُ بِخَبَرِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ، وَالسَّمَاءُ أَبْعَدُ مِنْهَا بكثير. قوله : ﴿وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ﴾ يَعْنِي شَجَرَةَ

الزَّقُّومِ، مَجَازُهُ وَالشَّجَرَةُ الْمَلْعُونَةُ الْمَذْكُورَةُ فِي الْقُرْآنِ، وَالْعَرَبُ تَقُولُ لِكُلِّ طَعَامٍ كَرِيهٍ: طَعَامٌ مَلْعُونٌ. وَقِيلَ: مَعْنَاهُ الْمَلْعُونُ آكِلُهَا، وَنُصِبَ الشَّجَرَةُ عَطْفًا عَلَىٰ الرُّؤْيَا، أَيْ: وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ، فَكَانَتِ الْفِتْنَةُ فِي الرُّؤْيَا مَا ذَكَرْنَا، وَالْفِتْنَةُ فِي الشَّجَرَةِ الْمَلْعُونَةِ مِنْ وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّ أَبَا جَهْلٍ قَالَ: إِنَّ ابْنَ أَبِي كَبْشَةَ يُوعِدُكُمْ بِنَارٍ تُحْرِقُ الْحِجَارَةَ ثُمَّ يَزْعُمُ أَنَّهُ يَنْبُتُ فِيهَا شَجَرَةٌ، وَتَعْلَمُونَ أَنَّ النَّارَ تُحْرِقُ الشَّجَرَةَ.

وَالثَّانِي: أَنَّ عَبْدَ اللهِ بْنَ الزِّبَعْرَىٰ قَالَ: إِنَّ مُحَمَّدًا يُخَوِّفُنَا بِالزَّقُّومِ وَلَا نَعْرِفُ الزَّقُّومَ إِلَّا الزُّبْدَ وَالتَّمْرَ، وَقَالَ أَبُو جَهْلٍ: يَا جَارِيَةُ تَعَالِي فَزَقِّمِينَا فَأَتَتْ بِالتَّمْرِ وَالزُّبْدِ، فَقَالَ: يَا قَوْمُ تَزَقَّمُوا فَإِنَّ هَذَا مَا يُخَوِّفُكُمْ بِهِ مُحَمَّدٌ، فَوَصَفَهَا اللهُ تَعَالَىٰ فِي الصَّافَّاتِ. وَقِيلَ: الشَّجَرَةُ الْمَلْعُونَةُ هِيَ الَّتِي تَلْتَوِي علىٰ الشجر فتخنقه، يَعْنِي الْكَشُوثَ، ﴿وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ﴾ التخويف، أَيْ بِالزَّقُّومِ، ﴿إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾ أي: تمردا وعتوا عظيماً.

[٦١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ أي: خلقته من طين، قال ابن عاشور: وَالْمَقْصُودُ من هَذَا هُوَ تذكير النبيء صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَا لَقِيَ الْأَنْبِيَاءُ قَبْلَهُ مِنْ مُعَانَدَةِ الْأَعْدَاءِ وَالْحَسَدَةِ مِنْ عَهْدِ آدَمَ حِينَ حَسَدَهُ إِبْلِيسُ عَلَىٰ فَضْلِهِ.

[٦٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿قَالَ﴾ يعني إبليس، ﴿أَرَأَيْتَكَ﴾ أَيْ أَخْبِرْنِي وَالْكَافُ لِتَأْكِيدِ الْمُخَاطَبَةِ، ﴿هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ﴾ أي: فضلته علي وَرَأَىٰ جَوْهَرَ النَّارِ خَيْرًا مِنْ جَوْهَرِ الطِّينِ وَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ الْجَوَاهِرَ مُتَمَاثِلَةٌ، ﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِي﴾ أَمْهَلْتَنِي ﴿إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ﴾ أَيْ: لَأَسْتَأْصِلَنَّهُمْ بِالْإِضْلَالِ، وَالِاحْتِنَاكُ: وَضْعُ الرَّاكِبِ اللِّجَامَ فِي حَنَكِ الْفَرَسِ لِيَرْكَبَهُ وَيُسَيِّرَهُ، فَهُوَ هُنَا تَمْثِيلٌ لِجَلْبِ ذُرِّيَّةِ آدَمَ إِلَىٰ مُرَادِهِ مِنَ الْإِفْسَادِ وَالْإِغْوَاءِ بِتَسْيِيرِ الْفَرَسِ عَلَىٰ حُبِّ مَا يُرِيد رَاكِبه.وَقِيلَ: لَأَسْتَوْلِيَنَّ عَلَيْهِمْ بِالْإِغْوَاءِ، ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ يَعْنِي الْمَعْصُومِينَ الَّذِينَ اسْتَثْنَاهُمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ .

[٦٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿قَالَ﴾ اللهُ ﴿اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ﴾ أي: جزاءك وجزاء أتباعك، ﴿جَزَاءً مَوْفُورًا﴾ وَافِرًا مُكَمَّلًا ، عَن سعيد بن جُبَير قال : يوفر عَذَابهَا للْكَافِرِ ، فَلَا يدّخر عَنْهُم مِنْهَا شَيْء، وَالْمَعْنَىٰ: تَوَعُّدٌ مِنَ اللهِ تَعَالَىٰ أَتْبَاعَ إِبْلِيسَ بِالشَّقَاءِ، قَالَ قَتَادَةُ: عَذَابُ جَهَنَّمَ جَزَاؤُهُمْ، وَنِقْمَةٌ مِنَ اللهِ مِنْ أَعْدَائِهِ، فَلَا يُعْدَلُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا شَيْءٌ.

[٦٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَاسْتَفْزِزْ﴾ وَاسْتَخْفِفْ وَاسْتَجْهِدْ : طَلَبُ الْفَزِّ، وَهُوَ الْخِفَّةُ وَالِانْزِعَاجُ وَتَرْكُ التَّثَاقُلِ ، ﴿مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ﴾ أَيْ: مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ، ﴿بِصَوْتِكَ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَقَتَادَةُ: بِدُعَائِكَ إِلَىٰ مَعْصِيَةِ اللهِ، وَكُلُّ دَاعٍ إِلَىٰ مَعْصِيَةِ اللهِ فَهُوَ مِنْ جُنْدِ إِبْلِيسَ، قَالَ الْأَزْهَرِيُّ: مَعْنَاهُ ادْعُهُمْ دُعَاءً تَسْتَفِزُّهُمْ بِهِ إِلَىٰ جَانِبِكَ، أَيْ: تَسْتَخِفُّهُمْ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: بِالْغِنَاءِ وَالْمَزَامِيرِ، ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ

بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ قِيلَ: اجْمَعْ عَلَيْهِمْ مَكَايِدَكَ وَخَيْلَكَ، وَالْإِجْلَابُ: جَمْعُ الْجَيْشِ وَسَوْقُهُ، مُشْتَقٌّ مِنَ الْجَلَبَةِ بِفَتْحَتَيْنِ، وَهِيَ الصِّيَاحُ، لِأَنَّ قَائِدَ الْجَيْشِ إِذَا أَرَادَ جَمْعَ الْجَيْشِ نَادَىٰ فِيهِمْ لِلنَّفِيرِ أَوْ لِلْغَارَةِ وَالْهُجُومِ، قَالَ مُقَاتِلٌ: اسْتَعِنْ عَلَيْهِمْ بِرُكْبَانِ جُنْدِكَ وَمُشَاتِهِمْ، وَالْخَيْلُ: الرُّكْبَانِ، وَالرَّجِلُ: الْمُشَاةُ، قَالَ أَهْلُ التَّفْسِيرِ: كُلُّ رَاكِبٍ وَمَاشٍ فِي مَعَاصِي اللهِ فَهُوَ مِنْ جُنْدِ إِبْلِيسَ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ: إِنَّ لَهُ خَيْلًا وَرَجِلًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَهُوَ كُلُّ ما يُقَاتِلُ فِي الْمَعْصِيَةِ، وَالرَّجُلُ وَالرَّجَّالَةُ وَالرَّاجِلَةُ وَاحِدٌ، يُقَالُ: رَاجِلٌ وَرَجُلٌ مِثْلُ تَاجِرٍ وَتَجْرٍ وَرَاكِبٍ وَرَكِبٍ، وَقَرَأَ حَفْصٌ وَرَجِلِكَ بِكَسْرِ الْجِيمِ وَهُمَا لُغَتَانِ، ﴿وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَولَادِ﴾ فَالْمُشَارَكَةُ فِي الْأَمْوَالِ كُلُّ مَا أُصِيبَ مِنْ حَرَامٍ أَوْ أُنْفِقَ فِي حَرَامٍ، هَذَا قَوْلُ مُجَاهِدٍ وَالْحُسْنِ وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، وَقَالَ عَطَاءٌ: هُوَ الرِّبَا ، وَقَالَ قَتَادَةُ: هُوَ مَا كَانَ الْمُشْرِكُونَ يُحَرِّمُونَهُ مِنَ الْأَنْعَامِ كَالْبَحِيرَةِ وَالسَّائِبَةِ وَالْوَصِيلَةِ وَالْحَامِ، وَقَالَ الضَّحَاكُ: هُوَ مَا كَانُوا يَذْبَحُونَهُ لِآلِهَتِهِمْ، وَأَمَّا الشَّرِكَةُ فِي الْأَوْلَادِ، رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّهَا الْمَوْءُودَةُ ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَالضَّحَاكُ: هُمْ أَوْلَادُ الزِّنَا ، وَقَالَ الْحَسَنُ وَقَتَادَةُ: هُوَ أَنَّهُمْ هَوَّدُوا أولادهم ونصروهم ومجسوهم، وَرُوِيَ عَنْ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ : أَنَّ الشَّيْطَانَ يَقْعُدُ عَلَىٰ ذَكَرِ الرَّجُلِ فَإِذَا لَمْ يَقُلْ بِسْمِ اللهِ أَصَابَ مَعَهُ امْرَأَتَهُ وَأَنْزَلَ فِي فَرْجِهَا كَمَا يُنْزِلُ الرَّجُلُ ، وفي الصحيحين عن ابن عباس رضي الله عنه، أن رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم قال: « **لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَأْتِيَ أَهْلَهُ، قَالَ: بِاسْمِ اللهِ، اللَّهُمَّ جَنِّبْنَا الشَّيْطَانَ**

وَجَنِّبِ الشَّيْطَانَ مَا رَزَقْتَنَا؛ فَإِنَّهُ إِنْ يُقَدَّرْ بَيْنَهُمَا وَلَدٌ فِي ذَلِكَ، لَمْ يَضُرَّهُ شَيْطَانٌ أَبَدًا»[1] ، ﴿وَعِدْهُمْ﴾ أي: خذ مَنِهِمُ الْجَمِيلَ فِي طَاعَتِكَ ، وَقِيلَ: قُلْ لَهُمْ: لَا جَنَّةَ وَلَا نَارَ وَلَا بَعْثَ ، ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ وَالْغُرُورُ تَزْيِينُ الْبَاطِلِ بِمَا يُظَنُّ أَنَّهُ حَقٌّ .

[٦٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾ قال ابن كثير: إخبارٌ بتأييده تعالىٰ عباده المؤمنين، وحِفْظه إياهم، وحراسته لهم من الشيطان الرجيم، ولهذا قال: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ أي حافظاً ، ومن يُوكِلُ الْأَمْرَ إِلَيْهِ، وحافظا من كيده وسوء مكر.،

[٦٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ﴾ أَيْ: يَسُوقُ وَيُجْرِي لَكُمُ الْفُلْكَ، الْإِزْجَاءُ: السَّوْقُ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُزْجِي سَحاباً﴾ [النور : ٤٣] ، قوله : ﴿فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ لِتَطْلُبُوا مِنْ رِزْقِهِ، ﴿إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ أَيْ إِنَّمَا فَعَلَ هَذَا بِكُمْ مِنْ فَضْلِهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتِهِ بِكُمْ.

[٦٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ﴾ الشِّدَّةُ وَخَوْفُ الْغَرَقِ، ﴿فِي الْبَحْرِ ضَلَّ﴾ أَيْ: بَطَلَ وَسَقَطَ، ﴿مَنْ تَدْعُونَ﴾ من الآلهة، ﴿إِلَّا إِيَّاهُ﴾ إِلَّا اللهُ فَلَمْ تَجِدُوا مُغِيثًا سواه، أَيْ ذَهَبَ عن قلوبكم كل ما تعبدون غير الله تعالىٰ، كَمَا اتُّفِقَ لِعِكْرِمَةَ بْنِ أَبِي جَهْلٍ لَمَّا ذَهَبَ فَارًّا مِنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ

---

(١) البخاري (٦٣٨٨) ومسلم (١٤٣٤) .

فَتَحَ مَكَّةَ، فَذَهَبَ هَارِبًا ، فَرَكِبَ فِي الْبَحْرِ لِيَدْخُلَ الْحَبَشَةَ ، فَجَاءَتْهُمْ رِيحٌ عَاصِفٌ فَقَالَ الْقَوْمُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: إِنَّهُ لَا يُغْنِي عَنْكُمْ إِلَّا أَنْ تَدْعُوَ اللهَ وَحْدَهُ، فقال عكرمة في نفسه: والله إن كَانَ لَا يَنْفَعُ فِي الْبَحْرِ غَيْرُهُ ، فَإِنَّهُ لَا يَنْفَعُ فِي الْبَرِّ غَيْرُهُ : اللَّهُمَّ لَكَ علي عهد لئن أخرجتني منه لَأَذْهَبَنَ فَلَأَضَعَنَّ يَدِي فِي يَدِ مُحَمَّدٍ فَلَأَجِدَنَّهُ رؤوفا رَحِيمًا، فَخَرَجُوا مِنَ الْبَحْرِ فَرَجَعَ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَسْلَمَ وَحَسُنَ إسلامه رضي الله عنه وأرضاه، ﴿فَلَمَّا نَجَّاكُمْ﴾ أَجَابَ دُعَاءَكُمْ وَأَنْجَاكُمْ مِنْ هَوْلِ الْبَحْرِ وَأَخْرَجَكُمْ، ﴿إِلَىٰ الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ﴾ عَنِ الْإِيمَانِ وَالْإِخْلَاصِ وَالطَّاعَةِ كُفْرًا مِنْكُمْ لِنِعَمِهِ، ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾ أَيْ سَجِيَّتُهُ هَذَا، يَنْسَىٰ النِّعَمَ وَيَجْحَدُهَا إِلَّا مَنْ عَصَمَ اللهُ.

[٦٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿أَفَأَمِنتُمْ﴾ بَعْدَ ذَلِكَ، بَيَّنَ أَنَّهُ قَادِرٌ عَلَىٰ هَلَاكِهِمْ فِي الْبَرِّ وَإِنْ سَلِمُوا مِنَ الْبَحْرِ. ﴿أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ﴾ يغور بكم، وَالْخَسْفُ: أَنْ تَنْهَارَ الْأَرْضُ بِالشَّيْءِ، يُقَالُ: بِئْرٌ خَسِيفٌ إِذَا انْهَدَمَ أَصْلُهَا، وَعَيْنٌ خَاسِفٌ أَيْ غَارَتْ حَدَقَتُهَا فِي الرَّأْسِ. ﴿جَانِبَ الْبَرِّ﴾ نَاحِيَةَ الْبَرِّ وَهِيَ الْأَرْضُ، وَسَمَّاهُ جَانِبًا لِأَنَّهُ يَصِيرُ بَعْدَ الْخَسْفِ جَانِبًا، وَأَيْضًا فَإِنَّ الْبَحْرَ جَانِبٌ وَالْبَرَّ جَانِبٌ ، ﴿أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ أَيْ: يُمْطِرُ عَلَيْكُمْ حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ كَمَا أَمْطَرَ عَلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ، وَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: الْحَاصِبُ الرِّيحُ الَّتِي تَرْمِي بِالْحَصْبَاءِ، وَهِيَ الْحَصَا الصِّغَارُ، ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا﴾ قَالَ قَتَادَةُ: مَانِعًا.

[٦٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿أَمْ أَمِنتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ﴾ يعني في البحر، ﴿تَارَةً﴾ مَرَّةً، ﴿أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ﴾ أَيْ يَقْصِفُ الصَّوَارِيَ وَيُغْرِقُ الْمَرَاكِبَ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَيْ: عَاصِفًا وَهِيَ الرِّيحُ الشَّدِيدَةُ. وَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: هِيَ الرِّيحُ الَّتِي تَقْصِفُ كُلَّ شَيْءٍ، أَيْ تَدُقُّهُ وَتُحَطِّمُهُ ، وَالْقَصْفُ: الْكَسْرُ ، وَقَالَ الْقُتَيْبِيُّ: هِيَ الَّتِي تَقْصِفُ الشَّجَرَ، أَيْ تُكَسِّرُهُ، ﴿فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا﴾ ناصرا ولا ثائرا، وتبيع بمعنىٰ تابع أي تابعا أي مُطَالِبًا بِالثَّأْرِ، وَقِيلَ: مَنْ يُتْبِعُنَا بِالْإِنْكَارِ.

[٧٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ: هُوَ أَنَّهُمْ يَأْكُلُونَ بِالْأَيْدِي وَغَيْرُ الْآدَمِيِّ يَأْكُلُ بِفِيهِ مِنَ الْأَرْضِ، وَرُوِيَ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: بِالْعَقْلِ. وَقَالَ الضَّحَاكُ: بِالنُّطْقِ. وَقَالَ عَطَاءٌ: بِتَعْدِيلِ الْقَامَةِ وَامْتِدَادِهَا، وَالدَّوَابُّ مُنْكَبَّةٌ عَلَىٰ وُجُوهِهَا ، قال القرطبي : وَهَذِهِ الْكَرَامَةُ يَدْخُلُ فِيهَا خَلْقُهُمْ عَلَىٰ هَذِهِ الْهَيْئَةِ فِي امْتِدَادِ الْقَامَةِ وَحُسْنِ الصُّورَةِ، وَحَمْلُهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ مِمَّا لَا يَصِحُّ لِحَيَوَانٍ سِوَىٰ بَنِي آدَمَ أَنْ يَكُونَ يَتَحَمَّلُ بِإِرَادَتِهِ وَقَصْدِهِ وَتَدْبِيرِهِ. وَتَخْصِيصِهِمْ بِمَا خَصَّهُمْ بِهِ مِنَ الْمَطَاعِمِ وَالْمَشَارِبِ وَالْمَلَابِسِ، وَهَذَا لَا يَتَّسِعُ فِيهِ حَيَوَانٌ اتِّسَاعَ بَنِي آدَمَ، لِأَنَّهُمْ يَكْسِبُونَ الْمَالَ خَاصَّةً دُونَ الْحَيَوَانِ، وَيَلْبَسُونَ الثِّيَابَ وَيَأْكُلُونَ الْمُرَكَّبَاتِ مِنَ الْأَطْعِمَةِ، قوله : ﴿وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ أَيْ: حَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ عَلَىٰ الدَّوَابِّ وَفِي الْبَحْرِ عَلَىٰ السُّفُنِ، ﴿وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ يَعْنِي: لَذِيذَ الْمَطَاعِمِ وَالْمَشَارِبِ ، قَالَ مُقَاتِلٌ: السَّمْنُ وَالزُّبْدُ وَالتَّمْرُ

وَالْحَلْوَىٰ، وَجَعَلَ رِزْقَ غَيْرِهِمْ مَا لَا يَخْفَىٰ. ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ وَظَاهِرُ الْآيَةِ أَنَّهُ فَضَّلَهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقَهُمْ لَا عَلَىٰ الْكُلِّ. وَقَالَ قَوْمٌ: فُضِّلُوا عَلَىٰ جَمِيعِ الْخَلْقِ إِلَّا عَلَىٰ الْمَلَائِكَةِ ، وَقَالَ الْكَلْبِيُّ: فُضِّلُوا عَلَىٰ الْخَلَائِقِ كُلِّهِمْ إِلَّا عَلَىٰ طَائِفَةٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ : جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ وَمَلَكِ الموت، وأشباههم.

[٧١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ: بِنَبِيِّهِمْ. وَقَالَ أَبُو صَالِحٍ وَالضَّحَاكُ: بِكِتَابِهِمُ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَيْهِمْ ، قال ابن كثير : وهَذَا الْقَوْلُ هُوَ الْأَرْجَحُ، لِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس:١٢] ، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾ [الكهف : ٤٩] ، ويحتمل أن المراد ﴿بِإِمَامِهِمْ﴾ أي كل قوم بمن يأتمون به، فأهل الإيمان ائتموا بالأنبياء عليهم السلام، وأهل الكفر ائتموا بأئمتهم، كما قال: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَىٰ النار﴾. وفي الصحيحين: «**لِتَتَّبِعْ كُلُّ أُمَّةٍ مَا كَانَتْ تَعْبُدُ، فَيَتْبَعُ مَنْ كان يعبد الطواغيت : الطواغيت**» الحديث[١] ، وَقَالَ الْحَسَنُ وَأَبُو الْعَالِيَةِ: بِأَعْمَالِهِمْ ، ﴿فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ وَيُسَمَّىٰ الْكِتَابُ إِمَامًا كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾ [يس: ١٢] وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: بِإِمَامِ زَمَانِهِمُ الَّذِي دَعَاهُمْ فِي

---

(١) البخاري (٧٤٣٧) ومسلم (٦٥٧٣) .

الدُّنْيَا إِلَىٰ ضَلَالَةٍ أَوْ هُدًى، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ [الْأَنْبِيَاءِ:٧٣] ، وَقَالَ: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَىٰ النَّارِ﴾ [القصص: ٤١] ، وَقِيلَ: بِمَعْبُودِهِمْ ، وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ قَالَ: كُلُّ قَوْمٍ يَجْتَمِعُونَ إِلَىٰ رَئِيسِهِمْ فِي الْخَيْرِ وَالشَّرِّ ، قَوْلُهُ ﴿فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ أَيْ: لَا يَنْقُصُ مِنْ حَقِّهِمْ قَدْرُ فَتِيلٍ، الْفَتِيلَ: هُوَ الْخَيْطُ الْمُسْتَطِيلُ فِي شِقِّ النَّوَاةِ .

[٧٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ﴾ اخْتَلَفُوا فِي هَذِهِ الْإِشَارَةِ فَقَالَ قَوْمٌ: هِيَ رَاجِعَةٌ إِلَىٰ النِّعَمِ الَّتِي عَدَّدَهَا اللهُ تَعَالَىٰ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ﴾ إلىٰ قوله : ﴿تفضيلاً﴾ يقول: ومن كَانَ مِنْكُمْ فِي هَذِهِ النِّعَمِ الَّتِي قَدْ عَايَنَ أَعْمَىٰ، ﴿فَهُوَ فِي﴾ أمر، ﴿الْآخِرَةِ﴾ الَّتِي لَمْ يُعَايِنْ وَلَمْ يَرَ، ﴿أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ يُرْوَىٰ هَذَا عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَقَالَ الْآخَرُونَ: هِيَ رَاجِعَةٌ إِلَىٰ الدُّنْيَا يَقُولُ مَنْ كَانَ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا أَعْمَىٰ الْقَلْبِ عَنْ رُؤْيَةِ قُدْرَةِ اللهِ وَآيَاتِهِ وَرُؤْيَةِ الْحَقِّ، فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ أَيْ أَشَدُّ عَمًىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا أَيْ أَخْطَأُ طَرِيقًا، وَقِيلَ: مَنْ كَانَ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا أَعْمَىٰ عَنِ الِاعْتِبَارِ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ عَنِ الِاعْتِذَارِ،وَقَالَ الْحَسَنُ البصري: مَنْ كَانَ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا ضَالًّا كَافِرًا فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا لِأَنَّهُ فِي الدُّنْيَا تُقْبَلُ تَوْبَتُهُ وَفِي الْآخِرَةِ لَا تُقْبَلُ تَوْبَتُهُ، ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ يَعْنِي أَنَّهُ لَا يَجِدُ طريقا إلىٰ الهداية.

[٧٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ﴾ لَيَصْرِفُونَكَ ، قال النسفي: المعنىٰ: إن الشأن قاربوا أن يفتنوك أي يخدعوك فاتنين ، ﴿عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ من القرآن ﴿لِتَفْتَرِيَ﴾ لتختلق، ﴿عَلَيْنَا غَيْرَهُ﴾ لِتَقُولَ عَلَيْنَا مَا لَمْ نَقُلْ، يَعْنِي: مَا اقْتَرَحُوهُ مِنْ تَبْدِيلِ الْوَعْدِ وَعِيدًا وَالْوَعِيدِ وَعْدًا ، ﴿وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا﴾؛ أَيْ: وَلَوْ اتَّبَعْتَ مُرَادَهُمْ لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا، وَلَكُنْتَ لَهُمْ وَلِيًّا، وَخَرَجْتَ مِنْ وِلَايَتِي. يُخْبِرُ تَعَالَىٰ عَنْ تَأْيِيدِهِ رَسُولَهُ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ وَتَثْبِيتِهِ وَعِصْمَتِهِ وَسَلَامَتِهِ مِنْ شَرِّ الْأَشْرَارِ وَكَيْدِ الْفُجَّارِ، وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ هُوَ الْمُتَوَلِّي أَمْرَهُ وَنَصْرَهُ، وَأَنَّهُ لَا يَكِلُهُ إِلَىٰ أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ، بل هو وليه وحافظه وناصره، وَمُظْهِرُ دِينَهُ عَلَىٰ مَنْ عَادَاهُ وَخَالَفَهُ.

[٧٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ﴾ عَلَىٰ الْحَقِّ بِعِصْمَتِنَا، ﴿لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ﴾ أَيْ: تَمِيلُ، وقيل : لقاربت أن تميل إلىٰ مكرهم ﴿إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ أي قريبا من الفعل، وهذا تهييج من الله له وفضل تثبيت .

[٧٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ : ﴿إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ﴾ ذقناك عذاب الآخرة وعذاب القبر مضاعفين لعظيم ذنبك بشرف منزلتك ونبوتك، كما قال: ﴿يَانِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ﴾ [الأحزاب : ٣٠] ، وَأَصْلُ الْكَلَامِ: لَأَذَقْنَاكَ عَذَابَ الْحَيَاةِ وَعَذَابَ الْمَمَاتِ؛ لِأَنَّ الْعَذَابَ عَذَابَانِ: عَذَابٌ فِي الْمَمَاتِ وَهُوَ عَذَابُ الْقَبْرِ، وَعَذَابٌ فِي حَيَاةِ الْآخِرَةِ وَهُوَ عَذَابُ النَّارِ، ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ أَيْ: نَاصِرًا يَمْنَعُكَ مِنْ عَذَابِنَا.

[٧٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا﴾ الِاسْتِفْزَازُ: الْحَمْلُ عَلَىٰ التَّرَحُّلِ، وَهُوَ كِنَايَةٌ عَنِ الْإِبْعَادِ، أَيْ كَادُوا أَنْ يَسْعَوْا أَنْ تَكُونَ فَازًّا، أَيْ خَارِجًا مِنْ مَكَّةَ، قيل: نزلت في كفار مكة لما هموا بإخراج رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم من بَيْنِ أَظْهُرِهِمْ فَتَوَعَّدَهُمُ اللهُ بِهَذِهِ الْآيَةِ، وَأَنَّهُمْ لَوْ أَخْرَجُوهُ لَمَا لَبِثُوا بَعْدَهُ بِمَكَّةَ إِلَّا يَسِيرًا، وَكَذَلِكَ وَقَعَ، فَإِنَّهُ لَمْ يَكُنْ بَعْدَ هِجْرَتِهِ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِهِمْ بَعْدَ مَا اشْتَدَّ أَذَاهُمْ لَهُ إِلَّا سَنَةٌ وَنِصْفٌ، حَتَّىٰ جَمَعَهُمُ اللهُ وإياه ببدر علىٰ مِيعَادٍ، فَأَمْكَنَهُ مِنْهُمْ وَسَلَّطَهُ عَلَيْهِمْ وَأَظْفَرَهُ بِهِمْ، فقتل أشرافهم وسبىٰ ذراريهم، قَوْلُهُ: ﴿وَإِذًا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ﴾ أي: بعدك وَاللُّبْثُ: الِاسْتِقْرَارُ فِي الْمَكَانِ، أَيْ لَا يَسْتَقِرُّونَ فِي مَكَّةَ بَلْ يَخْرُجُونَ مِنْهَا فَلَا يَرْجِعُونَ، وَقَدْ خَرَجَ رَسُول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعْدَ ذَلِكَ مُهَاجِرًا وَكَانُوا السَّبَبَ فِي خُرُوجِهِ فَكَأَنَّهُمْ أَخْرَجُوهُ، ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ أَيْ: لَا يَلْبَثُونَ بِعَدَكَ إِلَّا قَلِيلًا حَتَّىٰ يَهْلَكُوا، قال القرطبي: فِيهِ وَجْهَانِ:

أَحَدُهُمَا- أَنَّ الْمُدَّةَ الَّتِي لَبِثُوهَا بَعْدَهُ مَا بَيْنَ إِخْرَاجِهِمْ لَهُ إِلَىٰ قَتْلِهِمْ يَوْمَ بَدْرٍ، وَهَذَا قَوْلُ مَنْ ذَكَرَ أَنَّهُمْ قُرَيْشٌ.

الثَّانِي- مَا بَيْنَ ذَلِكَ وَقَتْلِ بَنِي قُرَيْظَةَ وَجَلَاءِ بَنِي النَّضِيرِ، وَهَذَا قَوْلُ مَنْ ذكر أنهم اليهود.

[٧٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا﴾ أَيْ هَكَذَا عَادَتُنَا فِي الَّذِينَ كَفَرُوا بِرُسُلِنَا وآذوهم بخروج الرسول من بين أظهرهم يأتيهم العذاب، ولولا أنه

صلىٰ الله تعالىٰ عليه وسلم رَسُولُ الرَّحْمَةِ لَجَاءَهُمْ مِنَ النِّقَمِ فِي الدُّنْيَا ما لا قبل لأحد به، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال: ٣٣] ، ﴿وَلا تَجِدُ لِسُنَّتِنا تَحْوِيلاً ﴾ أَيْ: مَا أَجْرَىٰ اللهُ بِهِ الْعَادَةَ لَمْ يَتَمَكَّنْ أَحَدٌ مِنْ تَحْوِيلِهِ، وَلَا يَقْدِرُ عَلَىٰ تَغْيِيرِهِ.

[٧٨] قَوْلُهُ تعالىٰ: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ﴾ اخْتَلَفُوا فِي الدُّلُوكِ، رُوِيَ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ أَنَّهُ قال: الدلوك هو الغروب، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَابْنُ عُمَرَ وَجَابِرٌ: هُوَ زَوَالُ الشَّمْسِ ، وَمَعْنَىٰ اللَّفْظِ يَجْمَعُهُمَا ؛ لِأَنَّ أَصْلَ الدُّلُوكِ الْمَيْلُ وَالشَّمْسُ تَمِيلُ إِذَا زَالَتْ وَغَرَبَتْ، وَالْحَمْلُ عَلَىٰ الزَّوَالِ أَوْلَىٰ الْقَوْلَيْنِ لِكَثْرَةِ الْقَائِلِينَ بِهِ، وَلِأَنَّا إِذَا حَمَلْنَاهُ عَلَيْهِ كَانَتِ الْآيَةُ جَامِعَةً لِمَوَاقِيتِ الصَّلَاةِ كُلِّهَا، فَدُلُوكُ الشَّمْسِ يَتَنَاوَلُ صَلَاةَ الظُّهْرِ والعصر وإلىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ يَتَنَاوَلُ الْمَغْرِبَ وَالْعِشَاءَ، وقرآن الْفَجْرِ هُوَ صَلَاةُ الصُّبْحِ، قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ﴾ أَيْ: ظُهُورِ ظُلْمَتِهِ، وَهِيَ انْقِطَاعُ بَقَايَا شُعَاعِ الشَّمْسِ حِينَ يُمَاثِلُ سَوَادُ أُفُقِ الْغُرُوبِ سَوَادَ بَقِيَّةِ الْأُفُقِ وَهُوَ وَقْتُ غَيْبُوبَةِ الشَّفَقِ، وَذَلِكَ وَقْتَ الْعَشَاءِ، وَيُسَمَّىٰ الْعَتَمَةَ، أَيِ الظُّلْمَةَ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: بُدُوُّ اللَّيْلِ ، وَقَالَ قَتَادَةُ: وَقْتُ صَلَاةِ الْمَغْرِبِ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: غروب الشمس، ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ﴾ يَعْنِي صَلَاةَ الْفَجْرِ، سَمَّىٰ صَلَاةَ الْفَجْرِ قُرْآنًا لِأَنَّهَا لَا تَجُوزُ إِلَّا بِقُرْآنٍ، ﴿إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ أَيْ: يَشْهَدُهُ مَلَائِكَةُ اللَّيْلِ وَمَلَائِكَةُ النهار.

[٧٩] قَوْلُهُ تعالىٰ: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ﴾ أَيْ: قُمْ بَعْدَ نَوْمِكَ، وَالتَّهَجُّدُ لَا يَكُونُ إِلَّا بَعْدَ النَّوْمِ، يقال: تهجد إذا قام بعد ما نَامَ، وَهَجَدَ إِذَا نَامَ، وَالْمُرَادُ مِنَ الْآيَةِ: قِيَامُ اللَّيْلِ لِلصَّلَاةِ، وَكَانَتْ صَلَاةُ اللَّيْلِ فَرِيضَةً عَلَىٰ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الِابْتِدَاءِ، وَعَلَىٰ الْأُمَّةِ، لِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ز قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الْمُزَّمِّلِ: ١ - ٢] ثُمَّ نَزَلَ التَّخْفِيفُ فَصَارَ الْوُجُوبُ مَنْسُوخًا فِي حَقِّ الْأُمَّةِ بِالصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ، وَبَقِيَ الِاسْتِحْبَابُ: قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ [الْمُزَّمِّلِ: ٢٠] وَبَقِيَ الْوُجُوبُ فِي حَقِّ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَوْلُهُ عز وجل: ﴿نَافِلَةً لَكَ﴾ أَيْ: زِيَادَةً لَكَ، يُرِيدُ فَضِيلَةً زَائِدَةً، عَلَىٰ سَائِرِ الْفَرَائِضِ، فَرَضَهَا اللهُ عَلَيْكَ. قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾ عَسَىٰ مِنَ اللهِ تَعَالَىٰ وَاجِبٌ لِأَنَّهُ لَا يَدْعُ أَنْ يُعْطِيَ عِبَادَهُ أَوْ يَفْعَلَ بِهِمْ مَا أَطْمَعَهُمْ فِيهِ، وَالْمَقَامُ الْمَحْمُودُ هُوَ مَقَامُ الشَّفَاعَةِ لِأُمَّتِهِ لِأَنَّهُ يَحْمَدُهُ فيه الأولون والآخرون، والأخبار في الشفاعة متواترة كَثِيرَةٌ وَأَوَّلُ مَنْ أَنْكَرَهَا عَمْرُو بْنُ عُبَيْدٍ وَهُوَ مُبْتَدِعٌ بِاتِّفَاقِ أهل السنة.

[٨٠] قَوْلُهُ تعالىٰ: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ المراد مِنَ الْمُدْخَلِ وَالْمُخْرَجِ الْإِدْخَالُ وَالْإِخْرَاجُ، وَاخْتَلَفَ أَهْلُ التَّفْسِيرِ فِيهِ، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَالْحَسَنُ وَقَتَادَةُ: أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ الْمَدِينَةَ، وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صدق من مَكَّةَ، نَزَلَتْ حِينَ أُمِرَ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْهِجْرَةِ ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: أَدْخِلْنِي فِي أَمْرِكَ الَّذِي أَرْسَلْتَنِي بِهِ من النبوة مدخل

صدق، وَأَخْرِجْنِي مِنَ الدُّنْيَا وَقَدْ قُمْتُ بِمَا وَجَبَ عَلَيَّ مِنْ حَقِّهَا مُخْرَجَ صِدْقٍ. وَعَنِ الْحَسَنِ أَنَّهُ قَالَ: أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ الْجَنَّةَ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ مِنْ مَكَّةَ وَوَصَفَ الْإِدْخَالَ وَالْإِخْرَاجَ بِالصِّدْقِ لِمَا يَئُولُ إِلَيْهِ الْخُرُوجُ وَالدُّخُولُ مِنَ النَّصْرِ وَالْعِزِّ وَدَوْلَةِ الدِّينِ، ﴿وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ: حُجَّةٌ بَيِّنَةٌ، وَقَالَ الْحَسَنُ البصري: مُلْكًا قَوِيًّا تَنْصُرُنِي بِهِ عَلَىٰ مَنْ نَاوَأَنِي وَعِزًّا ظَاهِرًا أُقِيمُ بِهِ دِينَكَ، فَوَعَدَهُ اللهُ لَيَنْزِعَنَّ مُلْكَ فَارِسٍ وَالرُّومِ وَغَيْرِهِمَا فَيَجْعَلُهُ لَهُ.

[٨١] قَوْلُهُ تعالىٰ: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ﴾ يعني القرآن، ﴿وَزَهَقَ الْبَاطِلُ﴾ أَيِ الشَّيْطَانُ، قَالَ قَتَادَةُ، وَقَالَ السدي: الحق الإسلام، والباطل الشِّرْكُ ، وَقِيلَ: الْحَقُّ عِبَادَةُ اللهِ، والباطل عِبَادَةُ الْأَصْنَامِ ، ﴿إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ ذَاهِبًا، يُقَالُ: زَهَقَتْ نَفْسُهُ أَيْ خرجت، عَنْ أَبِي مَعْمَرٍ عَنْ عَبْدِ اللهِ، قَالَ: «دَخَلَ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَكَّةَ يَوْمَ الْفَتْحِ وَحَوْلَ الْبَيْتِ سِتُّونَ وَثَلَاثُمِائَةِ صنم، فَجَعَلَ يَطْعَنُهَا بِعُودٍ فِي يَدِهِ وَيَقُولُ: ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ﴾»(١).

[٨٢] قَوْلُهُ تعالىٰ: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ و(مِنَ) لِابْتِدَاءِ الْغَايَةِ، وَيَصِحُّ أَنْ تَكُونَ لِبَيَانِ الْجِنْسِ، وَمَعْنَاهُ: وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ كُلُّهُ شِفَاءٌ، أَيْ: بَيَانٌ مِنَ الضَّلَالَةِ وَالْجَهَالَةِ يُتَبَيَّنُ بِهِ الْمُخْتَلَفُ وَيَتَّضِحُ بِهِ

---

(١) البخاري (٤٢٨٧) ومسلم (٢٤٧٨) .

الْمُشْكِلُ وَيُسْتَشْفَىٰ بِهِ مِنَ الشُّبْهَةِ وَيُهْتَدَىٰ بِهِ مِنَ الحيرة، وهو شِفَاءُ الْقُلُوبِ بِزَوَالِ الْجَهْلِ عَنْهَا وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ، ﴿وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ لِأَنَّ الظَّالِمَ لَا يَنْتَفِعُ بِهِ وَالْمُؤْمِنَ مَنْ يَنْتَفِعُ بِهِ فَيَكُونُ رَحْمَةً لَهُ، وَقِيلَ: زِيَادَةُ الْخَسَارَةِ لِلظَّالِمِ مِنْ حَيْثُ أَنَّ كُلَّ آيَةٍ تَنْزِلُ يَتَجَدَّدُ مِنْهُمْ تَكْذِيبٌ وَيَزْدَادُ لَهُمْ خَسَارَةٌ، قَالَ قَتَادَةُ: لَمْ يُجَالِسْ هَذَا الْقُرْآنَ أَحَدٌ إِلَّا قَامَ عَنْهُ بِزِيَادَةٍ أَوْ نُقْصَانٍ، قَضَىٰ اللهُ الَّذِي قَضَىٰ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا.

[٨٣] قَوْلُهُ تعالىٰ: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَىٰ الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ﴾ عَنْ ذِكْرِنَا وَدُعَائِنَا، ﴿وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ﴾ أي تباعد منا بِنَفْسِهِ، أَيْ تَرَكَ التَّقَرُّبَ إِلَىٰ اللهِ بِالدُّعَاءِ ، ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ﴾ الشدة والضر، ﴿كَانَ يَئُوسًا﴾ أَيْ آيِسًا قَنُوطًا ، وَقِيلَ مَعْنَاهُ أَنَّهُ يَتَضَرَّعُ وَيَدْعُو عِنْدَ الضُّرِّ وَالشِّدَّةِ، فَإِذَا تَأَخَّرَتِ الْإِجَابَةُ يَئِسَ وَلَا يَنْبَغِي لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يَيْأَسَ مِنَ الْإِجَابَةِ وَإِنْ تَأَخَّرَتْ فَيَدَعُ الدعاء.

[٨٤] قَوْلُهُ تعالىٰ: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: عَلَىٰ نَاحِيَتِهِ، قَالَ الْفَرَّاءُ: عَلَىٰ طَرِيقَتِهِ الَّتِي جُبِلَ عَلَيْهَا. وَقِيلَ: عَلَىٰ السَّبِيلِ الَّذِي اخْتَارَهُ لِنَفْسِهِ، وَهُوَ مِنَ الشَّكْلِ، يُقَالُ: لَسْتَ عَلَىٰ شَكْلِي وَلَا شاكلتي، وكلها لغات مُتَقَارِبَةٌ، تَقُولُ الْعَرَبُ: طَرِيقٌ ذُو شَوَاكِلَ إِذَا تَشَعَّبَتْ مِنْهُ الطُّرُقُ وَمَجَازُ الْآيَةِ: كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ ما يشبهه كَمَا يُقَالُ فِي الْمَثَلِ: كُلُّ امْرِئٍ يُشْبِهُهُ فِعْلُهُ. ﴿فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا﴾ أَوْضَحُ طَرِيقًا.

[٨٥] قَوْلُهُ تعالىٰ: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ جاء في البخاري عَنْ ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ الله عنه، قَالَ: كُنْتُ أَمْشِي مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي حَرْثٍ فِي الْمَدِينَةِ وَهُوَ مُتَوَكِّئٌ عَلَىٰ عسيب، فمر يقوم مِنَ الْيَهُودِ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: سَلُوهُ عَنِ الروح، وقال بَعْضُهُمْ: لَا تَسْأَلُوهُ، قَالَ: فَسَأَلُوهُ عَنِ الرُّوحِ، فَقَالُوا: يَا مُحَمَّدُ مَا الرُّوحُ؟ فَمَا زَالَ مُتَوَكِّئًا عَلَىٰ الْعَسِيبِ، قَالَ: فَظَنَنْتُ أَنَّهُ يُوحَىٰ إِلَيْهِ، فَقَالَ: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ قال، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: قَدْ قُلْنَا لَكُمْ لَا تسألوه وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ قِيلَ: مِنْ عِلْمِ رَبِّي، ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أَيْ: فِي جَنْبِ عِلْمِ اللهِ ، قِيلَ: هَذَا خِطَابٌ لِلرَّسُولِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَقِيلَ: خِطَابٌ لِلْيَهُودِ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَقُولُونَ: أُوتِينَا التَّوْرَاةَ وَفِيهَا الْعِلْمُ الْكَثِيرُ. وَقِيلَ: كَانَ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَعْلَمُ مَعْنَىٰ الرُّوحِ وَلَكِنْ لَمْ يُخْبِرْ بِهِ أَحَدًا لِأَنَّ تَرْكَ إِخْبَارِهِ بِهِ كَانَ عَلَمًا لِنُبُوَّتِهِ، وَالْأَوَّلُ أَصَحُّ لِأَنَّ اللهَ عز وجل استأثر بعلمه.

[٨٦] قَوْلُهُ تعالىٰ: ﴿وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ يَعْنِي الْقُرْآنَ، مَعْنَاهُ: إِنَّا كَمَا مَنَعْنَا عِلْمَ الرُّوحِ عَنْكَ وَعَنْ غَيْرِكَ، لَوْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ يَعْنِي الْقُرْآنَ، ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا﴾ أَيْ: مَنْ يَتَوَكَّلُ بِرَدِّ الْقُرْآنِ إِلَيْكَ.

[٨٧] قَوْلُهُ تعالىٰ: ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ هَذَا اسْتِثْنَاءٌ مُنْقَطِعٌ مَعْنَاهُ: وَلَكِنْ لَا نَشَاءُ ذَلِكَ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ، وَقِيلَ: إِلَّا أَنْ يَرْحَمَكَ رَبُّكَ فَلَا يَذْهَبَ بِهِ، ﴿إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا﴾ إِذْ جَعَلَكَ سَيِّدَ وَلَدِ آدَمَ، وَأَعْطَاكَ الْمَقَامَ الْمَحْمُودَ، وَهَذَا الْكِتَابَ الْعَزِيزَ، فَإِنْ قِيلَ كَيْفَ يَذْهَبُ الْقُرْآنُ وَهُوَ كَلَامُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ؟ قِيلَ: الْمُرَادُ مِنْهُ مَحْوُهُ مِنَ الْمَصَاحِفِ وَإِذْهَابُ مَا فِي الصُّدُورِ، وَقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ: اقْرَءُوا الْقُرْآنَ قَبْلَ أَنْ يُرْفَعَ فَإِنَّهُ لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّىٰ يُرْفَعَ، قِيلَ: هَذِهِ الْمَصَاحِفُ تُرْفَعُ فَكَيْفَ بِمَا فِي صُدُورِ النَّاسِ؟ قَالَ: يَسْرِي عَلَيْهِ لَيْلًا فَيُرْفَعُ مَا فِي صُدُورِهِمْ فَيُصْبِحُونَ لَا يَحْفَظُونَ شَيْئًا وَلَا يَجِدُونَ فِي المصاحف شيئًا.

[٨٨] قَوْلُهُ تعالىٰ: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ﴾ مَعْنَىٰ الِاجْتِمَاعِ: الِاتِّفَاقُ وَاتِّحَادُ الرَّأْيِ، أَيْ لَوْ تَوَارَدَتْ عُقُولُ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتِيَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَمَا أَتَوْا بِمِثْلِهِ وَالْمُرَادُ بِالْمُمَاثَلَةِ لِلْقُرْآنِ: الْمُمَاثَلَةُ فِي مَجْمُوعِ الْفَصَاحَةِ وَالْبَلَاغَةِ وَالْمَعَانِي وَالْآدَابِ وَالشَّرَائِعِ، وَهِيَ نَوَاحِي إِعْجَازِ الْقُرْآنِ اللَّفْظِيِّ وَالعِلْمِيِّ، ﴿عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ﴾ لَا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ ذَلِكَ، ﴿وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ عَوْنًا وَمُظَاهِرًا، وَالظَّهِيرُ: الْمُعِينُ. وَالْمَعْنَىٰ: وَلَوْ تَعَاوَنَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِهِ لَمَا أَتَوْا بِمِثْلِهِ فَكَيْفَ بِهِمْ إِذَا حَاوَلُوا ذَلِكَ مُتَفَرِّقِينَ. نَزَلَتْ حِينَ قَالَ الْكُفَّارُ: لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا فَكَذَّبَهُمُ اللهُ تَعَالَىٰ، فَالْقُرْآنُ مُعْجِزٌ فِي النَّظْمِ وَالتَّأْلِيفِ وَالْإِخْبَارِ

عَنِ الْغُيُوبِ، وَهُوَ كَلَامٌ فِي أعلىٰ طبقات المبالغة لَا يُشْبِهُ كَلَامَ الْخَلْقِ، لِأَنَّهُ غَيْرُ مَخْلُوقٍ وَلَوْ كَانَ مَخْلُوقًا لأتوا بمثله.

[٨٩] قَوْلُهُ تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ مِنَ الْعِبَرِ وَالْأَحْكَامِ وَالْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ وَغَيْرِهَا، مِنَ الْآيَاتِ وَالْعِبَرِ وَالتَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيبِ، وَالْأَوَامِرِ وَالنَّوَاهِي وَأَقَاصِيصِ الْأَوَّلِينَ، وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ وَالْقِيَامَةِ، ﴿فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ جحودا، ورداً للصواب، وَالْكُفُورُ- بِضَم الْكَاف- المجحود، أَيْ جَحَدُوا بِمَا فِي الْقُرْآنِ مِنْ هدىٰ وعاندوا ، يُرِيدُ أَهْلَ مَكَّةَ، بَيَّنَ لَهُمُ الْحَقَّ وَفتَحَ لَهُمْ وَأَمْهَلَهُمْ حَتَّىٰ تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ، فَأَبَوْا إِلَّا الْكُفْرَ وَقْتَ تَبَيُّنِ الْحَقِّ.

[٩٠] قَوْلُهُ تعالىٰ: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ﴾ لَنْ نُصَدِّقَكَ، وَالْإِيمَانُ: التَّصْدِيقُ. يُقَالُ: آمَنَهُ، أَيْ صَدَّقَهُ. ﴿حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ﴾ الْمُرَادُ بِالْأَرْضِ: أَرْضُ مَكَّةَ، فَالتَّعْرِيفُ لِلْعَهْدِ ، وَوَجْهُ تَخْصِيصِهَا أَنَّ أَرْضَهَا قَلِيلَةُ الْمِيَاهِ بَعِيدَةٌ عَنِ الْجَنَّاتِ، وَالتَّفْجِيرُ: مَصْدَرُ فَجَّرَ بِالتَّشْدِيدِ مُبَالَغَةً فِي الْفَجْرِ، وَهُوَ الشَّقُّ بِاتِّسَاعٍ، وَمِنْهُ سُمِّيَ فَجْرُ الصَّبَاحِ فَجْرًا ؛ لِأَنَّ الضَّوْءَ يَشُقُّ الظُّلْمَةَ شَقًّا طَوِيلًا عَرِيضًا، فَالتَّفْجِيرُ أَشَدُّ مِنْ مُطْلَقِ الْفَجْرِ وَهُوَ تَشْقِيقٌ شَدِيدٌ بِاعْتِبَارِ اتِّسَاعِهِ، ﴿يَنْبُوعًا﴾ أَيْ: عُيُونًا ، وَالْيَنْبُوعُ: اسْمٌ لِلْعَيْنِ الْكَثِيرَةِ النَّبْعِ الَّتِي لَا يَنْضُبُ مَاؤُهَا ، وَقَدْ ذَكَرَ ابْنُ إِسْحَاقَ: أَنَّ عُتْبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ، وَشَيْبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ، وَأَبَا سُفْيَانَ بْنَ حَرْبٍ، وَالْوَلِيدَ بْنَ الْمُغِيرَةِ، وَأَبَا جَهْلِ بْنَ هِشَامٍ، وَعَبْدَ اللهِ بْنَ أَبِي أُمَيَّةَ، وَأُمَيَّةَ

ابنَ خلَفٍ، وَنَاسًا مَعَهُمُ اجْتَمَعُوا بَعْدَ غُرُوبِ الشَّمْسِ عِنْدَ الْكَعْبَةِ وَبَعَثُوا إِلَىٰ النَّبِيءِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَأْتِيَهُمْ ، فَأَسْرَعَ إِلَيْهِمْ حِرْصًا عَلَىٰ هُدَاهُمْ، فَعَاتَبُوهُ عَلَىٰ تَسْفِيهِ أَحْلَامِهِمْ وَالطَّعْنِ فِي دِينِهِمْ، وَعَرَضُوا عَلَيْهِ مَا يَشَاءُ مِنْ مَالٍ أَوْ تَسْوِيدٍ. وَأَجَابَهُمْ بِأَنَّهُ رَسُولٌ مِنَ اللهِ إِلَيْهِم لَا يَبْتَغِي غَيْرُ نُصْحِهِمْ، فَلَمَّا رَأَوْا مِنْهُ الثَّبَاتَ انْتَقَلُوا إِلَىٰ طَلَبِ بَعْضِ مَا حَكَاهُ اللهُ عَنْهُمْ فِي هَذِهِ الْآيَةِ.

[٩١] قَوْلُهُ تعالىٰ: ﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ﴾ بُسْتَانٌ، والجنَّة : الحديقة ذات الشجر والنخل، وجمعها: جنان ، والجنة كل بستان يستر بأشجاره الأرض ﴿مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا﴾ تَشْقِيقًا، وَالتَّفْجِيرُ: مَصْدَرُ فَجَّرَ بِالتَّشْدِيدِ مُبَالَغَةً فِي الْفَجْرِ، وَهُوَ الشَّقُّ بِاتِّسَاعٍ ، وَمِنْهُ سُمِّيَ فَجْرُ الصَّبَاحِ فَجْرًا لِأَنَّ الضَّوْءَ يَشُقُّ الظُّلْمَةَ شَقًّا طَوِيلًا عَرِيضًا، فَالتَّفْجِيرُ أَشَدُّ مِنْ مُطْلَقِ الْفَجْرِ وَهُوَ تَشْقِيقٌ شَدِيدٌ بِاعْتِبَارِ اتِّسَاعِهِ. وَلِذَلِكَ نَاسَبَ الْيَنْبُوعَ هُنَا وَالنَّهَرُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: وَفَجَّرْنا خِلالَهُما نَهَراً [الْكَهْف: ٣٣] ، وقوله: ﴿فَتُفَجِّرَ الْأَنْهارَ﴾. وَالْمُقْتَرَحُ هُوَ تَفْجِيرُ الْمَاءِ فِي الْأَرْضِ الْقَاحِلَةِ، وَإِنَّمَا ذَكَرُوا وُجُودَ الْجَنَّةِ تَمْهِيدًا لِتَفْجِيرِ أَنْهَارٍ خِلَالَهَا فَكَأَنَّهُمْ قَالُوا: حَتَّىٰ تُفَجِّرَ لَنَا يَنْبُوعًا يَسْقِي النَّاسَ كُلَّهُمْ، أَوْ تُفَجِّرَ أَنْهَارًا تَسْقِي جَنَّةً وَاحِدَةً تَكُونُ تِلْكَ الْجَنَّةُ وَأَنْهَارُهَا لَكَ.

[٩٢] قَوْلُهُ تعالىٰ: ﴿أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا﴾ أَيْ: تُسْقِطُهَا طَبَقًا وَاحِدًا. وَقِيلَ: أَرَادَ جَانِبَهَا عَلَيْنَا، و (الكسف): جَمْعُ كِسْفَةٍ، وَهِيَ الْقِطْعَةُ مِنَ الشَّيْءِ مِثْلُ سِدْرَةٍ وَسِدَرٍ، ﴿أَوْ تَأْتِيَ بِاللهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا﴾ قَالَ ابْنُ

عَبَّاسٍ: كَفِيلًا أَيْ يَكْفُلُونَ بِمَا تَقُولُ، وَقَالَ الضَّحَاكُ: ضَامِنًا. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: هُوَ جَمْعُ الْقَبِيلَةِ أَيْ: بِأَصْنَافِ الْمَلَائِكَةِ قَبِيلَةً قَبِيلَةً، وَقَالَ قَتَادَةُ: عِيَانًا أَيْ نراهم مقابلة أَيْ مُعَايَنَةً. وَقَالَ الْفَرَّاءُ: هُوَ مِنْ قَوْلِ الْعَرَبِ لَقِيتُ فُلَانًا قَبِيلًا، وَقَبِيلًا أَيْ: مُعَايَنَةً، وَالْقَبِيلُ فِي اللغة: الْجَمَاعَةُ مِنْ جِنْسٍ وَاحِدٍ.

[٩٣] قَوْلُهُ تعالىٰ: ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ﴾ أَيْ: مِنْ ذَهَبٍ، وَأَصْلُهُ الزِّينَةُ، وَالْمُزَخْرَفُ الْمُزَيَّنُ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: كُنْتُ لَا أَدْرِي مَا الزُّخْرُفُ حَتَّىٰ رَأَيْتُهُ فِي قِرَاءَةِ ابْنِ مَسْعُودٍ ﴿بَيْتٌ مِنْ ذَهَبٍ﴾ أَيْ نَحْنُ لَا نَنْقَادُ لَكَ مَعَ هَذَا الْفَقْرِ الَّذِي نَرَىٰ، ﴿أَوْ تَرْقَىٰ﴾ تصعد، يُقَالُ: رَقِيتُ فِي السُّلَّمِ إِذَا صَعِدْتُ. ﴿فِي السَّمَاءِ﴾ هَذَا قَوْلُ عَبْدِ اللهِ بْنِ أَبِي أُمَيَّةَ، ﴿وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ﴾ لِصُعُودِكَ، ﴿حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ﴾ أُمِرْنَا فِيهِ بِاتِّبَاعِكَ، ﴿قُلْ﴾ أَيْ: قُلْ يَا مُحَمَّدُ، ﴿سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ أَمَرَهُ بِتَنْزِيهِهِ وَتَمْجِيدِهِ، عَلَىٰ مَعْنَىٰ أَنَّهُ لَوْ أَرَادَ أَنْ يُنَزِّلَ مَا طَلَبُوا لَفَعَلَ، وَلَكِنَّ اللهَ لَا يُنَزِّلُ الْآيَاتِ عَلَىٰ مَا يَقْتَرِحُهُ الْبَشَرُ، وَمَا أَنَا إِلَّا بَشَرٌ وَلَيْسَ مَا سَأَلْتُمْ فِي طَوْقِ الْبَشَرِ، وَاعْلَمْ أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ قَدْ أَعْطَى النَّبِيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْآيَاتِ وَالْمُعْجِزَاتِ مَا يُغْنِي عَنْ هَذَا كُلِّهِ، مِثْلَ الْقُرْآنِ وَانْشِقَاقِ الْقَمَرِ وَتَفْجِيرِ الْعُيُونِ مِنْ بَيْنِ الْأَصَابِعِ وَمَا أَشْبَهَهَا، وَالْقَوْمُ عَامَّتُهُمْ كَانُوا مُتَعَنِّتِينَ لَمْ يَكُنْ قَصْدُهُمْ طَلَبَ الدَّلِيلِ لِيُؤْمِنُوا، فَرَدَّ اللهُ عَلَيْهِمْ سؤالهم.

[٩٤] قَوْلُهُ تعالىٰ: ﴿وَما مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جاءَهُمُ الْهُدىٰ﴾ يَعْنِي الرُّسُلَ وَالْكُتُبَ من عند الله بالدعاء إليه، ﴿إِلَّا أَنْ قالُوا﴾ جهلا منهم، ﴿أَبَعَثَ

اللهُ بَشَراً رَسُولًا﴾ أي الله أجل من أن يكون رسوله من البشر، فبين الله تعالىٰ فرط عنادهم لأنهم قالوا: أنت مثلنا فلا يلزمنا الانقياد، ذلك أَنَّ الْكُفَّارَ كَانُوا يَقُولُونَ: لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ لِأَنَّكَ بَشَرٌ، وَهَلَّا بَعَثَ اللهُ إِلَيْنَا مَلَكًا فَأَجَابَهُمُ اللهُ تَعَالَىٰ:

[٩٥] : ﴿قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ﴾ مُسْتَوْطِنِينَ مُقِيمِينَ، كَمَا أَنْتُمْ فِيهَا ﴿لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا﴾ مِنْ جِنْسِهِمْ لِأَنَّ الْقَلْبَ إِلَىٰ الْجِنْسِ أَمْيَلُ مِنْهُ إِلَىٰ غَيْرِ الْجِنْسِ، قال ابن عاشور : وَالْمُطْمَئِنُّ: السَّاكِنُ، وَأُرِيدَ بِهِ هُنَا الْمُتَمَكِّنُ غَيْرُ الْمُضْطَرِبِ، أَيْ مَشْيُ قَرَارٍ فِي الْأَرْضِ، أَيْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ قَاطِنُونَ عَلَىٰ الْأَرْضِ غَيْرُ نَازِلِينَ برسالة للرسل لنزلنا عَلَيْهِمْ مَلَكًا، وَلَمَّا كَانَ الْمَشْيُ وَالِاطْمِئْنَانُ فِي الْأَرْضِ مِنْ صِفَةِ الْإِنْسَانِ آلَ الْمَعْنَىٰ إِلَىٰ: لَوْ كُنْتُمْ مَلَائِكَةً لَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا فَلَمَّا كُنْتُمْ بَشَرًا أَرْسَلَنَا إِلَيْكُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ.

[٩٦] قَوْلُهُ تعالىٰ: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ أني رسوله إِلَيْكُمْ، فَأَمَرَهُ عزوجل بِ قُلْ كَفىٰ بِاللهِ تَسْلِيَةً لَهُ وَتَثْبِيتًا لِنَفْسِهِ وَتَعَهُّدًا لَهُ بِالْفَصْلِ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ كَمَا قَالَ نُوحٌ وَهُودٌ : ﴿رَبِّ انْصُرْنِي بِما كَذَّبُونِ﴾ [الْمُؤْمِنُونَ: ٢٦] ، وَغَيْرُهُمَا مِنَ الرُّسُلِ قَالَ قَرِيبًا مِنْ ذَلِكَ. ، فَلَوْ كُنْتُ كَاذِبًا عَلَيْهِ لانتقم مِنِّي أَشَدَّ الِانْتِقَامِ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ . لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ. ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الوتين﴾ [الحاقة : ٤٣-٤٥] ، قوله :﴿إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ أَيْ: عَلِيمًا بِهِمْ، بِمَنْ يَسْتَحِقُّ الْإِنْعَامَ وَالْإِحْسَانَ وَالْهُدَايَةَ، وَمَنْ يَسْتَحِقُّ

الشَّقَاءَ وَالْإِضْلَالَ وَالْإِزَاغَةَ. أَيْ: قُلْ - يَا مُحَمَّدُ - لِهَؤُلَاءِ الْمُتَنَطِّعِينَ فِي اقْتِرَاحَاتِهِمْ: اللهُ تَعَالَىٰ نِعْمَ الْكَافِي وَالْحَاكِمُ، وَهُوَ ذُو خِبْرَةٍ وَعِلْمٍ بِمَا يَصْلُحُ لِعِبَادِهِ مِنَ التَّدْبِيرِ وَالتَّصْرِيفِ، وَمَنْ يَسْتَحِقُّ مِنْهُمُ الْهُدَايَةَ أَوِ الضَّلَالَ.

[٩٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ﴾ أَيْ لَوْ هَدَاهُمُ اللهُ لَاهْتَدَوْا. وَالْمُرَادُ بِالْهُدَى الْهُدَىٰ إِلَىٰ الْإِيمَانِ بِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُول صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. ﴿وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ﴾ أَيْ لَا يَهْدِيهِمْ أَحَدٌ، وَالْأَوْلِيَاءُ: الْأَنْصَارُ، أَيْ لَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَنْصَارًا يُخَلِّصُونَهُمْ مِنْ جَزَاءِ الضَّلَالِ وَهُوَ الْعَذَابُ، ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ قال القرطبي : يُسْحَبُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ كَمَا يُفْعَلُ فِي الدُّنْيَا بِمَنْ يُبَالَغُ فِي هَوَانِهِ وَتَعْذِيبِهِ. ويشهد لهذا ما جاء في صحيح البخاري عَنْ أُنْسٍ أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ كَيْفَ يُحْشَرُ الْكَافِرُ عَلَىٰ وَجْهِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ الَّذِي أَمْشَاهُ عَلَىٰ رِجْلَيْهِ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يمشيه علىٰ وجهه**»[1] ، قوله : ﴿عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ فَإِنْ قِيلَ كَيْفَ وَصَفَهُمْ بِأَنَّهُمْ عُمْيٌ وَبُكْمٌ وَصُمٌّ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: عُمْيًا لَا يَرَوْنَ مَا يَسُرُّهُمْ بُكْمًا لَا يَنْطِقُونَ بِحُجَّةٍ صُمًّا لَا يَسْمَعُونَ شَيْئًا يَسُرُّهُمْ. وَقَالَ الْحَسَنُ البصري: هَذَا حِينَ يُسَاقُونَ إِلَىٰ الْمَوْقِفِ إِلَىٰ أَنْ يَدْخُلُوا النَّارَ. قوله تعالىٰ ﴿مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ﴾ أَيْ مُسْتَقَرُّهُمْ وَمُقَامُهُمْ ، قَالَ ابْنُ

---

(١) البخاري (٤٧٦٠) ومسلم (٢٨٠٦) .

عَبَّاسٍ: كلما خبت كُلَّمَا سَكَنَتْ، أَيْ: سَكَنَ لَهِيبُهَا، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: طُفِئَتْ، وَقَالَ قَتَادَةُ: ضَعُفَتْ وَقِيلَ: كُلَّمَا خَبَتْ أَيْ أَرَادَتْ أَنْ تَخْبُوَ، ﴿زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ أي نار تَتَلَهَّبُ.،وَسُكُونُ الْتِهَابِهَا مِنْ غَيْرِ نُقْصَانٍ فِي آلَامِهِمْ وَلَا تَخْفِيفٍ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهِمْ، وَقِيلَ: الْمُرَادُ مِنْ قوله: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ﴾ أَيْ: نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ وَاحْتَرَقَتْ أُعِيدُوا فِيهَا إِلَىٰ مَا كَانُوا عَلَيْهِ وَزَيْدَ فِي تَسْعِيرِ النَّارِ لِتَحْرِقَهُمْ، وَخَبَتِ النَّارُ خُبُوًا وَخَبْوًا: نَقَصَ لَهِيبُهَا.

[٩٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ذلِكَ جَزاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآياتِنا﴾ أي ذلك العذاب جزاء كفرهم، ﴿وَقالُوا أَإِذا كُنَّا عِظاماً وَرُفاتاً﴾ أي تراب، وَالرُّفَاتُ مَا تَكَسَّرَ وَبَلِيَ من كل شيء، كَالْفُتَاتِ وَالْحُطَامِ وَالرُّضَاضِ، ﴿أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً﴾ فَأَنْكَرُوا الْبَعْثَ أيْ بَعْدَ مَا صِرْنَا إِلَىٰ مَا صِرْنَا إِلَيْهِ، مِنَ الْبِلَىٰ وَالْهَلَاكِ، وَالتَّفَرُّقِ وَالذَّهَابِ فِي الْأَرْضِ، نُعَادُ مَرَّةً ثَانِيَةً؟ فَاحْتَجَّ تَعَالَىٰ عَلَيْهِمْ وَنَبَّهَهُمْ عَلَىٰ قُدْرَتِهِ عَلَىٰ ذَلِكَ بِأَنَّهُ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، فَقُدْرَتُهُ عَلَىٰ إِعَادَتِهِمْ أَسْهَلُ مِنْ ذَلِكَ، فَقَالَ تعالىٰ.

[٩٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ فِي عَظَمَتِهَا وَشِدَّتِهَا، ﴿قادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ فِي صِغَرِهِمْ وَضَعْفِهِمْ، ﴿وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا﴾ أَيْ: وَقْتًا لِعَذَابِهِمْ، الْأَجَلُ: مُدَّةُ قِيَامِهِمْ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ مَوْتُهُمْ، وَذَلِكَ مَا لَا شَكَّ فِيهِ إِذْ هُوَ مُشَاهَدٌ، أَيْ جَعَلَ لِإِعَادَتِهِمْ وَإِقَامَتِهِمْ مِنْ قُبُورِهِمْ أَجَلًا مَضْرُوبًا وَمُدَّةً مُقَدَّرَةً لَا بُدَّ مِنَ انْقِضَائِهَا، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا

نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ﴾ ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أَنَّهُ يَأْتِيهِمْ لا شك في ذلك، قِيلَ: هُوَ الْمَوْتُ، وَقِيلَ: هُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، ﴿فَأَبَىٰ الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا﴾ أَيِ الْمُشْرِكُونَ إِلَّا جُحُودًا بِذَلِكَ الْأَجَلِ وَبِآيَاتِ اللهِ.

[١٠٠] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُل لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي﴾) أَيْ خَزَائِنَ الْأَرْزَاقِ. وَقِيلَ: خَزَائِنَ النِّعَمِ، وَهَذَا أَعَمُّ ، ﴿إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ﴾ لبخلتم وحبستم، وَقِيلَ: الْمَعْنَىٰ لَوْ مَلَكَ أَحَدُ الْمَخْلُوقِينَ خَزَائِنَ اللهِ لَمَا جَادَ بِهَا كَجُودِ اللهِ تَعَالَىٰ، ﴿خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ﴾ أَيْ: خَشْيَةَ الْفَاقَةِ، قَالَهُ قَتَادَةُ، وَقِيلَ: خَشْيَةَ النَّفَادِ، يُقَالُ: أَنْفَقَ الرَّجُلُ أَيْ أَمْلَقَ وَذَهَبَ مَالُهُ وَنَفَقَ الشَّيْءُ، أَيْ: ذَهَبَ، وَقِيلَ: لَأَمْسَكْتُمْ عَنِ الْإِنْفَاقِ خَشْيَةَ الْفَقْرِ، قال ابن كثير : يَقُولُ تَعَالَىٰ لِرَسُولِهِ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ، قُلْ لَهُمْ يَا مُحَمَّدُ: لَوْ أَنَّكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ تَمْلِكُونَ التَّصَرُّفَ فِي خَزَائِنِ اللهِ، لأمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإنفاق، قال ابن عباس: أَيِ الْفَقْرِ، أَيْ خَشْيَةَ أَنْ تُذْهبوها، مَعَ أَنَّهَا لَا تَفْرَغُ وَلَا تَنْفَدُ أَبَدًا؛لِأَنَّ هَذَا مِنْ طِبَاعِكُمْ وَسَجَايَاكُمْ، وَلِهَذَا ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا﴾ أَيْ: بَخِيلًا مُمسِكًا عَنِ الْإِنْفَاقِ، مُشْتَقٌّ مِنَ الْقَتْرِ وَهُوَ التَّضْيِيقُ فِي الْإِنْفَاقِ، يُقَالُ: قَتَرَ عَلَىٰ عِيَالِهِ إِذَا ضَيَّقَ عَلَيْهِمْ فِي النَّفَقَةِ.

[١٠١] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ أَيْ: دَلَالَاتٍ وَاضِحَاتٍ، فَهِيَ الْآيَاتُ التِّسْعُ، وَالْآيَاتُ التِّسْعُ هِيَ: بَيَاضُ يَدِهِ كُلَّمَا أَدْخَلَهَا فِي جَيْبِهِ وَأَخْرَجَهَا، وَانْقِلَابُ الْعَصَا حَيَّةً، وَالطُّوفَانُ، وَالْجَرَادُ، وَالْقَمْلُ، وَالضَّفَادِعُ، وَالدَّمُ، وَالرِّجْزُ وَهُوَ الدُّمَّلُ، وَالْقَحْطُ وَهُوَ السُّنُونَ وَنَقَصُ الثَّمَرَاتِ،

وَهِيَ مَذْكُورَةٌ فِي سُورَةِ الْأَعْرَاف. وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ: هِيَ الْخَمْسُ الَّتِي فِي الْأَعْرَافِ وَالْبَحْرُ وَالْعَصَا وَالْحَجَرُ وَالطَّمْسُ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ، ﴿فَاسْأَلْ﴾ يَا مُحَمَّدُ، ﴿بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ﴾ مُوسَىٰ، يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْخِطَابُ مَعَهُ وَالْمُرَادُ غَيْرُهُ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ خَاطَبَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَأَمَرَهُ بِالسُّؤَالِ لِيَتَبَيَّنَ كَذِبَهُمْ مَعَ قَوْمِهِمْ. ﴿فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ قال الكلبي: مريضاً بالسحر، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: مَخْدُوعًا، وَقِيلَ: مَصْرُوفًا عَنِ الْحَقِّ. وَقَالَ الْفَرَّاءُ وَأَبُو عُبَيْدَةَ: سَاحِرًا فَوَضَعَ الْمَفْعُولَ مَوْضِعَ الْفَاعِلِ، وَقَالَ الطبري: مُعْطًىٰ عِلْمُ السِّحْرِ، فَهَذِهِ الْعَجَائِبُ الَّتِي تَفْعَلُهَا مِنْ سِحْرِكَ، وقال ابن عاشور: وَقَوْلُهُ: ﴿مَسْحُوراً﴾ ظَاهِرُهُ أَنَّ مَعْنَاهُ مُتَأَثِّرًا بِالسِّحْرِ، أَيْ سَحَرَكَ السَّحَرَةُ وَأَفْسَدُوا عَقْلَكَ فَصِرْتَ تَهْرِفُ بِالْكَلَامِ الْبَاطِلِ الدَّالِّ عَلَىٰ خَلَلِ الْعَقْلِ.

[١٠٢] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ﴾ موسىٰ لفرعون ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ﴾ هَذِهِ الْآيَاتَ التِّسْعَ، أَيْ: قَالَ مُوسَىٰ لِفِرْعَوْنَ: لَقَدْ عَلِمْتَ يَا فِرْعَوْنُ مَا أَنْزَلَ اللهُ هَٰذِهِ الْآيَاتِ التِّسْعَ الَّتِي أَرَيْتُكَهَا إِلَّا حُجَّةً لِي عَلَىٰ حَقِيقَةِ مَا أَدْعُوكَ إِلَيْهِ، وَشَاهِدَةً لِي عَلَىٰ صِدْقِي وَصِحَّةِ قَوْلِي إِنِّي رَسُولُ اللهِ، بَعَثَنِي بِهَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ؛ لِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي يَقْدِرُ عَلَيْهَا وَعَلَىٰ أَمْثَالِهَا، وَلِذَلِكَ قَالَ: ﴿إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ﴾ جَمْعُ بَصِيرَةٍ أَيْ يُبْصَرُ بِهَا، وَالْبَصَائِرُ: الْحُجَجُ الْمُفِيدَةُ لِلْبَصِيرَةِ، أَيِ الْعِلْمِ، فَكَأَنَّهَا نَفْسُ الْبَصِيرَةِ. ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: مَلْعُونًا. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: هَالِكًا. وَقَالَ قَتَادَةُ: مُهْلَكًا، وَقَالَ

الْفَرَّاءُ: أَيْ مَصْرُوفًا مَمْنُوعًا عَنِ الْخَيْرِ يُقَالُ: مَا ثَبَرَكَ عَنْ هَذَا الْأَمْرِ أَيْ مَا مَنَعَكَ وَصَرَفَكَ عَنْهُ، وَالْمَثْبُورُ: الَّذِي أَصَابَهُ الثُّبُورُ وَهُوَ الْهَلَاكُ، وَهَذَا نِذَارَةٌ وَتَهْدِيدٌ لِفِرْعَوْنَ بِقُرْبِ هَلَاكِهِ.

[١٠٣] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ﴾ أي: أراد فرعون أن يستفزهم مُوسَىٰ وَبَنِي إِسْرَائِيلَ أَيْ يُخْرِجَهُمْ،الْقَتْلِ أَوِ الْإِبْعَادِ، فَأَهْلَكَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَالِاسْتِفْزَازُ: الِاسْتِخْفَافُ، وَهُوَ كِنَايَةٌ عَنِ الْإِبْعَادِ، ﴿مِنَ الْأَرْضِ﴾ يَعْنِي أَرْضَ مِصْرَ، ﴿فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا﴾ وَنَجَّيْنَا مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ.

[١٠٤] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ﴾ أَيْ مِنْ بَعْدِ هَلَاكِ فِرْعَوْنَ، ﴿لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ﴾ يَعْنِي أَرْضَ مِصْرَ وَالشَّامِ، قال ابن كثير : وَفِي هَذَا بِشَارَةٌ لِمُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِفَتْحِ مَكَّةَ مَعَ أَنَّ السُّورَةَ مكية، نَزَلَتْ قَبْلَ الْهِجْرَةِ وَكَذَلِكَ وَقَعَ فَإِنَّ أَهْلَ مَكَّةَ هَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ مِنْهَا ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ﴾ يَعْنِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ﴿جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ أَيْ: جَمِيعًا إِلَىٰ مَوْقِفِ الْقِيَامَةِ. وَاللَّفِيفُ: الْجَمْعُ الْكَثِيرُ إِذَا كَانُوا مُخْتَلِطِينَ مِنْ كُلِّ نَوْعٍ، يُقَالُ: لَفَّتِ الْجُيُوشُ إِذَا اخْتَلَطُوا وَجَمْعُ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ فِيهِمُ الْمُؤْمِنُ وَالْكَافِرُ وَالْبَرُّ وَالْفَاجِرُ. وَالْمَعْنَىٰ: أَنَّهُمْ يَخْرُجُونَ وَقْتَ الْحَشْرِ مِنَ الْقُبُورِ كَالْجَرَادِ المنتشر، مختلطين لا يتعارفون. وَقَالَ الْكَلْبِيُّ: فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ يَعْنِي مَجِيءَ عِيسَىٰ مِنَ السَّمَاءِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا أَيِ: النُّزَّاعُ مِنْ كُلِّ قوم من هنا وهنا لفوا جميعـًا.

[١٠٥] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ يَعْنِي الْقُرْآنَ، يَقُولُ تَعَالَىٰ مُخْبِرًا عَنْ كِتَابِهِ الْعَزِيزِ وَهُوَ الْقُرْآنُ الْمَجِيدُ، أَنَّهُ بِالْحَقِّ نَزَلَ، أَيْ مُتَضَمِّنًا لِلْحَقِّ، أَيْ مُتَضَمِّنًا عِلْمَ اللهِ الَّذِي أَرَادَ أَنْ يطلعكم عليه من أحكامه ونهيه، وَجْهُ التَّكْرار فِي قَوْلِهِ: ﴿وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مَعْنَىٰ الْأَوَّلِ: أَوْجَبْنَا إِنْزَالَهُ بِالْحَقِّ ، وَمَعْنَىٰ الثَّانِي: وَنَزَلَ وَفِيهِ الْحَقُّ، كَقَوْلِهِ خَرَجَ بِثِيَابِهِ، أَيْ وَعَلَيْهِ ثِيَابُهُ ، وَقِيلَ الْبَاءُ فِي ﴿وَبِالْحَقِّ﴾ الْأَوَّلُ بِمَعْنَىٰ مَعَ، أَيْ مَعَ الْحَقِّ، كَقَوْلِكَ رَكِبَ الْأَمِيرُ بِسَيْفِهِ أَيْ مَعَ سَيْفِهِ ، ﴿وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ أَيْ بِمُحَمَّدٍ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَيْ نَزَلَ عَلَيْهِ، كَمَا تَقُولُ نَزَلْتُ بِزَيْدٍ. وَقِيلَ: يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَىٰ وَبِالْحَقِّ قَدَّرْنَا أن ينزل، وكذلك نزل ، ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ﴾ أَيْ يَا مُحَمَّدُ ﴿إِلاَّ مُبَشِّراً وَنَذِيراً﴾ مُبَشِّرًا لِمَنْ أَطَاعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَنَذِيرًا لِمَنْ عصاك من الكافرين، وفي الحديث الصحيح عَنْ أَبِي شُرَيْحٍ الْخُزَاعِيِّ قَالَ : خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: « **أَبْشِرُوا وَأَبْشِرُوا أَلَيْسَ تَشْهَدُونَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ؟** قَالُوا: نَعَمْ ، قَالَ: **فَإِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ سَبَبٌ طَرَفُهُ بِيَدِ اللهِ وَطَرَفُهُ بِأَيْدِيكُمْ فَتَمَسَّكُوا بِهِ؛ فَإِنَّكُمْ لَنْ تَضِلُّوا وَلَنْ تَهْلَكُوا بَعْدَهُ أَبَدًا** »(١).

[١٠٦] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ ﴾ قيل: أَنْزَلْنَاهُ نُجُومًا لَمْ يَنْزِلْ مَرَّةً وَاحِدَةً، وَمَعْنَىٰ فَرَقْناهُ جَعَلْنَاهُ فَرْقًا، أَيْ أَنْزَلْنَاهُ مُنَجَّمًا مُفَرَّقًا غَيْرَ مُجْتَمِعٍ صَبْرَةً

---

(١) ابن حبان (١٢٢) والبزار (٣٩٥) .

وَاحِدَةً، يُقَالُ: فَرَّقَ الْأَشْيَاءَ إِذَا بَاعَدَ بَيْنَهَا، وَفَرَّقَ الصَّبْرَةَ إِذَا جَزَّأَهَا ، قَالَ ابن عباس: قَالَ: نزل الْقُرْآن إِلَىٰ سَمَاء الدُّنْيَا فِي لَيْلَة الْقدر من رَمَضَان جملَة وَاحِدَة فَكَانَ الْمُشْركُونَ إِذا أَحْدَثُوا شَيْئا أحدث الله لَهُم جَوَابا ففرقه الله فِي عشْرين سنة ، فَقَالَ الْمُشْركُونَ: لَوْلَا نزل عَلَيْهِ الْقُرْآن جملَة وَاحِد فَقَالَ الله ﴿كَذَلِك لنثبت بِهِ فُؤَادك﴾ [الْفرْقَان آيَة ٣٢] أَي نزلناه عَلَيْك مُتَفَرقًا ليَكُون عنْدك جَوَاب مَا يَسْأَلُونَك عَنهُ وَلَو أَنزَلْنَاهُ عَلَيْك جملَة وَاحِدَة ثمَّ سألوك لم يكن عنْدك جَوَاب مَا يسْأَلُون عَنهُ وَقَالَ الْحَسَنُ البصري: مَعْنَاهُ فَرَّقْنَا بِهِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ ،﴿لِتَقْرَأَهُ عَلَىٰ النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ﴾ أي: علىٰ تؤدة وَتَرَسُّلٍ فِي ثَلَاثٍ وَعِشْرِينَ سَنَةً، وقيل: علىٰ تَطَاوُلٍ فِي الْمُدَّةِ شيئا بعد شي، قال ابن عاشور: وَالْحِكْمَةُ فِي ذَلِكَ أَنْ تَكُونَ أَلْفَاظُهُ وَمَعَانِيهِ أَثْبَتَ فِي نُفُوسِ السَّامِعِينَ ، وَأخرج الْبَيْهَقِيّ فِي شعب الإِيمان عَن عمر رَضِي الله عَنهُ قَالَ: تعلمُوا الْقُرْآن خمس آيَات خمس آيَات فَإِن جِبْرِيل كَانَ ينزل بِالْقُرْآنِ علىٰ النَّبِي صلىٰ الله عَلَيْهِ وَسلم خمْسًا خمْسًا ﴿وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾ مُبَالَغَةٌ وَتَأْكِيدٌ بِالْمَصْدَرِ لِلْمَعْنَىٰ الْمُتَقَدِّمِ، أَيْ أَنْزَلْنَاهُ نَجْمًا بَعْدَ نَجْمٍ ، وَلَوْ أَخَذُوا بِجَمِيعِ الْفَرَائِضِ في وقت واحد لنفروا.

[١٠٧] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا﴾ يَعْنِي الْقُرْآنَ ، وَهَذَا مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ عَلَىٰ وَجْهِ التَّبْكِيتِ لَهُمْ وَالتَّهْدِيدِ لَا عَلَىٰ وَجْهِ التَّخْيِيرِ ، ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ﴾ أَيْ مِنْ قَبْلِ نُزُولِ الْقُرْآنِ وَخُرُوجِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُمْ مُؤْمِنُو أَهْلِ الْكِتَابِ، فِي قَوْلِ ابْنِ جُرَيْجٍ وَغَيْرِهِ، قال ابن عاشور :

أَمْثَالُ: وَرَقَةَ بْنِ نَوْفَلٍ، فَقَدْ تَسَامَعَ أَهْلُ مَكَّةَ بِشَهَادَتِهِ للنبيء صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَنْ آمَنَ بَعْدَ نُزُولِ هَذِهِ السُّورَةِ مِنْ مِثْلِ: عَبْدِ اللهِ بْنِ سَلَامٍ، وَمُعَيْقِيبٍ، وَسَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ، ﴿إِذا يُتْلىٰ عَلَيْهِمْ﴾ كِتَابُهُمْ ، وَقِيلَ القرآن، ﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقانِ سُجَّداً﴾ أَيْ: يَسْقُطُونَ عَلَىٰ الْأَذْقَانِ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَرَادَ بِهَا الْوُجُوهَ، وَالْخُرُورُ: سُقُوطُ الْجِسْمِ ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ [النحل : ٢٦] ، وَالْأَذْقَانُ: جَمْعُ الذَّقَنِ- بِفَتْحِ الذَّالِ وَفَتْحِ الْقَافِ- مُجْتَمَعُ اللَّحْيَيْنِ ، وَذَكَرَ الذَّقَنَ لِلدَّلَالَةِ عَلَىٰ تَمْكِينِهِمُ الْوُجُوهَ كُلَّهَا مِنَ الْأَرْضِ مِنْ قُوَّةِ الرَّغْبَةِ فِي السُّجُودِ لِمَا فِيهِ مِنِ اسْتِحْضَارِ الْخُضُوعِ لِلَّهِ تَعَالَىٰ. وَرَوَىٰ الْبُخَارِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « **أُمِرْتُ أَنْ أَسْجُدَ عَلَىٰ سَبْعَةِ أَعْظُمٍ عَلَىٰ الْجَبْهَةِ** - وَأَشَارَ بِيَدِهِ إِلَىٰ أَنْفِهِ - **وَالْيَدَيْنِ وَالرُّكْبَتَيْنِ وَأَطْرَافِ الْقَدَمَيْنِ**»(١).

[١٠٨] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَيَقُولُونَ سُبْحانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ أَيْ: كَائِنًا وَاقِعًا، قال القرطبي : دَلِيلٌ عَلَىٰ جَوَازِ التَّسْبِيحِ فِي السُّجُودِ، وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ وَغَيْرِهِ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: « **كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ فِي سجوده وركوعه: سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي**»(٢).

---

(١) البخاري (٣١٢) ومسلم (٤٩٠) .

(٢) البخاري (٨١٧) ومسلم (٤٨٤) .

[١٠٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ﴾ أَيْ: يَقَعُونَ عَلَىٰ الْوُجُوهِ يَبْكُونَ، الْبُكَاءُ مُسْتَحَبٌّ عِنْدَ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ،قَالَ الْحَسَنُ البصري: الْأَذْقَانُ عِبَارَةٌ عَنِ اللِّحَىٰ. أَيْ يَضَعُونَهَا عَلَىٰ الْأَرْضِ فِي حَالِ السُّجُودِ، وَهُوَ غَايَةُ التَّوَاضُعِ، قال القرطبي في الآية دَلِيلٌ عَلَىٰ جَوَازِ الْبُكَاءِ فِي الصَّلَاةِ مِنْ خَوْفِ اللهِ تَعَالَىٰ، أَوْ عَلَىٰ مَعْصِيَتِهِ فِي دِينِ اللهِ، وَأَنَّ ذَلِكَ لَا يَقْطَعُهَا وَلَا يَضُرُّهَا، عَنْ مُطَرِّفُ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ الشِّخِّيرِ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ يُصَلِّي وَلِجَوْفِهِ أَزِيزٌ كَأَزِيزِ الْمِرْجَلِ مِنَ الْبُكَاءِ ، وَفِي سنن أَبِي دَاوُدَ: وَفِي صَدْرِهِ أَزِيزٌ كَأَزِيزِ الرَّحَىٰ مِنَ الْبُكَاءِ[١]، ﴿وَيَزِيدُهُمْ﴾ نزول القرآن، ﴿خُشُوعًا﴾ خُضُوعًا لِرَبِّهِمْ، نَظِيرُهُ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ [مريم : ٥٨].

[١٠٩] قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ﴾ يَا مُحَمَّدُ لِهَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ الْمُنْكِرِينَ صِفَةَ الرَّحْمَةِ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، الْمَانِعِينَ مِنْ تَسْمِيَتِهِ بِالرَّحْمَنِ، ﴿ادْعُوا اللهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الحسنىٰ﴾ أي لا فرق بين دعائكم به بِاسْمِ ﴿اللهِ﴾ أَوْ بِاسْمِ ﴿الرَّحْمَنِ﴾ فَإِنَّهُ ذُو الأسماء الحسنىٰ، كما قال تعالىٰ: ﴿ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [الحشر : ٢٤] ، وَقَدْ رَوَىٰ مَكْحُولٌ : أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْمُشْرِكِينَ سَمِعَ النَّبِيَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ

(١) أحمد (١٦٣١١) وأبو داود (٩٠٤) .

يَقُولُ فِي سُجُودِهِ: «يَا رَحْمَنُ يَا رَحِيمُ»، فَقَالَ : إِنَّهُ يَزْعُمُ أَنَّهُ يَدْعُو وَاحِدًا وَهُوَ يَدْعُو اثْنَيْنِ فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الْآيَةَ، وَكَذَا رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَوَاهُمَا ابْنُ جَرِيرٍ ، أَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: نَزَلَتْ وَرَسُولُ اللهِ مُتَخَفٍّ بِمَكَّةَ، وَكَانَ إِذَا صَلَّىٰ بِأَصْحَابِهِ وَرَفَعَ صَوْتَهُ بِالْقُرْآنِ، فَكَانَ الْمُشْرِكُونَ إِذَا سَمِعُوا الْقُرْآنَ سَبُّوهُ وَمَنْ أَنْزَلَهُ وَمَنْ جَاءَ بِهِ فَنَزَلَتْ، وَأَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ أَيْضًا عَنْ عَائِشَةَ: أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي الدُّعَاءِ، وَأَخْرَجَ ابْنُ جَرِيرٍ مِثْلَهُ، ثُمَّ رَجَّحَ الْأَوَّلَ لِأَنَّهَا أَصَحُّ سَنَدًا، وَكَذَا رَجَّحَهَا النَّوَوِيُّ وَغَيْرُهُ. وَقَالَ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ: لَكِنْ يُحْتَمَلُ الْجَمْعُ بَيْنَهُمَا بِأَنَّهَا نَزَلَتْ فِي الدُّعَاءِ دَاخِلَ الصَّلَاةِ. وَأَخْرَجَ ابْنُ جَرِيرٍ وَالْحَاكِمُ عَنْ عَائِشَةَ: أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي التَّشَهُّدِ، وَهِيَ مُبَيِّنَةٌ لِمُرَادِهَا فِي الرِّوَايَةِ السَّابِقَةِ)، وَقَوْلُهُ: ﴿وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاَتِكَ﴾، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ورسول الله صلىٰ الله عليه وسلم مُتَوَارٍ بِمَكَّةَ، ﴿وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاَتِكَ وَلاَ تُخَافِتْ بِهَا﴾: قَالَ كَانَ إِذَا صَلَّىٰ بِأَصْحَابِهِ رَفَعَ صَوْتَهُ بِالْقُرْآنِ، فَلَمَّا سَمِعَ ذَلِكَ الْمُشْرِكُونَ سَبُّوا الْقُرْآنَ وَسَبُّوا مَنْ أَنْزَلَهُ وَمَنْ جَاءَ بِهِ، قَالَ، فَقَالَ اللهُ تَعَالَىٰ لِنَبِيِّهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاَتِكَ﴾: أَيْ بِقِرَاءَتِكَ فَيَسْمَعَ المشركون فيسبون الْقُرْآنَ، ﴿وَلاَ تُخَافِتْ بِهَا﴾ عَنْ أَصْحَابِكَ فَلَا تُسْمِعُهُمُ الْقُرْآنَ حَتَّىٰ يَأْخُذُوهُ عَنْكَ، ﴿وَابْتَغِ بَيْنَ ذلك سَبِيلاً﴾ وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا جَهَرَ بِالْقُرْآنِ وَهُوَ يُصَلِّي تَفَرَّقُوا عَنْهُ وَأَبَوْا أَنْ يَسْمَعُوا منه، وكان الرجل إذا أراد أن يسمع مِنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعْضَ مَا يَتْلُو وَهُوَ يُصَلِّي، اسْتَرَقَ السمع منهم

دونهم فرقًا منهم، فإذا رَأَىٰ أَنَّهُمْ قَدْ عَرَفُوا أَنَّهُ يَسْتَمِعُ ذَهَبَ خشية أذاهم فلم يسمع، فَإِنْ خَفَضَ صَوْتَهُ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يسمع الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ مِنْ قِرَاءَتِهِ شَيْئًا، فَأَنْزَلَ اللهُ ﴿وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاَتِكَ﴾ فَيَتَفَرَّقُوا عَنْكَ ﴿وَلاَ تُخَافِتْ بِهَا﴾ أي فلا يسمع من أراد أن يَسْمَعُ فَيَنْتَفِعَ بِهِ، ﴿وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً﴾. قال ابْنُ سِيرِينَ: نُبِّئْتُ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ كَانَ إِذَا صَلَّىٰ فَقَرَأَ خفض صَوْتَهُ، وَأَنَّ عُمَرَ كَانَ يَرْفَعُ صَوْتَهُ، فَقِيلَ لِأَبِي بَكْرٍ لِمَ تَصْنَعُ هَذَا؟ قَالَ: أُنَاجِي رَبِّي عزَّ وجلَّ وَقَدْ عَلِمَ حَاجَتِي، فَقِيلَ أَحْسَنْتَ، وَقِيلَ لِعُمَرَ: لِمَ تَصْنَعُ هَذَا؟ قَالَ: أَطْرُدُ الشَّيْطَانَ وَأُوقِظُ الْوَسْنَانَ، قِيلَ: أَحْسَنْتَ فَلَمَّا نَزَلَتْ: ﴿وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاَتِكَ وَلاَ تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً﴾ قِيلَ لِأَبِي بَكْرٍ: ارْفَعْ شَيْئًا، وَقِيلَ لِعُمَرَ: اخْفِضْ شَيْئًا. وَقَالَ عِكْرِمَةَ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: نَزَلَتْ فِي الدُّعَاءِ، قَالَ ابْنُ سِيرِينَ: كَانَ الْأَعْرَابُ يَجْهَرُونَ بِتَشَهُّدِهِمْ فَنَزَلَتِ الْآيَةُ فِي ذَلِكَ. قُلْتُ: وَعَلَىٰ هَذَا فَتَكُونُ الْآيَةُ مُتَضَمِّنَةٌ لِإِخْفَاءِ التَّشَهُّدِ، وَقَدْ قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: مِنَ السُّنَّةِ أَنْ تُخْفِيَ التَّشَهُّدَ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً﴾ لَمَّا أَثْبَتَ تَعَالَىٰ لِنَفْسِهِ الْكَرِيمَةِ الْأَسْمَاءَ الْحُسْنَىٰ نَزَّهَ نَفْسَهُ عَنِ النَّقَائِصِ، فَقَالَ: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾، بَلْ هُوَ اللهُ الْأَحَدُ الصَّمَدُ الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ، قَالَ الْحُسَيْنُ ابْنُ الْفَضْلِ: معناه الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي عَرَّفَنِي أَنَّهُ لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا، ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ﴾ أَيْ لَيْسَ بذليل فيحتاج إلىٰ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلِيٌّ، أَوْ وَزِيرٌ أَوْ مشير، بل هو تعالىٰ خالق الأشياء وحده لا شريك له،

ومدبرها ومقدرها بِمَشِيئَتِهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، قَالَ مُجَاهِدٌ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذل﴾: لم يحالف أحداً، ولم يبتغ نَصْرَ أَحَدٍ، وَقَالَ الْكَلْبِيُّ: لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَىٰ، لِأَنَّهُمْ أَذَلُّ النَّاسِ، رَدًّا لِقَوْلِهِمْ: نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ، وَقَالَ الْحَسَنُ بْنُ الْفَضْلِ: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ﴾ يَعْنِي لَمْ يَذِلَّ فَيَحْتَاجُ إِلَىٰ وَلِيٍّ وَلَا نَاصِرٍ لِعِزَّتِهِ وَكِبْرِيَائِهِ، وَالذُّلُّ: الْعَجْزُ وَالِافْتِقَارُ، وَهُوَ ضِدُّ الْعِزِّ، أَيْ لَيْسَ لَهُ نَاصِرٌ مِنْ أَجْلِ الذُّلِّ، ﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً﴾ أَيْ عَظِّمْهُ وَأَجِلَّهُ عما يقول الظالمون علواً كبيراً، وَقَالَ أمير المؤمنين عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: قَوْلُ الْعَبْدِ (اللهُ أَكْبَرُ) خير من الدنيا وما فيها.

تَمَّ تَفْسِيرُ سُورَةِ الْإِسْرَاءِ بِعَوْنِ اللهِ وَتَوْفِيقِهِ، وَوَاسِعِ مَنِّهِ وَكَرَمِهِ

الفهرس